
المؤتمر الدولي لتاريخ
بلاد الشام

مؤتمر بلاد الشام



الجامعة الأردنية



تاريخ بلاد الشام

من القرن السادس إلى القرن السابع عشر

الدار المتحدة للنشر

الطبعة الأولى

١٩٧٤

الجامعة الأردنيّة - عمّان - المملكة الأردنيّة الهاشميّة
والدار المتحدة للنشر - بيروت - ص.ب ٩٠٥٩-١١



المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام

ثبت كامل لأعمال المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام المنعقد
في الجامعة الأردنية

من ٢٨ ربيع أول — ٣ ربيع الثاني ١٣٩٤
الموافق ٢٠ نيسان — ٢٥ نيسان ١٩٧٤

هيئة التحرير

الأستاذ الدكتور عبد الكريم غرايبه
الجامعة الاردنية - عمان

الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري
الجامعة الاردنية - عمان

السيد عمر المدني
الدار المتحدة للنشر - بيروت



ترجمة شعار المؤتمر

مركز الوجه: صورة الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥هـ/٦٨٥م ـ ٨٦هـ/٧٠٥م) منتصب القامة ملتحيا مرتديا لباسا عربيا ويده اليمنى على مقبض سيفه.

الهامش: باتجاه عقارب الساعة من اليمين:

بسم الله لا اله الا الله وحده محمد رسول الله

ضرب: ٧٦هـ /٦٩٥م. الوزن: ٤٨ر٤غ. ن ق ٧٥ر٠

الظهر القطعة الاصلية: سارية فوق مصطبة من أربع درجات هي تحوير للشعار البيزنطي.

الهامش: بسم الله ضرب هذا الدينر سنة ست وسبعين.

المشاركون في المؤتمر
من الاقطار العربية

الدكتور كامل ابو جابر	الجامعة الاردنية	الأردن
الدكتور محمود ابو طالب	الجامعة الاردنية	الأردن
الاستاذ سعيد الافغاني	الجامعة الليبية	ليبيا
الدكتور محمد عدنان البخيت	الجامعة الاردنية	الأردن
السيد عبد الودود برغوث	متحف دمشق	سورية
الانسة سهام بلقر	دائرة الاثار العامة	الأردن
السيد غازي بيشه	دائرة الاثار العامة	الأردن
الدكتور عبد الهادي التازي	وزارة الخارجية	المغرب
الدكتور الحبيب الجنحاني	الجامعة التونسية	تونس
الدكتور محمد عبده حتامله	الجامعة الاردنية	الأردن
الدكتور عدنان الحديدي	الجامعة الاردنية	الأردن
الدكتور تاج السر احمد حران	جامعة الخرطوم	السودان
الدكتور صالح الحمارنه	الجامعة الاردنية	الأردن
السيدة سراب خطاب	المعهد الفرنسي العربي	سورية
الدكتور عوض خليفات	الجامعة الاردنية	الأردن
الدكتور عبد الامير دكسن	جامعة بغداد	العراق
الاستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري	الجامعة الاردنية	الأردن
الدكتور فوزي زيادين	دائرة الاثار العامة	الأردن
الدكتور خليل ساحلي اوغلو	جامعة استامبول	تركيا
الدكتور احمد الشبول	الجامعة الاردنية	الأردن
السيد بشير الصباغ	رئيس اللجنة التحضيرية للجمعية التاريخية الاردنية	الأردن

الاستاذ الدكتور كمال الصليبي	الجامعة الاميركية	لبنان
الدكتور فواز طوقان	الجامعة الاردنية	الأردن
السيد محمود العابدي	أمانة العاصمة	الأردن
الاستاذ الدكتور سعيد عاشور	جامعة القاهرة	مصر
الاستاذ محمد ابو الفرج العش	متحف دمشق	سورية
السيد يعقوب عويس	دائرة الاثار العامة	الأردن
المحامي عبد القادر عياش	دير الزور ـ سورية	سورية
الاستاذ الدكتور عبد الكريم غرايبه	الجامعة الاردنية	الأردن
الدكتور عبد الكريم كريم	جامعة محمد الخامس	المغرب
الدكتور علي محافظه	الجامعة الاردنية	الأردن
الدكتور أمين محمود	الجامعة الاردنية	الأردن
الاستاذ الدكتور شاكر مصطفى	جامعة الكويت	الكويت
الاستاذ الدكتور سري ناصر	الجامعة الاردنية	الأردن
الاستاذ الدكتور عادل العوا *	جامعة دمشق	سورية
الاستاذ الدكتور نقولا زيادة *	الجامعة الاميركية	لبنان

* ارسلا محاضرتيهما واعتذرا عن الحضور لاسباب قاهرة.

المشاركون في المؤتمر

من أقطار غير عربية

Prof. Agwani
Jawaharlal Nehru University,
India.

Dr. George N. Atiyeh
Head, Near Eaxt Section,
Library of Congress,
Washington, D.C.
U.S.A.

Prof. C.E. Bosworth
University of Manchester,
England.

Mr. Michel H. Burgoyne
British School of Archeology
Jerusalem — Jordan

Dr. Klaus Brisch
Museum of Islamic Art,
Berlin, W. Germany.

Mr. Michel H. Burgoyne
British School of Archeology
Jerusalem — Jordan

Dr. Yolande Crowe
London.

Dr. Abol Hassan Dehkan
Pahlavi University,
Dhiraz, Iran.

Prof. Nekita Elisseeff
University of Lyon II, Lyon,
France.

Dr. S. Van Eldrin
American School of
Oriental Research
Amman — Jordan

Prof. Oleg Grabar
Harvard University
U.S.A.

Dr. Sami Hamarneh
Dept. of Science Technology,
Smithsonian Institute,
Washington, D.C.
U.S.A.

Dr. Emin Haspolot
Public Administration,
Hacettepe, University of
Turkey, Ankara.

Prof. Joan M. Hussey
Royal Holloway College,
University of London,
England.

Prof. Dr. W. Hutteroth
Universitat Erlangen-Nurnbery,
W. Germany.

Dr. Bayram Kodaman
Department of History,
Hacettepe, University,
Turkey, Ankara.

Prof. Dr. Ercumend Kuran
Hacettepe University,

Ankara, Turkey.

Prof. T. Lewicki
University of Cracow,
Poland.

Prof. Bernard Lewis
School of Oriental
and African Studies,
University of London, England.

Dr. Hassan Machad
Iran

Prof. A. Miquel
Universite de la Sorbonne
Nouvelle,
(Paris III),
France.

Prof. Frank E. Peters
New York University,
U.S.A.

Dr. Mehmet Saglam
Public Administration,
Hacettepe University, Ankara,
Turkey.

Dr. Halil Sahilli Oglu
Iktisat Fakutesi
Turk Iktisat Tarihi Enstitusu,
Instanbul, Turkey.

Prof. Hakim Said
Hamdard National Foundation,
Nazimabad, Karachi-18
(Pakistan)

Prof. Avedis. K. Sanjian
University of California,
Los Angeles,
U.S.A.

Prof. Tsugitaka Sato
The Institute of Oriental Culture,
Tokyo University, Japan.

Prof. Irfan Shahid
Georgetown University,
Washington, D.C.
U.S.A.

Dr. S.J. Shahidi
Tehran University,
Iran

Prof. Mme Solange Ory
Faculte de Lettres
Aix-en Provence,
France

Prof. Emel Sonmez
Dean of Faculty of Social and
Administration Sciences, Hacetteppe
University, Ankara
Turkey

Prof. Dominique Sourdel
University of Bordeaux,
France

Mme. J. Sourdel-Thomine
University of Paris, Sorbonne
Paris

Prof. Berthold Spuler
Orientalisches Institut,
Des Universitat, Hamburg,
W. Germany.

Prof. J. Van Ess
University of Tubingen.
Tubingen, W. Germany.

Mr. Archibald G. Walls
British School of Archaeology,
Jerusalem, Jordan

Prof. Mathias Zahniser
Religious Studies Central Michi-
gan,
University of Michigan,
U.S.A.

افتتاح المؤتمر

كلمة

حضرة صاحب الجلالة الملك الحسين المعظم

في افتتاح المؤتمر

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها السادة الأفاضل،

يسرني أن أرحب بهذا الرهط الجليل من العلماء والأساتذة يجتمعون في هذه العاصمة الأردنية لأول تجمع لهم في الوطن العربي .. ليتناولوا بالبحث والمذاكرة العلم والتقدم والحضارة في بلاد الشام على مدى عشرة القرون الأولى من ظهور الاسلام، وهنا أيها السادة حيث يستقبلكم الحاضر بمظاهره المتحركة والماضي بآثاره الحية إنما تنزلون في أرض هي للمؤرخ مشعل التاريخ ومناره، وبين شعب تحدرت إليه الحضارة من أعرق أصلابه. بل تنزلون في موطن ركزت فيه أول سرايا الاسلام أعلامها وارتسمت في كل صفحة منه آثار تقدم خطى الإنسان.

ولئن كان هذا مما نفخر به ونعتز فإننا لا نقبل ولا نرضى أن نكون عالة على تاريخنا أو عبئًا على أمجاد أسلافنا .. كما لا نقبل ولا نرضى أن يكون هذا التاريخ عبئًا علينا أو قيدًا لنا. هكذا كنا في مسيرتنا عبر الزمان مع ركب الحياة .. لم نقبع أو ننطو على حقد أو تعصب لجنس أو دين أو لغة. لقد أوجدنا ما كان غائبًا وأكملنا ما كان ناقصًا وأحيينا ما كان مندثرًا وطلعنا على بني الانسان بالمحبة والخير والعطاء دون تمييز أو تفريق غايتنا أن نهتدي إلى الحق المطلق في هذا الكون لتنتظم حوله الخلائق والشعوب.

ومن هذه النظرة الانسانية الجامعة استقر الانسان العربي على أرضه طيلة الأزمنة الخوالي وهو يبذل جهودًا جبارة لقهر قوى الطبيعة وتسخير مواردها لخدمة الانسان وإسعاده. ودعم العربي طاقات

الانسان في الخلق والابداع وفي تذوق الجمال من أجل أن تحيا البشرية
حياة أفضل وأسعد وأجمل وأرغد ولتحل المحبة والتعاون
والاخاء محل الكراهية والتنافر والبغضاء .

لقد أسعدتني مبادرة الجامعة الأردنية الخيرة لاتاحة الفرصة
لهذا العدد الكبير من العلماء والمؤرخين الذين قدموا من خمسين جامعة
ومعهداً في العالم للاجتماع في بلدنا . ورأينا في هذا التجمع المبارك دعوة
للتعاون والتفاهم والالفة بين علماء الأرض ، دعوة للخير والحق لا
يقيدها وهم أو حقد أو أنانية أو خوف . ذلك أن هناك بين الناس
من أساء فهم التاريخ واستخدامه فجعل منه أداة لنشر المنازعات
والصراعات بين الدول والشعوب وإثارة البغضاء ونذير تهديد
ووعيد . وأنتم أيها السادة العلماء أجدر من يجلو في التاريخ
حقيقته الكبرى وهي أن التاريخ دعامة أساسية تجمع بين الأمم
وضعها الانسان الأول لخدمة بني الانسان ، ووسيلة تعاون
وتقارب ومحبة طبيعتها النمو والتقدم والازدهار .

غير أن من المفارقات أن تجدوا هنا في ديارنا حيث
ترعرع التاريخ وازدهر .. عدوانا على التاريخ في جوهره
وفي رسالته ، عدوانا على الأمن والاستقرار والتقدم
والحضارة .. وعدوانا على الحق والعدل والمبدأ .. بل
عدوانا على الحياة بأوسع معانيها .

فمنذ أكثر من ربع قرن .. ونحن في أردننا الجريح وفي هذا
الجزء من الوطن العربي نعاني مأساة لم تعانها أمة من الأمم
في تاريخ الانسانية قديماً وحديثاً على السواء . فقد تهددنا
العدوان المسلح نحن واخوتنا في مصر وسورية واحتل أرضنا
واستهدف كياننا بعد أن غزا الشعب العربي الفلسطيني

في عقر داره واغتصب أرضه واستباح حقه. وعبث بحضارتنا القومية ومقدساتنا الدينية. وأراد هذا العدوان أن ينحرف بتاريخنا عن اتجاهه الطويل إلى مسار آخر غريب عن أصالة ونشأته وبيئته متنكراً لها كلها.. وأن يطمس ويغير الحقيقة فكان حينه أن أدخل المنطقة كلها في أتون من الحرب والقتل والنار والدمار سيظل لهيبها مشتعلاً حتى يعود الحق إلى نصابه والعدل إلى محرابه.. فليستأنف أهلنا مسيرة الحياة في أمن وسلام ينشئون ويزرعون.. كما فعلوا أول مرة

وإننا ونحن نتطلع إلى المستقبل بروح الثقة والأمل... وبإيمان لا يهزه الشك في أن الخير هو الأصل.. وأن السلام هو كلمة الله تعالى لعباده وأن البقاء للمحبة بين الناس نحن إذ نتطلع إلى هذا فإنما نجد فيكم أيها السادة العلماء الأفاضل وفي اجتماعكم المبارك هذا أهلاً ومحلاً لتقوية الأواصر بين الشعوب والأقطار بتوحيد الجهود والطاقات عن طريق الخير والحق وربط الماضي بالحاضر والمستقبل. فيدرك الإنسان بهذا أنه يعيش في نفسه وفي أولاده وأحفاده من بعده.

وفقكم الله وسدد خطاكم ويسر لكم أعمالكم
وأهلاً بكم ومرحباً في كل منزل ومكان.
والسلام عليكم ورحمة الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة رئيس المؤتمر
صاحب السمو الملكي الأمير حسن ولي العهد

سيدي صاحب الجلالة الملك المعظم، أيها السيدات والسادة:

يسعدني ان ارحب في الجامعة الاردنية بهذا الحشد الكبير من العلماء والمؤرخين من عرب وأجانب وأرجو الله العلي القدير التوفيق لهم ولنا في انجاح هذا المؤتمر التاريخي الاول من نوعه في هذه المنطقة .

لقد لعبت بلاد الشام بحكم موقعها الجغرافي دورا حضاريا بارزا في الوصل بين الشعوب الاسلامية من جهة وغير الاسلامية في بلدان حوض البحر الابيض المتوسط من جهة اخرى ، وعرفت خلال الفترة الممتدة من القرن السادس الى القرن السابع عشر الميلاديين موجات بشرية مختلفة ومتعددة من جميع اطراف المعمورة المعروفة انذاك .. وانصهر معظمها في بوتقة الحضارة العربية في بلاد الشام ومن رفض منها التكيف والانصهار لفظته هذه البلاد .

وفي مطلع هذه الفترة الزمنية التي يتناولها الباحثون في مؤتمرنا هذا انطلقت الدعوة الاسلامية من بطاح مكة المكرمة ورحاب المدينة المنورة لتحدد هوية هذه البلاد الى الابد عربية اسلامية متسامحة ومتعايشة مع الديانتين السماويتين اللتين سبقتاها . وقد ساهمت هذه الديانات جميعا وبقية الحضارات التي سبقت ظهور الاسلام وتلته في تكوين انسان هذه البلاد وتركت بدون شك اثارا عميقة عليه .

وعلى الرغم من اهمية بلاد الشام ودورها البارز في تاريخ الشعوب الاسلامية وتاريخ حوض البحر الابيض المتوسط فانها لم تجد من المؤرخين ما تستحقه من العناية والدراسة . واحساسا من القائمين على هذا المؤتمر بأهميتها فقد ركزوا الاهتمام حول قضايا اساسية في تاريخها تتناول الجوانب الاقتصادية والادارية والسكانية والفكرية والثقافية والجمالية والتاريخ السياسي بشكل عام . ونظرا لما للمصادر المختلفة من عربية واسلامية وأجنبية من اهمية كبرى في تفهم تاريخ هذه البلاد فان عناية خاصة قد وجهت لها . وان المقصود من هذا المؤتمر ان يكون بداية سلسلة من المؤتمرات العلمية الموضوعية تتناول تاريخ هذه البلاد في مختلف الحقب التاريخية من مختلف الجوانب .

سيدي صاحب الجلالة ..

في الوقت الذي يسعدني فيه ان ارحب بهؤلاء العلماء الافاضل ، فانني علي يقين ان ابحاثهم ومحاوراتهم وما سيدور من نقاش سيساعد على تعميق اواصر المحبة والتفاهم القائم على الاحترام المتبادل بين شعوب هذه البلاد الاصيلة منها وبقية شعوب العالم . ولعلني لا احيد عن الحقيقة اذ قلت ان ابحاثهم ستظهر ان العلاقات الودية والايجابية البناءة التي ربطت اهالي بلاد الشام مع بقية الشعوب العربية والاسلامية والشعوب المعروفة انذاك ، كانت اعمق واسمى واخلد وأشمل من بعض الفترات التي ابرزت فيها الجوانب السلبية .

واننا لنأمل من هذا المؤتمر العتيد ان يساهم في تعميق منهج البحث العلمي الحديث في انماط التفكير الحضاري في العالم اجمع .

صاحب الجلالة

وادراكا من الجامعة الاردنية التي نمت بفضل رعايتكم لها للمسؤولية الملقاة على عاتقها في دراسة تاريخ بلاد الشام ، فقد اسست مركزا للتوثيق والدراسات التاريخية . وشرع هذا المركز يجمع الوثائق الحكومية الاردنية والعثمانية بالاضافة الى مختلف الوثائق والسجلات والمخطوطات والروايات الشفوية والمذكرات المتعلقة بتاريخ هذه البلاد لتكون جميعها في تناول الباحثين من عرب وأجانب وبالتالي يساهم الاردن بقسطه من البحث العلمي ..

سيدي صاحب الجلالة ..

يسعدني ان ارحب بكم وبالضيوف الكرام مرة اخرى والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

دعت الجامعة الاردنية قبل عام عددا كبيرا من المختصين بأحوال بلاد الشام الى عقد اجتماع في عمان يناقشون فيه دراسات عن بلاد الشام خلال الالف سنة الاولى من تاريخها الاسلامي . ولبى الدعوة أكثر من سبعين عالمة وعالما يمثلون ثلاثة وعشرين بلدا ينتمون الى ستين جامعة او مؤسسة علمية عالية .

وحددت الدعوة الاولى اهداف المؤتمر وهي جمع « الباحثين من بلاد مختلفة ليقدموا دراسات عن مختلف التطورات التاريخية والحضارية لبلاد الشام » . واقترح على المدعوين تقديم بحوث في واحد من الحقول الستة المحددة : أفرد حقلان للمصادر والجغرافيا وثالث لاستعراض ما وصلت اليه الدراسات عن بلاد الشام ، كما تركزت الحقوول الثلاثة الاخرى حول التطور الثقافي والاقتصادي والاداري والاجتماعي مع ما يتبع كلا منها من مؤسسات . ولم ينل التاريخ السياسي دورا بارزا في مخططات المؤتمر .

وأكثر المشتركين في المؤتمر هم من غير العرب جاءوا لدراسة الاحوال التاريخية لبلد عربي . ولم يكن ذلك من قبيل الصدفة ولا كان جريا وراء الدعاية والشهرة في الاوساط الاجنبية . اذ لم يساور القائمين على المؤتمر قط شك بمقدرة الزملاء العرب على المشاركة بصورة جدية وبكفاءة عالية . ولكن عالمية تاريخ بلاد الشام وانسانيته اوجبتا اشراك ممثلين لاكبر عدد من الجامعات والمؤسسات العلمية في العالم فبدا عدد العرب بسبب ذلك قليلا نسبيا .

تميزت اوضاع بلاد الشام باللااقليمية في تاريخها اذ تاثرت بما حدث في الاقطار المجاورة والقريبة وأثرت فيها . فكانت ميدانا للصراع بين البيزنطيين والفرس قبيل مجيء المسلمين . وبعد سنوات من انتهاء ذلك الصراع كانت بلاد الشام اول بلد يتم تحريره على يد العرب المسلمين لتصبح بعد ربع قرن مركزا للامويين الذين اقاموا اضخم دولة عربية في التاريخ . ولكنها بقيت بلد حدود لا تبعد الجيوش المعادية اكثر من اربعماية كيلومتر عن عاصمتها دمشق . وتعرضت مدن الشمال طوال العهد العباسي للتهديدات البيزنطية . وما ان ضعفت هذه التهديدات حتى حل محلها اخطار اكبر كالغزوات الافرنجية الصليبية وغارات المغول . وازدادت علاقاتها وثوقا بمصر واتحدتا في المصير خلال النصف الثاني من الفترة موضوع الدراسة . وحدث فيها تطور هام في العهد العثماني اذ لاول مرة في تاريخ بلاد الشام ، لم تعد بلد حدود . فخضعت هي وجميع جيرانها لحكم

العثمانيين . وهكذا فأن لا اقليمية تاريخها لم تعن ابدا انها بدون تاريخ بل كان تاريخها تاريخا لجيرانها ولقسم من العالم المتمدن .

ويدرك القائمون على المؤتمر اهمية التاريخ كعامل اساسي في التقارب او التباعد بين الشعوب . واجتمع في عمان علماء من عدد من الامم لجعل التاريخ اداة تعاون ومحبة وسلام . وتاريخ بلاد الشام كله ، بجميع صفحاته السوداء والبيضاء ، ملك لاهل بلاد الشام وللانسانية جمعاء . ولم يصب احد في هذا البلد بداء الاعتقاد بأن شعبه شعب الله المختار او أنه افضل أو اسواء من اي شعب اخر ، أو انه احق بالحياة والسعادة من غيره من الشعوب . ومع ان اهل بلاد الشام عانوا في تاريخهم الطويل من اعتداءات الشعوب الاخرى ومطامعها وغرورها الا انهم لا يتمنون الاذى لمن اذاهم وبقي هدفهم ثابتا وهو أن يعيشوا سعداء أمنين في بلدهم وأن تعم السعادة والسلام شعوب الارض قاطبة . وتاريخ بلاد الشام دليل واضح على ان الشر والاعتداء لا يقدر لهما الدوام وأن الخير هو العنصر الدائم الوحيد .

ونغتنم فرصة انعقاد المؤتمر لندعو مؤرخي وكتاب البلاد العربية وايران وتركيا لتنسيق جهودهم التاريخية ووضع مرجع لتاريخ الاسلام والمسلمين يبنى على العلم والمحبة والتعاون . وقد توجهنا بهذا النداء للشعوب الاسلامية لان علماء المسلمين كانوا اول من توجس خيفة من شرور التلاعب بالتاريخ . واستفتي السادة العلماء في مؤرخ يذكر الناس على ما يعلم من خير وشر وقد لامه بعضهم فقال : « الرواية عن حرام حرام » واعترض عليه معترض فقال : « هذا غيبة لا تحل » . فأفتى العلماء بأن التاريخ فرض كفاية ونصيحة يثاب فاعلها اذا صدقت واستقامت طريقته وكان متجردا لا يغلبه الهوى . وهذا هو طريقنا وطريق السادة الافاضل الذين لبوا دعوتنا للاجتماع معنا في عمان لنؤدي الغرض ونمحض النصح والله الموفق .

عبد الكريم غرايبه

رئيس اللجنة التحضيرية للمؤتمر

توصيات المؤتمر

عقد المؤتمر الاول لتاريخ بلاد الشام وهي تمر بمرحلة من اخطر وأمر مراحل تاريخها الحافل بالاحداث والتطورات. وأن هذه البلاد التي قدمت الكثير عبر تاريخها الطويل من أجل السلام وتحقيق رفاهية الانسان وبناء الحضارة وتطورها وازدهارها، يعاني اهلها مرة اخرى من حالة فقدان السلام التي تعيق مسيرتهم وتعرقل نهوضهم بدورهم التاريخي التقليدي المبدع.

واستغرق المؤتمر اسبوعا كاملا، وبعد الاستماع الى المحاضرات والمناقشات والاراء المعروضة رأى المؤتمرون تقديم التوصيات التالية: ـ

١ ـ يقدم اعضاء المؤتمر شكرهم وتقديرهم باسم بلدانهم وجامعاتهم ومؤسساتهم الى صاحب الجلالة الملك الحسين على رعايته الكريمة لهذا المؤتمر ويعربون عن شكرهم لسمو رئيس المؤتمر الامير حسن لرئاسته ومشاركته الايجابية في انجاح هذا المؤتمر. كما يقدم اعضاء المؤتمر شكرهم للحكومة الاردنية وكافة الوزارات والمؤسسات على ما قدمته من عون ومساعدة، ويعربون عن شكرهم الخاص للجامعة الاردنية، رئيسها وسائر افراد الاسرة الجامعية.

٢ ـ الدعوة الى تدعيم روح البحث العلمي، وشجب سائر المحاولات التي تتخذ من التاريخ وسيلة للعدوان على الشعوب وتشريدها.

٣ ـ دعوة الاساتذة والمفكرين في العالم العربي للعناية بكتابة تاريخ بلاد الشام بشكل موضوعي حيث أن ابحاث المؤتمر ومناقشاته اظهرت ان تاريخ هذه البلاد لم يكتب حتى الان. ويرجو المؤتمر ان تدعم الحكومات والمؤسسات مثل هذه الجهود.

٤ ـ وضع أطلس تاريخي مفصل حسب الفترات لبلاد الشام وفق احدث الاساليب الجغرافية.

٥ ـ وضع موسوعة طوبوغرافية مع تحقيق كافة الاسماء والمواقع بصورة دقيقة شاملة.

٦ ـ نشر الرحلات المتعلقة ببلاد الشام، المخطوط منها أو المنشور بصورة غير علمية، مع دراسة نقدية وعناية بالنواحي الاثرية في كل حالة لبيان الدلالة الحضارية للرحلة.

٧ ـ وضع كشاف لجميع النقوش والصور التاريخية التي تتصل ببلاد الشام ما وجد منها على الابنية او في المتاحف او في الكتب او المخطوطات عبر العصور.

٨ ـ دعوة الجامعات والمؤسسات في الاقطار العربية والاسلامية للتعاون على انشاء مراكز للتوثيق تجمع فيها الكتب والمخطوطات والوثائق او صورها ليتسنى للباحثين تدوين التاريخ تدوينا دقيقا وامينا ويامل المؤتمر ان تعضد الحكومات ذلك.

٩ ـ ان نتائج هذا المؤتمر اقامت الدليل على أهمية عقد مثل هذه الندوات العلمية ولذا نحث مؤسسات البحث العلمي والجامعات في العالم العربي على عقد مؤتمرات دورية من هذا النوع.

المحاضرات

العرب والأرض في بلاد الشام في صدر الإسلام

عبد العزيز الدوري
قسم التاريخ والاثار الجامعة الاردنيه

قد يرجع وجود العرب في أطراف الشام الى أوائل الألف الاول قبل الميلاد وازداد بصورة متزايدة منذ القرن الثالث حتى ظهور الاسلام[١] . وكان تغلغلهم من الجهة الشمالية الغربية لبادية الشام ومن الجهة الجنوبية الغربية منها ، ويتبين ذلك في مواطن القبائل قبل الاسلام . كانت غسان في منطقة دمشق وحوران ، وقضاعة في جهة البلقاء وجنوبي شرق الاردن ، وتنوخ في منطقة قنسرين وحلب وبجوارهم سليح وبعض طي ، وكانت لخم وجذام في جنوبي الاردن وفلسطين . وكانت كلب في تدمر ، وفي البادية الى الجنوب الشرقي من الشام[٢] . وهكذا يتبين أن القبائل انتشرت في المناطق المجاورة للبادية من بلاد الشام على هيئة هلال يمتد من الجنوب الى الشمال الغربي والشمال ، وجلها قبائل يمانية . وهذا الانتشار يعطي فكرة عن مدى تعرب سورية قبل الاسلام .

وفي الجزيرة الفراتية كانت تغلب بين الفرات والخابور والى شرقه[٣] . كما كانت ربيعة الى الشمال الشرقي منها[٤] .

وجاءت قبائل جديدة اثناء عملية الفتح وبصورة خاصة بعد اليرموك . وكان القادمون يمانية بالدرجة الاولى من حمير ومذحج وهمدان وطي والازد ، كما جاءت قبائل قيسية[٥] ولحق بها قوم من البوادي من قيس وانضموا الى المقاتلة[٦] . وكانت الهجرة الى الشام أوسع بعد اليرموك مما مكن من ارسال القوات لفتح مصر والجزيرة .

وكانت مركز التجمع الاول للمقاتلة في الجابية من حوران ، حوالي ٨٠ كم جنوب دمشق وهي على طرف البادية كالكوفة والبصرة ولكن طبيعة البلاد والتراث الادارى والضرورات العسكرية اضافة الى انتشار القبائل وتنظيم توطينها أدت الى اتخاذ مراكز رئيسية للمقاتلة وهي الاجناد في حمص وقنسرين ودمشق وطبرية ، واللد . ثم تطورت الاجناد لتتخذ معنى اداريا وجغرافيا ، اضافة الى ما يلاحظ من غلبةمجموعة قبلية رئيسية في بعض الاجناد[٧] . ووضعت حاميات في المدن الساحلية مثل قيسارية وصيدا وعسقلان وجبيل وبيروت ، مع توطينها بمنحها الاراضيِ من ايام عمر وعثمان[٨] .

ويفهم من البلاذرى أن البعض من القبائل اليمانية الموجودة في الشام من قبل اسلمت بعد الفتح بقليل كما حصل لاكثر تنوخ في حاضر قنسرين ولطي ، وكذا لتنوخ وغيرهم في حاضر مدينة حلب[٩] ، وحصل ذلك للخم وجذام وتعاونوا مع الفاتحين[١٠] حتى انهم طالبوا بالعطاء مثلهم[١١] بينما بقي البعض على دينه مثل سليح[٩] .

ويفهم من البلاذرى أن البعض من القبائل اليمانية الموجودة في الشام من قبل اسلمت بعد الفتح بقليل كما حصل لاكثر تنوخ في حاضر قنسرين ولطي ، وكذا لتنوخ وغيرهم في حاضر مدينة حلب[٩] ، وحصل ذلك للخم وجذام وتعاونوا مع الفاتحين[١٠] حتى انهم طالبوا بالعطاء مثلهم[١١] بينما بقي البعض على دينه مثل سليح[٩] .

وفي مطلع الفترة الاموية استقر توزيع القبائل في الشام بصورة عامة ، لنرى نفس الصورة في أيام عبد الملك بن مروان وبعده من حيث الاساس[١٢] .

ففي جند قنسرين كانت تنوخ بحاضر قنسرين وحاضر حلب ، وامتدت الى جهة بالس على الفرات[١٣] . وفي مدينة قنسرين كانت تغلب والاكثرية قيسية من كلاب وغيرهم[١٤] وصارت قرقيسيا المركز الاول لقيس[١٥] . وكانت طي في المنطقة اضافة الى سليح[١٦] . وترد الاشارة الى أسد وكلب في حلب زمن المكتفي اضافة الى اليمن وتميم[١٧] .

وكانت حمص من مراكز اليمانية وفيها قضاعة وكندة[١٨] وطي وتنوخ[١٩] وحمير وكلب واقلية من اياد وقيس[٢٠] .

وفي جند دمشق كانت غسان القبيلة الاولى ، وفيه قضاعة وكندة وقيس[٢١] . وترد الاشارة الى قيس (وأكثرهم بنو مرة) في الجولان ، وفي مركزها بصرى مع قليل من كلب واليمن[٢٢] . وفي جبل سنير بنو ضبة ، وبه قوم من كلب[٢٣] . وكانت تدمر الى الشمال الشرقي مركز كلب (المدر)[٢٤] .

اما جند الاردن ففيه قضاعة (كلب) ، وهمدان ، وغسان ومذحج ، وفيه خثعم . وكانت قضاعة هي الغالبة في الأردن والبلقاء[٢٥] .

وفي جند فلسطين استقرت لخم وجذام وكنانة وقيس وعاملة (ولها جبل باسمها مدسي ص ١٦٢) وبلقين وكندة ، وقليل من كلب[٢٦] . وترد الاشارة الى جذام في كورة بيت جبرين[٢٧] وفي رفح ومعهم لخم[٢٨] .

وفتحت الجزيرة من جهة الشام ، وجل الفاتحين قيسية . وكانت فيها تغلب التي توسعت الى شرق الخابور حتى دجلة ، وامتدت ديارها على الفرات الى عانات وتمت عملية توطين واسعة في الجزيرة اذ انزل معاوية بني تميم واخلاطامن قيس واسد في ديار مضر (غرب الخابور) . ويبدو انه اعطى ربيعة التي توسعت بعد الفتح اراضي جديدة[٢٩] . وانزل عياض العرب سنجار[٣٠] .

وترد الاشارة الى قبائل قيسية اخرى مثل بني عامر ، وسليم وذبيان[٣١] واخلاط من قيس وفزارة[٣٢] كما ان هناك النمر بن قاسط[٣٣] .

ويلاحظ مما مر ان القبائل التي كانت في الشام قبل الاسلام استمرت متركزة في مواطنها القديمة ، وانتشرت الى الاراضي المجاورة بتزايد اعدادها . كما ان اليمانية بقوا الغالبين في بلاد الشام ، وان جل القيسية توطنوا في جهات قنسرين وفي الجزيرة ، بينما بقيت تغلب وربيعة متركزة في مواطنها الاولى . ولعل هذا يساعد على فهم حالة الاستقرار في الشام بالمقارنة بالعراق ومصر في الفترة الاسلامية الاولى .

وكانت هجرة القبائل الى الشام والجزيرة هجرة استيطانية ، اذا ان القبائل المهاجرة اعطيت اراضي للزراعة والرعي ، كما ان القبائل القديمة بدورها اعطيت اراضي جديدة . وكان ذلك لاعتبارات اقتصادية او استراتيجية . ومع قلة المعلومات المتوفرة ، فان ما وصل يكفي للدلالة على ان هذه الاراضي كانت اراضي خالية في اماكن نائية او استراتيجية ، او انها اراضي جلا عنها اهلها نتيجة ظروف الفتح ، او من الارض الموات . ويعبر ابو حفص الشامي عن ذلك بوضوح حين يقول : « كل عشرى بالشام فهو مما جلا عنه اهله فاقطعه المسلمون فأحيوه (أو) كان مواتا لاحق لاحد فيه فأحيوه باذن الامام »[٣٤] . ويصدق ذلك على الجزيرة . يقول البلاذرى « سألت المشايخ عن أعشار بلد ديار ربيعة والبرية فقال هي اعشار ما اسلمت عليه العرب ، او عمرت من الموات الذي ليس في يد احد او رفضه النصارى فمات وغلب عليه الدغل فأقطعه العرب »[٣٥] . ويورد البلاذرى رواية اكثر تفصيلا عن الاقطاع الاستيطاني للقبائل تشعر بأنه كان سياسة مرسومة من ايام الراشدين . فقد أمر عثمان معاوية امير الشام والجزيرة « ان ينزل العرب بمواضع نائية من المدن والقرى ويأذن لهم في اعتمال الارضين التي لا

حق فيها لاحد » وكان من اثر هذا الامر ان انزل معاوية بني تميم الرابية ، كما انزل المازحين والمديبر اخلاطا من قيس وأسد وغيرهم ، « وفعل ذلك في جميع نواحي ديار مضر (غرب الخابور) ورتب ربيعة في ديارها على ذلك »[٣٦] . ومن امثلة هذا الاقطاع الاستيطاني اقطاع اراضي واسعة في راس العين للقبائل بعد ان جلا كثير من اهلها[٣٧] . كما اعطيت القبائل اراضي في منطقة الرها[٣٨] . وجلا أكثر اهالي بالس وقاصرين والقرى القريبة على الفرات ، فأقطعها ابو عبيدة لجماعة من المقاتلة ، واسكنها قوما من العرب الذين كانوا بالشام من قبل واسلموا بعيد الفتح ، وقوما نزعوا من البوادي من قيس ولم يكونوا من المقاتلة[٣٩] .

واتبعت نفس السياسة التوطينية على السواحل السورية لاعتبارات ستراتيجية وبشرية . فقد اصدر عثمان تعليمات الى معاوية « يأمره بتحصين السواحل وشحنها واقطاع من ينزله اياها قطائع ففعل »[٤٠] ومن ذلك اقطاع المقاتلة القطائع في انطاكية ، ومنح عبد الملك المقاتلة قطائع جديدة في نفس المنطقة[٤١] . ومنح معاوية الاراضي للحامية في انطرسوس ، وفي مرقية وبلنياس[٤٢] . واسكن حبيب بن مسلمة الفهرى في زمن عثمان الفين من المقاتلة في قاليقلا « وأقطعهم بها القطائع » وجعلهم رابطة بها[٤٣] .

ويلاحظ ان الخلافة شجعت الهجرة الى الامصار في الفترة الاسلامية الاولى، واعتبرت ذلك اساس الخروج من الاعرابية والانتماء الكلي للامة كما تتطلب التعبئة للجهاد[٤٤] . وكان كل مهاجر يسجل في الديوان ويأخذ العطاء والرزق . وكانوا ينصحون بتربية الماشية ، ولكن زراعة الارض تركت للفلاحين واهل القرى ، ولما كانت الارض لا تدفع الا العشر فالمجال واسع لاعطاء الارض للفلاحين بالمزارعة او بنسبة من الحاصل .

ويبدو ان بلاد الشام لم تشهد التوتر بين السلطة والقبائل على الارض (خاصة الصوافي) او على واردها كما نرى في العراق وذلك يعود الى توزيع القبائل على اربعة / خمسة اجناد والى منحها الاراضي ، كما يعود الى سياسة الامويين تجاه الصوافي وأية اراضي دون مالك .

اعتبر العرب اراضي النبلاء الذين قتلوا او هربوا ، وكذا كل ارض قتل اصحابها او جلوا صوافي[٤٥] . وافادوا من هذه لمنح الاقطاعات لتوطين القبائل وخاصة في الفترة الاولى ، ثم للافراد بدرجة اوسع[٤٦] . وهذا قلل الملكيات الكبيرة السابقة وفتح الباب لظهور ملاكين جدد[٤٧] . ومن أمثلة اقطاعات النبلاء التي تحولت الى صوافي بالس وقاصرين على الفرات[٤٨] .

بدأ منح الاراضي من ايام معاوية ، فقد سأله اناس من قريش واشراف من العرب ان يقطعهم من ارض الصوافي ففعل[٤٩] . وقام معاوية بمسح شامل

للصوافي في الشام والجزيرة ، واعطى منها الاقطاعات لاهل بيته وخاصته[٥٠] . وكان الاشراف يلحون في طلب الاقطاعات ، فنفذت ارض الصوافي في فترة عبد الملك ، وراح هذا الخليفة يقطع من اراضي خراجية صارت لبيت المال لوفاة اصحابها دون ورثة ، حتى استنفذها نتيجة حرص الاشراف والمتنفذين على اقتناء الارض . وألح الاشراف على عبد الملك والخليفتين بعده باقطاعهم من ارض الخراج فرفضوا[٥١] ، ولكنهم سمحوا لهم بشراء الارض الخراجية ، والتي تحولت الى عشرية ، وشمل ذلك ضياعا واسعة وقرى . وجاء عمر بن عبد العزيز واخبره عماله على الاردن والغوطة بانتقال اراضي اهل الذمة الى المسلمين فأمر بايقاف البيع واصدر امرا عاما بمنع بيع الارض الخراجية حماية لبيت المال وربما للحد من تكوين الملكيات الكبيرة ، ومع التزام اخلافه خاصة هشام بخطته الا ان ذلك لم يجد واستمر الشراء مما ادى الى جعل الخراج على الارض بصرف النظر عن المالك[٥٢] . وهكذا كان للشراء اثر واضح في تكوين الملكيات وفي ظهور طبقة ملاكين جدد .

وكان للالجاء ، اضافة الى الشراء اثر في تكوين ملكيات كبيرة ، ومن امثلة ذلك انتقال بالس وقراها الى ورثة مسلمة بن عبد الملك بعد ان احتمى به اهلها وطلبوا ايه حفر قناة من الفرات الى اراضيهم[٥٣] .

يبدو اذن ان الاقطاع والشراء اضافة الى ظاهرة الالجاء ادت الى تكوين اقطاعيات وملكيات كبيرة في العصر الاموي . ولم يقتصر هذا الاتجاه على بداية الفترة الاموية ، كما ينتظر بعد الفتوح ، ولكنه استمر ولعله ازداد قوة واتساعا في الفترة الاموية المتأخرة[٥٤] .

ومع قلة الاشارات المتوفرة ، فاننا نجد قرى بكاملها يمتلكها احد الامراء وربما احد الاشراف . فكانت لمعاوية بن ابي سفيان قرية سام في الغوطة وقرية طرميس[٥٥] وتملك البطنان من كورة عسقلان[٥٦] . واقطع معاوية قرية النمرانية بالغوطة لنمران بن يزيد المذحجي[٥٧] وكانت قرية السطح قرب دمشق لعتبة ابن ابي سفيان ، وورثها ابنه عمرو[٥٨] . وكانت الصفوانية من نواحي دمشق لخالد بن يزيد[٥٩] واقطع يزيد بن معاوية سعيد بن مالك بن بحدل الكلبي اقليم بيت الابار[٦٠] . وكان المرج ملكا لعبدالله بن معاوية[٦١] . وكانت قرية تنهج لعباد بن زياد بن ابي سفيان[٦٢] . واقطع الوليد بن يزيد ضياعا غنية واسعة بالبثنية لمعاوية بن عمرو بن عتبة[٦٣] وتملك سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان بن عفان قرية الفدين في حوران[٦٤] وحصل هشام عبد الملك وهو امير على دورين وقراها باقطاع[٦٥] ، ثم تملك قرى مثل سلعوس وكفر جدا قرب الرها ، واحيا اراضي واسعة في الرصافة وحفر نهرين لاروائها[٦٦] . وكانت لمسلمة بن عبد الملك ارض بغراس ، وقرى

وضياعا ف شمالي سورية مثل الاسكندرونة وعين السلوز وبحيرتها[٦٧] ، هذا اضافة الى بالس وقراها التي حفر لها نهرا مقابل الثلث من واردها (بعد العشر) ، ثم صارت ملكا لورثته ، وكان هؤلاء يعيشون عليها عند مجيء العباسيين[٦٨] . وكانت ريسون ، قرية بالأردن ، ضيعة لمحمد بن مروان[٦٩] . وقد تكون الضياع في اماكن مختلفة ، فقد كانت لعلي بن عبدالله بن عباس الحميمة ، وله جنينة عند دير البخت .

كان جل ملاكي هذه القرى من الامراء الامويين ، وبينهم بعض اشراف القبائل من مؤيديهم . وكان اصحاب هذه القرى يقيمون في العاصمة او احدى المدن الرئيسية ، وهذا يعني انهم يديرونها بواسطة وكلائهم[٧٠] وان اهل القرى هم مزارعون وفلاحون يعملون في ارض السادة الملاكين لقاء نسبة من الحاصل ، ويسر ذلك انها كانت لا تدفع الا العشر[٧١] . ويبدو ان هذه الملكيات هي اقطاعات من قرى كانت مملوكة لنبلاء وموظفين كبار بيزنطيين قبل الفتح ، فصارت بعده صوافي[٧١] . وينتظر ان تصبح بمرور الزمن املاكا عائلية وتتجزأ الى ضياع ومزارع لافراد[٧٢] .

ان الامثلة المذكورة تعطي فكرة واضحة عن نطاق الملكيات الكبيرة ، وعن انتشارها وتدل على الاهمية المعطاة للارض من قبل الامراء الامويين ، وتشعر باتجاه عام نحو الارض .

ويتمثل هذا الاتجاه في اقطاعات وضياع بيد الامراء والاشراف . وترد اشارات الى بعضها . كانت لعمرو بن العاص ضيعة عجلان في بيت جبرين وناحية السبع (وفيها سبع ابار) بفلسطين[٧٢] . وكان لحميد بن عقبة اقطاع بدمشق[٧٣] ولسعيد بن عثمان قطيعة فيها[٧٤] . واقطع عبد الملك ضيعة زملكا لحفص بن عمر الازدي[٧٥] والقعقاع ضيعة قرب حلب[٧٦] وداود بن مروان بن الحكم الداودية قرب دمشق[٧٧] . وكانت لابان بن مروان بن الحكم ارض ابان[٧٨] وللاسود المحاربي قطائع بداريا[٧٩] وترك عمر بن عبد العزيز ضيعتين بدا وجزين في منطقة بعلبك[٨٠] كما كانت له عين تروى ضياعا بالسويداء[٨١] . وكانت في ناحية حولان بالغوطة عدة قرى فيها ضياع لجماعة من اشراف من بني امية[٨٢] ، وكانت خاف مزرعة لابي الورد الكلابي[٨٣] .

كل هذا يعني ان طبقة جديدة من الملاكين الكبار من العرب ظهرت ببلاد الشام ، وان الاشراف تحولوا الى ارستقراطية ملاكة ، وان ضياعهم كانت في مناطق خصبة ومهمة . ومثل هذه الضياع الكبيرة تحتاج الى الفلاحين والعمال الزراعيين، ولعلهم كانوا يعيشون في تجمعات قروية حولها . وربما اعطيت الاراضي بقطع الى مزارعين صغار[٨٤] والمرجح ان الفلاحين استمروا على نمط

حياتهم واساليبهم المألوفة رغم تغير السادة .

ورغم قلة المعلومات ، يمكن الاشارة الى الاراضي التي استغلتها القبائل في العصر الاموي من متروكة وموات تم احياؤه[٨٥] ، ولا بد وان ذلك وسع رقعة الارض الزراعية . ويرد هنا ذكر مرج بردى وبعض جنباته وكانت اراض مباحة فأخذتها جماعات قبلية واحيتها وتملكتها . وحصل مثل ذلك في اراضي حول حمص والرستن على نهر العاصي[٨٦] . ويبدو ان اقطاع الاراضي للقبائل العربية او شرائها جرى على نطاق واسع في مناطق دمشق وحمص وبعلبك بصورة خاصة وهي مناطق غنية[٨٧] . ولعل ذلك يرجع الى ان اقطاعات النبلاء الروم كانت كبيرة في دمشق وحوران وبعض جهات البلقاء وبجوار حمص على وادى العاصي وعفرين[٨٨] .

ويبدو ان القبائل بدأت تستقر على الارض في القرى في اواخر العصر الاموي ، وان هذا الاستقرار اخذ شكلا واضحا في العصر العباسي الاول . وكان بعضهم يعمل في زراعة الارض في القرى التي تبدو ملكا مشتركا . ويورد ان عساكر (في ترجمة ابي الهيذام) اسماء عدد غير قليل من القرى في منطقة دمشق في الغوطة وخارجها لقبائل عربية ، ولعل تعدادها يعطي فكرة عن انتشار القبائل في هذه المنطقة . ومن هذه القرى بيت لهيا قرية السكاسك ، وقرى حرس (بيت البلاط ، بيت قونا ، الحديثة ، جسرين) ، وقرى يمانية للحميريين والاوزاع وهي نيف وثلاثين قرية ، وخولان قرية لغسان (٢٠ ميلا من دمشق وحمنا قرية لتغلب ، وراوية قرية لفزارة (على فرسخ من دمشق) وبراق قرية لقيس ودومة قرية لتغلب . ومن قرى اليمن في الغوطة داعية ، بيت سوا ، حمورية ، حجرا ، زملكا ، حوارة ، عربيل ، ارزونة ، قانية ، وبيت ابيان . وكانت قرية تلفياتا لقيس وكذلك قرية بلاس قرب داريا وكانت اراضي كلب في البقاع والجولان ، كما كانت بيت الابار لاشراف اليمانية ، وهناك قرى ابن معيوف (يماني) على فرسخ من دمشق[٨٩] .

وهذا العدد الكبير للقرى العربية يشير الى انتشار القبائل على الارض والى اشتغالهم بالزراعة وخاصة بعد سقوط الدولة الاموية ، والى انتقالهم من ملاكين غائبين او مقاتلة متمركزين في مراكز معينة الى طور الاهتمام بالزراعة ومزاولتها . ولئن كانت المشاكل القبلية ايام الرشيد سببا لتعريفنا بهذه القرى ، فان استقرار القبائل على الارض لم يقتصر على منطقة دمشق بل شمل مناطق اخرى مثل منطقة حمص ومنطقة فلسطين[٩٠] . وهذه القرى كانت بيد عشائر او اجزاء منها ، وهي ان كانت مشتركة في البداية ، فان الملكية الخاصة واضحة في بعضها التي تفيد من ري منظم . وكان فيها ملاكون كبار من اشراف القبائل لهم قصورهم وضياعهم كما في بيت لهيا وداريا .

واذا كانت اراضي القبائل على طرف البادية وحيث مناطق زراعة الحبوب فقط اقرب للملكية المشاعة ، فان الملكية الصغيرة صارت مألوفة في قرى يتوفر فيها الماء ، حيث يبدو ان عامة القبائل تحولوا الى زراع في مجتمعات قروية لهم ملكياتهم الفردية او العائلية كما هو واضح في اخبار ثورة المبرقع اليماني ٢٢٧هـ في فلسطين والاردن. وكان المبرقع اليماني من لخم وادعى انه القحطاني وهذا يعني انه يبشر اليمانية بعودة الملك اليهم. وفي الواقع كان اتباعه حسب رواية في الطبرى "قوم من فلاحي تلك الناحية واهل القرى" وانهم في حدود مائة الف. وتضيف رواية اخرى وانه لما حل موعد الحراثة انصرفوا الى القرى اذ ان بعضهم كانوا "حراثين" وبعضهم من "ارباب الارضين"، والمهم بعد ذلك ان هؤلاء الانصار كانوا من اهل اليمن[٩١]. ولا يترك اليعقوبي مجالا للشك في ان اتباع المبرقع اليماني عرب ويحدد قبائلهم مبينا انهم من لخم وجذام وعاملة وبلقين[٩٢].

وهذا يشير الى تحول ملحوظ في حياة القبائل العربية وخاصة بعد انتقال السلطة الى العباسيين وتحول سورية الى ولاية عباسية . وربما كان هذا التحول سبب اعادة النظر في الخراج في بلاد الشام وتخفيضه بنسبة الربع سنة ٢١٠ ارضاء للقبائل العربية[٩٣] . ويبدو ان هذا الاجراء بما فيه من تخفيض لم يكن كافيا مما جعل المأمون يأمر بمسح اجناد الشام من جديد لاعادة النظر في ضرائب الارض (وهو اول تعديل) سنة ٢١٤ هـ[٩٤] ، وهو اجراء تطلبه تحول في وضع الزراعة في الارياف .

مما مر يلاحظ اذن ان العرب انتشروا الى سورية قبل الاسلام ، وان تغلغلهم كان من طرفي البادية الجنوبي باتجاه حوران والبلقاء ومن طرفها الشمالي باتجاه حاضر حلب وقنسرين ، ولكن انتشارهم بالفتوح شمل بلاد الشام كلها . وكان مجيء القبائل توسعا استيطانيا منذ الفترة الاولى ، ولم يكن مجرد غزوات بدوية ، ولذا لم يؤد الى ضرر يذكر بالقرى والمزارع ، بل ان العرب اكتفوا بالتقدم الى المدن ولم يتعرضوا لجماعات القرى كما يتبين من عهود الصلح الكثيرة[٩٥] ، وكانت خطتهم منذ البداية عدم الاضرار بالفلاحين بل وبذل كل جهد لتطمينهم وابقائهم على الارض . واعتبروا الفلاحين احرارا ، هذا مع اعادة تنظيم الضرائب والاشراف على جبايتها ، وجعل الخراج على الطاقة وابطال الامتيازات السابقة . كل هذا لا بد وانه حسن من وضع الجماعات القروية .

وينتظر ان تستمر اساليب الزراعة والحياة القروية ، مع توفير استقرار اكثر من الفترة البيزنطية المتأخرة المضطربة . وكان للوضع الجديد اثره ، اذ اعتبرت الارض المزروعة ملكا للامة (خراجية) ما دام زراعها وفلاحوها عليها ،

في حين ان اراضي النبلاء واراضي من قتل او هرب ، اعتبرت صوافي . وهذا يعني ان اراضي الصوافي يمكن ان تنشأ عليها ملكيات جديدة . وفتح المجال لاستغلال الارض الموات والخالية وتوسيع نطاق الزراعة . ويبدو ان الارض الموات كانت محدودة اذ تندر الاشارة اليها بل يشار عادة الى الارض الخالية والمواطن النائية . وكانت هذه ، وخاصة في الجزيرة ، ملائمة لحاجات القبائل القادمة للرعي والزراعة ، اولتوزيعها بين قبائل موجودة من قبل وسرعان ما دخلت الاسلام بعد الفتح . وكان اختيار مراكز الاجناد ملائما على العموم للقبائل وخاصة دمشق وحمص وقنسرين ، ولحد ما طبرية من حيث توفر المراعي والقرب من البادية اضافة الى امكان التوسع الزراعي في اراضيها على حد الارض المطرية .

وتجدر الاشارة هنا الى قصور الامويين الصحراوية ، التي لم تكن برأي سوفاجيه وغرابار مجرد منازل للنزهة بل مراكز للاستثمار الزراعي ، وكانت منشآت الري حولها ـ من قنوات وصهاريج ومجاري ـ لارواء حقول ومشاريع زراعية في المنطقة بين الصحراء والارض المزروعة على الحد الشرقي جهة بادية الشام[٩٦] وهي ان كانت على اثار مشاريع ري سابقة الا انها تدل على تقدير الامويين لاهمية الارض وعلى احياء ارض خالية بعد الفتح . ولنذكر انها قريبة من مراكز اجناد دمشق (تدمر ، حوران ، البلقاء) والاردن (الغور بجوار طبرية) .

كما ان الاشارة الى مشاريع ري جديدة على طرف البادية الشمالي الشرقي في الرصافة وبالس[٩٧] تنبيء عن محاولات استثمار جديدة ، اضافة الى ان تجديد وتوسيع شبكة ري دمشق وتحويلها من ملك خاص الى مشروع عام يؤكد اهتمام الامويين باستثمار الارض[٩٨] .

وكان الاقبال على امتلاك الارض قويا ، حتى تحولت اراضي الصوافي في اقل من نصف قرن الى اقطاعيات وضياع خاصة . وهذا يوضح العدد الكبير من القرى والضياع الخاصة التي تملكها الامراء والاشراف في مناطق غنية مثل منطقة دمشق ، ومنطقة حمص وسهل البقاع . وتجاوز الامر ذلك الى شراء الارض الخراج والى استغلال الارض الخالية . وهذا التهافت على الارض مع اساليب الجباية وربما بعض الظروف العامة ادت الى اسلوب جديد من الحماية وهو الالجاء والى تحويل اراضي وقرى الى ملكيات كبيرة .

وهكذا تحول الاشراف الى ارستقراطية ملاكة لا بد وانها اثرت على وضع القرى ، ولكنها اسهمت في توسيع نطاق الاراضي المزروعة . ولم يفد قرار عمر بن عبد العزيز بمنع بيع الارض الخراجية ولا جهود من تلاه في ايقاف التيار مما ولد فجوة بين الاشراف وقبائلهم مما اضطر يزيد الثالث ان يعلن بأنه لن يحفر الانهار

ولن يتخذ الضياع ، ارضاً للقبائل[99] .

ولكن هذه الملكيات لم تكن دائما راسخة ، فقد تتجزأ بسبب الوراثة بين افراد العائلة ، كما ان العباسيين صادروا ضياع الامويين واحدثوا لها ديوان الضياع[100] . ويبدو ان الاتجاه كان بصورة عامة نحو تحول الملكيات الفردية او المشتركة للقرى الى ملكيات صغيرة ، وهذا أوضح في العصر العباسي الاول .

وكانت الصفة البارزة التي تميز الملكيات الزراعية هي انفصال الملكية في الغالب عن استغلال الارض . فالملاكون الكبار خاصة كانوا لا يزرعــون اراضيهم ، وانما يعهدون باستغلالها ـ عن طريق الوكلاء ـ الى المزارعين واهل القرى ، وهو اتجاه مألوف حتى في العصر الحديث . ويبدو ان المزارعة والمساقاة والمغارسة كانت الاسلوب الشائع لاستغلال الارض ومن هنا الاشارات الواسعة لها في كتب الفقه .

حواشي

١ ـ E. 12 «Badw» ، جواد على ـ العرب قبل الاسلام ج[١]
٢ ـ ابن عساكر ـ تهذيب ج[١] / ١٧٥ ، البلاذرى ـ فتوح ١٤٥ ، ص ١١٠ابن العديم ـ بغية ج[١] ص ٢٦ ، ٢٩ ، ص ٣٠
٣ ـ البلاذرى ـ فتوح ص ١٨٢
٤ ـ ن . م . ص ٢٤٥
٥ ـ الازدى ـ فتوح الشام ص ١٠ ، ص١٦ ـ ٢٤ ، ص ٣٩ ـ ٤٠ وابن اعثم ـ فتوح ج[١] ص ١٠٤
٦ ـ البلاذرى ـ فتوح ١٥٠ ـ ١٥١
٧ ـ اليعقوبي ـ تاريخ ج[٢] ص ١٧٦ ، الطبري س[١] ص ٢٨٦٦ ، البلاذرى ـ فتوح ص ١٤٤ ـ ١٤٥
٨ ـ البلاذرى ـ فتوح ص ١٣١ ، ص ١٢٧ ، ص ١٣٣ ـ ١٣٤
٩ ـ ن . م . ص ١٤٧
١٠ ـ ن . م .ص ١٣١ ، ص ١٣٦
١١ ـ ابن عساكر ـ تهذيب ج[١] ص ١٧٥
١٢ ـ انظر Dickson-Abdel-Malik P 84
١٣ ـ ابن العديم ج[١] ص ٢٦ ، ص ٢٩ ، ص ٣٠
١٤ ـ الدينوري ص ١٧٢
١٥ ـ البلاذرى ج[٥] ص ١٤١ ، ص ٣٠٠ ـ ٣٠٢
١٦ ـ ابن العديم ج[١] ص ٥٣ وانظر ص ٢٩ ، وابن الشحنة ص ٥٩
١٧ ـ ابن العديم ج[١] ص٨٩ ، ص ٩٣
١٨ ـ الدينوري ص ١٧٢ ، خليفة بن خياط ص ١٧٨
١٩ ـ نقائض جرير والاخطل (خط) ٥ أ
٢٠ ـ الدينوري ص ١٧٢ ، الطبري س[٢] ص ٤٨١
٢١ ـ البلاذرى ـ انساب ج[٥] ص ١٣٢ ، ص١٣٨ ، ١٣٥ الدينوري ص ١٧٢
٢٢ ـ اليعقوبي ـ البلدان ص ٣٢٦

٢٣ ـ ابن شداد ج٢ ص ٣٠ ، اليعقوبي ـ بلدان ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧
٢٤ ـ البلاذرى ج٥ ص ١٢١
٢٥ ـ نصر بن مزاحم ـ صفين ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ البلاذري ج٤ ق٢ ص ١٢٨ ويذكر اليعقوبي ـ البلدان ص ٣٢٧ ان الغالب على طبرية قوم من الاشعريين .
٢٦ ـ نصر بن مزاحم ص ٢٠٦ ـ ٧ ، خليفة بن خياط ص ١٧٨ ، البلاذرى ج٥ ١٢٧ ـ ٨ ، اليعقوبي ـ البلدان ص ٣٢٩ و التاريخ (ط بيروت) ج٢ ص ٤٨٠
٢٧ ـ اليعقوبي ص ٣٢٨
٢٨ ـ ياقوت ج٢ ص ٧٩٦
٢٩ ـ البلاذرى ـ فتوح ص ١٨٢
٣٠ ـ ن . م . ص ١٧٧
٣١ ـ البلاذرى ـ انساب ج٥ص ١٤٢ وص ٣١٠
٣٢ ـ ن . م . ج٥ ص٣١١ ـ ٣١٢
٣٣ ـ اليعقوبي ج٢ص٢١٨
٣٤ ـ البلاذرى ص ١٥٢
٣٥ ـ ن . م . ص١٨٠
٣٦ ـ ن . م . ص ١٧٨
٣٧ ـ ن . م . ص ١٧٧ ، قارن ص ١٨٠
٣٨ ـ ن . م . ص ١٧٣
٣٩ ـ ن . م . ص ١٥٠ ـ ١٥١
٤٠ ـ ن . م . ص ١٢٧ ، ص ١٢٨
٤١ ـ ن . م . ص ١٤٧ ـ ١٤٨
٤٢٤٢ ـ ن . م . ص ١٣٣
٤٣ ـ ن . م . ص ١٩٧ ـ ١٩٨
٤٤ ـ انظر شرح السير الكبير للشيباني ج١ ص ٨٨ ، ٩٤ ـ ٩٥ ، والبلاذرى ـ انساب ج٤ ق١ ١١٤ ، والطبري س١ ص ٢٨٦٠ وابن عساكر ـ تهذيب ج١ ص ١٧٥
٤٥ ـ ابن عساكر ـ دمشق ج١ ص ٥٩٤ ، تهذيب ج٣ ص ١٨٤ ، البلاذرى ـ فتوح ص ١٥٠ ـ ١٥١
٤٦ ـ تاريخ دمشق ج١ص ٥٩٤ وما بعدها
٤٧ ـ ابن عساكر ـ دمشق ج٢ ص ١٤٥ ، ص ١٥٠
٤٨ ـ البلاذرى ـ فتوح ص ١٥٠
٤٩ ـ ابن عساكر ج٣ ص ١٨٤
٥٠ ـ اليعقوبي ـ تاريخ ج٢ ص ٢٣٤
٥١ ـ ابن عساكر ـ دمشق ج١ ص ٤٩٥ وما بعدها ، ابن قدامة ـ المغني ج٢ ص ٧٧٢

٥٢ ـ ابن عساكر ـ دمشق ج١ ص ٥٨٧ ـ ٨ ، ٥٩٦ ـ ٧
٥٣ ـ البلاذرى ـ فتوح ص ١٥٠ ـ ١٥١
٥٤ ـ انظر البلاذرى ـ فتوح ص ٢٤٩ ، والانساب ق٢ ص ١٤٨أ و١٤٩أ ،
٥٥ ـ ياقوت ج٣ ص ١٤ ، و ج٤ ص ١٥٧
٥٦ ـ الجهيشارى ـ وزراء ص ٢٦
٥٧ ـ ياقوت ج٤ ص ٨١٣
٥٨ ـ وهي من اقليم (بيت لهيا) . ياقوت ج٣ ص ٩٠ ، ابن عساكر ج٧ ص ٤٣٩
٥٩ ـ ياقوت ج٣ ص ٤٠٢
٦٠ ـ ابن عساكر ج٦ ص ١٧١
٦١ ـ ابن عساكر ـ دمشق ج٢ ص ١٣٦
٦٢ ـ البلاذرى ـ انساب ج٤/٢ ص ٧٤
٦٣ ـ ابن عبد ربه ج٣ ص ١٨٦
٦٤ ـ ابن عساكر ج٦ ص ١٢٥ ، ياقوت ج٣ ص ٨٥١
٦٥ ـ الجهيشارى ص ٦٠ ، الطبرى س٢ ١٧٣٥
٦٦ ـ البلاذرى ـ فتوح ٢٤٩ ، وص ١٨٠ ، وانظر الازدى ـ تاريخ الموصل ص ١٧٢ وانساب الاشراف ق٢ ص ٧٥ب ـ ١٧٦أ وص ١٤٨أ
٦٧ ـ البلاذرى ـ فتوح ١٤٨ وص ٢٩٣ ، ياقوت ج٣ ص ٧٦٢
٦٨ ـ البلاذرى ص ١٥١ ، الطبرى س٣ ص ٥٢
٦٩ ـ ياقوت ج٢ ص ٨٨٦
× ـ اخبار العباس ص ١٠٨ وياقوت ج٢ ص ٦٤٦
٧٠ ـ الجهيشارى ص ٦٠ ، البلاذرى ـ فتوح ص ١٣٨ ، ياقوت ج٢ ص ١٠١
٧١ ـ انظر Tschalenko I PP 351 — 2
٧٢ ـ ياقوت ج٣ ص ٣٤ ، والبلاذرى ص ١٣٨
٧٣ ـ ابن عساكر ج٤ ص ٤٦٢ ، تاريخ دمشق ج٢ ص ١٣١
٧٤ ـ ابن عساكر ج٦ ص ١٥٥ وص ١٥٢
٧٥ ـ ن. م. ج٤ ص ٣٨١
٧٦ ـ البلاذرى ـ فتوح ص ١٩٩
٧٧ ـ ابن عساكر ج٤ ص ١٢٥
٧٨ ـ ن. م. ج٢ ص ١٣٣
٧٩ ـ الخولاني ـ داريا ص ٣٤
٨٠ ـ ابن عساكر ـ دمشق ج١ ص ٥٨٨
٨١ ـ ابن عبد الحك ـ سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٤٧
٨٢ ـ ياقوت ج٢ ص ٢٤٤

٨٣ ـ ابن العديم ج[١] ص ٥٤
٨٤ ـ انظر Tschalenko I P 384 — 5
٨٥ ـ البلاذرى ص ١٧٧ ، ص ١٨٠
٨٦ ـ ابن قدامة ـ المغني ج[٢] ص ٧٢٤ ، ابن عساكر ـ دمشق ج[١] ص ٥٩٧
٨٧ ـ ابن قدامة ج[٢] ص ٧٢٣
٨٨ ـ ابن عساكر ـ دمشق ج[١] ص ٥٩٤ ـ ٥ ، Ts.chalenkoI P 395 — 6
٨٩ ـ ابن عساكر ـ تهذيب ج[٧] ص ١٧٦ ـ ١٩١ ، وتاريخ دمشق ج[٨] (خط) ـ ترجمة ابي الهيذام .
٩٠ ـ انظر الطبرى س[٣] ص ١٣١٩ ـ ٢٠ ، وابن عساكر ج٦ ص ١٢٥ ـ ٦
٩١ ـ الطبرى س[٣] ص ١٣١٩ ـ ١٣٢٠ ، وص ١٣٢٢
٩٢ ـ اليعقوبي ـ التاريخ (ط. بيروت) ج[٢] ص ٤٨٠
٩٣ ـ اليعقوبي ج[٢] ص ٤٦٠
٩٤ ـ ابن عساكر ج[٤] ص ١٠٧ ـ ١٠٨
٩٥ ـ انظر ابو يوسف ـ الخراج ص ٢٣
٩٦ ـ Grabar, S.I. 18,1963 P. 6-9 ، وانظر البلاذرى ص ٢٠٧
٩٧ ـ البلاذرى ص ١٥٠ ، وص ١٧٩ ، وانظر الازدى ـ الموصل ٤٣
٩٨ ـ السبكي ـ فتاوى ج[٢] ص ٤٦٧ وما بعدها ، ابن عساكر ـ دمشق ج[١] ص ١٤٥
٩٩ ـ قدامة ـ الخراج ص ٢٤١ ، الازدى ـ الموصل ص ١٧٢ ، البلاذرى ص ١٥٠
١٠٠ ـ البلاذرى ص ١٥١ ، قدامة ص ٢٤١ ، EI. 2, Diwan

معاوية في الأساطير

سعيد الأفغاني
الجامعة الليبية

معنى الاساطير في معجماتنا العربية : » الاحاديث لا نظام لها[1] « والاساطير : » الاباطيل[2] » سطر علينا : اذا جاء بأحاديث تشبه الباطل » ، « وهو يسطر ما لا اصل له أي يؤلف » وسطر عليه : زخرف له الاقاويل ونمقها ، وتلك الاقاويل : الاساطير ، والواحد من الاساطير : أسطور وأسطورة وإسطير وإسطيرة وإسطار وإسطارة[3]

هذا الشرح ايضاح لما تعارف عليه الناس في العصور الاسلامية الاولى ، اما في أصل اللغة فالسطر الصف من كل شيء من شجر وكتابة وغيرها . وسميت الكتابة سطرا لان الاحرف والكلمات تكون فيها صفا صفا ، والحكاية اسطورة من حيث سرد حوادثها في نسق واحد بصرف النظر عن كونها حقا أو باطلا .

وأي كان فالاسطورة عند القدماء والمحدثين لا تخلو من زخرفة وباطل ، فاذا كان الامر كذلك ففيم العناية بها وما جدوى بحثها في ندوة علمية تنعقد للمصادر التاريخية عن بلاد الشام ؟ .

إن هذه المخلفات من أساطير وأحلام وقصص وخرافات تشيع بين العامة مجتمع ما لتقفنا على ما عجزت عن وقفنا عليه كتب التاريخ التي تعنى في الغالب بالرسميات وما اليها ، إنا نلمس في هذه المخلفات الشعبية حركات الجماهير وخلجات نفوسها ونعرف منازعها وأهواءها ورغباتها ، مما لا يهتم به كثير من المؤرخين الا عرضا ، فكل همهم من التاريخ ذكر ما يجرى في مجالس الحكم وفي ميادين الحروب ، ولهذا نجد تواريخهم سجلات بأسماء القياصرة والاكاسرة والملوك والحكام والقواد والوزراء ، قلما نرى فيها اهتماما بأحوال العامة

والشعوب ، بل جعلوها سجلات للرغبات الظافرة التي حققت في عالم الواقع بحيث لا نلمح فيها صورة لرغبة مكبوتة او عاطفة حبيس ولا بيانا للتيارات النفسية التي تقاذفت أفراد الشعب عامة أو بعض طبقاته وما أحكم قول (هـ . ب . تشارلتن) حين يعرض لتعبير الاساطير عن الواقع فيقول عن الملك آرثر وملوك الجن وغيرها من الاساطير الخيالية انها : » تمثل جانبا من الحياة النفسية الحقيقية وان لم تصور الواقع المحسوس من اوضاع الحياة ، ذلك لانها تشبع في الناس اهواء ونزعات لا يشبعها عالم الواقع، فهي في ذلك كأحلام اليقظة او احلام النوم تحقق للحالم أمانيه التي لم يستطع تحقيقها في دنياه[4] «

يقولون (ان التأليف العربي القديم طابعه الاستطراد) ويريدون انه غير محكم التبويب والتنسيق فكثيرا ما نرى فوائد تاريخية في غير مكانها كما نجد ادبا في كتب التاريخ لا نصيبه في كتب الادب ، فعلى الباحث اذا ان يطوف بتراث الادباء والفقهاء والاطباء والمؤرخين واللغويين والمحدثين والمفسرين .. وما علينا في موضوعنا اليوم أن ننحرف نحن ايضا عن كتب التاريخ السياسي وكتب الادب ونرود مجاهل المكتبة العربية عل نورا يسعى بين ايدينا الى غايتنا ، ولنفد من هذه الظاهرة التي بالغوا في تعميمها ظاهرة الاستطراد .

في دار الكتب الظاهرية بدمشق مخطوطتان لتاريخ دمشق الكبير للحافظ ابن عساكر ،[5] عكفت على تفليتهما شهورا طويلة فوجدت فيهما عونا على موضوعنا ولفتا للذهن الى الطريق اللاحب بعد ان كنت اسيرا في بنيات الطرق .

ومادة حديثنا كله مما يسمى (الاحاديث الموضوعة) التي لا أصل لها في اصطلاح المحدثين ، وعلم الحديث ـ كما يعرف المطلعون ـ من أنضج العلوم الاسلامية وأحكمها منهجا وأقواها علمية ، لقد احتاط المحدثون كل الحيطة لفنهم وتشددوا في شروط الراوى والمروى عنه ، ولم يكتفوا بالقواعد المحررة لتصحيح السند كما توهم بعض الباحثين المحدثين رحمه الله بل عنوا بنقد المتن عناية بالغة ووضعوا له من الضوابط والمعايير ما لم يسلم معها الا كل حديث قوى بالغ الصحة ، اما الاحاديث المكذوبة على رسول الله فقد وسموها وألفوا فيها المؤلفات ليحذرها الناس .

اذا كان من منهج المحدث اذا وصل اليه الحديث الموضوع أن يطرحه ارضا ويمضي لطيته ، فان مهمة المؤرخ الباحث ان يبادر الى التقاطه ويفيد منه ، ويسلط عليه الاضواء الكاشفة ويتسائل ، من وضعه ؟ ما الحامل له على الوضع ؟ ما الملابسات التي احاطت بوضع الواضع ؟ ما تاريخه ؟ علام تدل هذه الاسباب والملابسات ؟ .. واذا سيهتدي المؤرخ اذا وصل الى اجوبة اسئلته الى فوائد جمة في السياسة والاجتماع والاخلاق والعقائد وسائر احوال المجتمع .

لقد ثارت في المجتمع الاسلامي خلافات ادت الى فتن انتهت بقتل الخليفة الصابر الشهيد عثمان بن عفان ، ثم كانت حرب الجمل فكان معظم جند علي من الكوفة ومعجم جيش عائشة من البصرة ، وتوارث المصران على أثرها إحنا وخصومات ، ثم كانت حرب صفيرة بين معاوية ومعه اهل الشام وعلي ومعه اهل العراق ، وكانت منازعات قبلية الى جانب المنازعات الاقليمية والى جانب الخلاف في المذهب حول االاحداث السابقة وحول زعمائها ، ولكل ذلك آثار في أدب ذلك العصر شعره ونثره . وأتى الوضاعون فاسهموا في وضع الاحاديث كل ينصر بما يضع هواه وعصبيته اما للبلد واما للنحلة واما للقبيلة واما للزعيم .. ولم يخف زيف هذه الاحاديث على اهل الحديث فنبهوا الى كذبها ، لكنها راجت بين الناس وتلقف كل ما ينصر هواه ، وروجه حتى عظم منها البلاء وازاغت عقائد العامة وكان لها اثرها البعيد في السياسة والعقيدة .. ولم تكن الشام ولا خليفتها معاوية بمنجاة من وضع الاحاديث مادحة وقادحة على هوى الواضع .

اول ما افتتح به الحافظ ابن عساكر كتابه : (باب ما جاء من أن الشام يكون ملك الاسلام) حديث فيه غمز ظاهر لخلافة بني امية ، فقد نسب الى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا الحكم : (الخلافة بالمدينة والملك بالشام)[٦] .

ويشاء كعب الاحبار ان يزج بالتوراة في هذا الميدان فيتحدث عن صفة رسول الله في التوراة وأنها :

(محمد بن عبدالله يولد بمكة ويهاجر الى طابة ويكون ملكه بالشام)

فان سألت : وما أرب كعب الى ترويج هذا القول ، بل ما غرض المسعى اليهودي الذي استمر يعمل في الخفاء حتى بعد موت كعب ؟ اجبتك باحتمال ان يكون الغرض التقرب الى السلطان من جهة ، وتعظيم الشام التي فيها بيت المقدس من جهة ثانية ، وكان دليلي في هذا الاحتمال رواية ثابتة أصرح وأوضح في بيان شأن القدس فقد نسبوا للرسول هذا القول :

(هذا الامر « يعنى الخلافة» كائن بعدى بالمدينة ثم بالشام ثم بالجزيرة ثم بالعراق ثم بالمدينة ثم ببيت المقدس، فاذا كان ببيت المقدس فثم عقر دارها ولن يخرجها قوم فتعود اليهم ابدا)[٧] .

وفسر ذلك الحافظ ابن عساكر قائلا : (يعني بقوله « بالجزيرة » امر مروان بن محمد الحمار وبقوله « بالمدينة » بعد العراق يعني المهدى يخرج في أخر الزمان بالعراق) وهذه الرواية في الوضع متأخرة عن سابقتها، ففيها اجمال لتنقل الخلافة بين الامصار حتى العهد العباسي وهو زمن وضعها فيما اجنح اليه .

وهنا ارى من الضروري ان انبه على عمل السياسة الاموية في تربية العامة على اعظام شأن الخلافة والخليفة اعظاما يذكر باعظام النصارى حينئذ رؤساءهم واعتقادهم انهم يستمدون التأييد الالهي من السماء . ومن تذكر تاريخ الشام لم يعدم من الحوادث براهين كثيرة ، فقد درج العامة في الشام على تقديس الخلفاء والتسليم الاعمى لعصمتهم ، وعمل رجال البيت الاموى ومن اليهم على ترويج هذه العقيدة حتى قاربت ان تكون من المسلمات عندهم. فهذا يزيد بن عبد الملك احب ان يسير بسيرة عمر بن عبد العزيز وكانت سيرة عمر ــ كما نعلم ــ نشازا في سير خلفاء بني امية وامرائهم ، سارها على رغمهم جميعا ، فلما قال يزيد : سيروا بسيرة عمر بن عبد العزيز ، احضروا له اربعين شيخا فشهدوا عنده : (ان الخلفاء لا حساب عليهم ولا عذاب) قال الذهبي راوي الخبر (وكان طائفة من الجهال الشاميين يعتقدون ذلك)[٨].

ولا تظن ان مثل هذه العقائد في طائفة من الجهال الشاميين فحسب كما اراد الذهبي ان يقول ، بل الامر اوسع انتشارا وامد افاقا ، فهذا هشام بن عبد الملك نفسه ضاق باعمال ولي عهده الوليد بن يزيد حتى قال :

(لئن رضي الناس بالوليد بن يزيد خليفة ما اظن الحديث الذي رواه الناس : « ان من قام بالخلافة ثلاثة ايام لم يدخل النار » الا باطلا)[٩].

فهذا اثر السنين الطوال في أخذ الرعية بالدعاية الواسعة وسياستهم على تقديس امرائهم وخلفائهم ، وانت تدرك ان هذه الدعاية ردت عن الخلفاء ما لا ترده الجيوش ولا الحصون .

قلت انفا ان هذه الدعاية لم تقتصر على طائفة من الجهال الشاميين ، بل كانت واسعة الانتشار حتى حملها هشام بن عبد الملك فيمن حملها ، وازيدك الان ان الاشياخ انفسهم حملوها معتقدين ، وحملوها طلبتهم معلمين :

سأل المنصور ابا عبدالله : (ما قولك في خلفاء بني امية ؟) فقال : (وما عسيت ان اقول فيهم ؟ ان من كان منهم لله مطيعا وبكتابه عاملاً ولسنة نبيه متبعا فانه امام تجب طاعته ومناصحته ، ومن كان منهم غير ذلك في ذ(غفقال المنصور (جئت بها ــ والذي نفسي بيده ــ عراقية ، اهكذا أدركت اشياخك من اهل الشام يقولون ؟) قال : (لا ، أدركتهم يقولون :

(ان الخليفة اذا استخلف غفر الله له ما مضى من ذنوبه) فقال المنصور :(اي والله وما تأخر من ذنوبه)[١٠] .

ولندع ما في كلمة المنصور الاخيرة من فكاهة، وقدر ما قدرت انا حين قرأتها ، فقد كان المنصور مأخوذا باحكام بني امية توطيد ملكهم ، فما استنبط المنصور سياسة الا وجد الامويين قد ذهبوا بحظها وغنائها ، ود لو يستطيع ما

استطاع بو امية من تجنيد كل شيء حتى العقائد والنوايا والهواجس .

ازاء هذا الظفر السياسي الذي احرزه الامويون في ميدان الدعاية الشعبية ، كان خصومهم لا يألون جهدا في نقض ما يبنون ، لكن عمل اولئك كان كالسيل عارما جارفا ، فاحتاج خصومهم الى عشرات السنين حتى أثمر عملهم الخفي الضئيل بعض الثمرات ، فصرنا نرى رد الفعل ظاهرا ايام العباسيين : اخبارا تهدم اخبارا ، وأحاديث توضع تمحو احاديث وضعت ، ونارا تملأ الان بمن امتلأت بهم الجنة في احاديث امس...

والحق انه ليس بيدي من الاخبار والاحاديث مما وضع الوضاع، ما يشيد بذكر بني امية جملة، إلا حديث واحد هو:

(لا تزال الخلافة في بني امية يتلقفونها تلقف الغلمان الكرة ، فاذا خرجت منهم فلا خير في عيش)[11] فان انا اردت الحديث الصحيح ، رأيت في خطة النبي العلمية اقوى دليل على حسن ظنه بهم ، فقد كان – صلى الله عليه وسلم – وصاحباه من بعده يطلبون للاعمال ذوي الكفاآت ، فمن ثم ترى في عمالهم كثيرا من بني أمية وليس هذا مما نحن منه الان بسبيل . انما اريد الاشارة الى جملة من الاخبار المرويةتحط من الامويين اقبح الحط وتهبط بهم دركات في الشر فيبوؤون بين الناس بأشنع الآثام . ولا تنس اني اجعل ايام خصومهم العباسيين ظرفا لوضع هذه الاخبار وترويجها .

جاء في كنز العمال[12] ان ان بجالة سأل عمران بن حصين : (حدثني عن ابغض الناس الى رسول الله – صلى الله عليه وسلم) قال : (تكتم علي حتى اموت ؟) قلت : (نعم) قال : (بنو امية وثقيف وبنو حنيفة) .

وروى ان عمر بن الخطاب قال لعبد الرحمن بن عوف : (ألم يكن فيما يقرأ : » قاتلوا في الله اخر مرة كما قاتلتم فيه اول مرة ؟ » فسأله (متى ذلك ؟) فقال : (إذا كانت بنو امية وبنو مخزوم الوزراء)[13] .

ويدخل مروان بن الحكم على معاوية فيكلمه في حوائجه قائلا : (اقض حاجتي فوالله ان مؤونتي لعظيمة ، اني اصبحت ابا عشرة واخا عشرة وعم عشرة) فلما ادبر مروان وابن عباس جالس مع معاوية على سرير – قال معاوية :

(انشدك الله يا بن عباس اما تعلم أن رسول الله قال : » اذا بلغ بنو الحكم ثلاثين رجلا اتخذوا اموال الله بينهم دولا ، وعباد الله خولا ، وكتابه دخلا ، فاذا بلغوا تسعة وتسعين واربعمائة كان هلاكهم اسرع من الثمرة ؟ « قال : اللهم نعم)[14].

ولم يكتف الوضاع بما يعزونه الى زمن الرسول وأصحابه من اقوال يرويها رجل عن أخر ، بل حملوا صخور الاديرة من ذلك وجعلوه بالعبرانية ايغالا في (الاسطورية) وترويجا على العوام ، ولقد كان قتل الحسين اول ما يشنع المشنعون على بني امية وانصارهم جملة ، قال الاصمعي :

مررت بالشام على باب دير ، وان على حجر منقور كتابة بالعبرانية فقرأتها ، فاخرج راهب رأسه من الدير وقال لي : (يا حنيفي اتحسن تقرأ العبرانية ؟) قلت : (نعم) قال لي :(اقرأ)فقرأت :

أيرجو معشر قتلــوا حسينا شفاعة جده يوم الحساب

فقال لي الراهب: (يا حنيفي هذا مكتوب على هذا الحجر قبل ان يبعث صاحبك بثلاثين عاما)[١٥].

اذا انت جاوزت اشتغال الوضاع ببني امية جملة ، مدحا وقدحا ، الى اشتغالهم بهم تفصيلا ، وجدت فيضا غزيرا ، ان هو آلك وامضك لملامح الكذب فيه فانت واجد فيه متعة وتسلية ، وعرضا لما في نفوس الجماهير حين ترضى وحين تغضب ، وحين تضيق صدرا بالضغط على أرائها وعقائدها ، فتنفس عن نفوسها برد فعل خفي ، لكنه يتزايد برفق حتى يجرف كل شئ .

اول ما اشتغلوا به من خلفأ بني امية شيخهم ويعسوبهم معاوية بن ابي سفيان ، فلم يحظ احد بمثل ما حظي به من روايات واخبار تزج به في النار ، ولا نعم احد بمثل ما حبته روايات الطرف الاخر من مقام عن يمين الرحمن في جنات عدن .

وليس بغريب ان يستأثر معاوية بهذا النصيب الوافي من الاساطير ، فقد اختطف الخلافة خطفا وكان حظه من سخط شيعة علي بن ابي طالب وشيعة العباسيين من بعد اوفى حظ ، وهو الذي بدهائه وبأسه وحلمه ، وطد اركان ملكه فبقي قذى في اعين الشيعة مئة سنة ، ثم زال المالك ولم يزل غيظهم عليه حتى اليوم فيما أحسب .فقد رووا عن عمار : (اذا رأيتم الشام اجتمع امرها على ابن ابي سفيان فالحقوا بمكة)[١٦] . وزعموا ان رسول الله قال : (اذا رأيتم معاوية يخطب على منبرى فاقتلوه)[١٧] .

وحملوا عليه تشنيعات كثيرة كقولهم : (قضى رسول الله والخلفأ بعده : « لا يرث مسلما كافر ولا كافرا مسلم » وقضى معاوية وبنو امية ان يتوارثا حتى زمن عمر بن عبد العزيز فرجع الى السنة)[١٨] . وقد تقدم لك اباؤهم عليه اسم الخلافة فسموا امرته ملكا . ويضعون اسطورة امد بن ابد احد المعمرين ، فيذكرون ان معاوية استقدمه وجعل يسأله عما مر عليه في عمره الذي انقضى منه ثلاثمائة وستون سنة ، فيسأله عن هاشم فيقول : (نعم رأيته رجلا طويلا حسن

الوجه يقال ان بين عينية بركة او غرة بركة) ويسأله معاوية عن جده امية فيقول : (نعم رايت رجلا قصيرا اعمى يقال ان في وجهة لشرا او شؤما) ثم يسأله : (هل رايت محمدا ؟) فيغضب امد وينتهر معاوية قائلا : (ويحك ، الا فخمته كما فخمه الله فقلت : رسول الله ..)[١٩] . وريح الخصومة بادية في هذا الخبر ، ولست بحاجة الى من يدلك على الحزب الذي وضعه حين اراد ان يسلسل الشر والشؤم من الجد الأعلى امية ، ويقابله بالأغر المبارك هاشم جد خصومه الهاشميين ، ثم تصوير معاوية بالممتلئ حقدا بحيث لا تسمح له نفسه بذكر النبي برسول الله حتى يدعوه الدعاء الجافي الجلف الذي رأيت .

هذا ما يقدمه لنا خصوم معاوية ، اما الدفاع فقد كان قويا جارفا كاسحا ساحقا كما يقول العسكريون ، فلئن كان الهجوم طلقات مسدس لقد كان الدفاع قنابل ذرية .

ولم تكتف هذه الجهة بالقضاء على الخصم بل اندفعت تزلزل الارض التي عاش عليها وتقلب منازله عليها سافلها ثم تنسفها نسفا ، وانا ـ عن عمد ـ اتكلم بلغة العسكريين فما وجدت تعبيرا اصدق فيما انا بسبيله .

أستخبرت أبن عساكر ونفضت تاريخه الضخم فأخرج لي من كنوزه نثارة ما حلمت بمثلها . لقد وضعت يدي على ما تضمر الجماهير من (ذخائر) ترد بها على نفسها الاعتبار ، ان كايدها خصم فأذعنت له حينا من الزمن ، لا تلبث ان تبلغ في انتقامها مدى بعيدا . وأغلب ما ساقدمه لك وضع بعد موت معاوية ، بل بعد ذهاب دولة بني امية ، وضع ايام العباسيين حين كان يتقرب المتقربون اليهم بذم معاوية وبني امية ، وحين لم يكن يستطيع الشاميون ولا انصار الامويين ان يبلغوا في العلن من خصومهم مبلغا ، ولا يملكون لهم ضرا ، فانصرف ما عند الناس من ذخر مخبوء الى الاساطير يرضون بها نفوسهم ويشفون غيظهم وينالون من عدوهم بطريق ملتو غير مباشر .

يعرف التاريخ الصحيح من شأن معاوية انه كان من كتاب وحي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وانه ولي الشام لعمر بن الخطاب فكان يعرف له امورا وينكر امورا ، وسأصنف لك ما بين يدي من هذه الروايات اصنافا ثلاثة : صنفا فيه ادعية الرسول له ، وصنفا فيه الثناء عليه وتبشيره بالجنة ، وصنفا جمع ما لا يخطر ببالك من غلو وإغراق وسذاجة لا تروج الا عند العوام ، وهذا الصنف الثالث هو محط الشاهد .

١ ـ فاما الصنف الاول فيدخل فيه ماورووا ان رسول الله قال لمعاوية : (كيف بك لو قد قمصك الله قميصا ؟) يعني الخلافة ، فقامت ام حبيبة فجلست

بين يديه فقالت : (يا رسول الله وأن الله لمقمص أخي قميصا ؟) قال : (نعم ولكن فيه هنات وهنات وهنات) فقالت : (يا رسول الله فادع الله له) فقال : (اللهم اهده بالهدى وجنبه الردى واغفر له في الاخرة والاولى)[٢٠]

(ان الله ائتمن على وحيه جبريل وانا ومعاوية ، وكاد ان يبعث معاوية نبيا من كثرة حلمه وائتمانه على كلام ربي ، فغفر لمعاوية ذنوبه ، ووفاه حسابه ، وعلمه كتابه ، وجعله هاديا مهديا ، وهدى به)[٢١] .

وأبلغ من ذلك نكاية في خصوم معاوية ان هؤلاء الوضاع الظرفاء نسبوا لعلي ابن بي طالب انه قال :

(سمعت رسول الله باذني ــ والا صمتا ــ يقول له : (انت يا معاوية احد امناء الله ، اللهم علمه الكتاب ومكن له في البلاد) هذا وعند ابن عساكر روايات غير هذه فارجع اليها .

٢ ــ واما الصنف الثاني فغرائبه اكثر واعجب ، والاحاديث هنا تصور معاوية بانه (رجل الساعة) على حد تعبير سياسيي اليوم ، ثم تذهب ابعد من ذلك فتقيسه الى ابي بكر وعمر ثم تجعل النبي يفضله عليهما وعلى الصحابة واليك التفصيل :

ذكر سول الله يوما الشام فقالوا : (كيف لنا بالشام يا رسول الله وفيها الروم ذات القرون ؟) فقال : (اجل ان فيها لاقواما انتم احقر في اعينهم من القراد في استاه الابل)[٢٢] وقال : (لعل ان يكفيناها غلام من غلمان قريش) وبيد رسول الله عصا فأهوى بها الى منكب معاوية)[٢٢] .

ثم نترقى ويترقى معاوية معنا درجة في الزعم الاتي :

استأذن رسول الله ابا بكر وعمر في امر فقال : (اشيرا علي) فقالا : (الله ورسوله اعلم) فقال : (ادعوا معاوية) فقال ابو بكر وعمر : (اما كان في رسول الله ورجلين من رجال قريش ما يتقنون امرهم حتى يبعث رسول الله الى غلام من غلمان قريش ؟)فقال : (إدعوا لي معاوية) فلما وقف بين يديه قال رسول الله : (احضروه امركم فانه قوي امين)[٢٣] .

ثم ترقت الاخبار بمعاوية درجات عالية جدا يسندون روايتها الى ابن عمر :

تزعم ان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال لاصحابه يوما : (يطلع عليكم من هذا الباب رجل من اهل الجنة) فطلع معاوية ، فلما كان الغد قال مثل ذلك فطلع معاوية ، فلما كان بعد الغد قال مثل ذلك فطلع معاوية ، قال رجل : (هو هذا) ؟) قال : (نعم هو هذا) ثم قال رسول الله : (يا معاوية انت مني وانا منك ، لتزاحمني على باب الجنة كهاتين)[٢٤] .

ولا يفوت الوضاع كيد خصومهم كما فعلوا في احاديث الصنف الاول ، فها

هم أولاء يصعدون عليا منبر الكوفة فيخطب اهلها قائلا :

(والله لاخرجنها من عنقي ولاضعنها في رقابكم ، الا ان خير الناس بعد رسول الله ابو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم انا ، ما قلت ذلك من نفسي ، ولاخرجن ما في عنقي لمعاوية : لقد استكتبه رسول الله وانا جالس بين يديه فاخذ القلم فجعله في يده فلم اجد من ذلك في قلبي اذ علمت ان ذلك لم يكن من رسول الله وكان من الله عز وجل ، الا وان المسلم من سلم من قصتي وقصته)[٢٥] .

٣ ـ اما اخبار الصنف الثالث فمهزلة اولمبية ، لقد خرج الوضاع فيها عن مألوف العرب في الصدر الاول حتى في التخيل ، وهي اخبار الى ان تلصق بالهة اليونان وانصاف الهتهم اقرب من ان تنسب الى الاله الحق ورسوله :

أ ـ (.. نزل جبريل على النبي ومعه قلم من ذهب ابريز فقال : « ان الله يقرأ عليك السلام ويقول لك (هذه هدية مني الى معاوية فقل له يكتب به اية الكرسي بخط حسن ويشكلها ويعجمها ،[٢٦] واعلمه اني قد كتبت له ثواب من قراها الى يوم القيامة) فقال النبي (من لنا بأبي عبد الرحمن) فمضى ابو بكر الصديق فجاء ومعه محبرة وقرطاس فدفعه النبي الى معاوية) فكتبها وهو يبكى)[٢٦] .

ب ـ (جاء جبريل الى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بورقة آس اخضر مكتوب عليها (لا اله الا الله ، حب معاوية بن ابي سفيان فرج ؟ مني على عبادي)[٢٧] .

ج ـ وذكروا ان رسول الله قال لام حبيبةاخت معاوية : ... فاني احب معاوية ،واحب من يحبه ، جبريل ومكاييل يحبان معاوية ، والله تعالى اشد حبا لمعاوية من جبريل وميكائيل يا ام حبيبة)[٢٧] .

ورووا انه قال لها يوما (يا ام حبيبة هذا اخوك قد اقبل ، اما انه يبعث يوم القيامة عليه رداء من نور الايمان)[٢٨] .

ثم لم يقتصروا على هذه الكرامة كلها في الدار الاخرة ، فعجلوا له من فاكهة الجنة وسخروا جبريل في ايصالها فزعموا :

د ـ ان جعفر بن ابي طالب قدم (من بعض اسفاره ومعه شيء من السفرجل ، فاهداه الى رسول الله والنبي يومئذ في منزل ابي بكر الصديق ، اذ دخل معاوية فقال النبي لجعفر « انى لك هذا ؟ » فقال :«اهداه الي رجل شاب حسن الهيئة في بعض اسفاري فاحببت ان اهديه اليك يا رسول الله » ، فأكل منه النبي واخذ منه واحدة واعطاها معاوية وقال : توافقني في الجنة بمثلها) وقال : (يا معاوية ، من مثلك ؟ اخذت اليوم من هدايا ثلاثة كلهم في الجنة وانت رابعهم) ، (يا جعفر : هل تدري من المهدى اليك السفرجل ؟) قال : (لا) قال : (ذاك جبريل وهو سيد الملائكة ، وانا سيد الانبياء ، وجعفر سيد الشهداء

وانت يا معاوية سيد الامنا')[29] .

هـ ــ ثم عنيت هذه النزعة بخصوم معاوية ومبغضيه فخصتهم بكل نكر ، فزعمت ان رسول الله قال له : (الشاك في فضلك يا معاوية تنشق الارض عنه يوم القيامة وفي عنقه طوق من نار له ثلاثمائة شعبة ، في كل شعبة شيطان يكلح في وجهه مقدار عمر الدنيا)[30]

وكأنهم لم يكتفوا بهذه الصورة على بشاعتها فولدوا بابداعهم صورة اكلح فزعموا :

و ــ ان النبي كان ذات يوم جالسا بين اصحابه اذ قال : (يدخل عليكم من باب المسجد في هذا اليوم رجل من اهل الجنة يفرحني الله به) فقال ابو هريرة : (فتطاولت لها) فاذا نحن بمعاوية قد دخل ، فقلت : » يا رسول الله هذا هو ؟ «فقال : » نعم يا ابا هريرة هو هو » يقولها ثلاثا ثم قال : » يا ابا هريرة ، ان في جهنم كلابا زرق الاعين على اعرافها شعر كامثال اذناب الخيل ، لو اذن الله لكلب منها ان يبلع السموات السبع في لقمة واحدة لهان ذلك عليه ، يسلطه يوم القيامة على من لعن معاوية)[31] اي هول والله !

ويبلغ الوضاع غايتهم في صورة مسرحية شائقة ينطلق بها الرسول ومعاوية معا بين يدى الرحمن الى الجنة :

ز ــ (اذا كان يوم القيامة دعي بالنبي ومعاوية ، فيوقفان بين يدي الله ، فيطوق النبي بطوق ياقوت احمر ويسور بثلاثة اسورة من لؤلؤ ، فيأخذ النبي الطوق فيطوقه معاوية ثم يسوره بثلاثة اسورة ، فيقول له الله : » يا محمد ، تسخى علي وانا السخي وانا الذي لا ابخل ؟ » فيقول النبي : » الهي وسيدي ، كنت ضمنت لمعاوية في دار الدنيا ضمانا فأوفيته ما ضمنته له بين يديك يا رب » فيبتسم الرب اليهما ثم يقول : » خذ بيد صاحبك انطلقا الى الجنة جميعا)[32]

ثم يتوج الوضاع هذه الاحالات كلها بالتي ليس بعدها ، اذ نجد معاوية يستأثر بقرب عرش الله دون النبي نفسه ، ناعما بمناجاة الله وتحيته سبعين عاما وتزيد ، على حين يكون النبي بعيدا ينتظر معاوية ، فيزعمون :

ح ــ ان رسول الله قال : (لا افتقد احدا من اصحابي غير معاوية ، فاني لا اراه ثمانين عاما او سبعين عاما فاذا كان بعد ثمانين عاما او سبعين يقبل علي على ناقة من المسك الاذفر حشوها من رحمة الله ، قوائمها من الزبرجد فاقول : » يا معاوية » فيقول : » لبيك يا محمد »[33]فأقول « اين كنت من ثمانين عاما ؟» فيقول : » في روضة تحت عرش ربي يناجيني واناجيه ويحييني واحييه ويقول : هذا عوض مما كنت تشتم في دار الدنيا)[34] .

لم يقتصر هذا الغلو في معاوية على اهل الشام ، بل امتد الى غيرها ، ولعل ذلك راجع الى غلو الشيعة في نصر صاحبهم والطعن على خصمه ، غلوا حمل الفريق الاخر على مقابلته بغلو مثله ، وكان ذلك يكون بحيث يتصاقب الفريقان في بلد ، او يكون بلد احدهما على مقربة من بلد الاخر ، فينتج الاحتكاك تلك الثروة الطريفة من الادب . هذه واسط مدينة الحجاج بقيت تنصر معاوية حتى بعد انقراض الدولة الاموية بمئات السنين ، في خضم من التشيع حولها ، وبالغت في ذلك حتى خرجت عن المعقول والمنقول معا ، جاء في احسن التقاسيم :[٣٥]

(في اهل واسط بله وغلو في معاوية ، ووصف لي رجل بالزهد والتعبد ، فقصدته ـ وتركت القافلة خلفي وبت عنده تلك الليلة ، وجعلت اسأله الى ان قلت :» ما قولك في الصاحب ابن عباد ؟ » فجعل يلعنه ، ثم قال :» انه اتانا بمذهب لا نعرفه » قلت : » وما هو ؟ قال : » يقول معاوية ليس مرسلا « قلت : » وما تقول انت ؟ » قال : « اقول كما قال الله عز وجل : (لا نفرق بين احد من رسله) ، ابو بكر كان مرسلا ، وعمر كان مرسلا ، (حتى ذكر الاربعة) ثم قال : (ومعاوية كان مرسلا)قلت : (الا تعقل ؟ اما الاربعة فكانوا خلفاء ـ ومعاوية كان ملكا) فجعل يشنع علي واصبح يقول : (هذا رافضي) فلو لم تدركني القافلة لبطشوا بي) .

ولهم في تكريم معاوية في الجنة مثل ما لغيرهم من تحزب العامة وعصبيتهم له ، وقد حدث المقدسي نفسه ايضا بما شهد منهم ، قال :

(كنت يوما بجامع واسط واذا برجل قد اجتمع عليه الناس فدنوت منه فاذا هو يقول :حدثنا فلان عن فلان .. عن النبي : ان الله يدني معاوية يوم القيامة يجلسه الى جنبه ـ ويغلفه بيده ، ثم يجلوه على الخلق كالعروس) فقلت له : (بماذا ؟ ابمحاربته عليا رضي الله عن معاوية وكذبت انت يا ضال) فقال : (خذوا عني هذا الرافضي) فأقبل الناس علي فعرفني بعض الكتبة فكركرهم عني) .

ما عرفنا من عقيدة العامة بالشام في تقديس خلفائهم حتى قطعوا بالغفران لمن ولي الخلافة ثلاثة ايام يجعلنا لا نظن المبالغة في رواية المسعودي : (ان انصار الامويين في الشام حلفوا للسفاح انهم (ما علموا لرسول الله قرابة ولا اهل بيت يرثونه غير بني امية حتى ولي العباسيون الخلافة)[٣٧] .

والظاهر ان هذه عقيدة شامية ثابتة تجدها في التواريخ كما تجدها في الاساطير التي تسجل تقاليد الشعب واراءه بكل صدق وامانة . ولأمر ما قال سفيان الثوري : (اذا كنت في الشام فحدث بفضائل علي)[٣٨] وهذه العبارة قاصرة جدا في التعبير عن الواقع ، فان ما عليه عامة اهل الشام حينئذ من عقيدة

في علي ليقتضي تنشئتهم تنشئة (دكتاتورية) على خلاف ما الفوا من تقاليد واعراف في الاسلام ورجاله . ولست اعرف حكومة نجحت في احكام دعايتها حتى ضمنت لدولتها خواطر الناس في اليقظة والمنام ، وأمنت شر من على الارض ومن في الارحام مثل حكومة الامويين . وانظر صورة طريفة من المجتمع الشامي حينئذ في مسجد دمشق وهو مرآة البلد ، يرويها ابن عساكر في تاريخه الجليل عن ابي يحي السكري قال :

(دخلت مسجد دمشق فرأيت به حلقا فقلت : هذا مسجد قد دخله جماعة من الصحابة فملت الى حلقة في صدرها شيخ جالس ، فجلست اليه فقال له رجل امامه : (من علي بن ابي طالب ؟) فقال : (خفاق كان بالعراق ، اجتمعت عليه جماعة فقصد امير المؤمنين معاوية ليحاربه فنصر الله معاوية عليه) قال السكري : فاستعظمت نلك وقمت ، فرأيت في جانب المسجد شيخا يصلي الى سارية ، حسن السمت والصلاة والهيبة ، فقلت له : (يا شيخ انا رجل من اهل العراق ، جلست الى تلك الحلقة ... وقصصت عليه القصة وانتقاص علي بن ابي طالب فقال : (في هذا المسجد عجائب ، بلغني ان بعضهم يطعن على ابي محمد الحجاج ابن يوسف فعلي بن ابي طالب من هو ؟؟) ثم جعل يبكي . فقمت عنه وقلت : (لا استحل ان ابيت بهذا البلد)[٣٨].

ولم يزدد الامر في الشام الا تمكنا على الزمن ، ولعله نما وانتشر اكثر بعد انقراض بني امية وحكمهم ، ولا اعزو نلك الا الى بصر بني امية بسياسة النفوس ونزعاتها واهتدائهم الى التلطف بها ، فغذوا ادب العامة بما ارادوا ، ونشروا بينهم من الاحاديث والقصص والاخبار كل ما يؤيد دولتهم ويوهي خصومهم ، حتى شاب عليه الكبير ونشأ عليه الصغير وما غرس في الاداب الشعبية فهيهات للسياسة العاجلة ان تقضي عليه بالعنف والقهر . وابلغ من الصورة التي رايناها في مسجد دمشق صفحة حفظها ياقوت في كتابه (ارشاد الاريب) هي أبعد دلالة واصدق تاريخا لتقليد المجتمع الشامي يومئذ ، يرويها رجل عاش عمره كله في دولة العباسيين ولم يشهد شيئا من ايام الامويين ، هو ابو الحسن المدائني (١٣٥ ـ ٢٢٥ هـ) قال : قال لي رجل : (كنت بالشام فجعلت لا اسمع احدا يسمى (عليا) ولا (حسنا) ولا (حسينا) وانما اسمع : معاوية ، ويزيد بن الوليد .. فمررت يوما برجل جالس على باب داره وقد عطشت ـ فاستسقيته فقال : (يا حسين اسقه)فقلت له :(اسميت حسينا ؟) فقال : (اي والله ، ان لي اولادا اسماؤهم حسين وحسن وجعفر ، فان اهل الشام يسمون اولادهم باسماء خلفاء الله ولا يزال احدنا يلعن ولده ويشتمه ، وانما سميت اولادي باسماء اعداء الله فاذا لعنت فانما العن اعداء الله) فقلت له : (ظننتك خير اهل الشام ،

واذا جهنم ليس فيها شر منك)[٣٩]

ونحن مدينون للمدائني ولياقوت بهذا الامر الاجتماعي العام في تعبير الشاميين عن طوياتهم ومنازعهم باسماء اولادهم ، وليس بعد هذا في صدق التعبير غاية .

والظاهر ان التقاليد الشامية هذه تسربت فغزت بلدانا مجاورة سلبا وايجابا وليس امتع من تاريخ هذه الاداب الشعبية نشأتها وتطورها ورحلتها وتأثرها وتأثيرها . نحن نعلم ان وكر العداوة لمعاوية هو شيعة العراق الذين اغرقوا وبالغوا في الحط منه وفي الرفع من خصمه الامام علي ، حتى خلقوا في نفوس من ليس على رأيهم من مواطنيهم رد فعل ، وغرسوا فيها عطفا زائدا على معاوية ، والاداب تتلاقح في اقاليم الامم المتجاورة فكيف في اوطان الامة الواحدة ، والعراق والشام منذ اقدم العصور بينهما اواصر اقتصادية وسياسية واجتماعية والناس في اسفار وتجارات بينهما ، فلما كان الفتح الاسلامي جمعهما الدين الواحد والحاكم الواحد الى جانب العرق الواحد واللغة الواحدة ، فصارا في حكم الاقليم الواحد ، وكان اول ما تفاعل بينهما الاداب خاصة ، فاصبح من المتوقع ان نجد اثارا للتقاليد الشعبية الشامية في العراق ، وقد مر بنا شأن اهل واسط في العصبية لمعاوية فانظر الان زيادة عليه كيف تسرب الى العراق حب معاوية . قال عبدالله بن احمد بن حنبل :(كنت احبو ، فاخذ ابي بيدي وعبر بي الى الجسر (ببغداد) فمضى الى جامع الرصافة ، فلما انتهينا اليه رأينا حبابا فيها السويق والسكر والماء المبرد بالثلج ، وخدما في ايديهم الطاسات يقولون للناس : (اشربوا على حب معاوية بن ابي سفيان) فقلت : (يا ابه ، من معاوية ؟) فقال : (هؤلاء قوم ابغضوا رجلا لم يكن الى الطعن عليه سبيل فاحبوا اعداءه)[٤٠] .

ان عشرين سنة ولي فيها معاوية الشام جعلته يخبر نفسية الشآميين ويقتلها دراسة فعرف كيف يتأتي لها برفق حتى صارت اطوع له من بنانه ، وجعل يفجؤه الامر العظيم يطيش له الحليم فيلقاه هادئا غير محتفل ، مطمئنا الى تعلق رعيته واخلاص جنده له ، هذاالجند الذي تعهده بدعاية محكمة وارتاح الى غفلته وطواعيته وسذاجته احيانا حتى ضرب المثل بطاعة اهل الشام وجند الشام فصار يشيع فيهم ما لو تحدث به الى غير شامي لضحك منه ، وحسبك ان تعلم انه رباهم على عقيدة ان عليا واصحابه تاركون للصلاة[٤١]. لم يفت معاوية الداهية الاريب سلطان القصص على النفوس ، فاتخذ قاصا يذكر الناس بعد صلاة الصبح ، وكان هو يتمع الى قصصه الذي يبدأ بذكر الله واليوم الاخر ، ثم يخوض في السياسة فيذكر الخليفة وحزبه ويثني عليهم ويدعو لهم ، ويذكر خصومه ذاما لهم

وداعيا عليهم[٤١] . ولم يكن يتورع القصاص عن الاختلاق والكذب بما يرضي السلطان ولو كان نلك الاختلاق في الدين والكذب على سيد المرسلين ، وكأن الغاية ـ وهي توطيد السلطان ـ بررت الوسيلة على ما يزعمون . ولقد روض معاوية رعيته في الشام على استحسان ما يستحسن واستهجان ما يستهجن حتى اصبح عندهم امر الخليفة في كل شيء من امر الله . هذه نزعة القوم التي نشئوا عليها في العصر الاول ، والصحابة واهل العلم والمرأى ، ورؤوس الناس وعقلاؤهم لا يزالون احياء متوافرين ، فما ظنك اذا رحل هؤلاء وجرى على اثارهم ذرياتهم من بعدهم ، جيلا بعد جيل ، فورثوا عن اوليهم نزعاتهم السياسية والحزبية دون ان يكون لهم علمهم ولا عقلهم ولا سؤددهم ؟ والخلفاء ودعاتهم مع نلك دائبون في غرس ما يرضي الدولة في نفوسهم ، فيترعرعون منذ نعومة اظفارهم وقد الفوا شتم علي وآل بيته مع ذكر الله على منابر الشام ، وغذى به ادبهم الشعبي وما يتناقلون من اخبار وعقائد والساطير ، وانت تعلم ان العامة تقيس للسلطان في هواه ذراعا كلما قاس اصبعا .

ان هذه الاساطير اعني الاحاديث الموضوعة كذبا في الفضائل والمثالب والمغيبات اخبار بعضها وضع لحوادث انقضت قبل زمن الوضع ، وبعضها حل في عقائد العامة على انه لم يقع بعد ، لكنه آت لا ريب فيه كعقيدة السفياني ، وممن يعايشنا اليوم خلق كثير على هذا الاعتقاد ينتظر خروج السفياني ،. انها جميعا تخضع لسنة فطرية جعلها الله من سنن الطبيعة ، وهي ما يعبر عنه في الجغرافية الطبيعية بـ (الائتكال والتراكم) ، والحق ان الحياة كلها على هذه الارض ينالها ما ينال الارض نفسها من ائتكال في نواح وتراكم في اخرى ، لا استثني من ظواهر الحياة شيئا لا المادية ولا المعنوية ، فالعقائد والاساطير والاداب ، وحتى الدين في نفوس الناس ، كل نلك يعنو لسنة الله هذه ويعتور اجزاءه ضمور في جهات ونمو في جهات ، وانظر على سبيل المثال الاسلام كما هو في الكتاب العزيز وكما بلغه صاحب الشريعة عليه الصلاة والسلام وفهمه الصحابة الاولون ، والاسلام كما يتصوره العامة وكثير من الخاصة في أية بقعة شئت من العالم الاسلامي اليوم ، ولأمر ما كان المجددون الذين يقيضهم الله لهذا الدين بين الفترة والفترة يعنون اول ما يعنون بازالة تلك الطبقات المتراكمة على جوهر الدين حتى يجعلوه للناس كما انزل الله ، وقلما كفت حياة الواحد منهم لتنظيف النقطة التي ركز فيها جهوده .

والذي اريد قوله هنا ان هذا الركام من المغيبات التي وصلت الينا بدأ خبرا ذا زوائد عن حادث وقع ، ثم اضاف اليها الرأي العام مع الزمن ما غمره من شعور نحوه ، ومن رغبات يتمنى ان لو وقعت ، وامورا يود أن لم تقع ، ثم صهر

ذلك كله في بوتقة المغيبات ، خادعا نفسه ان ذلك سيقع على هذا التفصيل ، فعوض بذلك على نفسه ـ من حيث لا يشعر ـ اخفاقا او خسائر في انفس او منافع وامال .

وبعد فهذا معاوية كما تجليه المغيبات من الاساطير والموضوعات ، ولئن كنا في دراستنا حكمنا عليها بعدم الصحة وهو ما لا يشك فيه باحث ان ما تدل عليه صحيح صحيح . لقد كان معاوية ـ رضي الله عنه ـ حاكما واسع النفوذ في حكمه ، يحظى بالشعبية الواسعة في مجتمعه ، محبوبا الى ابعد حدود المحبة ، ولا ادل على ذلك من رواج هذه الاساطير في المجتمع الشامي جيلا بعد جيل ، ووجدانها السبيل الى تخليدها في النفوس والسطور ، ثم بقائها حتى زماننا هذا نعتبر بها وننشئ حولها الدراسات ، ولقد امدتنا بما لا سبيل للتاريخ الرسمي الى الحظوة به ، فهي اصدق منه دلالة على تيارات المجتمع في عفويتها ولئن اسقط المحدثون الاستدلال بها جميعا ان على الباحثين في الادب او السياسة او الاجتماع ان يعضوا عليها بالنواجذ ، لامانتها في الدلالة على نفسية المجتمع . والشعب يعبر عن شعوره احيانا صريحا واضحا على خط مستقيم كما يقولون ، وذلك ايام الرخاء والحرية ، وتارة في رمز والتواء اذا نزل بالمجتمع من الارهاق والعسف ما لا قبل له به ، فينفس عن كبته في قصص واساطير وامثال قد تكون ابلغ في الدلالة على حاله مما كان ارسله صريحا في ايام الرخاء ، وله بهذا تعويض عما فقد من حرية وطمأنينة ، كما تعوض الاحلام لصاحبها ما عجز عن تحقيقه حال اليقظة ، ومن هنا كانت الاساطير مصدرا يجب ان يبحث فيها بعناية وان تستنطق بحذق وحيطة واحكام .

حواشي

١ ـ القاموس المحيط.
٢ ـ الصحاح.
٣ ـ لسان العرب والقاموس والصحاح.
٤ ـ «فنون الادب» ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود ـ القاهرة سنة ١٩٤٥ م (مطبعة لجنة التأليف والترجمة
٥ ـ ننقل في هذا البحث عن المخطوطة ذات الرقم ١٥ / ٣٣٨٠.
٦ ـ تهذيب تاريخ ابن عساكر (دمشق : مطبعة روضة الشام) ١/٤٠.
٧ ـ المصدر السابق.
٨ ـ تاريخ دول الاسلام للذهبي ١٠ / ٥٥.
٩ ـ مخطوطة ابن عساكر ج٥ الورقة ٥٢٤.
١٠ ـ الجزء السابق، الورقة ١٩٤ / ٢.
١١ ـ الورقة ١٩٤ / ١.
١٢ ـ ٦ / ٦٧.
١٣ ـ تهذيب تاريخ ابن عساكر ٢ / ٣٠٧.
١٤ ـ مخطوطة ابن عساكر ٥ / الورقة ٤٨٨ / ١ وفيها (أيات الله) ولعلها محرفة عما أثبتناه.
١٥ ـ الجزء السابق الورقة ٤٧٨ / ١. والوضع هنا على لسان الأصمعي
١٦ ـ كنز العمال ٦ / ٦٧.
١٧ ـ مخطوطة ابن عساكر ج٥ الورقة ٣٦٢ / ١
١٨ ـ الجزء السابق الورقة ٣٧٣ / ١.
١٩ ـ تهذيب تاريخ ابن عساكر ٣ / ١٠٣.
٢٠ ـ مخطوطة ابن عساكر ج٥ الورقة ١ / ٣٤٠ وعن هذا الجزء النقول الآتية :
٢١ ـ الورقة ٣٤٢.
٢٢ ـ الورقة ٣٤٦ / ١.
٢٣ ـ الورقة ٣٤٢.
٢٤ ـ الورقة ٣٤٨ / ١ ثم عقب الحافظ ابن عساكر بكلام على ضعف السند وسقوطه بمالا يعنينا هنا، فما في المتن كلف لتوهين نسبه الى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكذلك الامر في الروايات السابقة واللاحقة.
٢٥ ـ الورقة ٣٤٠ / ١.
٢٦ ـ الورقة ٣٤٠ / ٢ هذا ينبيك انه تصدى لوضع الأحاديث والأخبار كل أحد حتى العوام،

وإلا فأيسر قدر من ثقافة كاف ليعرف صاحبه أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم الخلفاء الراشدون بالمدينة ماتوا ولم يكن بعد شكل ولا إعجام.

٢٧ ـ الورقة ٣٤٢ / ١. ٢٨ ـ الورقة ٣٤٦ / ١. ٢٩ ـ الورقة ٣٤٧ / ١.

٣٠ ـ الورقة ٣٤٥ / ٢.

٣١ ـ الورقة ٣٤٨ / ٢.

٣٢ ـ الورقة ٢٤٨ / ٢.

٣٣ ـ كذا هي في الرواية.

٣٤ ـ الورقة السابقة، هذا وقد تكلم الحافظ ابن عساكر على كذب هذا الحديث ووضعه إسنادا ومتنا، ونقل عن الخطيب أنه من وضع الوكيل وأن الاسناد رجاله كلهم ثقات إلا الوكيل. اهـ وأردت بنقل هذا تذكيرك بأن الوضاعين يلصقون بما يضعون أسنادا مقبولة لا طعن فيها، وأن النقد في هذا الباب نقد المتن نفسه. هذا وقد رواه الحافظ في موضع آخر برواية ثانية منكرة في إسنادها غير واحد من المجاهيل.

٣٥ ـ ص ٣٩٩.

٣٦ ـ المصدر السابق ص ٣٦.

٣٧ ـ مروج الذهب ٢ / ٢١٧.

٣٨ ـ تهذيب تاريخ ابن عساكر ١ / ٨٠.

٣٩ ـ ارشاد الاريب ١٤ / ١٢٨ (طبعة فريد رفاعي)، ويبلغ الخبر المأمون فيقول: (لا جرم قد ابتعث الله عليهم من يلعن أحياءهم وأمواتهم ويلعن من في أصلاب الرجال وأرحام النساء) يعني الشيعة.

٤٠ ـ مجلة الشرق ٢٦ / ٤١٤ نقلا عن تاريخ بغداد لابن النجار.

٤١ ـ تاريخ الطبرى ٤ / ٢٩ ـ ٣٠.

مظهر من مظاهر الحكم الأموي في بلاد الشام

عبد الامير دكسن
جامعة بغداد

من المسائل المهمة التي شغلت المسلمين منذ الفترة المبكرة وخلال جميع مراحل تاريخهم مسألة القدر ، وهل ان ما يصيب الانسان من خير او شر هو مقدر عليه من الله ام انه من صنعه هو . ونتيجة لذلك ظهرت مدرستان فكريتان تقول الاولى : ان القدر خيره وشره من الله سبحانه وتعالى وتلك هي المدرسة القدرية[١] . اما الثانية فترى ان الانسان (قادر خالق لافعاله خيرها وشرها ، مستحق على ما يفعله ثوابا في الدار الاخرى ، والرب تعالى منزه ان يضاف اليه شر وظلم وفعل هو كفر ومعصية لانه لو خلق الظلم كان ظالما ، كما لو خلق العدل كان عادلا)[٢] . وهذه هي مدرسة اهل الاعتزال .

وبالرغم من ان الصلة بين هاتين المدرستين صلة وثيقة من حيث (الايديولوجية) فان المدرسة الاولى سبقت الثانية في ظهورها .

وقد كان للمدرسة الاولى دورا بارز في العصر الاموي ، ليس على الصعيد الفكري فحسب بل على الصعيد السياسي كذلك . فقد تبنى الخلفاء الامويون وخاصة اولئك الذين شهدت فترات حكمهم اضطرابات كثيرة واحداث سياسية هامة ــ فكرة القدرة واستخدموها في تفسير وتبرير كثير من المواقف السياسية وكذلك فيما اتخذوه من اجراءات تجاه خصومهم السياسيين .

فقد حاول الخليفة يزيد بن معاوية بن ابي سفيان تبرير قتل الحسين بن علي بانه قضاء من الله ليس له فيه يد[٣] ، وان الله هو الذي يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء[٤] .

ويعتبر عصر الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥ ــ ٨٦ هـ/ ٦٨٤ ــ

٧٠٥ م) ـ ذلك العصر المزدحم بالاحداث الجسام ـ العصر الذي شهد تطبيق فكرة القدرةفي السياسة الاموية بصورة واضحة . فعندما قتل سليمان بن صرد الخزاعي زعيم التوابين في معركة عين الوردة ٦٥ هـ/ ٦٨٤ م قام عبد الملك خطيبا على المنبر ليعلن ان الله هو الذي قتله وليس غيره[٥] ولكن التطبيق الواضح جدا لهذه الفكرة في السياسة العامة لهذا الخليفة تتوضح في الحادثة التالية :

عندما قتل عبد الملك عمرو بن سعيد بن العلي الاشدق (٧٠ هـ/ ٦٨٩ م) وكان اصحابه ومؤيدوه يحدقون بقصر الخليفة امر هذا الاخير (برأس عمرو ان يطرح اليهم من اعلى القصر فطرح اليهم وطرحت الدنانير ونثرت الدراهم ، ثم هتف عليهم الهاتف ينادي : ان امير المؤمنين قد قتل صاحبكم بما كان من القضاء السابق ، والامر النافذ ولكم على امير المؤمنين عهدالله وميثاقه ان يحمل راجلكم ، ويكسو عاريكم ويغني فقيركم ويبلغكم الى اكمل ما يكون من العطاء والرزق ، ويبلغكم الى المئتين في الديوان . فاعترضوا على ديوانكم ، واقبلوا امره ، واسكنوا الى عهده ، يسلم لكم دينكم ودنياكم . فصاحوا نعم نعم سمعا وطاعة لامير المؤمنين)[٦] . وهكذا نرى ان قتل عمرو بن سعيد كان بقضاء سابق وامر نافذ .

وتظهر من تحليل هذا النص حقيقتان على جانب كبير من الاهمية . الاولى هي ان الخليفة ـ اي الدولة ـ كان يتمنى فكرة القدرة ويستعملها في المجال السياسي كوسيلة لاسكات المعارضة ضده وقد اوضح ذلك ابن قتيبة[٧] عندما اشار الى ان عطاء بن يسار ومعبد الجهني سألا الحسن المسري قائلين : (يا ابا سعيد ان هؤلاء الملوك يسفكون دماء المسلمين ويأخذون الاموال ويفعلون ويقولون انما تجري اعمالنا على قدر الله . فقال : كذب اعداء الله) . اما الحقيقة الثانية فهي ان عددا لا يستهان به من الناس ـ على الاقل في دمشق حاضرة الخلافة الاموية ـ كانوا يؤمنون بفكرة القدرة .

ونلمس اثر فكرة القدر في سياسة الخليفة عمر بن عبد العزيز كذلك فقد كتب حين ولي الخلافة الى يزيد بن المهلب : (اما بعد فان سليمان كان عبدا من عبيد الله الله عليه ، ثم قبضه واستخلفني ، ويزيد بن عبد الملك من بعدي ان كان ، وان الذي ولاني الله من ذلك وقدر لي ليس علي بهين ....)[٨]

وقد كتب الوليد بن يزيد بن عبد الملك ولي عهد هشام والخليفة بعده الى هشام بعد ان قطع عنه ما كان يجري عليه ما يلي :(لقد بلغني الذي احدث امير المؤمنين من قطع ما قطع عني ... فان يكن ذلك لشيء في نفس أمير المؤمنين علي فقد سبب الله لي من العهد وكتب لي من العمر ، وقسم لي من الرزق ما لا يقدر احد دون الله على قطع شيء منه دون مدته ، ولا صرف شيء عن مواقعه ، فقدر الله يجري بمقاديره ...)[٩] .

ومما يؤكد حقيقة كون خلفاء بني امية قد تبنوا فكرة القدر في سياساتهم واتخاذها وسيلة لاسكات الخصوم من جهة وان هناك عدد من الناس لا يستهان به ـ على الاقل في دمشق العاصمة ـ يؤمنون بفكرة القدر من جهة اخرى هو هذه الرسالة المتبادلة بين الخليفة عبد الملك بن مروان والحسن بن ابي الحسن البصري والتي تدور حول فكرة القدر . وسنحاول هنا التعريف بها لبيان اهميتها .

ولسنا هنا على اية حال في مجال الثبات صحة نسبة هذه الرسالة الى الحسن البصرى لان هذه المسألة قد اثبتت من قبل Julian Obermann[١٠] عندما اشارت الى ما ذكره الشهرستاني[١١] بقوله(ورأيت رسالة نسبت الى الحسن البصري كتبها الى عبد الملك بن مروان وقد سأله عن القول ، القدر والجبر فأجابه بما يوافق مذهب القدرية واستدل فيها بايات من الكتاب ودلائل من العقل ولعلها لواصل بن عطا فما كان الحسن ممن يخالف السلف في ان القدر خيره وشره من الله تعالى) . وحاولت ان تفسر الجزء الاخير من هذا النص بقولها ان الشهرستاني وهو من اهل السنة والجماعة امتنع من ان يشك في تاليفها ولم يكن على ما يبدو في ذهنه اي شيء عن مسألة صحتها . واقترح فقط انها كتبت بطلب من عبد الملك من قبل تلميذ الحسن واصل بن عطاء)[١٢] . كما اوضحت ما ذكره ابن المرتضى عن الرسالة والذي نصه : (ورسالته الى عبد الملك مشهورة وذلك ان الحجاج كتب الى الحسن : بلغنا عنك في القدر شيء فاكتب الينا بقولك فكتب اليه رسالة طويلة نحن نذكر فيها اطرافا ...)[١٣] عنك في القدر شيء فاكتب الينا بقولك فكتب اليه رسالة طويلة نحن نذكر فيها اطرافا ...)[١٣]

اما محتويات هذه الرسالة وتحليلها فقد تصدى لها كل من H. Ritter[١٤] و Michael Schwarz[١٥] .

والحقيقة ان هناك نسختين من هذا المخطوط في استانبول ، الاولى في مكتبة Koprulu تحمل رقم(1589) والثانية في مكتبة(Aya Sofya)وتحمل رقم (3988) . وقد نشر النسخة الاولى الاستاذ(H. Ritter)[١٦] عام ١٩٣٣ . هذا وتختلف النسخة الاولى عن الثانية في كونها اكثر تفصيلا ، ولذلك فقد اعتبر الاستاذ (Ritter) النسخة الثانية من هذا المخطوط عبارة عن ملخص للاولى وان كلا النسختين مصدرهما واحد . ولهذا فقد اصبح نشر هذه النسخة الثانية المختصرة امرا ضروريا سيما وان هذه الرسالة تمثل ـ على حد علمنا ـ اقدم وثيقة تبحث بصورة منظمة في مسألة مهمة الا وهي القدر .

ونسخة المخطوط الذي نحن بصدده معنونة (رسالة مكاتبات عبد الملك بن مروان مع الحسن البصرى في الانشاء)[١٧] . وتتألف من ثلاث عشرة ورقة مكتوبة

بالخط النسخي الجيد ، والاوراق مجدولة في كل صفحة تسعة أسطر ، وطول كل صفحة ٨/٧ سم . اما عرضها فهو ٢ / ١٣ سم . اما طول الكتابة فهو ٤/ ١٤ سم وعرضها ٤/ ٧ سم . وعلى الورقة الاولى وقفيه بالخط الفارسي المهمل نصها : (قد وقف هذه النسخة الجليلة سلطاننا الاعظم والخاقان المعظم مالك البرين والبحرين خادم الحرمين الشريفين السلطان ابن السلطان الغازي محمود خان وقفا صحيحا شرعيا حرره الفقير احمد شيخ زاده المفتش باوقاف الحرمين الشريفين غفر لهما) . وتحتها خاتم احمد شيخ زادة ، وفوق الوقفية خاتم مدور بالخط النسخي القديم نقشه (الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا ان هدانا الله) . وتحت النقش طغراء .

اما ناسخ المخطوط فهو شمس الدين القدسي في سنة ٨٨٢ هـ/١٤٧٧م. وفيما يلي نص المخطوط محققا .

بسم الله الرحمن الرحيم

(١٢) نسخة كتاب عبد الملك بن مروان الى الحسن بن ابي الحسن البصري رحمة الله عليهما .

من عبد الملك امير المؤمنين الى الحسن بن ابي الحسن ، سلام عليك . اما بعد فاني احمد اليك الله الذى لا اله الا هو ، وأساله ان يصلي على محمد عبده ورسوله وبعد فقد بلغ امير المؤمنين (٢ ب) عنك قول في وصف القدر لم يبلغه مثله عن احد ممن مضى ، ولا نعلم احدا تكلم به ممن ادركنا من الصحابة رضى الله عنهم كالذي بلغ امير المؤمنين عنك . وقد كان امير المؤمنين يعلم منك صلاحا في حالك وفضلا في دينك ودراية للفقه وطلبا له وحرصا عليه . ثم انكر امير المؤمنين هذا القول من قولك فاكتب الى امير المؤمنين بمذهبك والذي(١٣) به تأخذ عن احد من اصحاب رسول الله (ص)، ام عن رأى رأيته ام عن امر يعرف تصديقه في القرآن ؟ فانا لم نسمع في هذا الكلام مجادلا ولا ناطقا قبلك . فحصل لامير المؤمنين رأيك في ذلك واوضحه والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

فكتب اليه الحسن البصرى رحمة الله عليه :

بسم الله الرحمن الرحيم

(٣ب) لعبد الملك امير المؤمنين ، من الحسن بن ابي الحسن البصري . سلام الله عليك يا امير المؤمنين فاني احمد اليك الله الذي لا اله الا هو ، اما بعد اصلح الله امير المؤمنين وجعله من الولاة الذين يعملون بطاعة الله ، ويتبعون رسوله ، ويسارعون في اتباع ما امرهم به ، فان امير المؤمنين اصلحه الله اصبح في قليل من كثير مضوا من اهل الخير ، منظور اليهم ، ومنقول عنهم، ومقتدى

باعمالهم (١٤أ) وقد ادركنا يا امير المؤمنين السلف الذين عملوا بامر الله ورووا حكمته ، واستنوا بسنة رسوله (ص) فكانوا لا ينكرون حقا ، ولا يحتجون الا بما احتج به الله على خلقه في كتابه . فان الله تبارك وتعالى يقول وقوله الحق : (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما اريد منهم من رزق وما اريد (٤ب) ان يطعمون)[١٨] فامرهم الله بعبادته التي لها خلقهم ، ولم يكن ليخلقهم لامر ثم يحول بينهم وبينه ، لانه تعالى ليس بظلام للعبيد . ولم يكن احد ممن مضى من السلف ينكر هذا القول ، (ولا يحول)[١٩] عنه . لانهم كانوا على امر واحد متفقين ولم يأمروا بشيء منكر ، كما قال الله تبارك وتعالى : (قل ان الله لا يأمر بالفحشاء اتقولون على الله ما لا تعلمون ، قل امر ربي بالقسط (١٥أ) واقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون)[٢٠] (وينهى[٢١] عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون)[٢٢,٢٣]. فكتاب الله تعالى حياة عند كل موت ، ونور عند كل ظلمة ، وعلم عند كل جهل . فما ترك الله للعباد بعد الكتاب والرسول حجة . وقال عز وجل : (ليهلك من هلك عن بينة ويحي من حي عن بينة وان الله لسميع عليم)[٢٤] . ففكر يا امير المؤمنين في قول الله تعالى : (لمن)[٢٥] شاء منكم ان (٥ب)يتقدم او يتأخر ، كل نفس بما كسبت رهينة)[٢٦] ونلك ان الله تعالى جعل فيهم من القدرة ما يتقدمون بها ويتأخرون ، وابتلاهم لينظر كيف يعملون وليبلو اخبارهم . فلو كان الامر كما يذهب اليه المخطئون لما كان اليهم ان يتقدموا ولا يتأخروا . ولما كان لمتقدم اجر فيما عمل ، ولا على متأخر لوم فيما لو يعمل لان نلك بزعمهم ليس منهم ، ولا اليهم ، ولكنه من عمل (١٦أ) ربهم . واذ قال : (ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء[٢٧] . وما يضل به الا الفاسقين ، الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما امر الله به ان يوصل ويفسدون في الارض اولئك هم الخاسرون)[٢٨،٢٩] . فتدبر يا امير المؤمنين نلك بفهم . فان الله عز وجل يقول : (فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه اولئك الذين هداهم الله واولئك هم اولو الالباب)[٣٠] واسمع الى قول الله تعالى (٦ب) حيث يقول : (ولو ان اهل الكتاب امنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيائتهم ولادخلناهم جنات النعيم ، ولو انهم اقاموا التوراة والانجيل وما انزل اليهم من ربهم لاكلوا من فوقهم ومن تحت ارجلهم[٣١] .

وقال : (ولو ان اهل القرى امنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض ولكن كذبوا فاخذناهم بما كانوا يكسبون)[٣٢] واعلم يا امير المؤمنين ان الله لم يجعل الامور (١٧أ) حتما على العباد ولكن قال : ان فعلتم كذا فعلت بكم كذا وان فعلتم كذا فعلتم بكم كذًا ، وانما يجازيهم بالاعمال . كما قال : (فزده عذابا ضعفا في النار)[٣٤] ولكن الله قد يبين لنا من قدم لهم نلك ومن اضلهم فقال :

(وقالوا ربنا انا اطعنا سادتنا وكبرا'نا فاضلونا السبيل)[34] . فالسادات والكبرا' هم الذين قدموا لهم الكفر واضلوهم السبيل بعد ان كانوا عليها لان الله (٧ ب) تعالى يقول (انا (هديناه)[35] السبيل اما شاكرا واما كفورا)[37] . اما يشكر هدايتنا له السبيل وانعامنا عليه واما ان يكفر . (ومن[37] شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربي غني كريم)[38] وكذلك قال الله عز وجل : (واضل فرعون قومه وما هدى)[30] فقل يا امير المؤمنين كما قال الله : فرعون الذي اضل قومه . ولا تخالف الله في قوله ولا تجعل من الله (الا) ما رضي لنفسه فانه قال : (ان علينا (٧أ) للهدى وان لنا للاخرة والاولى)[39] فالهدى من الله والضلال من العباد ثم فكر يا امير المؤمنين في قول الله عز وجل : (وما اضلنـــا الا المجرمون)[40] وقوله : (واضلهم السامرى)[33] وقوله : (ان الشيطان ينزغ بينهم ان الشيطان كان للانسان عدوا مبينا)[34] وقوله تعالى : (انما يأتيكم به الله ان شا' وما انتم بمعجزين)[41] يعني ما انتم بناجين من عذابه ان اتاكم ولا بممتنعين منه ولا ينفعكم نصحي حينئذ ان اردت (٨ب) ان انصح لكم عند حلول العذاب بكم . وقد علم نوح عليه السلام ان العذاب اذا نزل بهم وعاينوه لم ينفعهم الايمان عند ذلك . وقد بين الله تعالى في الامم التي اهلكها بقوله : (فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عبــاده وخسر هنــالك الكافرون)[42] . فهذه سنة الله لا تقبل التوبة عند معاينة العذاب واما قوله : (ان كان الله يريد ان يغويكم هو ربكم (٩أ) واليه ترجعون)[43] . انما يعني بالغي في هذا الموضع العذاب وهو قوله تعالى : (فخلف من بعدهم خلف اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا)[38] اي عذابا اليما . وقد تقول العرب : لقي فلان اليوم غيا ، اي ضربه الامير ضربا شديدا او عذابا اليما . ومما يجادلون فيه قول الله تعالى : (فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كانما (٩ ب) يصعد في السما' كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون)[39] فتأولوا بجهلهم على ان الله تعالى خص قوما بشرح الصدر يعني القلوب بغير كفر كان منهم ولا فسق ولا ضلال ، ولا لهؤلا' سبيل الى ما كلفهم من الطاعة وهم مخلدون في النار طول الابد ، وليس ذلك يا امير المؤمنين كما ذهب اليه الجاهلون المخطئون ربنا ارحم (١٠ أ) واعدل واكرم ان يفعل ذلك بعباده . كيف وهو يقول : (لا يكلف الله نفسا الا وسعها لها ما كسبت ، وعليها ما اكتسبت)[44] وانما خلق الجن والانس لعبادته فجعل لهم اسماعا وابصارا وافئدة يطيقون بها اضعاف ما كلفهم الله من عبادته ، فمن اطاع منهم فيما امر به فقد شرح الله صدره للاسلام ثوابا منه بطاعته في العاجلة من الدنيا ويخفف به (١٠ب) عليه اعمال البر ، ويقفل به الكفر عليه والفسوق والعصيان

فان كان في حاله (تلك)[45] مطيعا لجميع ما امر به ونهى عنه ، وكذلك حكم الله في كل من بلغ من الطاعة مبلغه من شريف او وضيع ، ومن ترك ما امره الله به من الطاعة وتمادى في كفره وضلاله في عاجل الدنيا وهو مع ذلك مطيق للانابة والتوبة جعل الله صدره ضيقا حرجا كانما يصعد في السماء عقوبة منه له بكفره وضلالته في عاجل الدنيا (١١أ) . والتوبة مأمور بها ومدعو اليها ، كذلك حكم الله عز وجل فيمن بلغ من الكفر والفسق مبلغه . وانما ذكر الله يا امير المؤمنين الشرح والضيق في كتابه رحمة منه لعباده وترغيبا منه لهم في الاعمال التي يستوجبون بها في حكمته تضييق الصدر . ولم يذكر الله لهم ذلك ليقطع رجاءهم ولا ليؤيسهم من رحمته (١١ب) وفضله)[46] . ولا ليقطعهم عن عفوه ومغفرته وكرمه اذا هم صلحوا وقد بين الله عز وجل في كتابه فقال تعالى : (يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم)[47] .

وقال[48] يذكر ان السلف الماضين من صحابة النبي (ص) كانوا على كلامه لا ينكرون منه شيئا ولا يجادلون فيه لانهم كانوا على أمر واحد متفق (١٢أ) متفق لا ينكرون منه حقا ولا يحقون منه باطلا ولا يلحقون بالرب الا ما الحق بنفسه ولا يحتجون الا بما احتج الله على خلقه . وذكر لامير المؤمنين انه انما احدث الكلام فيه حين احدث الناس النكرة له .فلما احدث المحدثون الكلام في دينهم ذكرت من كتاب الله خلافا لما قالوا واحدثوا وذكر من ذلك ما لا ينكره امير المؤمنين بل يعرفه ويعرف تصديقه في (١٢ب) كتاب الله وسنه رسول الله (ص) .

ففي كتاب الحسن بعد كتاب الله الشفاء والبرهان . وقد (بعثت)[49] اليك يا امير المؤمنين نسخة كتاب الحسن لتنظر فيه وتفهمه ليزيدك الله هدى الى هداك وعلما الى علمك فافهمه وتدبره واعمل فيه برأيك وعقلك لنفسك وللمسلمين ، ولا تدخل عليه فيه شبهة فانه واضح لمن تدبره وعقله وقبل عدل الله فيه . واعلم انه لم يبق ممن اخذ عن السلف الماضي (١٣ أ) من اصحاب رسول الله (ص) احد هو اعلم بالله تعالى وافقه في دين الله ، واقرأ لكتاب الله من الحسن ، مع صلاح حاله وثقته في دينه ، وامانته واهتمامه بأمور المسلمين . فاكرمه كرامة ترجو بها ثواب الله تعالى في الاخرة والاولى .

آخر الرسالة : ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم . ما شاء الله كان وما لم (يشاء) لم يكن ، واستغفره واتوب اليه من كل ما لا يرضاه (١٣ب) من قول وعمل . والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيدنا محمد واله وصحبه الطاهرين .

مظهر من مظاهر الحكم الاموي في بلاد الشام

كتبه العبد الفقير الراجي عفو ربه القدير شمس الدين القدسي في العشر الاول من ربيع الآخرة سنة اثنين وثمانين او ثمانماية هجرية نبوية مصطفوية .

حواشي

١ ـ الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج ١ ، ص ٤٣ .
٢ ـ نفس المصدر ،ج ١ ص ٤٥ .
٣ ـ الطبرى ، ٥/ ٤٦٢ .
٤ ـ نفس المصدر ، ٥/ ٤٦٤ .
٥ ـ البلاذرى ، انساب الاشراف ، ج٥ ، ص٢١٢ ، الطبرى ، ٥/ ٦٠٥
٦ ـ الامامة والسياسة (منسوب لابن قتيبة) ح٢ ، ص ٢٧ ـ ٢٨ .
٧ ـ المعارف ، ص ١٤١ .
٨ ـ الطبرى ، ٦/٥٦٧ .
٩ ـ الطبرى ، ٧/ ٢١٢ ـ ٢١٣ .
10 — Political Theology in Early Islam, pp. 138-162, JOAS, 55, 1935.
١١ ـ الملل والنحل ، ج١ ، ص٤٧
12 — Julian Obermann, Op. Cit p. 140.
١٣ ـ طبقات المعتزلة ، ص١٩ .
14 — Studien Zur Geschichte der Islamischen Frommigkeit. pp. 67-82, Der Islam, 22, 1953.
15 — The Letter of Al - Hasan Al - Basri, pp. 15-30, Oriens, 20, 1967.
16 — Op. Cit., pp. 66-82.
١٧ ـ كذا في الاصل .
١٨ ـ سورة الذاريات ٥١ / ٥٦.
١٩ ـ في الاصل (يحاول)
٢٠ ـ صورة الاعراف ٧/٢٨ ، ٢٩ .
٢١ ـ في الاصل (وكان نهيه) .
٢٢ ـ سورة النحل ١٦/ ٩٠ .

٢٣ ـ في الاصل (قل ان الله لا يأمر بالفحشا' اتقولون على الله ما لا تعلمون قل أمر ربي بالقسط وكان نهيه عن الفحشا' والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون).
٢٤ ـ صورة الأنفال ٨/٤٢ .
٢٥ ـ في الاصل (فمن) ٩٣١ ـ سورة المدثر ٧٤/٣٧ .
٢٦ ـ سورة ابراهيم ١٤ /٢٧ .
٢٧ ـ سورة البقرة ٢/٢٦
٢٨ ـ في الاصل : (ويضل الله الظالمين وما يضل به الا الفاسقين . الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به ان يوصل ويفسدون في الارض اولئك هم الخاسرون) .
٢٩ ـ سورة الزمر ٣٩/١٨ .
٣٠ ـ سورة المائدة ٥/ ٦٥ .
٣١ ـ سورة الاعراف ٧/ ٩٦ .
٣٢ ـ سورة ص٦١/ ٣٨ .
٣٣ ـ سورة الاحزاب ٣٣/٦٧ .
٣٤ ـ في الاصل (وهديناه) .
٣٥ ـ سورة الانسان ٧٦/٣ .
٣٦ ـ في الاصل (فمن) .
٣٧ ـ في الاصل (حميد) سورة النحل ١٧/ ٤٠ .
٣٨ ـ في الاصل (وما هدى) سورة طه ٢٠/٧٩ .
٣٩ ـ سورة الليل ٩٢/١٢ .
٤٠ ـ سورة الشعرا' ٣٦/٩٩ .
٤١ ـ سورة طه ٢٠/٨٥ .
٤٢ ـ سورة الاسراء ٧/٥٣
٤٣ ـ سورة هود ١١/٣٣ .
٤٤ ـ سورة غافر ٤٠/٥٨ .
٤٥ ـ سورة هود ١١/٣٣ .
٤٦ ـ سورة مريم ١٩/٥٩ .
٤٧ ـ سورة الانعام ٦/١٢٥ .
٤٨ ـ سورة البقرة ٢/ ٢٨٦ .

٤٩ ـ في الاصل (تبك) .
٥٠ ـ في الاصل (وفصله) .
٥١ ـ سورة المائدة ١٦/٥ .
٥٢ ـ ينتهي هنا كلام الحسن البصرى ويبدأ كلام مرسل رسالة الحسن الى الخليفة ولعله احد الولاة .
٥٣ ـ في الاصل (بعث) .

مصادر البحث

١ ـ ابن قتيبة ، عبد الملك بن مسلم (ت ٢٧٦ ه / ٨٨٩ م) .أ كتاب المعارف مكوتتجين ، ١٩٥٠

ب الامامة والسياسة (منسوب لابن قتيبة) ، ح١ ، القاهرة ١٩٥٧

٢ ـ البلاذرى ، احمد بن يحي (ت ٢٧٩ ه/ ٨٩٢ م) ، انساب الاشراف ج٥، القدس ١٩٣٦ .

٣ ـ الطبرى ، محمد بن جرير (ت ٣١٠ ه/ ٩٢٣ م) تاريخ الرسل ، والملوك ح ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، القاهرة ١٩٦٣ ـ ١٩٦٦) .

٤ ـ الشهرستاني ، محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨ ه/ ١١٥٣ م) ، الملل والنحل ، لايبزك ١٩٢٣ .

٥ ـ ابن المرتضى ، احمد بن يحي الزيدي (ت ٨٤٠ ه/ ١٤٣٧ م) طبقات المعتزلة ، بيروت ١٩٦١ .

اضافة الى المقالات التي ورد ذكرها في الحواشي والنص المحقق .

الحائر في العمارة الأموية الإسلامية

فواز احمد طوقان
كلية الآداب ـ الجامعة الاردنية

يتردد لفظ الحائر/« الحير »[1] في كتابات المؤلفين في العمارة الاسلامية كجزء من علم مركب . ويقتصر هذا اللفظ على علمين لقصرين شهرا في البادية السورية ، وهما قصر الحير الغربي وقصر الحير الشرقي .

وأول ما يفطن الباحث اليه ان الحائر ضرب من العمارة مقتصر على فترة زمنية من التاريخ العربي . وسريعا ما يتنبه االباحث الى ان خصائص الحائر تكاد تكون مجهولة . فقد نشأت حتى الماضي القريب مشادات اكاديمية حول وظيفة الحائر وفوائده بين العلماء الاثريين . اما الباحثون الآخرون كالمؤرخين ودارسي الادب ، فلم يفطنوا الى اهمية هذا الانجاز العمراني فمنهم من غاب عنهم كلية المثير من خصائص الحائر والابنية التي عنده[2] .

لبناء الحائر دلالات عديدة على الدولة التي انشيء في ظلها . فلكي يبني احد الخلفاء حائرا ، يجب ان تتوفر شروط سياسية واقتصادية خاصة تلقي اضواء في غاية الاهمية على الدولة ذاتها .

ولنعطي امثالا على ما نقول : خلال حكم مروان بن الحكم ، استفحلت النزاعات القبلية بين القيسية واليمنية لدرجة اودت بالخليفة نفسه كما أودت بالدولة الاموية اواخر سنيها . ولقد كانت الرقعة الجغرافية لهذه القبائل المتناحرة تقع في البادية السورية على وجه التخصيص . وسيرى القاريء ، من جهة اخرى ، ان الحائر الذي بناه هشام بن عبد الملك يتطلب مساحة شاسعة ، وقناة للماء تمتد ٤٠ كيلومترا على الاقل . والسؤال الذي يطرح نفسه : كيف يجازف الخليفة بالوف الوف الدنانير ينفقها على بناء الحائر في منطقة النزاع القبلي الدموي ذاك ان لم يكن متيقنا ان الحرب لن تصل الى حائره ؟ لكننا نعلم من كتب التاريخ ان الخلفاء الامويين لم يستطيعوا استمالة الحزبين معا ؛ بل كانت السلطة الاموية تستميل الحزب الواحد في الآن الواحد ، بينما يطفق الفريق الآخر يعاديها ما اصطنعت عدوه . فكيف يأمن الخليفة الاموي على حائره في البادية السورية التي كانت مسرح الحروب القبلية ان لم تكن له السيطرة التامة على الحزبين

المتناحرين ؟ هذه بديهية لم يلم بها دارسو التاريخ الاموي من قريب أو بعيد . لذلك نرى أن لبناء الحائر اهمية تاريخية وسياسة لا يستهان بها بالاضافة الى اهميته العمرانية .

سنعرض في الفصول التالية للقصور الاموية عموما وقصور الحائر على وجه التخصيص . ثم نستعرض بعض النصوص القديمة التي تفيدنا في استجلاء معنى الحائر ومفهومه ، فنستخلص بعد ذلك خصائص عامة للحائر وانواعه .

ولا يسعني في هذا المقام الا ان اقدم شكري لعطوفة الاستاذ يعقوب عويس مدير الآثار الاردنية على المساعدات القيمة التي قدمها الي بشأن زيارة القصور الاموية ، والسماح لي باستعمال صور دائرة الآثار العامة .

الفصل الأول

سبب بناء القصور الاموية الصحراوية

يعجب دارس العمارة الاسلامية من عدد القصور العربية المنتشرة في بلاد الشام . فهنالك عشرات القصور الباقية اثارها الى اليوم ، بالاضافة الى الكثير مما ذكرته المصادر التاريخية ، لكن لم يعثر على آثاره بعد . وقد علل علماء الاثار الاسلامية سبب ظاهرة بناء هذه القصور واستنتجوا من تعليلاتهم نتائج عامة تحدد المظهر الحضاري للدولة الاموية . ولا بأس اذا عرضنا فيما يلي النظرية الخاصة بسبب بناء القصور الاموية ليتضح امامنا مدى اجحاف الدارسين بحق الحضارة العربية خلال حكم بني امية .

أ ـ النظرية (القديمة) في سبب بناء القصور الاموية :

شاعت في العقود الثلاثة الماضية « نظرية » تتعلق بالقصور الاموية مفادها ان الخلفاء الامويين ، اولا ثم امراءهم ورجالات بلاطاتهم ، تركوا المدن السورية واتجهوا الى مناطق نائية ، خصوصا منطقة البادية في شرق الاردن ، لسببين :

الاول :هروبهم من أوبئة المدن ومناخاتها الفاسدة ،

والثاني : حبهم للبادية من ناحيتين، تتبعهم اللغة العربية الفصحى، وملاحقة لذة الصيد الصحراوي.

ولا يسعنا المجال هنا في ان نتتبع سجل المصادر التي بين ايدينا لنرى من اين اصبحت هذه « النظرية » مقولة ثابتة في تاريخ العرب وحضارتهم في العصر الاموي . على ان الرجل الملوم باختلاق هذه « النظرية » والترويج لها هو العلامة الاثري كرسويل ، صاحب اهم مؤلف في العمارة الاسلامية المبكرة .[٣]

وهنالك باحث آخر عمم هذه « النظرية » ونقلها من حوزة علماء الآثار الى حوزة مؤرخي الحضارة العربية . فقد تابع فيليب حتي اقوال كرسويل في هذا المجال وأضفى عليها كثيرا من التبسيطات والتعميمات بحيث اصبحت هذه « النظرية » صورة رومنتيكية لحياة البلاطات الاموية تنطبق وتخيل الاوروبيين للعرب[٤]

ومن المؤسف حقا أن تتناقل هذه « النظرية » فيما بعد على انها حقيقة راسخة ويطلق لها العنان الى ما عدا القصور في الحضارة الاموية[٥] . وتغدو هذه

النظرية عند سليم عادل عبد الحق ، الاثرى العربي السوري ، مغالطة زاد فيها وتأنق منطلقا مما اشاعه وروج له سابقوه . يؤكد عبد الحق ان الخلفاء الامويين « احتفظوا بطباعهم العربية وظلوا يحنون الى البوادي التي انبتتهم قبل مجيئهم الى بلاد الشام ، ويتشوقون الى حياة التبدى فيها[٦] ». ثم انظر اليه يستكمل استدارة المغالطة عندما يستمر في الحديث عن اسباب خروج الامويين الى الصحراء[٧] :

لهذا فانهم كانوا يتركون دمشق عاصمتهم بين حين وآخر الى الفضاء الافيح ليتمتعوا بلذة الصيد ، ويتلقوا اللغة الصحيحة عن السنة الاعراب ، ويلتقوا بزعماء القبائل العربية ويبتعدوا عن تقشف المدينة ، ويستسلموا الى حياة الانس والدعة ...

بمثل هذه الآراء شاعت « النظرية » عن سبب بناء القصور الاموية في بادية الشام .

ب ـ مناقشة الآراء السابقة .

الدليل الأول الذي ينسف تلك النظرية هو كون القصور التي وجدت خارج الصحراء أكثر بكثير من القصور التي بنيت في الصحراء . اذ نجد هذه الابنية منتشرة انتشارا واسعا في بلاد الشام ابتداء بجنوب الاردن الى الجزيرة الفراتية شمالا ، ومن جوف الصحراء شرقا حتى ساحل البحر الابيض المتوسط غربا . ذلك ان الامويين لم يتقيدوا بمنطقة معينة ، بل نجد لهم قصورا الى الشمال من خليج العقبة[٨] . كما نجد لهم قصورا في غور الاردن[٩] .

هذا بالاضافة الى قصور البادية الاردنية كقصر عمره وآلمشتى والموقر ... الخ[١٠] . اضف الى ذلك قصور منطقة حوران[١١] . كما ان المناطق الشامية الاخرى احتشدت بصنوف القصور الاموية . فحول الخط الواصل بين تدمر والرصافة والرقة ، انتشرت قصور عديدة ترجع الى عهد الدولة الاموية . وحول الخط الواصل بين حمص وحماه وحلب اقيمت قصور ترجع الى ذات الحقبة التاريخية . اضف الى ذلك الجزيرة الفراتية خصوصا في اواخر الدولة الاموية حين ركز بنو امية على حران كموقع امين لدولتهم الآيلة الى السقوط . كما ان غوطة دمشق وجبال لبنان الشرقية ، وسهل البقاع حوت شيئا من تلك الابنية المترفة . والمنطقة الغربية من سورية ، نعني انطاكية ، لم تعدم القصور . ومنطقة الساحل من فلسطين نالت حظها هي الاخرى .[١٢]

ولا بد من الاشارة خاصة الى شرق الاردن ، فقد زخرت بالقصور والمواقع الاثرية الاموية ، ان الكرك والشوبك والاحراش التي ما زالت بقاياها مرئية في ضانة ، واذرح ، ومنطقة اغوار جنوب البحر الميت وخصوصا الحميمة ، تعج

باسماء اماكن وردت فيها لفظة قصر وتردد ذكرها كثيرا في كتب التاريخ الاموي .

وبهذا نرى ان انتشار القصور الاموية لم يكن حكرا على الصحراء ، بل تعداها الى الجبال حينا ، والسهول حينا آخر ، والى الاغوار آنا وعلى شواطىء الامواه آنا اخر.

والدليل القاطع الثاني على خطأ النظرية القديمة ، يكمن في وضع الامويين الأجتماعي قبل توليهم سدة الخلافة . فقد كانوا أهل حاضرة ومدنية، لا أهل بادية . بل كانوا في مكة من أكثر اهلها اخذا بأسباب الحضارة. كما ان غالبية المسلمين الأولين الحاكمين كانوا من أهل الحواضر ولم يشتركوا مع اهل البادية في شيء من العادات الموروثة إلا اللغة . ونعلم موقف الاسلام المشهور من الاعراب ، فهم «اشد كفرا ونفاقا»[١٣]

والدليل القاطع الثالث هو التقليد الذي شاع في اواخر عصر الخلفاء الراشدين . فقد طفق اثرياء المدينة المنورة يبنون الدور والقصور خارج مكة والمدينة حيث كانوا يقضون اوقاتهم في اللهو والطرب . وقد شارك بنو امية في هذا التقليدبحصة الاسد . ولما اتتهم القوة السياسية ، ابتداء بعهد الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان ، اضافوا الى ثرائهم نفوذا جديدا . وكانوا اكثر الناس انشاء للبيوت والدور خارج مكة والمدينة ، خصوصا بعد خروجهم الى بلاد الشام ، وذلك كي ينزلوا في تلك الدور عندما يفدون الى الحجاز .[١٤]

وهنالك دليل دامغ رابع نستمده من علماء اللغة في القرون الهجرية التالية للعصر الاموي . لقد ارسى علماء اللغة من امثال عمرو بن العلاء والخليل بن احمد والاصمعي قواعد راسخة بخصوص صفاء اللغة العربية . فقد اجمعوا ان الذين ينطقون اللغة العربية الفصحى هم ابناء ست قبائل ، ثلاث منها رئيسية ، وثلاث تليها مرتبة من حيث الصراحة والسلامة في اللسان ، وهي : قيس ، وتميم ، واسد ، ثم تليها هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ، (لاحظ انهم لم يأخذوا عن قريش)[١٥] . وقد بنى اللغويون العرب هذا التركيب على امور عديدة اهمها قرب موطن القبيلة او بعده من قلب الجزيرة العربية ، اي مدى اختلاطها بالاعاجم[١٦] . فلم يأخذ اللغويون اللغة عن القبائل التي اختلطت بالاعاجم . فمثلا لم يأخذوا عن غسان او تغلب او بكر لانهم جاوروا الفرس والروم والسريان ، ولم يأخذوا شيئا عن اهل اليمن لانهم ذوو لسان « ما هو بلساننا » كما اثر عن ابي عمرو بن العلاء[١٧] . ولو تفحصنا مجموع القبائل المقيمة في البادية السورية رأينا ان معظمها من اليمن . كغسان وكلب وبعضها من تغلب . هؤلاء نقضوا شرطا هاما وهو مجاورة الاعاجم او كونهم من غير العدنانية . وبالتالي ، لم تكن البادية السورية مصدرا لغويا صريحا ، بل لم يؤثر عنها في كتب اللغويين العرب انها

عدت كذلك في يوم من الايام

وهنالك تساؤل يطرح نفسه ازاء سماع المستشرقين والعلماء حول ما أسموه باوبئة المدن الشامية ووخم مناخاتها . وهو التالي : كيف تكون المدن السورية مليئة بالاوبئة وذات مناخ وخم ولا تكون مدن الجزيرة العربية كذلك خصوصا مكة والمدينة المنورة وهما مدينتان تضخمتا سكانيا وعمرانيا تضخما فاحشا في العقدين الاولين من الهجرة بوفود عشرات الالوف من الموالي والاعاجم وعشرات الالوف من الجند وما يلحقهم من دواب ورواحل . وبالمقابل كيف نعلل التناقض بين ادعاء الكتاب المحدثين حول وخم واوبئة المدن الشامية من جهة وجمال مناخ هذه المدن وسحرها الخلاب من جهة اخرى وهو ما كتبه الجغرافيون العرب عبر العصور !

بهذه الاسباب يتضح لنا ان ما ادعاه العلماء الأثريون بخصوص سبب بناء القصور الصحراوية في البرادى السورية انما هو ادعاء لا تدعمه الحجج المنطقية ولا يستقيم بازاء البينة التي طرحناها آنفا .

اما الاسباب والدوافع الحقيقية التي حدت بالأمويين من خلفاء وامراء ورجالات دولة الى بناء القصور والابنية المترفة في بلاد الشام فهي كثيرة اهمها :

١ ـ حب البناء لدى اي انسان مقتدر يدفعه دائما الى التجديد في الشكل وفي المكان . نقصد ان الامويين الذين كانوا مقتدرين حقا بنوا بيوتا فخمة بطرز جديدة شاؤوا ان تكون مستقلة ومنعزلة خصوصا وان المدن السورية التي كانت مراكز ثقل الدولة الاموية اكتظت بالسكان من اخلاط متعددة . وبالتالي يكون اهم سبب في نظرنا هو ضيق الفسحة الارضية داخل المدن وفي ضواحيها القريبة ، وحب الاعتزال عن اخلاط الناس والعامة .

٢ ـ تقليد الامراء الغسانيين فقد كانوا العنصر العربي الوحيد في الديار الشامية قبل الفتح العربي وكانوا اكثروا من البناء والتشييد .١٨

٣ ـ فكرة الارتحال في الباديتين ، الشامية والعراقية ، فكرة قديمة قدم الاباطرة الساميين الاقدمين .

٤ ـ القلق والسأم اللذان حاقا بسادات ذلك العصر بعد ان تضخمت ثرواتهم ولم يجهدوا طوال يومهم في كسب ارزاقهم .

٥ ـ التقرب من القبائل العربية القاطنة بلاد الشام وذلك ببناء قصور فخمة عند مناطق تجمع تلك القبائل .

٦ ـ العدل بين الزوجات وذلك ببناء قصر لكل واحدة بعيد عن قصور الاخريات .

٧ ـ التقليد الجاهلي عند سادات العرب من السفر في الصحراء والتجوال

مع الاصحاب تتبعا لبيوت المحبوبات ومنتجعات اللهو والقنص .

٨ ــ الهروب من اعين الرقباء وتجنب نقد الفقهاء المتزمتين . ذلك ان الامويين انغمسوا في اللهو المحرم من شراب الى مجالس طرب الى رياضة مكروهة ككثيرين من العرب المسلمين اذ ذاك .

٩ ــ الصيد وحب الصحراء . ذلك اننا لا ننكر حب الامويين لاجواء الصحراء وجمالها الهادئ ، علما بان البادية الشامية كانت تتمتع ببعض مظاهر الخصب .

يمكن للقارئ العودة الى مقالنا في حولية مديرية الآثار العامة الاردنية حيث فصلنا القول في هذه الاسباب وشرحنا ملابساتها[١٩] .

نرى مما سلف ان القصور الاموية كثرت كثرة كبيرة وتنوعت اغراضها وأشكالها ومواقعها وأصحابها بحيث تستأهل دراسة مستفيضة تجمعها في مؤلف واحد لانها من دون شك تعبير مادي ملموس عن ظاهرة هامة من مظاهر الحياة في العصر الاموي . ونحن في بحثنا هذا نتعقب نوعا واحدا من انواع هذه القصور أرسى الامويون قواعده واشاعوه في سوريا ونقله عنهم كثيرون فيما بعد ، الا وهو بناء الحائر .

الفصل الثاني

قصر الحائر الغربي (١٠٥ ـ ١٠٩هـ)

يقع هذا القصر[٢٠] على بعد ٦٤ كيلو مترا الى الغرب من تدمر . وكان يطلق عليه في السابق : « رصافة هشام » لقربه من مدينة الرصافة لاهميته وكثرة منشاته . وكان هشام يسكن موضعا في البادية ذكرته المصادر باسم : « الزيتونة » (؟) وذلك قبل ان يعتلي كرسي الخلافة . وقد قضى حياته يسكن البادية حول تدمر . عندما وصله البريد حاملا عصا الخلافة وخبر البيعة له اقام في ذات المنطقة ، حيث بنى لنفسه قصر الحائر الغربي . ثم بعد بضع سنوات ، عندما خشي من الطاعون تحرك الى الشمال الشرقي من هذا الموضع مسافة ١٦٠ كيلو مترا وابتنى قصرا أخر .[٢١] . يستنتج من هذا ان قصر الحائر الغربي شرع في بنائه عام ١٠٥هـ. وتم بناء معظمه على الاقل عام ١٠٩هـ .[٢٢]

يتألف قصر الحائر الغربي من قصر كبير مؤلف من طابقين له خان قريب منه وأعمال مائية معقدة وحمام وحوزة الحائر . وجميع هذه الابنية اموية في خصائصها . وهي خصائص مميزة للعمارة الاموية تضم الابراج نصف الدائرية والزينة الزخرفية العربية والتخطيط الهندسي ل « البيت » السوري[٢٣] .

ونستعرض فيما يلي هذه الابنية باختصار .

أ . الخان : وهو مربع الشكل تقريبا (٥٥ × ٥٥ م) زواياه غير قائمة فيه اربع قاعات تدور حول باحة داخلية (٢٣ م × ٢٣ م تقريبا) يدور على جهاتها الابع رواق مسقوف عرضه ٢,٥٠ م . ويمتد حائط الجهة الشمالية الى الشرق اكثر من ثلاثين مترا ليكون منه رواق مسقوف فيه حوض للشرب . اما حائط الجهة الجنوبية الممتد شرقا بنفس الطول السابق ، فيكون منه مسجد صغير كما يدل محرابه على ذلك[٢٤] .

ب . القصر : وهو مربع الشكل تقريبا (٧١ م × ٧١ م) بنيت جدرانه الخارجية من حجر مقصور بالطين والحصى يعلوها افريز من الطين المشوى تعلوه مداميك من الطين ذاب معظم اقسامها العليا بفعل العوامل الطبيعية .

هنالك ثمانية ابراج على الحائط الخارجي توزيعها تماثلي ثلاثة من كل جهة . اما البوابة الرئيسية فيحيط بها برجان أخران مزركشان مع الواجهات

المحيطة بالبوابة باشكال هندسية ونباتية معقدة . وتشبه هذه البوابة مداخل قصور الامويين الاخرى خصوصا قصر المشتى وقصر هشام في خربة المفجر وقد نقلت بوابة قصر الحائر الغربي وواجهتها الى متحف دمشق حيث اعيد تشييدها هناك[٢٥] .

بنيت غرف القصر وعددها ٥٩ غرفة حول الرواق المسقوف المحيط بالباحة الداخلية وهو تقسيم هندسي شاع في العمارة الاسلامية عبر العصور بتأثير العمارة الاموية . وباحة القصر مربعة يبدو انها كانت مبلطة فيها حوض للماء اشبه ما تكون بباحة قصر هشام المذكور[٢٦] وهنالك طابق علوي لقصور الحائر هذا يستدل عليه من وجود مجرور داخل احد الاعمدة كانما هو لدورات المياه في الطابق الاعلى .

وزينة هذا القصر مفرط بها ، استعمل بها ، استعمل لذلك عدا عن الاقواس والكوى الهلالية والدرابزينات العديدة ، الجبص المحفور والطوب المزين والدهانات والاشكال الهندسية والورديات والاغصان الملوية والصور الآدمية .

ج . الحمام[٢٧] : يقع شمالي القصر ، وشكله غير منتظم . بنيت جدرانه من الحجر الجيرى وقسم الى ثلاثة اقسام : الاول للابتراد ، والثاني للاغتسال والتدفئة ، والثالث للآتون والمياه . ومن معاينة تخطيط غرف الحمام وتجهيزاته يستخلص المرء ان هندسته خليط ما بين حمام قصر هشام في خربة المفجر من جهة وقصره عمرة وحمام الصرح من جهة ثانية . فقبابه كانت برميلية على الارجح ، وجدرانه كانت من الجبص المطلي بلون واحد ليحاكي تعريقات المرمر . بيد ان زينة هذا الحمام وهندسته لم يبلغا شأو وزينة وهندسة الحمامات الثلاثة الانفة الذكر .

د . الحائر : ارض مستطيلة الشكل طولها كيلومتر وازيد قليلا وعرضها حوالى نصف كيلو متر اي بمساحة تقل عن ٥٠٠ دونم بقليل . وقد بني سور الحائر من الطوب (لذلك زالت معالمه الآن) فوق اساسات من الحجر ما زالت بادية للعيان . اما الدعامات التي تسند السور فهي كالابراج نصف الدائرية تعتور السور من كلا جانبيه على التوالي .

وللحائر مدخلان ، رئيسي وثانوي . ويقع المدخل الرئيسي عند الزاوية الشرقية للحائر ، يحيط به برجان ، ويتألف من دهليزين متتابعين على جانبيهما من الداخل مصاطب لجلوس الحرس . والى اليمين من البوابة الرئيسية ، هنالك بناء صغير داخل الحائر ، ربما كان لسكنى الحرس او الزراع القائمين على الحائر وسواس الحيوانات التي حشرت داخل الجوزة .

هـ . الاعمال المائية : من الملاحظ ان أبنية الحائر عادة يتواجد معها

اعمال مائية ضخمة وذلك للسقاية والرى وللاستعمال في الحمامات .

١ . وقد استمد قصر الحائر الغربي مياهه من سد حربقة الذي يبعد ١٦,٥ كيلومتر جنوبي القصر ويقوم على السفح الشمالي لجبل الرواق . بني هذا السد زمن الرومان وظل مستعملا حتى امتلأ بالرسوبات التي تجلبها السيول عاما بعد عام . وقد شيد السد ببناء جدارين من الاحجار الضخمة متقابلين ثم ملئت الفجوة بينهما بالردم الى ارتفاع اقل من مستوى اعلى الجدارين باربعة امتار واستعملت الفجوة كطريق فوق السد . وقد تجمع وراء هذا السد يوم كان صالحا بحيرة اصطناعية بلغت مساحتها ٨٠٠ متر × ١٥٠٠ متر تقريبا . وقد امتلأت هذه البحيرة بالرواسب الطينية الداكنة اللون حتى قمة السد واضحت ارضا زراعية خصبة ما زالت تزرع الى اليوم .

٢ . اما كيف تصل مياه هذا السد الى القصر ، فعملية في منتهى الدقة والحذق الهندسي . هنالك قناة تحت الارض شبيهة بقناة قصر الحائر الشرقي[٢٨] . تتسرب المياه من ثلاثة اماكن اثنان منها كبيران في اعلى السد من الحجر لهما بوابة تقطع جريان الماء عند الطلب . والثالث عبارة عن انبوب فخارى يخترق السدبزاوية ميلان حادة وليس فيه شئ لقطع الماء .

٣ . تتجمع المياه الخارجة من السد في قناة تحت سطح الارض وتسيل فيها مسافة ٤ كم . حيث تصل الى محطة مائية توزع المياه بين الحائر وبقية منشآت القصر . وتستمر القناة الرئيسية مسافة ١٢,٥ كم تقريبا حيث تصب مياهها في بركة عظيمة خارج الحائر . مقاسات البركة هي ٦٠ × ٦٠ × ٣,٦٠ م . وتعود المياه فتتسرب من البركة في قسطلين فخاريين ضخمين يساوي حجمهما حجم القناةالخارجة من المحطة المائية . ويصب الماء السائل في الانبوبين بعد مسافة قصيرة في « مصنع للمياه » يمكن للمرء ان ينحدر اليه بواسطة درج . وتخرج المياه من هذا « المصنع » بواسطة قناة تحت الارض تتجه نحو الحائر . وقبل دخول القناة في أرض الحائر تتفرع منها قناة صغيرة تدير طاحونة مائية ثم تعود فتصب في القناة التي لا تلبث ان تدخل الحائر لتتفرع الى اقنية تروي المزروعات وسواها .

٤ . اما طريقة سقاية الحائر فمتقنة . تقطع الحائر خمس قنوات افقية وخمس أخرى عمودية . وقد شقت هذه الاقنية في التراب كالترع الصغيرة . وعند تقاطعها بنيت موزعات من الحجر ما زالت ماثلة للعيان . اما الترع الصغيرة فقد طمرت ، على ان اثارها ظلت بادية حتى اليوم . ويظهر من شكل الموزعات التي على تقاطع الترع ان قطع الارض المربعة الحاصلة من امتداد الترع طولا وعرضا كانت تسقى الواحدة بعد الاخرى بالتتابع . واما المياه الزائدة فكانت تتجمع في

منخفض داخل الحائر امامه سد صغير يكون وراءه بحيرة ، ملئت بالرسوبات الطينية اليوم كما حدث لسد حربقة نفسه . وقد كان للسد الصغير هذا ثلاث عشرة فتحة سدت عشر منها وبقيت ثلاث لتسريب الزائد من المياه ايضا . وقد دعم السد الصغير هذا بأبراج نصف دائرية .

و . تعقيب : ولا بد من التنويه هنا الى ان الصفة الغالبة على زينة العمائر الاسلامية السابقة لقصر الحائر الغربي كانت الفسيفساء والمرمر وكثيرا من المسكوكات المعدنية . لكننا لا نعثر على شيء منها في هذا القصر ، بل استعيض عنها بالجبص المحفور والملون . ايعني هذا ان عام ١٠٥ ه كان عام تحول جذري في انماط الزخرفة الاسلامية ؟

الفصل الثالث

قصر الحائر الشرقي ١١٠ هـ[٢٩]

يقع هذا القصر على بعد ١٠٠ كيلو متر تقريبا الى الشرق من مدينة تدمر . وقد عرفت خرائبه منذ زمن بعيد لدى الرحالة الغربيين . وفي القرن العشرين ، عمل الباحث الاثرى غبريال على ازالة التربة عنه ورفع بعض انقاضه .

يتألف قصر الحائر الشرقي من بنا ئين كبير وصغير ، وأعمال مائية ، وحوزة الحائر ،. وسنعرض فيما يلي الى هذه الابنية باختصار :

أ ــ البناء الصغير :[٣٠] طابعه الهندسي هو من نمط « البيت السوري ، اي ان الغرف بنيت حوله باحة مربعة. يبلغ هذا البناء تقريبا ٦٠ م × ٦٠ م . للقصر أربعة ابراج نصف دائرية على زواياه الاربع ، وفي كل ضلع برجان أخران نصف دائريين . اما برجا الضلع الجنوبية فمقتربان الى بعضهما ليضما البوابة . وكان لكل برج قبة صغيرة فوقه . وقد استطاع المصمم ان يخرج لنا تزيينا ظريفا حقا وذلك باستعمال الطوب ، ويصب الجبص على هيئة اروقة مطموسة ثم بنصب قبة من الطوب اعلى البرج . وقد علق كرسويل على هذا التصميم بقوله : » يكشف اعلى الابراج عن تصميم في الزركشة غاية في الاصالة والظرف .»[٣١]

يتألف البناء الصغير من طابقين ، لغرف الطابق السفلي عقود تحمل قبابا برميلية الشكل ويبدو أن الطابق العلوي كان بنفس تقسيمات الطابق السفلي ، لكن سقفه كان خشبيا مسطحا ، يستدل على ذلك من وجود فجوات في أعلى الحيطان كانت لوضع العوارض الخشبية التي تحمل السقف .

ب ــ البناء الكبير : اطوال هذا البناء كبيرة اذ تبلغ ١٦٠ م × ١٦٠ م تقريبا . وله صفة « البيت » السوري التي نراها في غالبية الابنية الاموية الهامة غير الدينية . ويمتاز هذا البناء الكبير عن الصغير السابق الذكر بأن له أربعة مداخل رئيسية ، واحد في كل ضلع .

يحيط بالبناء الكبير ثمانية وعشرون برجا نصف دائرية . قطر الواحد اربعة امتار . هنالك اربعة في الزوايا وستة في كل ضلع ، أبعادها عن بعضها متساوية .

يظهر في الحائط الخارجي مزاغل فوق البوابات ، وفي أعلى كل برج فتحات للسهام بعرض ١٠ سم تتقابل على زوايا قائمة تقريبا . ولا بد من الاشارة هنا الى الاهمية البالغة لهذين البنائين ، الكبير والصغير ،فهما اقدم انشائين في الاسلام عثر عليهما الى الان تظهر فيهما خصائص التحصين[٣٢] .بيد اننا لا نرى ان هذه المظاهر قصد منها التحصين بالمعنى العسكري ، لان كثرة المداخل العريضة وتزيينها بالجبص المحفور ، تجعل خاصية التحصين هذه من قبيل الزخرف والتزويق ليس الا .

ج ـ المسجد داخل البناء الكبير : بني هذا المسجد بعد انشاء الأسوار او الحيطان الخارجية للبناء الكبير ، عند الزاوية الجنوبية الغربية ، بطول قدره ٢٣ م وعرضه ٣٣ م ، له صحن مربع (٣٨ م × ٣٨ م) ورواق حول الصحن . بني المسجد من الطوب وتضمن اقواسا بشكل حدوة الحصان مدببة الرأس وفي داخله عقود فوق دعامات وأعمدة . وله نوافذ فوق العقود بالضبط مثل الجامع الاموي في دمشق . اما مئذنة هذا المسجد فمربعة ، وهي ثالث اقدم مئذنة عثر عليها في الاسلام .[٣٣]

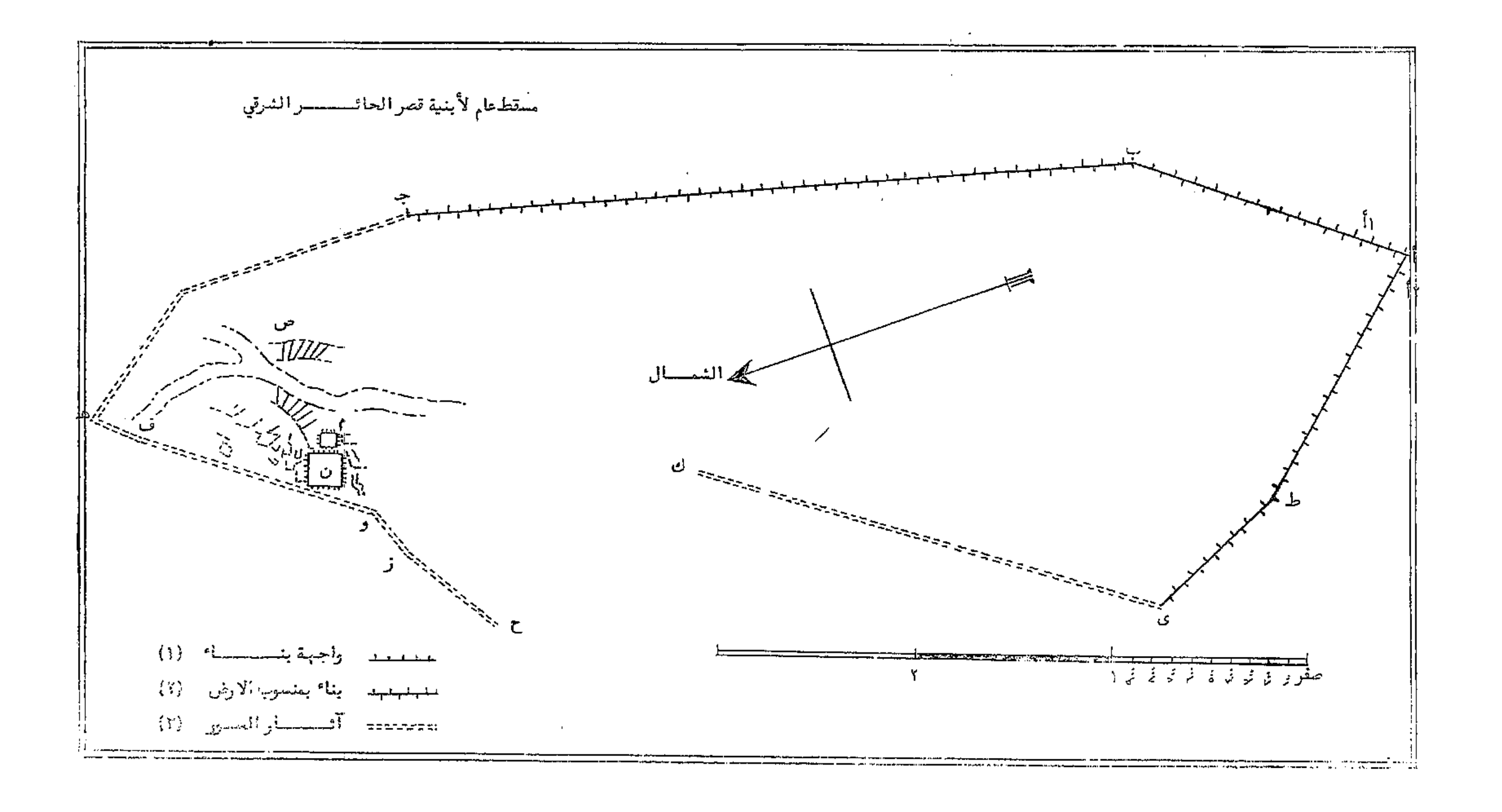
يلاحظ ان قصر الحائر الشرقي اكبر من الغربي ، وأكثر ابنية رئيسية . فالتقدم والتطور واضحان اذا ما قورن القصر الشرقي بالقصر الغربي . لكن هنالك فوارق واضحة بين القصرين ، من حيث الزينة والهندسة . يستتبع هذا فوارق في الوظيفة ، فوارق ليست جوهرية ، بل فرعية : فكلاهما بني للاسباب المبينة انفا ، (الفصل الثاني من هذه الدراسة) . على ان الفارق الكبير بين القصرين يكمن في حوزة الوحوش . لقصر الحائر الشرقي حوزة أكبر وأوسع تفي بغرض حشر الوحوش على وجه اكمل من حوزة القصر الغربي .

لنتفحص هذه الحوزة بشيء من الوضوح ونراجع نظريات العلماء حولها .

أ ـ سور الحائر[٣٤] : (انظر الشكل المرفق) يلاحظ ان شكل الحوزة غير منتظم . وتقدر مساحتها ب ٨٥٠٠ دونم تقريبا . بني السور من الحجر بسمك ١,٥٠ وارتفاع ٤,٥٠ تقريبا ، ودعمت واجهته بأبراج نصف دائرية من جهة وابراج مثلثة من الجهة المقابلة . ولكن معظم اجزاء السور مهدمة لا يظهر منها غير اساساتها وبعض النتوءات الاخرى يرجح انها اجزاء من ضمن السور .

ب ـ قناة الحائر : جلب الماء الى الحائر من عين القوم التي تبعد ٣٠ كيلو مترا عن قصر الحائر الشرقي . وقد حفرت تحت سطح الارض وبنيت من الحجارة المقصوصة وسقفت الا في بعض المواضع ليتمكنوا من نشل الماء منها . وهذه الطريقة معروفة في كافة انحاء العالم القديم .[٣٥]

ج ـ نظرية غبريال في الحائر بانه « بحيرة اصطناعية » : عندما تفحص



مسقط عام لأبنية قصر الحائر الشرقي
أ
ب
ج
هـ
و
ز
ح
ط
ى
ك
ن
ص
الشمال
واجهة بناء (١)
بناء بمنسوب الارض (٢)
آثار السور (٣)
صفر
١
٢

البير غبريال السور عند المرحلة (أ ١ ـ أ ـ أ ٢) ورأى الفجوات او الابواب المذكورة انفا ، ظن انها عبارات لتسريب المياه التي تجتمع داخل السور ، فاعتبر الحوزة بحيرة اصطناعية كبيرة (بطول خمسة كيلومترات وعرض كيلو مترين) لكن هذه المساحة الشاسعة ، وضحالة العمق نظرا لقصر السور (٤,٥ فقط) ، يجعلان كمية الماء المتبخرة عظيمة ، وبالتالي فان سرعة جلب المياه الى « البحيرة » يجب ان تكون بسرعة فائقة كي تبقى الحوزة مليئة بما يستحق من اجله انشاء مثل هذا السور الكبير . اضف الى ذلك ان سمك السور ضئيل جدا لا يعقل ان يتحمل ضغط الماء المجتمع في الداخل ابدا . فنظرية غبريال خاطئة ولا شك .

د ـ نظرية سيريغ في الحائر بانه « حديقة كبيرة » : بعدما نشر البير غبريال مقاله الاول مقترحا نظرية « البحيرة الاصطناعية » اجابه بعد اربع سنوات باحث اخر هو هنري سيريغ في مقال نشر في مجلة سورية .[٣٦] وقد دحض سيريغ آراء غبريال وفند نظريته بما هو الصواب .

فقد عثر سيريغ على بوابتين للحائر أوحى شكلهما بانهما للولوج الى الحائر أكثر من اي شيء آخر ، مع ان فيهما بعض مظاهر التحصين . وخرج في النهاية بان الحائر هو حديقة كبيرة تبلغ ٨٥٠٠ دونم ، محمية بأسوار قوية نوعا ما لكي تحمي ما بداخل الحير من حيوانات ومزروعات ضد غزوات البدو فقط ، وليس ضد هجمات جيش قوي منظم . ومما يؤكد نظرية سيريغ حسب رأيه ، ما رواه عن قروتي السخنة والطيبة المجاورتين للحائر اذ يطلقون عليه اسم « البستان »[٣٧] . وهو بهذه النظرية اول من أكد كون الحائر بستانا في المقام الاول .

و ـ كريسويل يحسم النقاش بين غبريال وسيريغ : عندما نشب الخلاف الاكاديمي بين العالمين السالفي الذكر حول مفهوم الحائر ، كان كرسويل يعد الطبعة الاولى للجزء الثاني من كتابه الضخم . وارتأى كرسويل ان يلقي بدلوه قبل ان ينجز كتابه ، فكتب مقالة قصيرة في مجلة سورية[٣٨] حول ماهية لفظ الحائر أكد فيها انه « حوزة لحشر الوحوش »[٣٩] .

وقد استمد كرسويل اثبات نظريته من ثلاثة مصادر كتابية ومصدر واحد اثري . اما الاخير ، فهو صورة غرفة الدرج في قصر الحائر الغربي (الغرفة رقم ١٤ في مخطط شلومبرجه) . ففي القسم الثالث من الصورة رسم منظر عبد حافي القدمين يسوق حيوانا ذا قرنين له اظلاف مشقوقة ويتوجه به الى مكان له ابواب مغلقة تفتح بمفاتيح . تظهر في الصورة ايضا[٤٠] . وقد اقترح لهذه الصورة عنوانا موضحا ، وهو : » عبد يسوق حيوانا الى الحائر « .

اما المصادر الكتابية الأخرى فتؤكد ما رسم في الصورة بدون جدل . كتب المؤرخ البيزنطي ثيوفانس وصفا لاعمال هشام بن عبد الملك قائلا : » وشرع في

ايجاد القصور في المناطق النائية وفي المدن ، وصنع الحقول المزروعة وال Paradeisos ، وعمل القنوات المائية .»[٤١] واللفظة الاجنبية يونانينية نقع على شرح وتأويل لها في معجم ويبستر : Literary enclosed park;
of Iranian origin, akin to greek **peri** around and **teichos** wall.

والنصان الآخران عربيان ، احدهما لليعقوبي في كتاب البلدان والثاني لابن مسكويه في كتابه تجارب الامم[٤٢] كان كرسويل قد ذكرهما في مقالة له عن معنى الحائر[٤٣] .

ويلخص كرسويل مفهومه للحائر بعد ذكر النصوص ، فيقول :
« اقرر ، اذن ، ان الحوزة التي طولها ٥ كيلومترات وعرضها ١٥٠٠ متر في قصر الحير (الشرقي) لم يكن بحيرة اصطناعية ولا كانت بستانا ، ولكن حمى للصيد ، صاحبه الخليفة هشام ، وان الاسوار لم تكن لتبقي البدو خارج الحوزة ولكن لتبقي الحيوانات داخلها . « ويعود بعد ذلك ليترجم « قصر الحير » فيؤكد وجوب ترجمتها الى : » قصر حمى الصيد »[٤٤] .

ز ــ تعقيب : بعد ملاحظة المعلومات الاثرية والمناقشات المتعلقة بالحائر يتبادر الى الاذهان سؤال سريع : لماذا اقاموا هذه الحيران[٤٥] ؟ان السبب في ابتناء القصور الصحراوية كما ذكرنا آنفا متعدد الجوانب ... احدها الصيد الصحراوي . لكن ما بالهم اقاموا هذه الحومات وحشروا فيها صنوف الحيوانات بغية اصطيادها ؟ لماذا لم يخرجوا الى الصحراء يصطادونها في عقر موطنها ؟ بل اليس الصيد والطرد ، وهما هواية علية القوم آنذاك ، عبارة عن رحلة طويلة شاقة مع حاشية كثيفة تنزل ليلا للراحة واللهو وترحل نهارا وراء الصيد ؟
هذا ما سنذكره في حديثنا عن الثروة الحيوانية في بادية الشام في الفصل الخامس من هذه الدراسة .

الفصل الرابع

هل هناك حيران اخرى؟

السؤال الذي يطرح نفسه الان . هل هنالك حيران اخرى في العالم الاسلامي غير الحائرين السالفي الذكر ؟ والجواب . نعم ، بكل تأكيد . لكنها ليست كلها اموية او محصورة في بلاد الشام ، بل تعدتها الى اقاصي الديار الاسلامية . وفيما يلي ، سنعرض لها واحدا واحدا مبينين ابرز خصائصها .

أ ـ حائر المتوكل للوحوش في سامراء(١) : هو اوسع الحيران المعروفة الى الان من حيث المساحة ، اذ تبلغ مساحته ٥٣٠٠٠ دونم . ومع ان سامراء كلها حظيت باهتمام الدارسين[٤٦] ، الا ان الحائر المذكور لم تخصص له دراسة بمفرده . وكان هذا القصر متعدد الابنية ، اذ حوى بالاضافة الى حوزة الحائر واسوارها ، قصورا وابنية واعمالا مائية ضخمة . يعنينا في هذا البحث الحوزة والمشاريع المائية ، لان باقي المنشآت تخرج عن الفترة الاموية التي تحصر بحثنا هذا .

١ ـ الحوزة واسوارها

الى الجنوب من سامراء ، وبمحاذاة شط دجلة الشرقي ، تقوم خرائب الحائر وهو مستطيل الشكل تقريبا الا ان ضلعه الجنوبية غير موازية للشمالية . تمتد الضلع الشمالية مسافة ٦,٥ كيلومتر تقريبا حيث تلتقي مع الضلع الغربية على زاوية اقل بقليل من قائمة . ويتجه السور بعد ذلك الى الجنوب مسافة تقرب من ٦,٥ كيلو متر . ثم يتجه السور الى الجنوب الشرقي مكونا مع الضلع الغربية زاوية تقارب ١١٠ درجات . ويحاذي هذا السور قناة المتوكل مسافة ٧ كيلو مترات تقريبا حيث يلتقي بالضلع الشرقية مكونا حائطا . وتصل الضلع الشرقية بين طرف الضلعين الجنوبية والشمالية وتلتقي مع الثانية في زاوية قائمة تقريبا حيث تكون ضلعا طولها ٩,٥ كيلو متر . وتبلغ المساحة المتكونة من تلاقي هذه الاضلاع حوالي ٥٣ كيلو متر مربعا اي ٥٣٠٠٠ دونم .[٤٧] وهي مساحة كبيرة جدا اذا اخذنا بعين الاعتبار انها بحاجة الى تشجير وزراعة وري وما الى ذلك من صنوف العناية الزراعية . اضف الى ذلك عدد الحيوانات التي احتيج لحشرها فيه .

اما اليوم ، فلا نعلم بالضبط ارتفاع السور . ولكن لا نتخيل انه اختلف

كثيرا عن عشرة امتار . ومن حيث سمكه ، لم نعثر على معلومات بهذا الصدد في المصادر التي بين ايدينا . هذا ، وقد دعمت الاسوار بأبراج نصف دائرية من الداخل والخارج تبتعد عن بعضها مسافات متساوية لم نعثر على تحديد لها في المصادر ، ويمكن تتبع آثار السور اليوم ، الا انه في بعض الاماكن مندثر لان الابنية التى انشئت مؤخرا ازالت معالمه[٤٨] .

٢ ـ الاعمال المائية في حائر المتوكل.

يتصل موضوع الاعمال المائية في حائر المتوكل بمسألة ري سامراء عموما وقد شرح الدكتور احمد سوسة موضوع ري سامراء باسهاب في كتابه : سامراء في عهد الخلافة العباسية ، يهمنا هنا ان نعرف ان نهر الرصاصي ، القاطول الكسروي الأعلى يمر الى الشمال الشرقي من الحائر بعد ان يستمد مياهه من دجلة . وقد رفع منسوب مياه القاطول الكسروي بتحويل مجراه الى الشمال قليلا . وعند الكيلومتر الثلاثين يتفرع نهر نيزك من الضفة الجنوبية للقاطول . وبعد بضع كيلومترات ينحرف نهر نيزك الى الجنوب ويستمر في الجريان حتى يدخل الحائر عند منتصف الضلع الشمالية تقريبا ، فمسيرته من عند القاطول الى الحائر ثمانية كيلو مترات تقريبا . وبعد دخول الحائر ، يجري نهر نيزك قرابة خمسة كيلو مترات حيث يتفرع منه نهر القادسية . اما نهر نيزك ، فينحرف عند نقطة التفرع نحو الجنوب الشرقي بدون نظام حتى يصب في البركة الجعفرية .

اما نهر القادسية فيخرج من الحائر ويجري نحو حصن القادسية الذي يقوم ما بين الضلع الجنوبية للحائر وضفة دجلة الشمالية . ويقطع نهر القادسية نهر القائم على عبارة ، ويجري جنوبا حتى يصب في نهر الصنم المتفرع من دجلة ايضا . اما ما بقي من نهر نيزك ، فبعد ان يصب في البركة الجعفرية عن علو يمكن ان يقال معها

«تنصب فيها وفود الماء معجلة   كالخيل خارجة في حبل مجريها .»

(البحتري)

بتسرب ماء البركة من كهريزين في اسفلها يمران عن جانبي قصر المشرحات (الجعفري). يمر الواحد وسط الابنية القائمة على جانب ساحة التل ويمر الثاني وسط الثانية. ويصب الكهريزان في نهر القائم، او القاطول الاسفل. وما زالت بقايا الكهريز الثاني الغربي ماثلة للعيان ويمكن تتبعها لان السيول قد جرفت الاتربة فانكشف معظمه القريب من نهر القائم.[٤٩]

اما سقاية الحائر فكانت من نهر نيزك ايضا . فكانت القنوات الرئيسيه تتفرع من نهر نيزك على جانبيه ، ومنها تتفرع قنوات صغيرة . وليس لدينا دراسة علمية تشرح هذه الخطة شرحا وافيا . ولا نظنها تختلف كثيرا عن طرائق الري

المستعملة في حائر قصر الحائر الغربي .[٥٠]

ويتصل بالاعمال المائية في قصر المتوكل للوحوش البركة الجعفرية التي وصفها الشاعر البحتري في احدى قصائده العصماء .[٥١] وقد كانت في اوج حكم الخليفة المتوكل بركة ضخمة للاستعمالات الشخصية ، لا اعمال السقاية . بلغت مقاساتها ٢٠٠ م × ٢٠٠ م × ٣ م . وقد شرح الدكتور احمد سوسة باسهاب عنها وعن تفاصيل هندستها واستعمالاتها ، فليرجع الى بحثه .

٣ ـ ولا بد من كلمة ههنا في انواع الوحوش التي حشرت في الحائر المتوكل ، فقد كانت نوعين : وحوشا كاسرة ، ووحوشا غير كاسرة . فقد كان فيه الاسود وكافة انواع السباع الاخرى ، معظمها طليق ، وكان فيه الظباء والحمير الوحشية والايائل والارانب والنعام ،[٥٢] بالاضافة الى انماط الطيور كافة خصوصا الطواويس[٥٣] . وقد بلغ عدد الحيوانات والارانب والنعام ،[٥٢] بالاضافة الى انماط حسب احدى قصائد البحتري الفي وحش . كما كان بعضها اليفا يأتي الى الناس فيتشممهم ويأكل من ايديهم .[٥٤]

السفان جاءت على قدر مسارعة
الى قبول الذي حاولته فيها
ان سرت ، سارت ، وان وقفتها وقفت
صورا اليك بألحاظ تواليها[٥٥]
يرعن منك الى وجه يرين له
جلالة يكثر التسبيح رائيها
حتى قطعت بها القاطول وافترقت
بالحير في عرصة فيح نواحيها[٥٦]
فنهر نيزك ورد من مواردها
وساحة التل مغنى من مغانيها
لولا الذي عرفته فيك يومئذ
لما أطاعك وسط البيد عاصيها ..

ب ـ حائر المامون في بغداد الشرقية(٢)

ورد ذكر هذا الحائر في عدة نصوص تاريخية ، لكننا لا نعلم الكثير عنه فقد زالت معالمه الان . وكان موقع هذا الحير بين قصور عديدة شرقي بغداد بناها العديد من خلفاء بني العباس على مر السنين . وبين هذه القصور ، يذكر المؤلفون القدامى ان هنالك حائرا وحلائب للسباق . فقد اورد الخطيب البغدادي ان ميدان

الخيل وحائر الوحوش كانا متصلين بدار الخلافة .[٥٧] ويذكر ياقوت الحموي ان الذي انشأ هذا الحائر هو المأمون . فقد « اقتطع جملة من البرية عملها ميدانا لركض خيله واللعب بالصوالجة وحيزا (كذا) لجميع الوحوش » .[٥٨] ويعود ذكر هذا الحائر فيبرز في المصادر التاريخية عند الحديث على زيارة سفير الامبراطور البيزنطي الى بغداد خلال خلافة المقتدر بالله . فقد رتب له برنامج حافل ، فيه كل ابهة الملك قبل ان يمثل امام الخليفة . ومن بنود البرنامج مرور الرسول البيزنطي بدار الخلافة « الى الممرات والدهاليز المتصلة بحيز الوحوش » .[٥٩] ويرد ذكر هذا الحائر مرة اخرى متصلا بحادثة تاريخية ذكرها ابن مسكويه . وسنذكر النص هذا من ضمن النصوص القديمة التي سنعرض لها فيما بعد .

ومن وصف الخطيب البغدادي للاعمال المائية التي تسقي الحائر هذا ، يتضح لنا ان المنشات في الحائر والابنية المتصلة به كانت تضم بركة كبيرة وحمامات واقنية وما الى ذلك . وقد كانت فيه وحوش كثيرة ، منها ما هو كاسر ومنها ما هو اليف ، فقد ذكر الخطيب البغدادي انه كان في دار الخلافة يوم زيارة سفير الامبراطور البيزنطي الانفة الذكر قطعان من الوحوش اخرجت من الحائر « تقرب من الناس وتتشممهم وتأكل من ايديهم » .[٦٠]

ج ـ حائر قصر هشام في خربة المفجر (٣)

عثر العالم الاثرى هاملتون وزميله ، ديمتري برامكي ، مكتشف قصر هشام ، على آثار اساسات حائط عريض يبدأ جنوب قصر هشام ويمتد الى الشرق قرابة ١,٣ كيلو متر ثم ينعرج بمحاذاة وادى النويعمة حوالي كيلو متر واحد . بعد ذلك ، ينعطف الحائط شمالا بشكل قوسي مسافة ٣٥٠ مترا او ازيد ، ثم يتجه غربا اكثر من كيلو متر ونصف ، فشمالا ١٥٠ مترا تقريبا . فغربا كيلو مترا واحدا تقريبا . حيث ينتهي غرب القصر نفسه[٦١].

اما الحائط نفسه فيبلغ قرابة متر واحد عرضا . وكما يظهر من بقايا اساساته فان جانبيه من الحجارة الكبيرة ، والفراغ بينهما مردوم بالحجارة الصغيرة والتراب . وهو يشبه في هذا سور حوزة قصر الحائر الشرقي ، وبالتالي ، فالافتراض الاكثر قبولا ان اساسات سور الحائر في قصر هشام كانت من الحجارة ، اما باقي ارتفاع السور ، فكان من الطوب . ويدعم حائط الحائر في قصر هشام دعامات نصف دائرية تتناوب داخل الحائر وخارجه على طول السور . وهذا ايضا شبيه بسور الحائر في قصر الحائر الشرقي .

وتبلغ مساحة حائر قصر هشام حوالي ٦٠٠ دونم . وهي مساحة صغيرة اذا قورنت بمساحة الحائرين الثاني والثالث الانفي الذكر ، لكنه اكبر من حائر القصر الاول المذكور . ولقد قاد صغر المساحة العالم الاثري هاملتون الى ابداء تحفظاته في الحكم على هذه الحوزة بأنها حائر . بل فضل هاملتون اعتبارها حدائق ومراعي تابعة للقصر نفسه .[٦٢]

بيد اننا لا نرى ضيرا في اعتبار حوزة قصر هشام حائرا ، ولو صغرت المساحة . فهشام بن عبد الملك باني قصري الحائر الشرقي والغربي في شمالي سوريا ، هو نفسه صاحب القصر في خربة المفجر ، وبالتالي لا يستبعد ابدا ان تكون هذه الحوزة مشابهة في وظيفتها بحوزات قصر الحائر في سامرا٬ وشمالي سوريا ، خصوصا وان مساحتها تفوق مساحة حوزة الحائر في قصر الحائر الغربي .

د ـ حائر سرحون في دمشق (٤)

اورد ابن شداد في كتابه الاعلاق الخطيرة لفظة «الحير» دون اعطائها اي صبغة معينة، فقال، :« وكنيسة اليهود عند الحير باقية»[٦٣] : وقد وردت لفظة «الحير» غير معجمة في مخطوطات كتاب ابن شداد مما حمل المحقق الدكتور الدهان الى الاشارة بأن اللفظة ربما كانت «الجسر». بيد ان النص نفسه، كما ذكر الدكتور الدهان في الحواشي ورد في ابن عساكر على «الحير» و «الحير» المذكور هو من الناحية القبلية لدمشق. ايفهم من الحديث اذن ان هنالك حائراً عند دمشق؟

يذكر أرنست هرنسفيلد ، مؤلف مقالة الحائر في الموسوعة الاسلامية ، نقلا عن سوفير الذي يقتبس بدوره عن محمد بن شاكر في عيون التواريخ ، يذكر ان هنالك حائرا اسمه « حير سرحون » ، سمي بعد تغير معالمه « بستان القط » . اما سرحون فهو سرحون ابن منصور الرومي ، كاتب معاوية بن ابي سفيان . و « حير سرحون » عند باب كيسان ، احد ابواب دمشق الجنوبية[٦٤] .

والجواب الشافي يتضمنه كتاب ابن عساكر الذي حققه صلاح الدين المنجد[٦٥] فقد ذكر باب كيسان وكنيسة اليهود تلك ، لكن الاهم من ذلك ان المنجد ضمن تحقيقه خارطة لدمشق في العصور القديمة صنعها مجمع اللغة العربية بدمشق ، جاء فيها حائر سرحون (بستان القط) داخل اسوار دمشق عند باب كيسان .

فمما لا يتطرق اليه الشك اذن ان هنالك حائرا جنوبي دمشق انشي٬ في عهد الامويين الاولين وظل معروفا حتى زمن ابن شداد (توفي ٦٨٤ ه / ١٢٨٥ م) .

٥ ـ الحائر في الجزيرة الفراتية (٥)

ورد في احدى قصائد الصنوبري الشاعر لفظة الحير، مقرونة الى "ميدان الجواري"، اي الخيل الراكضة[٦٦]. ولو عدنا الى القصيدة التي وردت فيها اللفظة ، نرى الشاعر يذكر عدة مواقع كلها في الجزيرة الفراتية ، ما بين حلب والرقة . واول ما يتبادر الى ذهن الباحث ان هنالك حائرا كبيرا كانت بقاياه من بساتين ووحوش ماثلة للعيان ايام الصنوبري . لكننا لم نعثر على ذكر أخر له في المصادر التي نتداولها . ومن ناحية اخرى ، يجوز ان يكون الحائر الذي يتكلم عنه الصنوبري هو نفس حائر قصر الحائر الشرقي . فهذا لا يبعد عن الفرات اكثر من ١٠٠ كيلو متر . ولكن المسافة بينه وبين حلب اكثر من ان نحشره مع المواقع التي رددها الصنوبري في قصيدته . فيبقى السؤال ، اذن ، هل هنالك حائر في الجزيرة الفراتية ؟ ونص الصنوبري اول خطوة في طريق الاجابة .

و ـ حائر بنزرت في تونس (٦).

لا بد وان القاريء لا يرتاح الى بعد القفزة ما بين حلب وبنزرت فكيف كان ذلك ؟ روى ابن خلدون باقتضاب ان السلطان ابا عبدالله المستنصر صنع بالقرب من بنزرت مصيدا اتخذه للصيد » . ويشرح المؤرخ العلامة كيف اتم السلطان ذلك العمل فيقول :[٦٧]

> ... فأدار سياجا على بسيط من الارض قد خرج نطاقه عن التحديد بحيث لا سراع فيه سرب الوحش . فاذا ركب للصيد ، تخطى ذلك السياج الى قورا (كذا) في فئة من مواليه المختصين واصحاب يبرزون بما معهم من الجوارح ، بازات وصقورا وكلابا سلوقية وفهودا ، فيرسلونها على الوحش في تلك القورا (كذا) وقد وثقوا باعتراض البناء لها من امام . فيقضي وطرا في ذلك القنص سائر يومه .[٦٨]

هذا حائر دون شك . وكان حائرا عظيما كما يبدو في وحوشه وفي فكرته الاصلية مما دعا ابن خلدون ان يعلق عليه بقوله :» فكان ذلك من افخم ما عمل في مثلها » .

لماذا لم يطلق ابن خلدون على « المصيد » لفظ الحائر ؟ كأننا بهذا الضرب من العمارة قد نسي اسم جنسه وظلت وظيفته عالقة بالاذهان .

وننتقل الان الى نوع أخر من الحيران ورد ذكرها في المصادر ولكنها ليست لحشر الوحوش وانما كانت تؤدي وظائف اخرى اطلقت عليها التسمية لاحد معاني اللفظة ، وهو انخفاض ارضها . كما ان هنالك مواضع اخرى سميت بالحائر

الاصيل فيه بساتين غناء ، نقل معنى اللفظ الى المكان الذي فيه بستان كبير ، من باب التغليب . فلننظر في هذه الحيران .

ز. حائر كربلاء (٧).

يختلف هذا الحائر عن الحيران السابقة في انه بستان كبير محاط بأسوار يضم قبر الحسين بن علي . ذكره المؤرخون الشعراء الذين رثوا الحسين[٦٩] ، كما الح اليه المعجبون . فقد اشار اليه الصنوبري الشاعر في مطلع احدى قصائده التي رثى فيها الحسين .[٧٠]

كـــربلا لا زلـــت كـــربلا وبـــلا   مما لقي عندك ال المصطفـــى ...

ويظهر ان حائر كربلاء كان معظما لدى العباسيين الاولين . فقد ذكر الطبرى ان الرشيد ابقى على السدنة والخزان الذين كانوا يعتنون بالحائر ويخدمون قبرالحسين . وفي نفس الخبر ان الخادم الواحد كان يتقاضى ثلاثين درهما في الشهر[٧١] . ولعل هذا الحائر كان اشهر الحيران بعد حائر سامراء اذ اشار اليه كثير من المؤلفين[٧٢] .

اما لماذا سمي كذلك ، فان ابن عبد الحق يفسر لنا السبب :

« لانه في موضع مطمئن الوسط مرتفع الحروف . »[٧٣] وهذا التعريف اثبته المعجميون[٧٤] ، وكما اثبتوا تعريفا أخر . فالحائر بستان ايضا ، ولان قبر الحسين عند بستان مسور ، سمى بحائر . فهو اذن ، ليس كالحيران التي نبحث فيها ، اي الحيران التي تحشر فيها الوحوش بغية الصطيادها .

ح ـ حائر الحجاج في الصرة (٨)

وهذا نمط أخر من الحيران ، لا هو بالبستان ولا هو بحمى الوحوش . بل هو حبس محوط بالحيطان العالية ، « حشر » فيه الحجاج بن يوسف كافة سجنائه العراقيين . واجمع المؤلفون الجغرافيون والمؤرخون ان حائر الحجاج بالبصرة « معروف يابس لا ماء فيه » .[٧٥] وقد اشار المؤرخون الى حائر الحجاج في الحديث عن عسفه وبطشه . فقالوا انه قتل صبرا ١٢٠ الفا ، كما مات بحبسه ٥٠ الف رجل و ٣٠ الف امرأة . وقد اردف المسعودي هذه المعلومـات قائلا .« وكان حبسه حائرا لا شيء فيه يكنهم من حر ولا برد . »[٧٦] وطفق مؤرخو القرون التالية للمسعودي يزيدون في وصف عسف الحجاج وبطشه بسجنائه في الحائر . فابن الجوزي في تاريخه يفسر ذلك بان السجناء كانوا يحشرون سوية ، رجالا ونساء ، دون ستر من الشمس في الصيف ولا من المطر والبرد في الشتاء ، فكان سجنه عبارة عن حائط محوط لا سقف له . » فاذا اوى المسجونون الى

الجدران يستظلون بها من حر الشمس رمتهم الحرس بالحجارة . وكان يطعمهم خبز الشعير مخلوطا بالملح والرماد »[٧٧] ، وبرواية اخرى كانوا « يسقون الماء مشوبا بالرماد »[٧٨]

ونستفيد من هذه المعلومات بالنسبة لبحثنا هذا أن القدامى فهموا من لفظة الحائر معنى الاحاطة بأسوار عالية محكمة الاستدارة يحشر بداخلها من يستطيع الحركة ، كالحيوانات ، او الانسان .

ط ـ حائر الزجالي في قرطبة (٩).

وردت لفظة الحائر بشكلها المخفف ، « الحير » في قصيدة من نظم الوزير ابي بكر بن القبطرنة يخاطب فيها الوزير ابا الحسين بن السراج[٧٩] :

...واذكر لهم زمنا يهب نسيمه
اصلا كنفث الراقيات عليلا[٨٠]
مولى ومولي نعمة وكرامة
واخا اخاء مخلصا وخليلا
بالحير ما عبست هناك غمامة
الا تضاحك اذخرا وجليلا[٨١]

ويشرح* المقري عن هذا « الحير » فيعين موضعه بأنه خارج باب اليهود بقرطبة ويسمى حير الزجالى ، ويستشهد ببيتين لابي عامر بن شهيد يشيران الى ان حائر الزجالي عند باب اليهود . ويصف الحائر بعد ذلك فيقول :[٨٢]

وهذا الحير من ابدع المواضع واجملها، واتمها حسنا وأكملها، صحنه مرمر وصافي البياض ، يخترقه جدول كالحية النضناض[٨٣] ، به جابية[٨٤] ، كل لجة بها كابية ، قد قربصت[٨٥]بالذهب واللازورد سماؤه ، وتأزرت بها جوانبه وارجاؤه ، والروض قد اعتدلت اسطاره ، وابتسمت من كمائمها ازهاره ، ومنع الشمس ان ترمق ثراه ، وتعطر النسيم بهبوبه عليه ، ومسراه . شهدت به ليالي واياما كأنما تصورت من لمحات الاحباب ، او قدت من صفحات ايامه الشباب ، وكانت لابي عامر بن شهيد به فرح وارحات ، اعطاه فيها الدهر ما شاء ، ووالى عليه الصحو والانتشاء ، وكان هو وصاحب الروض المدفون بازائه اليفي صبوة ، وحليفي نشوة ....

نستخرج من هذا الوصف النقاط التالية ، عازفين عن سجعه الممل الذي اضاع علينا دقيق الوصف . (١) حائر الزجالي موضع جميل فيه ازهار كثيرة (٢) يجري فيه جدول سريع الجريان (٣) فيه بركة تنصب فيها مياه الجدول (٤)

فيه بناءً شبيه بالصحن مبلط بالمرمر (٥) قصده اصحابه للهو والقصف . ونرى ان هذا الحائر لا يختلف عن حائر المتوكل في سامراءَ الا بخلوه من الوحوش المحبوسة .

ى ـ حائر ضرية (١٠)

ذكر الجغرافي البكري في معجمه حائرا اسماه : » حائر : ماء محدد في رسم ضرية »[٨٦] ولا يختلف هذاالحائر في تحديده عن بعض الحيران التي ورد ذكرها في النصوص العربية في انها اماكن يجتمع فيها الماءُ ، لا بساتين مسورة كالحيران التي تحشر فيها الوحوش . لكننا افردنا له قسما خاصا هنا لانه يقع ضمن اراض شاسعة كانت تستعمل كحمى ابتداءً بزمن عمر بن الخطاب .

فقد تناول البكرى باسهاب تام وصف حمى ضرية شارحا حدوده وتضاربه والملابسات التاريخية التي رافقت انشاءه وتوسيعه . فقد كان عمر بن الخطاب اول من « احمى هذا الحمى » . فكان طوله حوالى ستة اميال من موضع يقال له ضرية حتى المدينة المنورة . ويبدو انه كان ارضا كثيرة العشب سهلة « الموطىءُ » تتخللها المياه والاشجار . فأفرده عمر بن الخطاب كي ترتع فيه ابل الصدقة وخيول الجنود والفرسان الذين يذهبون في الغزوات . فلما كثرت فيه الابل والخيولُ في صدر خلافة عثمان (حتى بلغت اربعين الفا) زاد عثمان فيه ووسعه .

ونلاحظ ان هذه البقعة من الارض رغم انها غير مسيجة الا انها تشبه الى حد بعيد حمى الحائر او حوزته . ومن ناحية اخرى ، يبدو ان الفكرة مستقاه من تقليد جاهلي معروف .[٨٧]

ك. حائر ابراهيم الخليل (١١).

مما يدعو الى العجب ان المؤلفين المتأخرين ، من امثال ياقوت ، اطلقوا على مزار ابراهيم الخليل في مدينة الخليل (حبرون كما يسمونها) اسم « حير ابراهيم الخليل » .[٨٨] لكن المحقق فستنفلر ، ناشر معجم البلدان ، اثبت النص على « حبر » بالباءُ الموحدة ، واما في حواشي الطبعة فقد اثبتها على « حير » ويزعم ياقوت ان مزار ابراهيم الخليل بناه سليمان بن داود بناءً على امر الهي ، اذ قال الله لسليمان .« ابن على قبر خليلي حبرا ليكون لزواره بعدك » .

ولكن اعتقادنا ان حواشي فستنفلر غير ملزمة بأخذ قراءة « حير » لان ياقوت حاول ان يفسر معنى حبرون بقوله ان اسمها مشتق من حبر (بالباءُ) ابراهيم الخليل .

وتجدر الاشارة في هذا المقام ان الحفرة التي القي فيها ابراهيم الخليل ليحترق ، حسب التقليد الاسلامي ، كانت « حيرا » كما وصفها المؤلفون العرب . ولكن الثعلبي ، وهو مؤلف كتاب قصص الانبيا' ، يذكر ان النمرود بنى لابراهيم « بنيانا كالحظيرة » ، ويبدو ان المؤلفين القدامي اخذوا « الحظيرة » على انها حائر لان الحائر « شبه الحظيرة او الحمى » .[89]

ل ـ مواضع اخرى سميت بالحيران / الحيار.

مع ان هذه المواضع سميت باسما' مركبة من حائر ومشتقاتها ومن علم أخر لكنها لم تكن تضم ابنية او اسوارا . منها .

١ ـ **حائر ملهم باليمامة** ، كانت عنده احدى معارك العرب في الجاهلية[90]

٢ ـ **حيار بني القعقاع** ، موضع بالشام ، وهم ال القعقاع بن خليد العبسي . ورد ذكره في احداث سنة ١٤٥ ه خلال ثورة ابراهيم اخي محمد **ذي** النفس الزكية على ابي جعفر المنصور .[91] واورد ياقوت انه اصلا كان الوليد بن عبد الملك اقطعه القعقاع بن خليد ، وان بينه وبين حلب يومين .

وهذه المناطق ، كما اسلفنا ، ليس فيها بنا' كالذى نبحث فيه ، ولكن يبدو انها اكتسبت تسميتها من وجود ما' عندها يجتمع من مسيل الامطار . اورد ابو الفرج الاصفهاني عدة ابيات من الشعر تضمنت لفظة الحائر على انه شبيه بالغدير[92] .

نستشف من الفقرات السابقة ان الحائر / الحير / الحيار / الحيران ، وهي مشتقات م فعل حار يحار ، تؤدي عدة معان ، تتفرع منها ثلاثة . (١) الاحاطة (٢) تجمع المياه (٣) الزراعة على نمط البستان او الحديقة . المعنى الثاني ، كما يبدو هو اقدمها ، والاول يليه في القدم والثالث أخرها ، كأنه اكتسب مع مر الايام بواسطة الملاحظة . الحائر دائما عنده حدائق وبساتين ، فاضحى الحائر بستانا .

كما ان المعنى الاول ، الاحاطة ، اتصل بمفهوم الصيد عموما . فابن خلدون في وصفه لحائر بنزرت ، يتخلى عن اللفظة كليا ويسمي بنا' السياج حول ارض قورا' واسعة بداخلها وحوش ، يسميها « مصيدا » .

فنحن اذن امام تطورا تاريخي طويل للفظة عربية نقلت عن معناها الاصلي الى معان اخرى بسبب ما انشأه الانسان من عمران اطلق عليه لفظة الحائر . ويبدو ان هذا التطور المعنوي واكب كافة العصور التاريخية العربية ابتدا' من العصر الجاهلي حيث كانت اللفظة ترادف بمعناها الغدير ، ولكنه من نوع أخر . ثم اهملت وانتقلت الى المعنى الثاني خلال العصر الاموي ، فتشعبت الى غير

المعنيين في العصر العباسي .

وكما رأينا ، فالحائر لم يقتصر على البادية او الصحراء في الهلال الخصيب ، بل انتشر في طول الدولة الاسلامية وعرضها .

الفصل الخامس

الثروة الحيوانية في بادية الشام

عندما عددنا اسباب ابتناء القصور الاموية في البادية ، كان احدها الصيد والقنص . وليس المجال هنا التوسع في ذكر رياضة الصيد عموما عند العرب . فالموضوع خارج عن نطاق دراستنا هذه . بيد اننا مضطرون لتناوله باختصار كي ننفذ منه الى انواع الحيوانات التي كانت تصاد في المنطقة ، وبالتالي ، كثافتها العددية .

ظل الانسان محتفظا بعملية الصيد كوسيلة لكسب العيش حتى بعد ان تطور المجتمع البشري الى الزراعة . وبقي الصيد مصدر رزق لكثير من المجتمعات البشرية . بيد انه تطور تدريجيا من عملية هينة نسبيا الى عملية معقدة تبعا لتناقض كثافة الحيوانات العددية القريبة من مستوطناته . واستتبع هذا ترقي العملية اجتماعيا . فبعد ان كانت مشاعا في كافة طبقات الشعب ، اضحت مقصورة على الفئات القادرة ماليا ، اي الطبقة الارستقراطية ، لان الصيد اصبح مسألة خروج الى البرية في حاشية وخدم ومعدات وتجهيزات لا قبل لا بناء الطبقة الفقيرة بها . فمن قديم الزمن ، كان الملوك والاباطرة يتخذون هذه الهواية بغية الترويح عن النفس ، لا سد حاجاتهم الغذائية في اي شكل من الاشكال . فمثلا ، خروج أباطرة أشور وبابل الى الجبال والبراري كان من قبيل الترويح عن النفس في المقام الاول والاخير . وهكذا كان بالنسبة لملوك الفرس والهند وغيرهم .

وكانت مقومات هذه الهواية ممتزجة بدوافع كثيرة كالفروسية وما يتصل بها من براعة استعمال القوس وذكاء استراتيجية الحرب ، والشجاعة في منازلة الوحوش الكاسرة ، والحذق في تدجين الطيور الجارحة والحيوانات المفترسة للاستعانة بها على الطرد ، والاقدام في تحدي مجاهل الآجام والفلوات والقفار وما يتصل بذلك من شظف وخشونة في العيش . وكانت نزهات الصيد من اكثر نشاطات الملوك والامراء حشدا وتنظيما بعد حملات الحروب والغزوات .

وبتضافر العوامل القاسية على الحيوانات ، من تغيرات في البيئـة ، كالجفاف والقحط ، الى افراط الصيادين في قتلها مستعملين الوسائل المتطورة

لصيدها ، الى ويلات الحروب المتتابعة على مر الآف السنين ، قلت الثروة الحيوانية تدريجيا ، خصوصا في المناطق غير الخصيبة والمناطق التي ازداد فيها العمران . فأضحت حملة الصيد اكثر تعقيدا وتجهيزا واطول مدة وابلغ اثارة وترويحا .

اما الصيد عند العرب في الجاهلية ، فكان رياضة ومصدر رزق في الوقت نفسه . وشواهد الشعر الجاهلي كثيرة في هذا المضمار . يتحدث الشعراء عن اسراب الحيوانات التي كانت ترتع في البادية والتي كانوا يهاجمونها فيصيدون بعضها مستعملين الحصان للجري والكلاب للمطاردة والنبال للقتل . وقد ضمن الشعراء قصائدهم لوحات تصويرية لمشاهد الصيد يصل العمل الفني فيها قمة عالية .

فالنابغة الذبياني ، احد شعراء الجاهلية المتأخرين ، يضمن معلقته لوحة تعبيرية رائعة عن واقعة بين ثور بري و « كلاب » تسعى الى اصطياده . فالنابغة يشرح في مطلع قصيدته ، تبعا لسنة شعرية جارية اذ ذاك ، انه يرحل قاطعا البراري على ناقة نشيطة ليبلغ بها حضرة الممدوح ، وهو النعمان ، الملك اللخمي في الحيرة . وليمثل النابغة الذبياني على نشاط ناقته ، يشبهها بثور وحشي ، طلع عليه الصياد بكلابه ، فارتاع الثور وولى منهزما تقفوه الكلاب الشرسة . ونحن نستفيد في بحثنا هذا من الوصف الدقيق لعملية الصيد تلك . فالصياد يذهب باحثا عن ضحيته مصطحبا كلابه السلوقية، لكن الثور الفطن ، يهرع ناجيا من الخطر . فيرسل الصياد كلبين في اثره . وتنشب معركة بين الثور والكلب الاول ، الذي يعطينا النابغة اسما له ، ضمران . على ان الثور كان اشرس من الكلب ، فقد طعن ضمران بقرنه فانفذ القرن الى الجانب الآخر للكلب حتى غدا الكلب كأنه قطعة شواء على سفود ونجا فارا ... والمشهد هذا ، في نظرنا ، من أبلغ الصور التعبيرية التي نقع عليها في الشعر العربي .٩٣

كما وصف ابو ذؤيب الهذلي مشهداً آخر يضاهي مشهد النابغة روعة وفنا ، لكن الصياد هنا كان اكثر دهاء ، اذ ارسل الكلاب على طريدته وكمن لها في المكان المقابل ، حتى اذا ما نفرت الطريدة فاجأها الصياد بالنبال . والطريدة في مرثية ابي ذؤيب ليست ثورا بل حمارا وحشيا . ويقع الحمار متضرجا بدمائه ، ويفرح الصياد بمكسبه السمين .٩٤

وهنالك مشهد آخر لصياد يهاجم ثورا وحشيا ، يسامت المشهدين السابقين ، نظمه احد شعراء العصر الاموي ، ذو الرمة . ويظهر من وصف ذي الرمة ان الصياد كان خارجا للصيد بغية الرزق ، لا الترويح عن النفس ، فأطماره وهيئته مغبرة وشعره اشعث . ومرة ثالثة ترسل الكلاب في اثر الطريدة

ويستعمل الصياد نباله .٩٥

من انواع الحيوانات التي كثر ذكرها على انها فريسة الصيادين ، الحمار الوحشي ، والثور او المها ، والغزلان بأنواعها ، والنعام ، والطيور ، خصوصا القطا والحبارى . لكن الضوارى المفترسة ، لم تكن هدف الصيادين عموما ، ولربما كن ذلك خشية بطشها وشراستها .

وقد احصى لنا علماء الحيوان اهم ما كان في البادية السورية ، من الحيوانات البرية غير المفترسة . فالغزال العربي كان اكثر هذه الحيوانات واشهرها ، مع ان لحمه لا يستساغ اذا قورن بلحوم الحيوانات الاخرى ، وهناك اليحمور ، وهو ضرب من الايائل ، والمها او بقر الوحش ، والظبي ، والايل الاسمر او الآدم ، والوعل وهو تيس الجبل ، والمارية وهو نوع من البقر الوحشي الابيض الاملس ، وحمار الوحش (ليس الزيبر الافريقي) وهو ما يسمى بالعربية الاخدر ، والنعام والارانب واليرابيع . اما الطيور فكانت كثيرة ، من اشهرها القطا والحبارى . وكانت تمر في البادية السورية ، ولا زالت ، اسراب الطيور المهاجرة نحو افريقيا ، ومنا المكاء ، ونوع من القطا اسمه : S'and grouse

اما الحيوانات الضارية فقد عدد علماء الحيوان ان الصحراء السورية كانت تضم كثيرا من الضباع والثعالب والذئاب . كما كانت الصحراء تحتوي على الاسد الآسيوي والنمر والفهد . وهذا الاخير كان يدرب ويحمل على جانب الفرس ليستعمل في الصيد كما يستعان بالكلاب السلوقية . كما كان في الصحراء السورية وتخومها من البادية نوع من التماسيح . ويضاف اليها الطيور الجارحة مثل الصقور والعقبان .

انقرضت غالبية هذه الحيوانات اليوم وما تبقى منها فهو على طريق الانقراض . فالأسد الذي ورد ذكره في المصادر القديمة ، ولكن على قلة ، انقرض في اوائل القرن الخامس عشر الميلادي . وكذلك النمور والفهود .٩٨ كما انقرض التمساح .٩٩ ولم يبق شيء يستحق الصيد غير الغزال العربي الذي قلت اعداده بشكل يهدد بانقراضه .١٠٠ ولكن ، على الارجح ، ان الثروة الحيوانية في سوريا ، خصوصا البادية ، كانت شحيحة عندما دخل العرب بلاد الشام . وهذا هو احد الاسباب الرئيسية التي اقتضت بناء الحائر . فبدل ان يخرج الخليفة باحثا عن اسراب الحيوانات ، او افرادها اذا كانت من النوع الكاسر ، كان يخرج مستخدميه لتجميعها في الحائر كي يلذ له اصطيادها متى شاء دون مشقة البحث عنها .

يتناول ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ـ ٢٥٥ هـ) مشكلة تقلص الثروة

الحيوانية في « الصحارى والاغفال »[١٠١] فيعزو ذلك الى فعل الانسان . فقد شاهد الجاحظ ان بعض الصحارى كانت حيواناتها مطمئنة لم تذعر عندما لم يطأها الانسان . فلما خرج اليها اهل الصيد بالفوضى ودون رابط مصطحبين كلابهم وفهودهم ، وباشروا الصيد من غير المكان المناسب ، عندئذ نفرت الوحوش ومرت بالارض المجاورة لها فنفرت سكان تلك الارض ايضا . ويكون صيد الصيادين قليلا على هذا الاساس . والحيوانات التي نفرت من ارض لا ترجع اليها قط ، كما يقول الجاحظ : » ولا تعود تلك الصحارى الى مثل ما كانت عليه من كثرة الوحوش حينا . »[١٠٢] ويعطي الجاحظ حلا لنفار الوحوش فيقول : » ومتى لم تنفرها الاعراب بالكلاب والقسي ونصب الحبائل ، رتعت بقربهم ، ثم دنت منهم اولا فاولا حتى تطأ اكناف بيوتهم . وهي اليوم في حير المعتصم بالله والواثق بالله على هذه الصفة (اضفنا التشديد) . »[١٠٣] ونستذكر هنا ما اثبته الخطيب البغدادي عن حيوانات حائر المأمون في بغداد الشرقية حيث كانت قطعان من الحيوانات « تقرب من الناس وتتشممهم وتأكل من اياديهم».[١٠٤] ولقد ذكر ابن خلدون شيئا شبيها مما ذكره الجاحظ وذلك في حديثه عن حائر السلطان ابي عبدالله المستنصر في بنزرت تونس . فقال ان السلطان كان يخرج الى مصيده الذي ادار حوله سياجا وذلك لكي لا « يراع فيه سرب الوحش » .

نستنتج من كلام الجاحظ ان المشكلة التي كان يعاني منها صيادو تلك العصور كانت نفار الوحوش وبالتالي تدني اعداد الحيوانات ، فندرتها امام الصيادين . هذا يستوجب خروجهم الى المناطق الجديدة التي نفرت اليها الوحوش . وتتكرر العملية مجددا . ومع مرور الزمن ، قلت الثروة الحيوانية .ويظهر انها كانت شحيحة حتى زمن الجاحظ. وبالتالي فان حشر الوحوش المتبقية في حوزات خصبة كان له هدفان : منعها من النفار واعطاؤها فرصة التكاثر والانتاج في ربوع اماكن خصبة . لهذين الهدفين انشئت الحيران واعتنى الخلفاء بها .

فالحائر ، اذن ، هو حمى Game Preserve ، للمحافظة على الثروة الحيوانية من هوج الصيادين وتكثير اعدادها من جهة ، وتنظيم شؤون الصيد من جهة اخرى .

الفصل السادس

لفظة الحائر ومشتقاتها في المصادر العربية ومدلولاتها

لنرجع الآن الى المصادر العربية القديمة باحثين عن النصوص الهامة التي وردت فيها لفظة حائر ومشتقاتها . ففي هذا العمل استقصاء لنظرة القدامى لذلك النمط من العمارة الاسلامية . وأهمية الرجوع الى كتب الاصول القديمة تكمن في ان معلومات مؤلفيها عن هذا الفن المعماري هي معلومات أولية تفيد في معرفة الهدف من هذا البناء وكيفية استعماله ومن سكن فيه ... . ويمكننا كذلك الاستفادة من النصوص لمعرفة نوع الحياة التي عاشها اصحاب هذه الابنية ، وهي معلومات في غاية الاهمية لبحثنا لانها تلقي اضواء على جوانب متعددة لا يمكن لعلماء الاثار كشفها بمجرد النظر الى انقاض القصور .

النصوص القديمة ومناقشتها

نتناول النصوص القديمة حسب التسلسل التاريخي ، الاقدم فالاحدث ، وهي مرتبة حسب سنة وفاة المؤلف . هنالك نصوص كثيرة عزفنا عنها لانها لا تفيدنا في شيء ، من مثل نص ياقوت حول « حير/حبر » ابراهيم الخليل[١٠٥] ، كما تركنا اكثر النصوص الواردة في الفصل الرابع . وقد جنحنا الى التقليل من عدد النصوص بحيث نحذف المتكرر منها الذي لا يضيف معلومات جديدة .

١) ذكر ابن واضح اليعقوبي (ـ ٢٨٢ هـ) في البلدان[١٠٦] ان المعتصم لما شيد سامراء كان يراعي املاك الآخرين كلما وصل اليها وذلك لما شرع في بناء (الحير) . هذا على حد فهم كرسويل للنص[١٠٧]. ولكن النص الاصلي غامض بعض الشيء ولا يؤدي المعنى الذي ذهب اليه كرسويل . فعند الكلام عن خطط سامرا ، ذكر اليعقوبي الشوارع الرئيسية في المدينة ، ومنها مثلا الشارع الثالث واسمه شارع الحير الاول ، والشارع السادس واسمه شارع الحير الجديد . ثم قال ما نصه : » وهذه الشوارع التي من الحير كلما اجتمعت الى اقطاعات لقوم هدم الحائط وبني خلفه حائطا غيره » . والسؤال الان : هل بناء الحائط كان

للشارع ، ام انه حائط الحائر ؟ ويستمر النص بطريقة توحي ان الحائط المذكور هو حائط الحائر : » وخلف الحائط الوحش ... الخ » . يفهم من ذلك ان الحائط هذا الاخير هو الاول المعني . ولكن سياق الكلام يرسم علامة استفهام كبيرة حول المعنى . على اية حال حشرت » الظبا' والحمير الوحش والايائل والارانب والنعام » في هذا المكان وحوطت بحائط « يدور في صحرا' حسنة واسعة » .

(٢) يتطرق محمد بن جرير الطبرى (ــ ٣١٠ هــ) الى الحديث عن الحائر وذلك في مناسبات عدة . ويفهم من مضمون السياق ان الحائر كان مكانا متسعا جدا ومحصنا ويمكن ان يستعمل في وقت من الاوقات كحظيرة تتمركز فيها قوة عسكرية ضاربة او تلجأ اليه في حالة معينة[١٠٨] . وقد ذكر الطبري هذا البنا' بصيغته اللغوية المخففة : » الحير » ، مما يدلنا على ان الاسم الشائع هذا ، كان مستعملا في وقت مبكر جدا . ولكن وردت لفظة « الحاير » مرة واحدة في الطبري كاختلاف في احدى النسخ[١٠٩] .

(٣) ذكر الجهشياري (ــ ٣٣١ هــ) لفظة الحائر عرضا خلال الحديث عن بنا' الرملة على يد سليمان بن عبد الملك . فقد قال ان اهل « لد » كان لهم حائر يقع ضمن الكنيسة ، ابوا ان يعطوه للخليفة ليبتني فيه منزلا له[١١٠] . ولكن النص مبهم ، اذ كيف يكون الحائر الذي نبحث فيه يقع ضمن كنيسة ، الا اذا كان المعني هو بستان ليس الا ، كما هو حائر الحسين في كربلا' .

(٤) وردت في **ديوان ابي بكر الصنوبري** ، (توفي ٣٣٤ ﻫ) لفظة « الحير »[١١١]

فالحير حير الوحش　　　فالميدان ميدان الجواري

وتظهر اللفظة في المخطوط الاصلي مصحفة الى حيز ، وهو خطأ . والاشارة في هذا البيت موجهة الى حائر قديم قبل الشاعر يبدو أن غابته داخل الحوزة كانت ما تزال عامرة بالوحوش والحيوانات والقصيدة كلها زاخرة بذكر القصور والمتنزهات في تلك المنطقة

(٥) يورد الهمداني (٣٣٤ هــ[١١٢]) شعرا للشماخ جا'ت فيه لفظة حائر حيث وصف الشاعر موارد الحمير :

وظلت باعراف كأن عيونها　　　الى الشمس هل تدنو ركي **نواكز**

ويممها في بطن غاب وحائر　　　ومن دونها ، من رحرحان ، المفاوز

فاذا تفحصنا المعنى في البيت الثاني ، نجد ان « الحائر » له « بطن » ، اي هو مكان منخفض . وما دام الشاعر يصف موارد الحمير الوحشية ، فان الحائر مكان خصب تجتمع فيه مياه عذبة .

(٦) وابو بكر الصولي (ـ ٣٣٥ هـ) يورد ذكر **حائر** المتوكل في ابيات رواها على لسان الخليفة العباسي الراضي[١١٣] :

ارض متى اختلست الحاظها نظرا   اهتاج ذو طرب وارتاح مهموم

والحير والقصر والقاطول جنتها   والجعفري **بكف** الدهر مذموم

ويفيدنا هذا النص ان اللفظة ثبتت على صيغة « حير » في الشعر ، وذكرت الى جانب ابنية اخرى ـ قصور ـ بالاضافة الى الرياض المزروعة .

(٧) مع ان المسعودي (ـ٣٤٦ هـ[١١٤]) في **مروج الذهب** تناول خلافة المعتصم المعتصم وحبه للعمارة كما تناول تخطيط سامرا[١١٥] بايجاز ، لكنه لم يذكر الحائر الذي بناه المعتصم ورأينا له ذكرا في غير **مروج الذهب** من المصادر .

. اما المتوكل فقد احب البناء وأحدث نوعا لم يكن معروفا من قبله عند المسلمين وهو **البناء الحيري** (نسبة الى الحيرة[١١٦]) ، لكن المسعودي لم يذكر لنا شيئا عن الحير في زمن المتوكل . وبحثنا في فهارس **مروج الذهب** عن لفظة الحير او الحائر معتمدين على دقة المفهرس داغر ، بيد اننا لم نجد لهما ذكرا . واهمية المسعودي بالنسبة لنا تكمن في انه ذكر الوحوش المحبوسة في زمن العباسيين وذلك خلال ذكره للمقتدر عندما اختط الخط التقشفي في الدولة[١١٧] .

(٨) ابو الفرج الاصفهاني (ـ ٣٥٦ هـ) . في ذكر اخبار الشاعر الحادرة ونسبه ، يذكر ابو الفرج سبب تسمية الشاعر بالحادرة بان ذلك نتيجة لملاسنة شعرية بينه وبين شاعر أخر . وكلا الشاعرين اورد لفظة الحائر في شعره المذكور ، لكنه يهمنا قول الحادرة[١١٨] .

كأنك فقاحة[١١٩] نورت   مع الصبح في طرف الحائر

فاننا نفهم ان الحائر ماء خصيب الحوافي .

(٩) ذكر ابن مسكويه (ـ ٤٢١ هـ) في تجارب الامم[١٢٠] ان الجرس نهبوا قصر الثريا في بغداد عام ٣١٥ ه وقتلوا الحيوانات التي كانت في « الحاير » ، وهذا هو النص بالحرف : » وفيها شغب الفرسان برسم التفاريق وخرجوا الى المصلى فنهبوا القصر المعروف بالثريا وذبحوا الوحش الذي في الحاير وذبحوا البقر الذي لأهل القرى التي حوله ... » والذي نفيده في هذا النص ان الوحوش بقيت في الحائر الذي بناه المأمون شرقي بغداد قرابة مائة عام بعده ، وبالتالي فان الخلفاء ظلوا يعتنون بهذا الضرب من العمارة لاسباب شخصية

اهمها الصيد .

(١٠) جاء في **تكملة تاريخ الطبري** لمحمد بن عبد الملك الهمداني (ـ ٥٢١ هـ)[١٢٢] قربه الى الداخل قليلا أن القباب نصبت بباب الطاق لزوار « الحائر » . والحائر هذا هو قبر الحسين بن علي اما اطلاق الاسم هذا على قبر الحسين فهو من باب تغليب الصفة على العلم .

(١١) (أ) ذكر ياقوت الحموي (ـ ٦٢٦ ه) في **معجم البلدان**[١٢٣] ان الحائر الذي في سر من رأى قد انفق المتوكل اربعة الاف الف درهم على عمارته.

(ب) ويهمنا كذلك نص اخر في **معجم البلدان**[١٢٤] يفسر ماهية الحائر . « ... وهو شبه الحظيرة او الحمى » ونفهم من صيغة النص ان ماهية الحائر في غضون ثلاثة قرون بعد بناء حائر سامراء قد اكتنفها الغموض حتى على متخصص عالم مثل ياقوت الحموي .

(ج) وفي كتاب اخر **لياقوت**[١٢٥] يفرد المؤلف بابا للحائر قال فيه ان هنالك ثلاثة مواضع عرفت بالحائر ، الاول حائر ملهم باليمامة ، وقد ذكر في نهاية الفصل الرابع من هذه الدراسة ، والثاني حائر الحجاج ، والثالث حائر كربلاء ، ثم عقب على الثالث قائلا : « والعامة تسميه الحير » .

وذكر ياقوت ايضا في هذا الكتاب مكانا في بادية الشام قال فيه : « بغث وبغيث واديان في ظهر حير[١٢٦] . ونعجب من هذه العبارة كل العجب . اذ كيف يكون الواديان في ظهر « الحير » ؟ ولعل في النص شيء فاتنا او تحريف من نوع ما .

ونستخلص من ياقوت ، ان مؤلفا موسوعيا كهذا لم يستطع ان يعين أكثر من بضعة مواضع جغرافية تحمل لفظ حائر .

(١٢) وذكر كمال الدين بن العديم (ـ ٦٦٠ هـ) « حيار بني عبس » وهي مثل « حيار بني القعقاع » التي ذكرها ياقوت . ورجح ابن العديم أن « حيارا » هي جمع لحير . ويلوح من معلومات ابن العديم انها مشابهة لما ورد عند ياقوت .

(١٣) وقد اورد ابن شداد (ـ ٦٨٤ هـ) في الاعلاق الخطيرة[١٢٨] لفظة « الحير » دون اعطائها اية صيغة ما : « وكنيسة اليهود عند الحير باقية » . والكلمة في مخطوط ابن شداد غير منقوطة كاد المحقق الدكتور الدهان ان يقرأها « الجسر » . ولكنها وردت في تاريخ ابن عساكر على « حير » كما حققها الدكتور الدهان في الحاشية . ويفهم من هذا أن هنالك حائرا في دمشق من ناحيتها القبلية ، وهو حائر سرحون المذكور في الفصل الرابع .

(١٤) شرح ابن منظور (ـ ٧١١ هـ) نقلا عن ثعلب (٢٩١ هـ) انه قيل في الماء اذا حار او تحير انه « تردد » او « اجتمع ودار » وبذلك سموا « مجتمع الماء » حائرا . والحائر كذلك حوض » يسيب اليه مسيل الماء من الامطار . « وقد اورد ابن منظور اقوالا اخرى في تصرف الماء هكذا نقلها عنه الزبيدي واضاف عليها (راجع ما سيمر) . ولكن ابن منظور لم يفدنا كثيرا من حيث ان الحائر موضع تحشر فيه الوحوش بغية اصطيادها .

(١٥) اما الفيروزابادى (ـ ٨١٧) فقد تطرق الى الحائر في معجمه . ذكر الفعل الماضي حار وادرج بعض مشتقاته كيحار حيرة وحيرا (بفتح الحاء وسكون الياء) وحيرا (بفتح الحاء والياء معا) وحيرانا ، والمضعف تحير الرجل (بتشديد الياء) اذا نظر الى شيء فغشي عليه ولم يهتد الى سبيله ، وتحير (بتشديد الياء) الماء اذا تردد . ثم اضاف بان « الحائر » هو « كالحير » ، وهو المكان المطمئن ومسيل ماء الامطار والبستان[١٣٠] . وجمع الفيروزآبادى الحائر على حوران (بضم الحاء) . ثم ذكر مواضع بعينها اسماؤها مشتقة من الجذر نفسه ثم يقول ما نصه : » والحير شبه الحظيرة او الحمى ، » وهو كلام منقول عن ياقوت . وأشار الفيروزآبادى ايضا الى قصر كان في سامراء يعرف باسم الحير[١٣١] .

(١٦) يفصل الزبيدى[١١٣] (١٢٠٥ هـ) ما اوجزه الفيروزابادى ويكرر كذلك معظم ما ورد في لسان العرب . ففي مجازات اللغة العربية من جذر حار ان الماء اذا قيل فيه حار في المكان فمعناه انه وقف وتردد كأنه لا يدري كيف يجري كتحير واستحار .

وليس من العسير ان نربط هذا المعنى بمفهوم حشر الوحش خلف حائط اي انه يتحير في هذه الحظيرة ويقف ويتردد في مكانه لانه غير قادر على الهرب الى غير هذا المكان .

اما اللفظة بعينها (الحير وهي عامية والحائر الصحيحة) فتعني عدة اشياء اهمها ثلاثة : أ) فالحائر هو مجتمع الماء ، يتحير الماء فيه فيرجع اقصاه الى ادناه ؛ ب) وهو حوض يسيب اليه مسيل الماء من الامطار ؛ ج) وهو المكان المطمئن (كما قيل) يجتمع فيه الماء فيتحير ولا يخرج منه .

لا يمكننا الجزم من هذه المعاني الثلاثة ان لفظة الحائر اطلقت على الحظيرة او الحمى لان فيهما من الاعمال المائية الشيء الكثير كما هي الحال في قصر الحائر الشرقي مثلا . ولكن الاوضح ان نقول بان انحباس الماء في الحائر اللغوي شبيه بانحباس الوحش في الحائر العمراني فاطلقت هذه اللفظة على هذا المحبس من قبل التشبيه ، وتغليب الصفة على العلم .

ويذهب احد ثقات الزبيدي[١٣٣] الى تعريف الحائر هكذا : » من مطمئنات الارض الحائر ، وهو المكان المطمئن الوسط ، المرتفع الحروف ؛ ومن نلك سموا البستان بالحائر[١٣٤] . »

اما جمع حير على حوران وحيران (بضم الحاء وكسرها على التوالي) فقد انكره ابو حنيفة ، واعترف الزبيدي بانه « ليس شائعا[١٣٥] » . وليلاحظ ان ياقوت الحموي جمعها على حيار[١٣٦] .

ويتطرق الزبيدي الى ذكر الحائر الذي يطلق على كربلاء ، فيقول : » سميت بأحد هذه الاشياء ، اي لانها حمى[١٣٧] . اما الموضع الذي فيه مشهد الحسين في كربلاء فهو الحائر ، سمي كذلك « لتحير الماء فيه[١٣٨] » ولكن اشتقاق هذه اللفظة لم يأت من حار يحير وانما من حار يحور . اما الفيروزآبادى فيقول ان الحائر (من حار يحار) هو ايضا كربلاء او موضع بها[١٣٩] . نرى من استعراض نصوص الزبيدي ان هنالك اختلافا كبيرا في اشتقاق الحائر وفي تعيين الجذر الذي تعود اليه هذه اللفظة وفي تحديد معاني اسماء مواضع بعينها سميت بهذا الاسم . على ان اوضح ما في نص الزبيدي هو تلك الفنلكة الفونيتيكية التي اكد بها ان الحير لفظة عامية حرفت عن الحائر ، وهو تحليل قيم جدا بالنسبة لنا[١٤٠]

مدلولات الحائر وخصائصه

لدى مراجعة النصوص الآنفة الذكر ، والعودة الى تحقيقات الفصل الرابع من هذه الدراسة ، نستخلص المعلومات الاجمالية التالية :

١ . الحير لفظة عامية لا يجوز فيها فتح الحاء وتسكين الياء ، بل هي عامية على غرار عائشة اذ تقلب الى عيشة . وتصبح الحير : الحائر .

٢ . الحائر لفظة عربية معروفة ، اسم فاعل غلب عليها النعت والصفة ، ولكنها وردت اصلا في اللغة اسم نكرة ثم صارت علما من باب تغليب الصفة على العلم .

٣ . يمكن اشتقاق الحائر من جذرين : (أ) حار يحور ، فحائرهـا البستان ، (ب) حار يحار ، وحائرها المكان المنخفض الوسط المرتفع الجنبات تنحبس فيه الوحوش او تحار تماما كالماء .

٤ . هنالك عدة انواع للحائر :

(أ) مجتمع الماء في بطن ارض مطمئن .

(ب) البستان

(ج) المكان الواسع الذي يحيط به سور
(د) شبه الحظيرة او الحمى
(هـ) المشروع الانشائي لحشر الوحوش وتربيتها بغية اصطيادها

٥ . يجب ان تتوفر ثلاثة امور في الحائر كي تحشر فيه الوحوش :
(أ) السور المرتفع شبه الحصين ، كي يحفظ الوحوش من الهرب ، لا أن يحفظها من غارات المغيرين (ب) الاشجار والزروع ، للظل والرعي (ج) الماء الكثير لري المزروعات وتلطيف الجو والشرب .

٦ . تحشر انواع الوحوش الكاسرة وغير الكاسرة داخل الحير . والارجح ان الحيوانات المفضلة كانت من الانواع التي يلذ اصطيادها . لكن الحائر لم يعدم الحيوانات الغريبة عن المنطقة ، كالفيلة مثلا . من اهم الحيوانات التي حشرت في الحيران :
(أ) الاسود والسباع ، ولعلها كانت محشورة ضمن نطاق محدد داخل الحائر كي لا تفتك بباقي الحيوانات .
(ب) الفيلة[١٤٢]
(ج) الظباء
(د) المها
(هـ) الحمّير الوحشية (الاخدر)
(و) الايائل
(ز) الارانب
(ح) النعام
(ط) الخيول
(ى) الكلاب
(ك) الطيور على اصنافها ، والطاووس خاصة .... الخ .

٧ . الابنية التي توجد مع الحائر ، ترتبط ارتباطا وثيقا باللهو ورياضة الصيد . فالى جانب الحائر ، هنالك قصر فخم ، او عدة قصور ، ومسجد ، وأبنية اخرى كخان ومنازل للحرس والمزارعين ، ويجب ان يتوفر حمام محكم الصنعة ، الى جانب اعمال مائية ضخمة مكونة من اقنية واحواض وبرك ، الى جانب سور عظيم يحيط بها كلها او يتصل طرفاه ليكملا احكام الحوزة قريبا من هذه الابنية . وبالتالي فبناء حائر عملية باهظة التكاليف .

٨ . الراجح ان الحائر لا يمكن بناؤه الا في « صحراء حسنة واسعة » على حد قول اليعقوبي ، كي يتاح لاولي الامر ان يجلبوا الماء اليه حتى ينمو الشجر وتمرع الارض . ونكاد نيقن ان من متطلبات الحائر : ارض خصبة .

٩ . الحائر فكرة اموية اصيلة ، فرضتها حقيقة واقعة وهي جنوح الحيوانات البرية الى الانقراض . وعليه ، فلكي يلذ اصطيادها ، وقد قلت اعداد اسرابها وقطعانها ، حشرت اعداد كبيرة منها داخل الحوزة او الحمى المحاط بسور عظيم .

١٠ . ولتحشر الوحوش داخل الحوزة ، كانت تشل وتطارد الى ان تأتي في فرارها نحو ابواب الحائر العديدة التي تكون وقتها مشرعة . ويستلزم هذا سرايا من الفرسان الصيادين الدارين على تنفير الوحوش ، وعلى سواس عديدين لتتبع الوحوش النافرة وزجها في الحائر[١٤٣]

١١ . ليس الحائر مأخوذا عن فكرة اجنبية . بل هو فكرة عربية اموية اصيلة ، وامارة ذلك : (أ) شيوع الحيران الصغيرة والكبيرة في بلاد الشام زمن الامويين ثم انتشارها في العراق وغيره (ب) مطابقة اللفظة المستعملة مطابقة تامة لمفهوم الحائر نفسه ... اي ان اللفظة غير معربة عن لغة اخرى .

١٢ . لا علاقة بين الحائر والحيرة . فالثانية مشتقة من نفس الجذر ، ولكنها تعني « الاستدارة »[١٤٤] .

الفصل السابع

الخاتمة

على ضوء ما مر ، نرجح ان قصر الحلابات الواقع شمالي شرقي مدينة الزرقاء ، الاردن ، هو قصر اموي ، « صحراوي » ، الحق به حائر لنفس الاغراض التي شرحت انفا .

وللتدليل على ما نذهب اليه ، سنعرض فيما يلي الى الابنية المتواجدة في منطقة الحلابات .

أ ــ القصر :

وهو اشبه ما يكون بالقلعة ، له ابراج على زواياه وبوابة عريضة في وسط الضلع الشمالية الشرقية . له على الاقل ثلاثة مداخل من واجهاته الثلاث عدا الجنوبية الغربية . وتقسيمه الداخلي له نمط البيت السوري تماما ، غرف متعددة مبنية حول باحة مربعة مبلطة . حجمه صغير نسبيا اذا قيس بأحجام قصور المشتى وهشام والحائرين . وهو للآن غير مدروس لدى علماء الآثار الاسلامية لانهم يعتقدون انه بناء اقدم من المسلمين . فقد عثر بين احجاره على اجزاء من نقش روماني كبير مؤرخ سنة ٢١٣ ــ ٢١٧ م واخر مؤرخ سنة ٢٥٩ م . والنقشان الى الان غير مكتملين لان الاحجار ما زالت انقاضا بداخل القصر . قاد ذلك الاثريين الى الاعتقاد بان العرب اعادوا بناء « القلعة الرومانية » واضافوا فيها . لكن الواقع يؤكد ان هذه الاحجار جلبت من اماكن بعيدة (بعضها بركاني اسود) لبناء القصر . وعندما رصفت الداميك جعلت الكتابة باتجاه داخل القصر ، للسبب الاتي .

عندما انتهي من البناء ، زينت الجدران الداخلية بقصارة جبصية وطليت بالاصباغ والالوان . هذه القصارة شبيهة بقصارة حمام الصرح غير البعيد عن قصرنا هذا . فقد طلي الجدار في قصر الحلابات من الداخل (وربما من الخارج ايضا) بطبقة تبلغ ٢ سم تقريبا من القصارة التي يدخل في تركيبها حصى صغيرة وقطع فخار مكسرة وجبص ، فيها تعريجات (Chevrons) . ثم طليت هذه الطبقة بأخرى املس منها تبلغ ٣ ملم تقريبا سمكا . وفوقها طبقة ثالثة من الجبص

الاملس . وفوق الجميع ، طليت الاصباغ والادهنة ، لكن اثارها غير ماثلة للعيان .

بهذه الطريقة من الزينة الداخلية ، غطيت الاحجار القديمة المجلوبة من مكان بركاني ، ربما ام العمد . ولان بعض مداميك الجدار الخارجي يظهر فيها تنوع في لون الحجر غير منتظم بعضها اسود ، وبعضها جيرى باهت اللون ، فان الاستنتاج المنطقي هو هذا . طلي الجدار الخارجي ايضا بنفس طريقة القصارة الداخلية ليخفي فوضى الوان الحجارة .

وما دام للقصر ابواب متعددة (على صغره) ، وزينة خارجية ، ومسجد صغير منفتح الابواب يقع ١٥ مترا الى الشمال الشرقي من القصر ، فان هذه القرائن تدفعنا الى التأكد بأن القصر ما كان قلعة بل احد القصور الاموية الشائعة في المنطقة .

ب ـ المسجد :١٤٥

بني عام ٧٠٨ م بالقرب من القصر ، وله جميع مميزات المسجد الاموي . المحراب المجوف ، التقسيم الثلاثي ، العقود . وله شبه في ثلاثة مساجد تقع الى الجنوب من عمان ذكرناها انفا .١٤٦ اما اقواسه ، فأشبه ما تكون بالاقواس الاموية في قرطبة ، مقرنصة داخل العقد . ووجود المسجد خارج القصر ، متصلا به بواسطة رواق مسقوف ، دليل ثابت على ان القصر لم يكن حصنا ، على الاقل زمن الامويين ، ولو ان شكله البسيط على الاقل زمن الامويين ، ولو ان شكله البسيط يوحي بذلك .

ج ـ حمام الصر :١٤٧

يقع على بعد ستة كيلومترات تقريبا الى الجنوب من قصر الخلابات ومسجده . طراز عمارته ، وزينته ، اقرب ما يكون الى طراز قصرى عمرة والطوبة . وللاسف ، فانه لم يحظ بكثير من الدرس والترميم ، مع انه جدير بذلك اكثر من قصير عمره . فان صنعته محكمة اكثر من قصير عمره ، لكن يد العبث افسدت البناء فلا يبدو كذلك للعين غير المتفحصة .

فيه قباب وعقود وفجوات نصف قبيــة (Semi-dome recesses)، وحجره المسمسم الضارب الى صفرة العنبر، وترتيبه وتخطيطه، يجعله، برأي كرسويل، افضل من قصير عمرة من الناحية الهندسية.١٤٨

مقومات الحمام الرئيسية عبارة عن غرفة استقبال مستطيلة (٧,٩٠ م × ٨,٩٥ م)١٤٩ فيها قبة نصفية (alcove) على جانبيها غرفتان ، تضاء الواحدة من ثلاث نوافذ مفلطحة الشكل . وبالاضافة الى ردهة الاستقبال ، هنالك الحمام . يتكون من ثلاث غرف صغيرة ، الاولى سقفها برميلي ، والثانية سقفها

عقدان متقاطعان ، والثالثة تعلوها قبة . وهذه نفس هندسة حمام قصير عمرة . بعد غرفة القبة ، هنالك ممر مثل الغرفة الاولى يوصل الى قاعة الابتراد .

قباب هذاالحمام من الحجر والطين المصبوب ومغشاة من الخارج بمادة عازلة للماء . اما زينته ، فطلاء على الجبص ، غير المحفور ، كانت بقايا صور ادمية ظاهرة زمن بتلر (١٩٠٥) وكرسويل (١٩٢٦) .١٥٠

ويرجح كرسويل ان تاريخ بناء حمام الصرح بين ٧٢٥ و٧٣٠ م . فيدخل هذا التاريخ في اول خلافة هشام بن عبد الملك (حكم بين ٧٢٤ ــ ٧٤٣ م) ، بينما قصير عمرة بني عام ٧١١ م او ٧١٢ م وهو من اعمال الوليد بن عبد الملك (حكم بين ٧٠٥ و٧١٥ م) .

اما اسم هذا الحمام فقد اختلف فيه . منهم من اسماه حمام الصرح ، او حمام السراح . ولعله الصرح ، كما اثبتنا ، اسوة بالقصر الذي بناه الملك سليمان للملكة بلقيس وذكر في القران بانه . « الصرح » . وغالبية اسماء القصور الاموية غير قديمة (كالقصور العباسية اليوم) لان هذه الاسماء اخذت من افواه البدو المقيمين حولها ، ولربما التسمية التي يطلقونها مصطنعة غير قديمة .

د ــ الاعمال المائية .

هنالك بركة كبيرة (اكبر بكثير من بركتي الموقر وزيزياء) انشئت في قاع الى الشمال الشرقي من قصر الحلابات . عندها بعض المنشآت المهدمة تماما . ولا نستبعد اذا كان الماء يجلب اليها من الازرق او من وادي الضليل بالاضافة الى ما يجتمع فيها من مياه الامطار . شكلها غير منتظم البتة وتبلغ ابعادها من اقصاها الى اقصاها حوالي ١٠٠ م . وهي ليست عميقة ، لا تزيد عن ٤ امتار كثيرا .

والمعجب حقا ، ان المنطقة الى الغرب من البركة بحوالي مائة متر ، مليئة بالاحجار الكبيرة المتقاربة الاحجام ، وقد تاكلتها العوامل الطبيعية بشكل كثيف ، تظهر بوضوح انها ليست من المنطقة ، بل مجلوبة اليها من مكان آخر . كانت ستستعمل لبناء شيء لم يتم .

وتظهر بقايا سور عرضه تقريبا ١,٥٠ م بني من احجار كبيرة على الجانبين وملئ بالردم في داخله . وهو يمتد باتجاه الشرق . لكن الغرض منه وتقفيه غير معروفين .

ه ــ الحائر

بقي منه سور طويل على بعد خمسة كيلو مترات الى الشرق من القصر . ويمتد من الشمال الى الجنوب مسافة طويلة ، معظمه مهدم الان ، وتظهر فيه اساسات بعض الابراج .١٥٢

بيد ان تتبع هذا السور وتحديد اجزائه المتناثرة بحاجة الى مسح جوي ، يتعذر الان لأن المنطقة محظورة الا على العسكريين .

وقد وهم علماء الآثار في هذا السور فظنوه سورا رومانيا اقيم لصد غارات البدو من الصحراء على مناطق تخوم البادية . ولعلهم في ذلك التوهم ، متأثرون بفكرة سور الصين العظيم !

على اية حال ، لنتفحص ما لدينا من معلومات :

قصر مزين على الطريقة الاموية ، مسجد اموي الطابع ، حمام دقيق الصنعة مزين بالرسوم الجبصية على النمط الاموي ، اعمال مائية (خاصة بركة عظيمة) ، سور طويل عريض فيه ابراج لا يبعد سوى خمسة كيلو مترات عن القصر ، المنطقة على تخوم البادية ، واليوم بعد استصلاحها زراعيا ، ثبت انها صالحة جدا للزراعة ....

امام هذه المعلومات ، الا يعتقد القارئ الحكيم ان هذه المنشات جميعا لم توجد بقرب بعضها البعض بمحض الصدفة ، ولا جمعتها سلسلة طويلة من الفاتحين او الحكام (بل خلال عشرين عام تقريبا) ، الا يعتقد القارئ ان هذا التجمع العمراني هو حائر ضخم على غرار الحيران الاموية الاخرى ، خصوصا قصر الحائر الشرقي ؟ نحن نعتقد ذلك ، ولكننا لا نجزم به طالما المنطقة كلها غير مدروسة الدراسة الميدانية الصحيحة .

حواشي

(١) اللفظة الفصيحة هي حائر ، اما الثانية « الحير » فليست من الفصحى في شيء .
وقد وردت اللفظة في معظم النصوص القديمة على الصيغة الثانية لا الاولى . ويتخيل المرء ان الصيغة الثانية تنطق بفتح الحاء وسكون الياء . لكن الصواب غير هذا . فقد ذكر الزبيدي في **تاج العروس** فذلكة لغوية مفادها ان لفظة « حير » مخففة عن حائر ، جرت فيها السن العامة . وضرب الزبيدي مثلا على تطور الحائر الى « الحير » لفظة عائشة الفصيحة حيث تقلبها العامة الى « عيشة » ونرى نحن ان هذا التطور اللغوي مر عبر هذه الخطوات : لينت الهمزة الى ما يقابلها من احرف اللين ، اي الياء ، فاصبحت اللفظة هكذا : عايشة (بكسر الياء)؛ ثم عدل عن الالف تخفيفا فأصبحت اللفظة هكذا: عيشة (بفتح العين وكسر الياء ؛ لكن النطق بهذه الصيغة ثقيل . فتتحول الفتحة والكسرة الى حركة « تسيره » طويلة لا توجد في اللغة الفصحى . فالاصوب اذن النطق بلفظة « حير » لا بفتح الحاء وسكون الياء ، بل بمد حركة الحاء على انها حركة « تسيره » العبرية : her راجع في نص الزبيدي عن الحائر ما سيمر في ذكر النصوص القديمة .
وتجمع لفظة حائر على حيار وحيران .

(٢) مثلا ، لم يفطن المؤرخ الثقة فيليب حتي الى اهمية بناء الحائر بل سرد اسم القصر على انه اثر من اثار هشام بن عبد الملك كشفه شلومبرجه ونقلت اجزاء منه الى متحف دمشق . راجع فيليب حتي وآخرين ، **تاريخ العرب : المطول** ، (الطبعة الاولى ، بيروت ، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع ، ١٩٥٠) ، ج ٢ ، ص ٣٣٩ ، (وسيشار الى هذا الكتاب بعد الان هكذا : حتي ، التاريخ المطول) . وانظر كذلك فيما حققه احسان عباس في تعليقه على لفظة « حير » التي وردت في ديوان الصنوبري ، فقد اخطأ الهدف جملة (وسيمر الكلام في ذلك عند سرد النصوص القديمة ، وانظر ايضا يونس احمد السامرائي الذي لم يفهم معنى الحائر وخلطه « بالبناء الحيري » الذي تكلم عنه المسعودي في **مروج الذهب** (راجع في المسعودي النصوص الديمة) سامراء في ادب القرن الثالث الهجري ، (بغداد ، جامعة بغداد ومطبعة الارشاد ، ١٩٦٨) ص ٢٥١ . وقد اخطأ كذلك المستشرق ارنست هرتسفلد في مفهوم الحائر عموما . فمن سياق كلامه في الحائر في **الموسوعة الاسلامية** يشعر القارئ انه غير ملم بماهية الحائر الماما جيدا . فقد جمع نصوصا واشارات ورد فيها لفظ الحائر ، ولكن خفي عليها كثير

من خصائص هذا الضرب من العمارة الاسلامية المبكرة .
راجع :

Erhst Herzfeld, «Ha 'ir or Hair,» in **Encyclopaedia of Islam,** Ist ed., II, p. 221.

(٣) من اول الذين روجوا لهذه النظرية ، العالم الاثري كرسويل في الطبعة الاولى من كتابه الضخم :

K.A.C. Creswell, **Early Muslim Architecture,** Ist ed., vol. 1, Oxford, Clarendon Press, 1932.

ثم طور كلامه عنها بما يزيد في ترسيخ النظرية ، وذلك في كتابه المختصر ، راجع كرسويل ، **مختصر** ، ص ٩٣ ــ ٩٥ . وقد تابع فيليب حتي في طبعة كتابه الاولى بالانجليزية نفس الكلام دون تحوير كثير :

Philip Hittı, **History of the Arabs,** London, Macmillan, 1937.

وانظر كذلك ، حتي ، **تاريخ العرب** ، ج ٢ ، ص ٣٢٨ .

وكان كرسويل في ارائه يقبس عن مستشرقين سابقين له ، مثلا :

١ . برخم ،« في بلاد مؤاب » ، ص ٣٠٧ ؛

٢ . بلل ، **الاخيضر** ، ص ٥٥؛

٣ . موزيل ، قصير عمرة ، ص ١٦١ ؛ فقد اكد ان الخلفا' فضلوا البادية خصوصا ايام الربيع ؛

4. Henri Lammens, **La Syrie : Précis historique** (Beirut, Imprimerie catholique, 1921), vol. I, pp. 91-92.

وقد قرر كرسويل في الطبعة الثانية لكتابه الضخم (وهو ما نشير اليه في هذه الدراسة **بالمطول**) ان الامويين لم يطمئنوا الى حياة المدن بالضبط « كالعرب البداة » (مطول ، ج ١ ، ص ٤٠٢ ــ ٤٠٣) كما ان « غرائزهم » كانت بدوية (ص ٤٠٣) . ويذهب يشرح زعمه تحت عنوان لفقرة طويلة : « الحياة نصف البدوية للخلفا' الامويين المتأخرين » (ص٤٠٣) . ويشتط في مزاعمه تلك الى آخر صفحة ٤٠٦ حيث اختتم بفقرة في منتهى العوج المنطقي اقتبسها عن غرترود بلل ، **الاخيضر** . وبعد كرسويل ، اضحت هذه النظرية ذات مفعول سحري ، بها يعلل كل التاريخ الاموي ، دون تمحيص او مراجعة ، ولكن بطريقة تقريرية صرفة .

على ان القمة في رومنطيقية « تبدى الامويين » جا'ت في كلام غرترود بلل . ولا بأس من ايراد نصها بالحرف :

هذه المقرات لصحراوية « انما هي حاصل منطقي لفترة التحول الحضاري التي برز الامويون خلالها ، وهي فترة المرور الصعب والمقيت من حياة البداوة الى حياة الاستقرار . هذه المقرات تشهد على ان دعوة القفار المنفسخة كانت ملحة ، تلك الدعوة التي عاينها بأمانة شعرا' القرن الاول الهجري ورواة الادب . وقد كانت الصحرا' ، بالنسبة للعربي ، اكثر من مكان للسكنى ، كانت حامي تقاليده القديمة ، تلك التقاليد الاكثر قدما ورسوخا من الاسلام نفسه ، التقاليد الاكثر قدسية بالنسبة للعرق العربي ، الحامي للغته الاكثر صفا' ، والحامي لاسمى

مراتب فروسيته . والصحراء ، بالنسبة للعربي ، مسرح اعماله ، ذلك لانه مجرد عن مسرح غيره يستطيع ان يقوم فيه بدوره . والى اليوم ، ما زلت اسمع من البدوي بانه اهل البعير ، بالضبط كما كان البدوي القديم يرمز الى نفسه بانه اهل الضرع . لقد كان الرسول متساهلا في صد تيار ابناء عرقه...واما الخلفاء الامويون ، فقد رجعوا سيرة ابائهم الاولين ... فهربوا الى البادية ، الى المراعي الربيعية في البراري المتصلة ، حيث ما زالت خيام بني صخر تملأ الرحب عند انقضاء مطر الشتاء ، ونقلوا بلاطاتهم الى الحيرة (ليست مدينة الحيرة) وهي المعسكرات المالكية . » عن بلل الاخيضر ، ص ٥٥

بعد هذا الاستعراض الطويل ، نرى ان كرسويل ، وهو الذي يقبس عن سابقيه ، يثبت النظرية تلك ، ويحوك حولها ، كما حاك سابقوه ، اوهاما بعيدة عن لب الحقيقة وكبد الواقع .

(٤) حتي ، مطول ، ج ٢ ، ص ٢٥٨

(٥) وصلت هذه النظرية الى ابعد من حدود الآثار الاسلامية . فعلى سبيل المثال ، انظر :

١ . احمد امين ، فجر الاسلام ، (الطبعة التاسعة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٤) ، ص ٨٤ ـ ٨٥ ؛

٢ . جرجي زيدان ، **تاريخ التمدن الاسلامي** ، (بيروت ، منشورات مكتبة الحياة ، ١٩٦٧)، ج٤ ، ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧ . فقد قال ما نصه : » ... وتعصبوا (الامويون) للعرب ، وحافظوا على مقتضيات البداوة ، وتمسكوا بعاداتها ، فظلت خشونة البادية غالبة على حكومتهم وظاهرة في سياستهم ، مع ذهاب مناقب البدو التي ذكرناها . » وراجعه في مناقب البدو ، ج٤ ، ص ٣٠٨ وما بعدها . ثم يقول في مكان اخر ان مباني الامويين في الشام لم يصلنا من أخبارها ما يستحق الذكر الا الجامع الاموي (كذا) . راجع زيدان ، **تاريخ التمدن الاسلامي**، ج٥ ، ص ٦٢٣ .

٣ . حسين نصار ، **المعجم العربي : نشاته وتطوره** ، (الطبعة الثانية ، القاهرة مكتبة مصر ، ١٩٦٨) ، ج١ ، ص ٢٧ .

ويبدو ان تبدى الامويين كان مفهوما خاطئا عرف في عصور الاسلام العباسية ، راجع مثلا :

١ . ابن عبد ربه ، **العقد الفريد**، (تح احمد امين واخرين ، القاهرة ، لجنة التاليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٨ ـ ١٩٥٢) ، ج٤ ، ص ٤٢٣ ، حيث ذكر خبرا مفاده ان عبد الملك شعر بالضرر اللاحق بابنه الوليد لانه لم يوجه به الى الصحراء ؛

٢ . الجاحظ ، **البيان والتبيين** ، (الطبعة الثانية ، تح عبد السلام هارون ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٠) ، ج٢ ، ص ٢٠٥ . ج٣ ، ص٣٦٦ ؛ حيث ذكر في الاول قول عبد الملك في ابنه الوليد وقد حشر الجاحظ حيث ذكر في الاول قول عبد الملك في ابنه الوليد وقد حشر الجاحظ في نفس الصفحة روايات كثيرة عن لحن الخلفاء الامويين ؛ وفي الثانية قال الجاحظ : » ودولة بني امية عربية اعرابية ، وفي اجناد شامية » .

(٦) عبد الحق ، « اعادة تشييد » ، ص ٧ .

(٧) المصدر نفسه .

(٨) هناك قصران مهمان في هذه المنطقة تم الكشف عنهما .

أ . اولهما قصر باير (ابائر في النصوص القديمة) . ومن المحقق ان الوليد الثاني (٦ رجب _ ١٢٥ هـ / ٢٧ جمادي الاخرة ١٢٦) هو بانيه . والقصر مهدم الان تماما وذكر كرسويل ان بيك باشا امر بأخذ حجارته لبناء مخفر لقوات البادية التابعة للجيش العربي، عام ١٩٣١م ولم يحظ هذا القصر بالكثير من اهتمام الدارسين ، وذلك ، في اعتقادي ، لايغاله في الصحراء . وهذه اهم الاشارات الى قصر باير :

1. Nelson Gleuck, «Explorations in Eastern Palestine,» in **Annual of the Schools of Oriental Research,** (AASOR), (XIV (1933-1934), p. 73.

2. ---, **The Other Side of the Jordan,** (New Haven, American Oriental Society, 1940), pp. 42-43;

3. Henry Field, **North Arabian Desert Archaeological Survey, 1925-1950,** pp. 99-101.

4. Henri Lammens, «La Badiyat et la Hira sous les Omaiyades, in **Melanges de la Faculté Orientale,** (Beirut), IV (1908),

وسيشار الى هذا المقال بعد الان هكذا : لامانس ، « البادية » ؛

5. Alois Musil, **Arabia Deserta : A Topographical Itinerary.**(Oriental Explerations and Studies, No. 2, New York, American Geographical Society 1927), 324.

٦ . سوفاجيه ، « ملاحظات ١٩٣٩ » ، ص٣٩ _ ٤٠ ؛

٧ . كرسويل ، **مطول** ، ج١ : ٢ ، ص ٦٤٢ _ ٦٤٣ ؛

(ب) واما الثاني فهو قصر الطوبة ، فقد بناه الوليد الثاني ايضا على شاكلة قصر المشتى . وموضع هذا القصر يطرح سؤالا مهما : لماذا في وادي الغداف اصلا بعيدا عن العمران كافة ؟ ونظن الاجابة عن ذلك تتصل بالنظرية الحديثة في تعليل سبب ابتناء القصور الصحراوية (راجع الفصل الثاني من هذه الدراسة) .للتوسع في المعلومات عن قصر الطوبة ، راجع :

1. Max van Berchem, «Au Pays de Moab et d'Edom,» in **Journal des Savants,** (Paris), IX (1909), pp. 300-301; pp. 407-408

وسيشار الى هذا الكتاب بعد الان هكذا : برخم ، « في بلاد مؤاب » ؛

2. G. Lankester Harding, **The Antiquities of Jordan,** (London, Lutterworth Press, 1959), pp. 159-160.

وسيشار الى هذا الكتاب بعد الان هكذا : هاردنغ ، اثار الاردن ؛

3. J.A. Jaussen; R. Savignac, **Mission archéologique en Arabie,** vol. III; **Les Châteaux arabes de Quzeir 'Amra. Harâna et Tûba,** (Paris, Librairie Orientaliste : Paul Geuther, 1922), p. 15; pp. 29-50; pp. 1212-127

وسيشار الى هذا الكتاب بعد الان هكذا : جوسن ، القصور العربية ،

4. Alois Musil, **Kusejr 'Amra,** (Vienna, Kaiserliche Akademie der Wissenschaften, 1970), pp. 14-16

وسيشار الى هذا الكتاب بعد الان هكذا : موزيل ، قصير عمرة .

٥ . بلل ، الاخيضر ، ص ١١١ ــ ١١٤ ؛ ١١٦ ــ ١١٨ ؛ ١٦٥ ؛

٦ . الحسني ، « قصور الامويين » ، ص ٢٢٨ ــ ٢٣٠ ؛ ولكنه لم يحسن اقتباس الاسم عن المصادر الغربية فاثبته كذا : « قصر طوبى » او « التوبة » ؛

٧ . ستيرن ، « مذكرات » ، ص ٧٤ ؛

٨ . سوفاجيه ، « ملاحظات ١٩٣٩ » ، ص ٢٦ ــ ٢٨ ؛

٩ . كرسويل ، **مطول،** ج١ : ٢ ، ص ٦٠٧ ــ ٦١٣ .

(٩) نعرف ثلاثة من هذه القصور او المنتجعات ، المنية وخربة المفجر والصنبرة اما الاخير ، الصنبرة (بكسر الصاد وفتح النون المشددة وسكون البا') فلم تكشف أثاره بعد . راجع ما كتبه ياقوت في معجمه بان الصنبرة على مسافة ثلاثة اميال الى الجنوب من طبرية وان الخليفة ــ معاوية كان يشتو هناك : **معجم البلدان** ، ج٣ ، ص ٤١٩ .

أ . كشفت اثار المنية ، اوخان المنية ، (بكسر الميم وسكون النون) ، في العقد الثالث من هذا القرن . من اهم الدراسات حولها :

1. Oleg Grabar, **et al.,** «Sondages a Khirbet el-Minyeh,» in **Israel Exploration Journal** X (1960), pp. 226-243; pls. 27-30;

2. A.E. Mader, «Die Ausgrabung eines romischen Kastells auf Chirbet el-Minje an der Via Maris bei et-Tâbgha am See Gennesareth, in **Journal of the Palestine Oriental Sociry,** XIII (1933), pp. 209-220.

3. Oswin Puttrich-Reignard, **Die Palastanlage ven Chirbet el Minje,** Palastina-Hefte des Deutschen Vereins vam Heiligen Lande, Heft 17-20, Cologne, Bachem, 1939.

4. A.M. Schneider; Oswin Puttrich-Reignard, **Ein fruhislamischer Bau am See Gennesareth,** Palastina-Hefte des Deutschen Vareins vom Heiligen Lande, Heft 15, Cologne, Bachem, 1937.

5. A.M. Schneider, «Hirbet el-Minje am See Gennesareth,» in **Les Annales archéologiques de Syrie,** II (1952), pp. 23-45.

٦ . الحسني ، « قصور الامويين » ص٣٢٢ ؛

٧ . ستيرن ، « مذكرات » ، ص ٧٣ ؛

٨ . سوفاجيه ، ملاحظات ١٩٣٩ » ، ص ٣٦ ــ ٣٧ ؛

٩ . كرسويل ، مطول ، ج١ : ٢ ، ص ٣٨١ ــ ٣٨٩ .

ب . وأما خربة المفجر الى الشمال من اريحا ، فقد كشف الاثريان هاملتون وبرامكي عن

اثار قصر فخم جدا اغلب الظن انه للخليفة هشام بن عبد الملك (٢٦ شعبان ١٠٥ هـ/٦ ربيع ثاني ١٢٥) . ومن اهم الدراسات حول هذا القصر :

1. Oleg Grabar, «The Omayyad Palace of Khirbat al-Mafjar,» in **Archaeology,** (New York), VIII (1955), pp. 228-235.

2. R.W. Hamilton, **Khirbet al Mafjar : An Arabian Mansion in the Jordan Valley,** Oxford, Clarendon Press, 1959.

وسيشار الى هذا الكتاب بعد الان هكذا : هاملتون ، خربة المفجر ؛

٣ . الحسني ،« قصور الامويين » ، ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ ؛

٤ . كرسويل ، **مطول** ، ج[١] : ٢ ، ص ٥٤٥ ـ ٥٧٧ .

وتجدر الاشارة هنا الى ان منطقة غور الاردن كانت صالحة للصيد في زمن الامويين وما بعد ذلك . وقد سجلت كتب الادب حادثة طريفة وقعت بالقرب من بحيرة طبرية تصف خروج الامير بدر بن عمار بن اسماعيل لمبارزة اسد اسيوي . راجع قصيدة المتنبي في هذه المناسبة ، شرح ديوان المتنبي ، (الطبعة الثانية ، تفسير عبد الرحمن البرقوقي ، القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ، ١٩٣٦) ، ج٣ ، ص ٤٣٤ ـ ٤٥٠ ، وانظر التعليق على القصيدة وذكر مناسبتها في محمود محمد شاكر ، المتنبي ، في **المقتطف** ، (عدد خاص بالمتنبي) ، ٨٨ (١٩٣٦) ، ص ٨٣ ـ ٨٥ .

(١٠) أ. اهم هذه القصور : قصير عمرة . وقد كتب الكثير فيه ، مثلا :

1. Ernst Hersfeld, «'Amra (Kusair 'Amra, the little castle of 'Amra),» in **The Encyclopaedia of Islam,** (lst ed., Leiden-London, E.J. Brill- Luzac and Co., 1913-1936), vol. I, pp. 336-339.

2. Alois Musil, **Arabia Petraea,** (3 vols., Vienna, Holder, 1907-1908), vol. I, pp. 219-289.

وسيشار الى هذا الكتاب بعد الان هكذا : موزيل ، العربية الصخرية ؛

3. ---, «Kusejr 'Amra und andere Schlosser ostlich von Moab,» in **Sitzungberichte der Kaiserlichen Akademie der Hissenscahften der philosophisch- historische Classe,** (Vienna), vol. 144 (1902), pp. 1-4. -. 2-; pp. 26-44; pp. 47-51;

وسيشار الى هذا البحث بعد الان هكذا : موزيل ، « قصير عمرة وقصور اخرى » ؛

٤ . برخم ، « في بلاد مؤاب » ، ص ٣٠١ ـ ٣٠٩ ؛ ص ٣٦٣ ـ ٣٧٢ ، ص ٤٠٦ ـ ٤٠٨ ،

٥ . جوسن ، **القصور العربية** ، ص٧٨ ـ ١٠٠ ؛ ص ١٠٨ ـ ١١٤ ؛

٦ . موزيل **العربية الصحراوية** ص ٣٤٣ - ٣٤٦

٧ . قصير عمرة ؛

٨ . كرسويل ، **مطول** ، ج[١] : ٢ ، ص ٣٩٠ ـ ٤٤٩ .

كما ان هنالك قصر اخر الى الجنوب الشرقي من قصير عمرة يعرف باسم قصر عويلد لم يحظ باهتمام الدارسين بعد .

وتجدر الملاحظة هنا الى ان في قصير عمرة رسومات نفيسة اهمها على الاطلاق لوحة « ملوك الارض السبعة » . راجع في شأنها :

1. Oleg Grabar, «The Painting of the Six Kings at Qusayr **'Amrah, » in Ars Orientalis,** I (1954), pp. 185-187;

2. Ernst Hertzfed, «Die Konige der Erde,» in **Der Islam,** XXI (1933), pp. 233-236;

٣ . كرسويل ، مطول ، ج١ : ٢ ، ص٣٩٦ ـ ٤٠٢ ؛

وقد كشفت البعثة الاسبانية لترميم قصير عمرة عن لوحات جديدة في غاية الاهمية ، وللان لم تصدر دراسة عنها .

ب . ويلي قصير عمرة في الاهمية ، قصر المشتى . وهو قصر ضخم افرط الوليد بن يزيد في زخرفته وزركشته . وقد كتب الكثير حول هذا القصر وتاريخه وهوية بانيه من اهم الكتابات :

1. Franz Altheim; Ruth Stiehl, **Die Araber in dem alten Welt,** (Berlin, W. De Gruyter, 1964-) vol. I, pp. 592-598;

2. Rudolf Ernst Brunnow; Alfred von Domaszewski, **Die Provincia Arabia,** (Strassburg, K.J. Trubner, 1904-1909), vol. I. pp. 105-176;

3. E. Diez, Mshatta, «in **Encyclopaedia of Islam,** 1st ed. vol. III, pp. 612-614;

4. Ernst Hertzfeld, «Mshatta, Hira und Badiya, in **Jahrbiuch der Koniglich- preuzischen Kunstsammlungen,** (Berlin), 42 (1921), pp. 104-106; 133-146;

وسيشار الى هذه الدراسة بعد الآن هكذا: هرتسفلد "المشتى والحيرة والبادية".

5. E. Kuhnel, **Mschatta,** Bilderhefte der islamischen Kunstsammlungen, Heft 2, Berlin Staatliche Museen in Berlin, 1933;

6. Henri Saladin, «Le Palais de Mchitta, » in **Bulletin archéologique,** (Paris), 22 (1904), pp. 409-414;

7. B. Schultz; J. Strzygowski, «Mschatta,» in **Jahrbuch der Koniglich-preuszischen Kunstsammlungen,** (Berlin), 25 (1904), pp. 205-37;

8. H.B. Tristram, **et al. The Land of Moab,** (London, Murray, 1873), pp. pp. 195-216; pp. 376-385pp. 376-385;

وسيشار الى هذا الكتاب بعد الان هكذا : ترسترام ، **بلاد مؤاب** ،

٩ . برخم ، « في بلاد مؤاب » ، ص ٣٠٠ ـ ٣٠١ ؛ ص ٤٠٢ ـ ٤٠٨ ؛

١٠ . الحسني ، « قصور الامويين » ، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧ ؛

١١ . سوفاجيه ، « ملاحظات ١٩٣٩ » ، ص٣١ ـ ٣٥ ؛

١٢ . ستيرن ، « مذكرات » ، ص ٧٥ . ص ٨٢ ــ ٨٣ ؛
١٣ . كرسويل ، مطول ، ج١ : ٢ ، ص ٥٧٨ ــ ٦٠٦ ؛
١٤ . موزيل ، العربية الصخرية ، ج١ ، ص ١٩٦ ــ ٢٠٣ ؛
١٥ . « قصير عمرة وقصور اخرى » ، ص١٤ ــ ١٥ ؛ص ٤٦ ــ ٤٧ .

ج . الى الشمال الشرقي من قصر المشتى ، يقع قصر الموقر . وهو مهدم تماما اليوم ليس فيه سوى البركة وانقاض الابنية . فعلى قمة جبل الموقر (يرتفع ٩١٠ م) بني هذا القصر فوق سلسلة من المدرجات . طوله ٦٥ م وعرضه ٣٩ م ، وسمك الجدار تقريبا ١,١٥ م **وتحيط به اربعة ابراج** ، اثنان مربعان واثنان نصف دائريين . وقد كان لهذا القصر قباب نصف برميلية على شاكلة قباب القصور الاموية القريبة منه كالطوبة وعمرة والمشتى . رأى موزيل ثمانية من قباب الموقر ورصد قياساتها . كما وجد اثار جبص على الجدران كالتي في قصر الطوبة وعمرة وحمام السراح (راجع في شأن الاخير الفصل الحادي عشر من هذه الدراسة ، ب ، ٣) . ويظهر ان قصر الموقر كان اكبر مما يبدو للعيان . راجع في شأن هذا القصر والبناء الآخر في اسفل الجبل الى الجنوب ــ الجنوب الشرقي منه :

1.Ernst Hertzfeld. «Die Genesis der islamischen Kunst,» in **Der Islam,** I, (1910), pp. 27-63; pp. 105-144), pp. 128-131;

٢ . بروناد ، **المقاطعة العربية** ، ص ١٨٢ ــ ١٨٩ ؛ (مهم) ؛
٣ . جوسن ، **القصور العربية** ، ص٨ ؛
٤ . سوفاجيه ، « ملاحظات ١٩٣٩ » ص ٣٥ ــ ٣٦ ؛
٥ . كرسويل ، **مطول** ، ج١ : ٢ ، ص ٤٩٣ ــ ٤٩٧ ؛
٦ . موزيل . **قصير عمرة** ، ص٢٧ ــ ٢٩ ؛
٧ . « قصير عمرة وقصور اخرى » ، ص ١٢ ــ ١٤ .

وفي اسفل جبل الموقر توجد بركة كبيرة (٣٤ × ٣١,٥٠ م) عمقها ٦,٧١ م حسب ما استدل على ذلك من مقياس الماء الذي عثر عليه عام ١٩٤٨ في قاع البركة . يحوط البركة سور (سمكه ١,٩٠ م) من جهاتها الاربع كما يهبط سلم الى قاعها ملتصق بطول الجدار . وقد عثر على ثمانية عشر تاج عمود في تلك المنطقة كلها في غاية الجمال (انظر كرسويل ، مطول ، اللوحة ٨١ واللوحة ٨٢) . ويبدو ان البناء كان قائما قبل الامويين ، لان حمزة الاصفهاني مؤلف كتاب سني ملوك الارض والانبياء ،يعزوه الى الغساسنة (انظر كرسويل ، مطول ، ج١ : ٢ ، ص٦٢٩) . راجع ما يلي حول البركة والتيجان :

8. R.W. Hamilton, «An Eighth-Century Water-gauge at al-Muwaqqar,» in **Quarterly of the Department of Antiquities of Palestine;** XII (1948), pp. 70-72;

9.---,«Some Eighth-Century Capitals from al-Muwaqqar,» in **Quarterly of the Department of Antiquities of Palestine,** XII (1948), pp. 63-69;

وعن النقش الذي على تاج العمود الثامن عشر ، راجع :

10. L.A. Mayer, «Note on the Inscription from al-Muwaqqar, » in **Quarterly of the Department of Antiquities of Palestine,** XII (1948), pp. 73-74;

١١ . العابدي ، القصور الاموية ، ص ١٠ ـ ١١ ، وقد ارخ العثور على هذا التاج بعام ١٩٥٤ ، وهو خطأ محض ، اذ عثر عليه عام ١٩٤٣ ؛

١٢ . كرسويل ، مطول، ج١ : ٢ ، ص ٤٩٦ ـ ٤٩٧ ؛

وعن صورة التاج ، انظر اللوحة رقم ٨٢ .

ويقع قصر الخزانة كذلك في هذه المنطقة . بني على صورته الحالية حوالي عام ٩٢هـ/ ٧١٠ م كما يدل نقش عثر عليه في الطابق الثاني . ويبدو ان القصر كان مبنيا قبل الفتح الاسلامي . راجع في شأن القصر :

١ . برخم ، « في بلاد مؤاب » ، ص ٣٠١ . ص٤٠٦ ـ ٤٠٨ ؛

٢ . بلل ، **الاخيضر** ، ص١١٤ ـ ١١٧ ؛

٣ . جوسن ، القصور العربية ، ص ٨ ؛ ص ٢٧ ؛ ص ٥١ ـ ٧٧ ؛ ص ١٠٠ ـ ١٠٨ ، ص ١١٤ ـ ١٢٤ ؛

٤ . الحسني « قصور الامويين » ، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦ ؛

٥ . ستيرن ، «مزكرات» ص ٧٤ ؛

٦ . سوفاجيه ، « ملاحظات ١٩٣٩ » ، ص ١٦ ـ ١٨ ؛

٧ . العابدي ، **القصور الاموية** ، ص ٥٦ ـ ٦٣ ؛

٨ . غلوك ، **الجانب الاخر للاردن** ، ص٣٨ ـ ٣٩ ؛

٩ . كرسويل ، مطول ، ج١ : ٢ ، ص٤٤٧ ـ ٤٤٩ ؛

١٠ . مارسيه ، الفن الاسلامي ، ص ٤٤ ؛

١١ . موزيل ، **العربية الصحراوية**، ج١ ، ص ٢٩٠ ـ ٢٩٣ ؛

١٢ . هاردنغ ، **اثار الاردن** ، ص١٥٧ ـ ١٥٩ ؛

وراجع بشأن النقش الذي عثر عليه في الطابق الثاني من قصر الخرانة :

11. Nabia Abbott, «The Kasr Kharana Inscription of 92 H. (710 A.D.), a New Reading, in **Ars Islamica,** XI-XII (1946), pp. 190-195.

هـ ـ وعلى بعد ٨ كم الى الغرب من المشتى يقع قصر القسطل . وهو يشبه من الخارج القلاع الرومانية في شرق الاردن ، اما من الداخل ، فيتكون من ستة « بيوت » حول باحة . وهذه البيوت » متقنة الصنعة تماما ، وترتيبها غير موجود في اي من القصور الاردنية . ويرجح ان جبلة بن الحارث الامير الغساني هو بانيه ، حسب رواية حمزة الاصفهاني ، **تاريخ سني ملوك الارض والانبيا**' ، (بيروت ، دار مكتبة الحياة ، ١٩٦١ تقريبا) ، ص ١٠٠ وقد أخطأ المؤرخ فيليب حتي في ذكر اسم المبتني قصر القسطل في كتابه تاريخ سوريا ، فقال انه الحارث بن جبلة ، وقد اقتبس عن حمزة الاصفهاني ، ص ١١٧ من الطبعة القديمة ((تح جوتولد ،

ليبزك ، ف ابركهاوس ، ١٨٤٤) . لكن الاصل هو جبلة بن الحارث ، اما كما اورد حتي فهو اسم الابن الذي بنى غير تلك الاماكن .

وراجع في شأن القسطل :

1. Gery Hill, «A Journey East of Jordan and the Dead Sea,» in **Quarterly Statement of the Palestine Exploration Fund,** (1897), pp. 45 ff.

٢ . بروناو ، **المقاطعة العربية** ، ج٢ ، ص ٩٣ ــ ١٠٣ ، ففيه وصف دقيق لما شاهده هذا الرحالة قبل انقضاء القرن الماضي ؛

٣ . ترسترام ، ارض مؤاب ، ص ٢١٨ ، حيث ذكر انه على بعد دقائق من قصر القسطل هنالك سد محفور (Barrage) طوله ٦٠٠ ياردة وعرضه ١٨ ياردة ، لا بد وأنه كان داخلا في منشات القصر .

٤ . سيترن ، « مذكرات » ، ص ٧٧ ــ ٨٢

٥ . سوفاجيه ، «ملاحظات ١٩٣٩ » ؛

٦ . كرسويل ، مطول ج١ : ٢ ، ص ٥٠٥ ، حاشية ٤ ؛ ص ٥١٧ .

و . وهنالك ثلاثة مساجد في شرق الاردن متشابهة بشكل ملحوظ من حيث الخطط والشكل ، وهي اموية بلا شك وجميعها بنيت بعد ٧٠٨ م لان محاريبها مقعرة ؛ راجع كرسويل ، **مطول** ، ج١ : ٢ ، ص ٥٠٦ . هذه المساجد الثلاثة هي : (١) مسجد قصر الحلابات (٢) مسجد خان الزبيب (٣) مسجد ام الوليد . المسجد الاول سيكون موضوع البحث في الفصل الاخير من هذه الدراسة .

وأما مسجد خان الزبيب فيقع على بعد ٨ كم الى الغرب من القطرانة على الطريق الصحراوي . وهنالك مسجد وخان مهدمان الان لا بد وان حولهما اثار اسلامية اخرى يكون اهمها طبعا قصرا كتلك القصور الاموية الصحراوية المنتشرة في المنطقة كلها . راجع في شأن مسجد خان الزبيب :

١ . بروناو ، **المقاطعة العربية** ، ج٢ ، ص ٨١ ؛

٢ . ترسترام ، **بلاد مؤاب** ، ص ١٧٣ ؛

٣ . سوفاجيه ، « ملاحظات ١٩٣٩ » ؛

٤ . كرسويل ، **مطول** ، ج١ : ٢ ، ص ٥٠٥ ؛

٥ . هرتسفلد ، « المشتى والحيرة والبادية » ، ص ١٣٠

واما مسجد ام الوليد فيقع على بعد ٩,٥ كم الى الغرب من زيزياء . راجع في شأنه :

١ . برونار ، **المقاطعة العربية** ، ج٢ ، ص ٩٠ ؛

٢ . ترسترام ، **بلاد مؤاب** ، ص ١٨٠ ــ ١٨١ ؛

٣ . سوفاجيه ، « ملاحظات ١٩٣٩ » ؛

٤ . كرسويل ، **مطول** ، ج١ : ٢ ، ص ٥٠٥ ، ص ٥٠٦ .

ز . وهنالك مسجد اخر في نفس المنطقة تم الكشف عن اثاره عام ١٩٦٤ م . هذا هو مسجد « كهف اهل الكهف » الواقع في جبل الرجيب على الطريق بين سحاب وعمان . وقد كتب

رفيق وفا الدجاني كتابا عن الكهف والمسجد هنا ؟ خصوصا اذا القينا نظرة على المنطقة كلها . لا بد وانه كان حول المسجد او بالقرب منه منشات اموية عامرة في يوم من الايام . راجع في شأن المسجد :

1. Ch. Clermont-Ganneau, «El-Kahf et la caverne des Sept- Dormants,» in **Recueil d'archéologie orientale,** III (1899), pp. 293-303;

٢ . رفيق وفا الدجاني ، **كهف اهل الكهف** ، عمان ، ١٩٦٥ ؛

٣ . محمود العابدي ، **عمان في ماضيها وحاضرها** ، (عمان ، منشورات أمانة العاصمة ، ١٩٧١) ، ص ٥٦ ــ ٦٥ ؛ وسيشار الى هذا الكتاب بعد الان هكذا : العابدي ، **عمان** .

ح . كما ان زيزيا ، الى الغرب من المشتى ، على الطريق بين عمان والقطرانة ، كانت موقعا لمنشآت اموية ما زالت اثارها ماثلة للعيان ، خصوصا البركة الشبيهة ببركة الموقر .

ط . بالاضافة الى هذه المنشآت ، هنالك العديد من المواقع الاموية الى الشرق والشمال من المنطقة التي نتكلم عنها . ونكاد نجزم ان كل موقع كان أهلا بالسكان قبل الفتح العربي ، استغله الامويون من قريب او بعيد . فنحن نستبعد مرور الخلفاء والامراء الامويين بجرش او غيرها مثلا دون الالتفات اليها كمكان صالح للاقامة . ولنأخذ مثالا حيا على ما نقول . عمان ، موقع اثري قديم جدا . وهي على الطريق الى الحجاز . كما انها كانت احدى **المدن العشر** في زمن الرومان . افيعقل ان يمر بها الامويون دون ان يعيروها التفاتا ؟ هذا غير معقول طبعا . فقد اقام العرب الفاتحون في عمان وبنوا فيها قصرا كشفت آثاره . يوجد هذا القصر المتواضع نسبيا ف قلعة عمان ويعود الى الفترة الزمنية التي نتحدث عنها . راجع في شأن هذا القصر ؛

1. G. Lankester Harding, «Excavation on the Citadel, Amman», in **Annual of the Department of Antiquities of Jordan,** I (1951), pp. 7-16;

٢ . العابدي ، عمان ، ص ٧٤ ــ ٧٦ ؛ وانظر ايضا ص ٩٣ ــ ٩٧ ؛

٣ . القصور الاموية ، ص ٩٧ ــ ١٠١ ،

٤ . هاردنغ ، **آثار الاردن** ، ص ٦٨ ــ ٦٩ .

وكذلك بالقرب من عمان ، هنالك موقع اثري يسمى **قصر النويجس** تشبه قبته الى حد كبير « قبة الفلك » في قصير عمرة ؛ راجع

١ . العابدي ، عمان ، ص ٥٢ ــ ٥٣ ؛

٢ . كرسويل ، مطول ، ج١ : ٢ ، ص ٤٦٠ ــ ٤٦١ ؛

٣ . هاردنغ ، اثار الاردن ، ص ٧٠ . وكذلك ، الى الشمال الشرقي من مدينة الزرقاء هنالك قصر الحلابات وحمام السراح اللذان سنتناولهما بالبحث في الفصل الاخير من هذه الدراسة .

والى الجنوب الشرقي من هذين الموقعين تقع واحة الازرق الشهيرة . ومع ان القلعة التي فيها تعود الى العصر الروماني ثم استصلحت في عصور اسلامية تالية للامويين ، فان خصب المنطقة ومياهها ، مما لا يتطرق ادنى شك اليه ، قد اجتذب الخلفاء والامراء الامويين . وقد ورد

ذكر هذا الموقع في احداث حكم الامويين عند الطبري حيث ذكر ان ولي العهد الوليد الثاني بن يزيد خرج برفقة بعض الندماء فاعترض الخليفة هشام بن عبد الملك على احدهم (عبد العمد بن عبد الاعلى المتهم بالزندقة والالحاد) ؛ راجع محمد بن جرير الطبري ، **تاريخ الرسل والملوك** ، (تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٧ -)، ج٧ ، ص ٢١١ . وموقع الازرق موضع اهتمام الان لدى دارسي الآثار الاردنية . ونأمل ان تخرج لنا الايام القادمة دراسة وافية لهذا الموقع فهو في غاية الاهمية لاتصال تاريخ سكناه من عصور ما قبل التاريخ حتى اليوم . راجع شيئا عن الازرق في :

1. Etienne Combe; Jean Sauvaget; Guston Wiet **Repertoire chronologique d'épigraphie arabe.** (Cairo, Institut français d'archéologie orientale, 1931-1953), vol. Xi, pp. 74-75;

وسيشار الى هذا الكتاب بعد الان هكذا : كومب ، ذخير النقوش العربية ؛

2. Ernst Diez **Die Kunst der islamischen Volker,** (Handbuch der Kunst-wissenschat, Berlin Akademie Verlagsgesellschaft Athenaion M.B.H., 1915), p. 28;

وفيه ان الوليد الاول ، ايضا ، ام موقع الازرق :

3. Paul Dussaud; Frédéric Macler, «Rapport sur une mission scientifique dans les régions désertiques de la Syrie moyenne,» in **Nouvelles archives des missions scientifiques** (X (1902), pp. 411-744), pp. 30-31; pp. 268-269; p. 337;

4. Guy Mountfort **Portrait of a Desert,** (London, Collins, 1965), pp. 62-72; pp. 159-161;

ففيه وصف حي للثروة الحيوانية والنباتية التي تتمتع بها واحة الازرق ، وسيشار الى هذا الكتاب بعد الان هكذا : ماونتفورت ، صورة صحراء ؛

٥ . جوسن ، **القصور العربية** ، ص١٢ - - ١٤ ؛

٦ . موزيل ، قصير عمرة ، ص ١٥٦ ؛

٧ . **العربية الصحراوية** ، ص٣٢٩ ؛

٨ . هاردنغ ، **اثار الاردن** ، ص ١٥٢ - ١٥٤

ونحن واثقون ايضا من ان منطقة **وادي السرحان** التي كانت عامرة في القرون الثلاثة السابقة للامويين يرعى كلأها الصفويون بلا منازع طوال قرون ثلاثة او اكثر ، نحن واثقون ان الامويين ارتادوها وانشأوا فيها قصورا او منتجعات صحراوية على غرار ما رأينا في وادي البطم (قصير عمرة) ووادي الغداف (قصر الطوبة) ووادي الضليل (قصر الحلابات وحمام السراح) . لكن منطقة وادي السرحان بحاجة الى مسح طبوغرافي - اثري عاجل لاستكشاف معالم الآثار التي لا شك انها زاخرة فيها .

وليست هذه الحاشية ، على طولها ، للحصر؛ ولكنها للتمثيل على ما نذهب اليه في سياق

النص . فهنالك العديد من القصور التي تتراوح حجما ما بين حجم قصير عمرة وحجم قصر المشتى (يبلغ هذا الاخير ٢١ دونما تقريبا) . وجميع القصور تدل على مدى نشاط حركة البناء في العصر الاموي في منطقة شرقي الاردن .

(١١) منطقة حوران والجبال المحيطة بها قيل عنها في عهد الامبراطورية الرومانية انها « ساة الخبز » . وقد كانت اهم اقطا رالغساسنة . كما حطت فيها جيوش المسلمين اول الامر حيث اتخذت من الجابية جنوبي دمشق مركزا سياسيا واداريا وعسكريا تدار منه شؤون بلاد الشام كافة . وفي هذه المنطقة عدد من القصور الاموية مثل قصر الوليد على جبل اسيس ، وسكنى الوليد الثاني في اربد ومركز الامويين بصرى ... الخ .

راجع في اثار قصر الوليد على جبل اسيس :

Sauvaget, Jean, «Les ruines omeyyades du Djebel seis,» in **Syria,** XX (1938), pp. 239-256, pp. 40-41,

٢ . كرسويل ، **مطول** ، ج١، ص ٢٧٢ ـ ٤٧٧ .

ومن الاستدلالات على اهمية اربد ، انظر ما ذكره المؤلف المجهول عن وفاة يزيد بن عبد الملك في ما يقال لها اربد . **العيون والحدائق في اخبار الحقائق** ، (تح دي غوجه ، ليدن ، بريل ، ١٨٧١) ، ص . ٨ .

(١٢) ابدى العلامة الاثري سوفاجيه ملاحظة قيمة ، نقلها كرسويل (مطول ، ج١ : ٢ ، ص ٤٨٢) ، ونحن نذكرها بدورنا هنا . لقد كانت المنشات العربية تقام في اماكن سبق ان تمتعت بفترة من السكنى على يد اناس غير العرب . والمدينة **الوحيدة** التي انشأها العرب فوق « ارض عذراء » هي مدينة الرملة . فقد انشأها الخليفة سليمان بن عبد الملك لما كان واليا على فلسطين . بنى دارا له ومسجدا جامعا وبعض المنشات الاخرى.

ذكر المسعودي ان المدن التي احدثت في الاسلام عددها سبعة ، الرملة هي رابعها . فقد قال : » لما ولى الوليد بن عبد الملك اخاه سليمان جند فلسطين ، نزل لد ثم احدث الرملة ومصرها . وكان اول ما بنى قصره والدار التي تعرف بدار الصباغين الى هذا الوقت. وأذن للناس فبنوا، واحتفر لهم القناة التي تدعى بردة وابارا كثيرة واختط للمسجد خطة وبناه ، فولي الامر قبل استتمامه ، وبنى قبة في ايامه . واتمه عمر بن عبد العزيز بعده . غير انه نقص من الخطة وقال : » اهل الرملة يكتفون بهذا المقدار الذي اقتصرت عليه » . **راجع التنبيه والاشراف** ، (تصحيح عبدالله اسماعيل الصاوي ، القاهرة ، دار الصاوي للطبع والنشر والتأليف ، ١٩٣٨) ، ص٣١١ . لكن اختيار سليمان لتلك المنطقة المنعزلة ليس غريبا اذا عرفنا الحقيقة التالية : كانت السهول المحيطة بالرملة والممتدة على طول الساحل الفلسطيني ملتفة الاشجار وافرة الثروة الحيوانية . كما كانت المنطقة المجاورة للرملة تتمتع بثروة طبيعية جمة كالمياه والانهار . فاختيار سليمان بن عبد الملك لتلك البقعة كان يتمشى مع الفكرة الاساسية التي حدت بالامويين الى بناء منشاتهم عموما .

ولم يبق الكثير من مدينة سليمان في الرملة لانها ضربت بزلزال رهيب دمرها عن بكرة ابيها ؛ (راجع كرسويل ، **مطول** ، ج١ ص ١٨٢ ، ٤٨٣) .

راجع في ذكر الرملة وبعض تاريخها القديم :

1. K.A.C. Creswell, **Early Muslim Architecture,** (1st ed., Oxford, Clarendon Press, 1940), vol. II, pp. 161-164;

2. Homigmann, «al-Ramla,» in **The Encyclopaedia of Islam,** 1st ed., vol. III pp. 1115-1117;

3. Guy Le Strange, **Palestine under the Moslems,** (London, Palestine Exploration Fund, 1890), pp. 303-308;

4. Else Reitemeyer, **Die Stadtegrundungen der Araber in Islam,** (Leipzig, Otto Harrassowitz, 1912), pp. 73-74;

5. G.T. Ravoira, **Muslim Architecture Its Origins and Development,** (G.McN. Rushforth, **Trans.** Oxford, Milford, 1918) p. 44.

6. Jean Sauvaget, «Esquisse d'une histoirs de la ville de Damas,» in **Revue des études islamique,** (VIII (1934), pp. 420-480) p. 422;

7. Marquis de Vogué, la Citerne de Ramleh et le trace des arcs brisés, » in **Mémoires de l'académie des inscriptions et belles-lettres,** (Paris), 39 (1912), pp. 163-180;

٨ . كرسويل ، مختصر ، ص ١٩٢ ـ ٢٠٣ ؛

٩ . كرسويل ، **مطول** ، ج١ ، ص ٤٤٣ عن صهريجها ؛ ص ٤٨٢ ـ ٤٨٣ عن مسجدها ، ص ٤٩٢ عن مئذنتها ... الخ

١٠ . كومب ، **ذخيرة النقوش العربية** ، ج٥ ، ص ١٨٩ .

وقد ورد ذكر نهر ابي فطرس في التاريخ الاموي على انه المكان الذي ذبح فيه الامويون على يد عبدالله بن علي قائد جيوش العباسيين الثائرين .وأن اجتماعا كذاك ، يدعى اليه ثمانون امويا ليجلسوا الى مائدة القائد العباسي لهو بليل واضح ان هنالك منشآت أو ما شاكل كانت عامرة زمن الامويين . راجع في نهر ابي فطرس ، ياقوت ، **معجم البلدان** ، ج٤ ، ص ٨٣١ . وانظر في مذبحة الامويين خير دراسة في الموضوع:

Sabatino Moscati, «Le Massacre des Umaiyades,» in **Archive Orientalni,** 22 (1950), pp. 88-115,

وهنالك ايضا في المدينة الكبيرة سلسلة جبال لبنان الشرقية ، مدينة عنجر الاموية ، راجع في شأنها :

1. Sauvaget, Jean, «Les Ruines omeyyades de Andjar,» in **Bulletin du musée de Beyrouth,**
III (1939), pp. 5-11,

٢ . كرسويل ، **مطول** ، ج١ ، ص . ٤٧٨ ـ ٤٨١ .

(١٣) وردت الاية : « الاعراب اشد كفرا ونفاقا» سور التوبة : الاية ٩٧ ؛ وسورة التوبة نفسها فيها عدة اشارات الى نفاق الاعراب ، راجع في سردها محمد فؤاد عبد الباقي ، **المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم** ، (القاهرة ، دار ومطابع الشعب ، لات) ، ص ٤٥٦ ، العامود الاول . والمقصود هنا ، قطعا ، اهل البادية ، لان نفس اللفظة ، « الاعراب » وردت

في اية اخرى على انهم القوم خارج المينة المنورة : «ما كان لاهل المدنية ومن حولهم من الاعراب... الخ "سورة التوبة: الاية ١٢٠».
فالاعراب ، اذن ، هم العرب من غير سكان الحضر . وقد تطور مضمون لفظة العرب عبر العصور ، فكانت تعني البدو حينا ، ثم اهل الجزيرة كافة حينا اخر ، تبعا للحقبة التاريخية التي استعملت فيها . فابن خلدون مثلا ، وهو العربي الصريح ، يشير الى البدو في مقدمته بلفظة « العرب » . والى هؤلا' العرب عزا كثيرا من الخصال غير الحميدة ، نلك لانه كان في عصر اعتبر العرب من اهل الحواضر مسلمين لا عربا ؛ راجع ابن خلدون ، **المقدمة** ، (الطبعة الثانية ، بيروت ، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، ١٩٦١) ، ج١ ، ص ٢٦٦ ، حيث يقول في عنوان الفصل ٢٦ من الباب الثاني : » في ان العرب اذا تغلبوا على أوطان اسرع اليها الخراب » . ج١ ، ص ٦٣٩ ، وحيث يقول في عنوان الفصل التاسع من الباب الرابع : « في ان المباني التي كانت تختطها العرب يسرع اليها الخراب الا في الاقل » ... الخ .
وقد تتبع المستشرق برنارد لويس في كتابه **العرب في التاريخ** ، تطور مدلول لفظة « عرب » وشرح تأرجحها بين مدلول « البداوة » و « اهل الجزيرة » عموما ؛ راجع :

Bernard Lewis, **The Arabs in History** (3ed., London, Hutchinson and Co., 1964, p. 12ff., especially pp. 16-17.

(١٤)عندما بدأ الفي' يتدفق على المسلمين في المدينة ، اثرى كثيرون ثرا' فاحشا بطرق شتى ، لم تكن جميعها غير ملتوية . فقد مر عمر بن الخطاب ببنا' يبتنى بالجص والاجر لعامله على البحرين ، فعلق قائلا : « ابت الدراهم الا ان تخرج اعناقها ! » راجع هذه القصة في ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج١ ، ص ٥٢ ؛ ابن قتيبة ، **عيون الاخبار** ، (القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٢٥)، ج١ ، ص ٥٣ . يستدل من هذه الرواية ، ان صحت ، على ان حركة بنا' الدور ، ثم القصور المترفة ، بدأت في وقت مبكر . وقد احدث الصحابة والتابعون وأشراف القرشيين كثيرا من هذه الدور في تلك الحقبة ، فكتب التاريخ والطبقات زاخرة باشارات اليها . فسعد بن ابي وقاص بنى دارا له في العقيق ، وهو مكان يشبه غوطة دمشق بالقرب من المدينة المنورة ، رفع سمكها وجعل فيها الشرفات ، انظر في المسعودي ، **مروج الذهب** ، (باريس ، ١٨٦١ ــ ١٨٧٦ ؛ اعادة طبع بالانست ، طهران ، مؤسسة مطبوعاتي اسماعيليان ، ١٩٧٠) ، ج٤ ، ص ٢٥٣ ، عن دارة عثمان ، ج٤ ، ص ٢٥٤ ، عن دارة سعد بن ابي وقاص في العقيق ؛ ج٤ ، ص ٢٥٥ ، عن دارة المقداد في المدينة ، ج٤ ص ٢٥٤ ، عن دارة طلحة بن عبيدالله ... الخ . ويذكر الطبري رواية مفادها ان ابا ذر الغفارى ، وهو المشهور باشتراكيته وعدائه للاثريا' ، استأذن عثمان بن عفان بالخروج من المدينة لانه تطير من كثرة البنا' فيها وانتشاره ، راجع الطبري ، تاريخ ، ج٤ ، ص ٢٨٤ .
كما كانت الدور المترفة كثيرة في مكة ، فمعاوية كان يمتلك مجموعة بيوت دعيت بالرقط استحضر البنائين الفرس لبنائها ، راجع الازرقي ، **كتاب اخبار مكة** ، (ليبزك ، ١٨٥٨ ؛ اعادة طبع بالانست ، بيروت ، مكتبة خياط ، لات) ، ج١ ص ٤٤٩ ــ ٤٥٢ . وقد ذكر الازرقي ان دور معاوية في مكة كانت ستا في العدد ، وجعل يصفها ويسميها ، فمنها الدار

البيضا' ، سميت كذلك لانها بنيت بالحصى » ثم طليت فكانت كلها بيضا' » ودارة الرقطا' « لانها بنيت بالاجر الاحمر والجص الابيض فكانت رقطا' ... الخ . »

وقد بني الكثير في الطائف ، مصيف مكة الممتاز . شهر هناك قصر سكينة بنت الحسين المسمى «البريدى » ، انظر ابو فرج الاصفهاني ، **كتاب الاغاني** ، (بولاق ، المطبعة الاميرية الكبرى ، ١٨٦٨ م) ، ج ١٤ ، ص ١٧٢ .

وانظر ايضا في محمد بن سعده ، **كتاب الطبقات الكبير** ، (تح ادوارد ساخو ، ليدن ، مطبعة بريل ، ١٩٠٦ ــ ١٩١٣) ، حيث تحدث عن قصور عديدة للصحابة والتابعين في مكة والمدينة ، ج٣ ، ص ١٠٤ ؛ ١٧٤٠ ؛ ٢٠٤ ؛ ٢٧٩ ــ ٢٨٠ ... الخ .

كثرة هذه الابنية ، كما اشرنا ، عائدة الى تدفق الفي' على المسلمين في مكة والمدينة . وصف استاذنا الجليل الدكتور جبرائيل سليمان جبور الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الحجاز في فترة الدولة الاموية ، قصور تلك البيئة وما كانت عليه من ترف وتأنق حضاري ورفاهية عيش ؛ راجع كتابه ، عمر بن ابي ربيعة ، (بيروت ، الجامعة الامريكية في بيروت ، ١٩٣٥) ، ج١ ، ص ١٥ ــ ٢٨ في الحالة الاقتصادية ؛ ص٢٩ ــ ١٢٨ في الحالة الاجتماعية .

(١٥) مع انهم اعتبروا لغة قريش غاية الجمال والرقة وضربوا امثالا كثيرة لذلك ، واعتبروا القرآن منزلا بلغة قريش ، لكن جملة اللغة العربية ، والقرآن لم يحط بها كلها طبعا ، اخذت عن تلك القبائل الست .

(١٦) راجع في هذه المعلومات السيوطي ، الاقتراح ، (حيدر أباد ، دائرة المعارف، ١٣١٠هـ)، ص ٢٢.

(١٧) كتب الكثير في موضوع « الاحتجاج » لدى علماء' اللغة العرب . يمكن للقارئ' الرجوع الى دراسة جادة ومقتضبة في سعيد الافغاني ، **في اصول النحو** ، (الطبعة الثانية ، دمشق ، مطبعة الجامعة السورية ، ١٩٥٧) ، ص ٦ ــ ٦٦ (وهو فصل خاص بالاحتجاج) . وقد تطرقت معظم كتب فقه اللغة العربية الى هذا الموضوع .

اما قول ابي عمرو بن العلا' ، فقد ورد برواية ابن سلام الجمحي : » ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ، ولا عربيتهم بعربيتنا . » راجع ابن سلام الجمحي ، **طبقات فحول الشعرا'** ، (تح محمدمحمود شاكر ، القاهرة ، دار المعارف .

(١٨) ذكر حمزة الاصفهاني امرا' غسان فعدد منهم ٣٢ ملكا وسرد سنوات حكم كل واحد منهم فزعم انها ٦١٦ سنة (والحقيقة انها ٤٢٩ سنة حسب تعداد السنوات التي اوردها هو) . وكان حمزة الاصفهاني يذكر اسم الموقع الذي حله او بناه ، مثلا : عمرو بن الحارث الملك الثاني عشر حسب تعداد حمزة بنى قصر الفضا وصفات العجلات وقصر المنار ، وبنى النعمان بن الحارث ما افسده اللخميون من صهاريج الرصافة ، والايهم بن جبلة قصر البركة ... وقال عن جفنة الاصغر انه « كان سيارة جوابا » (ص ١٠١) فلم يبن شيئا ... الخ . راجع : حمزة الاصفهاني ، **تاريخ سني ملوك الارض والانبيا'** ، (طبعة بيروت) ، ص ٩٨ ــ ١٠٤ وراجع الغساسنة الدراسة الممتازة : ثيودور نولدكه ، امرا' غسان ، ترجمة

بندل الجوزى وقسطنطين زريق ، بيروت ، منشورات كلية الآداب والعلوم في الجامعة الامريكية ، ١٩٣٣ .

(١٩) راجع : فواز احمد طوقان ، « القصور الاموية الصحراوية لماذا ابتنيت ؟ » ، في حولية مديرية الآثار العامة ، ١٤ (١٩٦٩) ، ص ٤ ـ ٢٥ .

هذا وقد اخبرنا السيد غازي بيشة ، الموظف في مديرية الآثار العامة الاردنية ، انه اخذ توزيع القصور الاموية الجغرافي كما اوردناه في مقالنا ووسع فيه ، وذلك في رسالة الماجستير التي اعدها في جامعة مشيغان ، آن اربور ، في الولايات المتحدة لكننا لم نطلع على بحثه بعد . وهذا هو الباحث الوحيد الذي نمي عمله الى علمنا حتى الان .

(٢٠) من اهم الدراسات حول **قصر الحائر العربي** :

1. K.A.C. Creswell, **Early Muslim Architecture,** (2nd. ed., Oxford, Clarendon Press, 1969). vol. 1-2 pp. 506-518,

وسيشار الى هذا الكتاب بعد الان هكذا : كرسويل ، مطول ؛

2. Heinrich Gerhard Franz, «Die Stuckfenster in Qasr al-Hair al-Gharbi,» in **Wissenschaftliche Annalen,** Berlin, V (1956), pp. 465-483;

3. Daniel Schlumberger, «Deux fresque omayyades,» in **Syria,** XXV (1946), pp. 86-102;

4. ---, «Les Fouilles de Qasr el-Heir el-Gharbi (1936-1938); Rapport préliminaire,» in Syria, XX (1939), pp. 195-238; pls. 28-39 pp. 324-373, pls. 44-47.

وسيشار الى هذا البحث بعد الان هكذا : شلومبرجه ، « قصر الحير الغربي » ؛وقد طبع الكتاب بالعربية .

5. Henri Stern, « Notes sur L'architecture des châteaux omeyyades,» in **Ars Islamic,** XI-XII (1946), pp. 27-97, pp. 73-74,

وسيشار الى هذه الدراسة بعد الان هكذا : ستيرن ، « مذكرات » ؛

٦ . جعفر الحسني ، « قصور الامويين في الديار الشامية » ، في **مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، سابقا مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ،** ١٧ (١٩٤٢) ، ٥ ـ ٦ : ص٢١٤ ـ ٢٣١) ، ص ٢٢٠ ـ ٢٢١ ؛(وسيشار الى هذه الدراسة بعد الان هكذا : الحسني ، « قصور الامويين ») ؛

٧ . جعفر الحسني ، « قصر الحير » ، في **مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، سابقا مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ،** ١٦ (١٩٤١) ، ٨ : ص ٣٣٧ ـ ٣٤٥ .

٨ .شلومبرجة، **قصر الحير الغربي** ، ترجمة الياس ابو شبكة ، بيروت ، دار المكشوف ١٩٤٥ ؛

٩ . سليم عبد الحق ، « اعادة تشييد جناح قصر الحير الغربي في متحف دمشق ، » في **حوليات الآثار السورية** ، ١ (١٩٥١) ، ص٥ ـ ٥٨ ؛

١٠ . محمود العابدي ، القصور الاموية ، (عمان ، مطابع الشركة الصناعية . ١٩٥٨) . ص١٠٧ ـ ١٢٦ ، وسيشار الى هذا الكتاب بعد الان هكذا : العابدي ، القصور الاموية .

(٢١) يفصل كرسويل هذه الخلاصة التاريخية ويشرح ملابساتها معتمدا على اصول تاريخية قديمة ، راجع : كرسويل ، **مطول** ، ج١، ص ٥١٢ ـ ٥١٤.

(٢٢) هناك نقش في جدار الخان الملحق بالقصر كتب فيه : **رجب ١٠٩ ؛ كرسويل ، مطول** ، ج١ ، ص٥٠٧ . وبهذه المناسبة لا بد من الاشارة الى انه اغرب نقش اسلامي على الاطلاق . سكبت حروف النقش منفصلة اولا ، ثم حفر على شكلها بالضبط في الحجر ، ودقت الحروف الى الحجر بواسطة مسامير في ظهرها . لكن الاحرف المعدنية هذه اختفت اليوم وبقي اثرها في الحجر ونقر المسامير ظاهرة في التجاويف . ولقد تتبع كرسويل هذه الطريقة في الكتابة على الحجر وعزاها الى الرومان مستخرجا امثلة على ذلك ، تجدها في الجزء الاول من كتابه المطول ، ص ٥٠٧ ؛ وحاشية رقم ٢ ورقم ٣ . انظر كرسويل ، مطول ، ج١ ، ص ٥٠٦ ـ ٥٠٧ .

راجع في هذا النقش ، كومب ، **ذخيرة النقوش العربية** ، ج١ ، ص٢٣ . وقراءة النقش هي هذه :» بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله لا شريك له . امر بصنعة هذا العمل عبدالله هشام امير المؤمنين اوجب الله اجره عمل على يد ثابت ابن ثابت في رجب سنة مائة وتسع « راجع ايضا ، عبد الحق ، » اعادة تشييد » ، ص ٩ ، الحسني ، «قصور الامويين » ، ص ٢٢١ .

(٢٣) » طابع البيت » نمط خاص من انماط العمارة السورية ، شاع قبل العرب في سورية وفي اراضي الدولة الساسانية . وهو عبارة عن ساحة مربعة او مستطيلة حولها مبان متصلة مؤلفة من طابقين وفيها رواق مسقوف يدور حول الساحة كلها ويرتكز على حيطان المباني . وهو ما نجده تقريبا في كل انماط العمارة الاسلامية قاطبة . وقد تتبع كرسويل اقدم الامثلة غير الاسلامية والاسلامية لهذا الضرب من العمارة وشرح الملابسات الهندسية وما اليه ، وذلك في كتابه المطول ، ج١ ، ص ٥١٥ ـ ٥١٧ . فليرجع القارئ الى ذلك المصدر ففيه غنى كثير عن غيره .

وقد تناول ستيرن موضوع « البيت » في العمارة الاسلامية الاموية وشرح مميزاته مستنتجا ان القصور الاموية ، التي بنيت جميعها تقريبا على شاكلة « البيت »، هي نقطة البدء في العمارة الاسلامية غير الدينية ؛ راجع ستيرن ، « مذكرات » ، ص ٩٤ ـ ٩٥ ، كما اشار الى ان اصل « البيت » الاموي الشائع الاستعمال في تلك القصور ، مع انه متأثر بفن العمارة الساساني ، الا نه خاضع للتقاليد المعمارية السورية طبق الاصل التي استمدت بدورها من هيئة مضارب خيام القبيلة اصلا . ويقول ستيرن ان الابراج المدغمة البناء لا شك وانها مستمدة من الساسانيين ، اما تربيع البناء وتقطيعه فسوري الاصل والنشأة . راجع في ذلك ستيرن ، « مذكرات » ، ص ٨٢ ـ ٩٤ .

(٢٤) راجع شكل البنا' واطواله في كرسويل ، **مطول** ، ج ١ ، ص ٥٠٧ والشكل رقم ٥٦٢ على الصفحة المقابلة . وراجع : كرسويل ، **مطول** ، ج ١ ، ص ٥٠٦ .

(٢٥) انظر المقال المطول الذي نشره سليم عادل عبد الحق ، « اعادة تشييد جناح قصر الحير الغربي في متحف دمشق » ، في **الحوليات الاثرية السورية** ، ١ (١٩٥١) ، ص ٥ ـ ٥٧ ، وللوحات ١ ـ ٢٤ .

(٢٦) راجع : هاملتون ، خربة المفجر ، ص ٢٧ ـ ٢٨ .

(٢٧) اخذنا وصفه عن مقالة عبد الحق المذكورة في الحاشية رقم ٢٥ .

(٢٨) راجع ما سيمر عن الاعمال المائية في قصر الحائر الشرقي .

(٢٩) ومن اهم الدراسات حول **قصر الحائر الشرقي** :

11. K.A.C. Creswell, Another Word on Qasr Al-Heir» in **Syria,** XVIII (1937), pp. 232-233;

١٢ . كرسويل ، **مطول** ، ج ١ ، ٢ ، ص ٥٣٢ ـ ٥٤٤ ؛

13. Ch. Clermont-Gannneau, «une Inscription du calife Hichâm (an 110 de l'hégire), in **Recueil d'archéologie orientale,** III (1900), pp. 285-293;

14. René Dussaud; Paul Deschamps, Henri Seyrig. «La Syrie antique et mediévale illustrée,» in **Service des antiquités et des beaux-arts, Bibliothèque et historique XVII,** (Paris, Librairie Orientaliste : Paul Geuthner, 1931); pp. 84-86; pls. 87-93; pl. 159;

15. René Dussaud, **Topographie .Historique de la Syrie antique et medievale.**

وسيشار الى هذا الكتاب بعد الان هكذا : دوسو ، طوبوغرافية ؛

6. Albert Gabriel, «A Propos de Kasr el-Heir, a l'est de Palmyre,» in **Syria,** XIII (1932), pp. 317-320;

7,---, «Kasr el-Heir,» in **Syria,** VIII (1927), pp. 302-329; pls. 85-94;

8. Oleg Grabar, «Qasr al-Hayr al-Sharqi : Preliminary Report on the first Season of Excavations, Part I, In **Les Annales archeologiques de Syrie,** XV 2 (1965), pp. 107-120;

9. Alois Musil, **Palmyrena : A Topographical Itinerary,** (Oriental Explorations and Studies, No. 4; New York, American Geographic Society, 1928), pp. 77-79

10. David Talbot Rice, **Islamic Art,** (New York, Frederick Praeger, Publishers, 1965), pp. 24-25;

وسيشار الى هذا الكتاب بعد الان هكذا : رايس ، الفن الاسلامي ؛

11. Jean A. Sauvaget, «Rauvaget,» Remarques sur les monuments omeyyades,» in **Journal asiatique,** (231 (1939), pp. 1-59; 232(1940), pp. 19-57), 231 (1939), pp. 1-13;

وسيشار الى هذا البحث بعد الان هكذا : سوفاجيه ، « ملاحظات ١٩٣٩ » ؛ سوفاجيه ، ملاحظات . ١٩٤٠ » ؛

12. Henri Seyrig, «Antiquités syriennes : I Les Jardin de Kase el-Heir,» in **Syria,** XII (1931). pp. 316-318; pl. 62;

13. «Antiquities syriennes : 16. Retour auk Jardin de Kasr el-Heir», in **Syria,** XV (1934), pp. 24-32; pls. 7-8

١٤ . الحسني ، « قصور الامويين » ، ص ٢١٧ ــ ٢١٩ .

١٥ . ستين ، « مذكرات » ، ص ٧٥ ــ ٧٦ ؛

١٦ . العابدي ، **القصور الاموية** ، ص ١٠٣ ــ ١٠٦ ؛

١٧ . جورج مارسيه ، **الفن الاسلامي** ، (ترجمة عفيف بهنسي ، دمشق ، وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي ، ١٩٦٨) ، ٤١ ، وسيشار الى هذا الكتاب بعد الان هكذا : مارسيه ، الفن الاسلامي .

(٣٠) راجع : كرسويل ، **مطول** ، ج١ ، ص ٥٢٥ ــ ٥٢٨ ، والشكل رقم ٥٧٤ ، واللوحات ٩٢ج ، ٩٣أ ب ج ، ٩٤ ج .

(٣١) راجع :كرسويل ، **مطول** ، ج١ ، ج١ ، ص٥٢٥ .

(٣٣) راجع : كرسويل ، **مطول** ج١ ، ص ٥٣٢ .

(٣٤) راجع : كرسويل ، **مطول** ، ج١ ، ص ٥٣٢ ــ ٥٣٣ ؛ وقد اقتبسنا شكل الحوزة ايضا عن كرسويل ، مطول ، ج١ ، ص ٥٣٣ ، الشكل رقم ٥٧٩ .

(٣٥) راجع كرسويل ، **مطول** ، ج١ ، ص ٥٣٥ ؛ خصوصا الحاشية رقم ٥ حيث استعرض كرسويل بعض المصادر التي درس مؤلفوها اقنية العالم القديم التي من نوع قناة **قصر الحائر الشرقي** .

(٣٦) راجع في رأيه :

Henri Seyrig, «Les Jardins de Kasr el-Heir,» in **Syria,** XII (1931), pp. 316-318; pl. 62.

(٣٧) انظر مقالة سيريغ المذكورة في الحاشية السابقة ، وراجع ايضا كرسويل ، **مطول** ، ج١ ، ص ٥٣٦ . لكن غبريال لم يتراجع عن نظريته في ان الحائر « بحيرة اصطناعية » ، فكتب مجددا مقالة اخرى في نفس المجلة نشرت عام ١٩٣٢ ، وقد ذكرناها أنفا . وعرض فيها نفس الفكرة ، « البحيرة الاصطناعية » . مما اضطر سيريغ الى كتابة رد جديد عليه :

Henri Sayrig, «Retour aux Jardins de Kasr el-Heir,» in **Syria,** XV, (1934), pp. 24-32; pls 7-8

(٣٨) انظر :

K.A.C. Creswell, «Another Word on Kasr Al-Gair,» in **Syria,** XVIII (1937), pp. 232-233.

(٣٩) **«Game Preserve»**

(٤٠) راجع : كرسويل ، **مطول** ، ج١ ، ص ٥١٢ ؛وانظر كذلك شلومبرجه ، « صورتان امويتان من الفرسكو » ، سورية ، ٢٥ (١٩٤٦) ، ص ٩٣ .

(٤١) نقل كرسويل هذا النص عن المؤرخ البيزنطي ثيوفانس الذي عاش في القرن الثامن الميلادي وكان أول االغربيين الذين كتبوا عن المسلمين بشيء من الاطلاع . راجع :

Theophanes, **Chronographia,** (Bonn's edition), p. 620; (Boor's edition), p. 403.

وراجع : كرسويل ، مطول ، ج١ ، ص ٥٣٦ ــ ٥٣٧ .

(٤٢) راجع : كرسويل ، **مطول** ، ج ١ ، ص ٥٣٦ ، حيث اقتبسه مترجما عن ترجمة امدروز ومرغوليوث لابن مسكويه .

(٤٣) راجع : كرسويل ، **مطول** ، ج ١ ، ص ٥٣٦ ، وانظر ادل مرة ظهرا منشورين :

K.A.C. Creswell, «Another Word on Kasr Al-Hair», in **Syria,** XVIII (1937), pp. 232-233.

وقد عاد فضمهما في كتابه المختصر عن العمارة الاسلامية المنشورة عام ١٩٥٨ ، كرسويل ، مختصر ، ص ١١٩ .

(٤٤) انظر : كرسويل ، مطول ، ج١ ، ص ٥٣٧ .

(٤٥) جمع لفظة حائر ؛ وتجمع ايضا على حيار ؛ انظر الحاشية رقم ١ .

(٤٦) بدأ هرتسفليد العمل في سامرا عام ١٩١١ بالاشتراك مع فردريك ساره ، وقد طبع المجلد الاول حول اعماله عام ١٩١٢ ؛ راجع :

Ernst Hersfeld, **Erster vorlaufiger Bericht uber die Ausgrabungen von Samarra,** Berlin, Dietrich Reimer, 1912,

ثم توالت المجلدات الواحد تلو الآخر، حتى وفاة هرتسفيلد عام ١٩٤٧ ولم يتم العمل بعد .

(٤٧) احمد سوسة ، ري سامراء في عهد الخلافة العباسية ، (بغداد ، مطبعة المعارف ، ١٩٤٨ ــ ١٩٤٩) ، ج١ ، ص ٢٩٢ .

(٤٨) راجع الصورة الخيالية لحائر المتوكل للوحوش حيث استلهم االفنان المصادر التاريخية فرسم لنا حوزة الحائر بكافة تفاصيلها وابراجها وشجرها وحيواناتها ... الخ . انظر : سوسة ، ري سامراء ، ج٢ ، مقابل ص ٣٠٠ .

(٤٩) سوسة ، ري سامراء ، ج ٢ ، ص ٣١١ .

(٥٠) راجع الرسم التوضيحي في سوسة ، ري سامراء ، ج٢ ، ص٣١١ .

(٥٠) راجع : راجع الرسم التوضيحي في سوسة ، ري سامراء ، ج٢ ، مقابل ص ٣٠٠ .

(٥١) راجع : ابو عبادة البحتري ، ديوان البحتري ، (تح حسن كامل الصيرفي القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٣ ـ ١٩٦٤) ، ج ٤ ، ص ٢٤١٤ ـ ٢٤٢١ .

(٥٢) راجع : احمد بن ابي يعقوب بن بواضح اليعقوبي ، **كتاب البلدان** ، (ضمن كتاب ابن رستة ، الاعلاق النفيسة ، تح م ج دى غوجه ، ليدن ، مطبعة بريل ، ١٨٦٠) ، ص ٢٦٣ .

(٥٣) راجع : البحتري ، **ديوان البحتري** ، ج ٤ ، ص ٢٤٢٠ ، البيت رقم ٢٩ .

(٥٤) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج ٢ ، ص ١٠٣

(٥٥) صور : جمع صورا ، اي ماثلة .

(٥٦) عرصة : كل بقعة بين الدور ليس فيها بناء .فيح : جمع الأفيح والفيحا ، الواسعة .

(٥٧) راجع : الخطيب البغدادي ، **تاريخ بغداد** ، ج ١ ، ص ٩٩ .

(٥٨) راجع : ياقوت ، البلدان ، ج ١ ، ص ٨٠٧ . يلاحظ ان اللفظة وردت مصحفة زاد في تحريفها فستنفلد ، محقق **معجم البلدان** . لكن الخطيب البغدادي يوردها على انها « حير » . راجع : تاريخ بغداد ، ج ١ ، ص ٩٩ . وقد تنبه احمد سوسة الى التصحيف في نص ياقوت ، فأصلحها الى « حيرا » ، ري سامرا ، ج ٢ ، ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦ ، الحاشية .

(٦٠) نفسه ، ج ١ ، ص ٩٩ .

(٦١) راجع هاملتون ، خربة المفجر ، ص ٦ ـ ٧ .

(٦٢) نفسه ، ص ٧ ـ ٨ .

(٦٣) راجع النص رقم ١٣ في الفصل السادس .

(٦٤) راجع : هرتسفلد ، « الحائر » ، في الموسوعة الاسلامية ، الطبعة الاولى ، ج ٢ ، ص ٢٢١ .

(٦٥) راجع : ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، تح صلاح الدين المنجد ، دمشق ، المجمع العلمي العربي بدمشق ، سابقا ، مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٩٥٤ ، الجزء الثاني ، القسم الاول .

(٦٦) راجع : ابو بكر احمد بن محمد الصنوبرى ، ديوان الصنوبري ، (تح احسان عباس ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٧٠) ، ص ٥٥ ، القصيدة ٤٦ : البيت ٧ . وقد وردت في المخطوط اصلا مصحفة الى « حيز » وراجع النص رقم ٤ من الفصل السادس من هذه الدراسة .

(٦٧) راجع : عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، (بولاق ، المطبعة الاميرية الكبرى ، ١٢٨٤ هـ ، اعادة طبع بالاوفست بيروت مؤسسة الاعلمي للمطبوعات .

(٧٠) راجع : ابو بكر الصنوبري ، ديوان الصنوبري ، ص ١٢٩ . وقد رثى الصنوبري الحسين وال الرسول في عدة مناسبات تكاد تكون مطابقة لحروف الهجا . ففي ديوانه ، قصائد من هذا النوع قوافيها على كل حروف الهجا تقريبا . ويبدو ان الصنوبري شاعر البلاط

واغلب اصحابه شعراء بلاط سيف الدولة ، كانوا ينظمون القصائد الهاشميات تملقا للحمدانيين الذين كانوا على المذهب الشيعي الاثني عشرى .

(٧١) راجع : الطبرى ، **تاريخ الطبرى** ، ج٨ ، ص ٣٥٥ ـ ٣٥٦ .

(٧٢) راجع مثلا : ياقوت ، **البلدان** ، ج٢ ، ص ١٨٨ ، صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق ، (ـ ٧٣٩ ه) ، **مراصد الاطلاع** ، (تح علي محمد البجاوي ، القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ، ١٩٥٤) ، ج١ ، ص٣٧٣ .

(٧٣) **مراصد الاطلاع** ج ١ ، ص٣٧٣

(٧٤) راجع مثلا : الفيروزابادى ، **القاموس المحيط** ، (الطبعة الثانية ، القاهرة ، مصطفى البابي الحلبي ، ١٩٥٢)، ج٢ ، ص١ .

(٧٥) راجع مثلا : ابو عبيد الله بن عبد العزيز البكري (ـ ٤٨٧ هـ) ، **معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضع** ، (تح مصطفى السقا ، القاهرة ، لجنة التاليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٧) ، ج٢ ، ص ٤١٤ ، ياقوت ، البلدان ، ج٢ ، ص ١٨٩ ، ابن عبد الحق ، مراصد الاطلاع ، جج١ ، ص ٣٧٣ .

(٧٦) راجع : المسعودي ، **التنبيه والاشراف** ، ص٢٧٤ ـ ٢٧٥ .

(٧٧) راجع : عباس القمي ، **سفينة البحار ومدينة الحكم والاثار** ، (طهران ، مكتبة سنائي ، ١٣٨٢ هـ) ج١ ، ص ٢٢٢ ، فالقمي كان يقتبس ابن الجوزى .

(٧٨) راجع : المسعودي ، **التنبيه والاشراف** ، ص ٢٧٥ .

(٧٩) راجع : احمد بن محمد المقرى (ـ ١٠٤١ هـ) ، **نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب** . (تح محمد محيي الدين عبد الحميد ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، لا ت) ، ج٢ ، ص ١٦٠ . وقد ذكر ياقوت الحموي هذا الحائر وضبط حركات الزجالي واورد البيتين الاول والثالث مع بعض الاختلافات وحدد موقعه بالضبط مثل المقرى . راجع : ياقوت ، **البلدان** ، ج٢ ، ص ٣٧٤ .

(٨٠) الرقيات : صانعات الرقية ، وهي ان يستعان للحصول على امر ما بقوى تفوق قوى الطبيعة .

(٨١) اذخر : مفرده اذخرة ، وهو نبات طيب الرائحة ، او هو الحشيش الاخضر .
جليل : الياسمين ، او الورد احمره وابيضه وأصفره .

(٨٢) راجع : المقرى ، نفح الطيب ، ج٢ ، ص ١٦١ .

(٨٣) النضناض : الحية التي لا تستقر في مكان .

(٨٥) هكذا وردت في الاصل بالباء . وصوابها قرنصت ، بالنون .
وفي **القاموس المحيط** للفيروزابادى ، القرانيص هي حرز اعلى الخف او هي مقدمته . ويبدو ان المقرنصات (stalactites) في العمارة الاسلامية اخذت من المعنى الثاني ، مقدمة الخف ، معتبرين ان مقدمة الخف العربي القديم كانت معقوفة .

(٨٦) راجع : البكرى ، **معجم ما استعجم** ، ج٢ ، ص ٤١٤ .

(٨٧) راجع : البكرى ، **معجم ما استعجم** ، ج٣ ، ص ٨٥٩ ـ ٨٧٨

(٨٨) راجع : ياقوت ، **معجم البلدان** ، ج٢ ، ص ١٩٤ ــ ١٩٦ .

(٨٩) راجع : الثعلبي ، **قصص الانبيا'** ، ص ٧٧ ، وقصة ابراهيم مذكورة بالتفصيل ص ٧٢ وما بعدها .

(٩٠) راجع : ابن عبد الحق ، مراصد الاطلاع ، ص ٣٧٣ ، ياقوت ، البلدان ، ج٢ ، ص ١٨٩ .

(٩١) راجع : الطبرى ، **تاريخ الطبرى** ، ج٧ ، ٦٢٣ . وانظر ايضا : كمال الدين بن العديم ، **زبد الحلب من تاريخ حلب** ، (تح سامي الدهان ، دمشق ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق ، ١٩٠١)، ج١ ، ص ٤٨ ، وردت على حيار بني عبس ، وهي مثل حيار بني القعقاع ، ياقوت ، **البلدان** ، ج٢ ، ص ٣٧٣ .

(٩٢) راجع : ابو فرج الاصفهاني ، الاغاني ، (تصحيح احمد الشنقيطي ، القاهرة ، مطبعة التقدم ، لا ت) ، ج٣ ، ص٨٠ .

(٩٣) راجع : معلقة النابغة الذبياني وشرحها في : ابو زيد القرشي ، **جمهرة اشعار العرب** ، ص ١١٢ وما بعدها .

(٩٤) راجع المصدر نفسه ، ص ٢٤١ وما بعدها .

(٩٥) نفسه ، ص ٣٣٨ وما بعدها .

(٩٨) ما زلنا نسمع بين الحين والاخر قصصا من المسنين مفادها ان هنالك بعض الفهود في البراري ، خصوصاً في أحراش ضافة في الشوبك . لكننا نستبعد ذلك

(٩٩) زعم احد الرحالة الاوروبيين في القرن السابع عشر الميلادي انه قتل تمساحا بالقرب من الطيبة (ناحية حلب) ، راجع : كرستينا فليبس ، الصحراء السورية ، ص ١٥ .

(١٠٠) راجع : ماونتغورت ، صورة صحرا' ، ص٥٨ ــ ٦٣ .

(١٠١) الصحارى الاغفال : التي لا علامة فيها او اثر للعمران .

(١٠٢) راجع : الجاحظ ، الحيوان ، (الطبعة الثانية ، تح عبد السلام هارون ، القاهرة ، مصطفى البابي الحلبي ، ١٩٦٥) ، ج٤ ، ص٤٢٢ .

(١٠٣) نفس المصدر .

(١٠٤) راجع : ما سيمر في حائر المأمون ، الفصل السادس .

(١٠٥) ورد في الطبري ان النمرود بنى لابراهيم الخليل الحير (وبرواية اخرى الحفر واخرى الحين) والقاه فيه ، راجع : **تاريخ الطبرى** ، طبعة ليدن ، القسم الاول ، ص ٣٤٧ . كما ورد في نفس الكتاب عن حير اخر له علاقة ببخت نصر ، ولكن الاصل انه ورد ذكر الحيرة على الحير خطأ ، وفي النص تحريف بين ، راجع الطبرى ، **تاريخ الطبرى** ، طبعة ليدن ، القسم الاول ص ٧٤٥ ، ٧٤٨ ، ٧٤٩ .

(١٠٦) احمد بن ابي يعقوب بن واضح اليعقوبي ، كتاب البلدان (ليدن ، مطبعة بريل ، ١٨٦٠) ، ص ٢٦٣ ، (طبع مع كتاب الاعلاق النفيسة لابن رسته ، وكلاهما بتحقيق م . ج . دي غوجه) . وانظر ايضا ، تاريخ ابن واضح اليعقوبي ، (النجف ، ١٩٣٩) ، ج٣ ، ص ٣١٦ .

(١٠٧) راجع : كرسويل : المختصر ، ص١١٩ .
(١٠٨) راجع مثلا : القسم الثالث ، ص ١٨٠٢ ، ١٨٠٤ ، ١٨٠٧ ، ١٨١٧ ، ١٨٢٤ ، وخصوصا ١٨٢٨ ، وجميعها تتعلق بالحائر في سامرا' .
(١٠٩) القسم الثالث ، ص ٧٥٢ .
(١١٠) الجهشياري ، **كتاب الوزرا' والكتاب** ،) (تح مصطفى السقا وأخرين ، القاهرة ، مصطفى البابي الحلبي ، ١٩٣٨) ، ص ٤٨ .
(١١١) ديوان الصنوبري ، (تح احسان عباس ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٧٠) ص ٥٥ .

وقد اخطأ عباس في تفسير « الحير » فظنه سيرك اذ يقول : » يعني نوع من ملاعب الوحوش (Circus) (كذا) ، ص ٥٥ ، الحاشية رقم ١ .
(١٠٢) ابو محمد الحسن بن احمد بن يعقوب الحمداني ، **صفة جزيرة العرب** ، (تح دافيد مولر ، ليدن ، مطبعة بريل ، ١٩٦٨) ، ص ٢٢٩ ، وهذان البيتان من **مشوبة** الشماخ بن ضرار ، وقد فصل بينهما ثلاثة ابيات اخرى . يمكن الرجوع الى المشوبة الكاملة في : ابو زيد **القرشي** ، (بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٣) ، ص ٢٩٥ ـ ٣٠٠ .
(١١٣) راجع : ابو بكر محمد بن يحي الصولي ، **اشعار اولاد الخلفا'** واخبارهم ، من **كتاب الاوراق** ، (القاهرة ، مطبعة الصاوى ، ١٩٣٦) ، ج٢ ، ص ١٨١ ـ ١٨٢ . وقد وهم احمد سوسة عندما ظن ان الابيات من نظم الصولي نفسه ، راجع سوسة ، رى سامرا' ، ج٢ ، ص ٣٠٠ .

(١١٤) راجع : ابو الحسن علي بي بن الحسين بن علي المسعودي ، **مروج الذهب ومعادن الجوهر** ، (وضع الفهارس يوسف اسعد داغر ، بيروت ، دار الاندلس ، ١٩٦٥ ـ ٦) ، ج٣ ، ص ٤٥٩ .
(١١٥) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٤٦٦ .
(١١٦) المصدر نفسه ، ج٤ ، ص ٤ ـ ٥ .
(١١٧) المصدر نفسه ، ج٤ ، ص ١٠٣
(١١٨) راجع : الاغاني ، (تصحيح احمد الشنقيطي ، القاهرة ، مطبعة التقدم ،لات.) ج٣ ، ص ٨٠ .
(١١٩) الفقاحة من كل نبت زهره .
(١٢٠) راجع : ابو علي احمد بن محمد بن مسكوية ، تجارب الامم ، تحقيق ه . ف . امدروز ، القاهرة ، شركة التمدن الصناعية ، ١٩١٤) ، ج١ ، ص ١٥٩ . ويتوجب تحقيق همزة « الحاير » التي وردت في النص ، لان النساخ القدامى كانوا يعدلون بالهمزة الى احرف اللين من غير الحروف الصحاح .

(١٢١) هذه اللفظة وردت هكذا في الاصل . وهي قطعا محرفة . اذ انها مبهمة ، اتعني المسجد مثلا ؟ ولكن الاصوب ان تصحح الى المعلى ، بالعين لا بالصابالصاد والمعلى نهر هناك ، ذكره ياقوت الحموي خلال حديثه عن قصر التاج ان المأمون عندما صار القصر الجعفري شرقي

بغداد اليه ، بنى لحاشيته الخاصة المأمونية ، وصنع الحائر وانشأ عنده الملاعب واجرى داخل الحائر نهرا يستمد مياهه من نهر المعلى . راجع ياقوت ، معجم البلدان ، ج١ ، ص ٨٠٧ . وقد وهم كرسويل (**المختصر** ، ص ١١٩)
حين ترجم اللفظة هذه الى (Oratory) ظنا منه بأن معناها مسجد او شبيهه .

(١٢٢) راجع : الهمداني ، تكملة تاريخ الطبري ، (الطبعة الثانية ، تح البرت يوسف كنعان ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٦١) ، ج١ ، ص ١٢١ .

(١٢٣) ج٢ ، ص ٣٧٥ .

(١٢٤) ج٢ ، ص٣٧٣ .

(١٢٥) **المشترك وضعا والمفترق صقعا**، ص ١١٩ .

(١٢٦) نفس المصدر ، ص ٦١ .

(١٢٧) زبده الحلب من تاريخ حلب ، (تح سامي الدهان ، دمشق ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق ، ١٩٥١) ج١ ، ص ٤٨ .

(١٢٨) راجع : محمد بن علي بن ابراهيم بن شداد ، **الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة : تاريخ مدينة دمشق** ، (تح سامي الدهان ، دمشق ، ١٩٥٦) ص ٢٧٣

(١٢٩) ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ، **لسان العرب** ، (بيروت ، دار صادر ودار بيروت ، ١٩٥٥ ــ ــ ١٩٥٦) ، ج٤ ، ص ٢٢ ــ ٢٢٦ .

(١٣٠) راجع : **القاموس المحيط** ، (الطبعة الثانية ، القاهرة ، مصطفى البابي الحلبي ، ١٩٥٢) ج٢ ، ص١٦ .

(١٣١) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ١٧ .

(١٣٢) **تاج العروس** ، (القاهرة ، المطبعة الخيرية ، ١٣٠٦ هــ ــ ١٣٠٧ هــ ، اعادة طبع بالانست ، بنغازي ، دار ليبيا للنشر والتوزيع ، لا ت) ، ج٣ ، ص ١٦٣ .

(١٣٣) هو ابن حنيفة احمد بن داود بن وند الدينورى ، المؤرخ اللغوي المعروف . توفي عام ٢٨٢ هـ . وهو صاحب **كتاب النبات** ، احد المراجع الهامة اللغوية في اسماء النبات . راجع بروكلمن ، تاريخ اداب اللغة العربية (بالالمانية) ، ليدن ، مطبعة بريل ، ١٩٣٧) ، النيل الاول ، ص ١٨٧ .

(١٣٤) الزبيدي ، ج٣ ، ص ١٦٤ .

(١٣٥) الزبيدي ، ج٣ ، ص ١١٦٣

(١٣٦) ياقوت ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٣٧٣ .

(١٣٧) الزبيدي ، ج٣ ، ص١٦٣ .

(١٣٩) الفيروزابادى ، **القاموس المحيط**، ج٢ ، ص ١٦ .

(١٤٠) راجع الحاشية رقم (١) من هذه الدراسة .

(١٤١) وهو كذلك البستان ،كحار يحور ، راجع : الفيروزابادى ، ج٢ ، ص ١٦ .

(١٤٢) راجع الخطيب البغدادي ، **تاريخ بغداد** ، ج١ ، ص ١٠٣ .

(١٤٣) راجع صورة الفريسكو في ارضية الغرفة رقم ١٩ من قصر الحائر الغربي ، راجع: كرسويل ، مطول ، ج١ ، ص ٥١١ ــ ٥١٢ ، واللوحة رقم ٩١ .

(١٤٤) شرح عرفان (قعوار) شهيد معنى لفظة الحيرة في محاضرة ممتازة القاها خلال المؤتمر السنوي للجمعية الاميركية الشرقية في نيوهيفن ، ولاية كونيتكت ، عام ١٩٦٧ ، وقد اكد ان اسم الحيرة مشتق من حار يحار وليس من الحور او الحرة (وهما البياض او السواد) . وللاسف لم تنشر محاضرته الى الان .

(١٤٥) كتب الكثير عن هذا المسجد ، راجع بسرعة ، ما ضمنه كرسويل في كتابه المطول ، ج١ ، ص ٥٠٢ وما بعدها .

(١٤٦) راجع الحاشية رقم ١٠ ، القسم و ، من هذه الدراسة .

(١٤٧) راجع في هذا الحمام :

١ ــ موزيل ، **العربية الصحراوية** ، ص ٣٥١ ، شكل ٨٤ ــ ٩١ .

٢ ــ موزيل ، **عمرة** ، ص ١٤٨ ،

٣ ــ بلل ، **اخيضر** ، ص ١١١ ــ ١١٢ ، ص ١٦٥ ،

٤ ــ جوسن ، **القصور العربية** ، ص ١١٢ ــ ١١٤ .

٥ ــ هاردنغ ، **اثار الاردن** ، ص ١٥٢ .

٦ ــ كرسويل ، **مطول** ، ج١ ، ص ٤٩٨ ــ ٥٠٢ .

٧ ــ سوفاجيه « ملاحظات » ،

٨ ــ سترن ، « مذكرات » .

9. Butler, H.C. **Ancient Architecture in Syria, Section A ; Southern Syria,** (Leiden, E.J. Brill, 1907 - 1915), pp. 74-77,

10 Eclochard, Michel; Le Cœur, Claude; **Les Bains de Damas,** (Beirut, Institut français de Damas, 1942-3), pp. 126-128.

11. Pauty, Edmond, Les Hammams du Caire, (Cairo, Memoires de L'Institut français d'archéologie orientale du Caire L X IV , 1933), pp. 17-21.

(١٤٨) كرسويل ، **مطول** ، ص ٤٩٨ .

(١٤٩) قصير **عمرة** اصغر من ذلك بقليل ، راجع في هذه القياسات : كرسويل مطول ، ص ٤٩٨ .

(١٥٠) كرسويل ، **مطول** ، ص ٥٠١ .

(١٥١) كرسويل ، **مطول** ، ص ٥٠١ ــ ٥٠٢ .

(١٥٢) راجع : هاردنغ ، **اثار الاردن** ، ص ١٥٢ .

جغرافية الشام عند جغرافيي القرن الرابع الهجري

الدكتور نقولا زيادة
الجامعة الاميركية ــ بيروت

مقدمة :

بين أواسط القرن الثالث (التاسع) وأواخر القرن الرابع (العاشر) ، ظهر في محيط الجغرافية العربية عدد من الكتب بتصف بالأصالة على العموم ، مع العلم أن آثار المدرسة اليونانية تظهر في بعض هذه الكتب . والمؤلفون الذين ننوى أن نتحدث عنهم في هذا المقال هم ، على ترتيب تاريخ وفياتهم : ابن خرداذبه (تو حول ٢٧٢ / ٨٨٥) واليعقوبي (تو حول ٢٨٨ / ٨٩١) وابن رسته (تو بعد ٢٩٠ / ٩٠٣) وقدامة بن جعفر (تو بعد ٣١٠ / ٩٢٢) والبلخي (تو ٣٢٢ / ٩٣٤) والجيهاني (كتب قبل ٣١٠ / ٩٢٢) والاصطخرى (كتب بين ٣١٨ و ٣٢١ / ٩٣٠ و ٩٣٣) وابن حوقل (توفي في النصف الأول من القرن الرابع / العاشر) والهمداني (تو ٣٣٤ / ٩٤٥) والمقدسي (تو بعد ٣٧٨ / ٩٨٨) .

ومن الممكن النظر في ما خلفه هؤلاء المؤلفون من خلال مجموعات : فابن خرداذبه واليعقوبي وابن رسته وقدامة هم من طبقة المؤلفين الكتاب الذين كانوا يشغلون وظائف في الدولة . ويمكن أن يضاف الجيهاني اليهم . ويكون البلخي والاصطخرى وابن حوقل مجموعة ثانية . وينفرد المقدسي عن هؤلاء بميزات خاصة سنعرض لها فيما بعد . وثمة مؤلف آخر هو الهمداني سنتحدث عنه منفردا لأنه خص صقعا واحدا ، هو جزيرة العرب ، باهتمامه .

ونحن اذا اخذنا المؤلفين الكتاب (اى المجموعة الأولى) وجدنا انهم كانوا موظفين في الدولة . فقد كان ابن خرداذبه صاحب البريد في اقليم الجبال من

فارس . واليعقوبي كان من موظفي الدولة ، وكان جده الأعلى حاكما لأرمينية كما أنه كان والي مصر . وكان جده ووالده من عمال البريد الكبار . ومعنى هذا أن الرجل نشأ في بيت وظائفي وكان هذا ييسر له الاطلاع على امور هامة . وكان ابن رسته في خدمة الدولة ، وان لم تصل الينا اخبار كافية عن طبيعة المنصب الذى شغله . اما قدامة بن جعفر فقد كان يتولى الخراج . والجيهاني وزر للسامانيين . ومن هنا نرى أن الناحية التي عني بها هؤلاء الكتاب تتصل بحاجات الدولة اتصالا وثيقا .فقد تحدث كل منهم ، ولو على درجات متفاوتة ، عن الطرق وخاصة طرق البريد او ارتفاع الخراج في الجزء من البلاد الذى كان يعرفه ، او اهتم بالطرق البحرية والتجار الذين يحملون بضائعهم عبرها ونوع المتاجر التي يحملون .

وضع ابن خرداذبه كتابا باسم « المسالك والممالك » ، وبعد مقدمة تكاد تكون تقليدية عند عدد من الجغرافيين العرب عن الأرض وشكلها على نحو ما قاله بطليموس ، ينتقل المؤلف الى التحدث عن القبلة بالنسبة الى مختلف البلدان ، ويعرض بعد ذلك الى سواد العراق مبينا تقسيمه الادارى في ايامه ، معددا انواع الضرائب التي تجبى منه ، مقفيا على ذلك باخبار مقتضبة عن الملوك الاقدمين . لكن القسم الرئيسي من كتابه هو وصف للطرق التي تصل اهم المدن الاسلامية بعضها بالبعض الآخر او بغيرها من المدن بادئا من بغداد . ونجده يخفف جفاف وصف الطرق بالاستشهاد ببيت من الشعر او رواية خبر طريف هنا او هناك . ومن الأشياء التي عني بها وافدنا نحن منها وصفه طريق التجار من اوروبة الى مصر ثم من مصر الى الجار وجده والسند والهند والصين . وكان هؤلاء التجار ينقلون الخدم والديباج وجلود الخز والفراء والسيوف من اوروبة الى الشرق الأقصى ويعودون بالمسك والعود والكافور وغير ذلك . وفي كتابه شيء عن عجائب الأرض والسكان ، مثل الفيل ووحيد القرن والطبقات في الهند . ويضع بين ايدينا وصفا دقيقا لكيفية استخراج الكافور من الشجر .

والواقع اننا اذا استثنينا هذا الطرف فالكتاب سجل رسمي وخلاصة لمادة وثائقية حصل عليها بسبب عمله كصاحب للبريد في اقليم الكبال .

ولابن رسته كتاب اسمه « الاعلاق النفيسة » ويبدو انه كان كتابا موسوعيا ضخما ، اما الذى وصلنا من هذا المؤلف فهو جزء صغير هو الجزء السابع وهو الذى يحتوى على ما اراد المؤلف اثباته من الجغرافية الفلكية على طريقة ابي معشر ، وما اورده عن الجغرافية الطبيعية والطرق . يصف فيه اول ما يصف مكة المكرمة والكعبة فيها ، ثم يروى الكثير من عجائب الاحياء ، النباتي منها والحيواني . ويعدد ابن رسته المدن المشهورة وفي الكتاب لمحات تاريخية .

أما قدامة بن جعفر فكتابه اسمه " كتاب الخراج وصنعة الكتابة " . والجزء الذى يتحدث فيه المؤلف عن الخراج هو الذى نجد فيه ما يمكن ان يسمى جغرافية ، وهو ، مثل عمل ابن خرداذبه وابن رسته ، له قيمة عملية اشار اليها قدامة في مقدمة كتابه اذ قال :'ـ

" يحتاج في البريد الى ديوان يكون مفردا به ويكون الكتب المنفذة من جميع النواحي مقصودا بها صاحبه ليكون هو المنفذ لكل شئ منها الى الموضع المرسوم بالنفوذ اليه ، ويتولى عرض كتب أصحاب البريد والاخبار في جميع النواحي على الخليفة ، او عمل جوامع لها . ويكون اليه النظر في امر الفروانقيين والموقعين والمرتبين في السكك وتنجز أرزاقهم وتقليد اصحاب الخرائط في سائر الامصار .
ولا غنى بصاحب هذا الديوان ان يكون معه منه ما لا يحتاج في الرجوع فيه الى غيره . فينبغي أن نكون الآن نأخذ في ذكر ذلك وتعديده بأسماء المواضع وذكر المنازل وعدد الاميال والفراسخ وغيره من وصف حال المنزل في مائه وخشونته وسهولته او عمارته او ما سوى ذلك من حاله ونبدأ بالطريق المأخوذ فيه من مدينة السلام الى مكة وهو المنسك العظيم وبيت الله الأقدم . "

والذى يجده القراء عند قدامة ، بعد هذه المقدمة ، هو وصف للطرق الرئيسية وحديث عن المعمور من الأرض ومملكة الاسلام وثغور الاسلام . وهنا يضع بين ايدينا معلومات واقية عن الخراج وتقسيم الاراضي في الفصل الذى سماه " في مملكة الاسلام واعمالها وارتفاعها " . ففيه يورد التقسيم الادارى ثم ينقل من الوثائق الرسمية ارتفاع كل قسم أى واردات الدولة منه .

ويعقد قدامة فصلا في ذكر ثغور الاسلام والامم والاجيال المطيفة بها يذكر فيه أن الامم والاجيال المخالفة للاسلام مكتنفة له من جميع اطرافه ونهايات اعماله ، وهناك القريب منها وثمة البعيد عنها . وينتقل الى تعداد الثغور الاسلامية بالنسبة الى الامم والاجيال المحيطة بدار الاسلام بادئا بالثغور الرومية ويحدثنا عن ترتيب الجيوش فيها ثم يصف ترتيب الغزوات .

وقدامة يكتب في الفترة التي عاد البزنطيون فيها الى الغزو والتوسع في بعض مناطق البحر المتوسط وجزره . لذلك فهو يعتبر جميع الموانئ على الشاطئ الشامي والمصرى ثغورا ، كما يرى في المدن القائمة على جبال طوروس وسفوحها ثغورا للدفاع . ويقدر النفقات اللازمة للدفاع . فهو يذكر أن ارتفاع الثغور البحرية والبرية من طرسوس الى اذنة (اضنة) والمصيصة وما صاقبها نحو مئة

الف دينار مع أن الانفاق على الدفاع عنها يبلغ ضعف هذا المبلغ وقد يتسع فيصل ثلاثمئة الف دينار . وهذا ينفق « في مصالحها وسائر وجوه شأنها وهي المراقب والحرس والركاضة والموكلة بالدروب والمخايض والحصون ... ويحتاج الى شحنتها من الجند ... ورواتب مغازيها الصوائف والشواتي في البر والبحر . »

هذه الكتب الثلاثة : مسالك ابن خرداذبه واعلاق ابن رسته وخراج قدامة بينها ترابط يكاد يكون عضويا في بعض الحالات ، فضلا عن انها كلها تعتمد وثائق اصلية رسمية . فابن رسته كثير الشبه بابن خرداذبه تقسيما وتنظيما ، وان كان قلم ابن رسته ايسر تعبيرا . وكتاب قدامة يمكن اعتباره تتمة لكتاب ابن خرداذبه .

بقي لدينا « كتاب البلدان » لليعقوبي ، وهو من هذه المجموعة . فالمؤلف كان في خدمة الدولة ، على نحو ما مر بنا ، وقد تنقل في دار الاسلام شرقا وغربا وزار الهند ايضا . ويجب ان نذكر ان اليعقوبي كان مؤرخا ايضا . وكان يعنى، على ما يقول ، وهو في عنفوان شبابه وحدة ذهنه ، بعلم اخبار البلدان . لذلك كثر سؤاله وتسآله حتى جمع من المادة كثيرها وصحيحها عن الاصقاع المتباعدة والازمنة المختلفة فتم له من ذلك ما مكنه من وضع كتابه ، الذى الفه على اساس الجهات الاصلية الأربع . ففي القسم الأول تحدث عن ايران وتركستان وافغانستان وخص القسم الثاني بغربي العراق وغربي الجزيرة العربية وجنوبيها . وافرد الثالث لجنوبي العراق وشرقيه وشرقي الجزيرة العربية والهند وما اليها . اما بيزنطة ومصر والنوبة وشمالي افريقية فقد خص بها القسم الرابع . والذى وصل الينا من كتابه هو القسمان الأول والثاني فقط .

وبالاضافة الى هذا التحديد في تقسيم الكتاب على اساس الجهات فلكتاب اليعقوبي ميزة اخرى وهي انه يصف البلاد على اعتبار انها ولايات او وحدات سياسية او ادارية ، وبذلك يكون اليعقوبي قد تخطى التقسيم على اساس الاقاليم السبعة . واليعقوبي يبدأ كتابه ببغداد وسامراء ، لانهما مدينتا الملك ودار الخلافة ، ويقدم لنا وصفا مسهبا دقيقا لهما . ثم ينتقل الى الاماكن الاخرى واصفا الطرق اليها ، فكتاب البلدان ، مثل سابقيه ، قصد منه ، فيما يبدو ، ان يكون مرشدا لمن يتولى امر الخبر لاصحاب السلطان ، في البريد او غير ذلك من المهام .

والجيهاني من هذه الجماعة ، لكن كتابه فقد ، ولولا ان المسعودى والمقدسي ذكراه ولولا ان البيروني وياقوت وغيرهما نقلوا عنه ، ما كنا عرفنا عنه شئيا . ويبدو ان الجيهاني لم يكن غريبا عن المؤلفين الكتاب من حيث الافادة من سابقيه مثل ابن خرداذبه ، وافادة لا حقيه مثل الادريسي.

والمجموعة الثانية من مؤلفي الجغرافية العربية في ابان نضجها تشمل : البلخي والاصطخرى وابن حوقل . والأولان من فارس والثالث من نصيبين في الجزيرة . والارتباط بين مؤلفات هؤلاء النفر قوى الى حد أن الباحثين في هذا الموضوع لم يستطيعوا تبين الاتصال تماما ، وان كانوا قد استطاعوا الاهتداء الى الخطوط العريضة فيه.

هؤلاء المؤلفون الثلاثة كانوا اهل سفر ، وان اختلفت رقع اسفارهم اختلافا بينا . فالبلخي من بلخ وقد قضى ثماني سنوات في بغداد حيث اتصل بالفيلسوف الكندى ، وبسبب ذلك انتقل اهتمامه من الشريعة الى قضايا العلم والفلسفة . وقد حج . ولما عاد الى بلخ لم يخرج منها فيما بعد . لذلك فان الذى يعرفه معرفة مباشرة كان قليلا . ولأن كتابه فقد ، فنحن لا ندرى على وجه الدقة حتى ما هي الاجزاء التي وضعها . اما الاصطخرى فقد زار ما وراء النهر وايران وجزيرة العرب والشام ومصر . ومن ثم فما كتبه عن هذه البلاد مبني على المشاهدة ، اما ما ذكره عن المغرب فهو منقول عن غيره . وكان ابن حوقل اوسع الثلاثة رقعة اسفار . فقد احترف التجارة ، وتنقل في شمالي افريقة والاندلس وجنوبي ايطاليةكما زار ايران وجزءا من الهند وكان يعرف الجزيرة والعراق معرفة المواطن . وثمة من الباحثين من يرى ان ابن حوقل كان داعية سياسيا للفاطمين والى هذا يعزى هذا التنقل الذى كان يقوم به والاسفار الواسعة التي حملته الى ابعد الاماكن ، وعلى كل فقد دون ابن حوقل اخبار مشاهداته .

ولسنا نعرف اسم كتاب البلخي . وكل ما نعرفه عنه ما ذكره المقدسي اذ قال : « واما ابو زيد البلخي فانه قصد بكتابه الامثلة وصورة الارض بعد ما قسمها على عشرين جزءا ثم شرح كل مثال واختصر ، ولم يذكر الاسباب المفيدة ، ولا اوضح الامور النافعة في التفصيل والترتيب . وترك كثيرا من امهات المدن فلم يذكرها . وما دوخ البلدان ولا وطيء الاعمال .» فهل كان اسم كتاب البلخي صورة الارض ام ان هذا ورد عرضا في كلام المقدسي دون ان يقصد به اسما معينا ؟

اما كتاب الاصطخرى فاسمه « المسالك والممالك » . ويقدمه مؤلفه بقوله :

> « أما بعد فاني ذكرت في كتابي هذا أقاليم الارض على الممالك . وقصدت منها بلاد الاسلام بتفصيل مدنها ، وتقسيم ما يعود بالاعمال المجموعة اليها ، ولم اقصد الاقاليم السبعة التي عليها قسم الارض ، بل جعلت كل قطعة افردتها مفردة مصورة ، تحكي موضع ذلك الاقليم ، ثم ذكرت ما يحيط به من الاماكن ، وما في اضعافه من المدن والبقاع المشهورة

والبحار والانهار ، وما يحتاج الى معرفته من جوامع ما يشتمل عليه ذلك الاقليم ، من غير أن استقصيت ذلك كراهة الاطالة ، التي تؤدى الى ملال من قرأه ، ولأن الغرض في كتابي هذا تصوير هذه الاقاليم ، التي لم يذكرها احد علمته، اما ذكر مدنها وجبالها وانهارها وبحارها والمسافات وسائر ما أنا ذاكره فقد يوجد في الاخبار ، ولا يتعذر على من اراد تقصي شيء من ذلك من أهل كل بلد ، فلذلك تجوزنا في ذكر المسافات والمدن وسائر ما نذكره ، فاتخذت لجميع الارض التي يشتمل عليها البحر المحيط الذى لا يسلك صورة ، اذا نظر اليها ناظر علم مكان كل اقليم مما ذكرناه ، واتصال بعضه ببعض ، ومقدار كل اقليم من الأرض ، حتى اذا رأى كل اقليم من ذلك مفصلا علم موقعه من هذه الصورة ، ولم تتسع هذه الصورة التي جمعت سائر الاقاليم لما يستحقه كل اقليم في صورته ، من مقدار الطول والعرض والاستدارة والتربيع والتثليث ، وسائر ما يكون على اشكال تلك الصورة فاكتفيت ببيان موقع كل اقليم ليعرف مكانه ، ثم أفردت لكل اقليم من بلاد الاسلام صورة على حدة ، بينت فيها شكل ذلك الاقليم وما يقع فيه من المدن ، وسائر ما يحتاج اليه علمه . »

وابن حوقل يوضح منهجه في تأليف كتابه « صورة الأرض » ويشرحه مطولا . فهو قد فصل بلاد الاسلام اقليما اقليما وصقعا وصقعا وكورة كورة وبدأ بذكر ديار العرب لأن فيها الكعبة وفيها مكة ام القرى . وفي كل مناسبة كان يقدم للمنطقة صورتها او رسمها . ولننقل بعض مقدمته ففيها غناء عن اكثرها . يقول : ـ

« وقد عملت كتابي هذا بصفة اشكال الارض ، ومقدارها في الطول والعرض ، وأقاليم البلدان ومحل الغامر منها والعمران ، من جميع بلاد الاسلام ، بتفصيل مدنها وتقسيم ما تفرد بالاعمال المجموعة اليها . ولم أقصد الاقاليم السبعة التي عليها قسمة الأرض لأن الصورة الهندية التي بالقوانيان ، وان كانت صحيحة ، فكثيرة التخليط . وقد جعلت لكل قطعة أفردتها تصويرا وشكلا يحكي موضع ذلك الاقليم ، ثم ذكرت ما يحيط به من الاماكن والبقاع .»

يتفق الثلاثة اذن في انهم اقتصروا في الغالب على بلاد الاسلام او جزء

منها . وباستطاعتنا ان نعرف تماما ما كتبه كل من الاصطخرى وابن حوقل بسبب وجود الكتابين . فالاصطخرى فصل الاجزاء الشرقية من العالم الاسلامي واضاف شيئا عن المغرب سماعا . واما ابن حوقل فقد زار المناطق كلها فكانت كتابته عن مشاهدة .

وكل من هؤلاء رسم او صور المناطق التي تكلم عنها . أى انه اعتمد على « خارطة » من رسمه ليبين الاماكن والمواقع . ولم يصل الينا من خرط البلخي ، او صوره على الاصح ، الا القليل . لكن صور الاصطخرى وابن حوقل ، او خرطهما ، وصلت الينا . والباحثون متفقون على أن البلخي هو الرائد لحركة الرسم او التصوير هذه . فالكل سار على غراره بما في ذلك المقدسي ، والمهم ان الخرط التي رسمها البلخي لم تكن على غرار خرط بطليموس ولم يسر على طريقته . أى ان خرط البلخي لم تكون مبنية على حسابات رياضية ولا عروض فيها ولا اطوال ، وانما كانت صورا او رسوما فيها كثير من الانطباع الشخصي . لذلك لم تكن يها مسافات مفروض صحتها فيقع الواحد في الخطأ بسبب ذلك . وانما كانت صورة تعطي فكرة تقريبية . اما المسافات فيوردها المؤلف (احيانا) في المتن وللقارئ ان يحسب المسافة ويتعرف الى الاتجاه في الصورة .

هذه ناحية واحدة اختط فيها البلخي لنفسه خطة مستقلة عن القدامى . والامر الاخر هو انه لم يعتمد على الاقاليم السبعة ، هندية كانت او يونانية ، لتحديد المناطق . وانما اعتمد توزيعا اساسه ولايات او وحدات جغرافية لها مقومات خاصة . وفي هذا يتفق البلخي مع اليعقوبي .

وقد اتبع الا صطخرى وابن حوقل خطة البلخي فرسما كما رسم وفصلا الوصف على اساس عشرين منطقة ، وزاد ابن حوقل عليها اثنتين . ومع كل هذا الذى ذكرنا فهناك مشاكل كثيرة تتعلق بصلة الواحد منهم بالآخر وخاصة صلة الاصطخرى بابن حوقل . فان المقارنة بين النصين الموجودين بين ايدينا لكتابي الاصطخرى وابن حوقل تحملنا على القول بأن الثاني اخذ عن الاول لا عبارات ومقطوعات فحسب ، بل صفحات بكاملها ، حتى ليمكن القول ان ابن حوقل لم يزد على انه اعاد كتابة الاصطخرى في مواضع كثيرة . لكن الحكم على هذا الشكل فيه اجحاف بمقدرة ابن حوقل وتنقله واسفاره . يضاف الى ذلك انه ليس بين ايدينا نص كتاب البلخي لنحكم على الامر حكما جازما . فقد يكون هو الاصل للاثنين معا . وكثيرا ما يعني الاصطخرى بالمقارنة بين مكانين .

المقدسي ، او المقدسي البشارى كما يسمى احيانا ، من مواليد مدينة القدس (ويقال انه ولد في الرملة من اعمال فلسطين) سنة ٣٣٥ / ٩٤٦ . وكان جده لابيه ابو بكر من مشاهير البنائين (ويبدو ان اباه كان ايضا بناءا) وهو

الذى بنى ميناء عكاء لابن طولون حاكم مصر . ولعل هذا هو الذى جعل مؤلفنا يهتم بالبناء والمعمار في بعض ما يصف . كان ولوعا بالاسفار ، ونحن اذا استثنينا الاندلس والسند وسجستان وجدنا ان الرجل زار اصقاع العالم الاسلامي الباقية جميعها . وقد وضع كتابه " احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم " سنة ٣٧٥ في مدينة شيراز وكان له من العمر اربعون عاما . ولعله عاد الى الكتاب فنقحه او اضاف اليه . فقد وجدت للكتاب نسختان قدمت احداهما الى آل سامان وقدمت الثانية (بعد ذلك بثلاث سنوات) الى الفاطميين في مصر . وبين النسختين اختلاف طفيف .

وتبدو في الكتاب شخصية المقدسي واضحة . فهو منظم مرتب واضح فيما يكتب وان كان يتعمد الصنعة بين الحين والآخر . وكتابه وضع له منهجه قبل ان يبدأ بتأليفه كما يتضح من قراءته .

ونحن اذا اخذنا كتابه وجدنا انه يعلن في فاتحته انه اراد ان يسير على نهج العلماء فيصنف كتابا يحفظ اثره بحيث لا ينقطع خبره . واختار علما قد اغفله العلماء من قبل " الا على الاخلال ، وهو ذكر الاقاليم الاسلامية وما فيها من المفاوز والبحار والبحيرات والانهار ووصف امصارها المشهورة ومدنها المذكورة ، " وما يتبع ذلك من تجارة وصناعة وعادات . ومن هنا نرى ان المقدسي وقف ممن سبقه الى الكتابة في موضوع الجغرافية موقف الناقد الذى لا تأخذه في الحق لومة لائم.

وينتقل بعد ذلك الى ما يسميه مقدمات لا بد منها فيقول انه اسس كتابه على قواعد محكمة واسنده بدعائم قوية وتحرى الصواب جهده واستعان بكل من اتصل به . وينتقد الذين سبقوه في الكتابة في هذا الموضوع. ويحب المؤلف ان يكون قارئه على بينة من مصطلحاته وتعابيره الفنية لذلك فهو يوضحها في مطلع كتابه . واقتصر على مملكة الاسلام ولم يتكلف الممالك الاخرى لأنه لم يدخلها ولكنه ذكر بعض مواضع المسلمين منها . ويضيف " وقد قسمناها اربعة عشر اقليما [مناطق او ولايات] «وافردنا اقاليم العجم عن اقاليم العرب . ثم فصلنا كور كل اقليم ونصبنا امصارها وذكرنا قصباتها ورتبنا مدنها واجنادها بعد ما مثلناها ورسمنا حدودها وخططها. "

بعد توضيح الاسس التي بنى كتابه عليها وذكر البحار والانهار يقدم للقارئ الاماكن المتفقة اسما والمختلفة صقعا وينتقل الى الخصائص في الاقاليم فيجملها . ويشفق على الفقهاء من قراءة كتابه بكامله فيختصر لهم بابا خاصا هو خلاصة للكتاب . وبعد تعداد الاقاليم الاربعة عشر يأخذ كلا منها على حدة فيفصل كوره وقصباته ثم يعود فيجمله بشكل عام من حيث اقتصاده وادارته وصفات

اهله وما الى ذلك .

اما وقد عرضنا لجغرافيي القرن الرابع (العاشر) ، فانه حري بنا الآن ان نتناول خرطهم او صورهم التي زينوا بها كتبهم . ولنذكر انفسنا قبل كل شيء بأن الجغرافيين العرب الذين كتبوا في الجغرافية الرياضية كانوا يرسمون خرطا تظهر فيها خطوط الطول والعرض ويقسمون العالم الى اقاليمة السبعة ، وكانوا بطبيعة الحال متأثرين ببطليموس وغيره . اما جغرافيو القرن الرابع(العاشر) فقد كانت لهم خطة تختلف تماما . وقد ذكرنا قبلا ان كتاب البلخي ضاع منه كما فقدت اكثر خرطه او (صوره) . ولكن مما حصلنا عليه من خرط (او صور) الاصطخري وابن حوقل والمقدسي وغيرهم ، ومن الاخبار التي نقلت لنا عن مؤلفين آخرين اضطررنا ، بسبب الاختصار ، الى عدم التعرض لهم ، اصبح باستطاعتنا ان نكون فكرة عامة عن رسمهم للخرط الكثيرة .

خرط المدرسة الكلاسيكية ، كما اشرنا من قبل ، لا تتصل بقريب او بعيد بما يمكن أن نسميه الخرط البطليموسية . ولكنها كانت صورا المقصود منها توضيح المادة الجغرافية لذلك لا نجد فيها أثرا للاطوال او العروض . ولكننا نجد فيها نظاما واحدا اذ ان كل مؤلف كان يرسم خارطة (او صورة) مستديرة للعالم تليها عشرون خارطة (او صورة) منها ست لجزيرة العرب وبحر فارس (الخليج العربي وامتداداته) والمغرب ومصر والشام وبحر الروم ثم اربع عشرة خارطة للاجزاء الشرقية والوسطى من العالم الاسلامي : الجزيرة والعراق وخوزستان وفارس وكرمان والسند وارمينية (ومعها اذربيجان) والجبال وكيلان (ومعها طبرستان) وبحر الخزر وصحراء فارس وسجستان وخراسان وما وراء النهر . وهذه الخرط ، اذا قوبلت بما رسم في اوروبة ، كانت خالية من صور الحيوانات والناس . لكن السواحل والانهار كانت تصور فيها تصويرا هندسيا . فالخرط تعطي الفكرة عن البلاد الا انه كان يعوزها الدقة .

وقد اطلق كونراد ميلر الذى جمع الخرط الاسلامية كلها ونشرها مع شرح وتفسير (باللغة الالمانية) على هذه المجموعة اسم « اطلس الاسلام » .

اسماء الشام وحدوده

أول جغرافي اعتبر ديار الشام وحدة بلدانية هو الهمداني اذ عنون الفصل الخاص بها بقوله « القول في الشام » [١] . واما الاصطخرى فقد اطلق عليها « أرض الشام » [٢] فيما استعمل ابن حوقل كلمة « الشام » مجردة [٣] . اما المقدسي ، فقد استعمل « اقليم الشام » [٤] قاصدا بذلك وحدة جغرافية ، على نحو

استعماله الكلمة في كتابه اطلاقا . اما بقية الجغرافيين من اهل القرن الرابع العاشر الذين كتبوا عن الشام فواحد منهم وهو ابن خرداذبه ذكر الكور التي كانت ديار الشام تتكون منها [٥] وعدد اليعقوبي اجنادها [٦] ، واما قدامة فقد دلنا على الطرق والسلك في بعض مدن الشام عند حديثه عن الطرق [٧] وعن اعمال مملكة الاسلام وارتفاعها [٨] وعن الثغور فيها [٩] .

والواقع اننا اذا تذكرنا ان ابن حوقل يكرر ما نجده عند الاصطخرى ، فاننا يمكننا القول بأن هذا والمقدسي هما اللذان اعطيا الديار الشامية وحدة جغرافية .

فالاصطخرى يقول : ـ

" واما الشام فان غربيها بحر الروم وشرقيها البادية من ايلة الى الفرات ، ثم من الفرات الى حد الروم ، وشماليها بلاد الروم ، وجنوبيها حد مصر وتيه بني اسرائيل ، وآخر حدودها مما يلي مصر رفح ، ومما يلي الروم الثغور ." [١٠]

لكن المقدسي يصف التكوين الطبيعي لاقليم الشام فيقول : ـ

" ووضع هذا الاقليم ظريف . هو اربعة صفوف ، فالصف الأول يلي بحر الروم وهو السهل : رحال منعقدة ممتزجة ، يقع فيه من البلدان الرملة وجميع مدن السواحل . والصف الثاني الجبل : مشجر ذو قرى وعيون ومزارع يقع فيه من البلدان بيت جبريل وايليا ونابلس واللجون وقدس والبقاع وانطاكية . والصف الثالث الاغوار : ذات قرى وانهار ونخيل ومزارع ونيل . يقع فيه من البلدان ويلة وتبوك وصغر واريحاء وبيسان وطبرية وبانياس . والصف الرابع سيف البادية : وهي جبال عالية باردة ، معتدلة مع البادية ، ذات قرى وعيون واشجار . يقع فيه من البلدان مآب وعمان واذرعات ودمشق وحمص وتدمر وحلب [١١]. "

اقسام الشام ومسافاته

يختلف الجغرافيون فيما بينهم حول تسمية الاجزاء المختلفة للشام ، كما انهم يختلفون في تحديد هذه الاجزاء . فابن خرداذبه يستعمل " كور قنسرين " و " كورة دمشق " و " كورة الأردن " و " كورة فلسطين " لكنه يقول " اقليم حمص " [١٢] . واليعقوبي يلجأ الى التسمية التي تعود الى صدر الاسلام فيقسم الشام الى اجناد حمص ودمشق والأردن وفلسطين ، ولكنه لا يذكر جند قنسرين [١٣] وعند الاصطخرى فان اجناد الشام هي فلسطين والأردن ودمشق وحمص

وقنسرين [١٤] . ويضيف الاصطخرى الجبال والشراة ويقول عنهما " واما الجبال والشراة فانهما بلدان متميزان . اما الشراة فمدينتها تسمى أذرح ، واما الجبال فان مدينتها تسمى روات " [١٥] . ويسلك ابن حوقل النهج نفسه فيعدد اجناد الشام على انها فلسطين والأردن ودمشق وحمص وقنسرين . ويقول الشيء نفسه عن الجبال والشراة ولكنه يضبط مدينة الاولى رواث [١٦] . ويقسم المقدسي اقليم الشام الى ست كور وهي قنسرين وحمص ودمشق والأردن وفلسطين والشراة ، التي يجعل عاصمتها صغر [١٧] .

هذا الاختلاف في استعمال الكلمات الدالة على اقسام الشام يبدو انه لا يمت الى الوضع الادارى ــ ان كان ثمة وضع ادارى ــ في ذلك الوقت . ولكن الجغرافيين ارادوا التمييز بين جزء وجزء من ديار الشام ، فلجأوا الى التقسيم العسكرى الادارى القديم ، الذى لم يكن متبعا يومها فيما نعلم ، لانه يسر لهم ضم مدن وقرى وما الى ذلك في وحدات لها صفات خاصة بالنسبة الى الاقليم باجمعه .

والاختلاف بين الجغرافيين في تحديد هذه الاجزاء لا يتوقف على التسمية فحسب ، بل يتعدى ذلك الى تحديد هذه الاجناد بالذات . ففيما يجعل الاصطخرى من الجبال والشراة بلدين متميزين ولكل منهما مدينته الخاصة ، فان المقدسي يجعل منهما كورة مستقلة [١٨] . لكن الذى هو ادعى الى الاهتمام هو ان المقدسي يضع بين ايدينا لائحتين مختلفتين للمراكز التابعة لكل من حلب (على انها قصبة كورة قنسرين) وحمص على انها الكورة المسماة بالاسم نفسه . ففي الباب الذى اختصره للفقهاء من كتابه يذكر المدن التابعة لحلب على انها : انطاكية وبالس وسميساط والمغرتين ومنبج وبياس التينات وقنسرين والسويدية. واما المدن التابعة لحمص فهي: سلمية تدمر والخناصرة وكفرطاب واللاذقية وجبلة وجبيل وانطرسوس وبلنياس وحصن الخوابي ولجون ورفنية وجوسية وحماة وشيزر ووادى بطنان [١٩] . فاذا عاد الى تقسيم اقليم الشام الى كورة الست فيما بعد فانه يجعل وادى بطنان وشيزر وحماة وجوسية ورفنية تابعة لحلب (اى كورة قنسرين) [٢٠] .

والتحديد الوحيد الذى يجده القارىء عند هؤلاء الجغرافيين لهذه الوحدات هو هذه اللائحة التي تعدد المدن التابعة للوحدة . ومن هنا يتضح لنا انه لم يكن ثمة وحدات ادارية قط . ولعل الحالة السياسية التي كانت ديار الشام تعانيها في القرن الرابع / العاشر مسؤولة عن هذا الضياع الادارى .

وكما يختلط على الجغرافيين امر الكورة والاقليم والجند ، فانه يختلط عليهم امر المدينة والقصبة والقرية والعمل ، والاشارة الى هذه قليلة جدا . ولكن

عندما نصل الى المقدسي نجد ان الرجل حدد موقفه من هذه تحديدا دقيقا . فهو بعد ان يعرض لمعنى كلمة المصر فقهيا ولغويا ، يضع بين ايدينا ما توصل اليه شخصيا فيقول :

« واما نحن فجعلنا المصر كل بلد حله السلطان الاعظم وجمعت اليه الدواوين وقلدت منه الاعمال واضيف اليه مدن الاقليم مثل دمشق ... وربما كان للمصر او للقصبة نواح .... فالاقاليم اربعة عشر ستة عربية ... ثم الشام ... وثمانية عجمية .... ولا بد لكل اقليم من كور ثم لا بد لكل كورة من قصبة ثم من كل قصبة من مدن .... وليس كل قصبة مصرا [٢١]» .

والمقدسي يتبع هذا التصنيف بدقة . وفي رأيه ان دمشق هي المكان الوحيد في اقليم الشام الذى يصح ان يسمى مصرا ، وذلك بحكم ما كانت عليه في الماضي . اما بالنسبة الى ايامه فهي لا تعدو كونها قصبة اى عاصمة للكورة[٢٢] .

والمقدسي الذى يذكر الامصار والقصبات والمدن يشير الى القرى ايضا . فهو يشبه الامصار بالملوك والقصبات بالحجاب والمدن بالجند والقرى بالرجالة[٢٣] . ولكنه مع ذلك يفرق بين قرية وقرية كبيرة . فيقول إن في اقليم الشام قرى اجل وأكبر من مدن الجزيرة مثل داريا وبيت لهيا وكفر سلام وكفر سابا « غير انها على رسوم القرى معدودة فيها ، وقد قلنا ان عملنا موضوع على التعرف »[٢٤] . اما الاصطخرى ، وهو الجغرافي الآخر المنظم عمله ، فانه يشير الى مركز الكورة باسم مدينة ولا يستعمل قصبة ، الا بالنسبة الى دمشق فهي « قصبة »[٢٥] .

بالاضافة الى هذا التصنيف فان المقدسي يستعمل تعبيرين آخرين هما ناحية ومحلة . ففي ذكره لكور دمشق يشير الى « ناحية البقاع ومدينتها بعلبك ولها كامد وعجرموش [٢٦] .» اما المحلة فترد ، بالنسبة الى بلاد الشام ، مرة واحدة ايضا ، عند اشارته الى سلوان اذ يقول ان سلوان محلة في ربض المدينة[٢٧] ، والمدينة المقصودة هنا هي القدس . ويشترك الاصطخرى والمقدسي في استعمال كلمة رستاق . ويبدو ان المقصود بالكلمة هي المنطقة التي تزود مدينة معينة بحاجتها من المواد الغذائية . فالاصطخرى يقول عن حوران والبثنية انهما رستاقان عظيمان من جند دمشق[٢٨] . اما المقدسي فيذكر عددا منها وهي : رساتيق دمشق الست : الغوطة وحوران والبثنية والجولان والبقاع والحولة[٢٩] . ورستاق اذرعات هو جبل جرش والداروم هو رستاق بيت جبرين ، واريحا

رستاقها الغور [30] .

يذكر الاصطخرى ان منطقة الغور تسمى كذلك لانها بين جبلين وان سائر بلاد الشام مرتفع عليها . ويسمى المدن التابعة لجند فلسطين وجند الأردن ، ويذكرنا بأن زغر وديار قوم لوط والجبال والشراة هي " في العمل الى ايلة " وان المدن الشمالية من الغور " بعضها من الأردن وبعضها من فلسطين في العمل " [31] . وهي محاولة من الاصطخرى لتوضيح واقع ادارى ، باشارته الى " العمل " ، مع المحافظة على ما الفه الناس من استعمال الجند او الكورة .

وما دمنا نستعرض بعض نواحي الخلاف والتصنيف فيما يتعلق بالبلدان الشامية ، فلنشر الى امر آخر بالاهتمام وهو وحدة قياس المسافات . فنحن نجد ان ابن خرداذبه يستعمل الفراسخ في تعيين المسافات في مشرق المملكة الاسلامية ويستمر في ذلك عندما يتحدث عن الثغور الجزرية . فاذا ذكر المسافات بين الرقة والزراعة وحمص وقارا والنبك ودمشق استعمل الاميال لذلك . ولكنه داخل الشام يستعمل السكة وحدة لقياس المسافات ، ولو انه يعود الى استعمال الميل في تقدير المسافات بين بعض مدن الشام ومدن الروم [32] . والاصطخرى يستعمل اليوم والمرحلة ، والذى يمكن قوله هو ان المرحلة واليوم متساويان في نظر هذا الجغرافي [33] . والمقدسي يستعمل البريد واليوم والمرحلة ويقصد معنى واحدا [34] . والقطعة التالية المأخوذة من الاصطخرى تعطينا فكرة واضحة عن ذلك . يقول :

"وأما المسافات بالشام فان طولها من ملطية الى رفح : فمن ملطية الى منبج ٤ ايام ، ومن منبج الى حلب يومان ، ومن حلب الى حمص ٥ ايام ، ومن حمص الى دمشق ٥ ايام ، ومن دمشق الى طبرية ٤ ايام ، ومن طبرية الى الرملة ٣ ايام ، ومن الرملة الى رفح يومان ، فذلك ٢٥ مرحلة ، وعرضها في بعض المواضع اكثر من بعض ، فاعرضها طرفاها ، واحد طرفيها من الفرات من جسر منبج على منبج ثم على قورس في حد قنسرين ، ثم على العواصم في حد انطاكية ، ثم يقطع جبل اللكام الى بياس ، ثم الى التينات ثم على المثقب ثم على المصيصة ثم على اذنة ثم على طرسوس وذلك نحو ١٠ مراحل ، وان سلكت من بالس فالى حلب ، ثم الى انطاكية ثم الى اسكندرونة ثم الى بياس حتى تنتهي الى طرسوس ، فالمسافة ايضا نحو ١٠ مراحل ، غير ان السمت المستقيم هو الطريق الأول . واما الطرف الآخر فهو حد فلسطين فيأخذ من البحر من حد يافا حتى ينتهي الى الرملة ، ثم الى القدس ، ثم الى اريحا ، ثم الى زغر ثم الى جبال الشراة ثم الى الشراة الى أن ينتهي الى معان ومقدار هذا ٦ مراحل . فاما ما بين

هذين الطرفين من الشام فهو مخصر ، ولا يكاد يزيد عرض موضع من الأردن ودمشق وحمص الى اكثر من ٣ ايام ، لأن من دمشق الى طرابلس على بحر الروم يومين غربا ، والى اقصى الغوطة حتى يتصل بالبادية شرقا يوما ، ومن حمص الى انطرطوس على بحر الروم يومين غربا ، ومن حمص الى سلمية على البادية شرقا يوما ، ومن طبرية الى صور على البحر غربا يوما ، ومنها الى أن تجاوز فيق على حد ديار بني فزارة شرقا يوما . فهذه مسافتا طول الشام وعرضه .

وأما المسافة في اضعافه فانا نبدأ بفلسطين وهي اول اجناد الشام مما يلي المغرب وقصبتها الرملة ، فمن الرملة الى يافا نصف مرحلة ، ومن فلسطين الى عسقلان مرحلة ، والى غزة مرحلة ، ومن الرملة الى بيت المقدس يوم ، ومن بيت المقدس الى مسجد ابراهيم يوم ، ومن بيت المقدس الى ريحا مرحلة ، ومن بيت المقدس الى البلقاء يومان ، ومن الرملة الى قيسارية يوم ، ومن الرملة الى نابلس يوم ، ومن ريحا الى زغر يومان ، ومن زغر الى جبال الشراة يوم ومن جبال الشراة الى آخر الشراة يوم ، واما الأردن فان قصبتها طبرية ، فمنها الى صور يوم ومنها الى عقبة فيق يوم ، ومنها الى بيسان يومان خفيفان ، ومنها الى عكا يوم ، والأردن اصغر اجناد الشام واقصرها مسافة . واما جند دمشق فان قصبتها دمشق ، ومنها الى بعلبك يومان ، والى طرابلس يومان ، والى بيروت يومان ، والى صيدا يومان ، والى اذرعات ٤ ايام ، والى اقصى الغوطة يوم ، والى حوران والبثنية يومان واما جند قنسرين فان مدينتها قنسرين ، غير ان دار الامارة والاسواق ومجمع الناس والعمارات بحلب ، فمن حلب الى بالس يومان ، ومن حلب الى قنسرين يوم ، ومن حلب الى الاثارب يوم ، ومن حلب الى قورس يوم ، ومن حلب الى منبج يومان ، ومن حلب الى الخناصرة يومان [٣٥] » .

مدن الشام

يورد المقدسي اسماء اربع وستين مركزا في اقليم الشام وهي التي يسميها مدنا ، منها واحدة اعتبرها مصرا وهي دمشق ، وست كانت في نظره قصبات وهي حلب وحمص ودمشق وطبرية والرملة وصغر (او زغر) باعتبار ان مدنا اخرى كانت تتبعها ، وان كان المقدسي لا يوضح نوع التبعية او درجتها ، وما تبقى هي مدن عادية [٣٦] ، هذا طبعا خلا القرى والنواحي والرساتيق . والمقدسي

يشعرنا بأنه اذ يذكر هذه المدن فهو يدرك الفرق بين مدينة كبيت المقدس او حماة ومدينة مثل صغر الواقعة جنوبي البحر الميت او البحيرة المنتنة او المقلوبة كما كانت تسمى احيانا . وتتضح هذه الفروق عند المقدسي عندما ينتقل الى ذكر التجارات في اقليم الشام [37] .

وهذه المراكز التي يسميها المقدسي " مدنا " لا ترد كلها عند من سبقهه من جغرافيي القرن الرابع / العاشر . والجدول التالي يصلح للمقارنة

ابن خرداذبه[38]	اليعقوبي[39]	ابن رسته[40]	الاصطخرى[41]	ابن حوقل[42]	المقدسي
٣٥	٣٠	٢٠	٢٥	٣١	٦٤

على أن بعض هؤلاء الجغرافيين يضيف اماكن اخرى ، وقد يسمى بعضها مدنا ، لم يذكرها المقدسي . فابن خرداذبة يضيف عشرين مكانا ، واليعقوبي يذكر احد عشر مكانا ، وابن حوقل يضيف تسعة امكنة[43] . والوحيد الذى لا يضيف اسماء الى ما جاء فيما بعد عند المقدسي هو الاصطخرى . ونحن اذا تذكرنا ان المقدسي كان " شاميا " بمعنى الكلمة الواسع وانه كان يعرف اقليمه وكورته ومدينته وما اليها ، فقد نكون اكثر اطمئنانا الى ما اورده . والفرق الكبير في عدد الاماكن (المدن) بينه وبين الاصطخرى هو ان هذا كتب باختصار فاكتفى بالاكبر او الاهم من المدن ، فيما عمد المقدسي الى ذكرها جميعها . ولما كان ابن خرداذبه واليعقوبي وابن رسته يذكرون الاسماء دون تحديد لها ، فلعل الذى ذكروه ، مما لم يرد عند المقدسي ، كان من نوع القرى الكبيرة او حتى القرى العادية وهذا ما نرجحه .

جدول مقارن بالمدن الواردة عند الجغرافيين من أهل
القرن الرابع/العاشر

ابن خرداذبه	اليعقوبي	ابن رسته	الاصطخرى	ابن حوقل	المقدسي
		×	×		قنسرين
		×	×	×	حلب
		×	×		انطاكية
		×	×		بالس
				×	السويدة

جغرافية الشام عند جغرافيي القرن الرابع الهجري

المقدسي	ابن حوقل	الاصطخري	ابن رسته	اليعقوبي	ابن خرداذبة
سميساط	×	×	×		
منبج		×	×		
بياس التينات	×	×			
مرعش					
اسكندرونه		×			
لجون					
رقينة					×
جوسية	×			×	×
حماة	×			×	×
شيزر	×			×	×
وادى بطنان					×
معرة النعمان	×	×		×	×
معرة قنسرين	×	×		×	×
حمص	×	×	×	×	×
سلمية	×		×	×	×
تدمر	×		×	×	×
الخناصرة	×		×	×	×
اللاذقية				×	×
جبلة					
انطرطوس	×			×	×
بلنياس	×			×	×
جبيل	×				
حصن الخوابي					
دمشق	×	×	×	×	×
بانياس	×			×	
صيدا				×	
بيروت	×	×		×	×
اطرابلس	×	×	×	×	×
عرقة				×	
بعلبك	×	×		×	×
الزبداني	×				
طبرية	×	×	×	×	×
قدس				×	×
عكا	×		×	×	×
صور	×	×	×	×	×
اللجون					
كابل					
الفرانية					
بيسان	×	×		×	×

ابن خرداذبه	اليعقوبي	ابن رسته	الاصطخرى	ابن حوقل	المقدسي
	×				اذرعات
×	×	×	×	×	الرملة
×	×	×	×	×	بيت المقدس
×	×				بيت جبرين
	×	×			غزة
					لد
×	×				ميماس
×	×	×		×	عسقلان
			×	×	يافه
				×	ارسوف
×	×	×		×	قيسارية
×	×	×	×	×	نابلس
					اريحا
×	×				عمان
				×	صغر (زغر)
×					ماب
					تبوك
					اذرح
					ويله (ايله)

والاماكن التي ترد اسماؤها ، على غير تعيين دقيق ، عند الجغرافيين الذين سبقوا المقدسي هي:

ابن خرداذبه : مرتحوان وسرمين وبلوك ورعبان وفامية وصوران ولطمين وتل منس والغلاس والتمة والبلعاس والقسطل وعقبرتا وجرثبة وزندك وقبراتا وبصرى وفحل وجرش[٤٤] .

اليعقوبي : الرستن وصوران وتلمنس وفامية وقارا وبصرى وعرندل وفحل وجرش وعمواس وبينا[٤٥] .

ابن حوقل : الماحوز وجونية وبترون والقلمون وفامية والرصافة ومعان وبلوك . (هذه الاسماء واردة على الخريطة التي رسمها ابن حوقل ولكنها لا ترد في المدن)[٤٦] .

ولعله من المفيد أن نضع بين ايدى القراء هنا الملاحظ التالية : ـ

اولا ـ من المدن التي يذكرها المقدسي ما ظل مدنا الى اواخر القرن الثامن / الرابع عشر ، وهي ـ انطاكية واللاذقية وطرابلس وبيروت وصيدا وغزة والرملة وحلب وحماة ومعرة النعمان وكفرطاب وحمص وبعلبك ودمشق ونابلس والقدس .

ثانيا ـ ثمة مدن ذكرها المقدسي ولكنها آلت ، في القرن الثامن / الرابع عشر ، الى بليدات او مدن صغيرة وهي ـ الاسكندورنة وجبلة وانطرطوس وبلنياس وعرقة وجبيل وسلمية ومعرة نسرين (او قنسرين) وشيزر والزبداني وبيسان واريحا وبانياس وبيت جبرين وعمان .

ثالثا ـ بعض المدن التي ذكرها المقدسي اصبحت ، في القرن الثامن / الرابع عشر ، لا تزيد عن مراكز ادارية ، وهي ـ حصن الخوابي واللجون وتدمر واذرعات ومعان واذرح .

رابعا ـ بعض المدن التي ذكرها المقدسي تدنت بحيث اصبحت ، مع توالي الزمن (وفي القرن الثامن / الرابع عشر) قرى ، وهي ـ كابل والخناصرة وجوسيه وزغر .

خامسا ـ واخيرا هناك مدن ورد ذكرها عند المقدسي لكنها خربت او دمرت بين ايامه والقرن الثامن/الرابع عشر ، وهي ـ صور وعكار وقيسارية وارسوف ويافه وعسقلان والسويدية وبالس ومنبج وقنسرين وطبرية وقدس[٤٧] .

الثغور والعواصم

عني جغرافيو القرن الرابع / العاشر بالثغور والعواصم ، وهي المدن المحصنة الواقعة على التخوم العربية الرومية ، وان كانت اشاراتهم اليها تتفاوت دقة وتعميما . فابن خرداذبه يذكر الثغور الجزرية وهي ، بحسب روايته ، سلفوس وكيسوم وشمشاط (سميساط) وملطية وزبطرة والحدث ومرعش وبينهما ثلاثون ميلا وكمخ وحصن منصور وقورس ودلوك ورعبان .[٤٨] واما الثغور الشامية فهي قنسرين وانطاكية والاسكندرية (الاسكندرونة) والمصيصة واذنة .[٤٩] وينقل الهمداني عن مشايخ انطاكية قولهم بأن " ثغور المسلمين ايام عمر وعثمان كانت انطاكية والكور التي سماها الرشيد العواصم وهي كورة

قورس والجومة ومنبج وانطاكية وتوزين (او بورين) وبالس ورصافة هشام . فكان المسلمون يغزون ما وراءها كغزوهم الروم . وكانت فيما بين الاسكندرية وطرسوس حصون ومصالح للروم .

أما قدامة فقد تحدث عن الثغور حديثا طويلا ننقله هنا بكامله . قال[51]

"وجب ان نقدم الكلام في الثغور المقابلة لبلدهم على الكلام في غيرها فنقول ان هذه الثغور منها برية تلقاها بلاد العدو وتقاربه من جهة البر ومنها بحرية تلقاها وتواجهه من جهة البحر ومنها ما يجتمع فيه الا مران وتقع المغازى من اهله في البر والبحر. الثغور البحرية على الاطلاق سواحل الشام ومصر كلها والمجتمع فيه الامران غزو البر والبحر الثغور المعروفة بالشامية فلنبدأ بذكرها وهي طرسوس واذنة والمصيصة وعين زربة والكنيسة والهارونية وبياس ونقابلس وارتفاعها نحو المائة الف دينار ينفق في مصالحها وسائر وجوه شانها وهي المراقب والحرس والفواثير والركاضة والموكلين بالدروب والمخايض والحصون وغير نلك مما جانسه من الامور والاحوال ويحتاج الى شحنتها من الجند والصعاليك وراتب مغازيها الصوائف والشواتي في البر والبحر في السنة على التقريب مائتي الف دينار والذى يلقاها من بلاد العدو ويتصل بها اما من جهة البر فالقبادق ويقرب منها الناطليق ومن جهة البحر سلوقية وعواصم هذه الثغور وما وراءها الينا من بلدان الاسلام وانما سمى كل واحد منها عاصما لأنه يعصم الثغر ويمده في اوقات النفير ثم ينفر اليه من اهل انطاكية والجومة والقورس ، ثم يلي هذه الثغور عن يمينها وجهة الشمال منها الثغور المعروفة بالجزرية وأول ما يحاد الثغور الشامية منها مرعش ويليه ثغر الحدث وكان يلي الى هذه زبطرة فخربت ايام المعتصم وكان له عند النهوض على بلاد العدو وحتى فتح عمورية الحديث المشهور فلما انتهى الى موضع زبطرة بنى مكانها وبالقرب منها حصونا لتقوم مقامه وهي الحصن المعروف بطبارجي والحصن المعروف بالحسينية والحصن المعروف ببني المومن والحصن المعروف بابن رحوان ثم يلي هذه الحصون ثغر كيسوم ثم ثغر حصن منصور ثم ثغر شمشاط ثم ثغر ملطية وهو الخارج في بلد العدو من جميع هذه الحصون وكل واحد بينه وبين بلد العدو درب وعقبة وثغر ملطية مع بلد العدو في بقعة وأرض واحدة وكان يواجه هذه الثغور ويقابلها من بلد الروم خرشنة وعمل الخالدية فحدث في هذا الوقت بينهم وبين الروم والارمن الذين في جملة مليح الارمني في بلد

كان يسكنه قوم يسمون السالقة وهم من الروم الا أنهم يخالفونهم في كثير من اديانهم وكان هؤلاء مع المسلمين يعينونهم في غزواتهم ويتوفر على المسلمين المعونة بهم الى أن رحلوا دفعة واحدة عن هذا الموضع باساءة اهل الثغور معاشرتهم وقلة اشراف المدبرين على امرهم فتفرقوا في البلاد وسكن مكانهم هؤلاء الارمن وابتنوا الحصون المنيعة ثم صارت لهم العدد الكثيفة والمعرة الشديدة وارتفاع هذه الثغور مع ملطية سبعون الف دينار يصرف منها في مصالحها اربعون الف دينار ويبقى ثلاثون الف دينار ويحتاج لنفقة الاولياء والصعاليك على التجزئة مائة الف وعشرون الف دينار تنضاف الى البقية وعلى المبالغة مائة وسبعون الف دينار تنضاف اليها تتمة مائتي الف دينار سوى نفقات المغزى في اوقاتها وهذه الثغور هي الواسطة ومنها كانت تقع المغازى فان احتيج الى الغزو منها كانت النفقة حسب الغزاة وعواصم هذه الثغور دلوك ورعبان ومنبج ويلي هذه الثغور عن يمينها ايضا وفي جهة الشمال الثغور المسماة بالبكرية وهي سميساط وحانى وملكين وحصون منها جمح ومنها حوران ومنها الكلس وغيرها ، ثم ثغر قاليقلا في جهة الشمال عن هذه الثغور زيادة الا أنه كالمنفرد لما بينه وبينها من المسافة البعيدة ، والذي يقابله هذه الثغور من اعمال الروم عمل الامنياق وبعض عمل الخالدية ويقرب منها عمل افلاغونية المتصل ببلاد الخزر، وارتفاس هذه الثغور في السنة الف الف وثلثمائة الف درهم تحتاج نفقاتها في مصالحها وحصونها وارزاق شحنها الى هذا المقدار وزيادة الف الف وسبع مائة الف درهم تتمة ثلاثة آلاف الف درهم.

وأما الثغور البحرية وهي سواحل جند حمص انطرطوس وبلنياس واللاذقية وجبلة والهريانة، وسواحل جند دمشق عرقة طرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وحصن الصرفند وعدنون، وسواحل جند الاردن صور وعكا وبصور صناعة المراكب، وسواحل جند فلسطين قيسارية وارسوف ويافا وعسقلان وغزة، وسواحل مصر رفح والفرما والعريش، ومقدار ما يغزو في الغزاة من مراكب الثغور الشامية ما يجتمع اليها من مراكب الشام ومصر من الثمانين الى المائة والغزاة اذا عزموا عليها في البحر كوتب اصحاب مصر والشام في العمل على ذلك والتاهب له يجتمع بجزيرة قبرس ويسمى ما يجتمع منها الاسطول كما يسمى ما يجتمع من الجيش في البر المعسكر والمدبر لجميع امور المراكب الشامية والمصرية صاحب

الثغور الشامية ومقدار النفقة على المراكب اذا غزت من مصر والشام نحو مائة الف دينار.

والاصطخري يتوخى الدقة في التسمية اذ يقول ، في معرض حديثه عن حدود الشام الشمالية ، ان آخر حدود ارض الشام مما

" يلي الروم وهي ملطية والحدث ومرعش والهارونية والكنيسة وعين زربة والمصيصة واذنة وطرسوس .... قد جمعت الثغور الى الشام ، وبعض الثغور تعرف بثغور الشام ، وبعضها تعرف بثغور الجزيرة وكلاهما من الشام . وذلك ان كل ما وراء الفرات من الشام . وانما سمي من ملطية الى مرعش ثغور الجزيرة لأن اهل الجزيرة بها يرابطون ومنها يغزون ، لا لأنها من الجزيرة .... وبين ثغور الشام وثغور الجزيرة جبل اللكام ، وهو الفاصل بين الثغرين ... ويظهر في بلد الاسلام بين مرعش والهاروتية وعين زربة. "[٥٢]

ويعود الى ذكر العواصم والثغور لمناسبة تفصيل المسافات بينها فيقول :[٥٣]

" وأمّا العواصم فان قصبتها انطاكية ، ومنها الى اللاذقية ٣ مراحل ، ومنها الى بغراس يوم ، والى الاثارب يومان ، والى حمص ٥ مراحل ، ومنها الى مرعش يومان ، والى الحدث ٣ ايام . وأما الثغور فانه لا قصبة لها ، وكل مدينة قائمة بنفسها ، ومنبج قريبة من الثغور ، ومن منبج الى الفرات مرحلة خفيفة ، ومن منبج الى قورس مرحلتان ، ومن منبج الى ملطية ٤ ايام ، ومن منبج الى سميساط يومان ، ومن منبج الى الحدث يومان ، ومن سميساط الى شمشاط يومان ، ومن شمشاط الى حصن منصور يوم ، ومن حصن منصور الى ملطية يومان ، ومن حصن منصور الى زبطرة يوم ، ومن حصن منصور الى الحدث يوم ، ومن الحدث الى مرعش يوم ، ومن ملطية الى مرعش ثلاث مراحل كبار . فهذه مسافات ثغور الجزيرة واما الثغور الشامية : فمن اسكندرونة الى بياس مرحلة خفيفة ، ومن بياس الى المصيصة مرحلتان ، ومن المصيصة الى عين زربة يوم ، ومن المصيصة الى أذنة يوم ، ومن أذنة الى طرسوس يوم ، ومن طرسوس الى أولاس على بحر الروم يومان ، ومن طرسوس الى الحوزات يومان ، ومن طرسوس الى بياس على بحر الروم فرسخان ، ومن بياس الى الكنيسة والهارونية اقل من يوم ، ومن الهارونية الى مرعش من ثغور الجزيرة أقل من يوم ، فهذه جملة مسافات الثغور " .

وينقل ابن حوقل عبارة الاصطخرى[٤٤] ، الا انه يعود فيضع بين ايدينا امورا مفصلة عن العواصم والثغور فيها شي' من التاريخ . ولا بأس بنقل روايته بكاملها . فهو يقول :[٥٥]

" والعواصم اسم الناحية وليس بمدنية تسمى بذلك وقصبتها انطاكية ، وكانت بعد دمشق انزه بلاد الشام وعليها الى هذه الغاية سور من صخر يحيط بها وبجبل مشرف عليها ، فيه لهم مزارع ومراع واشجار وارحية وما يستقل به اهلها من مرافقها ، ويقال ان دور السور للراكب يوم . ولهم مياه تجرى في اسواقهم ودورهم وسككهم ومسجد جامعهم ، وكان لها ضياع وقرى ونواح خصبة حسنة ، فاستولى عليها العدو وملكها وقد كانت اختلت قبيل افتتاحها فى ايدى المسلمين . وهي الآن اشد اختلالا ورزوحا وفتحها الروم في اول سنة تسع وخمسين ، فما اضطرب فيها من قطع شعرة للروم ولا توصل في نصرتها برأى صحيح ولا متلوم ، وبجوارها من السلاطين والوادى والقروم والملوك من قد اشغله يومه عن غده ، وحرامه وحطامه عما اوجب الله تعالى والسياسة والرياسة عليه ، فهو يلاحظ ما في ايدى تجار بلده ويشتمل عليه ملك رعيته ليوقع الحيلة على اخذه والشبكة على صيده والفخ على ما نصب له ، ثم لا يمتع به فيسلب عما قريب ما احتقب من الحطام وجمع من الآثام .

ومدينة بالس مدينة على شط الفرات من غربيه صغيرة ، وهي اول مدن الشام من العراق ، وكان الطريق اليها عامرا ومنها الى مصر وغيرها سابل ، وكانت فرضة لاهل الشام على الفرات فعفت آثارها ودرست قوافلها وتجارها بعد سيف الدولة . وهي مدينة عليها سور أزلي ولها بساتين فيما بينهما وبين الفرات ، واكثر غلاتها القمح والشعير ويعمل بها من الصابون الكثير الغزير . ومن مشهور اخبارها ان المعروف بسيف الدولة علي بن حمدان عند انصرافه عن لقائه صاحب مصر ، وقد هلك جميع جنده ، انفذ اليها المعروف بأبي حصين القاضي فقبض من تجار كانوا بها معتقلين عن السفر ، ولم يطلق لهم النفوذ مع خوف نالهم فأخرجهم عن احمال بز وأطواف زيت الى ما عدا ذلك من متاجر الشام في دفعتين بينهما شهور قلائل وايام يسيرة الف الف دينار . وبالقرب من بالس مدينة منبج وهي مدينة خصبة حصينة وكثيرة الاسواق الازلية عظيمة الآثار الرومية ، ولها من ناطف الزبيب المعمول بالجوز والفستق والسمسم ما لم ار له شبها الا ما ببخارا منه ، فانه يزيد عليه في

الحلاوة ، ويجعل البخاريون فيه الطيب على العموم فهو لذيذ . وبمنبج من الكروم الاعذاء على وجه الارض في سائر ضياعها ما يزيد على الكثرة ويحمل ازبتهم الى حلب وغيرها ، وهي مدينة برية وارض ثرية حمراء خلوقية ، الغالب على مزارعها البخوس وعليها سور ازلي . وبقربها مدينة سنجة وهي مدينة صغيرة بقربها قنطرة حجارة تعرف بقنطرة سنجة ، ليس في الاسلام قنطرة اعجب ولا اعظم منها ويضرب بها المثل فيقال : من عجائب الدنيا كنيسة الرها وقنطرة سنجة . ومدينة سميساط على نفس الفرات وتقارب المدينة المسماة جسر منبج ، وهما مدينتان صغيرتان حصينتان لهما سقي كبير من مياه بهما وزرعهم بخوس وماؤهما من الفرات .

وكانت مدينة ملطية مدينة كبيرة من اجل الثغور واشهرها ، واكثرها سلاحا واجلدها رجالا دون جبل اللكام الى ما يلي الجزيرة ، وتحتف بها ايضا جبال كثيرة بها مباح الجوز واللوز والكروم والرمان وسائر الثمار الشتوية والصيفية . وهي مباحة لا مالك لها وهي من أقوى بلد للروم في هذا الوقت . يسكنها الارمن وفتحت في سنة تسع عشرة وثلاثمائة ، فكانت اول مصيبة دخلت على الاسلام من جهة الثغور ، ثم انثالت المصائب على الناس في ثغورهم وانفسهم واموالهم واسعارهم وابشارهم وسلاطينهم فنسيت . وكانت المدينة المعروفة بحصن منصور صغيرة حصينة فيها منبر ولها رستاق وقرى برسمها اعذاء ، فاستأثر القضاء بهلاكها على ايدى بني حمدان والروم . وكانت الحدث ومرعش مدينتين صغيرتين افتتحها الروم قبل هذا الحين واعادهما سيف الدولة علي بن عبد الله . وعاد الروم فانتزعوها ثانيا من المسلمين وعاد المسلمون ففتحوها وكان فتحها مسعود بن قلج ارسلان السلجوقي صاحب بلاد الروم سنة خمس واربعين وخمسمائة وهي بيد المسلمين الآن . وكان لهما زروع واشجار وفواكه وكانتا ثغرين يرابط فيهما المسلمون ويجاهدون فيغنمون ، فساءت النيات وفتحت الاعمال وارتفعت البركات ، ولج الملوك في الاستئثار بالاموال والعامة في المعاصي على الاضرار ، فهلك العباد وتلاشت البلاد وانقطع الجهاد وبذلك نطق وحيه تعالى اذ يقول : " واذا إردنا ان هلك قرية امرنا مترفيها " (الآية) وكانت الهارونية من غربي جبل اللكام وفي بعض شعابه حصنا صغيرا ، بناه هارون الرشيد وادركته في غاية العمارة واهله في جهادهم في نهاية الجد والشطارة ، يغزون فيغنمون ويتلصصون على بلد الروم فيسلمون

وقد ملكه الروم . وكانت الاسكندرونة ايضا حصنا على ساحل بحر الروم ذا نخيل وزروع كثيرة وغلة وخصب ، فدخله العدو وملكه فهو له ، وكذلك التينات حصن كان على شط البحر فيه مقطع لخشب الصنوبر الذى كان ينقل الى الشام ومصر والثغور منه ما لا يحصى ، وكان فيه رجال قتال اجلاد لهم علم بمضار بلد الروم ومعرفة بمخائضهم ومهالكهم . وكانت الكنيسة ايضا حصنا فيه منبر ثغر في معزل من ساحل البحر ، يقارب حصن المثقب الذى كان استحدثه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وعمره ، وكان فيه منبرة ومصحفه بخطه . وسكانه قوم سراة من ولد عبد شمس اعتزلوا الدنيا ورفضوا المكاسب ، وكان لهم ما يقوتهم من المباح فهلكا جميعا ، وكانت عين زربة بلدا يشبه مدن الغور به النخيل والخصب والسعة في الثمار والزرع ، وهي المدينة التي كان وصيف الخادم هم بالدخول منها الى بلد الروم فأدركه المعتضد بها ، وكانت حسنة الداخل والخارج نزهة من داخل وسورها جليلة في جميع امورها .

وكانت المصيصة مدينتين : احداهما تسمى المصيصة والاخرى كفربيا على جانبي جيحان ، وبينهما قنطرة حجارة وكانتا حصينتين على نشز من الارض وشرف ، ينظر منها الجالس في مسجد جامعها الى نحو البحر اربعة فراسخ كالبقعة كانت بين يديه خضرة نضرة ، جليلة الاهل نفيسة القدر كثيرة الاسواق حسنة الاحوال . وجيحان نهر يخرج من بلد الروم حتى ينتهي الى المصيصة ثم الى رستاق يعرف بالملوان ، فيقع في بحر الروم ، وكانت عليه من القرى والضياع الكثيرة الماشية والكراع ما لم يبق منهم نافخ ناره . وكانت اذنه ايضا مدينة كأحد جانبي المصيصة على نهر سيحان في غربي النهر ، وسيحان دون جيهان في الكبر عليه قنطرة عجيبة البناء طويلة جدا ، ويخرج هذا النهر من بلد الروم ايضا . وكانت جليلة الاهل حسنة المحل في كل اصل وفصل وعلى سمت طريق طرسوس . فاما مدينة طرسوس فكانت المدينة المشهورة المستغنى بشهرتها عن تحديدها كبيرة استحدثها المأمون بن الرشيد ومدنها وجعل عليها سورين من حجارة ، وكانت تشتمل من الخيل والرجال والعدة والعتاد والكراع والسلاح والعمارة والخصب والغلات والامـوال ، والسعة في جميع الاحوال على حال لم يتصل بمثله ثغر من ثغور المسلمين لكافر ولا مسلم ، الى عز تام ونصر عام على جميع من وليها من رجال الاسلام ، فما غزا في بر او بحر الا وصحبه من الظفر والنصر والغنائم

بالقسر والقهر ما ينطق الاخبار بتصديقه والاثار بتحقيقه . وكان بينها وبين حد الروم جبال منيعة متشعبة من اللكام كالحاجز بين العملين . ورأيت غير عاقل مميز وسيد حصيف مبرز ، يشار اليه بالدراية والفهم واليقظة والعلم والفطنة والساسة والرياسة ، يذكر انه كان بها مائة الف فارس وبعملها وذلك عن قريب عهد من الأيام التي ادركتها وشاهدتها ، وكان السبب في ذلك ان ليس مدينة عظيمة من حد سجستان وكرمان وفارس وخوزستان والرى واصبهان وجميع الجبال ، وطبرستان والجزيرة واذربيجان والعراق والحجاز واليمن والشأمات ومصر والمغرب الا وبها لاهلها دار ورباط ، ينزله غزاة تلك البلدة ويرابطون بها اذا وردوها وترد عليها الجرايات والصلات وتدر عليهم الانزال والحملان العظيمة والجسيمة ، الى ما كان السلاطين يتكلفونه وارباب النعم يعانونه وينفذونه متطوعين ويتحاضون عليه متبرعين ، ولم يكن في ناحية ذكرتها رئيس ولا نفيس الا وله عليها اوقاف من ضياع ذوات اكرة وزراع وغلات ، او مسقف من فنادق ودور وحمامات وخانات ، هذا الى مشاطرة من الوصايا بالعين الكثير والورق والكراع الغزير ، فهلكت وهلكوا وذهبت وذهبوا وكأنهم لهم يقطنوها وعفوا وكأنهم لم يسكنوها ، حتى لصاروا كما قال جل ذكره : " هل تحس منهم من احد او تسمع لهم ركزا " وكانت اولاس حصنا على ساحل البحر فيه قوم متعبدون حصينا ، وكانت فيهم خشونة في ذات الله وكان في آخر ما على بحر الروم من العمارة ، فكانت مما بدأ به العدو . وبغراس حصن كان فيه منبر على طريق الثغور ، وكانت فيه دار ضيافة لزبيدة ولم يكن للمسلمين بالشام دار ضيافة غيرها . "

ولا يتعرض المقدسي للتنور او العواصم الا في اشارة عابرة . اذ يذكر ان اكثر اهل الثغور انتقلوا الى دمشق لما اخذت طرسوس[٥٦] ، كما يرد ذكر العواصم بالنسبة الى ثقل حمايتها مع قنسرين[٥٧] . ويوضح المقدسي موقفه من هذه القضية اذ يقول ان اهل شمالي الشام في خوف من الروم " والاطراف قد خربت وامر الثغور قد انقضى " ويضيف انه اعرض عن ذكر طرسوس واعمالها لانها بيد الروم[٥٨] .

ويتضح من هذه النصوص ان الجغرافيين قد اختلفوا فيما بينهم بالنسبة الى العواصم والثغور من حيث تعداد وذكر اسمائها ، ويعود ذلك ، في رأينا ، الى ان البعض ذكر حتى الحصون الاقل شأنا ، بينما اقتصر البعض الآخر على الهام منها .

على اننا نود ان نعرض هنا نصين يتعلقان بالقتال والفدية . الأول من قدامة الذى حفظ لنا وصف احد ايام الغزوات اذ يقول : ٥٩

" ثم نتبع نلك بوصف احد ايام الغزوات ليكون علم نلك محصلا محفوظا فنقول أن أجهدها ، مما يعرفه اهل الخبرة من الثغريين ان تقع الغزاة التي تسمى الربيعية لعشرة ايام تخلو من ايار بعد ان يكون الناس قد اربعوا دوابهم وحسنت احوال خيولهم فيقيمون ثلاثين يوما وهي بقية ايار وعشرة من حزيران فانهم يجدون الكلاء في بلد الروم ممكنا وكأن دوابهم ترتبع ربيعا ثانيا ثم يقفلون فيقيمون الى خمسة وعشرين يوما وهي بقية حزيران وخمسة من تموز حتى يقوى ويسمن الظهر ويجتمع الناس لغزو الصائفة ثم يغزون لعشر تخلو من تموز فيقيمون الى وقت قفولهم ستين يوما ، فاما الشواتي فانى رايتهم جميعا يقولون ان كان لا بد منها فليكن مما لا يبعد فيه ولا يوغل وليكن مسيره عشرين ليلة بمقدار ما يحمل الرجل لفرسه ما يكفيه على ظهره وان يكون نلك في آخر شباط فيقيم الغزاة الى ايام تمضي من آذار فانهم يجدون العدو في نلك الوقت اضعف ما يكون نفسا ودواب ويجدون مواشيهم كثيرة ثم يرجعون ويربعون دوابهم يتسابقون . "

واما النص الثاني من المقدسي الذي يقول : ٦٠

" وكفرسلام من قرى قيسارية كبيرة آهلة بها جامع على الجادة . ولهذه القصبة رباطات على البحر يقع بها النفير وتقلع اليها شلنديات الروم شوانيهم معهم اسارى المسلمين للبيع كل ثلاثة بمائة دينار وفي كل رباط قوم يعرفون لسانهم ويذهبون اليهم في الرسالات ويحمل اليهم اصناف الاطعمة وقد ضج بالنفير لما ترايت مراكبهم فان كان ليل اوقدت منارة نلك الرباط وان كان نهار دخنوا ومن كل رباط الى القصبة عدة منابر شاهقة قد رتب فيها اقوام فتوقد المنارة التي للرباط ثم التي تليها ثم الاخرى فلا يكون ساعة الا وقد انفر بالقصبة وضرب الطبل على المنارة ونودى الى نلك الرباط وخرج الناس بالسلاح والقوة واجتمع احداث الرساتيق ثم يكون الفداء فرجل يشترى رجلا وآخر يطرح درهما او خاتما حتى يشترى ما معهم ورباطات هذه الكورة التي يقع بهن الفداء غزة ميماس عسقلان ما حوز أزدود ما حوز يبنا يافه أرسوف . "

خراج الشام

يورد جغرافيو القرن الرابع / العاشر ، باستثناء الاصطخرى ، ارقاما تتعلق بخراج ديار الشام ، على اساس الكور او الاجناد او الاقاليم التي اشير اليها في ما يمكن ان يسمى التقسيم الادارى . لكن هؤلاء المؤلفين لا يفصلون هذه الارقام ، ولا يحدثوننا عن وسائل جمع هذه المبالغ ، باستثناء اشارة طفيفة عند ابن حوقل والجدول التالي يبين الارقام (بالاف الدنانير) المذكورة خراجا

	ابن خرداذبه	اليعقوبي	الهمداني	قدامة	المقدسي
قنسرين	٤٠٠			٣٦٠	٣٦٠
حمص	٣٤٠	٢٢٠	٣٤٠	٢١٨	
دمشق	٤٠٠	٣٠٠	٤٠٠	١١٠	٤٠٠
الاردن	٣٥٠	١٠٠	٣٥٠	١٠٩	١٧٠
فلسطين	٥٠٠	٣٠٠	٥٠٠	٢٥٩	٢٥٩

ونحن عندما نلقي نظرة على هذه الارقام نرى ان الارقام التي اوردها ابن خرداذبه ، بالنسبة الى حمص ودمشق والأردن وفلسطين ، هي التي نجدها عند الهمداني . مما يحملنا على القول بأن الاخير نقل عن الأول . وبهذه المناسبة فان المقدسي بعد أن يورد الارقام المذكورة في الجدول اعلاه فانه يقول انه قرأ عند ابن خرداذبه ارقاما تتعلق بالخراج ويذكر الارقام نفسها[٦٦] . الا انه حرى بالاهتمام ان المقدسي لم يذكر خراج حمص الذى لعله لم يقف عليه ، ولكنه ينقل خراج حمص عن ابن خرداذبه . وثمة اتفاق بين ابن خرداذبه والهمداني والمقدسي فيما يتعلق بخراج دمشق ، واتفاق بين قدامة والمقدسي في الارقام المتعلقة بخراج قنسرين وفلسطين . وخراج حمص عند اليعقوبي ٢٢٠ الفا فيما يورده قدامة ٢١٨ الفا . وفيما يذكر اليعقوبي خراج الأردن على انه مئة الف ، يقدره قدامة ب ١٠٩ الاف ، وهما رقمان متقاربان ، على نحو تقارب الرقمين السابقين (اى خراج حمص) .

وليس من اليسير التأكد من صحة اى من هذه الارقام من المادة التي يوردها الجغرافيون ، ونحن لم نحاول التأكد منها من مصادر اخرى ، ولكن لا بد من الاشارة الى ان قدامة كان يعنى بالخراج عناية اصل ، وقد كانت « المحفوظات » (كما نقول اليوم) في متناول يده . ولذلك قد يكون من حقه ترجيح ارقامه ، خصوصا وانها اقل مبالغة من الآخرين.

على انه ثمة ملاحظ حرية بان يشار اليها هنا وهي :

اولا ـ ان اليعقوبي يذكر خراج كل من حمص ودمشق ويضيف " سوى الضياع " ، ولكنه يعطينا الرقم الخاص بخراج فلسطين ويضيف " مع الضياع " ، ولكنه يذكر الرقم فقط بالنسبة الى الأردن[٦٧] .

ثانيا ـ يقول اليعقوبي " وخراج حمص القانون القائم يبلغ سوى الضياع مائتي الف وعشرين الف دينار "[٦٨] . ولسنا نجد احدا يستعمل كلمة قانون في هذا المعنى من هؤلاء الجغرافيين سوى ابن حوقل الذى يقول لمناسبة تمنعه عن ذكر ارتفاع الخراج " فمذ سنون [كذا]« كثيرة لم يقع لها قانون صحيح ولا استخراج على طريقته وصحته "[٦٩] . ونرجح ان المقصود من كلمة قانون في الحالتين هو المقرر اى النظامي .

ثالثا ـ يورد ابن حوقل رقمين يتعلقان بخراج كل من دمشق وحدها وفلسطين والأردن مجتمعين فيقول :

" والذى ادركت عليه عقود فلسطين والأردن ايام ابي المسك كافور رحمه الله ، والمتلي لها من قبله في سني سبع وثمان وتسع وثلاثين الى سني ثمان وتسع واربعين [وثلاث«مئة]« حينا محلولة وحينا معقودة ابو منصور احمد بن العباس بن احمد وابو عبد الله بن مقاتل وابو اسحاق ابراهيم بن اسحاق وقد عقدت على خزرون حينا بخمسمائة الف دينار .

وكذلك جند دمشق فعقدت على خزرون وعلى ابي الحسن على بن محمد بن جاني وعلى ابن مالك ، فكانت تكون في كل واحد منهم سنين بخمسمائة الف دينار "[٧٠] . والأردن بمئتي الف دينار[٧١] .

رابعا ـ ينقل ابن حوقل ان خراج دمشق في عهد بني مروان كان " الف الف دينار وفوق ثمان مائة الف دينار "[٧٢] .

خامسا ـ يروى ابن حوقل عن ارتفاع الشام " انه كان قديما بعدما يخرج منه في لوازم السلطان وارزاق الجند والمتصرفين من الكتاب والعمال تسعة وثلاثين الف الف درهم وخمس مائة الف درهم . ورأيت ارتفاع الشام وما في ضمنها من الاعمال والاجناد والتي اقف عليه من جماعة علي بن عيسى ومحمد بن سليمان لسنة ست وتسعين ومائتين وسنة ست وثلاثمائة ، من جميع وجوهها الى حقوق بيت المال وما يلزم له من التوابع دون ارزاق العمال تسعة وثلاثون الف الف درهم "[٧٣] . وهذا الرقم قريب من الرقم الذى يورده ابن خرداذبه للشام باستثناء قنسرين .

سادسا ـ يقول الهمداني عن صور ان " منبرها الى دمشق وخراجها الى الأردن "[٧٤] . كما نجد عند الاصطخرى " واما زغر وديار قوم لوط والجبال والشراة فمضمومة اليها [جند فلسطين]» ، وهي منها في العمل الى ايلة ... وديار قوم لوط والبحيرة الميتة وزغر الى بيسان وطبرية تسمى الغور لانها بين جبلين ... وبعضها من الأردن وبعضها من فلسطين في العمل "[٧٥] . وهذه لفتات دقيقة المقصود منها تميز الموقع الجغرافي للمكان عن تبعيته الادارية .

سكان الشام

عناية الجغرافيين الذين نتحدث عنهم بالسكان ـ ان من حيث العدد او من حيث العناصر ـ محدودة من الجهة الواحدة وعامة من الجهة الثانية . فاليعقوبي مثلا ، وهو من الذين عنوا بهذه الناحية ، حريص على ان يعين المواطن التي استقرت فيها القبائل العربية اصلا . اما الاصطخرى فعنده فائدة او اثنتان فقط . والمقدسي يعمم في اكثر الحالات . الا ان الناحية المذهبية تلقى بعض العناية عند عدد من المؤلفين .

فنحن اذا تابعنا اليعقوبي وجدنا ان ما ورد في كتابه يلخص فيما يلي : ـ

حماة ـ اهلها قوم من يمن والاغلب عليهم بهراء وتنوخ .
حمص ـ اهلها جميعا يمن من طيء وكندة وحمير وكلب وهمدان .
تدمر ـ واهلها من كلب .
معرة النعمان ـ واهلها تنوخ .
البارة ـ اهلها بهراء .
فامية ـ عذرة وبهراء .
سيزر ـ قوم من كندة .
كفر طاب والاطميم ـ قوم من يمن من سائر البطون اكثرهم كندة .
اللاذقية ـ يمن من سليح وزبيد وهمدان ويحصب .
جبلة ـ همدان وبها قوم من قيس .
انطرطوس ـ من كندة .
دمشق ـ الاغلب على مدينة دمشق اهل اليمن ، وبها قوم من قيس .
حوران ـ قوم من قيس .
البثنية ـ قوم من يمن ومن قيس .
الجولان ـ قوم من قيس واكثرهم بنو مرة .

بيت جبرين ــ قوم من جذام[٧٦] .

هذا فيما يتعلق بالكور التي استوطنها قبائل او عشائر عربية ــ قيسية او يمنية . لكن اليعقوبي يتذكر جماعات اخرى استقرت في انحاء من ديار الشام .

فسلمية التي كان عبد الله بن صالح العباسي في البرية ، فاهلها من ولد هذا الهاشمي واخلاط من الناس تجار ومزارعين[٧٧] . ويقول عن بليناس وزغر وصور ان سكانها اخلاط من الناس دون ان يبين العناصر التي تم الاختلاط بينها[٧٨] . كما انه يذكر ان في بعلبك وطرابلس وعرقة وجبيل وصيدا وبيرت وعكار عنصرا فارسيا بارزا لعل اكثره نقل الى هذه المناطق في ايام معاوية[٧٩] . هذا مع العلم بأنه يذكر اماكن اخرى ويقول عن سكانها انها اخلاط من العرب والعجم مثل عكا وبيسان والرملة ونابلس[٨٠] .

ومن الواضح ان اليعقوبي يفكر في الفتح وتاريخه عندما يتحدث عن القبائل واستيطانه او في استيطانها السابق اذ يتحدث عن منازل ملوك غسان في دمشق[٨١] وغيرها .

ويشير اليعقوبي الى وجود السامرة في الرملة ونصه هو " واهل المدنية [الرملة]« اخلاط من الناس من العرب والعجم وذمتها سامرة »[٨٢] . على انه يقول ان قيسارية ونابلس فيهما قوم من السامرة ايضا[٨٣] . في حين ان الاصطخرى يقول " ونابلس مدينة السامرة ... وليس للسامرة مكان الا بها " [٨٤] . اما ابن حوقل فيقول " ونابلس مدينة السامرية ، ويزعم اهل بيت المقدس ان ليس بمكان من الأرض سامرى الا منها اصله ، وبالرملة منهم خمس مائة مجزي "[٨٥] . وبهذه المناسبة فان المقدسي يقول بأن السامرة كانوا موجودين من جند فلسطين الى طبرية[٨٦] . والمقدسي هو الوحيد الذى يشير الى اليهود في القدس[٨٧] .

ويبدو في رواية المقدسي ان وجود الدول الشيعية (بني بويه وبني حمدان والفاطميين) في القرن الرابع / العاشر كان له اثر في انتشار التشيع او على الاقل وجوده ، في بعض المدن الشامية . فهويقول عن اهل الشام ان " مذاهبهم مستقيمة اهل جماعة وسنة . واهل طبرية ونصف نابلس وقدس واكثر عمان شيعة "[٨٨] .

وثمة امور تتعلق بالمجتمع يذكرها المقدسي بشكل خاص . فهو يحدثنا عن رسوم اهل الشام حديثا مستفيضا[٨٩] .

" ورسومهم انهم يقدون القناديل في مساجدهم على الدوام يعلقونها بالسلاسل مثل مكة . وفي كل قصبة بيت مال بالجامع معلق على اعمدة

وبين المغطى والصحن ابواب الا اريحاء ولا ترى الحصى الا في صحن جامع طبرية . والمنابر مربعة واوساط سقوف المغطى مجملة . وعلى ابواب الجوامع وفي الاسواق مطاهر . ويجلسون بين كل سلامين من التراويح .... ولأصحاب ابي حنيفة بالمسجد الاقصى مجلس ذكر يقرعون في دفتر ، وكذلك الكرامية في خوانقهم .... ومن اعياد النصارى التي يتعارضها المسلمون ويقدرون بها الفصول الفصح وقت النيروز ، والعنصرة وقت الحر ، والميلاد وقت البرد ، وعيد بربارة وقت الامطار . ومن مثال الناس اذا جاء عيد بربارة ، فليتخذ البناء زماره ، يعني فليجلس في البيت .... وعيد الصليب وقت قطاف العنب وعيد لد وقت الزرع . وشهورهم رومية تشرين الأول والثاني كانون الأول والثاني شباط آذار نيسان ايار حزيران تموز آب ايلول . واقل ما ترى به فقيها له بدعة او مسلما له كتابة الا بطبرية فانها ما زالت تخرج الكتاب . وانما الكتبة به وبمصر ناصرى لأنهم اتكلوا على لسانهم فلم يتكلفوا الأدب كالاعاجم .... واكثر الجهابذة والصباغين والصيارفة والدباغين بهذا الاقليم يهود . واكثر الاطباء والكتبة نصارى ... ولهم تجمل يلبسون الأردية كل عالم وجاهل ولا يتخففون في الصيف انما هي نعال الطاق .... ويكشفون المماطر ولا يقورون الطيالسة ولأجلة البزازين بالرملة حمر مصرية بسروج . ولا يركب به الخيل الا امير او رئيس . ولا يتدرع الا اهل القرى والكتبة . ولباس القريانيين برستاق ايليا ونابلس كساء واحد حسب بلا سراويل، ولهم الافرنة وللقراتيين الطوابين : تنور في الارض صغير قد فرش بالحصى فيوقد الزبل حوله وفوقه فاذا احمر طرحت الارغفة على الحصى . وبه طباخون للعدس والبيسار ويقلون الفول المنبوت بالزيت ويصلقونه ويباع مع الزيتون ، ويملحون الترمس ويكثرون اكله . ويصنعون من الخرنوب ناطفا يسمونه القبيط ويسمون ما يتخذون من السكر ناطفا ويصنعون زلابية في الشتاء من العجين غير مشبكة . وعلى اكثر هذه الرسوم اهل مصر وعلى اقلها اهل العراق واقور .»

يضاف الى هذا ان للمقدسي تعابير بارعة ، وان كانت جارحة احيانا ، يستعملها لوصف اهل مكان معين او لاجمال حياتهم . ويجب ان نذكر ان هذا الذى يذكره هو من نوع التعميم الذى قد لا يرتكز الا على الملاحظة الشخصية العارضة . ولكن طرافة اسلوب المقدسي يجعل هذه الملاحظات سائغة للقارئ . فمن ذلك بعض ما يقوله عن دمشق واهلها[٩٠] .

اكثر اسواقها مغطاة . ولهم سوق على طول البلد مكشوف حسن . وهو بلد قد خرقته الانهار ، واحدقت به الاشجار ، وكثرت به الثمار ، مع رخص اسعار ... لا ترى احسن من حماماتها ولا اعجب من فواراتها ولا احزم من اهلها .... غير ان في هوائها يبوسة ، واهلها غاغة ، وثمارها تفهة ، ولحومها عاسية ، ومنازلها ضيقة ، وازقتها عامة ، واخبازها ردية ، والمعايش بها ضيقة . وينقل عن اهل طبرية[91].
ويقال اهل طبرية شهرين يرقصون وشهرين يقمقمون وشهرين يتاقفون وشهرين عراة وشهرين يزمرون وشهرين يخوضون . يعني : يرقصون من كثرة البراغيث ، ويلوكون النبق ، ويطرود الزنابير عن اللحم والفواكه بالمذاب ، وعراة من شدة الحر ، ويمصون قصب السكر ويخوضون الوحل .

ولعل من اطرف ما ذكره المقدسي وصفه للقدس نفسها ، وها نحن اولاء ننقل بعضه هنا :[92]

" كنت يوما في مجلس القاضي المختار ابي يحيى ابن بهرام بالبصرة فجرى ذكر مصر ، الى ان سئلت اى بلد اجل قلت بلدنا ، قيل فايها اطيب قلت بلدنا قيل فايها أفضل قلت بلدنا ، قيل فايها احسن قلت بلدنا ، قيل فيها اكثر خيرات قلت بلدنا ، قيل فايها اكبر قلت بلدنا . فتعجب اهل المجلس من ذلك ، وقيل انت رجل محصل ، وقد اعيت ما لا يقبل منك .... قلت اما قولي اجل ، فلانها بلدة جمعت الدنيا والاخرة . فمن كان من ابناء الدنيا واراد الاخرة وجد سوقها ، ومن كان من ابناء الاخرة فدعته نفسه الى نعمة الدنيا وجدها . واما طيب الهواء فانه لا سم لبردها ولا اذى لحرها . واما الحسن فلا ترى احسن من بنيانها ولا انظف ولا انزه من مسجدها . واما كثرة الخيرات فقد جمع الله تعالى فيها فواكه الاغوار والسهل والجبال والاشياء المتضادة كالاترج واللوز والرطب والجوز والتين والموز . واما الفضل فلأنها عرصة القيامة ومنها المحشر واليها المنشر وانما فضلت مكة والمدنية بالكعبة والنبي (صلعم)، ويوم القيامة تزفان اليها فتحوى الفضل كله . واما الكبر فالخلائق كلهم يحشرون اليها . فأى ارض اوسع منها ، فاستحسنوا ذلك واقروا به . الا ان لها عيوبا عدة يقال ان في التورية مكتوب بيت المقدس طشت ذهب ملئ عقارب . ثم لا ترى اقذر من حماماتها ، ولا اثقل مؤنة . قليلة العلماء كثيرة النصارى واليهود ، وفيهم جفاء . على الرحبة والفنادق ضرائب

ثقال . على ما يباع فيها رجالة على الابواب فلا يمكن احدا ان يبيع شيئا مما يرتفق به الناس الا بها ، مع قلة يسار . وليس للمظلوم انصار ، والمستور مهموم ، والغني محسود ، والفقية مهجور ، والأديب غير مشهود . »

ومثل هذه اللفتات كثيرة عند المقدسي ، فليرجع اليها في مظانها . وقد اكتفينا بما نقلنا للتمثيل فقط .

الحياة الاقتصادية

ان التحدث عن الحياة الاقتصادية من حيث هي صناعة وزراعة وتجارة لا يشغل بال الجغرافيين من اهل القرن الرابع بالنسبة الى الشام . اننا نجد اشارات مقتضبة هنا وهناك من مثل اشارة اليعقوبي الى ان الزعفران زرع في سلمية[٩٣] . وان جبال فلسطين ، كما يذكر الاصطخرى ، هي بلاد الزيتون والتين والجميز والعنب[٩٤] . كما يشير الى نشاط حلب التجارى[٩٥] والى ان [بياس]« التينات هو » حصن على شط البحر ايضا ، فيه مجمع لخشب الصنوبر[٩٦] . ويقول ابن حوقل ان قصب السكر موجود في بيروت كما ان » تجارات البحر عليها دارة واردة وصادرة «[٩٧] . وعند ابن حوقل نقع ايضا على ان المعرة هي بلد التين والفستق[٩٨] .

وقد اجمل الهمداني خير ثمار البحر وثمار البر الهامة اذ نقل » ويقال ريف الدنيا من السمك ما بين ماهيرويان الى عمان ، وريف الدنيا من التمر ما بين اليمن الى البصرة وهجر ، وريف الدنيا من الزيتون من فلسطين الى قنسرين «[٩٩] .

على أن المقدسي يجمل ما يرتفع من بلاد الشام واجزائها من تجارات وغيرها بقوله[١٠٠] :

» والتجارات به مفيدة . يرتفع من فلسطين الزيت والقطين والزبيب والخرنوب والملاحم والصابون والفوط .
ومن بيت المقدس الجبن ويتاب القطن وزبيب العينونى والدورى غاية ، والتفاح وقضم قريش الذى لا نظير له ، والمرايا وقدور القناديل والابر .
ومن اريحاء نيل غاية . ومن صغر وبيسان النيل والتمور ، ومن عمان الحبوب والخرفان والعسل ، ومن طبرية شقاق المطارح الكاغد وبز ومن قدس ثياب المنيرة والبلعيسية والحبال . ومن صور السكر والخرز

والزجاج المخروط والمعمولات ومن مآب قلوب اللوز ، ومن بيسان الرز ، ومن دمشق المعصور والبلعيسي وديباج ودهن بنفسج دون ، والصفريات والكاغد والجوز والقطين والزبيب . ومن حلب القطن . والثياب والاشنان والمغرة . ومن بعلبك الملابن . ولا نظير لقطين وزيت الانفاق ، وحوراى وميازر الرملة ، ولا لمنعقة وقضم قريش وعينونى ودورى وترياق وترذوغ وسبح بيت المقدس . واعلم انه قد اجتمع بكورة فلسطين ستة وثلاثون شيئا لا تجتمع في غيرها . فالسبعة الاولى لا توجد الا بها والسبعة الثانية غريبة في غيرها والاثنان والعشرون لا تجتمع الا بها وقد يجتمع اكثرها في غيرها : مثل قضم قريش والمعنقة والعينونى والدورى وانجاص الكافورى وتين السباعي والدمشقي والقلقاس والجميز والخرنوب والعكوب والعناب وقصب السكر والتفاح الشامي والرطب والزيتون والاترج والنيل والراسن والنارنج واللفاح والنبق والجوز واللوز والهليون والموز والسماق والكرنب والكماة والترمس والطرى والثلج ولبن الجواميس والشهد وعنب العاصي والتين التمرى ، واما القبيط فقد يرى مثله غير ان له طعما آخر وقد ترى الخس غير انه في جملة البقل الا بالاهواز فانه غاية ويفرد عن البقل ايضا بالبصرة . »

الفوائد التاريخية

الفوائد التاريخية المعاصرة التي يعثر عليها الواحد عند هؤلاء الجغرافيين قليلة . فمع ان بعضهم يشير الى فتح مدن الشام ، وما بنى معاوية في دمشق وبناء الجامع الاموى والمسجد الاقصي ، فان الذي كنا نحب ان نجده عندهم شيئا يعطينا صورة تاريخية سياسية ادارية لديار الشام في القرن الرابع / العاشر . والجغرافي الذى قدم لنا ما يسمى تاريخا معاصرا له للشام هو ابن حوقل ، ويليه المقدسي . وقد نقلنا من قبل عن ابن حوقل ما ذكره عن عقود فلسطين في موضوع الخراج ، فليرجع اليه هناك . لكننا نرى لزاما علينا ان ننصف الرجل فننقل عنه بعض الفوائد او الاشارات التاريخية التي ينفحنا بها . فهو يحدثنا عما اصاب حمص بسبب دخول الروم اليها . فيقول :١٠١

« حمص وهي في مستواة خصبة ايضا ، وكانت ايام عمارتها صحيحة الهواء من اصح بلدان الاسلام تربة .... فدخلها الروم غير دفعة فاحالوها ... ودخلها الروم وقتنا هذا فأتوا على سوادها واخربوها . وجميع طرق حمص من اسواقها وسككها مفروشة بالحجارة مبلطة ،

وقد زاد اختلالها بعد دخول الروم اليها وانصراف سلطانها عنها ثم ان قوما استوطنوا ممن سلم من الروم ، وقد اتت البادية على ظاهرها ورساتيقها وما اظن الروم تركت بها رمقا لما بعد . »

ويقول عن حلب[١٠٢] ، وفي قوله ينال من سيف الدولة ،

« وجند قنسرين فمدينتها حلب وكانت عامرة غاصة بأهلها كثيرة الخيرات على مدرج طريق العراق الى الثغور وسائر الشامات ، وافتتحها الروم مع سور عليها حصين من حجارة لم يغن عنهم من العدو شيئا ، بسوء تدبير سيف الدولة وما كان به العلة فأخرب جامعها وسبى درارى اهلها واحرقها .. ولها قلعة غير طائلة وقد عمرت وقتنا هذا ولجأ اليها في وقت فتح حلب قوم فنجوا . وهلك بحلب وقت فتحها من المتاع والجهاز للغرباء واهل البلد ، وسبي منها وقتل من اهل سوادها ما في اعادته على وجه ارماض لمن سمعه ووهن على الاسلام واهله . وكان لها اسواق حسنة وحمامات وفنادق كثيرة ومحال وعراض فسيحة ومشائخ واهل جلة . وهي الآن بخسة اميرها ودناءة نفسه مملوكة من جهتين : احداهن انها في قبضة الروم مجزية يؤدى كل انسان عن داره ودكانه جزية ، والثانية ان اميرها اذا وردها متاع من خسيس ونفيس اشتراه من جالبه وباعه هو لا هلها على اقبح صورة واخس جهة ، وما يستثار بها من خل وصابون فهو يعمله ويبيعه ، وليس بها مبيع ولا مشترى الا وله فيه مدخل قبيح .... ولم تزل اسعارها في الاغنية قديما وجميع الماكل والمشارب واسعة رخيصة ، وعليهم الآن للروم في كل سنة قانون يؤدونه وضريبة تستخرج من كل دار وضيعة معلومة . وكأن الهدنة التي هم فيها مع الروم محلولة معقودة لأن الامر في حلها وعقدها الى الروم ، وان كانت احوالها كالمتماسكة والامور التي تجرى معهم كالراخية فليست في جزء من عشرين جزءا مما كانت عليه وفيه في قديم اوقاتها وسالف ايامها » .

ويجعل ابن حوقل ما كان في ايدى المسلمين من الشام وما خرج منه من ايديهم قوله :[١٠٣]

« وقد انتهى القول فيما قصدت ذكره من الشام بعد ذكر المغرب ومصر والشام في أقاليم ممتدة على بحر الروم . وقد استوفيت ايضا ذكره ولا وجه لذكر ارتفاع ما خرج عن ايدى اهل الشام ، والباقي من الشام في

ايدى المسلمين وحكمهم فيه نافذ وأمرهم فيه ماض ، فهو ما كان على ساحل بحر الروم من حد طرابلس وانفة الى نواحي يافا وعسقلان ، لأن اللاذقية وما نزل عنها وحاذاها تحت جزيتهم ومقاطعتهم .
وما عدا ذلك فللروم وقبضتهم وحوزتهم قد استولت عليهم اسيافهم والحكم فيه اليهم . وقد اقام كثير من اهلها فيما رضوا منهم فيه بالجزية ، واظنهم بآخرة صائرين الى النصرانية انفة من ذلة الجزية ورغبة مع حذق المؤونة في العز والراحة . فاما تقدير ما بقي منها لم اذكره فمذ سنون [كذا] «كثيرة لم يقع لها قانون صحيح ولا استخراج على طريقته وجته ، وذلك انها مذ سنة اربعين بين قوم يتطاول احدهم على الآخر واكثرهم غرضه ما احتلبه في يومه وحصله لوقته ، لا يرغب في عمارة ولا يلتفت اليها برؤية ولا اشارة » .

والمقدسي يضع بين ايدينا فوائد تاريخية اقل من ابن حوقل لكنها فوائد على كل حال . فهناك شيء عن تحصين ميناء عكا ، وفي هذا الخبر ناحية تمس المقدسي شخصيا ، ومن هنا تأتي فائدتها وطرافتها . ويقول المقدسي عن تحصين عكا١٠٤ :

« عكا مدينة حصينة على البحر كبيرة الجامع فيه غابة زيتون تقوم بسرجه وزيادة ولم تكن على هذه الحصانة حتى زارها ابن طولون وقد كان رأى صور ومنعتها واستدارة الحائط على ميناها فأحب ان يتخذ لعكا مثل ذلك المينا . فجمع صناع الكورة وعرض عليهم ذلك ، فقيل لا يهتدى احد الى البناء في الماء في هذا الزمان . ثم ذكر له جدنا ابو بكر البناء وقيل ان كان عند احد علم هذا فعنده . فكتب الى صاحبه على بيت المقدس حتى انهضه اليه . فلما صار اليه وذكر له ذلك قال هذا امر هين . علي بفلق الجميز الغليظة . فصفها على وجه الماء بقدر الحصن البرى وخيط بعضها ببعض ، وجعل لها بابا من الغرب عظيما . ثم بنى عليها بالحجارة والشيد . وجعل كلما بنى خمس دوامس ، ربطها بأعمدة غلاظ ليشتد البناء وجعلت الفلق كلما ثقلت نزلت حتى اذا علم انها قد جلست على الرمل تركها حولا كاملا ، حتى اخذت قرارها . ثم عاد فبنى من حيث ترك . كلما بلغ البناء الى الحائط القديم داخله فيه وخيطه به . ثم جعل على الباب قنطرة . فالمراكب في كل ليلة تدخل المينا وتجر السلسة مثل صور قال فدفع اليه الف دينار سوى الخلع وغيرها من المركوب واسمه عليه مكتوب وقد كان العدو قبل ذلك يغير على المراكب . »

ولعل هناك لفتات صغيرة فاتتنا ، ولكن المهم هو ان هؤلاء الجغرافيين اهتموا بالبلد وانتاجه العام وسكانه .

هذه النواحي التي تناولناها ليست الوحيدة التي يمكن ان تدرس في مؤلفات جغرافيي القرن الرابع/العاشر . فهناك امور حرية بعناية الباحث الأنثروبولوجي والدارس الاجتماعي والمهتم بالموازين والمكاييل وما الى ذلك ، وقد اضطررنا ، لاسباب خاصة ، ان نكتفي بالذي تناولناه من امور .
على أننا نود أن نلفت النظر الى امور اربعة . اولها أن هؤلاء الكتاب ذكروا المشاهد والعجائب والغرائب التي يتميز بها اقليم الشام . والهمداني والمقدسي يفصلان هذه الأمور اكثر من غيرهما . وثانيها ان المقدسي لم يتورع عن ذكر عيوب بعض المدن الشامية ، وهو مقدسي (او رملي) فلسطيني شامي[١٠٥] . وثالثها هو ان بعض هؤلاء الكتاب مع دقتهم فانهم يكتبون بأسلوب لطيف بليغ . والهمداني يبدو هذا في كتابته ، لكن المقدسي ابرع في ذلك ، ولنمثل على هذا بمقدمته القصيرة للفصل الذى سماه اقليم الشام ، اذ انه يضع امامنا خطوطا رئيسية لما ينتظر القارئ ان يعرفه عن الاقليم[١٠٦] . ورابع هذه الأمور أن المقدسي بعد ان يعرض المدن الرئيسية واحدة بعد الاخرى يعود الى الاقليم فيجمل شؤونه[١٠٧] . وخامس هذه الامور هو اننا نجد المقدسي وابن حوقل والاصطخرى والهمداني (وقد ذكرنا اسماءهم على هذا الترتيب التاريخي المعكوس عمدا) يقابلون بين قطر وقطر او مدينة ومدينة . وهذه منثورة في تضاعيف المؤلفات . ولعل اطرف مقارنة ، هي التي تصبح في واقع مفاضلة او منافرة ، تلك التي رواها الهمداني من حيث المقابلة بين البصرة والشام التي اصبحت مفاضلة بين شجرة النخيل وشجرة الكرم[١٠٨] ، وهي قطعة ادبية ممتعة .

حواشي

١ ـ الهمداني ٩١
٢ ـ الاصطخرى ٤٣
٣ ـ ابن حوقل ١٥٣
٤ ـ المقدسي ١٥١
٥ ـ ابن خرداذبه ٧٥ ـ٧٦
٦ ـ اليعقوبي ٣٢٤ وما بعدها
٧ ـ قدامة ٢١٨ و ٢١٩
٨ ـ قدامة ٢٥١
٩ ـ قدامة ٢٥٢ وما بعدها
١٠ ـ الاصطخرى ٤٣ ، راجع المقدسي ٦٢ ـ٦٣
١١ ـ المقدسي ١٨٦
١٢ ـ ابن خرداذبه ٧٥ وما بعدها
١٣ ـ اليعقوبي ٣٢٤ وما بعدها
١٤ ـ الاصطخرى ٤٣ وما بعدها
١٥ ـ الاصطخرى ٤٤
١٦ ـ ابن حوقل ١٥٤ و ١٦٠
١٧ ـ المقدسي ١٥٤ ـ ١٥٥
١٨ ـ الاصطخرى ٤٤ ، المقدسي ١٥٤
١٩ ـ المقدسي ٥٤
٢٠ ـ المقدسي ١٥٤ ، راجع ايضا ابن خرداذبه ٧٥ وما بعدها واليعقوبي ٣٢٤ وما بعدها
٢١ ـ المقدسي ٤٧
٢٢ ـ المقدسي ١٥٤
٢٣ ـ المقدسي ٤٧
٢٤ ـ المقدسي ١٥٥ ، ١٦٢ ، ١٧٦ ـ١٧٧

٢٥ ـ الاصطخرى ٤٥
٢٦ ـ المقدسي ٥٤
٢٧ ـ المقدسي ١٧١
٢٨ ـ الاصطخرى ٤٨
٢٩ ـ المقدسي ١٥٤
٣٠ ـ المقدسي ١٥٤ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ،
٣١ ـ الاصطخرى ٤٣
٣٢ ـ ابن خرداذبه ٩٧ ـ ١٠٠
٣٣ ـ الاصطخرى ٤٨
٣٤ ـ المقدسي ١٩٠
٣٥ ـ الاصطخرى ٤٨ ـ ٤٩
٣٦ ـ المقدسي ٤٧ و ٤٨ و ٥٤ . راجع ايضا ١٥١ وما بعدها
٣٧ ـ المقدسي ١٨٠ ـ ١٨١
٣٨ ـ ابن خرداذبه ٧٥ وما بعدها
٣٩ ـ اليعقوبي ٣٢٤ وما بغدها
٤٠ ـ ابن رستة ٩٧
٤١ ـ الاصطخرى ٤٣ وما بعدها
٤٢ ـ ابن حوقل ١٥٣ وما بعدها
٤٣ ـ راجع الهوامش ٣٨ ـ ٤٢
٤٤ ـ ابن خرداذبه ٧٥ ـ ٧٦
٤٥ ـ اليعقوبي ٣٢٤ وما بعدها
٤٦ ـ ابن حوقل ١٥٣ ـ ١٥٤
٤٧ ـ راجع Nicola A. Ziadeh, **Urban Life in Syria Under the Mamluks**, pp. 49 — 72.
٤٨ ـ ابن خرداذبه ٩٧
٤٩ ـ ابن خرداذبه ٩٩
٥٠ ـ الهمداني ١١١
٥١ ـ قدامة ٢٥٢ ـ ٢٥٥
٥٢ ـ الاصطخرى ٤٣
٥٣ ـ الاصطخرى ٤٩
٥٤ ـ ابن حوقل ١٥٣ و ١٥٤
٥٥ ـ ابن حوقل ١٦٥ ـ ١٦٩
٥٦ ـ المقدسي ١٦٠

٥٧ ـ المقدسي ١٨٩
٥٨ ـ المقدسي ١٥٢
٥٩ ـ قدامة ٢٥٩
٦٠ ـ المقدسي ١٧٧ ، راجع ايضا الهمداني ١١٣
٦١ ـ ابن خرداذبه ٧٥ و ٧٦ و ٧٧ و ٧٨ و ٧٩
٦٢ ـ اليعقوبي ٣٢٥ و ٣٢٧ و ٣٢٨ و ٣٢٩
٦٣ ـ الهمداني ١٠٣ و ١٠٥ و ١١٠ و ١١٦
٦٤ ـ قدامة ٢٥١
٦٥ ـ المقدسي ١٨٩
٦٦ ـ المقدسي ١٨٩
٦٧ ـ اليعقوبي ٣٢٥ و ٣٢٧ و ٣٢٩
٦٨ ـ اليعقوبي ٣٢٥
٦٩ ـ ابن حوقل ١٧٢
٧٠ ـ ابن حوقل ١٥٩
٧١ ـ ابن حوقل ١٧٢
٧٢ ـ ابن حوقل ١٦١ ـ ١٦٢
٧٣ ـ ابن حوقل ١٧٢ ـ ١٧٣
٧٤ ـ الهمداني ١٠٥
٧٥ ـ الاصطخرى ٤٣
٧٦ ـ اليعقوبي ٣٢٤ ـ ٣٢٩
٧٧ ـ اليعقوبي ٣٢٤ ، الاصطخرى ٤٦
٧٨ ـ اليعقوبي ٣٢٥ و ٣٢٦ و ٣٢٧
٧٩ ـ اليعقوبي ٣٢٧
٨٠ ـ اليعقوبي ٣٢٧ و ٣٢٨ ـ ٣٢٩
٨١ ـ اليعقوبي ٣٢٦
٨٢ ـ اليعقوبي ٣٢٨
٨٣ ـ اليعقوبي ٣٢٨ ـ ٣٢٩
٨٤ ـ الاصطخرى ٤٤
٨٥ ـ ابن حوقل ١٥٩
٨٦ ـ المقدسي ١٧٩
٨٧ ـ المقدسي ١٦٧ و ١٨٣
٨٨ ـ المقدسي ١٧٩
٨٩ ـ المقدسي ١٨٢ ـ ١٨٤
٩٠ ـ المقدسي ١٥٦ ـ ١٥٧

٩١ ـ المقدسي ١٦١
٩٢ ـ المقدسي ١٦٦ ـ ١٦٧
٩٣ ـ اليعقوبي ٣٢٤
٩٤ ـ الاصطخرى ٤٤
٩٥ ـ الاصطخرى ٤٦
٩٦ ـ الاصطخرى ٤٧
٩٧ ـ ابن حوقل ١٦٢
٩٨ ـ ابن حوقل ١٦٤
٩٩ ـ الهمداني ١١٤ ـ ١١٥
١٠٠ ـ المقدسي ١٨٠ ـ ١٨١
١٠١ ـ ابن حوقل ١٦٢ ـ ١٦٣
١٠٢ ـ ابن حوقل ١٦٣ ـ ١٦٤ راجع ايضا ما ذكر عن حصن برزويه في الصفحة نفسها
١٠٣ ـ ابن حوقل ١٧٢
١٠٤ ـ المقدسي ١٦٢ ـ ١٦٣
١٠٥ ـ المقدسي ٣٤ ، ٣٥ ، ١٦٤ ، ١٦٧
١٠٦ ـ المقدسي ١٥١ ـ ١٥٢
١٠٧ ـ المقدسي ١٧٩ ـ ١٩٢
١٠٨ ـ الهمداني ١١٩ ـ ١٢٧

معنى التاريخ في الفكر الاسماعيلي

الدكتور عادل العوا

جامعة دمشق ـ كلية الآداب

يشتمل هذا البحث على قسمين ، يبين اولهما بايجاز نظرة الفكر الاسماعيلي الى معنى التاريخ ، وموقعه منه ، وينطوي على النقاط الآتية :

تمهيد : التاريخ تاريخان

الاسماعيلية والتاريخ المذهبي

اسس النظرة الاسماعيلية

بين التفسير والتأويل

التأويل والولادة الروحية

التاريخ في نظر الاسماعيلية

نظرية الاسابيع

ويتناول القسم الآخر تحليلا سريعا لنظرة الاسماعيلية الى معنى التاريخ ، وتقويما لموضوعية هذه النظرة ، ويتوقف عند النقاط الآتية :

التاريخ الموجه او العقائدي

الامام مصدر المعرفة التاريخية

امتزاج السياسة بالدين

تقديس الائمة

معضلة العصمة والفهم التاريخي

التقية واضمحلال المعنى التاريخي

سلاح الشفاعة والخلاص

ويختم البحث بالتساؤل عن مدى تأثير التأويل وفي التكييف المفتوح عبر الصيرورة .

الفصل الأول

تمهيد :

يقول (اتيين جلسون)، الفيلسوف المعاصر، ان التاريخ في الواقع تاريخان : تاريخ ما حدث ، وتاريخ ما يروى ، وان كنا لا نملك سوى كلمة واحدة للدلالة عليهما . وذاك اشبه بكلمة « فيزيا٬ » التي قد تدل بأن واحد على الطبيعة وعلى علمنا بها . ولئن كان النين يجهلون الفيزيا٬ ـ العلم يرون الطبيعة بابصارهم ، فان التاريخ يفر من المشاهدة ، لان تاريخ ما حدث فعلا لا يوجد بالنسبة الينا الا في التاريخ الذي يرويه . ونحن لا نروى التاريخ ابان وقوعه . وانما نرويه ـ اي نخترعه ـ بعد وقوعه . ولذا فان التاريخ يخترع موضوعه اختراعا ، ويرممه ، ويصنعه صنعا ، واذا احسن التاريخ الصدق اعتز بانه يعيد خلق الماضي كما يراه هو من زاويته الخاصة » .

غير أن (جان جاك روسو) ، الاديب الفيلسوف ، يرى ان الفرضيات الذهنية عن التاريخ هي اصدق من التاريخ ، وتمتاز بانها معقولة على نحو اعظم ، ولذا نجده ينطلق من فرضية حال يسميها حال الطبيعة ، ويرى انها فرضية عقلية تدع الحقيقة التاريخية جانبا ، وهي في نظره اعظم يقينا من وقائع التاريخ ، ويستخلص منها ان الانسان الطيب بالطبع غدا شريرا بالاجتماع ، وان عقدا اجتماعيا اوليا مفترضا هو الذي اقام نوعا من المشاركة الاجتماعية تمكن المر٬ من ان يظل حرا لا يطيع الا نفسه ويؤلف في الوقت ذاته جز٬ا لا يتجزا٬ من المجتمع . وقد حسب (روسو) ان تخميناته افضل مما تنتهي اليه نتائج البحث التاريخي المؤيد بالوثائق وبالنقد الداخلي والخارجي وبالتفسير الموضوعي في ضو٬ معطيات العلوم المساعدة وتاريخ ما قبل التاريخ ...

ولم يحجم (هجل) عن تأكيد ان الجدل والتاريخ شكلا حقيقة واحدة ووجها واقعا واحدا وان (الفكر) او (الروح) هو الاتجاه الباطني لنشاط الواقع

الذي يجرى بانطلاق (الفكر) من وحدته الاولى وانتشاره في طباقه وهو (الطبيعة) المتعددة الاشكال وارتداد (الفكر) الى ذاته عندما تصبح (الطبيعة) (روحا) حتى يعي (الفكر) او (الروح) ذاته في تمام وحدته . وما صيرورة (الروح) الا حركة تاريخية عميقة كبرى تتحقق بجهد والم وحتمية خلال مراحل التاريخ كلها وفي مختلف اشكال المجتمع ، لان تلك الصيرورة هي سير الله خلال (التاريخ) ، ومن هذه المذهبية الجدلية ، او الملحمة التاريخية المنطقية يخلص فيلسوف المثالية المطلقة الى ان الحركة التاريخية غزو الحرية ، وانها تنتهي الى دولة طاغية يترتب على المرء ان يعتبر نفسه فيها حرا ما دامت الدولة ، وهي القائد الضخم ، تسعد بتحقق الصيرورة العظمى ، وبتجلي الروح المطلقة ، وذاكم هو الغرض الاقصى من تطور الكون .

ومن الجلي ان الماركسية ، بانتقالها من « الجدلية المادية » ، الى « الجدلية التاريخية » ترى ان الحقائق من صنع الانسان ، من صنع التاريخ . وان تاريخ العالم المزعوم ليس بأسره الا « نتاج الانسان بالعمل الانساني » . والانسان يخلق ذاته بصورة اجتماعية اذ يخلق العالم والتاريخ ، وما الافكار سوى نتاج الشروط الاقتصادية ، اي الشروط المادية ، وهي اساس التطور التاريخي ، وبنية المجتمع الانساني ، وانما الجماهير الكادحة (البروليتاريا) هي صانعة التاريخ ، بكفاحها العملي ، وبتحقق دولة البروليتاريا ، بل ديكتاتوريتها ، ولو في صورة مرحلية تؤدي آخر الامر الى ما ينشد البشر من عدالة في الارض ...

ان الكلام على تاريخ فلسفة التاريخ يطول ، وهو كلام مذهبي يسوق الى الحديث عن نظرة مذهبية نشأت في احضان الثقافة العربية الاسلامية وترعرعت بجدليتها حتى ارتبطت بمفهومها عن تطور الكون ووجدت انها صنو الوجود كل الوجود ، ونعني بها نظرة الفكر الاسماعيلي الى التاريخ ، وهذه النظرة جديرة في رأينا بالعناية والدراسة في عصر حفل بالاهتمام التاريخي على كل مستوى ، وفي كل مجال ولذا فان هذا البحث « الفكري » يطرح من المشكلات التاريخية والذهنية بأكثر مما يجد حلولا .

الاسماعيلية والتاريخ المذهبي

ولكن ما الاسماعيلية ، اولا ؟

ان للاسماعيلية ، مذهبيا ، تعريفات شتى . ففي نظر احد اتباعها من المعاصرين : « الاسماعيلية قصيدة فلسفية تتطور مع الزمن ، وتتكيف معه . او

بلغة اصح ، هي انطلاق الفكر الوثاب في هذا العالم اللامتناهي ، او وثوب الروح نحو مثلها الاعلى . فهي والحالة هذه بحر من العلوم ، وقبس مضيء من النور ، وشعاع مشع ينير ظلام عالم الكون والفساد» . ولكن هذه القصيدة هي ديانة وجماعة دينية وتعليم ديني في نظر الامام (سلطان محمد شاه علي الشهير باغا خان الثالث) وهو يقول : » ان الديانة الاسماعيلية تأسست في سورية من قرون عديدة ، بعد الجزيرة العربية ، ومصر ، وتثبتت فيها بالقوة نفسها ، رغم التبدلات الاساسية التي طرأت في تلك البلاد مع الزمن . ولقد ثوبر بصورة دائمة على التعليم الديني بجد واندفاع ، وذلك بفضل حمية اولئك الذين يخلصون للجماعة الدينية »[٢] .

ونحن نرى ان للاسماعيلية تاريخين : تاريخ وقائع جرت ، ودول او دويلات قامت ودالت ، ثم تاريخا يفسر هذه الوقائع اذ يرويها ، بل يؤولها تأويلا ، ويضفي عليها من رواء المذهبية ما يجعل حوادث التاريخ حلقات سلسلة منطقية هادفة الى غرض محدد يمثله تحقيق المثل الاعلى الذي لا يرمي اليه التاريخ الاسماعيلي وحده ، بل التاريخ الاسلامي والتاريخ البشري . وبقول آخر ، ان التاريخ المذهبي الاسماعيلي يتطلع الى دمج التاريخ الاسماعيلي في التاريخ العام ، بل ، بصورة ادق ، الى دمج التاريخ الانساني بالتاريخ الاسماعيلي ، واعتبار الصيرورة الكونية ذاتها ، صيرورة الابداع كما يقول الاسماعيليون ، باشتمالها على التاريخ البشري منذ عهد ادم ، وما قبله ،الى آخر العصور ، ونهاية الازمان في مختلف الادوار والاكوار والقرانات ، وما يلي ذلك من فوز ونجاة ونعيم في الآخرة ، اعتبار ذلك كله واقعا بالمعنى الاسماعيلي ، وللاغراض الاسماعيلية .

ان المقام لا يتسع هنا لذكر تفاصيل شتى عن نشأة الاسماعيلية وتطورها وتكامل نظرتها المذهبية وتعقدها الفلسفي الشديد ، ولكن من النافع ان نلمح الى بعض وقائع من تاريخها الفعلي ، ايضاحا لبعض جوانب من التاريخ الاسماعيلي المذهبي .

ان كلمة الشيعة الامامية تتفق على القول بامامة (علي بن ابي طالب) ، ثم ابنه (الحسن) ، ثم (الحسين) ، ثم (علي بن الحسين) و (محمد بن علي) ، و (جعفر بن محمد) ، وكان له ــ وهو الامام السادس ــ اولاد يسمى اكبرهم (اسماعيل) وقد توفي قبل وفاة والده بسنوات خمس ، وكان اسماعيل هو السابع في ترتيب الائمة ، فرأت فرقة من الشيعة انه كان آخر الائمة ، وانكر اخرون مدته وقالوا انه غاب وانه سيعود وانه لم يمت حقا ، بل ان الله حجبه الى الوقت الذي يقتضي ظهوره ، ويسمى هؤلاء بالسبعية ، لوقوفهم في الامامة عند

هذا ، ويسمون ايضا بالاسماعيلية نسبة الى اسماعيل بن جعفر الصادق « أو لانتسابهم الى محمد بن اسماعيل »[٣] ، وقيل لاثباتهم الامامة لاسماعيل ، بينما حجبها عنه الاثنا عشرية الذين قالوا بامامة موسى الكاظم بدلا من اخيه اسماعيل .

وقد توسع الاسماعيليون ، او السبعية ، في العدد سبعة توسعا انجب في مجال نظرتهم الى التاريخ نظرية الاسابيع التي سنتحدث عنها . والثابت في مستوى الواقع ان تلا تلك فترة من النشوء والنضج العقائديين وقد تعاقب في هذه الفترة أئمة مستورون امن بهم اتباعهم ، وعملوا بارشادهم ، حتى انتهى الامر بظهور (محمد المهدي) ، رأس الدولة الفاطمية ، وامتاز هو وخلفاؤه بالجمع العلني بين الخلافة والامامة ، وما ان توفي الخليفة الامام الفاطمي الثامن وهو (المستنصر بالله) سنة ٤٨٧ هـ/١٠٩٤ م حتى انقسم الاسماعيليون الى شعبتين او فرقتين هما : (النزارية) او (الاغاخانية) كما تسمى الان ، وتضم الذين ظلوا اوفياء للامام « الوارث الظاهر » الاصلي وهو (نزار بن المستنصر بالله) ، وهم اقل من الاسماعيليين عددا ، ويعرفون حاليا باسم الخوجة ايضا ، ولا يزالون في انحاء من الشام وفي الموت وايران والافغان والهند وباكستان وقسم منهم في العراق[٤] . والفرقة الثانية تتبع الامام (احمد المستعلي بالله) ٤٩٥ هـ/١١٠١ م وهو الامام الاسماعيلي العشرون ، وقد تلاه (المنصور الآمر باحكام الله) المتوفي سنة ٥٢٦ هـ/١١٣٢ م ثم خلفه الامام (ابو القاسم الطيب بن المنصور) ، وهو امام مستور ، ويقال لهذا العهد (دور الستر) ولا يزال مستمرا الى الآن . وتعرف الفرقة (المستعلية) باسم طائفة (البهرة) في الهند ، او باسم (الطيبية) في اليمن . وقد انقسم (البهرة) انفسهم سنة ٩٩٩هـ/١٥٩١م اثر وفاة داعي الدعاة) (داود بن عجب شاه)، فانتخب بهرة كجرات (داود بن قطب شاه) خلفا له ، وصارت اكثرية البهرة تدعى (الداودية)[٥] نسبة اليه . اما اليمانيون فقد عارضوا ذلك ، وعضدوا رجلا آخر اسمه (سليمان) يدعي انه خلف سابقه (داود بن عجب شاه) ، وان هذا قد اختاره بوثيقة معطاة منه ويسمى اتباعه ، وهم قلة ، (السليمانية)، ولا يزال دعاتهم في اليمن الى اليوم .

ومن الداودية اشتقت (البهرة العلية) نسبة الى (علي) حفيد الشيخ آدم الملا الاكبر ، اي داعي الدعاة ، واشتقت عنهم فرقة صغيرة تسمى (الناكوشتية) سنة ١٧٨٩ م واسمهم فارسي الاصل وهم يحرمون اللحوم[٦] .

بيد ان النظرة المذهبية الى تاريخ ما حدث تبين لنا بصورة طريفة وعميقة مدى تأثير التأويل الفكري للوقائع على « تقديم » هذه الوقائع ذاتها من وجهة نظر

الاسماعيلية العقائدية ، وقد نجد في هذا كله مثلا اخر كاملا او شبه كامل على نفوذ الجبلية الفكرية في نضد الحوادث التاريخية ، واضفاء حلة « عقلية » عليها ، لاجتلاء سببيتها بل حتمية تعاقبها ، مع تأكيد يعود بصورة خلفية الى الماضي فيثبت له غائية مذهبية ، وتأكيداً تنبؤيا يحدد للمستقبل التاريخي غائية صيرورته .

اسس النظرة الاسماعيلية

ان للنظرة الاسماعيلية الى التاريخ اسسا ترجع بالدرجة الاولى في رأينا الى الفكر الاسلامي ذاته ، وقد الف الاسلام في مبادئه الاولى بين السياسة والدين ، ولم يفصل السلطة السياسية عن السلطة الدينية ، ولذا طرحت مشكلة ادارة دفة المجتمع من الناحية السياسية فور وفاة الرسول طرحا قوامه الاعتبار الديني ، واهتدى المسلمون في جملة ما اهتدوا به على استشفاف ارادة الرسول في من يكون خليفته بانه كان قد اوصى (ابا بكر) بامامة المصلين ، وذهب الشيعة الى ان الخليفة الشرعي من بعد (محمد بن عبدالله) هو ابن عمه (علي بن ابي طالب) وقد اوصى به نصا في (غدير خم) ، واشترطوا انتقال الامامة (او الخلافة) من (علي) الى ابنائه واحفاده .

كانت « الامامة » و « الخلافة » صنوين في البدء . ثم ميزت الوظيفة السياسية في رئاسة الدولة عن الوظيفة الدينية في ترؤس المصلين ابان اداء الصلاة ، وعرفت الاولى باسم الامامة الكبرى ، والثانية بالامامة الصغرى ، وتكون الوظيفة الثانية من خصائص صاحب الوظيفة الاولى بالطبع ، عند وجوده او عند وجوده ظاهرا في الملأ .

تطور معنى (الامام) في الثقافة الاسلامية والعربية فأصبح يدل على الرئاسة والتقدم ، اول ما يدل . ورأى (المعرى) ان لا أمام سوى العقل مشيرا في صبحه والمساء ، وبقي معنى الامام يدل على الشخص الهادي الى افضل السبل في الحياة ... ولكن مفهوم الامام قد تطور في نظر الشيعة بعامة ، والاسماعيلية والفرق الغالية بخاصة تطورا مذهلا . فالامام في نظر المعتدلين من مفكري الشيعة هو شخص فاضل يوحى اليه .

جاء في كتاب « الوافي » (للكليني) ما يلي : » كتب (الحسن بن العباس المعروفي) الى (الرضا) يقول : جعلت فداك ! اخبرني ما الفرق بن الرسول والامام والنبي ؟ فكتب اوقال : الفرق بين الرسول والنبي والامام ان الرسول هو الذي ينزل عليه جبريل ، فيراه ويسمع كلامه ، وينزل عليه الوحي ، وربما راه في

منامه نحو رؤيا ابراهيم ، والنبي ربما سمع الكلام ، وربما رأى الشخص ولم يسمع . والامام هو الذي يسمع الكلام ، ولا يرى الشخص »[٧] .

فالامام ، بهذا الاعتبار ، يلقى الوحي ، ولكنه ما يزال في منزلة تلي منزلة النبي والرسول . وقد بدل التنهيج المذهبي الاسماعيلي هذه النظرة ، ودمجها في مفاهيم الوصاية والولاية وأدوار الستر والكشف ، وأفاد من نظرية المثل والممثول ، وتأويل الوقائع الكونية تبع العقائدية الاسماعيلية ، فغدت الأمامة عنصرا من جملة عناصر اربعة تجتمع مثلا عند (عبد المطلب) مثلما اجتمعت من قبل عند جده (ابراهيم) عليه السلام . يقول الداعي الفاطمي (طاهر بن ابراهيم الحارثي اليماني) المتوفى سنة ٥٨٤هـ ، في كتاب (الانوار اللطيفة ، لذوي الصور النيرة الشريفة)[٨] : ان ادم يقوم مقام التنزيل ، ونوح يقوم مقابلا للتأويل ، وابراهيم يقوم مقابلا للحقائق ، ولذلك قال فيه الكتاب الكريم « وابراهيم الذي وفى » اشارة الى هذه الثلاث الرتب التي هو هي ، وهو مقام كريم ذو هيكل نوراني عظيم ، وهو ولد الامام السابق عليه ، الموجد المشيراليه ، فاجتمعت عنده النبوة والرسالة والوصاية والامامة ... ولما اجتمع الاربع الرتب في ابراهيم وكان على الحالة المذكورة في الفضل والشرف اقام دعوته الى ان استخرج منها ولده اسماعيل ... وصيا وسلم اليه رتبة الوصاية والامامة بأمر الله تعالى ، واذ هو مقام الهي وهيكل نوراني وسلم الى ولده اسحق رتبة النبوة والرسالة وجعله خادما بين ايدي اخيه اسماعيل وحجابا عليه وداعيا له ... »

والى جانب هذه التمييزات الدقيقة في صلات الامامة بالوصاية وبالرسالة وبالنبوة ، نلقى التنهيج الاسماعيلي « لا يكتفي بجعل الامام مثلا اعلى، واعطاء الامامة مرتبة القداسة السامية » بل قال « ان الامامة ذاتها على درجات او مقامات هي :

١ ـ الامام المقيم : وهو الامام الذي يقيم ناطق الدور ويربيه ويمده بالامدادات الروحية ، وهي ارفع مراتب الامامة .

٢ ـ الامام الاساس : وهو الامام الذي يرافق الناطق في كافة مراحل حياته ومنه يتسلسل الائمة المستقرون في الادوار الزمنية .

٣ ـ الامام المتم : وهو الامام الذي يتم الدور . والدور يقوم به سبعة من الائمة ، وهو سابعهم وتم الدور ، وقوته تعادل قوة الستة الذين تقدموه .

٤ ـ الامام المستقر : وهو الامام الذي له الحق بتوريث الامامة لولده ، وصاحب النص على الامام الذي يأتي بعده .

٥ ــ الامام المستودع : وهو الامام الذي يتسلم الامامة بظروف استثنائية ولا يحق له توريثها لاحد من ولده .

٦ ــ الامام بالقوة : كتاب الله المنزل .

٧ ــ الامام بالفعل : وهو الاساس »[١]

ان نمو وتكامل الفكر الاسماعيلي التأويلي يجعل الحاجة ماسة جدا اليوم الى وضع معجم خاص بالاشارات وبالرموز والكنايات الاسماعيلية وقد تمايزت معاني كثيرة في الحقل الاسماعيلي خاصة ، وفي ميدان الفكر الباطني عامة ، واصبح مجال التأويل مجالا وسيعا غنيا من مجالات الثقافة العربية ، بله الاسلامية . وساعد على غموض اسلوب التأويل المذهبي اتسام انتاجه بسمة المعرفة السرية المكتومة التي لا يعرفها الا الائمة وحيا ، والا خاصة اتباعهم الراسخون في العلم ، اطلاعا ، وتتدرج المعرفة بين الكتمان والستر وبين الجلاء والظهور من مراتب الائمة وهم ينبوع التأويل ، الى مراتب المؤمنين العابيين والمستجيبين وهم ينوسون بين معرفة الظاهرة ، ظاهر اهل الظاهر ، وظاهر اهل الباطن ، قبل ان يمضوا قدما في معراج المعرفة الحقيقية على سلم التأويل .

بين التفسير والتأويل

من المبين ان الفارق بين التفسير ، وهو درب الفهم والوضوح ، والتأويل ، وهو سبيل كشف الاستغلاق والغموض ، هو فارق دلالة الاشارة ودلالة الرمز . فللاشارة في اللغة دلالة اصطلاحية عامة ذائعة مقررة . او ان لها ، بوجه الاجمال ، دلالة مقبولة ترتبط برباط وثيق ، اوكالوثيق ، بما تدل عليه ، فلا تخرج به عن مدى المعنى المتعارف عليه . اما الرمز ، والفهم الرمزي ، او التأويل ، فانه يمنح الظاهرة او اللفظ دلالة لا ترتبط بما تدل عليه برباط مباشر عام مقرر لدى الناطقين باللغة . وانما تعتمد الدلالة الرمزية في معظم الاحوال على المماثلة او المحاكمة التمثيلية ، وتجعل للظاهر دلالة باطنية ، وتكون هذه الدلالة نسبية او مغلقة على غير اصحابها ، اي خاصة بهم ، يحددها لذاته ذهن دون سائر الاذهان ، ويفهمها تبع ذلك قوم مخصوصون دون سائر الاقوام .

لقد حسب باحثون معاصرون ، ومنهم الاستاذ (ابو الحسن علي الحسني الندوى) ، ان مباحث علم الكلام نشأت اثر انتقال العلوم اليونانية والسريانية الى العربية ، وانصراف الناس عن ميدان القتال ، وقد كان المسلمون ، في غنى

عن نلك بما جا' به الرسول من علم محكم وبينة واضحة . ولكننا نعتقد ان علم الكلام وليد الثقافة الاسلامية والتاريخ الاسلامي بالدرجة الاولى ، ونرى ان المباحث الكلامية افادت (او اذا شئنا ، تأثرت) ،من التمازج الثقافي ومن انتقال العلوم اليونانية والسريانية وغيرها الى الثقافة العربية . ولسنا نعرف تاريخ امة من الامم ، ولا ديانة من الديانات بمنجى عن تطور يواكب ازدهار الوعي العقلي ويستجيب لمشاغل البيئة الفكرية والتاريخ الاجتماعي والسياسي . وعندنا ان تعقل مجالي النظر والعمل هو الذي حمل المسلمين الاوائل على التساؤل عن اسس عقيدتهم ليجلوا واقع تقديرهم او تقويمهم للعلل والدوافع والاهداف الجاثمة ورا' تصورهم وسلوكهم . وقد كان السبيل في تحديد المشكلات وحلها ، كما هو معلوم ، سبيل فهم القرآن الكريم والاحاديث النبوية ثم اللجوْ الى التفكير واستخدام الرأي والاجتهاد بالاستدلال الفقهي لبلوغ مرتبة الاجماع او ما يشبه الاجماع ..

ان هذا المسعى الذهني يعتمد ، اكثر ما يعتمد ، مبدأ التفسير والقياس المنطقي ، وهما يبدوان قاصرين في نظر الشيعة التي انطلقت من القرآن والحديث ، ولكنها اعتمدت على غير الرأي والاجتهاد والاجماع ، وذهبت الى ان الحقيقة في العلم انما تطلب عن طريق الامام الذي يوصى اليه . فالامام هو المعلم المعصوم ، ومنه يستمد المؤمنون ، اي الاتباع ، معرفتهم وعلمهم وهديهم ، وهو وحده الذي يملك حق التأويل ، او الفهم الرمزي ، لما يستغلق امره على الناس اجمعين .

وعلى هذا فان الفكر التأويلي او الباطني وجه من اوجه الثقافة العربية والاسلامية . وهو في رأينا يمثل جانبا ممكنا من جوانب تطور الفكر الاسلامي ، ونحن نحسب ان النشاط التأويلي ، وان كنا نشاهده في ثقافات كثيرة شتى ، قد بلغ في الاسلام مبلغا لا يقاربه تأويل آخر في ثقافة او ديانة من الثقافات التاريخية او الديانات . ويكفي ان نجلو نلك بنظرة خاطفة الى معنى الولادة الروحية – (وقد عرفتها المسيحية) – في التأويل الاسماعيلي .

التأويل والولادة الروحية .

يرى التأويل الباطني في الاسماعيلية ان المعرفة التي يحظى بها « المؤمن » السعيد ، اي الشيعي الاسماعيلي ، تنقله من حال الى حال ، ومن حياة الى حياة ، اذ يولد بالروح ولادة دينية ، كما يقول مثلا الداعي (علي بن محمد الوليد) في كتابه المسمى « رسالة جلا' العقول وزبدة المحصول » . يقول : » ولما

كان الشخص الانساني الذي هو اخر المواليد الجسمانية لا يخرجه الى حد كماله الا بعد تنقله في سبعة احوال ، وهي التي ذكرها الله تعالى بقوله : » ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم انشأناه خلقا آخر فتبارك الله احسن الخالقين » ، كان انتقال المولود الديني لذلك في احواله الى ان ينتهي الى كماله في بطن امه المتولية لحضانته ، وتلك دعوة الوصي في عصره ، ودعوة حجة كل امام في وقته ، المعني بقول النبي (ص): « انا وانت يا علي ابوا المؤمنين » ، وهذه المراحل السبع للولادة الدينية تؤلف سلالة دينية تماثل السلالة الجسمية التي حصلت في الرحم ، وبها تكون الدعوة الاسماعيلية هي الأم ، والوليد بالروح هو المؤمن الصادق الذي يرقى من الظاهر الى الباطن ، ومن الضلال الى الحق ، ومن الجهل الى العلم ، بل يرقى من ظاهر اهل الظاهر ، وهم الجهال ، اي عامة المسلمين ، الى ظاهر اهل الباطن ، ثم الى باطن اهل الباطن ، فتتم ولادته بالروح ، ولادته الحقيقية بالدين .

عاش الداعي (علي بن محمد الوليد) في القرن الهجري السابع ، وبنى نظرياته على اصول ثقافية متواترة نامية نجد اسسها في القرن الرابع الهجرى لدى (القاضي النعمان محمد بن حيون) ، المفكر الاسماعيلي الشهير ، وقد نص في كتابه « تأويل دعائم الاسلام » ، الذي دبجه ليبسط فيه » الرموز والاشارات بالباطن والتأويل وكيف ينبغي تعلمه والترقي في درجاته ، فيكون كتاب « دعائم الاسلام »[١٠] اصل الظاهر ، اي ظاهر اهل الباطن ، ويكون كتاب « تأويل دعائم الاسلام » اصل الباطن ، اي باطن اهل الباطن .

يرى (القاضي النعمان) انه ينبغي ان يكون التدرج في الانتقال من ظاهر اهل الظاهر الى ظاهر اهل الباطن ، ثم الى باطن اهل الباطن ، على مراتب : ففي المرتبة اولى يصرح فيها « بعض التصريح » ليكون ذلك التصريح مقدمة من العلم يثبت في القلوب على حسب الواجب في ذلك ويستمر هذا التصريح الجزئي « مدة حولين » يصار بعدهما الى ترقية السابقين فيه الى مرتبة اخرى ، أو احد آخر ، هي مرتبة التربية ، تربية المؤمنين ، بتأويل ما في كتاب « دعائم الاسلام » من اوله الى أخره ويكون مبدأ التدرج في التعليم الباطني الاسماعيلي مطابقا مبدأ التدرج في النمو الجسدي ، او في النمو الظاهر ، لان المولود يكون مولودا يصلح ظاهر بدنه ، ثم رضيعا يغذى باللبن ، ثم صبيا اذا فطم ، ثم يبلغ الحلم بعد ذلك »[١١] .

يقول (القاضي النعمان) : « سمعتم ايها المؤمنون كيف انتم تنقلون حالا بعد حال في حدود الدين كانتقالكم في نشأة الخلق الظاهر ، وان خلق الدين مثله في الباطن .» وعلى الحجة ان يتبصر بادئ ذي بدء في كفاءة المستجيب ليرى هل هو

ذكر ام انثى ، اي ليعرف هل هو ممن يصلح ان يكون مفيدا فذلك مثل الذكر ، او مستفيدا فذلك مثل الانثى ... ويبدأ باطلاع المستجيب على ظاهر اهل الباطن ، ثم يرقى به الى باطن اهل الباطن ، حتى يجاوز المولود الديني حد الرضاع الباطن ، ويبرع ويبلغ منزلة « من بلغ النكاح واونس رشده واستحق قبض ماله وتصرف فيه كما يتصرف الحائز الامر في ماله »[١٢] .

وعلى هذا النحو التأويلي ينهج الفكر الاسماعيلي الولادة بالحقيقة ، الولادة الدينية بالروح ، ويقصدون بذلك رسم خط النمو العقائدي لتاريخ الفرد ، وبهذه النظرة ذاتها يود الفكر الاسماعيلي ايضا رسم خط منهجي اوسع يندمج في سلكه الفرد السعيد العارف بالحقيقة ، وهذا الخط الوسيع يحدد صورة التاريخ باسره في نظر الاسماعيلية .

التاريخ في نظر الاسماعيلية .

ينقل الاستاذ (مصطفى غالب) عن نسخة خطية يحتفظ بها في مكتبته الخاصة ل « بيت الدعوة الاسماعيلية » ما يلي : » عن (ابن عباس) قال : قال الله تعلى كنت كنزا مخفيا لا اعرف ، ولما أردت ان أعرف خلقت خلقا فعرفتهم بي ، فبي عرفوني . وقال (ابن عباس) ايضا : اول ما خلق الله تعالى الملائكة وجبلهم على طاعته ... ثم خلق السماوات والارض في ستة ايام لتشهد الملائكة خلقها ويعترفون بكمال القدرة ونفوذ المشيئة ، ثم امر الله جبرائيل ان يأتي بقبضة من نور (محمد) (ص) فقبض جبرائيل قبضة بيضاء وغمسها في انهار الجنة ثم طاف بها في الملكوت الاعلى قبل ان يخلق أدم ، وقيل ان الله تعالى خلق نور (محمد) قبل ان يخلق العرش والكرسي واللوح والقلم والسموات والارض بمائة واربعة وعشرين الف سنة وخلق معه اثني عشر حجابا هي حجاب القدرة — والعظمة — والمنعة — والمنع — والرحمة — والمنزلة — والعناية — والوحدانية — والهداية — والولاية — والنبوة — والمعرفة — والصفاية —... وقد اجلس الله نور (محمد) فترة من الدهر في كل حجاب ... ثم قسم هذا النور الى عشرة اقسام وخلق من اقسامها العرش — والكرسي — واللوح — والقلم — والشمس — والقمر — والكواكب — والملائكة — ونور المؤمنين — وجعل القسم العاشر في ظهر أدم ، ثم نفخ فيه من روحه فسجدت له الملائكة واخذ عليه العهد والميثاق ان يودع هذا النور في الاصلاب والارحام الزكية ، وقد انتقل هذا النور ، وهو نور الامامة ، الى هنيد ، ثم الى شيث ثم الى انوس ثم الى قصي ، ثم الى عبد مناف ، ثم الى هاشم ، ثم الى عبد المطلب ، ثم الى ابي طالب ، ثم الى علي[١٣] .

يتضح من ذلك ان نور (محمد هو نور الامامة ، وان الله خلق هذا النور في بدء الخليقة ، وان نوره انقسم في كائنات الطبيعة وافلاكها وكواكبها انقسامه في كائنات « ما بعد الطبيعة » من العرش والكرسي الى اللوح والقلم.. وان « الاسماعيلية يعتبرون من حيث الظاهر ان الائمة من البشر ، وانهم خلقوا من الطين ، ويتعرضون للامراض والآفات والموت ، مثل غيرهم من بني آدم ، ولكن في التأويلات الباطنية يسبغون على الامام (وجه الله) و (يد الله) و (جنب الله) وانه هو الذي يحاسب الناس يوم القيامة ، وهو الصراط المستقيم ، والذكر الحكيم ، الى غير ذلك من الصفات . وفي هذه الاقوال أدلة على كل صفة من هذه الصفات :

فمثلا : ان الانسان لا يعرف الا بوجهه ، ولما كان الامام هو الذي يدل العالم على معرفة الله ، فبه اذن يعرف الله ، فهو وجه الله ، الذي يعرف به الله ، وان اليد هي التي يبطش بها الانسان ويدافع بها عن نفسه ، والامام هو الذي يدافع عن دين الله ، ويبطش باعداء الله ، فهو على هذه المثابة يد الله ...[١٤]

لندع جانبا هذا التأويل الميتافيزيائي الاسماعيلي لاشخاص التاريخ على اساس انتقال نور (محمد) ، او نور الامامة ، عبرهم الى ان وصل الى « الامام » (علي ابن ابي طالب) . ولنلق نظرة سريعة على مفهوم أدوار التاريخ واكواره وفتراته وقراناته كما يراها الاسماعيليون .

يؤكد الاستاذ (مصطفى غالب) « ان الاسماعيليين ينظرون لدعوتهم نظرة تعطي الدليل على انها قديمة وقد رافقت الكون منذ نشأته الاولى »[١٥] . ونحن نرغب عن البحث في مواكبة الدعوة الاسماعيلية الكون منذ نشأته الاولى ، الى البحث بايجاز عن نظرة الاسماعيلية الاجمالية الى تاريخ الكون ، ولا سيما بالاضافة الى الكون البشري .

ان هذه النظرة ترى ان للكون عمرا ينتهي بانقضاء الكون الاعظم « الذي هو ضرب ثلاثماية الف سنة وستين الفا في مثلها ، ومائة الف الف الف وتسعة وعشرون الف الف الف وستمائة الف سنة »[١٦] . ولقد ابدع الله تعالى عالم الابداع المكنى عنه بعالم الامر ، وعالم العقل ، وعالم القدس ، وعالم الصفا ، وعالم اللطافة ، والعالم الروحاني ، جميعا دفعة واحدة من غير شيء تقدمهم ولا على شيء صحبهم ولا على شيء اقلهم[١٧] ، وأتبع عالم الابداع عالم الاجرام ، وكان ابتداء ترتيب عالم الافلاك كابتداء خلق الانسان[١٨] ، ورتبت العناية الالهية كل كوكب من الكواكب ، وفلك من الافلاك وركن من الاركان في موضعه اللائق به وجعلت الكواكب السبعة مدبرة لعالم الامهات والمواليد ، متولية تدبير عالم الكون والفساد وصار لكل كوكب منها احدى وخمسون الف سنة ونيف وكان ابتداء

التدبير فيه لزحل لانه اعلى الكواكب ، ولا يزال الحال كذلك الى وفاء سبعة الاف سنة ونيف ، وبتمام احدى وخمسين الف سنة ونيف يتم دور زحل ثم يبتدئ دور المشتري وسائر الكواكب على ما سبق به القول ، الى ان يقع تمام تدبيرها على وفاء ثلاثمائة الف سنة وستين الفا ، ولا يزال الامر كذلك على هذه الحالة وفاء الكور الاعظم ، وهو ضرب الثلاثمائة الف والستين الالف في مثلها ، وجملة ذلك مائة الف الف وتسعة وعشرون الف الف وستمائة الف الف ، ثم استرخت رباطات الفلك وابتدئ بالخلقة كاولها ، « كما بدأنا اول خلق نعيده ، وعدا علينا انا كنا فاعلين » ، ثم يرجع التدبير الى زحل كالنصبة الاولى ، بعد ان يفسد جميع ما على وجه الارض مثلا يمثل ابدا سرمدا ، ثم يكون اول النشوء جنة ابداعية من الارض ، ككونها في الدور الاول ...١٩ .

ولما ظهر الانسان ابتدأ زحل بتدبير الالف السابع بمشاركة القمر له فيه ، ومرافدته له ، وهو الف السعادة ، ولكونه مقابلا للخلق الآخر ، فظهرت هذه الاشخاص البشرية ، بالقامة الالفية ، في كل جزيرة من الجزائر الاثنتي عشرة ، على اختلاف اجناسها من عرب وفرس وهند وسند وحبش وبربر وخزر وزيالع وصقالبة وترك وزنج وروم وغير ذلك ، وظهر في جزيرة « سرنديب » التي هي خط الاستواء شخوص كثيرة ، من جملتها ، ثمانية وعشرون شخصا ، هم صفوة جميع الخلقة والطفها واشرفها وافضلها وهي غاية الجنس البشري وصفوته وزبدته ، وعلى مثاله جبلت حروف المعجم الثمانية والعشرون ، وهم ممثلوها ، ولحظها (العقل) العاشر المتولي لها ، الموكول اليه امر عالم الطبيعة ، القائم فيه برتبة الوحدة ، المقابل للعقل الاول في عالم الابداع ، اذ هو مطرح شعاعه وهذا (العقل) العاشر هو المتجلي بكل مقام ظهر في عالم الطبيعة ، من ناطق ووحي وامام ...٢٠ .

وعلى هذا فان الملائكة في الفكر الاسماعيلي هم العقول الروحانية ، اما اولو العلم الذين ذكرهم الله تعالى حيث قال في كتابه الكريم « شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولو العلم» فانهم هؤلاء الثمانية والعشرون الشخص الذين كان من جملتهم شخص واحد هو امضاها والطفها وافضلها واشرفها وهو زبدة العالمين جميعا ، اتحد به العقل العاشر ونظر اليه وايده فبلغ الكمال الثاني من بعد كمال مبدعه الاول ودعا السبعة والعشرين الى توحيد الله تعالى وتنزيهه وتجريده فأجابوه مسرعين واختار منهم ستة عشر شخصا اقام افضلهم بابا ، والثاني حجة ، وداعيين احدهما داعي بلاغ والثاني داعي مطلق ، واثنا عشر جعلهم حجج الليل ، وتركهم بحضرته لا يفارقونه وفرق احد عشر شخصا وهم الباقون في جزائر الارض الاحدى عشرة ، والثاني عشر هو الكائن معه في جزيرته التي هو

فيها ، ورتبهم محفوظة في جميع الجزائر الى الآن ، والى آخر الزمان[٢١] .

اجتمعت انوار النطقاء والاسس والائمة كلها لدى قائم القيامة رضي الله عنه ، وهو ذاك الشخص الفاضل المنصوص عليه ، ووفاء مدتهم ان يكملوا مائة الف واربعة وعشرين الف صورة ، واما مدتهم فسبعة الاف ، ولا يزال على وفاء كل سبعة الاف سنة قائم يقوم كمثل هذا القائم المتقدم عليه القول الى وفاء خمسين الف سنة ، وقيام القائم السابع فيكون له من القوة والشرف والفضل ما لم يكن لاحد تقدمه من الستة المتقدم ذكرها لانه يقوم مقام الخلق الآخر الذي هو الروح للجسم ، وهو منتهى دور الكشف ، وعند نقلته وانقضاء دوره ابتداء دور الستر ، ويقوم ولده بعده فيقع في الدعوة ضعف ، ولا يزال الضعف يتمادى الى ان تنطمس الدعوة وتبقى في حالة الستر ، ويكون الائمة في غاية التقية وتكون ايدي الاضداد غالبة عالية الى وفاء ثلاثة الاف سنة وقيام اول نطقاء دور الستر ، وهو آدم عليه السلام ، فيكون الامر بخلاف ما كان عليه في الثلاثة الالاف المتقدمة ، ويستقبل سبعة الاف سنة ... وعلى هذا المنحى والنسق : دور كشف — ودور ستر — ثم دور كشف ، وبه رمز سيدنا (حميد الدين) ب « نون » حيث قال في رسالته المعروفة « بالحاوية » : ومن الرموز على ذلك نون فأور زندك في حالة يتقدح لك بالعلوم ، وتأمل العلامة الدالة على السنة التي هي « الواو » بين النون الاول والآخر وكيف يحصل بعد الستة كالاول ، هذا رمز من الرموز فاعرفه « انه رمز بالواو التي في حساب الجمل ستة الى الستة النطقاء في دور الستر ، الذين اولهم آدم عليه السلام ، واخرهم محمد صلى الله عليه وسلم ، ورمز بالنون الاولى على دور الكشف الذي هو في حساب الجمل خمسون الفا اذ النون في حساب الجمل خمسون ، وبالنون الاخرى على دور الكشف الاولى بعد دور الستر[٢٢] .

ويمثل هذا الايضاح غير الواضح « جدا » لغير اهله يود الفكر الاسماعيلي شرح تاريخ الكون منذ نشأته وتطوره بما يواكب الدعوة الاسماعيلية ، او ، لنقل ، بما يواكب تاريخ نشأة الانسان منذ آدم حتى ابنجاس دعوة الامام . ولعل مما يدنينا الى الوضوح الواضح ان نقف امام نظرية الاسابيع في التاريخ الاسماعيلي .

نظرية الاسابيع

ترى هذه النظرية ان للتاريخ البشري ادوارا واكوارا وفترات . فالفترة تبدأ بناطق ، وللناطق اساس او وحي ، ولها اصحاب يسمون اصحاب الفترة ، والفترة هي بين الناطق والناطق ، وربما امتدت الى اكثر من الف وخمسمائة

عام ، وتشتمل كل فترة على سبعة أئمة والامامة لا تنقطع لانها حجة على الخلق ، وقد ميز الفكر الاسماعيلي ست فترات ، يقابلها ستة ادوار : الدور الاول دور آدم، ويعتبر دور التكوين، والثاني دور نوح، ثم دور ابراهيم، ودور موسى ، ودور عيسى ، وبانتهاء الدور الخامس هذا تنتهي مدة الفترات ، ويطلق على الدور من ادم الى ابراهيم اسم الدور الصغير وعلى ادوار موسى وعيسى الدور الكبير الذي ختمه محمد . وقد اعتبر الاسماعيلية ان موسى واسطة بين السبعة ، ثلاثة بازاء ثلاثة، اولهم ادم وآخرهم القائم، لقول (جعفر الصادق): «تمام امرنا في ثلاثة منا واربعة من غيرنا»، والسابع يظهر بالقوة وبالفعل معا . اما الدور السادس فهو دور القرآن العظيم ، وهو خاتم الدائرات العظمى ، وفي عهد الدور السادس زالت الفترة ، والناطق فيه هو (محمد) صلى الله عليه وسلم . اما الاساس او الوحي فانه علي بن ابي طالب » .

ان الادوار اجزاء من الاكوار . وفي الادوار والاكوار نوعان من الائمة هما لائمة الاستقرار دائمة الاستيداع ، واذا اقتصرنا على الدور السادس وجدنا أئمة الاستقرار فيه هم : علي بن ابي طالب ــ (ويليه امام مستودع هو الحسن بن علي) ــ والحسين ابن علي ــ وعلي زين العابدين ــ ومحمد الباقر ــ (ويليه امام مستودع هو موسى الكاظم) ــ وجعفر الصادق ــ واسماعيل بن جعفر ــ ومحمد بن اسماعيل[٢٣] .

وجد المسلمون ــ ولنقل اهل الظاهر بحسب الاصطلاح الاسماعيلي ــ ان الاسلام بني على اركان خمسة . وذهبت الاسماعيلية او السبعية الى ان عدد هذه الاركان او الدعائم هو سبع . ويروى عن الامام الباقر لعلوم الدين (محمد بن علي الحسين) قوله : ان الاسلام بني على سبع دعائم : الولاية وهي افضلها ، وبها وبالولي ينتهي الى معرفتها . ثم الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد . فالولاية مثلها مثل ادم عليه السلام ، لانه اول من افترض الله تعالى ولايته وامر الملائكة بالسجود له ، والسجود الطاعة ، وهي الولاية ، ولم يكلفهم غير ذلك فسجدوا الا ابليس . اما الطهارة فمثلها مثل نوح وهو اول مبعوث ومرسل لتطهير العباد من المعاصي والذنوب التي اقترفوها . والصلاة مثلها مثل ابراهيم الذي بنى البيت الحرام . والزكاة مثلها مثل موسى ، وهو اول من دعا اليها وارسل بها . والصوم مثله مثل عيسى الذي خاطب بالصوم اول ما خاطب به امه ان تقوله لمن رآته من البشر . والحج مثله مثل (محمد) وهو اول من اقام مناسك الحج وسن سنته وكانت العرب وغيرها من الامم تحج البيت في الجاهلية ولا تقيم شيئا من مناسكه . ولم يبق من دعائم الاسلام بعد الحج الا الجهاد . والجهاد مثله مثل سابع الائمة الذي يكون سابع اسبوعهم الاخير الذي هو صاحب

القيامة ، وهو يعد سابعا للنطقاء ، وهو اخر امام قد يجمع الله تعالى الناس كلهم على امره فلا يدع احدا خالف دين الاسلام ، وحدود الايمان ، الا وقتله .

يقول صاحب « رسالة الاسابيع » ان الله تعالى جعل افتتاحية كل سورة من سور القرآن على سبعة واثنى عشر حرفا ... وقد بني الاذان على سبعة واثني عشر لانك اذا عددت كلمات الاذان فرادى كانت سبعة ، واذا عددتها مثنى كانت اثني عشر ، وان الجبال سبعة ، وصورة الحمد سبع أيات ، والطواف حول البيت سبع ، والسعي بين الصفا والمروة سبعة ، وايام الاسبوع سبعة ، والانسان في نفسه سبع طبقات ..... وكذا الاوصياء سبعة ، والخلفاء سبعة ، والاتماء سبعة[٢٤] ...

ان النبي اوالرسول يعتبر في نظر الاسماعيلية ناطقا لانه يبلغ الكلام المنزل . « ومعنى وقوع اسم الناطقية عليه اضافة الى قوته وغلبته ونصرته الى النطق لا الى شيء من اسباب الجسد وهيأته مثل الشجاعة والجود والعشرة وان قدرته على تسخيره الامة وغلبته الحق انما هو من اجل نطقه وصفوة نفسه اذ ليس من اثار النفس عندنا أطهر من النطق ، فقيل له من اجل ذلك ناطق يعني قاهر امته بالنطق لا بالغلبة الجسدانية .. »

والوصي يقال له الاساس ومعناه اساس المؤمنين لبناء اخرتهم بما يقفون على بيان الوحي . فالامام او الوصي هو الذي يؤول الكلام المنزل ، وهو اساس الائمة واللواحق واساس دور الكشف ويقال للرسول والوحي بكلمة « الاساسان » .

ويقال للامام (المتم) لان بالائمة تتم ادوار النطقاء ، على ان لكل امام متم خطة ونصيبه من دور ناطقه ليبلغ الامر من الاول الى الثاني ومن الثاني الى الثالث ... والى سابعه الذي يرتقي من رتبة الامامية الى القائمية ليكون سابعا[٢٥] . فالمتم اذن هو الامام الذي يتم الدور ، ويكون هو السابع لكل دور .

وقد جمع الداعي (حسن بن نوح) في كتابه المسمى : » كتاب الازهار ، ومجمع الانوار ، الملقوطة من بساتين الاسرار ، مجامع الفواكه الروحانية والثمار » ، جمع اسماء النطقاء واسماء اوصيائهم المنصوبين واسماء الائمة المتممين لادوارهم وجعلها في ستة ادوار يشتمل كل دور منها على ناطق ووحي ومتم، وجعل عدد أئمة كل دور ستة، ووصف تسلسل هذه الادوار على النحو التالي: دور آدم صفي الله ـ ثم دور نوح نجي الله، ثم دور ابراهيم خليل الله ـ ثم دور موسى كليم الله ـ ثم دور عيسى المسيح روح الله، وسادسها دور محمد رسول الله وحبيب الله وهو سيدهم ومجمع فضائلهم وتاجهم وسراجهم وخاتمهم. و (محمد بن عبد الله) ناطق هذا الدور، واما الاساس او الوحي فانه (علي بن ابي

طالب)[٢٦].

قتل (علي بن ابي طالب) ، وهو الاساس او الوحي في الدور المحمدي ، وبدأ بعد مقتله اول اسابيع الائمة في نظر (حسن بن نوح) . وقد طبق هذا الداعي نظرية الاسابيع الاسماعيلية ونضد في ثلاثة جداول « اسماء الائمة في الدور المحمدي والقابهم وكناهم وايام امامتهم وسبب موتهم وتواريخ انتقالهم من الدنيا ومواضع قبورهم . وقد اشتمل الجدول الاول على الاسبوع الاول ، اسبوع الائمة ، وضم الاسماء الشريفة الاتية : الحسن بن علي ـ ثم الحسين بن علي ـ ثم علي بن الحسين ـ ثم محمد بن علي ـ ثم جعفر بن محمد ـ ثم اسماعيل بن جعفر الذي اظهر الغيبة للتقية ـ ثم محمد بن اسماعيل .

ويشتمل الجدول الثاني على الاسبوع الثاني ، وهو اسبوع الخلفاء ، وفيه الاسماء الشريفة الاتية : عبدالله بن محمد ـ ثم احمد بن عبدالله ـ ثم الحسين بن احمد ـ ثم عبدالله بن الحسين ـ ثم محمد بن عبدالله ـ ثم اسماعيل بن محمد ـ ثم معد بن اسماعيل الملقب بالمعز لدين الله والمدفون بالقاهرة المعزية .

ويشتمل الجدول الثالث على الاسبوع الثالث وهو اسبوع الاشهاد ، وفيه الاسماء الشريفة الاتية : نزار الملقب بالعزيز بالله ـ ثم الحسين الملقب بالحاكم بأمر الله ـ ثم علي الملقب بالظاهر لا عزاز دين الله ـ ثم معد الملقب بالمستنصر بالله ثم احمد الملقب بالمستعلي بالله ـ ثم المنصور الملقب بالآمر باحكام الله ـ ثم الطيب وكنيته ابو القاسم ، ولقبه سابع الاشهاد وشفيع يوم المعاد ، وعنده يقف تاريخ الاسماعيلية الطيبية او البهرة ، اي الشعبة المستعلية كما ذكرنا .

ويزعم هذا الداعي المؤرخ ان لفظ التاريخ لفظ محدث في لغة العرب ، وهو معرب عن (ماه) و (روز) ، ومعناه في الفارسية حساب الشهور والايام ، ويقول : » لقد عربوا الكلمة فقالوا مورز ثم جعلوا اسمه التاريخ واستعملوه »[٢٧] . ويرى ان المؤرخين طلبوا وقتا يجعلونه اول تاريخ دولة الاسلام واتفقوا على ان يكون مبدأ هذا التاريخ سنة الهجرة ، وقد رسم (حسن بن نوح) جدولا في صورة دائرة يبين المدد ما بين الهجرة وبين التواريخ القديمة المشهورة وعددها اربع وعشرون تاريخا ، ورسم جدولا أخر في صورة مربع ذي اقسام يقرب ادراك المدة بين اي تاريخين يريدهما القاريء بين الهجرة وبين اشهر التاريخ السابق لها ، وهذه هي : هبوط ادم ـ الطوفان ـ مولد ابراهيم الخليل ـ وفاة موسى ـ ابتداء ملك بخت نصر ـ غلبة الاسكندر على دارا ـ غلبة اغسطس على فلوبطس ـ مولد المسيح ـ قلطيانوس ـ الهجرة .

والى جانب الاسابيع الثلاثة للدور المحمدى ، يعقد (حسن بن نوح) فصلا لتبيان تاريخ اوقات وفاة الحدود والدعاة قدس الله ارواحهم ، وشهور تلك

والسنين ، بدء من (القاضي النعمان بن محمد بن حيون)المتوفي بمصر جمادى الآخر سنة ٣٦٣ حتى سيدنا (شمس الدين علي بن الحسين بن ادريس بن الحسن) الذي انتقل الى العالم الاعلى في الحادي والعشرين من ذي العقدة سنة ٩٢٣ . وينتقل المؤلف ، في مكان آخر ، الى ذكر « تواريخ مجموعة في فنون شتى ومعادن مختلفة ودول الملوك والامراء وما اتفق في اليمن المحروس » من قدوم اصحاب الفيل الى مكة في المحرم عام الفيل حتى «وفاة الحرة السيدة بنت احمد في ذي جبلة في شهر شعبان سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة[٢٨]»، وقد توفي هو نفسه في الحادي عشر من ذي القعدة ٩٣٩ هـ/٤ حزيران ١٥٢٣م .

الفصل الثاني

تمهيد :

ذكرنا في القسم الاول من هذا البحث مجملا وجيزا عن نظرة الفكر الاسماعيلي الى معنى التاريخ وموقعه منه ، واشرنا الى أن التاريخ تاريخان : تاريخ ما حدث ، او الواقع بذاته ، وتاريخ ما يروى ، اي التاريخ كما يخترعه المؤرخ اذ يرمم الماضي كما يراه هو من زاويته . ووعدنا بأن يشتمل هذا القسم من بحثنا على تحليل سريع لنظرة الاسماعيلية الى التاريخ ، مع تقويم « لموضوعية » هذه النظرة ، ونحسب ان من الجدير بنا ان نبدأ بالاشارة الى الزاوية التي يطرح منها الاسماعيليون نظرتهم الى التاريخ .

من الجلي ان التاريخ الواقع هو التاريخ ـ العلم الذي يتوخى الوصول الى الحواث كما حدثت بوجه الدقة الممكنة ، والموضوعية القصوى المتحة . وهذه النظرة الى التاريخ تظل فنا عزيزا يرقى الى درجة العلم ، وله فوائد شتى ، وغاية شريفة ، تجاوز معرفة الحقيقة لذاتها ، حتى تتم بها المحاكاة والاقتدا' . وما زال (ابن خلدون) يتحدث عن « علم التاريخ » ويرى انه ينطوي على « فن التأريخ » وهو فن عزيز المذهب ، جم الفوائد ، شريف الغاية ، اذ هو يوقفنا على احوال الماضين من الامم في اخلاقهم ، والانبيا' في سيرهم ، والملوك في دولهم وسياستهم ، حتى تتم فائدة الاقتدا' في ذلك لمن يرومه في احوال الدين والدنيا »[1] .

فابن خلدون يتوخى الدقة والصدق في معرفة الوقائع ، اي احوال الماضين ، ويرى ان هذه المعرفة ـ العلم تفيد من شا' الاقتدا' بتلك الاحوال الغابرة ، خلقا ، وسيرة ، وسياسة ، في مجال الدين والدنيا . وبذا فان معرفة الحوادث الملازمة لاوقات حدوثها الماضية قد تفيد في توجيه المر' سلوكه الحاضر بما يتصل بشؤن الدنيا والدين ، وان اجتماع الدقة والصدق يمثل ما يسمى بالموضوعية في التاريخ ، وفي سائر ميادين المعرفة لولا ان النقد الحديث ، بل

المعاصر تجاوز هذا المعنى البسيط فقال (هنرى بوانكاره) : ان الموضوعية ليست سوى تقارب عدد من الشهادات الذاتية ، وذهب (بيير هنرى سيمون) الى ان التاريخ كان بالدرجة الاولى معرفة الماضي بحوادثه التاريخية واوضاعه وعاداته الاخلاقية وادبه ، وان شيئا لا يبدو اعظم شأوا من ارجاع زمن الاموات امام نظر الاحياء ان كان المرء شاعرا ، او ارجاعه حيال شعورهم التفكيري ان كان المرء فيلسوفا . وقد كان (ميشله) يتحدث عن داء التاريخ ، الداء الخاص بالمؤرخ ، فيقول : « كنت احب الموت ، وقد سلخت تسع سنوات على باب مقبرة (لاشيز) حيث كان موطن نزهتي الوحيد : انني لا اعاشر سوى مجتمع الماضي ، ولا اصادق سوى الشعوب الملحدة في القبور ... » . كان التاريخ في نظر انسان القرن التاسع عشر صورة مختلطة كبرى ، كثيرة العناصر ، مسرحية مؤثرة ، ترتفع في المكتبات والمتاحف وعلى المقابر والاطلال ، سجادة رائعة لا يستطيع كل جيل من الاجيال اكتشافها ونشرها وفك رموزها الا بالنظر الى الوراء والالتفات نحو الموت .

ذاكم كان معنى التاريخ ـ العلم ، التاريخ المعرفة بالحقيقة للحقيقة . وقد تبدل معنى كلمة تاريخ منذ عشرين او ثلاثين سنة وصار من النادر ان نلقى كلمة اكثر تكرارا على اقلام الفلاسفة وعلماء الاخلاق والروائيين انفسهم . وهي كلمة ترد دائما مثقلة بالحياة وباريج الحاضر وحتى بالمستقبل . وقد غدا التاريخ ضمير القرن العشرين ، وصار هذا اللفظ دالا على الصيرورة الانسانية بأوسع مدى ، لم يبق فضول عالم ، بل اضحى حركة حياة ، بل سؤالا يطرح على المصير[٢] .

التاريخ الموجه او العقائدي

هذا المعنى الجديد للتاريخ ينقل المعرفة التاريخية من مجال العلم بالمعنى الضيق ، الموضوعي ، الى مجال الحياة ، وللحياة على الدوام ثقافة هي المعرفة التي تصل معطيات الطبيعة بالاهداف القيمة المنشودة التي يتمثلها الذهن ، ويؤمن بها القلب ، ويتصدى لتحقيقها جهد الضمير .

فالفيلسوف المعاصر (ريمون رويه) يعترف بأن « ثقافة المثقفين تقوم على اساس التاريخ» وان التاريخ « جوهر كل ثقافة ، كما هو جوهر كل حكمة اجتماعية » ويؤكد ان من الممكن وجود « علماء شباب » ، ولكن « لا يوجد مؤرخ حقيقي شاب . فاذا لم يتوافر الوقت والفراغ للدراسة والتمثل البطيء للمعرفة التاريخية التي تتناول الماضي القومي وماضي المؤسسات لا يكون المرء مثقفا ... وان الذاكرات الالكترونية لا تستطيع ان تحل محل المشاركة الداخلية في

التاريخ[٣] . وعلى هذا يمكننا القول بالانتقال من التاريخ ـ العلم الى التاريخ ـ الثقافة فالتاريخ ـ المشاركة .

ان ما ندعوه اليوم ثقافة ومشاركة يقابل في المصطلح العربي الاسلامي السابق ما يسمى العلم والمعرفة . فالعلم المكنون في الصدور يمثل المشاركة الداخلية في الثقافة السائدة ، اذا كان هذا العلم نظرة « موجهة » ، كنظرة الاسماعيلية الى التاريخ العربي الاسلامي ، واعتبارها هذا التاريخ جزءا من تاريخ العالم او البشرية ، وهذا التاريخ الاخير لا يخرج عن تاريخ الكون والخليقة .

وبقول ادق ، ان النظرة الاسماعيلية تجاوز هذا الارتباط « الطبيعي » بين الجزء والكل ، وتقلب الامور رأسا على عقب ، وترى ان الجزء ، الذي هو التاريخ الاسماعيلي، اصل للكل . وهو تاريخ الوجود منذ نشأة الخليقة وابتدائها. وهي لا تكتفي بالبدء دون المعاد ، اذ ترى ان الآخرة ، مصير الناجين رهن بالحياة الدنيا .

مثال ذلك ما نقرأه لدى الداعي (حسن بن نوح) اذ بدأ « بذكر شيء من التواريخ القديمة تواريخ الانبياء والملوك الماضية الى هجرة نبينا محمد (ص واله) ليستشف قارئ كتابه نسيم جميع اجناس الازهار ، ولا يتكلف لحمل الاخشاب والعيدان من الاشجار ، اعني بها الكتب المطولة في السير والاخبار» . ولما غاص في بحور كتب التاريخ والسير المطولة وجد فيها « كثير الاختلاف وبعض الائتلاف » ولذا « رجع الى الالتقاط من كتب اولياء الله الفائقة ، والاجتناء من ازهار التواريخ المونقة الرائعة ». يقول : « فلم اجد فيها اختلافا ولا تناقضا ، وثبت وتبين لي مصداق قول الله تعالى : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » .

وعلى هذا النحو نلقى معيار الصواب في المراجع التاريخية ماثلا في حقيقة قائليها ، بدل الرجوع « الانتقادي » الى معطيات الحوادث والمؤسسات وفحصها اجتلاء لحقيقتها الصحيحة الموضوعية . فالمؤرخ الاسماعيلي يلفظ كثير الاختلاف في كتب التاريخ الذائعة العادية ـ غير الاسماعيلية ـ ويرجع الى كتب اولياء الله الفائقة ، وفيها زهار التواريخ المونقة الرائقة ، ونقطة الاستناد الرئيسية ، بل الوحيدة ، في صحة ما جاء في الكتب الاسماعيلية المصطفاة انها صادرة عن الله ذاته ، ولو كانت من عند غير الله لوجد الناس فيها اختلافا كثيرا .

الامام مصدر المعرفة التاريخية

ان صحة المضمون التاريخي تقاس اذن بصحة الكتب التاريخية المستمدة من الائمة ، اولياء الله ، ومن سلامة المنطق بعد هذه المقدمات ان يعتمد المؤرخ التاريخي كتب اولياء الله وحدها معيارا للصدق في التاريخ ، ومنهلا للمعرفة « النقية » من شوائب التناقض والاختلاف . يقول الداعي (حسن بن نوح): « فاخترت من الكتب المذكورة (اي من المراجع التاريخية المعروفة لدى عامة الناس) ما كان موافقا لكلام اهل الحق ، وتركت المختلف فيه مما جل ودق » . ثم يقول : « ومن اراد الزيادة والوقوف على اسرار اولياء الله واسماء الائمة ... فليرجع في علم ذلك الى منبع النور ، والجبل الطور ، والبيت المعمور ، ومقام الظهور ، وحجة مولانا صاحب عصرنا وامام زماننا المستور ، داعي الجزيرة اليمنية ، وامين الدولة الفاطمية ... فاستعذب الماء من شرب من رأس العين ، ونجا من التابعين المستجيبين امثالنا من نسب الفضل والعلم والشرف لأهله ، وأقر لنفسه بالتقصير ، وترك العجب والمين »[٤] .

وعلى هذا ينجو المؤرخ بالشرب من ماء رأس العين ، ويتوسط لذلك بحجة مولانا صاحب العصر وامام الزمان ... المستور .

الطريق واضحة ، والدرب جلي في طلب الحقيقة التاريخية ، بل حقيقة الفضل والعلم والشرف جميعا من اهل الفضل والشرف والعلم . وهذه المعرفة الشاملة ، تاريخية وغير تاريخية ، اتراها ثقافة مجردة جوهرها التاريخ ، ام انها وسيلة خلاص ، ومعيار سلوك ونجاة ؟

يقول (ريمون رويه) في حديثه عن امتزاج السياسة بالدين عبر التاريخ : » لا يزال القادة الدينيون العظام وحدهم اكثر اهمية من الساسة الكبار ، وذلك لانهم مقدسون ، أو تقريبا . ولذا ينزع كبار الساسة الى اللحاق بركبهم باضافة السلطة العقائدية الى السلطة السياسية . ان (ماو) هو بأن واحد (كونفوشيوس) و(محمد) و(امبراطور الصين) . وان (الاسكندر) و(نابليون) و(هتلر) و(لينين) و(ستالين) كانوا انصاف الهة . وان « عبادة الشخصية » اقرب جدا الى جوهر السياسة من الديموقراطية . وانما تكتفي الروح الديموقراطية بتخفيف حدة « عبادة الشخصية » . وهذه العبادة على الدوام حاضرة وكامنة . وقد تجلى ذلك في جنازة (ناصر) و (ديغول) في الآونة الاخيرة ، على الرغم من المفاجأة العميقة التي اصيب بها (المفكرون)[٥] .

فهلا يؤيد التاريخ الاسماعيلي ونظرة الاسماعيلية الى رجال التاريخ ان تكون عبادة الشخصية حاضرة وكامنة على الدوام ، وانها اقرب جدا الى جوهر السياسة من الديموقراطية ، وان الروح الديموقراطية تكتفي بتخفيف حدة هذه العبادة ؟

ان امتزاج السياسة بالعقائدية الدينية جعل الشيعة عامة ، والاسماعيلية خاصة ، تنبذ مبدأ الانتخاب اماما في اثر امام . فهل يصح القول بعبادة الشخصية التاريخية في الفكر الاسماعيلي ؟

تقديس الائمة

ان الامام ، في نظر اتباعه ، هو « الانسان الكامل التام ، الحاد للحدود ، الظاهر للوجود ، المتعالي عن الكيف ، البعيد عن الأعين والزمان والمكان . فهو اول الفكر وأخر العمل ، اتصلت بنفسه المقدسة الكلمة الالهية فاصبح الصورة الشرعية في عالم الدين ، فهو المقدم على عالم الخلق كله ، والمقدم على عالم الدين لانه اصله ومبدأه واساسه ، ولا يكمل الوجود الا بوجوده »[٦] .

ان مراتب الوحدة ثلاثة اقسام : وحدة شكلية هي الامام من حيث الشخص الكامل في العالم الجثماني ، ووحدة معنوية هي العقل الكلي في العالم الروحاني المجرد عن العالم الجسماني ، ووحدة معنوية حقيقية هي الذات المطلق المنزه عن سائر الموجودات وعن الاسماء والصفات . والامام هو اداة البارى من حيث الوحدة الحقيقية اذ كان مجردا عن الجسم ، فاذا ظهر الامام بصورة الجسم كان اسما من اسماء الله واذا اتحدت صفاته العليا كان الله في الحقيقة ، وكذلك الانسان فان النفس المؤمنة العلامة بالقوة ، الحية بالذات ، اذا اتحدت كانت هي والامام شيئا واحدا ، واذا كان الانسان بصورة الجسم كان شيئا أخر غيره ، لان المادة المتصلة بالانسان من الامام هي عين المادة المتصلة من الله تعالى ، وعلم الله هو اداة الله ، وعلم الامام هو اداة الامام[٧].

فالفكر الاسماعيلي اذن ينظر الى الامام نظرة اجلال تسمو به الى اعلى مراتب الشرف ، والعلم والفضل ، بل ان هذا الاجلال تقديس يرقى الى ما يجاوز « عبادة الشخصية التاريخية » ، بمفهوم عصرنا ، ومما جاء في « خطبة البيان » الشهيرة ، ان صح ما في هذه الخطبة كله ، القول المنسوب الى (علي بن أبي طالب) : « انا الاول والآخر ، انا الباطن والظاهر ، انا البرق اللموع ، انا السقف المرفوع ، انا ولي الاولياء ، انا ورثة الانبياء ، انا حجة الحجج ... انا الفرقان ، انا البرهان ، انا امام المتقين ، انا وارث المختار ، انا مبيد الكفرة ،

انا نور الائمة البررة ... انا الله ، انا وجه الله ، انا أسد الله ، انا سيد العرب ، انا كاشف الكرب ، انا الذي قيل في حقه : لا فتى الا (علي) .... »[8]

ورب من يعتقد ان هذا التقديس الاقصى غلو عاطفي ناشئ عن محبة الاتباع للامام ، ومن شأن كل عاطفة محبة ان تمضي الى الاطراف القصية ، ومع اعترافنا بالمحبة والعاطفة وبتأثيرهما ، فان العقل هو الذي يمنح من الفكر ما يبرر مضيها الى رتبة التقديس وما فوق التقديس . وقد فلسف الاسماعيلية عاطفتهم حيال الائمة وجعلوا وحدة الائمة وحدة الامام ، وسموا من الوحدة الشكلية التي هي الامام من حيث الشخص الجثماني ، الى الامام باعتباره اداة البارى من حيث الوحدة الحقيقية ، فلا عجب ان يتصف الامام بالقداسة وبالعصمة وان يكون هو الشفيع يوم الحساب والمعاد .

معضلة العصمة والفهم التاريخي

لقد قيل في تعريف العصمة انها خاصة في نفس الشخص او في بدنه يمتنع بسببها صدور الذنب عنه . واتفق الباحثون بوجه الاجمال على وجوب عصمة الانبياء عن تعمد الكذب فيما دل المعجزة على صدقهم فيه كدعوى الرسالة وما يبلغونه من الله الى الخلق وفي جواز صدور الكذب منهم فيما ذكر سهوا ونسيانا خلاف بين العلماء ...

ولكن عصمة الائمة في نظر الفكر الشيعي الامامي عامة ، وفي نظر الفكر الاسماعيلي خاصة عصمة مطلقة ، وهذا ما يطرح في ذهن غير الاسماعيليين بوجه خاص التساؤل عن فائدة التاريخ في تنوير الاحكام باذكاء الروح الانتقادية ، وبالتحرر من السلطة والفكر الخرافي والاسطوري ، والانطلاق من نسبية الحكم على الاقوال والافعال .

ان مشكلة العصمة تطرح معضلة اتساقها مع الفكر العقلي ، والفهم التاريخي . فعلى الاتباع الايمان بعصمة الامام ولو بدا من ظاهر عمله ما لا يفهمه العقل على انه قول سليم ، وسلوك شرعي . ويبقى من واجب الاتباع اللجوء الى السكوت عما لا يفهمه عقلهم فهما عقليا ، او اللجوء الى السكوت والطاعة بعد تأويل ما يبدو ـ خطأ ـ انه في الظاهر قول غير سليم ، وفعل غير مشروع .

التقية واضمحلال المعنى التاريخي

ومن اقوى المبررات الشيعية الامامية والاسماعيلية القول بالتقية سببا لما

قد يستغلق على العقل فهمه فهما مباشرا من اقوال الائمة واعمالهم . ومما قيل في هذا المبدأ « تسعة اعشار الدين في التقية ، ولا دين لمن لا تقية له ، والتقية في كل شيء الا في النبيذ والمسح على الخفين » . وقد افاد هذا المبدأ الفائدة كلها في تفسير اعمال كثير من الائمة ، كالقول بأن سكوت (علي) على (ابي بكر) و(عمر) و (عثمان) كان تقية ، ومصالحة (الحسن) (لمعاوية) كان تقية ، وان التفاوت بين ظاهر اهل الظاهر وباطن اهل الباطن ، وكتمان الثاني عن أتباع الاول ، كل ذلك تقية ومداورة تفرضهما الظروف التاريخية « غير المؤاتية » .

« ان الدنيا عند اولياء الله اهون من الذر ومقداره ، ومن الهباء المنبث وغباره ، ولهم فيها نظر وتدبير فيما يأتون ويدبرونه في كل دهر وزمان بما يرون بانهم يصلحون ، فالحذر عباد الله الحذر من انكار ما ترونه وتشاهدونه من امرهم وفعلهم واغضائهم وانكارهم وتصرف الاحوال بهم وعن امرهم بالسنتكم او بقلوبكم او بخواطر انفسكم »[٩]

وثمة تفسير طريف « علمي » لا يعتمد التأويل بالتقية وهو يوضح ، بلغة الرياضيات سبب قبول الناس ، ان لم نقل الاتباع ، فهم الحوادث على غير وجهها « العقلي » البسيط . يقول الفيلسوف (ريمون روييه) في كلامه عن تأثير المبعدة التاريخية او الاجتماعية على تقدير قيمة الافعال الانسانية ، (وتقديس الائمة ينم عن المبعدة الاجتماعية بالنسبة لمعاصري الامام ، ولا سيما في دور الستر ، وعن المبعدة التاريخية كلما كرت الايام) يقول : » ان هذه المبعدة تحدث لا مبالاة حيال المعنى هي اشبه بالكمية الموجهة في الرياضيات حين ترفع الى القوة الثانية : ان اتجاهها يبدو حياديا ... لقد اعتبر (نابليون) اسطورة ، واعتبر اخفاقه ورجوعه من الحملة المصرية فتحا مجيدا ، وان اي مجال يغطي المجالات الاخرى يصبح لا مباليا بالمعنى الخاص بتلك المجالات التي تعطيها ويسخرها . السياسي الرامي الى الانتظام الاجتماعي يرضى بأي دين . ولقد لبس (بونابرت) مسوح المسلم في القاهرة ، ومن الجائز قبول اية سياسة لاي نظام ، قبول اي « سيف » يسلط فوق رؤوس المحافظين الهلعين »[١٠] .

سلاح الشفاعة والخلاص

اجل ، ان الدين الطاعة ، وفي اديان الخلاص سلاح ماض يؤيد واجب المؤمن بالطاعة ، مع امل مواكب بتجاوز العقاب على الاخطاء والمعاصي . وقد ميز الباحثون انواعا للشفاعة اولها الاراحة من هول الموقف وطول الوقوف وهي شفاعة عامة تكون في المحشر حين تفزع الخلائق الى النبي ، والثاني : ادخال قوم

في الجنة بغير حساب ، والثالث شفاعة لقوم استوجبوا النار ، والرابع التشفع لمن ادخل النار من المذنبين والخامس شفاعة لزيادة درجات اهل الجنة في الجنة .

وقد افاد الفكر الاسماعيلي من الشفاعة وربطها بالامام ، ولا سيما الامام السابع سابع الاشهاد وشفيع يوم المعاد . وتم له بذلك الجمع بين اماني السياسة في ارجاع الحق الى اهله ، وعودة الامامة والخلافة الى اصحابها الائمة الشرعيين ، وبين اماني الفوز بالسعادة في الدارين ، ولا سيما في دار الخلود ، وهذا كله يجعل مفهوم التاريخ في الفكر الاسماعيلي يرادف معنى الوجود بدءا، والوجود مصيرا ، اي الوجود على النحو الاسماعيلي سرمدا .

خاتمة

اذا صح ان توسط المنطق العقائدي (الايديولوجي) بين الفكر والوقائع ينجب منظومات ذهنية معقدة تشتمل على عناصر شتى بعضها ، (ان لم نقل انجعها) هو اقرب الى غير الوقائع ، اقرب الى نتاج العقل والاعراب عن الاماني ، فان العقائدية الاسماعيلية التي تتوسط ، بمنطقها التأويلي ، بين وقائع التاريخ الاسلامي ، والتاريخ الاسماعيلي جزؤه ، وبين الفكر الانتقادي الموضوعي ، ان هذه العقائدية الاسماعيلية تنجب مذهبا معقدا لو عمدنا الى مقارنته بالمفاهيم الحديثة لالفيناه ينوس بين جدلية حتمية مثالية ، وجدلية حتمية سياسية ، قد تغمر اعتبارات اجتماعية واقتصادية ، وبين طوبائية مثالية او (اوكرونية) تاريخية .

ان المذاهب التي تنطلق من العقائديات الجدلية ، مثالية او مادية ، هجلية او ماركسية ، تقر مبدأ الحتمية وترسم للصيرورة التاريخية مستقبلا محددا سلفا على نحو يعكس او يتمم نقائص الصيرورة السابقة في الماضي والحاضر . وقد اطلق (توماس مور) سنة ١٥١٦ كلمة (طوبائية)[١١] على بلد خيالي وصف شعبه بالحكمة والسعادة والاستمتاع بمؤسسات وأوضاع اجتماعية مثلى . وسبقه الى ذلك في الثقافة الاسلامية (الفارابي) وغيره من صانعي المدن المثالية . ونحت الفيلسوف الفرنسي (شارل ونوفيه) ، قبل ما يناهز المائة عام (١٨٧٦) لفظ (اوكرونية)[١٢] او الطوبائية في التاريخ ، وتصور نمو الحضارة الاوربية على نحو يغاير ما حدث في الواقع ، وذهب الباحثون الى ان كلمة (اوكرونية) تنفي الحتمية وتضمر حرية التاريخ في وقوع حوادث على نحو يغاير ما وقع بالفعل .

وقد رأينا الفكر الاسماعيلي ينظر نظرة تنهيج جدلية سبعية الى تاريخ الاسماعيلية ، بل الى تاريخ العرب والمسلمين ، ثم الى تاريخ البشر والكون ، لربط

ذلك كله بالاستجابة لتعطش احدثه غياب محمد (ص) بعد وفاته ، وما زال هذا التعطش مفتاح فهم الوقائع التاريخية جميعا ، لارتباطه بفكرة الامانة ، اي الرئاسة السياسية ، وبتعاقب الائمة في دور الستر والظهور على قدر سواء . يقول مؤلف « اعلام الاسماعيلية » : » لعل الحادث التاريخي المهم الذي بلغت به الفكرة الاسماعيلية حد الوضوح الكامل من حيث الشكل والمبنى يعود الى بعث النبي الهادي (محمد) رسولا الى العالمين ... وقد احدث غيابه – بعد وفاته – فراغا جعل المسلمين يتطلعون بشغف الى شخص له من القدرة العلمية والتبصر الحكيم ما يستطيع ان يسد فراغ تعطشهم ، ... (وكان هذا الشخص) هو (علي بن ابي طالب) ...[١٣] » ان الاسماعيلية (النزارية) او (الاغاخانية) ما تزال تمضي في درب ارواء هذا التعطش ماثلا في شخص الامام (كريم اغاخان) الرابع المتوج في ١١/٧/١٩٥٧ وما تزال الاسماعيلية (المتعلية) او (البهرة) او (الطيبية) تمضي في الدرب ذاته وتقول بامامة الامام المستور (ابي القاسم الطيب بن منصور) ...

ان المؤلفات الاسماعيلية تدل على ان الاسماعيليين ينظرون الى دعوتهم نظرة « تعطي الدليل على انها قديمة وقد رافقت الكون منذ نشأته الاولى وكيف طرد آدم من الجنة لكونه افشى اسرار الدعوة الاسماعيلية »[١٤] ويوضح الداعي الاسماعيلي (الخدواند عزيز شاه) هذا الالماع بقوله : ان (آدم) الاول صورة الرحمن ، وان (الحارث بن مرة) هو (ابليس) الذي كان حجة من حجج الامام مطلعا على الحقائق والبيان، فحسد (آدم) ، ولما علم ذلك الامام طردهما من دعوته ، وسد عنهما باب رحمته ، حتى اعلن (آدم) توبته وصفاء نيته واخلاص حقيقته فتاب عليه وقربه واستتر الامام وقام (آدم) بالشريعة ، ... »[١٥] .

ومرة اخرى نجد زلة (آدم) منطلق التاريخ . وما افشاء سر الدعوة الاسماعيلية حيث لا يجب الا افساد خطة خطير يفسره بكل قوة نجوع الاهتمام السياسي في العقائدية الاسماعيلية ، هذا النجوع الماثل في قول الامام الصادق (جعفر بن محمد) : » اشرك من ترأس علينا . ان الرئاسة لا تكون الا لنا »[١٦] .

اما ان تكون السياسة « المتطورة والتقدمية » عنصرا ناجعا في تطور العقائدية الاسماعيلية ، فيتجلى من قراءة الاسطر الآتية .

ان الاسماعيلية قصيدة فلسفية ، ولكنها تتطور مع الزمن وتتكيف معه . «فهي تدعو الى مبادئ اشتراكية ترمي الى احداث ثورات شعبية وعمالية وزراعية وصناعية ضد الحكام والملاكين الكبار والاقطاعيين والاثرياء »[١٧] . وانها ، يقول اخر ، انطلاق الفكر الوثاب في هذا العالم اللامتناهي ، او وثوب الروح نحو مثلها

الاعلى !

وبعد ، هل نستطيع الاقتصار على وصف النظرة الاسماعيلية الى التاريخ بأنها عقائدية جدلية مثالية او حركة سياسية اشتراكية ، او طوبائية او اكرونية ، أم هي هذا كله ، او شيء آخر غير هذا كله ؟ الا ان التأويل المفتوح في فهم التاريخ يجاوز كل تأويل .

حواشي الفصل الأول

(١) اتيين جلسون . مدرسة الالهات . ترجمة د . عادل العواد دمشق ١٩٦٥ ص . ٥
(٢) مصطفى غالب : تاريخ الدعوة الاسماعيلية منذ اقدم العصور حتى عصرنا الحاضر . (دمشق ١٩٥٣) مع الرسالة التي بعث بها الامام آغا خان الثالث الى المؤلف بتاريخ ١٩٥٣/٥/٣ .
(٣) التهانوى : كشاف اصطلاحات الفنون ، مادة (سبعية) .
(٤) ترى النزارية ان عدد الائمة من (علي بن ابي طالب) الى كريم اغاخان) الذي توج اماما في ١١ تموز ١٩٥٧ يبلغ (خمسين) .
(٥) يطلق مصطفى غالب لفظ (داهود) و (داهودية) على داود وداوودية (اعلام الاسماعيلية الجدول الثالث الملحق بالكتاب) .
(٦) كتاب سمط الحقائق ــ الداعي الدعاة علي بن حنظلة الدواعي ــ دمشق ١٩٥٣ مقدمة بقلم عباس العزاوى ص ١٨ .
(٧) المصدر المذكور ص ٨٢ .
(٨) الحقائق الخفية عن الشيعة الفاطمية والاثني عشرية ــ اعداد وتقديم محمد حسن الاعظمي ــ القاهرة ١٩٧٠ ص ١٢١ .
(٩) الداعي يعقوب السجستاني : كتاب الينابيع ــ المقدمة بقلم مصطفى غالب ص ٢٤ .
(١٠) نشر في القاهرة بتحقيق أصف بن علي اصغر فيضي ــ جزءان ١٩٥١ ــ ١٩٦١ .
(١١) منتخبات اسماعيلية تنشر لاول مرة ــ تحقيق د . عادل العواد . دمشق ١٩٥٨ ص ٦ ــ ٧ .وقد نشر كتاب تأويل دعائم الاسلام في ثلاثة اجزاء بتحقيق محمد حسن الاعظمي – القاهرة ١٩٦٩ ــ ١٩٧٢ .
(١٢) منتخبات إسماعيلية ــ ص ٧ .
(١٣) مصطفى غالب : تاريخ الدعوة الاسماعيلية ــ ص ٢١ ــ ٢٣ .
(١٤) مصطفى غالب : اعلام الاسماعيلية ــ بيروت ١٩٦٤ ص ٢٩ ــ ٣٠ .
(١٥) مصطفى غالب : تاريخ الدعوة الاسماعيلية ــ المقدمة ص ٢٨ .
(١٦) الداعي طاهر بن ابراهيم الحارثي : الانوار اللطيفة ... ص ١٤٤ .
(١٧) المصدر السابق ص٨٣ .

(١٨) المصدر السابق ص ٩٢ .
(١٩) المصدر السابق ص ١٠١ .
(٢٠) المصدر السابق ص ١٠١ .
(٢١) المصدر السابق ص ١٠٢ .
(٢٢) المصدر السابق ص ١١٠ .
(٢٣) مصطفى غالب : الاعلام الاسماعيلية ـ الجدول رقم (١) .
(٢٤) الداعي قيس بن منصور : انظر خمس رسائل اسماعيلية تحقيق عارف تامرجي ١٥٨ .
(٢٥) الداعي ابو يعقوب السجستاني (السجزى) : رسالة تحفة المستجيبين ـ انظر خمس رسائل اسماعيلية . ص ١٥٣ .
(٢٦) منتخبات اسماعيلية ـ ص ٢٠١ .
(٢٧) مخطوطة كتاب الازهار ـ (ورقة ٥١ و) .

حواشي الفصل الثاني

(١) مقدمة (المقدمة) : طبعة المكتبة التجارية ص ٩ .
(٢) بيير ــ هنرى سيمون : الفكر والتاريخ ــ ترجمة د . عادل العواد دمشق ١٩٦٢ ص ٩ .
(٣) ريمون رويه : الاضرار العقائدية ــ باريز ١٩٧٢ ص ٢٨٠ .
(٤) منتخبات اسماعيلية ، ص ٢٤٥ .
(٥) المصدر السابق ص ١٧١ .
(٦) مصطفى غالب : تاريخ الدعوة الاسماعيلية ــ ص ١٣ .
(٧) المصدر السابق ص ١٤ .
(٨) المصدر السابق ص ٤٤ وما بعد .
(٩) القاضي النعمان بن محمد : كتاب الهمة في اداب اتباع الائمة ــ تحقيق د . محمد كامل حسين ص ١٢٩ .
(١٠) الاضرار العقائدية القسم الاول ــ الفصل الاول .
(١١) UTOPIE
(١٢) UCHRONIE
(١٣) ص ١٥ .
(١٤) مصطفى غالب : تاريخ الدعوة الاسماعيلية ص ٢٧ .
(١٥) المصدر السابق .
(١٦) كتاب الهمة في اداب اتباع الائمة للقاضي النعمان بن محمد ــ ص ١٣٠ .
(١٧) مصطفى غالب : مقدمة كتاب الينابيع للداعي يعقوب السجستاني ص ٢٦ ــ ٢٧ .

دفاع عن كرامة الحمدانيين

الدكتور جعفر شهيدى
كلية الآداب ـ جامعة طهران

هذه نبذة من مذكرات اعددتها حينما كنت اقرأ مجلدين فخمين اعدهما من حسنات المستشرقين ، وهما الجزء الاول ـ والثاني من تاريخ الاســلام ، اخرجهما معهد الدراسات الاسلامية في كمبردج . تعاون في تأليفها لفيف من كبار مؤرخي الغرب والشرق ، ومذكراتي هذه تتعلق بجزء من فصل عقده المؤرخ الكبير الاستاذ برنارد لويس ، لدراسة تاريخ مصر وسوريا ، حيث تناول المؤلف فيه اسرة الحمدانيين الذين حكموا بعض نواحي سوريا الشمالية اثناء القرن الرابع من الهجرة النبوية .

والحقيقة انني ما كنت لارتاد مثل هذا البحث لولا مالسيف الدولة ، والدولة الحمدانية من عبق فكرى نشره المؤرخون والادباء في آفاق افكارنا وانفسنا خشيتى من ان يهتز هذا الاثر في نفوس غيرى نتيجة لما قرأته في هذا الفصل خاصة ، حيث جرت العادة على الاعتماد على كل ما يكتبه الاساتذة المستشرقون حول تاريخنا واعتباره ، مصدرا وثيقا ـ للباحثين ، فاغتنمت الفرصة ودرست هذه المذكرات واعددت هذا الموضوع لهذا المؤتمر العلمي ، وليس القصد منه ان اضيف فضلا الى اساتذة كرام وانما القصد الماعة الى سهو حدث في زاوية ويجب تصحيحه او انكر جهود الاستاذ المؤرخ الجبارة في اخراج هذا السفر الممتع .
ولنرجع الآن الى تاريخ الاسلام والى ما كتبه الاستاذ لويس في ص ١٩٣ ـ ١٩٤ من الجزء الاول فيما يتعلق بالحمداني . ومن المعلوم ان حياة هذه الاسرة ودورها العظيم في ميادين الحكم والثقافة ثابت لا شك فيه . فالمصادر القديمة مشحونة بذلك والى جانبها ما عقده الباحثون حديثا من الجهود المشكورة حول الحمدانيين

عامة او حول واسطة قلادتهم سيف الدولة خاصة . وفيها غنى عن اعادة البحث بهذه الصورة العامة لولا صدور هذا الكتاب وفيه ما فيه حيث يقول الاستاذ لويس ما ترجمته :

" ان اول اسرة او اهم اسرة طلع في ناحية من سوريا لم تكن تحكم عليها حكومة ، كانت اسرة الحمدانيين اسرة بدوية تعتبر نموذجا من نشاط القبائل البدوية او نصف البدوية التي تتشكل في مكان يسمح لهم فيه بهذا الاجتراء ضعف القدرة السائدة هناك " .

الى أن يقول : " انتزع سيف الدولة الحكم على حلب وحمص في سنة ٣٣٣ من الاخشيديين واسس حكومة جديدة في شمالي سوريا شق دويها اجواء الفضاء حتى توفي عام ٣٥٦ . اشتهر سيف الدولة في الأدب العربي واقاصيصه كملك ، وظهير للشعراء والمتأدبين . اما شهرته من النوع الثاني فصحيحة ، الا انها مرهونة بسعي هؤلاء اكثر من سعيه هو ، حيث أنهم بوأوه محل الوالي في الحكم والغازى في ميادين الجهاد والحقيقة ان دور الحمدانيين يمثل صورة لغصب اموال الناس وسلبها ظلما مقرونة بعدم الكافية في الحكم واضعاف المملكة واستثمارها عن طريق ابتزاز الاموال الكثيرة واتلافها في استعراضات الجيش والمقامرات دون جدوى في النهاية .

ولقد انهزم سيف الدولة مرارا وتكرارا على يد الاخشيديين وأوقفوه حيث ارتأوا مصلحتهم في وقوفه . انهزم لما توجه الى الشرق من " تـوزون " و" بجكم " وانهزم رغم ما جهز من جيش معلنا الجهاد على البيزانطيين ، وكان اعظم ما حققه من انتصارات حين استطاع حكم القبائل المتمردة لما عجزت الحكومتان الاسلاميتان الغربية والشرقية عن اخضاعها . وفي هذا ايضا استهلك قدرا من البطولة البدوية بلا فائدة وعادت غزواته في الثغور على المسلمين بخسائر جسيمة اذا ما قيست بفائدتها الضئيلة للغاية " . هذا ملخص ما كتبه الأستاذ بل كل ما كان في كنانته من سهام ورشق بها سيف الدولة والحمدانيين ـ انني لا اريد ان ادفع للحمدانيين عامة ولسيف الدولة خاصة اكثر مما لهم ، او ارفعهم الى درجة النوادر في تاريخ البطولة الاسلامية ، ولكن في نفس الوقت يجب علي كفريضة ان أعطيهم حقهم ومقامهم الحقيقي في التاريخ " فالحق احق ان يتبع " وما موقفي تعصب لهم وانما هو تعصب للحقيقة العلمية المحضة وذود بالحق عن حياض الامة الاسلامية ولذا سأقصر حديثي على بعض الهنات التي لم استسغها في ما ذكره الأستاذ المؤرخ . ان اول شيء يجلب نظر القارئ قوله " ان الحمدانيين كانوا اسرة بدوية تنتهز الفرصة للاستيلاء على البلاد حيثما ضعفت قوة الحكومة .

هذه الصورة الفوضوية ناشئة عن تصور الفكر الساذج لمعنى البدوى والحياة البدوية تصورها حياة غارة وسلب ونهب ، ولو كانت كذلك لما كانت هناك حكومة تجاورها حكومات ولما استقر امن في البلاد . فهي صورة مردودة اولا — وليكن معلوما ثانيا ان موقف سيف الدولة واخيه لم يكن كموقف بدوى يتغلب على الحكم عن طريق القتل والنهب وقطع الطرق — كما نرى من بعض المناهضين في الدولة الاموية والعباسية ، حيث ثاروا على الحكام واستولوا على الحكم حينما كانت الظروف تساعدهم بذلك . فانهما وصلا الى الحكم بصورة طبيعية كما سنشير الى ذلك . فالشيء — الذى ربما يغفل عنه بالنسبة لتاريخ الحكم في الاسلام هو ان طبيعة توليه الحاكم وعزله تختلف في الشرق الاسلامي عما كانت عليه فيه قبل الاسلام وتختلف ايضا كل الاختلاف عن طبيعة الحكم في الغرب . فالامة الاسلامية منذ عهد الراشدين ، حتى العصر العباسي كانت ترى الخليفة المصدر الاول لكل الحركات من تعيين وعزل وان الحاكم يجب ان يكون معينا من قبله او اقره هو في الحكم ، والا اعتبره المسلمون مغتصبا ولم يدينوا له بطاعة . فهم يدينون للحاكم كممثل للخليفة وبعبارة اخرى يدينون للخليفة في شخص الحاكم . وكان ارتباط الخليفة للحاكم يقوم على عهد بينهما والذى حدث بالنسبة للحمادنيين ان الخليفة الراضي اقر الموصل لناصر الدولة عام ٣٢٣ ، ثم جاء المتقي وانفذ اليه عام ٣٣٢ ليستمده العون على البريديين ، فأرسل هو اخاه عليا فنال رضى الخليفة وظفر منه بلقب سيف الدولة وكان هذا كافيا لمشروعية حكمه ، وهكذا يثبت من سيرة الرجل اولا ومكانته لدى الخليفة ثانيا ومن معاملته مع العلماء واعماله المجيدة ثالثا أنه منزه من أن يكون فوضويا قد اغتصب الحكم ، بله كونها تدل على الاستقرار واستتباب الامور . يقول ابو منصور الثعالبي وهو قريب العهد بعصر الحمدانيين مانصه : —

كان بنو حمدان ملوكا وامراء اوجههم للصباحة والسنتهم للفصاحة وايديهم للسماحة وعقولهم للرجاحة وسيف الدولة مشهور بسيادتهم وواسطة قلادتهم وكان رضى الله عنه وارضاه وجعل الجنة مأواه غرة الزمان وعماد الاسلام ومن به سداد الثغور وسداد الامور . هذا ونرى انه نزل ببابه فلاسفة كبار وأئمة اخيار كأبي نصر الفارابي وابي بكر الخوارزمي وابن خالويه والشمشاطي والمتنبي وابي العباس النامي وغيرهم . ولو سلمنا بأن الشاعر يهمه السوق التي يبيع فيها سلعته ويمدح من يغليها ثمنا كائنا من كان ، فان هذا المسلك لا يتأتى من فيلسوف كالفارابي او زاهد كأبي الفرج الاصفهاني . فلو لم يكن الرجل يتحلى بالخلق الانساني لأبى هؤلاء ان يعاشروه فكيف اذا وقد افتخروا بالانتساب اليه فصدروا كتبهم باسمه ، هذا الى جانب ما يذكره الحافظ الذهبي

من اعماله البرية " انه كان بجامع حلب خزانة كتب وكان فيها عشرة الاف مجلد من وقف سيف الدولة ابن حمدان وغيرهم الى ان احترقت عام ٤٦٠. اما حزمه في الحكم وبطولته في الجهاد فغني عن الوصف بما اورده الثعالبي واكده غيره من هذه الفقرة الذهبية :

" كانت وقائعه في عصاة العرب يكف باسها وتفل انيابها وتذل صعابها وتكفي الرعية سوء آدامها وغزواته تدرك من طاغية الروم الثار وتحسم شرهم المثار وتحسن في الاسلام الاثار ، " ويقول في موضع آخر :

" كان سيف الدولة قلما ينشط لمجلس الانس لاشتغاله عنه بتدبير الجيوش وملابسة الخطوب وممارسة الحروب. اما قول الاستاذ المؤرخ ، ان سيف الدولة انهزم من " توزون " " وبجكم " حينما توجه الى الشرق . والظاهر انه ــ يعنى بذلك قصد سيف الدولة الذهاب الى البصرة عام ٣٣١ فغير صحيح من وجوه .

اولا ــ ان بجكم لم يكن في ذلك الوقت على قيد الحياة لأنه قتل عام ٣٢٩ لا خلاف فيه بين المؤرخين في حين ان سيف الدولة دخل واسط عام ٣٣١. اما الذى انهزم من " توزون " " وبجكم " فهو ابو عبد الله البريدى واظن ان الوقعة التي صارت موجبة لهذا الالتباس هي معارضة " توزون " وخجخج " مع سيف الدولة عام ٣٣١ حيث اراد سيف الدولة ان ــ يذهب الى البصرة للانحدار خلف البريديين الذين فروا عن واسط وسكنوا في البصرة ففي ليلة ثار عليه الرجلان واضرما النار في معسكرة ففر منهم . ولم يكن سيف الدولة في ذاك الوقت يريد ان يوسع حكومته على الجانب الشرقي من متصرفات العباسيين ، بل اراد الحرب مع البريدين العصاة .

وما معارضة هذين القائدين معه الا لأجل المال الذى بعثه ناصر الدولة اليه ، لا نهما كان يعارضانه في امرته ، او كان هو في صدد التوسع ، وذلك مسطور في النصوص .

ولنرجع الآن إلى نقطة اخرى ، هي ما قال الاستاذ المؤرخ بان غزوات سيف الدولة في الثغور ، جرت على المسلمين اعظم خسارة ــ مع ضآلة فائدتها ، فاقول ، فاقول ، لقد غزا سيف الدولة دولة الروم مرات ، عدها بعض المؤرخين اربعين غزوة ، بعضها له وبعضها عليه ، كما هي الحالة المعهودة في الغزو .

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نساء ويوم نسر

لكن التاريخ الصحيح يرشدنا الى ان ما تحمله هو والسلمون من الخسائر واتلاف النفوس ، في جميع الغزوات ، لم يكن شئيا الى جانب ما اتاح للمسلمين من تحكيم الموقف واسترداد كرامتهم وكرامة الاسلام ، اذ لولم يكن هو وما ادب هو

وما ادب به الثغور من صور بطشه وقوة شخصيته لاشعلت الروم آسيا الصغرى جميعا لأن الخلافة العباسية اذاك كانت من الضعف ، والدولة الاسلامية من التفكك ، اثارت اطماع الروم فبدأوا يتلمظون للثغور الاسلامية وكان المنطق الصحيح بروز سيف الدولة ليؤدى الواجب العام للأسلام في هذا الوقت .

ولننصرف الآن الى ناحية اخرى من كلامه ، ناحية ابتزاز المال من الامة وبعثرته عى الشعراء ، والواقع ان الاستاذ المؤرخ ـ ليس اول من طرق هذه النقطة بنقد التصرف والنقمة على المتصرف ، بل لعله وافق مع الذين سبقوه ، امثال الاستاذ محمد كرد علي فقد قال في محاضرته الملقاة في نادى الشهباء عام (٣٤١ ـ ١٩٢٣) " ان ما صدر عن سيف الدوة غاية في الكَرم ولكنه لا يجوز في الشرع والعقل ان تجبى هذه الاموال من الفقراء والاغنياء لتصرف في مصالح الامة ثم يأخذ شاعر واحد " هذا صحيح على الظاهر اذا قسناه بمقياس المتداول في القرن العشرين . ، ولكن يجب ان لا يفوتني شيء وهو ان الوضع في ذاك الزمن كان يختلف عما نحن فيه كل الاختلاف ، فمسألة بذل المال على الشعراء في الاقطار الاسلامية حتى القرن السابع ، يجب ان يدرس درسا عميقا ، اذ لم يكن الغرض من اجراء الصلات الكثيرة الكبيرة على المتنبي والناش وامثالهم في بلاط سيف الدولة والعنصرى وفرخى في بلاد محمود الغزنوى هو مجرد امتداح الملوك بل كانت السنة الشعراء تؤدى في ذاك الوقت ما تؤديه اليوم اجهزة الاعلام من الاذاعة والتلفزة والجرائد التي تستهلك معظم ميزانيات العالم اليوم ، فكانت وظيفة الشاعر ان ينشر فضائل من تولى الحكم من السياسة وحسن التدبير ـ والاشفاق على الرعية وقهر الاعداء ليستميل الاحباء ويخوف الاعداء، وعلى الملك ان يجرى عليه من الصلات والجوائز ، وهذه كانت سنة جارية مشروعة ، قررها المجتمع العربي منذ الجاهلية واقرها الاسلام كما نرى من عمل الرسول(ص) مع حسان بن ثابت وان كانت عطايا النبى دعاءه له بالخير . واذا انتقد سيف الدولة في هذا فلينتقد الرشيد قبله ولينتقد النظام الاجتماعي الاسلامي كله .

وفي ختام هذا البحث اود ان اجمل فاقول: انه لا شك من ان امثال سيف الدولة عرضة للمدح والقدح، ولو شئنا الانصاف ونظرنا الى ما ورد في قدح لا يتناسب اصلا ولا يتفق منطقا مع ما ورد من مدح اكيد ثابت لادركنا ان هذا القدح ربما كان نتيجة تأويل الحزم بالعسف والشدة. فقد كان الحزم في تلك الفترة لازما وقد لا يرضى به بعض الاطراف او من حزازة كانت تقوم طبعا بين العناصر المختلفة استعبدتها اياد خفية لتنال من موقف الرجل ومن كرامة الاسلام والا فالمتنبي وحده اكبر دليل على عظمة الرجل واى كبير لم يلطع . وقصارى البحث ان ما يوجه الى هذه الاسرة من القسوة او التعدى او ابتزاز المال ـ لو كان صحيحا لا يعد

شيئا بجانب ما بذلوا فى سوريا الشمالية من اعادة النظم اولا والمقاومة في وجه العدو الطامع المترصد ثانيا . وغيرتهم على بث الثقافة الاسلامية وحضارتها ثالثا . واى فخر اعظم للرجل ، من ان يفتخر مثل أبي الفرج الاصفهاني تقديم اثره الخالد له، واى اثر في الادب العربي اخلد من شعر المتنبي ومدائحه في سيف الدولة وآل حمدان وانما على الله تعالى حسابهم واليه ايابهم « ان يعذبهم فانهم عباده وان يغفر لهم فانه هو العزيز الحكيم ».

المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية

الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
جامعة القاهرة

انصبت عناية الباحثين في تاريخ بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية على الجانبين السياسي والحربي ، دون أن يحظى الجانب الاجتماعي الا بقدر ضئيل لا يتناسب وأهميته في التاريخ . وربما جاء عدم عناية الكتاب المعاصرين بالتعرض للجانب الاجتماعي نتيجة لاهتمامهم بما كان بين الصليبيين والمسلمين من مساجلات وحروب استأثرت في المقام الأول بانتباههم .

والواقع ان دراسة المجتمع الشامي في عصر الحروب الصليبية ـ فضلا عما لها من أهمية ـ فانها من أشد انواع الدراسات تعقيدا ، كما انها من اكثرها طرافة . ذلك أنه اجتمعت في بلاد الشام في ذلك العصر طوائف متعددة الاصول والمشارب والعقائد والاتجاهات ، وحرص كل فريق منها على التمسك بعاداته وتقاليده ومعتقداته ، مما أدى الى ظهور تشكيلة واسعة من الاوضاع الاجتماعية . وهكذا نجد انفسنا امام عدة مجتمعات ـ لا مجتمع واحد او مجتمعين ـ في بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية لكل مجتمع منها وضعه الخاص المميز . وهذه الاوضاع قد تتباعد حينا وتتقارب احيانا بحكم تواجدها جميعا داخل وعاء واحد كبير يستوعبها ، ويفرض عليها قدرا من الاتصال يتفاوت بتفاوت الظروف .

وبعبارة أخرى فانه من الخطأ ان يظن انسان أن بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية لم تعرف سوى مجتمعين يمثل كل منهما وحدة اجتماعية متماسكة ، هما المجتمع الاسلامي والمجتمع المسيحي . فاذا جاز لنا أن نقسم بلاد الشام في ذلك العصر من الناحيتين العسكرية والسياسية الى معسكرين كبيرين احدهما اسلامي والآخر مسيحي ، فان هذا التقسيم يبدو غير واقعي من الناحية الاجتماعية ، لأن كل معسكر من هذين المعسكرين الكبيرين انقسم بدوره

الى مجتمعات اصغر لها خصائصها وتقاليدها ، وربما لا تربط بينها سوى رابطة الجهاد الديني ضد الفريق الآخر .

واذا كنا قد اقتصرنا في بحثنا هذا على دراسة المجتمع الاسلامي في بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية بالذات ، فان أول ما يسترعي انتباهنا في هذه الدراسة هو انسياب كثير من العناصر والطوائف داخل المحيط العربي الكبير في تلك البلاد . وقد تكون بعض هذه الجموع دخلت بلاد الشام بقصد الجهاد الديني او بحثا عن حياة اكثر امنا ورغدا من المناطق الأولى التي عاشت فيها[١] ، ولكن الذي يعنينا في دراستنا هذه هو أنها جميعا تركت آثار بصماتها واضحة في التركيب الاجتماعي والتكوين البشرى والجنسي والبناء الحضارى للمجتمع الاسلامي الكبير في بلاد الشام وخاصة فيما يتعلق بالنظم واللغة والعادات والتقاليد . وربما ادت سهولة انتقال السكان من منطقة محدودة ، مما ترتب عليه اختلاط الناس في حالات عديدة ، وعدم ارتباط كل عنصر بمنطقة محدودة ، مما ترتب عليه اعطاء المجتمع الاسلامي في بلاد الشام طابعا جديدا مميزا في تلك الحقبة .

ونستطيع أن نقسم المسلمين بوجه عام في بلاد الشام الى حضر وبدو . فالحضر هم أهالي المدن والقرى الشامية ، واتصفت حياتهم بالاستقرار ، واشتغلوا بالنشاط الاقتصادى من تجارة وصناعة وزراعة . وكانت مدن الشام ومراكزه العمرانية ــ مثل دمشق وحلب وحمص وحماة وشيزر ونحوها ــ هي المحور الاساسي لنشاط الحضر ، فحفلت بحياة اجتماعية نشطة ــ ساعد عليها توافر الثروة والمال فيها .

ذلك أنه على الرغم من الظروف القاسية التي مر بها كثير من مدن الشام في عصر الحروب الصليبية ، الا أنه يبدو أن نسبة كبيرة من اهلها اتسعت ثرواتهم ، وظهرت عليهم علامات النعمة[٢] . من ذلك ــ على سبيل المثال ــ الهدايا التي درج بنو منقذ على تقديمها للحكام المعاصرين تجنبا لعدائهم او حرصا على مجاملتهم ، مما يشير الى مدى ما تمتعت به امارتهم من رخاء مادى وثراء اقتصادى[٣] . هذا فضلا عما يقال من ان رسل الصليبيين الى ابي علي فخر الملك ابن عمار صاحب طرابلس سنة ١٠٩٩ أخذوا بما شاهدوه في طرابلس من مظاهر الثروة والترف والغنى[٤] .

ويبدو هذا النشاط الاجتماعي اوضح ما يكون في الاحتفالات العامة والخاصة ، ومنها الاعياد الدينية التي تمثل اعيادا عامة شارك في احيائها كافة المسلمين ، وحرصوا على اضفاء قدر من البهاء عليها ، وخاصة عيد الفطر وعيد الاضحى ومولد النبي(ص) ، فضلا عن شهر رمضان . وقد روى ابن جبير انه

من تقاليد الدماشقة انهم كانوا يتوخون يوم عرفة ليقفوا في مساجدهم كاشفي الرؤوس اثر صلاة العصر التماسا لبركة الساعة ولا يزالون واقفين داعين حتى غروب الشمس " فينفرون كما ينفر الحاج ، وهم باكين ، سائلين الله ان يوصلهم الى بيته الحرام "[٥] . كذلك استرعى نظر ابن جبير بالذات مزيد تعظيمهم للحاج ، فاذا وصل ركب الحاج عائدين بعد اداء الفريضة" خرج الناس لتلقيهم ، الجم الغفير ، نساء ورجالا ، يصافحونهم ويتمسحون بهم "[٦] .

بالاضافة الى الأعياد الدينية التي هي بمثابة احتفالات اسلامية عامة يبتهج لها ويشارك فيها كافة المسلمين ، شهدت المدن الاسلامية احتفالات خاصة في مناسبات معينة . من ذلك احتفال نور الدين محمود بختان ابنه الملك الصالح اسماعيل في عيد الفطر سنة ٥٦٩ ه (١١٧٣ م) ، فزينت حلب في تلك المناسبة وختن معه جماعة من اولاد الامراء ، وأخرج نور الدين صدقات كثيرة وكسوات للأيتام[٧] . اما عامة الاهالي فكانوا يحتفلون بختان ابنائهم احتفالات كبيرة ، يقدم فيها الاحباء شيئا من الارز والسكر والغنم ، كل حسب طاقته ، ويختتم الحفل بتلاوة المولد النبوى الكريم[٨] .

على أن أبهج المناسبات الاجتماعية وأشدها سرورا هي دائما الاحتفال بالزواج ، وهي العملية التي كانت تتم وفق التقاليد الاسلامية وتلعب فيها الخاطبة دورا كبيرا . وهكذا يبدو انه على الرغم من ان العصر كان عصر جهاد مليء بالتضحيات والحروب والحوادث ، فانه ليس معنى ذلك أن الحياة الاجتماعية اتصفت بالجفاف والقسوة .

والملاحظ بوجه عام ان اهالي مدن الشام لم يعدموا وسيلة للترفيه عن انفسهم ، كالخروج للنزهة عند شواطيء الانهار والبرك والمروج والبساتين ، وكلها اماكن كانت تعج باصحاب الملاعيب والمضحكين وعروض خيال الظل وغيرها .[٩] اما الخاصة والامراء فكانت لهم ايضا ضروب التسلية الخاصة بهم ، مثل مجالس السمر او ممارسة بعض الالعاب الرياضية ، وعلى رأسها رمى القبق واللعب بالجريد والصيد والقنص ، ثم لعب الكرة الذى شغف به صلاح الدين شغفا كبيرا[١٠] .

ولا يخفى عنا ان جزءا كبيرا من النشاط الاجتماعي في تلك العصور تركز حول المنشآت العامة وبخاصة الحمامات التي تميزت بها الحضارة الاسلامية . ففي الحمام كانت تتم عملية معاينة العروس المرشحة للزواج عارية تماما للتأكد من خلو جسمها من العيوب . وقبل الزفاف كان يحتفل احتفالا كبيرا بدخول العروس من ناحية والعريس من ناحية اخرى الى الحمام . واذا دخل المريض الحمام كان ذلك اعلانا بشفائه فيقام حفل لهذه المناسبة ويقبل عليه المهنئون

للتهنئة . هذا كله بالاضافة الى ما كان يتم في الحمامات من لقاءات بين نساء المدينة الواحدة حيث يتم تبادل الاخبار والاحاديث ، وتتباهى كل منهم بما اوتيت من جمال وما توافر لها من حلي ، بعد ان تقوم البلانة بتحفيفها وابرازها في احسن صورة[11] .

وقد اشتهرت الشام بكثرة حماماتها في العصور الوسطى ، وخاصة دمشق لوفرة مائها وجودة صناعة الصابون فيها ، فضلا عن شهرتها بالعطور الممتازة ، وكلها من مستلزمات الحمام . وذكر ابن عساكر حمامات دمشق ، وكل منها منسوب الى الجهة او الفئة التي يقع الحمام في حيها او يخدم افرادها . وبعض هذه الحمامات بني على الآبار في حين كان الماء يساق الى البعض الآخر[12] . ولم يوجد ما يحول دون وقف بعض هذه الحمامات في بلاد الشام على المدارس وقراءة القرآن[13] . ويروى ابن طولون انه عندما بنى نور الدين دار المسرة أنشأ الى جوارها حماما[14] . وقد عدد ابن عساكر حمامات دمشق بسبعة وخمسين حماما ، في حين عددها ابن جبير بعد ذلك ــ في اواخر القرن الثاني عشر للميلاد ــ بمائة حمام[15] . وفي منطقة دمشق المدينة وما حولها ــ بلغ عدد الحمامات في بعض الاوقات مائة وسبعة وثلاثين حماما[16] . اما حلب فان ابن شداد قدر حمامات المدينة وضواحيها بمائة وخمسة وتسعين حماما[17] .

ولم يهمل حكام المسلمين في ذلك العصر اقامة المرافق العامة بقصد خدمة المجتمع ، مما جعل الحياة الاجتماعية في الشام في ذلك العصر تتسم بمسحة واضحة من الانسانية والعدالة الاجتماعية . من ذلك ما يرويه ابن الشحنة من ان نور الدين محمود انشأ صهاريج للمياه داخل حلب للشرب[18] . وربما جاء جزء كبير من هذه المنشآت التي اقامها الحكام بدافع البر والرغبة في التقرب الى الله بالعمل الطيب . من ذلك ما يقوله ابن جبير من أن نور الدين محمود عين للمغاربة الغرباء اوقافا كثيرة في دمشق ، منها طاحونتان وسبعة بساتين وأرض بيضاء وحمام ودكانان ... وكانت تلك الاوقاف تغل خمسمائة دينار في العام . كذلك انشأ ديارا موقوفة لقراء كتاب الله عز وجل يسكنونها " ومرافق الغرباء بهذه البلدة اكثر من أن يأخذها الاحصاء ، لاسيما لحفاظ كتاب الله عز وجل والمنتمين لطالبي العلم ... "[19] .

وما دام ابن جبير قد جرنا الى رجال الدين والعلم ووضعهم في المجتمع ، فاننا نشير الى أن هذه الفئة تمتعت بقدر وافر من رعاية الحكام في بلاد الشام ، وحظي افرادها بقسط ضخم من احترام العامة والخاصة وهو الامر الذى يبدو بوضوح في عهد نور الدين ثم صلاح الدين ومن تبعه من ملوك بني ايوب . ويبدو ان احساس المسلمين في الشام بالخطر الصليبي في ذلك الدور جعلهم يهتمون في المقام

الأول بالعلوم الدينية ، لما فيها من شحذ الهمم على طريق الجهاد من ناحية ، فضلا عما تثيره في القلوب من تمسك بتعاليم الدين من ناحية اخرى . وهذا وذاك يؤديان الى الصمود في وجه العدو الدخيل . وليس معنى ذلك اهمال العلوم والدراسات غير الدينية ، اذ ازدهرت بعض هذه العلوم في ذلك الدور ، وخاصة الطب والصيدلة وقد تألق فيها ابن البيطار الدمشقي صاحب كتاب الادوية المفردة . ويروي المؤرخ ابن عساكر ان نور الدين محمود عندما سمع عنه انه يعمل في كتابه « تاريخ مدينة دمشق » فانه اظهر « تشوقه الى الاستنجاز والاستتمام ، فراجعت العمل فيه ... »[٢٠]

اما عن معاملة الحكام لرجال العلم والدين ، فيقال عن نور الدين محمود انه كان يقف لهم وينشرح صدره لمجالستهم[٢١] . وكان يجتمع عنده من العلماء للبحث والنظر عدد كبير يستقدمهم اليه من شتى البلاد[٢٢] كذلك يروى ابن قاضي شهبة ان نور الدين ــ مع عظمته ــ كان اذا دخل عليه الفقية او الصوفي يقوم له ويمشي بين يديه ويجلسه الى جانبه كأنه اقرب الناس اليه[٢٣] . ولذا بنى لهم المدارس والمساكن وأجرى لهم الجرايات الوافرة . وكان يقرب مشايخ الصوفية منه ويدنيهم ويتواضع لهم[٢٤] .

والمعروف ان السلاجقة حرصوا على انشاء المدارس للتمكين للمذهب السني ، وهكذا حتى كان عهد نور الدين محمود فأخذ يتوسع في انشاء المدارس بالشام للمالكية والشافعية والحنابلة . هذا الى أن نور الدين اهتم بالحديث وأسس دارا للحديث بدمشق . وبالاضافة الى المدارس ،فان بلاد الشام شهدت في ذلك العصر توسعا في انشاء الخانقاوات نتيجة لانتشار التصوف . والمعروف أنه اذا كان التصوف في المقام الأول ظاهرة دينية ، فان لهذه الظاهرة أسبابا نفسية ، كما أن لها رد فعل اجتماعي خطير[٢٥] . ذلك أن ما أصاب المسلمين من ازمات في عصر الحروب الصليبية جعل الكثيرين منهم يفكرون تفكيرا صوفيا ويتلمسون في طريق العودة الى الله بالزهد والعبادة مخرجا من الوضع الذى غدوا فيه والذى مكن العدو من غزوهم في عقر دارهم . ولذا كثرت الخانقاوات والزوايا في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية ، وامتلأت تلك المؤسسات بالصوفية الذين اخذوا يباشرون اسلوبهم المفضل في حياة الزهد والعبادة ويحظون بعطف الحكام واحترامهم ، وخاصة نور الدين محمود الذي « كان اذا اعطى احدهم شيئا يقول : ان هؤلاء لهم في بيت المال حق ، فاذا قنعوا ببعضه فلهم المنة علينا »[٢٦] . وبالاضافة الى الخانقاوات والزوايا التي غدت ملتقى الراغبين في التصوف من الرجال فانه وجدت ببلاد الشام في ذلك العصر الرباطات التي غدت مراكز تجمع للنساء والراغبات في الزهد .

ومن اعظم المنشآت الاجتماعية التي شهدتها بلاد الشام في ذلك العصر كانت البيمارستانات التي وجدت منها عدة ، نسب احدها في دمشق الى دقاق ، ووجد آخر في الصالحية بالقيمرى ، ونسب اثنان الى مجاهد الدين بزان[27] على أن اشهر بيمارستانات الشام اطلاقا في عصر الحروب الصليبية كان البيمارستان النورى الذى اعتبره ابن جبير " مفخرا عظيما من مفاخر الاسلام "[28] . وقد وقف نورالدين هذا البيمارستان على الفقراء دون الاغنياء ، اللهم الا اذا لم يجد الاغنياء دواء مبرئا لعللهم الا في هذا البيمارستان . وعلى هذا الاساس شرب نور الدين نفسه من دوائه[29] . ولما أنشأ نور الدين هذا البيمارستان جعل امر الطب فيه للعالم الطبيب ابي المجد ، واطلق له جامكية وجراية . وكان ابو المجد يتردد الى هذا البيمارستان لمعالجة المرضى ، " فكان يدور على المرضى ويتفقد احوالهم ويعتبر امورهم ، وبين يديه المشارفون والقوام لخدمة المرضى ، فكان جميع ما يكتبه لكل مريض من المداواة او التدبير لا يؤخر عنه ولا يتوانى عن ذلك "[30] وهكذا حتى ينتهي ابو المجد من طوافه على المرضى فيذهب الى مكتبة البيمارستان ليخرج الكتب ويقرأ وحوله بقية الأطباء.

ولا يزالون في اشتغال ومباحثة طوال ثلاث ساعات كاملة. وقد خصص نور الدين الايوان الشرقي من هذا البيمارستان لتعليم الطب، وكانت له خزانة كبيرة للأشربة تحوى صنوف الادوية والعقاقير والمراهم . ولم يلبث هذا البيمارستان ان بلغ درجة النضج على ايام صلاح الدين ، اذا امتدح ابن جبير تنظيم اموره ، وقال ان الاطباء كانوا " يبكرون اليه في كل يوم ، ويتفقدون المرضى ويأمرون باعداد ما يصلحهم من الادوية والاغذية حسبما يليق بكل منهم " . وكان هذا البيمارستان مقسما الى قسمين للعلاج : قسم للعلاج الخارجي وآخر للعلاج الداخلي ، وكل قسم ينقسم بدوره الى قسمين : قسم للذكور وآخر للأناث[31] .

ومن هذه الاوصاف يمكن أن ندرك ما بلغه المجتمع الشامي في عصر الحروب الصليبية من رقي ونضج ، تشهد عليهما هذه اللمسات الانسانية التي تجلت في العناية بالفقير والمريض والغريب . وطبيعي ان يكون هذا هو الوضع السائد في معظم المدن الاسلامية ، بالشام في ذلك العصر . ومن ذلك ما قيل من ان ابن بطلان المتطبب المتوفى سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦ م) قام بوضع اسس العمل في بيمارستان اقيم لخدمة اهل حلب . وجاء في وثيقة وقف احد البيمارستانات المخصصة للأمراض العقلية ان " كل مجنون خصص له خادمان يخدمانه ، فينزعان عنه ثيابه كل صباح ويحممانه بالماء البارد ، ثم يلبسانه ثيابا نظيفة ويحملانه على اداء الصلاة ويسمعانه قراءة القرآن ، يقرأه قارئ حسن الصوت ، ثم يفسحانه في الهواء الطلق ، ويسمع في الآخر الاصوات الجميلة

والنغمات الموسيقية الطيبة »[٣٢] . وهذا دليل على ما شهده المجتمع الاسلامي في بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية من ضروب الرعاية الاجتماعية التي حرص القادرون من الحكام وغير الحكام ـ على تقديمها لمن هم في حاجة اليها . وقد عرف عن الخاتون ست الشام (ت ٦١٦ هـ) ابنة نجم الدين ايوب انها كانت تعمل في « كل سنة في دارها بالوف من الذهب اشربة وادوية وعقاقير وغير ذلك ، فيفرق على الناس »[٣٣] . اما عن المرافق التي اقيمت للغرباء في بلاد الشام فيقول عنها ابن جبير « انها اكثر من أن يأخذها الاحصاء » . ومن هذه المنشآت الخانات التي اقيمت على طول الطرق « فأمن الناس وباتوا في الشتاء في ركن من المطر »[٣٤] .

والواقع أنه رغم الظروف الصعبة التي مر بها المجتمع الاسلامي بالشام في عصر الحروب الصليبية ، فان جميع الشواهد تدل على أن هذا المجتمع لم يفقد مطلقا رواءه وانتعاشه ، وهو الانتعاش الذى اتصفت به مدن الشام قبيل وصول الحملة الصليبية الاولى في أواخر القرن الحادى عشر . ومهما يقل عن التفتت السياسي والخلافات المذهبية التي سادت تلك البلاد في ذلك الدور ، فان كاتبا مثل ناصر خسرو لا يتمالك نفسه من الاعجاب بجمال عمائر مدينة مثل طرابلس وارتفاع تلك العمائر التي بلغ بعضها ست طبقات[٣٥] . اما العمرى فيؤكد ان مياه النهر كانت تصل الى دور المدينة المرتفعة « التي لا يرقى اليها الا بالدرج العلية »[٣٦] . وما يقال عن دمشق وطرابلس وحلب يقال عن بقية مدن الشام ومراكز العمران فيه . ففي شيزر ـ مثلا ـ اهتم بنو منقذ باقامة العمائر والقصور الشامخة والدور النفيسة ، دون ان تقتصر هذه النهضة على شيزر وحدها وانما امتدت الى كفر طاب التابعة لها[٣٧] .

ولا شك في ان هذه المراكز العمرانية الآهلة بالسكان كانت في حاجة الى رعاية خاصة لضبط الامن . وهنا نسمع عن طائفة الاحداث التي كانت معروفة بصفة خاصة في حلب ودمشق ، وهم نوع من انواع عساكر الرديف المدنية ، يشبهون رجال الشرطة ، الا انهم مدنيون غير محترفين ، يناط بهم حفظ النظام العام ومكافحة الحريق ، مقابل رواتب معينة يتقاضونها من حصيلة ضرائب مدنية خاصة[٣٨] .

وقد أشار ابن جبير الى بعض العادات التي تمسك بها اهل الشام في ذلك العصر منها أن « صفة سلامهم ايماء للركوع او السجود ، فترى الاعناق تتلاعب بين رفع وخفض وبسط وقبض » . كذلك تعجب ابن جبير من انهم ـ الصغير والكبير ـ « يمشون وأيديهم الى الخلف قابضين بالواحدة على الأخرى ، ويركعون للسلام في تلك الحالة »[٣٩] اما عدا ذلك من العادات والتقاليد فلا تعدو ان

تكون قاسما مشتركا بين الشعوب العربية الاسلامية في ذلك العصر . من ذلك قول ابن جبير انهم في الجنائز يمشون امام الموتى قارئين القرآن الكريم بأصوات مرتفعة شجية ، فاذا انتهوا الى الجامع قطعوا القراءة ودخلوا للصلاة . وربما بالغ اهل دمشق بالذات في الجنائز . " وذلك انهم يمشون امام الجنائز بقراء يقرءون القرآن بأصوات شجية ، وتلاحين مبكية ، تكاد تنخلع لها النفوس شجوا وحنانا ، ويرفعون اصواتهم بها ، فتتلقاها الآذان بأدمع الاجفاف . " اما قول ابن جبير عن اهل دمشق انهم " اذا المت بهم كارثة اسرعوا الى الجوامع كاشفي الرؤوس متضرعين الى الله ، وخاصة الجامع الاموى بدمشق حيث يخرجون المصحف العثماني ويدعون الله حتى يكشف عنهم الغمة "[٤٠] فان هذا التصرف كان امرا طبيعيا يتفق وروح العصر وعقليته ، وما اشبه ذلك بما نقرأه في المصادر والحوليات الغربية عن هروع المسيحيين في اوقات الملمات الى اقرب دير او كنيسة طلبا للرحمة الآلهية ، او حرصهم على اصطحاب صليب الصلبوت معهم في معاركهم المحفوفة بالمخاطر .

ولا يخفى علينا ان النشاط الاقتصادى كان له اثره الكبير في حالة الانتعاش التي شهدها المجتمع الشامي ــ وخاصة في المدن ــ في عصر الحروب الصليبية ، رغم ما كان يتعرض له هذا النشاط احيانا من هزات نتيجة لتلك الحروب . والمعروف ان بلاد الشام كانت دائما حلقة الوصل وملتقى قوافل التجارة القادمة من المشرق والعراق من ناحية ، ومن آسيا الصغرى والشمال من ناحية ثانية ومن شبه الجزيرة العربية من ناحية ثالثة ثم من مصر من ناحية رابعة . واذا كانت الحروب الصليبية قد عرقلت احيانا مسيرة القوافل الاسلامية من الشام واليه ، الا انها من ناحية اخرى ضاعفت النشاط التجارى وخاصة مع الغرب الاوروبي عن طريق الموانيء البحرية التي سيطر عليها الصليبيون على سواحل بلاد الشام . وكثيرا ما كان العامل التجارى يدفع المسلمين والصليبيين سواء الى عقد هدنة او صلح ليتمكن الطرفان من استئناف التجارة دون عائق . وقد أثارت هذه الظاهرة عجب الرحالة ابن جبير الذى اتجه من دمشق الاسلامية الى عكا الصليبية في قافلة كبيرة للتجار المسافرين بالسلع ، فقال " ومن أعجب ما يحدث به في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج الى بلاد الافرنج وسبيهم يدخل الى بلاد المسلمين !! "[٤١] كذلك اشار ابن جبير في موضع آخر الى ان " اختلاج القوافل من مصر الى دمشق على بلاد الفرنج غير منقطع ، واختلاف المسلمين من دمشق الى عكا "[٤٢] .

والواقع أن نور الدين محمود ــ ومن بعده صلاح الدين ــ اهتما اهتماما كبيرا بأمر التجارة وحرصا على حماية طرقها من المفسدين ، فأنشأ نور الدين

الخانات للتجار في الطرقات ، وأقام الابراج لحماية الطرق التجارية ، وازال المكوس المفروضة على التجارة ليشجع التجار على التردد على بلاده[٤٣] وقد وصف ابن جبير الخانات التي مر بها في طرق الشام على ايام صلاح الدين فذكر الكثير عنها ، وقال عن بعضها انها" كالقلاع امتناعا وحصانة ، وابوابها من الحديد ، وهي من الوثاقة في غاية " . كذلك قال عن الطريق من حمص الى دمشق انه كثير الخانات ، ومن هذه الخانات خان السلطان الذى بناه صلاح الدين " وهو في غاية الوثاقة والحسن ، بباب حديد على سبيلهم في بناء خانات هذه الطرق كلها واحتفالهم في تشييدها . وفي هذا الخان ماء جار ، يتسرب الى سقاية في وسط الخان كأنها صهريج ... "[٤٤] .

ولم يكن التجار الذين اسهموا في النشاط التجارى داخل المدن الاسلامية ، ببلاد الشام في ذلك العصر من المسلمين فحسب ، وانما شارك تجار غير المسلمين في ذلك النشاط مقابل ضريبة العشر التي فرضت على تجارتهم . كل ذلك " والحرب والقتال بينهم قائم على قدم وساق ... وأهل الحرب مشغولون بحربهم ... "[٤٥] وفي مدينة دمشق تركزت اسواق المسلمين ومنشآتهم قرب المسجد الجامع والقلعة ، في حين تركز النصارى في الزاوية الشمالية الشرقية من المدينة ، واليهود في المنطقة الجنوبية ، وان كان ذلك لم يحل دون اختلاط كافة الطوائف في الاسواق والاماكن العامة ، مما يعطي صورة لجانب معين من جوانب الحياة الاجتماعية في المدن الاسلامية ببلاد الشام .

وقد وصف ابن جبير اسواق دمشق بانها " من احفل اسواق البلاد واحسنها انتظاما وابدعها وضعا ، ولا سيما قيساراتها ، وهي مرتفعات كالفنادق ... "[٤٦] وكانت هذه الاسواق في تنظيمها وترتيبها تتفق والطابع العام للاسواق في بقية المدن الاسلامية ، بمعنى ان هناك سوقا خاصة لكل سلعة او صنف مثل سوق البطيخ او الفاكهة ، وسوق القمح او الغلال ، وسوق الغنم والماشية ، وسوق الصاغة ، وسوق الحدادين ، وسوق النحاسين ، وسوق الزجاجين ، وسوق الشماعين ... وغيرها .

ومهما يكن من امر ، فان هذا النشاط التجارى الواسع في بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية ، فضلا عما فيه من انطباعات تلقي اضواء على جوانب من الحياة الاجتماعية ، فانه لا يخفى علينا أنه ادى الى ظهور طبقة من اهل اليسار والنعمة كان لها اثرها في المجتمع ، فضلا عن أن توافر الاموال نتيجة للأشتغال بالتجارة ساعد على كثرة الاوقاف التي اوقفها هؤلاء على وجوه البر المتعددة الاشكال . هذا وان كان الاثرياء قد تعرضوا احيانا لخطر المصادرة لتغطية نفقات الجيوش في اوقات الخطر والحصار[٤٧]

وقبل ان نترك الحديث عن مجتمع المدن الاسلامية بالشام في عصر الحروب الصليبية ، يصح أن نشير الى حقيقتين : **الأولى** انه وجدت بتلك المدن اعداد كبيرة من العامة او العوام اشتغلوا بالأعمال اليومية ، ومن هؤلاء الباعة والسوقة والمكاريين ، فضلا عن جموع المعدمين وأشباه المعدمين من الدهماء . ومن الطبيعي ان يكون هؤلاء مصدرا لاثارة الشغب احيانا في المدن . ويروى ابو شامة انه في اثناء المنافسات بين الحكام والامراء ، دأب كل فريق على التودد الى العامة لاكتسابهم الى جانبه[٤٨] . اما الصناع واهل الحرف فقد حظوا بالتشجيع في ذلك العصر ، مما ساعد على رقي الصناعة وظهور بعض الفنانين الممتازين ، مثل حميد ابن ظافر الحلبي وسليمان بن معالي اللذين صنعا منبر جامع حلب وزيناه بالخشب المرصع بالعاج والابنوس[٤٩] .

اما **الحقيقة الثانية** فهي انه رغم ما بدا احيانا بين المسلمين من ناحية وغير المسلمين من ناحية اخرى من مشاحنات فرضتها طبيعة العصر والظروف التي الت احداثه وروحه ، الا ان جميع الاطراف عاشت غالبا عيشة آمنة هادئة في ظل الحكم الاسلامي وداخل اسوار المدن الاسلامية ببلاد الشام . فكنائس النصارى واديرتهم ظلت قائمة تمارس نشاطها العادى داخل المدن الشام . ومن ذلك ما يقوله ابن جبير عن كنيسة للروم داخل دمشق ، كان لها شأن عظيم ، وعرفت بكنيسة مريم " وليس بعد بيت المقدس عندهم افضل منها . وهي حفيلة البناء ، تتضمن من التصاوير امرا عجيبا ، تبهت الافكار وتستوقف الابصار ، ومرآها عجيب . وهي بأيدى الروم ولا اعتراض عليهم فيها "[٥٠] اما اليهود فقد عكفوا على مباشرة نشاطهم ــ وخاصة الاقتصادى ــ في هدوء ، حتى أن احد ابواب قلعة حلب حمل اسمهم[٥١] .

فاذا انتقلنا الى خارج المدن الاسلامية ببلاد الشام فاننا نجد اراضي واسعة جيدة التربة والهواء ، يتوافر الماء لكثير منها عن طريق الامطار ، وربما بعض الانهار ، مما جعل الغالبية العظمى من اهل البلاد يشتغلون بالزراعة او بالرعي .

والملاحظ عموما ان احوال بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية ساءت في القرن الحادى عشر نتيجة للمنازعات بين امراء السلاجقة والفاطميين من ناحية اخرى ، فضلا عما كان هناك بين الامراء المحليين ــ من عرب وغير عرب ــ وجميعا كانت لهم اطماعهم الخاصة من ناحية ثالثة . وقد تركت هذه الاوضاع اثرها في احوال الشام حتى تناقص عدد سكانه في اواخر القرن الحادى عشر تناقصا خطيرا[٥٢] . وكان ذلك عندما جاءت الحروب الصليبية لتزيد الطين بلة ، وتمزق الريف والمناطق الفسيحة الممتدة بين المدن والحصون . بعد أن غدت

مسرحا لصراع بين الطرفين ، الا أن الفلاحين في الريف وحول المدن كانوا لا يكادون يباشرون حياتهم اليومية العادية حتى يفاجأوا بوصول جماعة جديدة من الحجاج المسلحين او الصليبيين . وهؤلاء يأتون من الغرب مشبعين بروح التعصب فلا يجدون وسيلة للتنفيس عن حماستهم الصليبية الا بانزال نقمتهم بالفلاحين العزل فيعملون فيهم ذبحا وتقتيلا [٥٣] .

حقيقة انه وجد من حكام المسلمين بالشام ـ مثل نور الدين محمود ـ من حرصوا على رعاية الفلاحين واصلاح امورهم ، فألغى المكوس وعني بحفر الترع والقنوات وتطهيرها [٥٤] فضلا عن عنايته بغوطة دمشق فأعاد تقسيمها من الناحية الادارية ، مما ترتب عليه توزيع الارض الشاغورية على مستحقين جدد من بينهم فريق من الاعراب [٥٥] . ولكن على الرغم من ذلك فان جميع الشواهد تشير الى سوء حال الفلاحين بالنسبة لباقي طبقات المجتمع الاسلامي في الشام ، نظرا لكثرة الضرائب من جهة ، وتعرضهم للاغارات من جانب الصليبيين من جهة اخرى . ويبدو ان الخطر الاخير كان اشد قسوة ، اذ دأب الصليبيون على الاغارة على الاراضي والارباض المحيطة بالمدن الاسلامية ، يخربونها ويحرقون ما بها من زرع وضرع ، وعندئذ يهجرها اهلها ، ويسرع من يستطيع الفرار منهم الى المدن يلوذون بها ويتحصنون داخلها [٥٦] .

أما البدو فالمعروف عنهم انهم يأنفون من ممارسة حرفة الزراعة ، ويفضلون عليها حرفة الرعي او التجارة ، ولذا ظلت غالبيتهم تنتقل خلف المرعى من مكان الى آخر ، ومعهم قطعانهم من المواشي ، وربما انتهزوا الفرصة للأنقضاض على قوافل التجار وغير التجار ، وخاصة اذا كانوا من الصليبيين . وقد تألف اولئك البدو من عشائر لكل عشيرة افخاذها وبطونها التي انتشرت في البلاد . واشتهر من تلك العشائر في اواخر عصر الحروب الصليبية ببلاد الشام آل فضل من ربيعة ، وهم الذين امتدت منازلهم من حمص الى قلعة جعبر الى الرحبة ، بمعنى انهم انتشروا بين العراق والشام على جانبي الفرات [٥٧] . ويبدو ان آل فضل اضطروا ـ بحكم موقع منازلهم ـ الى توزيع ولائهم بين القوى العديدة التي تقاسمت النفوذ في الشام وشمالي العراق في ذلك الدور . من ذلك ما نسمعه من أن زعيمهم عيسى بن مهنا دأب على مناصرة التتار حينا وسلاطين المماليك احيانا . حتى ضاق السلطان الناصر محمد بن قلاون ذرعا بآل فضل ، فطردهم ليحل محلهم اخوتهم من آل علي . هذا وان كان الناصر محمد لم يلبث ان عفا عن آل فضل وردهم الى بلادهم واقطاعاتهم [٥٩] .

على أنه يلاحظ أنه اذا كانت عشائر البدو الضاربة على اطراف الدولة ـ الايوبية او المماليكية ـ بالشام قد لجأت احيانا الى الخروج عن الطاعة ، فانه

وجد قسم آخر من تلك العشائر انتشر في داخلية بلاد الشام ، وهؤلاء كانوا اكثر ارتباطا بشعور الولاء للدولة وخضوعا لسلطانها . ومن هذه العشائر آل مرة في حوران وآل علي في المرج والغوطة حول دمشق ، وغيرهم كثيرون ٦٠ . وقد لجأ حكام المسلمين بالشام الى محاولة درء خطر اولئك البدو عن طريق ادخال عشائرهم في بلاد الشام داخل اطار النظام الاقطاعي من ذلك ما يذكره النويري من ان نور الدين محمود ضايقة ان البدو مارسوا الاعتداء على الحجاج في الطرقات ، فأقطعهم الاقطاعات حتى " يكفوا عن التعرض للحجاج " ٦١ . كذلك واصل سلاطين الاقطاعات ، وفرضوا عليهم التزامات معينة ، اهمها الولاء للدولة وحراسة الطرق والدروب الصحراوية ، وتقديم الرجال وقت الحرب . ولكن عشائر البدو أنفت من الخضوع لذلك النواع من التنظيمات الحكومية التي تفقدها كثيرا من حريتها ، فأخذت ما في النظام من مميزات ، وتخلصت مما فيه من التزامات .

وهناك من الدلائل ما يشير الى شيوع نوع من الاقطاع الزراعي في بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية ، جرى بمقتضاه توزيع الارض على الاجناد وكبار رجال الدولة فضلا عن زعماء العشائر والبطون ، ومعظم هؤلاء كانوا يوزعون الارض بدورهم على الفلاحين لزراعتها ٦٢ . ومن الثابت ان نظام الملك هو الذى عمم نظام الاقطاع الحربي في الدولة السلجوقية ، ففرق الارض على الاجناد وجعل لهم متحصلها لقاء ما يقدمونه من اجناد للسلطان . ويروى الاصفهاني ان نظام الملك ادرك ان البلاد لا تدر الاموال الكافية للصرف على الاجناد بسبب الخلل في النظام المالي " ففرقها على الاجناد اقطاعا ، وجعلها لهم حاصلا وارتفاعا ، فتوافرت دواعيهم على عمارتها ، وعادت في اقصر مدة الى احسن حال " ٦٣ . وقد سارت الدولة الزنكية على رسوم السلاجقة ، واتبع نور الدين محمود نظام توريث الاقطاعات بمعنى ان يرث الابن اباه ، مما ترك اثرا واضحا في الاوضاع الاجتماعية فضلا عن الحربية والعمرانية ٦٤ . ذلك ان جذور النظام الاقطاعي ازدادت رسوخا في بلاد الشام ايام الدولة النورية ثم الايوبية ثم المماليكية . ومن ذلك ان نجم الدين ايوب وأخاه اسد الدين شيركوه ، ثم صلاح الدين بن نجم واخوته ومن عمومته ، تولوا وظائف متنوعة في الدولة النورية منحوا مقابل ذلك اقطاعات وفيرة . فنجم الدين تولى دمشق بعد استيلاء نور الدين عليها سنة ١١٥٤ وحصل على اقطاع كبير . وشيركوه تولى منصب القيادة العامة للجيش النورى ، وامتلك اقطاعاً كبيراً في حمص والرحبة واعمالها ، وتولى صلاح الدين وظيفة شحنة وديوان دمشق ومنح اقطاعا مناسبا في دمشق وغيرها ٦٥ . وهذه كلها امثلة على سبيل المثال لا الحصر .

هذا مع ملاحظة ان الفروسية التركمانية التي كانت ركنا اساسيا من اركان الجيوش الاسلامية بالشام في عصر الحروب الصليبية ، ارتبطت خدماتها الحربية بما يحصل عليه اربابها من اراض ، الامر الذى جعل النظام الاقطاعي يتسع تدريجيا باتساع نطاق حركة الجهاد الاسلامي ضد الصليبيين في نلك الدور . ولم يضع حدا لتحول الكثير من اراضي الشام الى اقطاعات عسكرية سوى حرص بعض الحكام وغيرهم على وقف جهات لا يستهان بها على المدارس والزوايا والجوامع والبيمارستانات ، ونحوها من المنشآت الخيرية والدينية ، حتى تتمكن من اداء رسالتها ، ويستفيد من ريعها الصوفية والمساكين والمرضى والايتام وطلاب العلم ونحوهم . ولا شك في ان هذه الاوقاف وضعت حدا ما لنمو الاقطاعات العسكرية . ومهما تكن المغارم التي تحل بالفلاح في ظل النظام الاقطاعي ، فانه يبدو لنا ان الفلاحين في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية قاسوا من الاغارات والعدوان وعدم الاستقرار في الامن ، اكثر مما قاسوا من جور المقطعين وارباب الضياع الكبيرة ، لأن هؤلاء الاخيرين انصرفوا غالبا الى القتال ، وشغلوا بالمشاركة في الاحداث الحربية والسياسية ونحوها عن ملاحقة الفلاحين[٦٦] . ومع نلك فان حياة الفلاحين ظلت كما هي في تلك العصور ، لا تختلف كثيراً في بلاد الشام عنها في اى مكان آخر . واذا كانت غوطة دمشق قد شهدت في نلك العصر " جواسق وقصورا واسطبلات وطواحين وحمامات واسواقا وتربا وجوامع ومشاهد ، غير القرى والضياع " فان نصيب الفلاح من هذه النعم ظل محدودا ، يتمثل في القرى الضيقة الطرق و الطرق المظلمة ، ذات المنازل المشيدة من الطين والآجر[٦٧] ، واتصف القرويون بوجه عام بالتوكل والتدين، وغالبية السنة كانوا يتبعون المذهب الشافعي الذي يرجع تأصله في بلاد الشام الى القرن الرابع الهجرى(العاشر للميلاد) ، وان لم يمنع نلك وجود مذاهب سنية اخرى ، فمثلا كان اهل بلدة دومة من الحنابلة .

والواقع أن الاوضاع الاجتماعية في بلاد الشام تأثرت الى حد بعيد بكثرة العصبيات وتعددها ، وما كان لكل عصبية منها من تقاليد وعادات ، فضلا عما كان بينها وبين بعض من صراعات وخلافات . ونستطيع أن نقسم هذه العصبيات في المجتمع الاسلامي ببلاد الشام على عصر الحروب الصليبية الى نوعين : عصبيات عقائدية وعصبيات عنصرية . فمن الناحية العقائدية بلغت الخلافات المذهبية في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية درجة من التناقض سببت شرخا عميقا ، بل شروخا متشعبة في المجتمع الاسلامي . فبالاضافة الى المذاهب السنية التي سبقت الاشارة اليها ، بلغ التشيع في بلاد الشام ــ وخاصة في شماليها ــ درجة واسعة من الانتشار . والمعروف ان الدعوة الاسماعيلية

شهدت طفرة كبيرة في العصر الفاطمي بوجه عام وعهد الخليفة الحاكم بأمر الله بوجه خاص ، فاخذت فرق الحاكمية الآمرية ، والدروز والنصيرية وغيرها تواصل نشاطها في شمالي الشام ، ويمكن تلخيص اهم هذه الفرق والعصبيات فيما يلي : ــ

ــ الكسروانيون :

وهم اهل جبل كسروان ، وكانوا من النصيرية والعلويين والمتأولة[68] ويبدو ان العداء المذهبي دفع الكسروانيين الى الوقوف مرارا الى جانب الصليبيين ومناوئة السلطات السنية الحاكمة ، سواء من الايوبين أو من المماليك . من ذلك مثلا ما حدث أثناء حصار السلطان قلاون لمدينة طرابلس سنة ١٢٨٩ ، اذ خف الكسروانيون لنجدة بوهيموند السابع امير طرابلس . وقد استمر موقف الكسروانيين العدائي من سلطنة المماليك في عهد السلطان الاشرف خليل ثم في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون ٦٩ ، مما جعل الاخير يقف منهم موقفا حازما ، فقام الامير اقوش الافرم بمهاجمتهم في جيش كبير سنة ١٣٠٥ م (٧٠٥ ه) " فخرب ضياعهم وقطع كرومهم ومزقهم ... وملك الجبل عنوة " ٧٠ . ولم يكتف السلطان الناصر محمد بذلك وانما لجأ الى تفتيت كيان الكسروانيين واضعاف عصبيتهم ، فاقطع " جبال كسروان بعد فتحها " لبعض امراء المماليك ، فذهبوا اليها " فزرعها لهم الجبلية ورفعت ايدى الرفضة عنها[71] .

٢ ــ التنوخيون :

وهم عشائر كثيرة اعتنقت الدرزية وانتشروا في جهات متفرقة من لبنان ، وظلوا يتأرجحون بين الولاء للصليبيين حينا وللمسلمين احيانا . ومن اشهر عشائر التنوخين جماعة البحتريين الذين غضب عليهم سلاطين المماليك بسبب تقلبهم ، فحاربهم السلطان الظاهر بيبرس لتأديبهم ، ثم اشتد السطان المنصور قلاون في معاقبتهم ، فصادر اقطاعاتهم ووزعها على حامية طرابلس من المماليك ، الامر الذى جعل البحتريين يرضخون بالطاعة بعد ذلك ٧٢ .

وعلى العكس هناك فريق آخر من التنوخيين هم الارسلانيون ومركزهم قرب بيروت ، وقد اشتهروا بمواقفهم ضد الصليبيين مما جعلهم موضع رضاء السلاطين ٧٣ .

٣ ــ المعنيون :

او بنو معن ، وقد حالفوا اقرباء هم التنوخين في الغرب والشهابيين في وادى

التيم ، وابلوا في مقاتلة الصليبيين فكوفئوا على ذلك . بمنحهم اقليم الشوف

٤ ــ الشهابيون الدروز :

وكانت منازلهم في وادى التيم منذ سنة ١١٧٣ ، وشاركوا في مقاتلة الصليبيين ثم التتار . وقد حالف الشهابيون بني معن واصهروا اليهم .

٥ ــ المتاولة :

وهم فرقة من غلاة الشيعة ، وكانت زعامتهم في الجهات الشمالية من لبنان لبني حمادة . ويبدو ان التنافس كان قويا بينهم وبين الشهابيين والدروز حول الزعامة في اقليم الجبل[٧٤] .

٦ ــ النصيرية او العلويون :

وقد عاشوا في شبه عزلة في القسم الشمالي من الجبل تحت زعامة شيوخهم[٧٥] .

٧ ــ الباطنية :

وكانت لهم قلاع عديدة اهمها مصياف والقدموس والكهف والخوابي والمنيقة والرصافة . والمعروف انه مع بداية القرن الثاني عشر للميلاد نقل الباطنية نشاطهم الى بلاد الشام ، وهو نشاط هدام ، اذ اتخذوا من القتل والاغتيال اداة لتثبيت دعوتهم والتخلص من خصومهم[٧٦] ولم يقتصر اثرهم الاجتماعي في ذلك العصر على اثارة الفرقة بين السنة والشيعة في بلاد الشام وممارستهم القتل والاغتيال ، وانما امتد اثرهم الى تفاقم خطر انتشار تعاطي الحشيش في المجتمع ، حتى انهم نسبوا اليه وعرفوا باسم الحشيشية ، مما ادى الى تفشي هذا المرض الخطير في بلاد الشام وخاصة في شماليها . فاذا افقدهم الحشيش صوابهم ، فانهم كانوا لا يتورعون ــ على قول ابن ايبك ــ عن ان يفجروا ببناتهم وامهاتهم واخواتهم " كما فعلوا كل محرم في شهر رمضان ليلا ونهارا "[٧٧] . وقد وصل بهم الحال الى انهم احرقوا المسجد الجامع بحلب ، وجميع المشاهد والقبور الخاصة بائمة السنة . واسترعت تصرفاتهم هذه نظر ابن بطوطة فوصفهم بأن لهم " اموراً عجيبة بهذه البلاد "[٧٨] .

والى جانب التناقض المذهبي والعقائدى الحاد الذى عرفه المجتمع الاسلامي بالشام في عصر الحروب الصليبية ، وجدت هناك خلافات عنصرية واضحة ظهرت في بناء المجتمع وتركيبه . هذا وان كان الملاحظ ان التناقض

المذهبي كان اشد قسوة وظهورا من التناقض العنصرى . فباستثناء بعض الفتن التي أثارتها احيانا طوائف الترك في حلب في فجر عصر الحروب الصليبية ــ مثل العهد المرداسي ــ لا نجد خلافات عنصرية تفرض نفسها على الاحداث في بلاد الشام او تؤثر في تغيير مجرى الامور داخل المجتمع ، بعكس الخلافات المذهبية التي كثيرا ما احتدمت وفرضت ارادتها على توجيه الاحداث داخل الجسد الواحد .

فمن ناحية البناء العنصرى كان العنصر العربي منذ حركة الفتوح العربية الاسلامية هو العنصر المسيطر على المجتمع الشامي . ومنذ اوائل القرن العاشر للميلاد (الرابع للهجرة) اخذت بعض القبائل العربية في اطراف العراق وبلاد الشام تمرح على تلك المسرح محتفظة بالكثير من اصول حياتها البدوية الخاصة ، مما انعكست صورته على المجتمع الشامي في عصر الحروب الصليبية . ولم تلبث تلك القبائل ان بدأت تتحول الى حياة الاستقرار في القرن التالي (الحادى عشر للميلاد) عندما بلغ ذلك التحول ذروته بالوثوب الى مراكز السلطة واقامة امارات عربية في الشام لها كافة مظاهر الحكم المستقلة ، من وزراء وكتاب وحجاب وجيوش ودواوين . وهكذا شهدت بلاد الشام قيام امارة بني مرداس في حلب (١٠٢٤ ــ ١٠٧٩) وامارة بني عمار في طرابلس (١٠٧٠ ــ ١١٠٩) وامارة بني منقذ في شيزر (١٠٨١ ــ ١١٥٧) ومهما يقل من أن هذه الامارات كانت قصيرة العمر ، لم يعش منها حتى اواسط القرن الثاني عشر سوى الامارة الاخيرة ، فان الذى نحب أن نؤكده في بحثنا هو ان العنصر العربي كان له دوره البارز في المجتمع الشامي على عصر الحروب الصليبية . ذلك أن سقوط الامارات السابقة واحدة بعد اخرى لا يعني ــ من وجهة نظرنا ــ اكثر من ضياع النفوذ السياسي للعنصر العربي ، مع بقاء نفوذه الاجتماعي واضحا يشكل ركنا اساسيا من اركان المجتمع الاسلامي في بلاد الشم ، وذلك الى جانب الاركان التي تشكل العناصر الاخرى من اكراد وتركمان واتراك وغيرها . من ذلك مثلا ان امارة بني مرداس سقطت سنة ١٠٧٩ ، ولكن عشائر بني كلاب استمرت في نشاطها على مسرح شمالي الشام ، واستمروا كذلك حتى ذابوا تدريجيا وسط المجتمع الشامي بعد أن طعموه بالكثير من مثلهم وتقاليدهم وعاداتهم الاجتماعية .

هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى فان بني منقذ رغم ما اصابوه من اسباب التمدن في مركزهم شيزر ، وما بلغته امارتهم من درجات الرقي المادى والفكرى ، الا انهم لم يتخلوا مطلقا عن جميع مظاهر حياتهم القديمة ، حياة البداوة[٧٩] . وربما من الاوفق القول بانهم مارسوا حياة جمعت بين القديم والجديد ، فاتصف امراؤهم وفرسانهم بالشجاعة والشهامة ، وظهر بين صفوفهم

فحول الشعراء والنحويين واللغويين ، في الوقت الذى انتشر بعضهم حول شيزر يتصيدون ويزرعون ويرعون . وهكذا جاء تاريخ بني منقذ في شيزر خليطا من الحرب والفروسية من ناحية وحياة الزراعة والرعي والصيد من ناحية اخرى . وكان ذلك في الوقت الذى سكن امراؤهم القصور وعقدوا مجالس الادب والعلم ، وعنوا بقرض الشعر ونسخ القرآن وجمع الكتب[٨٠] . واخذوا يتنقلون بين شيزر وكفرطاب وحماه وحلب ، وفي كل كانت لهم القصور والمجالس المؤنسة[٨١] . وفي جميع نواحي هذا النشاط اسهم امراء بني منقذ بأنفسهم ، حتى يقال ان الامير مرشد بن علي بن منقذ ــ والد اسامة ــ حرص على القيام بنسخ القرآن نسخا مذهبة يزهو بها ويفتخر بكتابتها[٨٢] .

وقد بلغ من عناية آل منقذ بالصيد انهم نظموا في شيزر وضواحيها فرقا متكاملة ومتخصصة في انواع الصيد المختلفة[٨٣] . وكانوا يخرجون من شيزر في ايام معينة لصيد معين « فكيف طارت الحجل كان في ذلك الجانب باز يرسل عليه ، ومعه مماليكه وأصحابه اربعون فارسا ، اخبر الناس بالصيد . فلا يكاد يطير طير ولا يثور ارنب ولا غزال الا اصطدناه » . حتى طير الماء والخنازير كانوا يصطادونها . وكان للصيد عندهم ترتيب « كأنه ترتيب الحرب والامر المهم ، ولا يشغل احد بحديث مع صاحبه ولا لهم هم الا التبحر في الارض لنظر الارانب أو الطير في اوكارها[٨٤] » . وقد استرعت عناية بني منقذ بالصيد ، وبراعتهم فيه ، انتباه فريق من الباحثين الغربيين ، فعالجوا هذه الناحية بعناية ، واطنب في الكلام عنها كل من Huart, Schlumberger [٨٥]

وربما اتخذ اولئك الامراء العرب في بلاد الشام الموالي والمماليك والغلمان من الاقليات التركمانية والكردية والارمنية ، وذلك من باب الترف . وقد نبغ هؤلاء الموالي في الحرب والسلم ، وصاروا يمثلون ركنا اساسيا في حياة الامارات العربية في اول الامر ، بوصفهم خدما للدولة ومنفذين لسياستها وتابعين لاصحاب الشأن فيها .[٨٦]

ويؤدى بنا هذا الى الاشارة الى العناصر غير العربية التي ازداد خطرها في بلاد الشام تدريجيا حتى غدت ركنا اساسيا في المجتمع الاسلامي على عصر الحروب الصليبية ، ومن هذه العناصر الترك والتركمان والاكراد . ومن المعروف ان الجماعات التركية التي انسابت الى شمالي الشام بصفة خاصة جاءت من الصحراء المعروفة بصحراء التركمان الواقعة بين بحر آرال وبحر الخزر ، فضلا عمن جاء من تركستان وبلاد ما وراء النهر ، ومن دفعت بهم دولة السلاجقة على هيئة افواج متلاحقة .

ويقال ان اول من نزل من الاتراك ببلاد الشام هو هارون بن خان سنة ١٠٦٢ ، وكانت معه جماعات من الترك والاكراد والد يالمة والكرج ، ممن يبلغ عددهم نحو الف رجل فاقطعهم محمود بن نصر المرداسي معرة النعمان سنة ١٠٦٦[٨٧] ومن الواضح أن هذه الجموع اتت الى الشام بقصد الاستقرار والدخول في خدمة الامراء المجاورين ، بعكس جموع التركمان التي جاءت الى شمالي الشام بقصد الاغارة والسلب والنهب ثم العودة من حيث اتوا ، مثلما حدث عند اغارتهم على حلب سنة ١٠٥٥ (٤٤٧هـ)[٨٨] ، ولم تلبث ان تكاثرت اعداد تلك العناصر التي استهدفت الاستقرار بالشام ، حتى غدا عنصر الترك بالذات يشكل ركنا هاما من أركان البناء الاجتماعي لتلك البلاد .

وبالاضافة الى الترك شهد عصر الحروب الصليبية انتشار اعداد كبيرة من الاكراد في بلاد الشام . ويبدو ان قرب موطن الاكراد ومناطق تجمعهم في كردستان وشرقي آسيا الصغرى وشمالي العراق وغربي ايران ، جعل انتقالهم الى بلاد الشام امرا سهلا ، بحيث غدا من المألوف في ذلك العصر ان نسمع عن اسماء وشخصيات كردية دخلت في خدمة امراء حلب وشيزر وغيرهما من الامارات الاسلامية بالشام . ومنذ النصف الاول من القرن الحادى عشر للميلاد ــ اى قبل وصول الحملة الصليبية الاولى الى الشام ــ ارسل شبل الدولة نصر المرداسي سنة ١٠٣٣ م (٤٢٤ هـ) فرقة من الاكراد للدفاع عن قلعة تقع الى الشرق من انطرطوس على جبل الخليل ــ كانت تسمى قلعة الصفح ــ فنسبت تلك القلعة اليهم بعد ان استقروا فيها وعرفت باسم قلعة الاكراد او حصن الاكراد[٨٩] . وفي شيزر نجد كثيرا من الشخصيات الكردية التي دخلت خدمة اسامة بن منقذ ولعبت دورا بارزا في الحوادث المعاصرة. وكثيرا ما يتردد في حديث اسامة بن منقذ ذكر اسماء كردية شارك اصحابها في الحروب وغير الحروب من الوان النشاط في ذلك العصر[٩٠].وحسبنا في هذا الصدد ما اجمعت عليه المصادر من ان صلاح الدين كردى الاصل ، هاجر ابوه نجم الدين ايوب بن شادى وعمه اسد الدين شيركوه بن شادى من بلدة دوين قرب بحيرة فان ليدخلا في خدمة زنكي الذى احسن اليهما " واقطعهما اقطاعا حسنا ، ثم جعل ايوب مستحفظا لقلعة بعلبك ، ثم ترقى وصار من امراء دمشق ... " وكان ذلك على عهد نور الدين محمود بن زنكي .[٩١]

ولا شك في ان التركمان والترك ــ رغم ما اشتهروا به من شجاعة حربية ــ الا انهم كثيرا ما افتقدوا صفات الجند النظاميين فضلا عن ان تطرفهم في الحماسة للمذهب السني ادى الى اثارة عديد من الفتن والثورات بين السنة والشيعة [٩٢] . ولكننا لا نستطيع رغم ذلك ان ننكر دورهم في الحياة الاجتماعية ، وخاصة ان ما عرفوا به من جمال ونظافة ادى الى الاقبال على شراء الجوارى

التركيات الحسان ، كما ادى الى نشاط تجارة الرقيق الابيض الذين عرفوا باسم المماليك ، هذا فضلا عن ظهور كثير من الالفاظ والكلمات والمصطلحات غير العربية لتصبح شائعة الاستعمال في الحياة اليومية. اما من ناحية النظم فقد سبق ان اشرنا الى ان النظام الاقطاعي بصورته الشائعة في عصر الحروب الصليبية انما عرفه المجتمع الاسلامي في بلاد الشام عن الاتراك السلاجقة والدول التي تفرعت عنهم في تلك البلاد .

والى جانب الترك والتركمان والاكراد ، وجدت وسط المجتمع الاسلامي في بلاد الشام اقليات عناصر اخرى ـ اسلامية وغير اسلامية ـ مثل الديالمة والكرج والارمن والموارنة . ويبدو ان الارمن بالذات اشتهروا بنشاطهم الذى كا يغلب عليه الطابع البناء في المجتمع الاسلامي . من ذلك ان اسامة بن منقذ ذكر اخبار كثيرين من الارمن الذين اشتهروا بالمهارة والرماية ، واستعان بهم آل منقذ في الصيد والحرب على حد سواء ٩٣ . واذا كانت بعض الاقليات غير الاسلامية التي عاشت في كنف المجتمع الاسلامي ببلاد الشام على عصر الحروب الصليبية ـ مثل الموارنة الذين انزووا في الجبال الواقعة شمالي طرابلس ـ قد اشتهروا بموقفهم المرير المعادى للمسلمين والمناصر للصليبيين ، فان علينا ان نضع في الاعتبار روح العصر والظروف التي احاطت بالمجتمع الشامي عندئذ ٩٤ .

هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى فانه اذا كنا في دراستنا هذه قد اقتصرنا على معالجة اوضاع المسلمين في المناطق التي احتفظت باستقلالها في الشام دون ان يتمكن الصليبيون من غزوها او السيطرة عليها ، فان هناك فريقا آخر من المسلمين خضعوا للسيطرة الصليبية داخل المدن والامارات التي غزاها الصليبيون . ويبدو ان كثيرا من المسلمين في تلك الجهات هجروا بيوتهم ، وابوا العيش في ظل الحكم الصليبي ، في حين بقيت منهم نسبة لا يستهان بها . وهؤلاء ترك لهم الصليبيون اراضيهم يزرعونها مقابل تقديم نصف انتاجها عند اوان ضمها ، فضلاً عن انهم دفعوا للصليبيين ضريبة الرأس وهي دينار وخمسة قراريط ، كما خضعوا لضريبة العشر التي تؤدى للكنيسة ٩٥ وقد عبر ابن جبير عن وضع المسلمين داخل المدن والامارات الصليبية في بلاد الشام بقوله " ان المسلمين مع الفرنج على حالة ترفيه ـ نعوذ بالله من الفتنة ـ وذلك انهم يؤدون لهم نصف الغلة عند اوان ضمها ، وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ، ولا يعترضونهم في غير ذلك . ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها ايضا ، ومساكنهم بأيديهم ، وجميع احوالهم متروكة لهم . وكل ما بأيدى الفرنج من المدن لساحل الشام على هذه السبيل ، ورساتيقها كلها للمسلمين ، وهي القرى والضياع » ٩٦

والواقع انه رغم الحروب التي شهدتها بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية ، فان الصلات الاجتماعية والروابط الانسانية سادت في كثير من الاحيان العلاقات بين المسلمين والمسيحيين . وثمة اشارات عديدة في بطون المصادر المعاصرة توضح ان الطرفين كانت تغلب عليهم الطبيعة البشرية ، بعد ان يطول القتال ويشتد بينهما فيتبادلان الفكاهة ، وربما " انس البعض بالبعض بحيث ان الطائفتين كانتا تتحدثان وتتركان القتال . وربما غنى البعض ورقص البعض لطول المعاشرة ، ثم يرجعون الى القتال بعد ساعة " !! ٩٧ ويفهم مما كتبه اسامة بن منقذ ان الصليبيين لم يترددوا في الاستعانة بجيرانهم المسلمين ، فأرسلوا اليهم يطلبون اطباء يداوون مرضاهم ، وكان المسلمون يلبون طلباتهم بروح انسانية على الفور ٩٨ . ولعله لا حاجة بنا الى التذكير بما فعله صلاح الدين نفسه عندما علم بمرض غريمه ريتشارد قلب الأسد ، اذ بادر بارسال ما طلبه من كمثرى وخوخ وغيرها من الفواكه فضلا عن الثلج والدواء والشراب ، حتى شفي خصمه ليستأنف القتال من جديد ٩٩ ويتعجب ابن جبير من هذه العلاقات الاجتماعية التي لسها بين المسلمين والمسيحيين في بلاد الشام ، فيقول " ومن العجيب ان النصارى المجاورين لجبل لبنان اذا رأوا احد المنقطعين من المسلمين ، جلبوا لهم القوت واحسنوا اليهم ، ويقولون هؤلاء ممن انقطع الى الله عز وجل فتجب مشاركتهم ... ومن اعجب ما يتحدث به ان نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى ، وربما يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهم ، ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم ... وتجار النصارى ايضا لا يمنع احد منهم ولا يعترض .

وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم وهي من الامنة على غاية . وتجار النصارى ايضا يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم . والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الاحوال . واهل الحرب مشغولون بحربهم ، والناس في عافية ، والدنيا لمن غلب !! "١٠٠ وقد دلل ابن جبير على تزايد الروابط الاجتماعية بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية بوصف حفل عرس صليبي في صور ، دعي اليه بعض اهل المدينة من المسلمين وشاركوا فيه١٠٨ . كذلك اشار ابن جبير الى احتفاظ المسلمين بمساجدهم في المدن الاسلامية التي اغتصبها الصليبيون ، فقال انه شاهد في صور مساجد متعددة ، وانه نفسه اقام في احد تلك المساجد اثناء زياراته لمدينة صور .

واخيرا ، ربما كان من المناسب ان نختتم دراستنا عن المجتمع الاسلامي في بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية بالتساؤل عن مدى تأثر ذلك المجتمع بالصليبيين الذين نفذوا الى قلبه ، وعاشوا مبعثرين وسطه نحوا من قرنين من

الزمان . وهنا تواجهنا حقيقة واضحة هي انه عند دراسة التأثيرات المتبادلة بين المجتمعين الاسلامي والصليبي في بلاد الشام في ذلك العصر ، نجد ان الغالب هو تأثر المجتمع الاخير بالمجتمع الاول وليس العكس . ولا يصعب علينا تعليل هذه الظاهرة في ضؤ طبيعة الظروف التي احاطت بالصليبيين في بلاد الشام في ذلك العصر . فهم من ناحية كانوا اقل عددا وانتشروا على هيئة جاليات صغيرة داخل مدن او قلاع صارت اشبه بجزر محدودة وسط محيط اسلامي كبير . وفي داخل هذه المراكز لم ينعم الصليبيون بالاستقرار طويلا ، اذ كثيرا ما كانوا يتعرضون لهجمات ونكسات اضطرت فريقا منهم الى تفضيل العودة الى بلادهم في الغرب لتأتي بدلهم جماعات صليبية جديدة في صورة محاربين او حجاج . يضاف الى هذا حقيقة اخرى كبرى ينبغي الا تغيب عنا هي ان الصليبين الذين وفدوا من غربي اوروبا على بلاد الشام في ذلك العصر كانوا في مستوى حضارى احط بكثير مما كان عليه المسلمون بالشام من رقي حضارى فكرى ومادى ، الامر الذى جعل الصليبيين هم الذين يحاولون التشبه بالمسلمين ومحاكاتهم والتأثر بأوضاعهم ، وليس العكس . وبعبارة اخرى ان الاقليات الصليبية الغربية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد لم تستطع ان تحتفظ بمقوماتها وعاداتها واصولها الغربية سليمة ونقية ، وانما اضطرت بحكم انحطاط مستواها الحضارى من ناحية وقلة اعدادها دون وصول امدادات منتظمة تغذيها بطريقة ثابتة من ناحية اخرى ــ الى ان تكتسب الكثير من صفات وعادات المجتمع الاسلامي الارقى في مستواه الحضارى والذى قدر لها ان تعيش متناثرة وسطه .

ويبدو هذا الامر بوضوح في سخرية كتاب المسلمين المعاصرين من ضعف المستوى الحضارى للصليبيين بالشام وخشونة عاداتهم وتقاليدهم وخلل اوضاعهم الاجتماعية . فبالاضافة الى القصص العديدة التي رواها اسامة بن منقذ بالذات ، ليدلل بها على ضعف المستوى الحضارى والاجتماعي عند الصليبيين ، نجده يقولها في صراحة ان الصليبيين الذين عاشوا بالشام وجاوروا المسلمين تهذبت اخلاقهم وانسوا بعشرة المسلمين ، اما " من هو قريب العهد بالبلاد الفرنجية فهو اجفى اخلاقا " . ١٠١

ولم يلبث ان تطرق الى المجتمع الصليبي بالشام الكثير من العادات الشرقية الاسلامية التي استرعت انتباه الباحثين . فها هي نسبة كبيرة من الصليبيين تأخذ عن المسلمين تربية الذقون ولبس الثياب الفضفاضة الواسعة التي تناسب جو الشرق . وها هم افراد الطبقة الاستقراطية من الصليبين يعيشون في قصور فخمة تتميز بما في داخلها من احواش وفسقيات للمياه ، وبما ازدانت به من زخارف ونقوش عربية رائعة . بل لقد نبذوا الاسلوب الغربي في اعداد الطعام

وطهيه ، واستمرؤا الاطعمة الشرقية ، وصار السعيد فيهم من استطاع الظفر بطباخات شرقيات لا يأكل « الا من طبيخهن »١٠٢ . اما نساؤهم فقد اعجبن بالازياء الشرقية وتركن ملابسهن التقليدية ليرتدين السترات الشرقية الموشاة بخيوط الذهب والفضة ، وحاكين المسلمات في التردد على الحمامات الاسلامية لتقوم البلانة بتحفيفيهن وتنظيف اجسادهن ، بل لقد اتخذن الحجاب على الوجه ـ لا تحشما ـ وانما رغبة منهم في محاكات المسلمات الارقى حضاريا ، فضلا عن اعتقادهن بأن الحجاب يثير حب الاستطلاع عند الرجال ، ويزيد المرأة حسنا بنسيجه الموشى بالذهب .

وهكذا احتفظ المجتمع الاسلامي طوال القرنين اللذين قضاهما الصليبيون في بلاد الشام بأصوله وتقاليده ومثله ، في حين اضطر برابرة الغرب الى التخلي عن الكثير من اصولهم ، بل لقد وجدوا لذة وفخرا في التشبه بالمجتمع الارقى الذى عاشوا وسطه ، الامر الذى أثار روح الاستياء عند بعض كتاب الصليبيين منذ وقت مبكر . وها هو فوشيه Foucher احد المؤرخين الصليبيين الذين ارخوا للحملة الصليبية الاولى ، يكتب بعد انقضاء الربع الاول من القرن الثاني عشر ، اى قبل ان يمر خمسون عاما فقط على استقرار الصليبيين في الشام ، فيقول ما نصه « ... واحسرتاه !! بعد ان كنا غربيين صرنا الآن شرقيين تماما في هذه البلاد (الشام) . وغدا الايطالي او الفرنسي الذى يعيش في هذه البلاد جليليا او فلسطينيا ، والذى قدم من ريمز او شارتر غدا صوريا او انطاكيا . لقد نسينا اوطاننا الاولى وصار معظمنا لا يعرف عنها شيئا . وها هم البعض منا وقد اتوا الى هذه البلاد ليمتلكوا البيوت والرقيق ... وغدا الذى كان غربيا بالامس مواطنا شرقيا اليوم ... !! » ١٠٣

حواشى

١ ـ Faruk Summer : Oguzler, p.p. 9-10
Gibb : Damascus Chr. p. 22.

٢ ـ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ١ ص ٢٥٧ ـ اسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ٨٧ .

٣ ـ Testa Francorum, p. 78

٤ ـ Raymond d'Agiles (Rec. Hist. Occid III) p.p. 275-276.

٥ ـ ابن جبير : الرحلة ص ٢٧٨ .

٦ ـ المصدر السابق ، ص ٢٧٥ .

٧ ـ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج١، ص ٣٤٠ .

٨ ـ محمد كرد علي : خطط الشام ج ٦ ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣ .

٩ ـ المرجع السابق : ج ٦ ، ص ٨٢

١٠ ـ ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٥٧٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦ .

١١ ـ سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى في عصر سلاطين المماليك ص ٩٥ ـ ٩٦ .

١٢ ـ ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق : ج ٢ ص ١٦٢ .

١٣ ـ ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ، ج ١٤ ورقة ١٣٦ (مخطوط) .

١٤ ـ ابن طولون : الشمعة المضية في اخبار العظة الدمشقية ص ١٣ .

١٥ ـ رحلة ابن جبير ، ص ٢٧٧ .

١٦ ـ الاربلي : مدارس دمشق وربطها وجوامعها ص ٣٠ .

١٧ ـ ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٨١ ، النويرى : نهاية الارب ج ٢٥ ورقة ٢٩ .

١٨ ـ ابن الشحنة : الدر المنتخب ص ١٣٣ ـ ١٣٤ .

١٩ ـ رحلة ابن جبير ص ٢٧٤ .

٢٠ ـ ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ج ١ ص ٤ .

٢١ ـ النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص ٦٦٧ .

٢٢ ـ ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٨٣ .

٢٣ ـ ابن قاضي شهبة : الدر الثمين في سيرة نور الدين ورقة ١١٧ ـ ١١٨ .

٢٤ ـ ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٨١ .

٢٥ ــ سعيد عبد الفتاح عاشور : السيد احمد البدوى (الفصل الأول) .
٢٦ ــ النويرى : نهاية الأرب ج ٢٥ ورقة ٦١ (مخطوط) ــ انظر ايضا
ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ج ١٢ ورقة ٤٨ (مخطوط) .
٢٧ ــ Sauvaget : Les Monuments. Historique de Damas p. 102.
٢٨ ــ رحلة ابن جبير ، ص ٢٨٢ .
٢٩ ــ ابن كثير : البداية والنهاية جج ١٢ ص ٢٨١ .
٣٠ ــ ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء ج ٢ ص ١٥٥ .
٣١ ــ رحلة ابن جبير ص ٢٧٤ ،، المنجد : بيمارستان نور الدين ص ١٤ .
٣٢ ــ محمد كرد علي : خطط الشام ، ج ٦ ص ١٦٥ ــ ١٦٦ .
النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ج ١ ص ٢٧٨ .
٣٣ ــ رحلة ابن جبير ص ٢٨٤ ــ ٢٨٥ .

٣٤ ــ ناصر خسرو : سفرنامة ص ١٣ ــ ١٤ .
٣٥ ــ العمرى : مسالك الابصار ج ٢ مجلد ٣ ورقة ٤٤٩ (مخطوط) .
٣٦ ــ ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٤ ص ٣٥٧ ــ ٣٥٨ .
٣٧ ــ دائرة المعارف الاسلامية ــ مادة احداث .
٣٨ ــ رحلة ابن جبير ، ص ٢٨٥ .
٣٩ ــ المصدر السابق ، ص ٢٨٤ .
٤٠ ــ المصدر نفسه، ص ٢٨٨ .
٤١ ــ المصدر نفسه، ص ٢٧٦ ــ ٢٧٧ .
٤٢ ــ ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٨٣ .
٤٣ ــ رحلة ابن جبير ص ٢٤٧ .
٤٤ ــ المصدر السابق ص ٢٨٧ .
٤٥ ــ المصدر السابق .
٤٦ ــ ابن الاثير : الكامل ، ج ٨ ص ٢٣٥ .
٤٧ ــ ابو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ٢٣٨ .
٤٨ ــ رحلة ابن جبير ، ص ٢٤٢ .
٤٩ ــ المصدر السابق ، ص ١٧٢ .
٥٠ ــ ابن الشحنة : الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، ص ٤٤ ــ ٤٥ .
٥١ ــ المصدر السابق
٥٢ ــ المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٥٤ .
٥٣ ــ النويرى : نهاية الارب ج ٢٥ ورقة ٥٩ (مخطوط) .
٥٤ ــ ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ج ٢٠ ص ٢٦٥ ــ ٢٦٦ (مخطوط) .
٥٥ ــ ابن العديم : بغية الطلب ج ١ ورقة ١١٩ ــ ١٢١ (مخطوط) .
٥٦ ــ القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ٢٠٤ .

٥٧ ـ المقريزى : السلوك ، حوادث سنة ٧١٥ هـ .
٥٨ ـ القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ٤ ص ٢٠٦ .
٥٩ ـ المصدر السابق ـ ص ٢٠٨ ـ ٢١٠ .
٦٠ ـ النويرى : نهاية الارب ج ٢٥ ورقة ٥٩ ، ٦٠ (مخطوط) .
٦١ ـ تاريخ ابن الوردى : ج ١ ص ٤٥١ ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٩ ـ ١٠ .
٦٢ ـ الاصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٢٥٥ .
٦٣ ـ ابن قاضي شهبة : الدر الثمين في سيرة نور الدين ورقة ١٧ (مخطوط) .
٦٤ ـ ابو شامة : كتاب الروضتين ص ١٠٠ ،، ١٣٠ .
٦٥ ـ يحيى بن سعيد : التاريخ ص ٢١١ ، ابن العديم : زبدة الحلب ج ١ ص ٢٠١ .
٦٦ ـ شيخ الربوة الانصارى : نخبة الدهر ، ورقة ١١١ (مخطوط) .
٦٧ ـ Lamnens : La Syrie, II, p. 16
٦٨ ـ للوقوف على التفصيلات انظر : سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكي في مصر
٦٩ ـ والشام .
٧٠ ـ المقريزى : السلوك ، ج ٢ ص ١٥ .
٧١ ـ صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٣٢ ـ ٣٣ ،، ابو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٧٠٥ ، المقريزى : السلوك ج ٢ ص ١٦٠ .
٧٢ ـ ابو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٧٠٥ ،، صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ٣٢ ـ ٣٣ .
٧٣ ـ الشدياق : اخبار الاعيان في جبل لبنان ، ص ١٧٤ .
٧٤ ـ احمد عزت عبد الكريم : التقسيم الادارى لسورية ص ١٣٦ .
Lammens : La Syrie, II, p. 13.
Domombynes : La Syrie a l'epoque des Mamlouks, p. 227.
Bernard Lewis : The Assassins. p.p. 99-124.
٧٥ ـ ابن ايبك : الدرة المضية في اخبار الدولة الفاطمية ص ٥٦٢ .
٧٦ ـ الرحلة ، ص ٢٧٩ .
٧٧ ـ Derenbourg : Vie du Ousama, p. 516,
٧٨ ـ ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٣ ص ٨٦ ،، العماد الاصفهاني : الخريدة ج ١ ص ٥٦١ ـ ٥٦٢
٧٩ ـ ابن العديم : زبدة الحلب ١ ص ٢٣٣ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٤ ص ٣٥٧ .
٨٠ ـ اسامة بن منقذ : الاعتبار ص ٥٣ ،، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٢٦٠ .
٨١ ـ اسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ١٩٢ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ .
٨٢ ـ المصدر السابق ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ .
٨٣ ـ Huart : Ousama b. Mounkid (J.R.A.S. 1890) p. 304 ,,,
Schlumberger : Recits de Byzance et de Croisades, pp. 99-101.

٨٤ ـ اسامة بن منقذ : الاعتبار ص ٤٩ ، ٥٤ ، ٩٦ ، ١٢٢ .
٨٥ ـ تاريخ ابن الوردى ج ١ ص ٣٧١ ،، ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٩ ـ ١٠ .
٨٦ ـ ابن ميسر / اخبار مصر ص ٧ .
٨٧ ـ سبط بن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ١٠ ورقة ٥٦ ،،

Canard : Hist. de la Dynastie des Hamdanides, p. 206.

٨٨ ـ اسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ٤٨ ـ ٤٩ ، ٦٦ ـ ٧٧ ، ٩٥ ـ ٩٦ ، ١١٦ ، ١٢٢ .
٨٩ ـ المقريزى : السلوك ج ١ ق ١ ص ٤١ .
٩٠ ـ Cam. Med. Hist. Vol. 4 p.p. 302-303.
٩١ ـ اسامة بن منقذ : الاعتبار ، ص ١٠٦ .
٩٢ ـ Hitti : Lebanon in History, p.p. ?çù-321.
٩٣ ـ Runciman : A Hist. of the Crusades, Vol. 2 p. 299.
٩٤ ـ رحلة ابن جبير ، ص ٣٠١ ، ٣٠٢ .
٩٥ ـ ابو شامة : كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٣ .
٩٦ ـ اسامة بن منقذ : الاعتبار .
٩٧ ـ ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٣٨٣ .
٩٨ ـ ابو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٠٣ .
٩٩ ـ رحلة ابن جبير ، ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧ .
١٠٠ ـ رحلة ابن جبير ص ٢٨٨ .
١٠١ ـ اسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، ص ١٣٤ .
١٠٢ ـ المصدر السابق ، ص ١٤٠ .
١٠٣ ـ Foucher de Chartres (Rec. Hist. Occid. Tome 3) p. 360.

الصليبيون الألمان في الشام

من ٥٨٥ - ٥٨٦ هـ / ١١٨٩ - ١١٩٠ م .

عبد الكريم كلشني
جامعة بهلوى – شيراز\ايران

ذكر وصول خبر ملك الالمان من اقوال مختلفة

قال القاضي الامام بهاء الدين المعروف بابن شداد في كتاب « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ».

« لما دخل رمضان من شهور سنة خمس وثمانين وخمس ماية ، وصل من جانب حلب كتب من ولده الملك الظاهر عز نصره يخبر فيها انه قد صح عنده ان ملك الالمان قد خرج الى القسطنطينية في عدة عظيمة يريد البلاد الاسلامية . واشتد ذلك على السلطان وعظم عليه وراى استنفار الناس للجهاد واعلام خليفة الوقت بهذه الحادثة فندبني لذلك وامرني بالمسير الى صاحب سنجار وصاحب الجزيرة وصاحب الموصل وصاحب اربل ، واستدعائهم الى الجهاد بانفسهم وعساكرهم وامرني بالمسير الى بغداد لاعلام خليفة الزمان بذلك وتحريك عزمه على المعاونة .. وكان الخليفة اذ ذاك الناصر لدين الله ابو العباس احمد بن المستكفي بامر الله . وكان مسيرى في ذلك المعنى في حادى عشر رمضان ويسر الله تعالى لي الوصول الى الجماعة وابلاغ الرسالة اليهم فاجابوا بنفوسهم وسار اولهم عماد الدين زنكي صاحب سنجار بعسكره وجمعه في تلك السنة وسار ابن اخيه صاحب الجزيرة سنجر شاه بنفسه يجر معسكره وسير صاحب الموصل ابنه علاء الدين خرج شاه وسار صاحب اربل بنفسه وعسكره وحضرت الديوان العزيز ببغداد وانهيت

الحال . كما رسم ووعد بكل جميل وعدت الى خدمته وكان وصولي اليه في يوم الخميس خامس ربيع الأول سنة ست وثمانين وكنت قد سبقت العساكر وخبرته باجابتهم بالسمع والطاعة وباهتمامهم بالمسير . فسر بذلك وفرح فرحا شديدا " .

قال ابو الفداء في المختصر في اخبار البشر في حوادث سنة ستة وثمانين وخمس مائة(٥٨٦) :

" ..... ووصل الى السلطان العساكر من البلاد وبلغ المسلمين وصول ملك الالمان وكان قد سار من بلاد وراء القسطنطينية بمائة الف مقاتل واهتم المسلمون لذلك وايسوا من الشام بالكلية فسلط الله تعالى على الالمان الغلاء والوباء ، فهلك اكثرهم في الطريق . ولما وصل ملكهم الى بلاد الارمن نزل في نهر هناك يغتسل فغرق واقاموا ابنه مقامه ، فرجع من عسكره طايفة الى بلادهم وطايفة اختارت اخا ابن الملك المذكور فرجعوا ايضا ولم يصل مع ابن الملك الالمان الى الفرنج الذين على عكا غير تقدير الف مقاتل . وكفى الله المسلمين شرهم وبقي السلطان والفرنج على عكا يتناوشون القتال الى العشرين من جمادى الاخرة ، فخرجت الفرنج من خنادقهم بالفارس ... " .

رواية أخرى :

روى المؤرخ المشهور عز الدين بن الاثير " الكامل في التاريخ " في حوادث السنة ايضا ."في هذه السنة خرج ملك الالمان من بلاده وهم نوع من الفرنج من اكثرهم عددا واشدهم باسا . وكان قد ازعجه ملك المسلمين البيت المقدس فجمع عسكره وازاح علتهم وسار عن بلاده وطريقه على القسطنطينية . فارسل ملك الروم بها الى صلاح الدين يعرفه الخبر ويعد انه لا يمكنه من العبور في بلاده . فلما وصل ملك الالمان الى القسطنطينية عجز ملكها عن منعه من العبور لكثرة جموعه . لكنه منع عنهم الميرة" ولم يمكن احدا من رعيته من حمل ما يريدونه اليهم فضاقت بهم الازراد والاقوات وساروا حتى عبروا خليج القسطنطينية . وصاروا على ارض بلاد الاسلام ، وهي مملكة الملك قلج ارسلان بن مسعود بن قلج ارسلان بن قتلمش بن سلجوق . فلما وصلوا الى اوايلها ثار بهم التركمان الاوج فما زالوا يسايرونهم ويقتلون من انفرد ويسرقون ما قدروا عليه وكان الزمان شتاء والبرد يكون في تلك البلاد شديدا . والثلج متراكما . فاهلكهم البرد والجوع والتركمان ، فقل عددهم . فلما قاربوا مدينة قونية خرج اليهم الملك قطب الدين ملك شاه بن قلج ارسلان ليمنعهم فلم يكن له بهم قوة ، فعادوا الى قونية وبها أبوه ، قد حجر ولده المذكور عليه وتفرق اولاده في بلاده وتغلب كل واحد منهم على ناحية منها ، فلما عاد عنهم قطب الدين اسرعوا السير في اثره فنازلوا قونية وارسلوا الى قلج ارسلان هدية ، وقالوا له : ما قصدنا بلادك وانما قصدنا البيت

المقدس وطلبوا منه ان يأذن لرعيته في اخراج ما يحتاجون اليه من قوت وغيره .فأذن في ذلك فأتاهم ما يريدون فشبعوا وتزودوا وساروا ثم طلبوا من قطب الدين ان يامر رعيته بالكف عنهم وان يسلم اليهم جماعة من امرائه رهاين وكان يخافهم . فسلم اليهم نيفا وعشرين اميرا كان يكرمهم . فساروا بهم معهم ولم يمتنع اللصوص وغيرهم من قصدهم والتعرض اليهم . فقبض ملك الالمان على من معه من الامراء وقيدهم فمنهم من هلك في اسره ومنهم من فدى نفسه. وسار ملك الالمان حتى اتى بلاد الارمن وصاحبها لافون بن اصطفان بن ليون الارمني . فامدهم بالاقوات والعلوفات وحكمهم في بلاده واظهر الطاعة لهم ثم ساروا نحو انطاكية . وكان في طريقهم نهر فنزلوا عنده ودخل ملكهم اليه ليغتسل فغرق في مكان منه لا يبلغ الماء وسط الرجل وكفى الله شره . وكان معه ولد له فصار ملكا بعده وسار الى انطاكية فاختلف اصحابه ، فأحب بعضهم العودة الى بلاده فتخلف عنه وبعضهم مال الى تمليك اخ له فعاد ايضا وسار فيمن صحت نيته له فعرضهم وكانت نيفا واربعين الفا وقع فيهم الوباء والموت . فوصلوا الى انطاكية وكأنهم قد نبشوا من القبور فتبرم بهم صاحبها وحسن لهم المسير الى الفرنج الذين على عكا فساروا على جبلة واللاذقية وغيرهما من البلاد التي ملكها المسلمون وخرج اهل حلب وغيرها اليهم واخذوا منهم خلقا كثيرا ومات اكثر ممن اخذ فبلغوا طرابلس واقاموا بها اياما فكثر فيهم الموت فلم يبق منهم الا نحو الف رجل فركبوا في البحر الى الفرنج الذين على عكا ولما وصلوا ورأوا ما نالهم في طريقهم وما هم فيه من الاختلاف عادوا الى بلادهم فغرقت بهم المراكب ولم ينج منهم احد . وكان الملك قلج ارسلان يكاتب صلاح الدين باخبارهم ويعده انه يمنعهم من العبور في بلاده ، فلما عبروها ارسل يعتذر بالعجز عنهم لأن اولاده حكموا عليه وحجروا عليه وتفرقوا عنه وخرجوا عن طاعته . واما حال صلاح الدين عند وصول الخبر بعبور ملك الالمان فانه استشار اصحابه فاشار كثير منهم عليه بالمسير الى طريقهم ومحاربتهم قبل ان يتصلوا بمن على عكا ، فقال : بل نقيم الى ان يقربوا منا . وحينئذ نفعل ذلك لئلا يستسلم من بعكا من عساكرنا لكنه سير بعض من عنده من العساكر منها عسكر حلب وجبلة واللاذقية وشيزر ذلك الى اعمال حلب ليكونوا من اطراف البلاد يحفظونها من عاديتهم . وكان حال المسلمين كما قال الله عز وجل :

«اذ جاؤكم من فوقكم ومن اسفل منكم واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنون هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا» فكفى الله شرهم ورد كيدهم في نحرهم ومن شدة خوفهم ان بعض امراء صلاح الدين كان له ببلد الموصل قرية وكان أخي رحمه الله يتولاها . فحصل دخلها من حنطة

وشعير وتبن ، فأرسل اليه في بيع الغلة . فوصل كتابه يقول :

" لا تبع الحبة الفرد ونستكثر لنا من التبن" ثم بعد ذلك وصل كتابه يقول ببيع الطعام فما بنا حاجة اليه . ثم ان ذلك الامير قدم الموصل فسألناه عن المنع من بيع الغلة ثم الاذن فيها بعد مدة يسيرة . فقال لما وصلت الاخبار بوصول ملك الالمان ، ايقنا اننا ليس لنا بالشام مقام . فكتبت بالمنع من بيع الغلة لتكون ذخيرة لنا اذا جئنا اليكم . فلما اهلكهم الله تعالى ، فاغنى عنها كتبت ببيعها والانتفاع بثمنها .

صورة كتـاب الكاتوليـكوس الارمنـــي Catholicos بركرى كورباسيل الى السلطان صلاح الدين الايوبي

ولقد وصل الى السلطان كتاب من الكاتغكوس وهو مقدم الارمن وهو صاحب قلعة الروم على طرف الفرات وترجم ، فكانت نسخته كتاب الداعي المخلص الكاتوليكوس مما اطالع به علوم مولانا ومالكنا السلطان الناصر جامع كلمة الايمان رافع علم العدل والاحسان صلاح الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين ادام الله اقباله وضاعف جلاله وصان مهجته وكماله وبلغه نهاية اماله من امن ملك الالمان وما جرى له عنده ظهوره وذلك ان اول ما خرج من دياره ودخل بلاد الهنكر غصبا والتجأ ملك الهنكر الى الاذعان والدخول تحت طاعته واخذ من ماله ورجاله ما اختار ثم انه دخل ارض مقدم الروم وفتح البلاد ونهبها واقام بها واجلى اهلها واخرج ملك الروم الى الطاعة واخذ رهاينه ولده واخاه واربعين نفرا من خلصائه واخذ منه خمسين قنطارا ذهبا وخمسين قنطارا فضة وثياب اطلس بمبلغ عظيم ، واغتصب المراكب وعدى بها الى هذا الجانب وصحبته الرهاين الى ان دخل حدود بلاد الملك قليج ارسلان ورد الرهاين وبقى سايرا ثلثة ايام وتركمان الاوج يلقونه بالاغنام والابقار والخيل والبضائع فيداخلهم الطمع فيه وجمعوا من جميع البلاد ووقع القتال بين التركمان وبينه وضايقوه ثلثة وثلثين يوما وهو ساير . ولما قرب من قونيه جمع قطب الدين ولد قليج ارسلان العساكر وقصده وضرب معه مصافا عظيما فظفر به ملك الالمان وكسره كسرا عظيما وسار حتى اشرف على قونيه ، فخرج اليه جموع عظيمة من المسلمين فردهم مكسورين وهجم قونيه بالسيف وقتل عالما عظيما من المسلمين والفرس واقام بها خمسة ايام فطلب قليج ارسلان منه الامان فأمنه الملك واستقر بينهم قاعدة اكيدة واخذ منه الملك رهاين عشرين من اكابر دولته واشار على الملك ان يجعل طريقه على طرسوس والمصيصة ففعل وقبل منه وقبل وصوله الى هذه البلاد نفذ كتابه ورسوله وشرح

حاله وامر قصده وما لقيه في طريقه وانه بلا بد مجتاز بهذه الديار اختيارا اوكرها فاقتضى الحال انفاذ المملوك حانم وصحبته ماسال ومعه من الخواص جماعة للقاء الملك وجواب كتابه . وكانت الوصية معهم ان يحرفوه على بلاد قليج ارسلان ان امكن . فلما اجتمعوا بالملك الكبير واعادوا عليه الجواب وعرفوه الاحوال اى الانحراف ثم كثرت عليه العساكر والجموع ونزل على شط بعض الانهار واكل خبزا ونام ساعة وانتبه . فتاقت نفسه الى الاستحمام في الماء البارد ففعل ذلك ، وخرج وكان من امر الله انه تحرك عليه مرض عظيم من الماء البارد ، فمكث اياما قلايل ومات . واما ابن لاون فانه كان سايرا يلقي الملك ، فلما جرى هذا المجرى هرب الرسل من العسكر وتقدموا اليه واخبروه بالحال فدخل في بعض حصونه واحتمى هناك ، واما ابن الملك فكان ابوه منذ توجه الى قصد هذه الديار ونصب ولده معه عوضه ، فاضطربت قواعده وبلغه هرب رسل لاون فانفذ واستعطفهم واحضرهم وقال : ان ابي كان شيخا كبيرا وما قصد هذه الديار الا لا جل حج بيت المقدس وانا الذى دبرت الملك وعانيت المشاق في هذه الطريق .فمن اطاعني والا قصدت دياره واستعطف لاون واقتضى الحال الاجتماع به ضرورة وبالجملة فهو في عدد كثير ٤٢٠٠٠ ، ولقد عرض عسكره فكان اثنين واربعين الفا مجفجفا واما الرجاله فما يحصى عددهم وهم اجناس متفاوته وهم خلق غريبة وهم على قصد عظيم ، وجد في امرهم وسياسه ، هليله حتى ان من جنى منهم خباثة يذبح مثلما تذبح الشاة . ولقد بلغهم عن بعض اكابرهم انه جنى على غلام له وجاوز الحد في ضربه فاجتمعت القسوس للحكم . فاقتضى الحال والحكم العام ذبحه وشفع الى الملك منهم خلق عظيم . فلم يلتفت الى ذلك وذبحه وقد حرموا الملاذ على انفسهم حتى ان من بلغهم عنه بلوغ لذة هجروه وعزروه كل ذلك حزنا على البيت المقدس ولقد صح عن جمع منهم انهم هجروا الثياب مدة طويلة وحرموها على انفسهم ولم يلبسوا الا الحديد حتى انكر عليهم الاكابر ذلك وهم من الصبر على الشقاء والذل والتعب في حال عظيم طالع المملوك بالحال ، وما يتجدد بعد ذلك يطالع به ان شاء الله تعالى. هذا كتاب الكاتوليكوس ومعنى هذا اللفظ الخليفة واسمه بركرى كورباسيل..

ذكر كتاب ايساكيوس ، ملك القسطنطينية ، الى السلطان صلاح الدين

كان بين السلطان وبين ملك القسطنطينية مراسلة ومكاتبة . وكان وصل منه رسول الى السلطان بمرج عيون في رجب سنة خمس وثمانين وخمسماية بجواب رسول كان انفذه السلطان اليه بعد تقرير القواعد معه واقامة قانون

الخطبة في جامع القسطنطينية . فمضى الرسول واقام الخطبة ولقي من الملك احتراما عظيما واكراما زايدا . وكان قد انفذ معه في المركب الخطيب والمنبر واجتمع اليه المسلمون المقيمون بها والتجار واقام الدعوة الاسلامية العباسية . ثم عاد فعاد معه هذا الرسول يخبرنا بانتظام الحال في ذلك . فاقام مدة ولقد شاهدته يبلغ الرسالة ومعه ترجمان يترجم عنه وهو شيخ احسن ما يعرض ان يكون من صور المشايخ وعليه زيهم الذى يختص بهم ، ومعه كتاب وتذكرة والكتاب مختوم بذهب واقام مدة ثم مات . ولما مات وصل خبره الى ملك القسطنطينية وخبر وفاته فانفذ هذا الرسول في تتمة ذلك ووصل معه الكتاب في جواب ذلك وصورة ما فسر من الكتاب الواصل معه ووضعه انه كان كتابا مدروجا عرضا وهو دون عرض كتاب بغداد مترجما ظاهره وباطنه بشطرين بينهما فرجة وضع فيهاالختم من ذهب مطبوع كما يطبع الخاتم في الشمع على ختمه صورة ملك وزن الذهب خمسة عشر دينارا مضمون الشطرين المكتوبين ما هذا صورته :

«من ايساكيوس الملك المؤمن بالمسيح الأله المتوج من الله المنصور العالي ابدا افقوس المدبر من الله القاهر الذي لا يغلب ضابط الروم بذاته انكلوس الى النسب سلطان مصر صلاح الدين المحبة والمودة. وقد وصل خط نسبتك الذي نفذت الى ملكي وقرأناه وعلمنا منه ان رسولنا توفي وحزنا حيث أنه توفي في بلد غريب وما قدر ان يتم كل ما رسم له ملكي وامره ان يتحدث مع نسبتك ويقول في حضرتك ولا بد لنسبتك ان تهتم بانفاذ رسول الى ملكي ليعرف ملكي ما بعث اليك مع رسولي المتوفي. واما القماش الذي خلفه ووجد بعد موته ينفذ الى ملكي لنعطيه اولاده واقاربه.

وما اظن انه يسمع نسبتك اخبارا رديه وانه قد سار في بلادى الالمان وما عجب فان الاعداء يرجفون باشياء كذب على قدر اغراضهم ولو تشتهي ان تسمع الحق فانهم قد تأذوا وتعبوا كثيرا اكثر مما اذوا فلاحي بلادى وقد خسروا كثيرا من المال والدواب والرجال ومات منهم خلق كثير وبالشدة قد تخلصوا من ايدى اخبار بلادى وقد ضعفوا بحيث انهم لا يصلون الى بلادك وان وصلوا كانوا ضعافا لا ينفعون جنسهم ولا يضرون نسبتك وبعد ذلك كله العجب كيف نسيت الذى بيني وبينك كيفما عرفت للكي شيئا من المقاصد والمهمات وكما يظهر للكي انه ما ربح ملكي من محبتك الا عداوة الفرنج وجنسهم ولا بد لنسبتك كما قد كتبت للكي في كتابك الذى نفذت من انفاذ رسول حتى تعرفني جميع ما قد كتبت اليك في القديم من الحديث ويكون ذلك باسرع ما يمكن ولا تحمل على قلبك من محبي الاعداء الذين قد سمعت بهم فان ادمارهم على قدر نيتهم وارائهم

وكتب في ايام سنة الف واحد وخمس مایة فوقف السلطان على الكتاب واكرم الرسول واحسن مثواه، وكان شيخا حسن الخلق نهيا عارفا بالعربية والرومية والفرنجية ثم ان الفرنج اشتدوا في حصار البلد وضايقوه لما قد حدث لهم من القوة بوصول الكندهرى فانه اتفق لهم على ما ذكر في عشرة الاف مقاتل ووصلتهم نجدة اخرى في البحر قويت بها قلوبهم والحوا على البلد بالقتال .

ذكر مسير العساكر الى اطراف البلاد في طريق ملك الالمان

قال القاضي امام بهاء الدين المعروف بابن شداد في كتابه «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية»:

لما تحقق السلطان وصول الملك الالمان الى بلاد ابن لاون وقربه من البلاد الاسلامية جمع امراء دولته وارباب الراى وشاورهم فيما يصنع فاتفق الراى على ان يسير بعض العسكر الى البلاد المتاخمة لطريق عسكر العدو الواصل وان يقيم السلطان بنفسه على منازلة العدو بباقي العسكر المنصور وكان اول من سار صاحب منبج MANBEDJ وهو ناصر الدين بن تقي الدين ثم عز الدين بن المقدم صاحب كفرطاب CAFERTAB وبارين BARIN وغيرهما.

ثم مجد الدين صاحب بعلبك ثم سابق الدين صاحب شيزر ثم الياروقية من جملة عسكر حلب ثم عسكر حماة وسار ولده الملك الافضل ثم بدر الدين شحنة دمشق ثم سار بعد ذلك ولده الملك الظاهر الى حلب لابانة الطريق وكشفا الاخبار وحفظا لما يليه من البلاد وسار بعده الملك المظفر لحفظ ما يليه من البلاد وتدبير أمر العدو المجتاز وكان اخر من سار في ليلة السبت التاسع من جمادى الاولى سنة ست وثمانين (شنبه ٩ جمادى الاول ٥٨٦) مطابق با ١٤/يونى (زوئن ١١٩٠ مسيحي) فلما سارت هذه العسكر خفت الميمنة لان معظم من سار منها فامر رحمه الله الملك العادل ان ينتقل الى منزلة تقي الدين في طرف الميمنة، وكان عماد الدين زكي في طرف الميسرة، ووقع في العسكر مرض عظيم فمرض مظفر الدين صاحب حران وشفى ومرض بعده الملك الظافر وشفى ومرض خلق كثير من الاكابر وغيرهم الا ان المرض كان سليما بحمد الله وكان المرض عند العدو اكثر واعظم وكان مقرونا بموتان عظيم واقام السلطان مصابرا على ذلك مرابطا للعدو .

ذكر تمام خبر ملك الالمان

وذكر ان ولده الذى اقام مقامه مرض مرضا عظيما اقام بسببه بموضع من بلاد لاون واقام معه خمسة وعشرون فارسا واربعون داويا وجهز عسكره نحو

انطاكية حتى يقطعوا الطريق ورتبهم ثلثة فرق لكثرتهم ثم ان الفرقة الاولى اجتازت تحت قلعة بغراس يقدمها كند عظيم عندهم وان عسكر بغراس مع قلته اخذ منهم ماءتي رجل قهرا ونهبا فخبروا عنهم بالضعف العظيم والمرض الشديد وقلة الخيل والظهر والعدد والالات ولما اتصل هذا الخبر بالنواب في البلاد الشامية انفذوا اليهم عسكرا يكشف اخبارهم فوقع العسكر على جمع عظيم منهم قد خرجوا لطلب العلوفة فاغاروا عليهم غارة عظيمة وقتلوا واسروا وكان مقدار ما اخذوه وقتلوه على ما ذكره المخبرون في الكتب زهاء عن خمس ماية نفس ولقد حضرت اداء رسالة رسول ثاني وصل من الكاغيكوس بين يدى السلطان وهو يذكر خبرهم ويقول انهم عدد كثير لكنهم ضعاف قليلو الخيل والعدة واكثر ثقلهم على الحمير قال ولقد وقفت على جسر يعبرون عليه لاعتبرهم، فعبر منهم جمع عظيم ما وجدت مع واحد منهم طارقة ولا رمحا الا النادر فسألتهم عن ذلك فقالوا: اقمنا بمرج وخم اياما، وقلت ازوادنا واحطابنا واوقدنا معظم عددنا ومات منا خلق عظيم واحتجنا الى الخيل فذبحناها واكلناها واوقدنا الرماح والعدد لاعواز الحطب واما الكند الذى وصل الى انطاكية في مقدمة العسكر فانه مات .

وذكر ان ابن لاون لما احس منهم بذلك الضعف طمع فيهم حتى انه عزم على اخذ مال الملك لمرضه وضعفه وقلة جمعه الذى تخلف معه. وان البرنس صاحب انطاكية لما احس بذلك سار الى ملك الالمان ينقله الى انطاكية طمعا في ان يموت عنده فيأخذ ماله ولم تزل اخبارهم تتواتر بالضعف والمرض الى ان وقعت وقعة العادل على طرف البحر.

فهرست الكتب:

١ ـ عماد الدين الكاتب الاصفهاني (٥١٩ ـ ٥٩٨هـ/ ق/١١٢٥ ـ ١٢٠١ م.):
البرق الشامي
٢ ـ بهاء الدين قاضي قضاة المسلمين يوسف بن رافع تميم المعروف بابن شداد قاضي حلب (٥٣٩ ـ ٦٣٢/١١٤٥ ـ ١٢٣٤) : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية .
٣ ـ ابو الحسن عبد الكريم عز الدين ابن الاثير (٥٥٥ ـ ٣٢ ـ ٦٣٠/١١٦٠ ـ ٣٤ ـ ١٢٣٢):
الكامل في التاريخ.
٤ ـ عبد الرحمن المقدسي ابو شامة (٦٠٠ ـ ٦٦٥/١٢٠٣ ـ ١٢٦٧):
الروضتين في اخبار الدولتين.

مشاركة مدن الفرات في سوريا

المحامي عبد القادر عياش
صاحب مجلة صوت الفرات ورئيس تحريرها
رئيس مركز الدراسات التاريخية بدير الزور

من دير الزور ـ حاضرة وادي الفرات ـ وومركز محافظة دير الزور السورية ، جئت احمل جرعة من ماء الفرات لاقدمها هدية الى الاردن المبارك . ولأحيي الندوة التاريخية الرائدة عن بلاد الشام ، التي جاءت مشكورة في وقت شدة الحاجة اليها . فقد شرفني دعوتها ، وأسعدتني كثيرا ، وجعلتني شاكرا ذاكرا فضلها ، فخورا بها . شجعتني ، وقوت من عزمي ، لمتابعة محاولاتي عن تاريخ وادي الفرات ، ومختلف احواله وشؤونه ، وموالاة اصدار مجلتي (صوت الفرات) عنه . واستمراري في رعاية (متحف الفرات) للتقاليد الشعبية في دير الزور .

استأذن الندوة الكريمة ، لأطرح سؤالا صغيرا بريئا ادبيا ، هادفا . اقصد به لفت النظر ، واثارة الاهتمام بتاريخ النهر العظيم ـ البحر ـ كما اسمته العرب ، منذ القدم . وفي الكتاب المقدس : النهر الكبير ونهر اللبن .

سؤالي هو : إين هي المصنفات العربية الحديثة عن وادي الفرات ؟ اني ابحث عنها ، دون جدوى . وأبقى عطشان الى الفرات . ومن حولي عطاش اليه .

ان النهر العظيم لم يحظ بعد باهتمام العرب المعاصرين . وهو الجدير بمجلدات . وبتدريس تاريخه مفصلا بجامعة دمشق .

أمل ان تكون هذه الندوة الطيبة ، بداية تحول كبير في التفاتنا الى تاريخ جميع انحاء بلاد الشام والعناية به .

جاء في التنزيل العزيز : (وأسقيناكم ماء فراتا) (سورة المرسلات) (هو الذي مرج البحرين ، هذا عذب فرات ، وهذا ملح اجاج) (سورة الفرقان) . (وما يستوى البحران ، هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح اجاج) (سورة فاطر) .

ان لفظة الفرات في هذه الآيات الكريمة تعني العذب . فقد عرف العرب

ضفاف الفرات ، وعذوبة مائه ، قبل الاسلام . حيث جاءت الى ريفه هجرات من الجزيرة العربية ، بسبب الجفاف . واختلطوا بسكانه القدماء ، ثم اسسوا حضارات ودولا خاصة بهم .

الفرات هو الاسم الذي عرفه العرب قبل الاسلام ، للنهر العظيم . وهو تعريب صيغ قديمة له في السومرية : (بورانونو) و (بوراتن) . وفي الآشورية (بوراتو) . وفي العبرية (فرات) . وفي الآرامية : (فرت) ، و (فروت) . وصار العرب ، يطلقون لفظة الفرات على كل ماء عذب كصفة .

جاء لفظ الفرات في التوراة في سفر التكوين : (وكان نهر يخرج من عدن ، فيسقي الجنة . ومن ثم ينشعب فيصير اربعة رؤوس منها الفرات)

للفرات عند العرب منذ القديم ، منزلة عظيمة وحرمة كبيرة . فهو عندهم من انهار الجنة . ورد ذكره في عدة احاديث نبوية ، منها الحديث : (ينزل في الفرات في كل يوم مثاقيل من بركة الجنة) .

نسبوا اليه . واستعاروا منه تشبيهات وصورا . وكان ممثلا في خواطرهم واخيلتهم . وصفه جغرافيو العرب في كتبهم . قالوا عنه : (نهر ما اعظم بركته ، ولو علم الناس ما فيه من البركة ، لضربوا على حافتيه القباب) . وورد في بعض امثالهم . من ذلك : (من يرد الفرات عن دراجه) . يضرب للامر الذي خرج من يد صاحبه . وتسمى البعض به . كابن الفرات . حمل هذا اللقب عدة اعلام في العصر العباسي . وسمى الحريري احدى مقاماته : (المقامة الفراتية) . وانتسب شاعر دير الزور المعاصر ــ محمد بن عطالله ــ منذ ان كان في مصر بعام ١٩١٥ الى النهر الخالد . فكان اسمه الشائع : محمد الفراتي .

جاء ذكر الفرات في شعر الشعراء العرب في كل العصور . على انه لم يحظ منهم في الغالب الا بمجرد ذكر . في بيت ، او بيتين ، او ثلاثة . لم يقصدوا وصف طبيعته ، ومختلف صوره ، ذلك ان الطبيعة في الغالب لم تحظ بعناية الشعراء العرب القدامى . فقد كانوا غير مستقرين . وفي شغل شاغل عنها . سواء كان هؤلاء الشعراء من ابنائه ، او من ديار عربية اخرى ، فقد دعت اسباب شعراء عربا قدامى كثيرين الى ان يأتوا الى وادي الفرات في اوقات مختلفة . فيلبثون فيه قليلا او كثيرا . فلا عجب ان جاء ذكر الفرات في شعرهم . ذكرا غير مقصود لذاته .

من ذلك قول الاعشى :

مثل الفراتي اذا ما طما يقذف بالبوصي والماهر

وقال ابو الحسن السلامي ، يشبه ممدوحه بماء الفرات :

اذا زرته لم تلق من دون بابه حجابا ولم تدخل عليه بشافع
كماء الفرات الجم اعرض ورده لكل اناس فهو سهل الشرائع

وفي طيب ماء الفرات ، يقول الشاعر الاموي عمر بن ابي ربيعة ، وقد قدم الكوفة من الحجاز ، ونزل على عبدالله بن هلال . وكانت له قينتان حانقتان . فسمعهما تغنيان :

يا اهل بابل ما نفست عليكم   من عيشكم الا ثلاث خلال
ماء الفرات وطيب ليل بارد   وسماع منشدتين لابن هلال

ويقول مقارنا بين طيب ماء الفرات ، ولذة سعدى بنت عبد الرحمن بن عوف :

اسعيد ما ماء الفرات وطيبه   منا على ظمأ وفقد شراب
بألذ منك ، وان نأيت ، وقلما   ترعى النساء امانة الغياب

ذكر الشاعر الجاهلي النابغة الذبياني الفرات في فيضانه ـ عندما يكون في أكمل ما يكون من امتلائه ـ ليجعل سيب ممدوحه النعمان بن المنذر ـ ملك الحيرة ـ اعظم من ماء الفرات . قال في قصيدته :

فما الفرات اذا جاشت غواربه   ترمي اواذيه العبرين بالزبد
يمده كل واد مترع لجب   فيه ركام من الينبوت والخضد
يظل من خوفه الملاح معتصما   بالخيزرانة بعد الأين والنجد
يوما بأجود منه سيب نافلة   ولا يحول عطاء اليوم دون غد

وهذه صورة للفرات في امواجه وزوره وجريانه واشجاره . صورها الشاعر الشامي الفراتي الاموي الاخطل من قصيدة ، مدح بها الخليفة الاموي ـ عبد الملك بن مروان ـ ليخلص الى مدح الخليفة :

وما لافرات اذا جاشت حوالبه   في حافتيه وفي اوساطه العشر
وزعزعته رياح الصيف واضطربت   فوق الجآجيء من أذيه غدر
مسحنفر من جبال الروم يستره   منها اكافيف فيها دونه زور
يوما باجود منه حين تسأله   ولا بأجهر منه حين يجتهر

اكتفي بهذا القدر من الشعر ، الذي ورد في ذكر الفرات . وهو في الاصل قليل ، لا يتناسب مقداره مع اهمية الفرات . ولامع كثرة الشعراء العرب من ابنائه ، وغيرهم ممن اتوا اليه عبر قرون عديدة .

يا ليته قد جاءنا شعر وفير في وصف الفرات ، ومدنه ، وسفنه ، واحداثه ، فتكون لنا منه وثائق تاريخية وصور ادبية جميلة .

منذ القديم ، قامت بين الانسان والامكنة علاقة . عمقها في نفسه وبوسائل تعبيره . حظيت بعضها بمنزلة التقديس عنده .

والانهر والينابيع ، أحب ظاهرات الطبيعة الى الانسان . تميزت بحركتها الدائبة ، وبتنوعها وتشكلها . وهي العامل المهم في شرب الانسان وحياته .

ليس في الطبيعة اجمل من الماء الجاري . ولذلك فان الانهار منذ القديم مهوى افئدة الشعوب . ومهد الحضارات . شغلت فكر الانسان ، واستأثرت باهتمامه وعنايته ، لمعوله عليها . عبر عن ذلك ، بتأليه الانهار وممارسة الشعائر لها . ووضع الاناشيد فيها ، وصوغ القصص حولها ، وهذه مادة تاريخية وأدبية مهمة .

اعتبر السومريون والآكاديون ، الذين سكنوا ضفاف الفرات ، وشيدوا حضارته القديمة ، الماء مصدر الحياة ، ومنبع الخير . ولذلك كان من اهم آلهتهم التي عبدوها وقدموا لها القرابين الاله (انكي) — اله المياه — هو خالقها . وهي بيده ، ان شاء اطلقها ، وان شاء حبسها .

كان نهر الفرات عندهم نهر المعابد المقدسة . حفرته الآلهة ، لتنعم البلاد بنعمة مياهه . ما زالت في وادي الفرات من ذلك رواسب .

وعلى سنن السومريين والآكاديين نهج البابليون والآشوريون .

الفرات توأم نهر دجلة . وهما الرافدان . من الرفد ، بمعنى العطاء . والعراق عطية لنهرين ، وبلادهما بلاد ما بين النهرين .

ويعتبران من الانهار العظيمة في العالم ، فقد كان حوضهما مسرحا لعدد من اقدم الحضارات التي عرفتها الانسانية .

ازدهرت حضارة سومر واكاد ، وحضارة بابل وأشور ، فيما بين النهرين قبل خمسة الاف سنة او ما يزيد . ان تاريخ الحضارات الكبرى العريقة ، يسير مع تدفق المياه العذبة في الانهار العظيمة .

ينبع النهران من الجبال الشاهقة الواقعة في تركيا . فيخرج الفرات من المنطقة الجبلية ، شمالي ارضروم ، حيث يزيد ارتفاعها على ثلاثة الآف متر ، فوق سطح البحر . ويتكون في منبعه في شرقي تركيا من نهرين هما : (فرات صو) و (مراد صو) . ثم يلتقيان قرب مدينة كيبان . فيؤلفان مجرى موحدا تزداد مياهه بما ينصب فيه من مياه ينابيع وروافد . فيخترق المرتفعات التركية بخوانق عميقة ضيقة ، ويخترق الاناضول شرقا في مجرى ضيق سريع الانحدار . ومن ثم يتسع مجراه كلما بعد عن منبعه .

يدخل الفرات الاراضي السورية مخترقا حدودها الشمالية الشرقية . عند بلدة جرابلس (قرقميش) من اعمال محافظة حلب . ويمر بمنطقة عين العرب ، ومنطقة منبج ، وهما من مناطق حلب . فمحافظة الرقة ، ومحافظة دير الزور وعليه في القسم السوري مئات القرى والمزارع الآهلة بالسكان . والمدن والقلاع القديمة .

ترفد الفرات في الحدود السورية ثلاثة روافد . نهر الساجور على الجانب

الايمن . ينبع من جوار مدينة عينتاب في تركيا ، ويصب في الفرات ما بين جرابلس ومنبج . ويسمى نهر منبج . طوله ١٠٨ كم ، وتصريفه ٣م٣ في الثانية طوله في الحدود السورية ٤٨ كم . ذكره البحتري وابو فراس الحمداني بشعرهما . ونهر البليخ ، يتصل بالفرات في الجانب الايسر . مصدر ينابيعه من عين العروس بناحية تل ابيض في الحدود الشمالية السورية . ومن عين الجدلة قرب الحدود التركية . يصب شرقي الرقة . طوله ١٠٥ كم . ومتوسط تصريفه ٦م٣ . ونهر الخابور ، الرافد الرئيسي للفرات في الحدود السورية ، على الجانب الايسر . منابعه في رأس العين السورية في الشمال . ويتلقى روافد صغيرة . طوله ٤٥٠ كم . متوسط تصريفه ٥٣م٣ . يسقي ستين الف هكتار . ويصب في الفرات ، عند بلدة البصيرة (قرقيسيا) القديمة . شرقي دير الزور على بعد ٤٢ كم . جاء ذكره في بعض المصادر . وفي ابيات قليلة من الشعر العربي القديم .

يغادر الفرات الحدود السورية شرقي بلدة البوكمال من اعمال محافظة دير الزور ، ليدخل الحدود العراقية . ويقترب النهران احدهما من الاخر ، بالقرب من بغداد . فلا تزيد المسافة بينهما هناك على ١٩ ميلا . ثم يقتربان اكثر ويلتقيان عند موقع القرنة . فيشكلان نهرا واحدا هو شط العرب . تقع عليه مدينة البصرة . ثغر العراق . ولشط العرب رافد واحد هو نهر كارون ، على ضفته الشرقية في الحدود الايرانية . ويصب شط العرب في الخليج العربي .

يبلغ طول الفرات من منبعه الى مصبه نحوا من / ٢٤٠٠ / كم . منها / ٤٢٠ / كم في الاراضي التركية و / ٦٨٠ / كم في الاراضي السورية . و / ١٢٠٠ / في الاراضي العراقية .

يبلغ تصريف الفرات في الحد الادنى داخل سورية ١٥٠ م٣ في الثانية ، وقت الجفاف آب ــ تشرين الثاني . ومعدل تصريفه / ٣٥٥ / م٣ . وترتفع نسبة التصريف عادة في الشتاء خلال شهر نيسان وايار الى / ٥٥٠٠ / م٣ . بسبب ذوبان الثلوج على جبال طوروس . مما يسبب فيضانات الفرات .

تشكل مياه الفرات في سورية ٨٧٪ من مجموع مياهها . ويأتي الفرات في المرتبة السادسة والعشرين بين انهر العالم من ناحية الطول . تسقي مياهه في سورية نحوا من نصف مليون هكتار .

تتألف تربة وادي الفرات في سورية من الرواسب . وتتراوح بين الطمى والغرين الرملي ، والصلصال . وهي مع الري تصبح مناسبة لزراعة القمح والشعير والذرة ولزراعة القطن ، والشمندر ، والفول السوداني وغيرها . فضلا عن الاشجار المثمرة والاشجار الحراجية والخضراوات .

ان مساحة وادي الفرات بسورية / ٦٥ / الف كم مربع . من اصل / ١٧٠

/ الف كم مربع مساحة الجمهورية السورية .

كانت المدن السورية والآكادية كلها مشيدة على ضفاف نهر الفرات في اسفل الدلتا . لانه يجري بين ضفاف منخفضة وفي انحدار قليل . بخلاف نهر دجلة . ويتميز الفرات بهدوئه . وببطئه في ارتفاعه وهبوطه مما يجعله اكثر ثباتا من نهر دجلة . ومما جذب السكان الى الفرات .

بدأت الحضارة في وادي الرافدين ، عندما بدأ المستوطنون الساميون الاوائل على ضفاف الفرات ، يكتشفون سبل ايصال الماء الى الاراضي . وتكونت لهم تجارب في تنظيم الري ، وشق الجداول ، وانشاء السدود ، والبزول والخزانات . فاستخدموا مياهه اداة للاعمار . فكان خيرا وبركة عليهم . ركزوا زراعتهم على الري والتنظيم قبل عشرة الاف سنة . وأوجدوا التقويم الزراعي ، واعتنوا بحقول النخيل . فظهرت النخلة في نقوشهم . واتقن السومريون فن البستنة . وقدسوا الزراعة . وقد تضمنت شريعة حمورابي مواد حول الري وزراعة النخيل .

اتقن السومريون فن المساحة لارتباطه بتنظيم الري والحقول الزراعية . واسس الساميون اقدم المستعمرات الزراعية على ضفاف الفرات . اخترعوا الناعور . وبنوا بيوتهم على المرتفعات اتقاء لاضرار الفياضانات .

كان الري المنظم وشق الجداول من نهر الفرات ، من اعظم الاعمال الانشائية في الحضارات السومرية والآكادية . وما لبثت حتى اخذت ، تنتقل الى الشمالي الغربي ، شيئا فشيئا على طول مجرى الفرات . فكانت اساسا لحضارات المدن الفراتية القديمة ، على الفرات الاوسط . والتي غابت في باطن الارض . وكشفت مؤخرا الصدف والتنقيبات الاثارية بعضها . كآثار الباغوز ، التي تود الى ستة الاف سنة ق .م وتقع في منطقة البوكمال . ومدينة مارى (تل الحريري) ، بمنطقة البوكمال ، وآثار تل مريبط ، على ضفة الفرات الشرقية ، بمحافظة الرقة . والتي يعود تاريخها الى الالف التاسع ق .م ابتدأ الانسان في تل مريبط بانشاء العمارات بواسطة الواح من الطين والحجر ، وبأعمدة من الخشب . نقبت في تل مريبط في عام ١٩٧٢ ـ ١٩٧٣ البعثة الفرنسية التابعة للمركز الوطني للابحاث العملية برئاسة السيد جاك كوفان .

كان اساس حضارات وادي الفرات : الري المنظم والتربة الخصبة ، وحرارة الشمس . والحكم الاداري القوي ، واستتباب الامن الطويل المدى . والوحدة السياسية .

اخرجت الحقول المروية محصولات وفيرة من الذرة والشعير ، والقمح والتمور ، والزيتون . والفاكهة والبقول بالاخص في عهد العاهل حمورابي .

كانت مياه الفرات في عهده تجري في شبكة من الجداول ، تضبطها نواظم دقيقة استمرت قرونا . وكان ثمة تشريع خاص بالري الى جانب التشريع العام .

كانت الانهر وجداول الري ، تستعمل في تسيير وسائل النقل المائية ، بين المستوطنات الريفية وبين المدن وكان ذلك حافزا لنمو صناعة السفن ، على اختلاف انواعها وحجومها . كانت السفن تنقل الحبوب ، والقار من بلدة هيت لاستعمالها في صناعة السفن ، وبناء البيوت ، يرجع تاريخ هذه السفن الى الالف الثالث ق .م والكلك الذي كان مستعملا في النقل المائي في عهد سومر ، استمر استعماله الى اوائل القرن العشرين ، في كل انحاء وادي الفرات . وكان من عيدان تربط فوق اجربة منفوخة ، يسير مع المجرى . ويدفع بالمجذاف .

كان العديد من العمال ، خلال ايام كثيرة مشغولين بسحب السفن المحيطة وافراغها واعادة تعبئتها ، وكانت النساء احيانا ، وخاصة من الارقاء يكلفن بسحب السفن واملائها وتفريغها .

وفي عهد العاهل حمورابي ـ اي في القرن الثامن عشر ق .م ، انتشرت التجار عن طريق المواصلات النهرية . وكانت هذه مليئة بكل انواع السفن . ذات الحمولة المختلفة والتي تتراوح بين ٢/١ ١ طن و ٣٦ طنا . وتحوى اللغة الاكادية عددا كبيرا من اسماء السفن ، بحسب مظهرها ، واستعمالها . كان منها للاحتفالات والاعياد الدينية . ومنها للترفيه ، واخرى لعبور النهر . كان باستطاعة كل انسان ان يمتلك سفينة .

كانت جميع البضائع تشحن بواسطة الطريق النهرى ، حتى الماشية . وكانت السفن تنقل الخشب والذهب والفضة من الاناضول وشمالي سورية . وكانت التجارة البحرية تتعدى الخليج العربي ، حتى مشارف الهند . وقد اهتم تشريع حمورابي بالملاحة النهرية .

وكان لنهر الخابور ، كذلك دوره في الملاحة النهرية ، وفي الحـركة التجارية . وكان النقل البري قائما الى جانب النقل النهري . وغالبا ما يختلط النقلان . كانت قوافل الحمير تقوم بالنقل البري . فكانت الحبوب تنقل من حلب على الحمير ، الى السفن في مرفأ (ايمار) وهي بالس في العهد الاسلامي . ومسكنة اليوم . شرقي حلب على بعد ٨٧ كم .

وعن طريقي الفرات المائي والبري ، قامت علاقات بين بلدان الشرق الادنى . كانت تمر بوادي الفرات اهم طريقين في المملكة العباسية . الاول طريق الموصل حلب ـ عبر الجزيرة الفراتية ـ وتمر بمدينة نصيبين ، ومدينة رأس العين ، وتعبر الفرات عند جسر منبج . ثم تتجه الى بلدة بزاعة ، ومنها الى حلب .

والثاني طريق الفرات بين مدينة الانبار ، على ضفة الفرات الشرقية ،

وكانت ميناء بغداد على الفرات وكانت ترعة عيسى توصل الفرات بدجلة . وبين حلب . وطريق الفرات على ضفة الفرات الغربية . وتمر بحديثة الفرات وهيت وعانة ، ومنطقة القائم والرحبة ودير الزور والسبخة . وبسهل صفين وخرائب سورا ، وبالس ، ودير حافر .

تعاقبت الحضارات على وادي الفرات ، ورافديه الخابور والبليخ . البابلية والميتانية ، والآشورية ، والفارسية والاغريقية ، والرومانية والعربية . وقد خلفت جميعها آثارا تشاهد اليوم ، في وادي الفرات بسورية . تعمل في بعضها بعثات اثارية . تتوزع مكتشفاتها المنقولة في متاحف لندن وبرلين وباريس ودمشق وحلب ونيويورك وبروكسل .

لم يكن لي بد من هذه المقدمة الجغرافية التاريخية ، للخلوص منها الى موضوعي ، الذي يأتي في نصف مقدارها . ذلك اني قصدت اثارته ، لا استيفاء مضمونه واطرافه . ان مكانها المصنفات لا الدقائق المعدودات .

عني الامويون والعباسيون بالري في وادي الفرات في سورية . اعتمدوا على سكان الوادي الذين توارثوا الخبرة والتجارب من حضارات الوادي القديمة .

اخرج الامويون والعباسيون من الفرات والخابور الجداول والترع العديدة . روى التاريخ الاسلامي اسماءها واوصافها . وذكرها بعض الشعراء بشعرهم . دمر المغول هذه الجداول ، وقتلوا السكان ، وخربوا مدن وادي الفرات في القرن السابع الهجري ـ الثالث عشر الميلادي .

كان الفرات صالحا للملاحة منذ اقدم العصور التاريخية ـ من الموقع الذي فيه مدينة سميساط في الشمال الى مصبه في الجنوب . تنقل عليه البضائع بين آسيا الصغرى وبابل . وكانت عليه موانيء اشتهرت بالغنى وازدهار التجارة . مثل قرقميش (جرابلس) عاصمة الامبراطورية الحثية الثانية . ومدينة ايمار (بالس الاسلامية) وماري في الالف الثالث ق .م ودبي ، وسوراء (موقع الحمام اليوم) والرقة . وتابساكوس (طابوس) حاليا . غربي دير الزور . وقرقيسيا ، ودورا او روبوس (صالحية الفرات) . وكانت ميناء مملكة تدمر والسبخة وجسر منبج ، كانت تجري في الفرات في العصور العباسية مختلف انواع السفن ، لنقل الاشخاص والمواد . ذكرت في شعر بعض الشعراء العرب . ومما قيل فيها هذا البيت القديم الجميل :

يا ليت ماء الفرات يخبرنا   اين استقلت بأهلها السفن

اخذ سكان وادي الفرات ، منذ منتصف الالف الثالث ق . م يدونون ادبهم على رقم الطين المشوي . وكانت هذه الرقم من الوفرة ، على كر العصور ، ان نشأت المكتبات في معابد المدن ، وقصور الملوك ، وبيوت الخاصة ، وصلنا من

ادبهم قصة الخليقة ، وقصة الطوفان ، وملحمة جلجامش ـ احدى روائع الادب القديم ، وغيرها . وقد اكتشفت في قصر ملك ماري مكتبة احتوت على ثلاثين الف رقيم . يوالي العلماء قراءتها ونشر ترجمتها .

لقد نبغ في انحاء وادي الفرات في كل العصور القديمة شعراء وكتاب ، وعلماء . وكان التأليف شائعا في المدن الفراتية . وبخاصة في العصور العباسية . كانت المدن الفراتية بيئة ملائمة للادب والعلم ، بسبب وفرة خيراتها ورخص اسعارها . وكانت الجزيرة الفراتية من ضمن وادي الفرات . وهي ضفته الشرقية . سميت باسم احد نهريها ، وقد اعتبرت من بلاد الشام . خرج منها شعراء وعلماء اعلام ، قبل الاسلام وبعده . انتسب بعضهم اليها . فقيل الجزري وانتسب اخرون الى مدنهم فقيل : الخابوري والماكسيني . وكان الكتاب السريان من ابنائها ، يتقنون الى جانب لغتهم الآرامية : الفارسية واليونانية والعربية . . كانت لهم في العصر العباسي منزلة عالية ، بما نقلوا من الكتب العلمية الى العربية . وخاصة الحرانيين منهم . وبمن نبغ منهم في الادب والكتابة واللاهوت .

وكانت بادية الفرات بقسميها الغربي والشرقي ، تعمر بالقبائل العربية قبل الاسلام وبعده . كان لها ادبها العربي وشعراؤها ، قبل الاسلام وبعده . لهم مكانة مرموقة في الادب العربي القديم . منها تغلب وقيس وخزاعة وطي . ومن شعراء هذه القبائل : عمرو بن كلثوم التغلبي . وابو زبيد الطائي ، والاخطل التغلبي ، والقطامي التغلبي . والعتابي التغلبي ، ومنصور النمري ، وابو تمام الطائي المولود بقرية جاسم من قرى منبج ، والبحتري الطائي ، وربيعة الرقي ، واشجع السلمي . وعوف بن محلم الخزاعي ودعبل الخزاعي المولود في قرقيسيا قاعدة الخابور وغيرهم .

كان حكام وادي الفرات في العهد الاموي والعهد العباسي يتذوقون الادب ويقدرونه ، ولهم بصر فيه فلم يكن ينفق عندهم الا الجيد . وكان بعضهم شعراء مجيدين . شجعوا الادب ، وقربوا الشعراء والكتاب . ومنحوهم الجوائز المالية السنية .

كان الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان ذواقة للشعر الجيد . مدحه كبار شعراء عصره ، ومنحهم جوائزه . وقد اختص الشاعر الاخطل . وقد اصطحبه الى قرقيسيا بطريقه الى محاربة مصعب بن الزبير والي العراق .

وكان الخليفة هشام بن عبد الملك يستقبل الشعراء الكبار ، مثل الفرزدق وجرير في مدينة الرصافة حاضرة بادية الفرات الغربية . ويستمع الى شعرهما فيه ويثيبهما ، وقد قطعا اليه الفيافي .

ولقد اصطفى الخليفة مروان بن محمد ـ أخر الخلفاء الامويين ـ الكاتب الفراتي العربي ـ عبد الحميد بن يحي ـ المشهور بالكاتب ـ وكان معلما في الرقة ، وهو من قرى الحمرات ـ شرقي الرقة ، اصطحبه مروان بن محمد ، عندما كان واليا على ارمينية والجزيرة . فكتب له . ولازمه عندما اصبح خليفة . واتخذ حران مركز اقامة له . وكان عبد الحميد من الوفاء بحيث لازم مروان بعد هزيمته في حربه مع العباسيين . ولقى معه القتل ببوصير في مصر .

وكان زفر بن الحارث الكلابي ـ حاكم قرقيسيا وزعيم قبيلة قيس ـ بعهد الخليفة عبد الملك بن مروان شاعرا مجيدا. سمي الشاعر الفراتي ـ القطامي. وكانت قيس قد أسرته في اثناء حربها مع تغلب. وهمت بقتله. وللقطامي في زفر بن الحارث الكلابي عدة قصائد. وقد اجازه زفر بعدد من النوق.

وكان الخليفة العباسي هارون الرشيد ، يقرب الشعراء في مدينة الرقة بقصره ـ قصر السلام ـ واسموه القصر الابيض . ويستمع الى قصائدهم فيه ، ويغدق عليهم الجوائز السنية . وكان الراوية الكبير الاصمعي في حاشيته في الرقة . اتصل بالرشيد في الرقة شعراء كثيرون مجيدون . كان فيهم : منصور النمري ، والعتابي ، واحمد بن يسار الجرجاني ، والتيمي بن محمد ، وابن رزين ، واشجع السلمي ، والعباس بن الاحنف .

وكان عبد الملك بن صالح بن علي العباسي واليا على منبج بعهد الرشيد . وكان ولد فيها . وكان يضرب به المثل في البلاغة وعينه الخليفة الامين واليا على الرقة .

وكان عبدالله بن طاهر ـ والي الرقة ومصر ـ في عهد الخليفة المأمون ذواقة للشعر ، محسنا لنظمه ، راعيا للشعراء . اتصل به دعبل الخزاعي والعتابي ، وعوف بن محلم الخزاعي ، وكان شاعره المفضل ، اصطحبه معه الى خراسان عندما كان واليا عليها ، وبقي معه سنين طويلة ، ثم عاد الى وطنه حران . وكانت من اعمال الرقة . وهي قاعدة ديار مضر . وهي اليوم في الحدود التركية ـ قرية مهملة . بولاية اورفا (الرها) . نبغ فيها كثير من الادباء والعلماء .

وكان مالك بن طوق العتابي التغلبي ـ امير الرحبة ـ قاعدة طريق الفرات ـ في عهد الخليفة المعتصم ، يرعى الشعراء . وقد استضاف الشاعرين الكبيرين : ابا تمام . وبعده البحتري . ولهما فيه قصائد جيدة . كما استضاف الشاعر والاديب الكبير العتابي وغيره .

ورعى سيف الدولة الحمداني ـ امير حلب الشعراء . كانت حدود امارته تحتوي على وادي الفرات من بلدة ملطية في اعالي الفرات الى بلدة عانة في الجنوب . اجتمع في بلاطه اربعون شاعرا . فيهم المتنبي ، وابو فراس الحمداني ،

والصنوبري . والخالديان . وكشاجم .

وكان الشاعر الامير ابو فراس الحمداني واليا على منبج وحران وبالس من قبل سيف الدولة . حفل وادي الفرات في سورية بفضل وفرة مياهه ، وخصب تربته ، وامتداد سهوله ، وبفضل طريقيه المائي والبري ، وتوسطه بين الشام والعراق ، بالمدن العديدة التي كانت في كل العصور التاريخية وبخاصة في العصر العباسي ، مراكز حضارية مزدهرة كثيرة الخيرات ، رخيصة الاسعار ، ذات حركة تجارية وصناعية واسعة ، وحركة عسكرية دائبة . كانت اكثرها قواعد حربية . اشتهرت الرقة بزيتها وخزفها وخيراتها . وكونها قاعدة عسكرية تنطلق منها الجيوش العربية الاموية الى ارمينية ، وتنطلق منها الجيوش العباسية الى الحدود البيزنطية . واشتهرت الرحبة بفواكهها وثيابها القطنية . اتخذها الباسيري ـ عامل الفاطميين قاعدة عسكرية ، انطلق منها واحتل بغداد . واشتهرت مدن الخابور بفواكهها وقطنها. وكانت تصدره الى العراق في النهر. كانت مدن وادي الفرات، ومدن وادي الخابور ومدن الجزيرة الفراتية ، مراكز ادب وعلم . اخرجت شعراء وادباء ، ولغويين ، وفقهاء ، وكتابا واطباء ومؤدبين ، وفلاسفة وقضاة واداريين . يشكل عددهم ثبتا طويلا من الاعلام . تبوأوا منزلة رفيعة في الادب العربي والحركة العلمية تفرقوا في الحواضر العربية .

تطالعنا كتب التراجم والسير والطبقات ، باسماء الرقي ، والبالسي ، والرحبي ، والجعبري ، والمنبجي ، ـ والخانوقي والرافقي والحراني والخابوري والماكسيني والسميساطي والرصافي والسبخي والنصيبي . والرسعني والملطي نسبة الى مدنهم الفراتية : الرقة ، وبالس ، وجعبر ، ومنبج ، والخانوقة ، والخابور والرصافة ، والسبخة وسميساط ، وماكسين ، ونصيبين ، ورأس العين . وحران ومنها الفقيه العالم المجاهد : تقي الدين بن تيمية (١٢٦٣ ـ ١٣٢٨ م) وملطية ، وكانت من اكبر الثغور واجلها واشهرها سلاحا ، واجلدها رجالا . نبغ فيها نخبة من العلماء . منهم ابو الفرج ابن العبرى غريغوريوس . المؤرخ السرياني الشهير (١٢٢٦ ـ ١٢٨٦ م) . وكانت الثغور الشامية والجزرية تجمع الى الشام .

شاركت المدن الفراتية بالحركة العلمية العربية وبخاصة في العصر العباسي مشاركة واسعة . كاد الادب العربي القديم . ان يكون من انتاج الفراتيين ، ومن نزلوا بوادي الفرات من الشعراء . كالصنوبري ـ الذي اختار الرقة مكانا لاقامته . وكان شاعر الطبيعة الفراتية . وصف رياضها وازهارها وطيورها وانهارها وسفنها اجمل وصف .

كان دور ابناء الفرات كبيرا في الادب العربي ، والحركة العلمية العباسية .

وكذلك كان دور وادي الفرات في السياسة والاحداث العربية .

على ارض الفرات وعلى صفين بالذات ، التقى جيش معاوية وجيش علي ، ليتقرر بعدها مصير كل منهما . وفي قرقيسيا ، التقى عبد الملك بن مروان بزفر بن الحارث الكلابي زعيم القيسية ، فاصطلحا ، وانطلق عبد الملك الى العراق وقضى على مصعب بن الزبير والي العراق . واتخذ الخليفة هشام بن عبد الملك الرصافة ، يقيم فيها اشهرا من كل عام ، يدير منها مملكته ، واتخذ الخليفة الاموي مروان ابن حمد حران مقرا له . واتخذ الرشيد الرقة عاصمة للمملكة العباسية بعد ان فتك بالبرامكة . لكن الثورة في خراسان وذهاب الرشيد لقمعها ووفاته هناك ، اعادت مركز الخلافة الى بغداد . وعلى نهر الخابور عند تل نهاكي التقى جيش الرشيد بجيش الخوارج بوقعة فاصلة مكنت للعباسيين.

ومن وادي الفرات والجزيرة الفراتية انطلق الحمدانيون والمرداسيون والعقيلون ، واسسوا واقاموا دولهم في حلب واطرافها .

ولأهمية وادي الفرات الاستراتيجية والاقتصادية والسكانية ، كان مطمعا وهدف كبار القواد المغامرين ، وبخاصة في العصر العباسي .

ما زال لوادي الفرات في سورية دوره الخطير الاستراتيجي والقومي والاقتصادي ، ليس لسورية وحدها ، وانما للامة العربية . كسد الفرات .

يستبين دور وادي الفرات عندما ، يكتب ابناء وادي الفرات انفسهم ، تاريخ واديهم العظيم ، لكي يتعمقوا في دراسته ويحيطوا بمختلف نواحيه ، ويصبروا على طلب المصادر والمراجع ، ويستعذبوا معاناة كتابة فصوله ، وصفحاته مهما بلغ عددها ، ومهما تطلبت من وقت وجهد وتضحيات.

ان كل ذلك من حق واديهم عليهم – وهو جدير بكل عمل يبذل من اجله .

أمل ان تكون هذه الندوة الرائدة الخيرة حافزا لأبناء المناطق الشامية على دراسة تاريخ مناطقهم ، دراسة جادة مستمرة ، وان تلقى تلك الدراسات الموازرة والدعم من ابناء العروبة لنشرها نشرا لائقا .

النقود العربية الإسلامية مصدر وثائقي للتاريخ والفن

الاستاذ محمد ابو الفرج العش
متحف دمشق ـ سوريا

تمهيد :

النقود بصورة عامة منذ ابداعها في القرن السابع ق .م تحوي معلومات هامة ، توضح افكار الامم والدول التي سكنتها ، وتمثل معتقداتها ومشاهد من حياتها الاجتماعية والرياضية ، وتفصح عن انظمتها السياسية وتخلد اعمالها ، كما انها تعطينا فكرة عن المعادن المستعملة في السك وعياراتها وأوزانها ونسبة قيم المعادن بعضها الى بعض ، وتعرفنا بوحدات الأوزان وأصنافها واجزائها ...

وقد تطورت النقود عبر العصور من جيل الى جيل ، ومن دولة الى اخرى حتى غدت مصدرا تاريخيا مهما ، استطعنا ان نعرف منه اسماء الملكوك والحاكمين وعدد سنوات حكمهم ، ومدن الضرب . ولعل النقود الساسانية والبيزنطية تعتبر اغنى من النقود اليونانية والرومانية بالمعلومات التي افادت في تثبيت الاحداث والتواريخ.

نشأت النقود العربية الاسلامية بعد ان مرت بمراحل متعددة من التطور ، حتى تم تعريبها نهائيا في عهد الخليفة الاموي المصلح عبد الملك بن مروان . وبالرغم من ان النقود العربية الاسلامية استفادت من كثير من العناصر الاعلامية من نقود الدولتين : الساسانية والبيزنطية ـ كما سنرى ـ ، لكنها اخيرا تحررت من جميع مظاهر نقود الدولتين : وأخذت بدورها تتطور حسب ما تقضي الظروف والاحوال ، فحملت مع مرور الزمن اسماء الخلفاء والحكام والسلاطين والملوك والوزراء وأسماء المشرفين على ضرب النقود واسماء الثوار ، كما حملت اسماء المعادن (مدن الضرب) ، ومنها عرفنا اسماء كثير من المدن التي درس بعضها في الامبراطورية العربية الاسلامية التي امتدت شرقا الى اجزاء من الصين والهند ، وامتدت غربا الى شبه جزيرة أيبريا ، وسواحل البحر الابيض المتوسط وجزره ،

وجنوبا الى مشارف الصحراء الكبرى الافريقية والساحل الافريقي الى زنجبار .
(درهم ضرب بالمدينة الموفقية سنة ٢٧٠ هجرية) .

بعض الفلوس في العهد الاموي لم تكن مؤرخة ، لكن النقود الذهبية والفضية في العهد الاموي ، وجميع النقود في العهود التالية تحمل التاريخ الهجري المتسلسل . ان اثبات التاريخ بالتقويم المتعارف عليه يعتبر ابداعا عربيا مفيدا في غاية من الاهمية ، ان بعض النقود الساسانية والبزنطية تحمل تاريخا ، الا ان هذا التاريخ يبدأ من اول حكم كل ملك وليس تاريخا تقويميا ، فاذا اردنا ان نحدد تاريخ النقد ، وجب مقارنته بسلسلة تعاقب الملوك استنادا الى التقويم الميلادي لنعرف على وجه الدقة تاريخ النقد ، لهذا تعتبر النقود العربية الاسلامية من هذه الزاوية افضل من جميع النقود المعاصرة والسابقة .

سنرى ان النقود العربية الاسلامية حملت في اول نشأتها قبل التعريب النهائي اسم الخليفة او الوالي بالفهلوية ثم بالعربية ، ولكن عندما اصبحت النقود عربية خالصة خلت الدنانير والدراهم من اسم الخليفة في العهد الاموي واوائل العهد العباسي ، وربما كان مرد ذلك الى أن الخليفة اراد ان يحكم باسم الله ، فتخلى عن ذكر اسمه ، ووضع مأثورتي التوحيد والرسالة وبعضا من اي الذكر الحكيم. بدأ اسم ولي العهد وبعض الولاة يظهر على الدراهم والفلوس ،منذ عهد الخليفة العباسي المنصور ثم ورد اسم الخليفة المهدي على الدراهم والفلوس وقد ورد اسماء بعض الخلفاء وبعض الولاة ايضا على بعض الفلوس الاموية واوائل الفلوس العباسية على مقياس ضيق ، لكن الاسماء اخذت تظهر على النقود اكثر فأكثر حتى اصبح ذكرها شيئا اساسيا في مأثورات النقود منذ عهد المعتصم بالله (٢١٨ ــ ٢٢٧ هجرية) فالنقود العربية الاسلامية منذ ذلك التاريخ حوت اسماء كثيرة اعطتنا معلومات وفيرة ، وفسرت لنا بعض الاحداث ، واثبتت او نفت بعض المعلومات التاريخية .

سنتتبع فيما يلي اهم حدث يتعلق بمظهر مهم من تأسيس الدولة العربية الاسلامية الا وهو نشوء النقود العربية الاسلامية وتطورها من خلال دراسة النقود نفسها ؛ ثم نلقي نظرة على تراثنا الفكري ، لنرى ما ذكره الكتاب القدامى عن هذا الموضوع ، ومن مقارنة سريعة نستطيع ان ندرك اهمية دراسة علم المسكوكات كمصدر وثائقي اساسي للتاريخ والفن .

تطور النقود من شكلها الساساني الى العربي الساساني.

العرب قبل الاسلام يعرفون الدراهم الساسانية ، وكانوا قد حصلوا عليها

من تجارتهم الخارجية مع العراق وسواحل الخليج العربي ، الا انهم في الداخل كانوا يفضلون التعامل بالتبادل والمقايضة على الاكثر .

عندما تكونت الامة العربية والدولة العربية في ظل الاسلام نهت عن قص النقد او قرضه او التلاعب بوزنه او عياره . يعني هذا أنه اصبح للنقد حرمة في نظر الشارع ، وصار النقد اداة للتعامل بالعد لا بالوزن[1] . وقد ظهر نقاد[2] موثوقون ، ينقدون الزيف ويبعدونه عن التداول ، ومن هنا درج على الالسنة كلمة نقد للتعبير عن المسكوكات .

عندما فتح العرب المسلمون العراق ثم ايران ، كان في ايدي الناس نقود يزدجرد الثالث (٦٣٢ ـ ٦٥١ م) . لم يتدخل العرب في شؤون الناس في البلاد المفتوحة ، بل تركوهم يتعاملون حسب العرف والتقاليد ، ويمارسون صناعاتهم ، الا انهم احدثوا شيئا بسيطا على نقود يزدجرد الثالث (اللوح ١ ـ الصورة ١ = درهم يزدجرد ـ الساساني) وهو ان اضافوا كلمة (جيد) في الربع الثاني من الوجه[3] (اللوح ١ ـ الصورة ٢) ، ثم اضافوا على نقود اخرى في المكان نفسه (بسم الله) (اللوح ١ ـ الصورة ٣) ، وتركوا جميع المعالم الاخرى كما هي ما عدا التاريخ الذي يظهر انه محسوب بالتقويم الهجري او التأريخ اليزدجردى[4] .

لاحظ العرب المسلمون ان نقود خسرو الثاني الساسانية (اللوح ـ١ الصورة ٤) اجود من نقود يزدجرد الثالث ، لذا امروا بسكها من جديد ، واضافوا في الربع الثاني او الربعين الثاني والثالث من هامش الوجه :
العبارات الاسلامية : لله[5] ، بسم الله ، بسم الله ربي (اللوح ١ ـ الصورة ٥) صدق الله[6] ، بسم الله ربي ... ويعتبر علماء المسكوكات ان النقود العربية الساسانية باسم يزدجرد الثالث اقدم من تلك التي تحمل اسم خسرو الثاني .

طلق على هذه النقود علماء المسكوكات **النقود المغفلة** ، لانه اغفل فيها اسم الخليفة او الوالي العربي ، وظلت تحمل اسم يزدجرد او خسرو . اما مكان الضرب فهو مذكور بالفهلوية مختصرا بحرفين او أكثر :
مثال ذلك : ؟ ـ = AB = أبر شهر، **BISH** = بيشابور...
اما التاريخ فهو بالتقويم الهجري على الاكثر او اليزدجردى كما اشرنا سابقا .
يوجد درهم عربي ساساني مغفل طريف لا يحمل تاريخا ولا مكان ضرب ، وهو باسم خسرو الثاني ، لكن خوذة العاهل مختلفة وليست مجنحة . وقد مثل في الظهر محراب في وسطه سهم كتب الى اليسار داخل المحراب كلمة (نصر) والى اليمين (الله) ، وكتب خارج المحراب الى اليسار (امير المؤمنين) ، والى اليمين

(خلفت[٧] الله) (اللوح ١ ـ الصورة ـ ٦) هذا الدرهم المغفل الطريف اطلق عليه الاستاذ الدكتور مايلز (محراب وعنزة)[٨].

واخيرا ، ظهر درهم عربي ساساني مغفل باسم خسرو الثاني يحمل بالعربية مكان الضرب (دمشق) الى يسار المذبح الناري ، والتاريخ (اثنتين وسبعين)[٩] الى اليمين (اللوح ١ ـ الصورة ـ ٧) وصدر بعد هذا النقد درهمان مغفلان أخران ضربا بدمشق سنتي (٧٣ و ٧٤ هجرية)[١٠] ، وضعت (دمشق) الى اليمين والتاريخ الى اليسار ـ حسب التقليد القديم ـ ثم صدر درهم اخير في هذه السلسلة ضرب في سنة ٧٥ هجرية يخلو من اسم خسرو الثاني . لا اعتبره مغفلا[١١] لانه كتب بالعربية وذكر (امير المؤمنين خلفت الله) ويحمل صورة عبد الملك سأذكره في موضعه .

النقود العربية الساسانية باسماء الخلفا : ضرب معاوية بن ابي سفيان دراهم تحمل الرمز دربجرد وهي مؤرخة بالسنتين الهجريتين ٤١ و ٤٣ وتحمل اسمه بالفهلوية (معاوية امير المؤمنين[١٢] (اللوح ١ ـ ٨) وضرب عبد الملك ابن مروان دراهم عربية ساسانية كثيرة في عدة مدن تحمل تواريخ بالتقويم الهجري او اليزدجردي (اللوح ١ ـ ٩) وذكر اسمه ايضا بالفهلوية (عبد الملك امير المؤمنين[١٣] APDLMILIK AMIR I WRUISHNIKAN

النقود العربية الساسانية باسماء مدعي الخلافة : بعد موت معاوية بن ابي سفيان اعلن عبدالله بن الزبير نفسه خليفة وبايعه اهل الحجاز ، وقد ارسل جيشا بقيادة اخيه مصعب فاستولى على العراق واجزاء من ايران . وضرب دراهم عربية ساسانية باسمه بالفهلوية (عبدالله امير المؤمنين) او (عبدالله بن الزبير[١٤] في عدة مدن عراقية وايرانية . (اللوح ١ ـ ١٠)

اما مدعي الخلافة الثاني فهو الخارجي (قطري بن الفجاءة) فهو ايضا سك دراهم عربية ساسانية كتبت بالفهلوية ما عدا المأثورة « لا حكم الا لله » التي تعتبر شعارا ملازما للخوارج وقد كتب اسمه مرة (قطري امير المؤمنين) ومرة (عبدالله قطرى امير المؤمنين)[١٥] (اللوح ٢ ـ ١١) .

النقود العربية الساسانية باسماء الولاة : يبدو ان الخليفة الاموي ، منذ عهد معاوية الاول اجاز الولاة ان يضربوا النقود العربية الساسانية باسمائهم . هذه النقود تحمل رموز مدن الضرب في العراق وايران وهي مؤرخة بالتقويم الهجري او التاريخ اليزدجرى او ما بعد اليزدجرى[١٦] .

نذكر اسماء هؤلاء حسب التسلسل الزمني (١٧) وهم : زياد بن ابي سفيان (اللوح ٢ ـ١٢) ، سمرة بن جندب ، عبدالله بن عامر ، عبد الرحمن بن عامر ، عبيدالله بن زياد ، اسلم (بن زرعة بن عمرو بن الصاعق الكلابي) ،

سلم بن زياد ، عبد الرحمن بن زياد ، طلحة بن عبدالله ، الحكم بن ابي العاص ، عبدالله بن الحرث بن نوفل) ، عبدالله بن خازم ، محمد بن عبدالله (بن خازم) ، طلحة بن عبدالله ، قحطان ، عبد العزيز بن عبدالله (بن عامر) ، عبد الملك بن عبدالله (بن عامر) عمر بن عبيدالله (بن معمر) ، مصعب بن الزبير[١٨] ، مقاتل بن مسمع ، امية بن عبدالله ، خالد بن عبدالله ، بشر بن مروان ، عبيدالله بن ابي بكره ، حمران بن ابان ، المهلب بن ابي صفرة ، المغيرة بن المهلب بن ابي صفرة ، الحجاج بن يوسف (اللوح ٢ ــ ١٣) ، يزيد بن المهلب[١٩] ، (اللوح ٢ ــ ١٤) ، عبيدالله بن امية[٢٠] ، عمرو بن لقيط العبدي ، عبيدالله بن عبد الرحمن ، عمارة بن تميم ، خالد بن ابي خالد (خالد القسرى) ، البراء بن قبيصة (٢٠ ب)

النقود العربية الساسانية باسماء الثوار : كان الثائر الاول من الخوارج وهو عطية بن الاسود ، لم يدع الخلافة كقطرى بن الفجاءة ويوجد ثائر ثان من الخوارج لم يحل اسمه بعد ، والثائر الثالث هو عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث (ثار بغضا بالحجاج ومعاملته القاسية) .

المهم في الحلقة الاخيرة من تطور النقود العربية الساسانية ان الحجاج بن يوسف ويزيد بن المهلب كتبا اسميهما فقط باللغة العربية . والاهم من كل ذلك الدرهم العربي الساساني الذي ضربه عبد الملك فوضع صورته في الظهر واقفا متقلدا سيفا ، وكتب الى اليسار (امير المؤمنين) والى اليمين (خلفت الله) وكتب خلف رأس العاهل (ضرب في ــ سنة خمس) وامام وجهه (وسبعين)[٢١] (اللوح ٢ ــ ١٥) . هذا الدرهم يخلو من اية كلمة فهلوية ، وهو أخر درهم عربي ساساني متطور معروف حتى هذا اليوم قبل تعريب النقود تعريبا نهائيا . وسنرى ان هذه القطعة من حيث التطور توافق الدينار الذهبي العربي المتأثر بالنمط البزنطي الذي ضربه عبد الملك سنة ٧٤ هجرية وهو ايضا يحمل صورته واقفا متقلدا سيفا .

تطور النقود من شكلها البزنطي الى العربي البزنطي

كانت النقود الذهبية والنحاسية والبزنطية هي الرائجة في الاسواق ، وكانت صلة عرب الجزيرة بعرب الشام وثيقة ، والتجارة بينهما موسمية منتظمة ، يحمل التجار من عرب الجزيرة حاصلات اليمن والحبشة والسواحل الافريقية ، وربما بعض[٢٢] ما يرد من الهند الى الشام ، ويعودون بمنتوجات الشام وبالنقود البزنطية .

كانت النقود البزنطية المتداولة قبيل الاسلام وبعده هي نقود (فوكاس) (٦٠٢ ـ ٦١٠م) ونقود هيراكليوس (٦١٠ ـ ٦٤١ م) ، ولا بد من ان يكون بعض نقود الاباطرة السابقين موجودة ايضا ، بدليل ان النقود المقلدة من قبل العرب تحمل صورهم . النقد الذهبي البزنطي يسمى (سوليدوس SOLIDUS) وهو يزن ٤,٥٠ غ تقريبا ، النقد النحاسي يسمى (FoUIS) وهو ما اطلق عليه العرب (الفلس) . وكان الفلس يحمل الحرف العددي وهو يساوي (٤٠ نمية) ، والفلس المتوسط يحمل حرف ويساوي (٢٠ نمية) ، والفلس الصغير يحمل الحرف ويساوي (١٠ نمية) .

تطور النقود الذهبية نحو التعريب :

مرت هذه الحركة بعدة مراحل :

١) اول هذهالمراحل تقليد نقد فوكاس الذهبي . اليكم وصف السوليدوس الاصيل :

الوجه : مثل عليه صورة نصفية للقيصر ، يعلو رأسه صليب ، ويحمل بيده اليمنى كرة يعلوها صليب ، وقد كتب عليه في المدار اسمه ودعاء بالبقاء .

الظهر : مثل على السوليدوس شعار النصر تمسك بيمناها رمحا في ذروته الشارة المقدسة وبيسراها كرة يعلوها صليب ، كتب في الفراغ الايسر VICTORIA وفي الفراغ الايمن AVCC [٢٣] والسمة[٢٤] وكتب تحت النصر مكان الضرب CONOB وهي مؤلفة من CON وتعني القسطنطينية و OB وتعني OBRIZIUM اي الابريز = الذهب (اللوح ٢ ـ ١٦)[٢٥] .

لا يدرى على وجه الضبط متى تم تقليد سوليدوس فوكاس ، لم يغير الساك اي شيء من المعالم الرئيسية للسوليدوس ، وانما مسح عارضة الصليب ليبطل معناه الديني ، وجعل في ذروة القسم القائم منه كرة صغيرة جدا (اللوح ٢ ـ ١٧).

٢) الخطوة الثانية في التقليد استهدفت تقليد سوليدوس هيراكليوس وابنه . اليكم وصفه :

الوجه : مثل عليه صورة نصفية لكل من هيراكليوس وابنه ، وقد علا رأس كل منهما صليب واطيء يبدو كأنه زهرة ثلاثية TREFLE ، وبدا في الفراغ بينهما صليب . كتب في المدار اسم القيصر وابنه مع الدعاء بالبقاء .

الظهر : بدا في الوسط الصليب البزنطي المرفوع على قاعدة اربع درجات ، كتب في اسفلها CONOB وفي المدار مأثورة النصر . (اللوح ٢ ـ ١٨) .

احتفظ العرب ايضا بجميع مظاهر السوليدوس ، لكنهم حذفوا جناحي الصليب

من فوق رأس القيصر وابنه ، ومسحوا الصليب بينهما ، واستغنوا عن قيمة الصليب البزنطي في الظهر ، حيث بقيت العارضة فقط بحيث زال المعنى الديني له . (اللوح ٢ ـ ١٩) .

٣) جائت الخطوة الثالثة بتقليد سوليدوس هيراكليوس ولديه . اليكم وصف الدينار الاصيل .

الوجه : مثل هيراكليوس وولداه واقفين ، على رأس كل منهم صليب ، وباليد اليمنى من كل منهم كرة يعلوها صليب ، لا يوجد في المدار اية كتابة .

الظهر : الصليب البزنطي في الوسط على اربع درجات وتحتهCONOBوفي المدار مأثورة النصر . في الفراغ الايسر من الصليب الشارة المقدمة ( )اللوح ٢ ـ٢٠)

في الدينار المقلد حذفت عارضة الصلبان من الوجه ، وأزيلت قمة الصليب البزنطي من الظهر ، وحذفت الشارة المقدسة من الفراغ الايسر ، ووضع عوضا عنها I وفي الفراغ الايمن B اما مأثورة الضرب فقد بدت ناقصة (C)ONOB (اللوح ٣ ـ ٢١)

٤) اما الخطوة الرابعة فقد كانت جريئة استهدفت تعديلا مهما وتعريبا لسوليدوس هيراكليوس ولديه : في الوجه رسم الاشخاص محور ومبسط ، وفي الظهر حذفت عارضة الصليب ، واستبدل بها كرة صغيرة ، وكتب بالعربية في المدار باتجاه حركة عقرب الساعة :

بسم الله لا اله الا الله وحده محمد رسول الله

وكتب الى يسار الصليب المحور B والى اليمين I (اللوح ٣ ـ ٢٢) .

٥) اتت الخطوة الخامسة وكانت تعريبا واضحا تم في عهد عبد الملك بن مروان سنة ٧٤ هجرية ـ ٦٩٦م اليكم وصف الدينار الجديد :

الوجه : مثل شخص عبد الملك واقفا ، متقلدا سيفا ، مرتديا ملابس مزركشة ، وكتب في المدار حوله حسب اتجاه حركة عقرب الساعة :

« بسم الله لا اله الا الله وحده محمد رسول الله »

الظهر : بدا في الوسط الصليب البزنطي المحور ، وكتب حوله حسب اتجاه حركة عقرب الساعة :

بسم الله ضرب هذا الدينر سنة اربع وسبعين[٢٦] » (اللوح ٣ ـ ٢٣)

هذا الدينار لا يزال فريدا في العلم ، وقد ضرب على نمطه دنانير في السنوات ٧٥ [٢٧] و٧٦ و٧٧ هجرية[٢٨] .

وهنا لا بد لنا من الاشارة الى ان النقد العربي الساساني الاخير المؤرخ سنة ٧٥ هجرية في حلقات التطور من الساساني الى العربي يحمل ايضا شخص عبد الملك متقلدا سيفا . وكذلك الدنانير المعربة في السنوات ٧٤ ــ ٧٧ هجرية . يعني انه حدث التقاء في خطي التطور من الساساني ومن البزنطي في هذه الفترة التي سبقت التعريب الكامل . اقصد من هذه الاشارة ان حركة التطور سارت في طريق معقول ومنطقي تتناسب مع الظروف ولم يتم التطور بسرعة او في مدة قصيرة .

حصل تطور في سك النقود الذهبية في افريقية يشبه الى حد ما تطورها في المشرق ، واخيرا صدر دينار عربي ، كتبت فيه مأثورة الضرب والتاريخ باللاتينية (اللوح ٤ ــ ٢٤) .

تطور النقود النحاسية نحو التعريب :

اما تعريب الفلوس البزنطية فقد مر بمراحل اكثر تعددا وربما اطول امدا فملخصها فيما يلي :

١) الفلس البزنطي الاصيل الذي كان نقطة البدء بالتقليد كان لجوستان الثاني وزوجه صوفيا (٥٦٥ ــ ٥٧٨ م)[٢٩] وهو مضروب في بيكوميديا في السنة الثامنة من حكم هذا القيصر ــ ٨ ــ ٥٧٢ م (اللوح ٣ ــ ٢٥) .

قلد العرب هذا الفلس وضربوه في (بيسان) . ومن المعلوم ان النقود البزنطية عامة خلت من اسماء المدن السورية ما عدا انطاكية التي كان لها منزلة دينية . الفلس المقلد يختلف عن الاصل بوجود كلمة (بيسان) باليونانية في الوجه ، وهو عمل غير مألوف على النقود البزنطية ، لان مكان الضرب يكون تحت الحرف M ومن الطريف ان كلمةNikoالتي هي مختصر كلمة (نيكوميديا) مدينة الضرب الاصلية لا تزال في موضعها ، ولكن اخطأ المقلد فزلق الحرف O الى اسفل العدد المرقوم Ϙ = A الذي هو التاريخ[٢٩]ب (اللوح ٣ ــ ٢٦) .

٢) ضربت فلوس مثل على وجهها القيصر هيراكليوس واقفا مرة وقاعدا مرة اخرى كتب عليها باليونانية مكان الضرب. DAM مثلا[٣٠] مختصر دمشق DAMACKOC (اللوح ٣ ــ ٢٧) و بعلبك .

(توجد اغلاط في الكتابة والترتيب على الفلس ، المضروب في بعلبك) .

٣) نشر ووكر (ص ٤٦ ــ ٥٠) عدة فلوس مشكوك بها ، احدها يحمل في الوجه عجيد بالعربية وفي الظهر(?)OMA باللاتينية ، وآخر يحمل اسم خالد = χΑΛΕΔ باليونانية مضروب في طبرية .

٤) الفلس المعرب الذي يحمل شخص هيراكليوس واقفا في الوجه كتب في

الفراغ الايمن باليونانية DAMACK وعرب الظهر نهائيا : في الفراغ الايمن حول M (ضرب) وفي الاسفل دمسو وفي الايسر (جائز) وهي صفة للفلس القابل للتداول ، لكن الملاحظ ان الصلبان والشارة المقدسة ظلت سلى حالها لم تمس[٣١] (اللوح ٣ ــ ٢٨) .

٥) حذفت DAMACK من الوجه ومثل هيراكليوس وابنه مع صلبانهم ، وبقي الظهر كما هو في الخطوة السابقة عربيا .[٣٢]

٦) مثل على الوجه شخص الخليفة (قبل عبد الملك) واقفا متقلدا سيفا ، وكتب في الفراغ الايسر (محمد ر) وفي الأيمن (سول الله) . وظهر الى اليمين من الحرف (فلسطين) والى اليسار (ايليا)[٣٣] . (اللوح ٣ ــ٢٩) .

(فلسطين) والى اليسار (ايليا)[٣٣] . (اللوح ٣ ــ ٢٩) .

صدرت فلوس مصورة اخرى في هذه المرحلة (قبل عبد الملك) ضربت في (سرمين)[٣٤] و (الرها)[٣٥] وعمان[٣٥]وغيرها .

٧) **الوجه** : مثل شخص عبد الملك واقفا متقلدا سيفا ، كتب في المدار حسب اتجاه حركة عقرب الساعة :

«لعبدالله عبد الملك امير المؤمنين»

الظهر : الصليب البزنطي المحور ، كتب الى اليمين (واف) والى اليسار (بحلب) وكتب في المدار حسب حركة عقرب الساعة :

«لا اله الا الله وحده محمد رسول الله» (اللوح ٣ ــ ٣٠)

ضرب مثل هذا الفلس بدمشق وحمص وقنسرين وعمان ...[٣٥]ج .

٨) فلس عبد الملك المعرب جمع بين النمطين الس ساني والبزنطي .

الوجه : مثل جنديين مسلحين وظهر بينهما الصليب البزنطي المحور بكرته الصغيرة يعلوها سنان يبدو كأنه شعلة . هذا المشهد يشبه الى حد ما الحارسين والمذبح الناري على النقود الساسانية والساسانية العربية .

الظهر : كتب في المدار حول M «بسم الله من امر عبدالله عبد الملك امير المؤمنين»[٣٦] (اللوح ٣ ــ ٣١) .

الى هنا اكون قد اعطيت صورة سريعة لسير تطور النقود من شكلها الساساني وشكلها البزنطي نحو التعريب .

النقود العربية الاسلامية

يعتبر الخليفة المصلح عبد الملك بن مروان بحق منشئ الدولة الاموية ، رسخها على قواعد ثابتة سياسيا واداريا وماليا وعسكريا . لقد كان تعريب الدواوين ثم تعريب النقود سملا اصلاحيا عظيما ، وطد به اركان الدولة ، ورفع

مكانتها بان خلصها من التقليد والانتحال ومن جميع رواسب الماضي .

اليكم وصف النقود العربية الاموية :

الدينار العربي الاموي : لم يبق من أثر قديم في الدينار العربي الاموي الا قياسه ووزنه ، فقد احتفظ بهما تقريبا ، فكان قطر الدينار بين ١٨ و ٢١ مم ، وكان وزنه بين ٤,٢٠ ـ ٤,٣٠ غ وهو اقل من وزن الدينار العربي المضروب حسب النمط البزنطي ، وكان ذلك ضروريا من اجل ايجاد نسبة عادلة بين الدينار الذهبي والدرهم الفضي وزنا وقيمة .

اقدم دينار عربي اموي ضرب في آخر سنة ٧٧ هجرية[٣٧] وهو يحمل المأثورات التالية : (اللوح ٤ ـ٢)

الظهر	الوجه
الله احد الله	لا اله الا
الصمد لم يلد	الله وحده
ولم يولد	لا شريك له
المدار[٣٨] : بسم الله ضرب هذا الدينر في سنة ...	محمد رسول الله ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله.

يحيط بالمدار في كل سنة من الوجه والظهر طوق[٣٩] دائرى ، لا يظهر في أكثر الاحيان منه الا جزء بسيط ، او لا يبدو منه اي جزء .

نصف الدينار : يتراوح وزنه بين ٢,٠٦ غ و ٢,١٢ غ . تختلف مأثورة الوسط في الظهر عن تلك المرقومة على الدينار فهي «بسم الله ـ الرحمن ـ الرحيم» كل منها في سطر . وقد كتب (النصف) عوضا عن (الدينر) ، وحذف (لا شريك له) من مأثورة التوحيد .

ثلث الدينار : يتراوح وزنه بين ١,٣٩ ـ ١,٥٠ غ. المأثورة نفسها ، ولكن (الثلث) عوضا عن (النصف) ، وحذفت كلمة (وحده) بعد كلمة التوحيد .

يلاحظ ان مكان الضرب لم يظهر على الدنانير العربية على الاكثر ، وهذا يعني ان الدنانير كانت تضرب بدمشق[٤٠] وقد شذ عن ذلك ظهور دنانير ضربت في افريقية ، والاندلس ومعدن امير المؤمنين بالحجاز ومعدن امير المؤمنين .

الدينار العربي المضروب في افريقية :

١) اقدم الدنانير العربية سكت في السنوات : ١٠٠[٤١] هجرية ، ١٠١هجرية[٤٢] ، ١٠٢[٤٣] ،هجرية مأثوراتها شبيهة بمأثورة النصف والثلث حيث ذكر في

وسط الظهر « بسم الله ــ الرحمن ــ الرحيم » وتوجد فروق قليلة اخرى .

٢) لا يوجد حتى الان دينار ذهبي قديم بين ١٠٤ و ١٠٩ هجرية مما يدل انه حصل انقطاع في الاصدار.

٣) ضرب الدينار الاموي في افريقية على مثال النقود الاموية في المشرق ، ولا يختلف عنها الا بذكر (افريقية) واذا امعنا النظر في الخط على هذه الدنانير ، نراه لا يختلف عن الخط المشرقي واسلوبه ، لذا نعتقد ان هذه الدنانير ضربت في دمشق لصالح المغرب[٤٤] .

شر ووكر عدد ضئيلا من الدنانير المضروبة حسب النمط المشرقي اقدمها مؤرخ من سنة ١١٤هجرية ، واشار الى دينار مضروب سنة ١١١ هجرية نشره كازانوفا[٤٥] ، وقال انه لا يدري اذا كان هذا الدينار ضرب حسب النمط المغربي او المشرقي . نستطيع ان نقول جازمين انه ضرب حسب النمط المشرقي ، لان في متحف دمشق دينارا فريدا ضرب بافريقية سنة ١١٠ هجرية حسب النمط المشرقي (اللوح ٤ ــ ٣٤) ويوجد ايضا دينار أخر فريد في متحف دمشق ضرب سنة ١١٦ هجرية : كما يوجد في برلين دينار آخر ضرب سنة ١٢٢ هجرية[٤٦]

الدينار العربي المضروب في الاندلس : هذه الدنانير المضروبة بالاندلس اتبعت اسلوب الدنانير المضروبة بأفريقية :

١) **الدينار القديم :** المعروف منه حتى الان ضرب في السنوات ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٦هجرية .

٢) **الدينار المضروب حسب النمط المشرقي :** يوجد مثال واحد مضروب سنة ٢٧ هجرية محفوظ في متحف اشموليان في اكسفورد[٤٧] .

الدينار العربي المضروب في معدن امير المؤمنين بالحجاز : ضرب فقط سنة ١٠٥[٤٨] هجرية . (اللوح ٤ ــ٣٥)

الدينار العربي المضروب في معدن امير المؤمنين : ظهر حديثا دينار اموي مضروب سنة ٩١ هجرية ضرب في (معدن امير المؤمنين) دون ذكر المكان بالضبط احدهما محفوظ في المكتبة الاهلية في باريس .[٤٩]

الدراهم العربية الاموية : كان يظن ان اقدم درهم عربي خالص ضرب سنة ٧٩ هجرية من دون ذكر مكان الضرب[٥٠] وهو فريد حتى الان في العالم .

ظهر حديثا في العراق درهم اموي عربي خالص ، ضرب بأرمينية سنة ٧٨[٥١] هجرية وكان هذا حدثا هاما جدا في عالم السكوكات العربية الاسلامية .

يوجد درهم عربي خالص مضروب بالبصرة سنة ٤٠ هجرية (نشره لافوا)[٥٢] اي في عهد علي بن ابي طالب ــ كرم الله وجهه ــ وهذا وقت مبكر جدا ، ظهر فيه

هذا الدرهم الفريد . ناقش أمر هذا النقد ووكر ، واراد ان يثبت ان كتابة التاريخ على هذا الدرهم مغلوطة . كان يجب ان يكتب النقاش (اربع وتسعين) فكتب (اربعين) اي انه اعتبره مضروبا (٩٤ هجرية)[٥٣]

نشر لافوا ايضا عدة دراهم[٥٤] اعتبرها مضروبة قبل سنة ٧٩ هجرية ، ولكن في الواقع كانت دراسة هذه الدراهم مغلوطة ، وهي مضروبة بعد ذلك اعني ٩٥ و ٩٣ و ٩٦ هجرية ، ويأتي الاشتباه من كتابة كلمة ، الاسنان فيها متساوية .

اليكم الان وصفا للدرهم العربي الاموي (اللوح ٤ ـ ٣٦ = دمشق ٧٩ هجرية)

الظهر	الوجه
الله احد الله	لا اله الا
الصمد لم يلد و[٥٥]	الله وحده
لم يولد ولم يكن	لا شريك له
له كفوا احد	
المدار: محمد رسول الله... المشركون (السورة ٩ ، الاية ٣٣)	بسم الله ضرب هذا الدرهم...[٥٦] في سنة

ليس في مأثورات الدرهم العربي الاموي ما يلفت النظر الا ذكر (مدينة الضرب) مما يدل ان الخليفة فوض الولاة القيام بهذه المهمة .

النقود المبكرة المضروبة في مرو (٧٨ ـ ٨٤ هجرية) كتبت بخط رديء واملاء مغلوط ، وكتب في الفراغ اسفل مأثورة الوسط من الوجه كلمة (مرو بالفهلوية = [illegible]) .

النقود العربية الاموية النحاسية :

هناك انواع عديدة جدا من النقود النحاسية تختلف في وزنها وحجمها ومأثوراتها و مدلولاتها ، نجملها فيما يلي :

١) فلوس عربية مغفلة : ..(رسول الله لا اله الا الله وحده).

على بعض هذه الفلوس بعض العلامات : نجمة ، حبيبة او اكثر ، غصن نخيل ...

٢) فلوس عربية مصورة : على احد الوجهين من بعض فلوس هذا النوع يرى صورة حيوان كالفيل ، اليربوع ، طائر ، اسد ... ويرى على بعضها الآخر صورة خيال او صورة اناء او شمعدان او شجرة ...

٣) فلوس تحمل تاريخا .

٤) فلوس تحمل مكان الضرب .
٥) فلوس تحمل مكان الضرب والتاريخ .
٧) فلوس تحمل اسم الخليفة ومكان الضرب واحيانا التاريخ .
٨) فلوس تحمل اسم الوالي ومكان الضرب واحيانا التاريخ .

من هذا العرض السريع نجد ان الفلوس الاموية تحوى معلومات اكثر اهمية من الدراهم ، والدراهم تحوى معلومات اكثر اهمية من الدنانير .

النقود والمراجع يكمل بعضها بعضا :

هذه هي المعلومات الثابتة التي حصل عليها الباحثون عن نشأة النقود العربية وتطورها من النمطين الشرقي والغربي الى ان عربت تعريبا نهائيا ، وذلك بدراسة النقود نفسها وتصنيفها وعرضها ، بحيث تنجلي حركة التطور بشكل لا يدع مجالا للبس . وان الوثائق المكملة لبحث النقود هي الاوزان والسنجات ، وهي عادة تكون مصنوعة من الزجاج ، فمن دراستها استطعنا ايضا ان نستجلي كثيرا من الغوامض في النقود وفي المراجع .

ان الكتب العربية القديمة[٥٧] في التاريخ والادب والفهرست وكتب الخراج ، والمال والنقود والاجتماع والقوانين والسك والمعادن ، اعطتنا نتفا من المعلومات عن هذا الموضوع ، كثير من هذه المعلومات هام جدا ، وهي تجلو لنا بعض الحقائق الغامضة ، وتفيدنا في دراسة النقود نفسها ، ومعرفة نشأتها وتطورها وطرق السك ومعامل السك واجور السكاكين ، كما انها تنورنا عن نسبة قيم المعادن بعضها الى بعض وأوزان النقود ، وتعادل النقود بعضها الى بعض وتطور النسب والمعادلات عبر العصور الاسلامية .

لقد كانت هذه الكتب مراجع على غاية الاهمية للمستشرقين الذين تصدوا لدراسة المسكوكات العربية الاسلامية والاوزان والعيارات ، وقد كتبوا مقدمات كتبهم اعتمادا عليها ، وأخص بالذكر منهم لافوا وسوفير ، ولين بول ووكر ومايلز ، ثم ظهر كتاب عرب محدثون امثال الكرملي والنقشبندي وعبد الرحمن فهمي ومحمد بامر الحسيني ، اعتمدوا على الكتب القديمة وكتب المستشرقين ، فأجاوا كثيرا من الأمور الغامضة في هذا الموضوع . ولكن كل ذلك لا يغني عن دراسة النقود نفسها لاستنباط المعلومات الصحيحة .

اليكم بعض المعلومات التي وردت عن نشأة النقود وتعريبها في الكتب القديمة ، ولنأخذ مثلا واحدا وهو :

تحديد تاريخ التعريب :

ابن هشام بن الكلبي[٥٨] : اخبرني داود الناقد ما قاله اليه ابو الزبير ان عبد

الملك ضَرب بضعة دنانير سنة اربع وسبعين ثم ضربها سنة خمس وسبعين .

البلاذرى[٥٩] : (عن ابي الزناد) : ان عبد الملك اول من ضرب الذهب عام الجماعة سنة اربع وسبعين .

عن المدائني) : ضرب الحجاج الدراهم اخر سنة خمس وسبعين ثم امر بضربها في جميع النواحي سنة ست وسبعين .

الطبري[٦٠] ان عبد الملك ضرب الدراهم والدنانير عامئذ (اي سنة ٧٦ هجرية) وهو اول من احدث ضربها .

ابن الاثير[٦١] : وفي هذه السنة (٧٦) هجرية ضرب عبد الملك بن مروان الدنانير والدراهم وهو اول من احدث ضربها في الاسلام .

الذهبي[٦٢] : وفيها (سنة ٧٥ هجرية) ضرب الدنانير والدراهم عبد الملك وهو اول من ضربها في الاسلام .

المقريزى[٦٣] : ذكر تسلسلا في ضرب النقود من قبل العرب ، هذه خلاصتها

١) عمر بن الخطاب ضرب كل عشرة دراهم ستة مثاقيل على نقش الكسروية .

٢) العبارات العربية التي ذكرها عمر على الدراهم في بعضها (الحمدلله) وفي بعضها (محمد رسول الله) وفي بعضها (لا اله الا الله) .

٣) عثمان زاد من العبارات (الله اكبر) .

٤) وضرب معاوية ايضا دنانير عليها تمثاله متقلدا سيفا .

٥) دراهم عبدالله بن الزبير واخيه مصعب .

٦) فلما استوثق الامر لعبد الملك ... ضرب الدنانير والدراهم سنة ٧٦ من الهجرة. ابن خلدون[٦٤] اعتمد ما ذكره البلاذري .

نكتفي بهذا القدر من الامثلة ، ونرى أنه يوجد اختلاف بين المؤرخين في هذه النقطة الجوهرية ، كما انه يوجد تفاوت بين ما ذكر والواقع ، يمكن ان نلخص ذلك فيما يلي :

١) ابن الكلبي والبلاذرى ومن أخذ منهما كالماوردي وابن خلدون يؤكدون ان عبد الملك ضرب الذهب عام ٧٤ هجري ، لكنهم لم يخبرونا شيئا عن صفة الدينار ، أكان عربيا خالصا ، ام لا زال متأثرا بالنمط البزنطي . فان كان قصدهم دينار عبد الملك الذي يحمل صورته سنة ٧٤ هجرية فقولهم صحيح .

٢) لم ينتبه احد من المؤرخين الى التأثر بالنمط البزنطي الا المقريزي[٦٥] عندما قال : ... فقدمت (النقود) مدينة رسول الله (ص) فلم ينكروا منها سوى نقشها فان فيها صورة .

٣) في سلسلة التطور التي ذكرها المقريزي اشار الى ان معاوية ضرب دنانير عليها تمثاله متقلدا سيفا : لا نعرف حتى الان اي دينار لمعاوية يبدو عليه تمثاله ، لكننا نعرف فلوسا ضربت قبل عبد الملك وعليها صورة الخليفة . من الغريب الا يذكر المؤرخون القدامى شيئا عن الصورة الى ان اتى المقريزي ، فأعطانا معلومات اكثر تفصيلا عن شكل النقود والمأثورات المثبتة عليها . ترى هل عثر المقريزي على كتاب او وثيقة ذكرت فيها هذه المعلومات ، اي انه عثر فعلا على نقود درسها ووصفها لنا وصفا غير دقيق ؟

٤) نجد في اقوال المؤرخين من يؤخر موعد ضرب الدراهم العربية عن الدنانير ، هذا صحيح ولكن لا تنطبق اقوالهم اجمالا مع الواقع .

٥) المقريزي كان أوضح الكتاب في تعيين بدء ضرب النقود من قبل العرب ، فقد ذكر ضربها على **نقش الكسروية** في عهد عمر ــ ر ــ ، وهذه هي التي اسميناها النقود العربية الساسانية المغفلة . ويعني هذا ان النقود تطورت من عهد عمر حتى عهد عبد الملك ، حتى غدت عربية .

٦) السبب المباشر في التعريب ذكره البيهقي[٦٦] وذكره ابن الاثير[٦٧] بروايتين متقاربتين ولكن الشخص الذي اشار على عبد الملك بشكل النقد العربي ومأثوراته مختلف ، فهو عند البيهقي محمد بن علي بن الحسين ، وعند ابن الأثير خالد بن يزيد بن معاوية . المهم في الروايتين هو طلب عبد الملك المشورة ، اهتمام المسلمين بالخطوة الاخيرة من التعريب ، وضع الشكل النهائي للنقد العربي بمأثورات عربية صرفة من ضمنها أيات قرأنية ، وقد اثنى ابن خلدون[٦٨] على ابداع النقد العربي الصرف بقوله : « ونقش (عبد الملك) فيه (في النقد) كلمات لا صورا ، لان العرب كان الكلام والبلاغة اقرب مناحيهم وأظهرها ، مع ان الشرع ينهى عن الصور .

معلومات التاريخية التي نستمدها من النقود :

١) اسماء الخلفاء والامراء والولاة والوزراء وامير الامراء والمشرفين على السك والملوك والسلاطين ورؤساء الزعامات المحلية والثوار . لقد استفاد العالم النمسوي ادوارد زمباور من دراسة النقود ، واستطاع ان ينظم « معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي »[٦٩] .

بالرغم من المعلومات الكثيرة التي حصلنا عليها من دراسة النقود العربية الاسلامية الوفيرة ، لا زلنا بين وقت وأخر نحصل على نقود نادرة عليها اسم شخص لم يذكر في المصادر التاريخية بوضوح ، اولم يشر الى دوره ، او اننا لا نجد له ذكرا ، ولأضرب على ذلك مثلا : عثرت اخيرا على درهم عباسي ضرب بعمان

سنة ٣١٢ هجرية[٧٠] يحمل اسم سبكري)هذا الرجل ورد اسمه في احداث الخلاف بين الخليفة المقتدر والزعماء السامانيين ، ثم اختفى اسمه من التاريخ حوالي سنة ٢٩٨ هجرية . ظهور اسمه على درهم عباسي سنة ٣١٢ هجرية في عمان امر مهم .

٢ ــ اسماء المدن التي سكت فيها النقود كثيرة جدا ، وقد جمعها ايضا المستشرق النمسوي زمباور في كتاب هام[٧١] . وبالرغم من الجهود المضنية التي بذلها مدة طويلة في جمع معلوماته وتصنيفها ، فقد ظهرت نقود تحمل اسماء مدن جديدة صنفها الدكتور مايلز[٧٢] ولا زالت تظهر نقود تحمل اسماء مدن لم تذكر سابقا ، نشرت بعضها مثل[٧٣] النبق والرويان وتوجد اسماء مدن مهمة لم تنشر مثل (دلسة) على درهم اموي مضروب سنة ١٩٧٩ هجرية[٧٤] و (بزيجاخسرا) على درهم اموي آخر مضروب سنة ٧٩ هجرية[٧٥] ، ولا يزال لدى نقود تحمل اسماء مدن لم استطع تفكيكها بعد .

ورد اسم (هارون اباد) على دراهم عباسية ضربت بأرمينية ، ولم يستطع احد من المؤرخين وعلماء المسكوكات ان يحدد مكانها بالضبط . واخيرا اهتدى الاستاذ ابراهيم ارتق[٧٦] الى مكانها على خارطة مفصلة لهضبة ارمينية .

اعني من عرض هذه اللقطات ان النقود كنز من المعلومات ، لا يزال يمدنا من وقت الى آخر بشيء جديد .

٣ ــ التاريخ بالتقويم الهجري :

وقد اشرنا آنفا الى اهمية النقود العربية الاسلامية من حيث تحديدها بتاريخ تقويمي يساعدنا كثيرا في تثبيت الاحداث .

ولكن مع ذلك لا بد لنا من ان نشير الى ان بعض التواريخ الواردة على النقود العربية الاسلامية لا تتفق مع الواقع ، وقد كتبت على النقود لأغراض واسباب نجملها فيما يلي بلقطات سريعة :

١) الدرهم العباسي في عهد المأمون باسمه واسم ولي العهد علي الرضا من البيت العلوي ، يحمل لقب الفضل بن سهل (ذي الرياستين) ، ضرب منه سنة ٢٠١ و ٢٠٢ و ٢٠٣ هجرية ، وهذا يتفق مع الواقع ، ولكن وجد درهم ضرب سنة ٢٠٤ هجرية بالمحمدية[٧٧] ، وآخر ضرب في مدينة اصفهان سنة ٢٠٥ هجرية[٧٨] . علي الرضا توفي في اوائل سنة ٢٠٣ هجرية وذو الرياستين توفي سنة ٢٠٢ او ٢٠٣ هجرية . الاستمرار بضرب هذا النقد بعد الوفاة دليل على عناد من الحزب الذي كان يريد السير في الطريق الذي رسموه . يبدو ان المأمون غض النظر عن ذلك

مؤقتا حتى تمكن من السيطرة التامة .

٢) توجد ثلاثة دنانير فاطمية تحمل (مدينة الضرب مصر) والتواريخ (٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٥٣ هجرية) اي قبل احتلال الفاطميين لمصر[٧٩] .

ان دراسة هذه النقود صحيحة ، وقد تحريت عن ذلك . نتساءل كيف سكت هذه النقود افاطمية بمصر قبل الاحتلال ؟

من البديهي انها سكت في افريقية لغرض سياسي وهو الدعاية[٨٠] للفاطميين بمصر .

٣) ضرب نقد فاطمي بالقيروان سنة ٣٣٥ هجرية[٨١] باسم القائم بالله ، مع ان القائم توفي سنة ٣٣٤ هجرية.

تفسير ذلك ان المنصور اسماعيل بن القائم (٣٣٤ ـ ٣٤١ هجرية) كتم خبر موت ابيه لان البلاد كانت في حالة حرب مع الثوار ، فلما انتهى القتال ، واخمدت الفتنة اعلن وفاة ابيه .

٤) ضرب الدينار سلجوقي باسم المقتدي بأمر الله وملكشاه في مدينة السلام سنة ٤٨٦ هجرية[٨٢] ؛ مع ان ملكشاه توفي في اخر سنة ٤٨٥ هجرية .

السبب في سك هذا الدينار ان تركان خاتون زوج ملكشاه كتمت خبر موته حتى تستطيع أن تضمن السلطة لابنها محمود .

٥) صدرت دراهم ايوبية في حلب باسماء الامام الناصر والملك العادل ابي بكر والظاهر غازي ، من سنة ٦١٤ حتى ٦٣٨ هجرية ، مع ان الظاهر توفي سنة ٦١٣ هجرية ، والعادل ابو بكر توفي سنة ٦١٥ هجرية ، والناصر توفي سنة ٦٢٢ هجرية .

تفسير ذلك ان الملك العزيز محمد الذي خلف اباه الظاهر غازيا كان طفلا صغيرا ، ويبدو انه عندما اصبح شابا كان ضعيف الشخصية ، يسيطر عليه البيت الايوبي بحلب ، لذا حصل استمرار في ضرب النقود[٨٣] على النمط نفسهبالرغم من وجود دراهم باسماء ملوك اخرين وباسم العزيز .

٦) صدرت دراهم ايوبية في دمشق باسم الخليفة المستنصر بالله وعماد الدين اسماعيل بعد سنة ٦٤٠ هجرية ، مع ان المستنصر توفي سنة ٦٤٠ هجرية .

هذه النقود اعتبرها علماء المسكوكات **ايوبية صليبية** وان بعضها يحمل صليبا صغيرا ضمن مأثورات القطاعات[٨٤] .

٤ ـ توافق حكم الخليفة مع السلاطين والملوك :

ظهر الى جانب الخلفاء حكام شاركوهم السلطة او استبدوا بالسلطة

وذكروا اسماء الخلفاء لاضفاء الشرعية على حكمهم .

تجد احيانا نقودا باسماء هؤلاء الحكام دون ذكر اسم الخليفة ، ونجد احيانا اسم الخليفة دون ذكر اسم الحاكم . لكل هذا اسباب يمكن ان توضحها لنا كتب التاريخ ، وقد لا تساعدنا المراجع على ايضاحها تماما ، فالنقود هنا تلفت نظرنا الى المنافسة والصراع على الحكم .

الامثلة على ذلك كثيرة نختار منها : في العهد السلجوقي صدر دينار عباسي باسم المقتدي بأمر الله في مدينة السلام سنة ٤٨٦ هجرية دون ذكر اسم ملكشاه[٨٥].

صدر ايضا دينار المستظهر بالله في مدينة السلام سنة ٤٩١ هجرية دون ذكر اسم السلطان السلجوقي[٨٦] .

هذان الديناران يدلان على تنازع السلاجقة على السلطة واستفادة الخليفة من هذا الصراع لينفرد بالحكم في مدينة السلام على الاقل .

٥ ـ المأثورات على النقود كشعارات للثوار :

نعرض هنا بعض الأمثلة :

١) الخوارج : المأثورة (لا حكم الا لله) ظهرت على النقود العربية الساسانية المضروبة باسم قطري بين الفجاءة وعطية بن الاسود ، كما ظهرت على نقود الخوارج في اواخر الحكم الاموي ضربت بالكوفة سنة ١٢٨ هجرية[٨٧] على يد الضحاك ابن قيس الشيباني الحروري .

٢) الثوار المنتقضون على الحكم الاموي في ايران : (قل لا اسألكم عليه اجرا الا المودة في القربى) (السورة ٤٢ الآية ٢٢) كانت الدعوة العباسية سرية لآل البيت لا يعرف الجمهور انها لبني العباس .

ظهرت هذه الآية على الدراهم المضروبة في اصطخر والتيمرة وماهي سنة ١٢٩ هجرية وظهرت على نقود بلخ ومرو سنة ١٣٢ هجرية[٨٨] وغيرها .

٣) ثورة العلويين في الكوفة : قامت حركة علوية تدعو لمحمد بن زيد بن علي بن الحسين على يدي السري المكنى بأبي السرايا ، كان شعارها على الدرهم المضروب بالكوفة سنة ١٩٩ هجرية[٨٩] : « ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » (السورة ٦١ ، الآية ٤)

٤) ثورة الزنج في سواد العراق : قامت في منتصف القرن الثالث الهجري حركة مروعة من الزنوج تزعمها شخص منتهز سمى نفسه محمد بن المهدي ، عاثث

الثورة في العراق الجنوبي فسادا . بنى الزعيم لنفسه مركزا **المدينة المختارة** في منطقة المستنقعات ، وضرب فيها سنة ٢٦١ هجرية[٩٠] درهما كتب على الوجه :
» ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله » (السورة ٩ ، الآية ١١٢)
وكتب على الظهر : » ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الكافرون[٩١] ، الا لا حكم الا لله[٩٢] ، ولا طاعة لمن عادى الله[٩٣] » .
٥) الثائر احمد بن عبدالله الخجستاني في خراسان وكرمان وسجستان : ضرب درهما في نيسابور سنة ٢٦٨ هجرية[٩٤] . كتب في مدار الوجه :
» قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير . (السورة ٣ ، الآية ٢٦) .
وكتب في مدار الظهر
« قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا ان الله مع المتقين » (السورة ٩ ، الآية ١٢٤) .

٦) المأثورات على النقود كشعارات للدول المنفصلة

يبدو فيها لونها السياسي واتجاهها الديني . نضرب منها بعض الأمثلة :
١) العلويون في المغرب : أسس الأدارسة دولة مستقلة في المغرب الاقصى كتبوا في مدار الظهر بعد ذكر اسم الزعيم الادريسي :[٩٥]
« جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا » (السورة ١٧ الآية ٨١) .وردت هذه المأثورة ايضا على دنانير (الهادي الى الحق) يحي من بني الرسي في اليمن وهي المضروبة بصعدة سنة ٢٩٨ هجرية[٩٦] ، كما وردت على دنانير عباسية مضروبة باليمن بين ٣٥٢ ــ ٣٥٧ هجرية .[٩٧]
٢) الزيديون في طبرستان : نجح الحسن بن زيد من آل علي في تأسيس دولة صغيرة في بلاد الديلم ، وسعى الى نشر الدين الاسلامي في الارجاء المنعزلة حيث بقي الناس فيها على المجوسية حتى ذلك الوقت .
ذكر على دراهمه المضروبة بمدينة آمل سنة ٢٥٣ هجرية[٩٨] و ٢٥٤ هجرية .
الوجه : « قل لا أسألكم عليه اجرا الا المودة في القربى ، ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا » (السورة ٤٢ ، الآية ٢٣) .
الظهر : « اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير » (السورة ٢٢ ، الآية ٣٩) .
وذكر اخوه محمد بن زيد الذي خلفه سنة ٢٧١ هجرية على وجه الدينار المضروب بمدينة آمل سنة ٢٧٤ هجرية .[٩٩] :
« انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا » (السورة

٣٣ ، الآية ٣٣) .

٣) الفاطميون : تميزت نقودهم بمأثورة دائمة « علي ولي الله »[١٠٠] وظهرت على نقودهم مأثورات اخرى غير ثابتة « علي أفضل الوصيين » ، « علي خيرة صفوة الله » .....

٤) الحشيشيون : وهم (النزاريون) الذين يعتقدون بأن الامامة الفاطمية كان يجب ان تستمر في نزار وآله . ونزار هذا هو الابن الاكبر للمستنصر بالله ، لقب نفسه (المصطفى لدين الله) وأراد المطالبة بحقه ، لكن الظروف كانت اقوى منه فمات ميتة شنيعة بمصر ، لذا حمل الحسن بن الصباح الدعوة النزارية الى طبرستان .

وقد ظهر من الحشيشيين محمد بن بزركوميد الذي ضرب دنانير بكرسي الديلم نعرف منها الآن الدنانير المؤرخة بين ٥٣٧ حتى ٥٥٥ هجرية[١٠١] . وقد عثرت مؤخرا على دينار مؤرخ سنة ٥٥٧ هجرية .[١٠٢]

كتب الحشيشيون على الظهر : « علي ولي الله ــ المصطفى لدين الله ــ نزار » وفي المدار « امير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى ابائه الطاهرين وابنائه الاكرمين » .

٥) الموحدون في افريقية الشمالية : كتب ابو يعقوب يوسف (٥٥٨ ــ ٥٨٠ هجرية) على دنانيره (المغفلة من التاريخ) الآية الكريمة :

« والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم » (السورة ٢ ، الآية ١٦٣) ، وزاد ابنه ابو يوسف يعقوب (٥٨٠ ــ ٥٩٥ هجرية) الآية :

« وما بكم من نعمة فمن الله » (السورة ١٦ ، الاية ٥٣) . وما توفيقي الا بالله » (السورة ١١ الآية ٨٨) .

٦) الايلخانيون : وهم الموغول الذين اسسوا دولتهم في العراق وايران وما وراء النهر ، قبلوا الاسلام ، ولم يفقهوه ، لذا ترى اكثرهم يتذبذب بين المذهب السني والمذهب الشيعي ، حتى أن أرغون (٦٨٣ ــ ٦٩٠ هجرية) قد تنصر في بعض الوقات وبدا اثر ذلك على نقوده فقد كتب « الاب والابن والروح القدس » على درهم ضرب باصفهان سنة ٦٨٧ هجرية . (١٠٢ ب) .

٧) الصليبيون : ضربوا النقود بالعربية اما تقليدا للنقود الفاطمية والايوبية واما مسيحية صرفة . شعارهم الاساسي :

« الاب والابن والروح القدس الاه (كذا واحد »

« نفتخر بصليب ربنا يسوع المسيح الذي به سلامتنا وحياتنا[١٠٣] وقيامتنا وبه تخلصنا وعفينا »

٧) القاب الخلفاء التي لها مغزى ديني :

١) خليفة الله : وردت (خلفت الله[١٠٥] على الدراهم العربية الساسانية وبعض

الفلوس العربية البزنطية :ووردت اخيرا على الدرهم العباسي المضروب باسم المأمون وولي عهده علي الرضا المضروب في السنوات ٢٠١ ـ ٢٠٥ هجرية[١٠٦] .
لهذا اللقب على هذا الدرهم مغزاه السياسي والديني .
ووردت على دينار محمد المستنصر بالله المنصور بفعل الله من بني حفص (٦٤٧ ـ ٦٧٥ هجرية) على دنانيره المغفلة من التاريخ « المهدي خليفة الله » وعلى نقود بعض خلفائه .[١٠٧]
٢)امام المؤمنين : وجدتها على درهم ضربه المأمون بالمحمدية سنة ١٩٥ هجرية ظهر عليه اسمه واسم الفضل وطاهر بن الحسين، لم ينشر مايلز له مثيلا[١٠٨].
٣ المنتقم من اعداء الله لدين الله : ذكر هذاالقب أو الوصف الخليفة العباسي القاهر بالله (٣٢٠ ـ ٣٢٢ هجرية) على السكة مثال : الدرهم المضروب بالأهواز سنة ٣٢٢ هجرية [١٠٩].
٤) امام الحق : ذكر هذا اللقب الخليفة العباسي المستكفي (٣٣٣ ـ ٣٣٤ هجرية) على السكة مثال :الدينار المضروب بمدينة السلام سنة ٣٣٤ هجرية.[١١٠]
٥) الداعي الى الحق : لقب الحسن بن زيد العلوي في طبرستان . ذكر هذا اللقب على النقود ، لكن لقب نفسه أيضاً « المهدي الحق أمير المؤمنين »[١١١] .
٦) الهادي الى الحق : اتخذ يحي بن الحسين بن القاسم من بني الرسي في اليمن هذا اللقب ، وضرب دينارا بصعدة سنة ٢٩٨ هجرية عليه « الهادي الى الحق امير المؤمنين بن رسول اللهجرية »[١١٢]
٧) السيد الرئيس : تلقب به زعيم القرامطة الحسن بن احمد وقد ضرب دنانير بفلسطين في سنتي ١١٣٣٦١ و ٣٦٢ هجرية ، (دراهم بدمشق سنة ٣٦١ هجرية .[١١٤]
يظهر احيانا هذا اللقب بالجمع « السادة الرؤساء »

٨) نعوت للملوك تبين دورهم في الحكم مع الخليفة :

ليست هذه النعوت القابا لانه لم يدم ظهورها على النقود ، وهي في الواقع تعطي فكرة عن الرابطة بين الملك والخليفة :
١) محيي دولة امير المؤمنين : ورد على النقود النحاسية للملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب وهي تظهر بحق دوره في رفع اسم الخلافة العباسية من جديد واعادة السنة.
٢) ناصر أمير المؤمنين : ذكره السلطان السلجوقي كبنسوو الأول بن قلج ارسلان (٥٨٨ ـ ٥٩٢) على فلس ضرب بملاطبة.[١١٥].
٣)قسم أمير المؤمنين : ذكره السلطان السلجوقي كبقباد الأول بن كبنسور على

دينار ضرب سنة ٦٣٠هجرية.،ظظ
وذكره أيضا على النقود الملك الظاهر بيبرس الأول المملوكي ومنخلفه،بعدمااعترف بالأمير العباسي اللاجى‌ٴالى مصر خليفة ولقبه المستنصر بالله. وقد ذكر بيبرس هذا النعت دون ذكر اسم الخليفة في بادیٴ الأمر١١٧. ثم ذكره مع اسم الخليفة ولقبه.١١٨

٤) برهان أميرالمؤمنين : ذكره السلطان السلجوقي قلج ارسلان الرابع (٦٥٥ ــ ٦٦٣ هجرية) على درهم ضرب بارزنجان سنة ٦٥٧ هجرية .١١٩

٥) معين الامام : ذكره الارتقي قطب الدين سكمان بن محمد قرا ارسلان (٥٨١ ــ ٥٩٧ هجرية) على فلس ضرب بالحصن سنة ٥٨١ هجرية .١٢٠

٩) نعوت للملوك فيها تعاظم وادعاٴ :

١) ظل الله في العالم : ذكره كيخسرو الثاني بن كبقباء (٦٣٤ ــ ٦٤٤) على درهم ضرب في سيواس سنة ٦٤٢ هجرية .١٢١

٢) ملك امراٴ الشرق والغرب : ذكره الاتابك قطب الدين مودود بن زنكي (٥٤٤ ــ ٥٦٥ هجرية) على فلوسه .١٢٢) ملك الملوك : شمس الدولة ، مجد الدولة ، عضد الدين ، علا الدولة ، وسام الدولة ، وفخر الملة ، وتاج الامة ، وكهف الامة ... كل هذه النعوت وغيرها اطلقها على نفسه محمد بن دشمنزار من اسرة كاكويه ، التفاخر والادعاٴ فيها واضح .
ضرب دراهمه باصبهان والعسكر المنصور والكرج في السنوات ٤١٠ ــ ٤٣٥ هجرية١٢٣ . يبدو انه كلما بالغ الملك بتعظيم نفسه كانت سلطته ضعيفة وهو نوع من الشعور بالنقص والتعويض عنه .

١٠) نعت متواضع :

العبد الضعيف المحتاج الى رحمة ربه : ذكره محيي الدين مسعود بن قلج ارسلان على دينار ضربه بأنقرة سنة ٥٨٧ هجرية .١٢٤

١١) معلومات تاريخية مهمة :

وهي كثيرة جدا نجدها على النقود، وبها نتحقق من الاحداث ونتثبت من وقوعها، وبها نصحح معلوماتنا . ولأضرب على ذلك بأمثلة قليلة اهمها :

١) الدرهم القرمطي المضروب بدمشق سنة ٣٦١ هجرية الذي اشرنا اليه١٢٥ يوضح لنا ان القرامطة دخلوا دمشق فترة من الزمن سنة ٣٦١ هجرية .

٢) الدراهم الايوبية المضروبة بحلب توضح كثيرا من الاحداث التي نجهلها١٢٦ .

٣) الدراهم الايوبية المضروبة بدمشق بين ٦٢٩ ـ ٦٥٨ هجرية مليئة بالاحداث التاريخية التي لا توضحها المراجع[١٢٧] .
٤) درهم موغولي ضربه هولاكو بدمشق سنة ٦٥٨ هجرية .[١٢٨]

النقود العربية الاسلامية مصدر فني :

رأينا كيف تحررت النقود العربية الاسلامية من التأثر ، واتخذت شكلا جديدا ، ومضمونا يرتكز على اساس فكري وديني . كانت النقود في العهد الاموي وصدر العهد العباسي خالية من الزخرف تقريبا . وقد كتبت بخط رصين على الاغلب ، ثم اخذت تتطور مع مرور الزمن ، فغدت ذات قيمة فنية هامة :
١ ـ الاطواق (او الحروز) : درج العرب على ان يوزعوا المأثورات بين الوسط والمدار ، وان يحبسوا الكتابة ضمن طوق دائري مؤلف من حبيبات او من خط ، او ضمن طوقين او ثلاثة ، ويحبسون المدار على الدراهم ضمن طوقين ، ويوزعون بانتظام حلقات[١٢٩] دقيقة او صغيرة في الهامش ، على كلا الوجهين (امعن النظر في الصورة ٣٦ من اللوح ٤) .
هذا الترتيب على بساطته فيه كثير من الاناقة ، ولكن مع الزمن غدت الاطواق مجالا فنيا ، فقد صارت لها اشكال عديدة : مربع ، شكل نجمي سداسي الرؤوس ، اللوح ٤ ـ ٣٧) ، دوائر مزدوجة مفصصة ، وكثيرة الفصوص ، (اللوح ٤ ـ ٣٨) ، وردات مؤلفة من عدة دوائر مزدوجة ذات فصوص متراكبة ومتداخلة ... (اللوح ٤ ـ ٣٩) اهم من عني بهذه التشكيلات في الاطواق الايوبيون والعباسيون المتأخرون والابلخانيون ثم المماليك (خاصة على النقود النحاسية) ، فقد ابدعوا اشكالا في غاية الطرافة .
٢ ـ الزخرف : نرى في العهد الاموي على الفلوس شيئا من الزخرف البسيط : حلقة ، نجمة سداسية او ثمانية ، هلال ، حبيبات ، غصن نخيل .... ونرى على النقود العباسية مثل ذلك (ما عدا غصن النخيل) موزعة في الفراغات . اعتقد ان لهذه العناصر في العهد العباسي غرضا تعريفيا يتعلق بأمور السك او المشرف على السك ، قد نستطيع ان نتعرف عليه في المستقبل ، ولكن مع مرور الزمن صارت الزخرفة مقصودة لذاتها من اجل اشغال الفراغات بزهرات ثنائية ، او زنبقية ثلاثية ، او ورود ، او عروق نباتية محورة صغيرة او كبيرة ، او تلافيف ومتشابكات ... وقد تدخل الزخرفة ما بين الكلمات والسطور . يلاحظ هذا على النقود الاتابكية والايوبية ثم المملوكية والعثمانية .
٣ التصوير : لاحظنا ان العرب في اصلاحهم النقدي حرروا النقود من

الصورة ، وقد اشرنا الى ثناء ابن خلدون على ذلك ، ولاحظنا استياء اهل المدينة من الصورة عندما وردت دنانير عبد الملك المصورة اليها (اشار الى ذلك المقريزي ـ كما مر معنا ـ) ، ولكن ما ان انتقلنا الى العهد العباسي حتى اخذت الصورة تظهر بين حين وأخر ، حتى ان الدراهم العربية الساسانيةعادت الى الظهور في طبرستان في عهد الرشيد ، ثم ظهرت على نطاق محدود جدا صور الخلفاء (المتوكل[130] والمقتدر) ، ثم ظهرت اوسمة ونقود مصورة في العهود : البويهي[131] والسلجوقي والايوبي[120] والاتابكي والارتقي ، حتى ان الآخيرين بالغوا في تمثيل اشخاصهم على الفلوس حسب النمط اليوناني والروماني وبعض الساساني . ومن الجدير بالذكر ان المماليك وضعوا على نقودهم شعاراتهم اكثرها باشكال حيوانية مثال (السبع) ليبرسي .

٤ ـ الخط : النقود سجل طويل وكنز يزخر بالمعلومات الثابتة عن تطور الخط العربي عبر العصور منذ ان ظهرت اول كلمة عربية على النقد العربي الساساني والنقد العربي البزنطي . اول ما نشاهد في هذا السجل الخط المقور[133] البسيط الذي تكامل قبل الاسلام وفي فجر الاسلام ، ثم الخط المزوى[139] الذي نسب الى الكوفة فقيل الخط الكوفي . كتبت النقود الاموية بعد اصلاح عبد الملك بالخط اللين اولا في دمشق والكوفة والبصرة وجميع البلاد . ظهر الخط المزوى لاول مرة على الدراهم المضروبة في واسط سنة ٨٥ هجرية . وقد لاحظت من دراستي لجميع الدراهم الاموية الواسطية ، ان الخط مر في اربع مراحل تطور من خلالها[135]

١) الخط الاول : الخط اللين يلاحظ في الدراهم المضروبة بين ٨٤ ـ ٨٥ هجرية .

٢) النمط الثاني : الخط المزوى (وهو يميل الى اليبوسة) بين ٨٥ ـ ٩٩هجرية .

٣) النمط الثالث : الخط المزوى (الرصين والجميل) بين ١٠٣ ـ ١١٣ هجرية .

٤) النمط الرابع : الخط المزوى (رصين لكنه اقل جمالا) بين ١٢٢ ـ ١٣١هجرية .

جود نقاشوا النقود الخط من جيل الى جيل وسايروا سنة التطور ، فظهر بعد الخط الكوفي الرصين ، الخط الكوفي المفزلك ، ثم الخط الكوفي المزهو ، والخط الكوفي المعقد ، ثم بدا في الافق خط جديد وهو الخط الثلث ظهر في بادئ الامر مع الخط الكوفي على النقد الواحد منذ القرن الرابع الهجري = ١٠ م على نقود بني كاكويه[136] (اللوح ٤ ـ ٤٠) ، استمر الخطان يظهران جنبا الى جنب في العهود التالية وخاصة على النقود الايوبية .

استقل الخط الثلث بظهوره على النقود في الدور الثاني من العهد الايوبي ثم في عهد المماليك . لكن الملاحظ ان الخط الثلث انحدر من حيث الجودة في العهد المملوكي وخاصة في العهد البرجي ، الا انه ظل يسير في طريق التقدم والتفوق على النقود العثمانية حتى وصل الى درجة الكمال .

وقد ابتدع الخطاطون العثمانيون (الطغراء) ، وهي تأليف لطيف لاسم السلطان العثماني مع اسم ابيه ، كلما ارتقى السلطان الجديد ، الفت له طغراء خاصة ، توضع على نقوده وخاتمه ، وصارت مع الايام ملازمة للسلاطين .

ظهر في ايران الخط الفارسي المسمى (نستعليق) على النقود الصفوية . وهو خط لطيف مبالغ في ليونته ورشاقته .

هذه لمحة خاطفة ، عما يمكن ان تمدنا به المسكوكات العربية الاسلامية من معلومات تاريخية وجغرافية وفنية ، ارجو ان يكون هذا البحث نقطة انطلاق للبلاد لعربية الاسلامية ، لاثارة اهتمام الباحثين في اوساطنا العلمية بهذا العلم .

حواشي

١ ـ يستعمل الوزن للمبالغ الكبيرة فقط .

٢ ـ امثال داود الناقد وابي الزبير وابي الزناد . وان هؤلاء النقاد كانوا مصدر الروايات التي تناقلها الرواة حتى اثبتها المؤرخون الطبري والبلاذري وابن الاثير وسواهم .

٣ ـ الهامش خارج الطوق المؤلف من حبيبات .

٤ ـ التاريخ اليزدجردي يبدأ من اول سنة حكم بها يزدجرد الثالث ٥٣٢ م وهي تعادل ١١ هجرية ، فاذا كان التاريخ ٢٠ على هذه النقود ، فهي حتما بالتاريخ اليزدجردي وتعادل ٣١ هجري

٥ ـ انظر Walker; A Catalogue of the Muhammadan coins in the British Museum, Vol.I (ARAB-SASANIAN), 1941

لم يقتنع ووكر ان هذه الكلمة (لله) فاعتبر النقد ساسانيا ، لكنني تأكدت من الكلمة لوجود عدة امثلة في « كنز دمشق الفضي » ، راجع كتابي

Silver Hoard of Damascus, Damascus 1972 P. 159 and P. 162 (n. 6 and 7)

٦ ـ في الصفحة التالية .

٦ ـ اول نقد ظهر بهذه المأثورة وجد في « كنز دمشق الفضي » (انظر ص ١٦٥ الرقم ١٢) من كتابي المشار اليه . من اجل المأثورات العربية الاخرى في كتابي الصفحات ١٥٨ و ١٧٠ و ١٨١ و ١٨٢ .

٧ ـ هذا الخطأ بكتابة كلمة (خليفة) يدعو الى النظر . سأعالج هذا الموضوع في بحث الكتابة العربية بعد الاسلام . ربما كتبته هذا العام .

٨ ـ Miles, Georges C.: Some Arab-Sasanian and Related Coins (MN. VII 1957) P. 192, No. 7 Walker, Ibid, P. 24, No ANS. 5

لا ارى كلمة (عنزة) مناسبة ، لان السهم واضح انظر كتابي « كنز دمشق الفضي » ص ١٦٦ ـ ١٦٧ الرقم

٩ ـ Miles, Ibid, P. 191, No. 6

١٠ ـ Walker, I, P. 23, nos. N. 1 and DD.1

١١ ـ يعتبر علماء المسكوكات هذا الدرهم مغفلا ، وانا اخالفهم في ذلك لان هذا الدرهم يشكل الحلقة الاخيرة في تطور النقود قبيل التعريب ، وهو يخلو من اية كلمة ساسانية .

١٢ ـ كتب امير المؤمنين بالفهلوية يكون تفكيكها MAAWIA AMIR WRUISHNIKAN راجع نقوده في كتاب ووكر بين الصفحتين (٢٥ و ٢٦) وفي كتابي ص ١٧٠ ـ ١٧١

١٣ ـ راجع نقود عبد الملك في كتاب ووكر ص (٢٧ ـ ٢٩) وفي كتابي ص ١٧١ ـ ١٧٢

١٤ ـ ورد اسمه بالفهلوية مفككا بالحروف اللاتينية APDULA-ZUBIRAN
او عبدالله امير المؤمين APDULA AMIR **WRUISHNIKAN**
انظر نقود عبدالله بن الزبير في كتاب ووكر المنوه به سابقا بين الصفحات (٢٩ و ٣٦) وفي كتابي بين الصفحات ١٧٢ ـ ١٧٨ .

١٥ ـ تفكيك اسمه باللاتينية APDULA KTRII-AMIR **WRUISHNIKAN**
راجع نقوده في كتاب ووكر بين الصفحتين (١١٢ و ١١٣) وفي كتابي ص ١٧٩ .

١٦ ـ التاريخ ما بعد اليزدجردى يبدأ بعد موت يزدجرد الثالث سنة ٦٥١ م اي انه ينقص عن التاريخ اليزدجردي ٢٠ سنة وعن التقويم الهجري ٣١ سنة . لم يجد العلماء حلا للتواريخ التي ظهرت على نقود الولاة والتي لا تتفق مع عهدهم الصحيح ، الا باعتبار ان هذه التواريخ سجلت بالتاريخ بعد اليزدجردي . مثلا اذا كان التاريخ ٣٠ على النقد فهو يعادل ٦١ هجري اذا اعتبرناه (بعد اليزدجردى) . توجد لوائح لمقارنة التاريخ الهجري واليزدجردي وما بعد اليزدجردي.

١٧ ـ اعتمادا على كتاب ووكر وكتاب الدكتور هانز غاويه الذي اتبع التسلسل الالفبائي وقد اضاف غاويه اسماء ولاة وثوار :

GAUBE, Heinz: Arabosasanidische Numismatik, Brunscheig, 1973

١٨ ـ وهو والي اخيه عبدالله بن الزبير ، لا نعتبره ثائرا .

١٩ ـ نشر دراهمه Walker: Some new Arab-Sasanian Coins (Num. Chr., 6th series, Vol. XII, n°. XLII (1952), P. 108)

Miles : Some new light on the history of Kirman in the first Century of the Hijirah (The World of Islam: Studies in Honour of Ph. K. Hitti, 1961, P. 91)

وانظر كتابي « كنز دمشق الفضي » ص ٢٠٠ ـ ٢٠١ .

٢٠ ـ نشر مايلز درهمين له

Miles : Two Umpublished Arab-Sasanian Dirhems of Abdullah b. Umayyah (MN. 14 (1968), PP. 155-7)

٢٠ ـ انظر كتابي « كنز ام حجرة الفضي » ، دمشق ١٩٧٢ ، ص ٤٣ وكتاب غاويه المشار اليه ص ٦٠ .

٢٠ ب ـ نشر درهم هذا الوالي الاستاذ كوربيل لأول مرة. Curiel):

٢١ ـ وقد نشر الدكتور مايلز صورة قطعة اخرى Walker, I, P. 25, n° Zub. 1;
Miles : The Earliest Arab Gold Coinage (MN. 13, PL. XLV, fig. 9)
ونشرت قطعة ثالثة في مجلة الحوليات الاثرية العربية السورية م ٢١ (١٩٧١) ص ٣٠٤ اللوح الرقم ١١ ، ونشر قطعة رابعة الدكتور عيسى سليمان (سومر ٢٧ (١٩٧١) ص ١٤٧) .

٢٢ ـ بضائع الهند والشرق الاقصى ترد بوفرة الى الخليج العربي ، من هناك تنقل الى الحجاز

ثم الى الشام او الى الشام مباشرة .

٢٣ ـ وهي تأتي من كلمة AUGUST التي صار لها معنى السيادة المقدسة .

٢٤ ـ تختلف السمة من نقد الى اخر .

٢٥ ـ هذه الامثلة الاصيلة والمعتمدة اخذت من البحث الهام الذي كتبه الدكتور مايلز

Miles : The Earliest Arab Gold Coinage (M.N. 13 (1967), PL. I, 1-7

٢٦ ـ وجد هذا الدينار في سورية حوالي سنة ١٩٥٤ وانتقل الى لبنان ومنه اقتني لصالح متحف كاراتشي حيث هو محفوظ فيه الآن . نشره الدكتور مايلز

Miles : The Earliest Arab Gold Coinage (MN. 13 (1967)P. 212, n° 14)

٢٧ ـ محفوظ في متحف جمعية المسكوكات الامريكية بنيويورك ، وقد وجد في العراق اشتراه ثري امريكي واعاده الى الجمعية Miles, Ibid, n°15

٢٨ ـ الديناران ٧٦ و ٧٧ هجرية يوجد منهما عدة نسخ اقدمها حفظا ما هو موجود في متحف النقود بباريس نشرهما

Cabinet des Médailles de Paris Lavoix: Catalogue des Monnaies Musulmanes, Vol. I
(Khalifes Crientaux) n° 55 bis and 56.

ثم نشرهما ووكر Walker, Vol. II: The Arab Byzantin and Post-Reform coins, London, 1956, n°p. 13 and 14

ثم نشرهما مايلز : Miles, Ibid n°16 and 18

٢٩ ـ نقلا عن Walker; Ibid, Vol. II, P.1
Wroth: Catalogue of the Byzantine Coins (BM), Vol. I,P. 87n° 140

يوجد فلس أخر تقليد فلس نيكوميديا كتب مكان الضرب معكوسا

٢٩ ب ـ Walker, Ibid, P.1, n°.1

٣٠ ـ Idem P. 3, n° 4

٣١ ـ Walker, Ibid, P. 6, n°14

امثال هذا الفلس الذي يحمل اسم المدينة باليونانية والعربية ضرب في طبرية وحمص "

٣٢ ـ Walker, Ibid, n°42

٣٣ ـ Idem, n°73

٣٤ ـ Idem, n°123 and 124

٣٥ ـ Idem, n°93

٣٥ ب ـ Idem, n°96

٣٥ ج ـ فلوس عبد الملك الصورة متعددة راجع ووكر بين الصفحتين ٣٢ ـ ٤١ .

٣٦ ـ الصورة المنشورة لفلس محفوظ في المتحف الوطني بدمشق مسجل ع / ٦٦٨١ نشر مثله ووكر ص ٤٢ ورقم A-5 و A-6 وهما فلسان محفوظان في متحف عمان لكن ووكر لم يوفق كثيرا بقراءة مأثورة المدار في الظهر .

٣٧ ـ لأنه يوجد دنانير مضروبة سنة ٧٧ هجرية حسب النمط البزنطي ، والدنانير العربية

الخالصة المضروبة في تلك السنة لا تزال نادرة يوجد منها في العالم حوالي عشر قطع فقط .

٣٨ ــ كتب مأثورة المدار حسب عكس حركة عقرب الساعة . كلمة المدار وردت على لسان الكتاب القدماء في قصة البيهقي عندما ذكر محمد بن علي بن الحسين لعبد الملك : « وتجعل في مدار الدرهم والدينار ذكر البلد الذي يضرب فيه ... »

٣٩ ــ الطوق : مكون من حبيبات متراصة على شكل دائرة او دائرة بارزة . هذه الكلمة درج اخواننا في العراق على استعمالها لمأثورة المدار (وربما استندوا الى وصف المقريزي الذي استعملها) وهناك كلمة اخرى استعملها علي بن يوسف الحكيم الكومي (في كتابه « الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة/ تحقيق د . حسين مؤنس)ص ٦٠ وهي الحرز (كلمة لطيفة تؤدي المعنى ايضا)

٤٠ ــ يقول المقريزي (الخطط ج١ ص ٢١٠) ان الخليفة عبد الملك بن مروان امر والي مصر عبد العزيز بن مروان سنة ٧٧ هجرية ان يضرب الدنانير المنقوشة ...« اذا كانت هذه الرواية صحيحة فان الدنانير الاموية ضربت بدمشق ومصر».

٤١ ــ من مجموعة المرحوم حسن حسني عبد الوهاب (انظر ووكر ص ٧١١ XLVII)) بذلت جهدي في البحث عنه عندما زرت تونس فلم يفدني احد عنه .

٤٢ ــ نشرت هذا الدينار لاول مرة في بحث اهديته الى الاستاذ الدكتور جورج مايلز في السفر التذكاري المهدى اليه Rare Islamic coins, addition - I اصدرته الجامعة الأمريكيــة ببيروت (يوجد منه ثلاث نسخ في العالم) . الثالثة في باريس اشكر الاستاذ كورييل لارساله طبعة عنه

٤٣ ــ نشرهما ووكر ص ٩٩ ورقم وهو من مجموعة المرحوم حسن حسني عبد الوهاب والرقم

٤٤ ــ هذا بحث مهم، يحتاج الى معالجة دقيقة لان الدراهم المبكرة المضروبة بافريقية والاندلس ربما ضربت بدمشق والدراهم الاخرى سنة ١١١هجرية (افريقية) و ١٠٧ هجرية (الاندلس) ضربت بواسط انظر اشارتي الى ذلك في كتابي « كنز دمشق الفضي » ص ٢١٦ .

٤٥ ــ Casanova : Inventaire Sommaire de la Collection des Monnaies Musulmanes de S.A. La Princesse Ismail, Paris 1896, nº 215

٤٦ ــ Walker, II, P. 100, nº 13-16

٤٧ ــ ووكر ص ١٠٢ ، الرقم OX. 2

٤٨ ــ Miles : Rare Islamic Coins, (nº 66
اعاد نشره ووكر في كتابه الثاني ص ١٠٣ الرقم ANS-16 a

٤٩ ــ نشره الدكتور مايلز: Miles, (Revue Numismatique (Paris), Année 1972):

٥٠ ــ نشره ووكر في كتابه الثاني ص ١٠٤ الرقم وهو محفوظ في دار الكتب المصرية بالقاهرة ، كان نشره ليوبوي في كتابه الخاص بمجموعة المكتبة الخديوية تحت الرقم ٦٦ .

٥١ ـ نشرته السيدة مهاب درويش البكري في مجلة المسكوكات ، العدد (٤) (١٩٧٣) ص ١٣ الرقم ٢ .

Lavoix: Vol. I, Khalifes Orientaux, n°159

٥٢ ـ Lavoix : Vol. I, n°. 159

٥٣ ـ من الطريف ان ووكر لم يذكر هذا الدرهم الفريد في درج مصنفه الثاني (عربي بزنطي وعربي اموي) لا تحت التاريخ (٤٠ هجرية) ولا تحت التاريخ المقترح (٩٤ هجرية)، وانما اشار في الصفحة ١٢٥ ، في الحاشية (٢) الى انه ناقش الدرهم في مصنفه الاول ص وقد ناقش الموضوع ايضا في مقدمة مصنفه الثاني ص
هذا الموضوع يحتاج الى تدقيق والى كتابة بحث جديد ، ربما قمت به يوما ما .

٥٤ ـ وهي دمشق سنة ٧٥ هجرية، مرو ٧٣ و ٧٦ هجرية.
لقد بين ووكر في مصنفه الثاني ص ١٨١ الرقم وص ١٨٢ الرقم
خطأ قراءة لافوا ، وبرهن على ذلك بحجة مقبولة . وقد اكدت على ذلك ايضا في كتابي « كنز دمشق الفضي » ص ٢٧٩ والرقمان ٢١٨ و ٢١٩ والحاشية (١) .

٥٥ ـ يختلف موضع (و) في اخر السطر الثاني او اول السطر الثالث .

٥٦ ـ حذفت (في) من نقود دمشق سنة (٨٠ هجرية) وما بعدها ولكن تأخر حذفها في للمدى الاخرى المعروف حتى الان ان كلمة (في) حذفت سنة (٨١ هجرية) ولكن « كنز دمشق الفضي » يحوي درهما مؤرخا (٨٠ هجرية) وليس فيه (في): اي ان الحذف جرى في اواخر سنة (٨٠ هجرية)، راجع كتابي ص ٢٤٨ الرقم ١٠٨ .

٥٧ ـ كتب التاريخ : الطبري ، البلاذرى ، ابن الاثير ، السيوطي ، ابن شامة ، ابن تغرى بردى ، الذهبي ... المؤرخون البزنطيون تيوفان ، وزونار ، وبرقوكوب والمؤرخ الارمني كورين والاسقف بسندى القبطي (الذين ذكرهم لافوا في مقدمته) اعطونا وجهة نظر المؤرخين الاجانب وخاصة عن تعريب النقود .
الادب : الثعالبي ، البيهقي ، القلقشندي ، الف ليلة وليلة .
الفهرست : ابن النديم ذكر في ترجمة الواقدي معلومات عن تعريب النقود .
الخراج والأموال : ابن يوسف ، قدامة بن جعفر ، ابن سلام .
النقود : ذكر المقريزى معلومات هامة عن النقود والأوزان والاكيال في كتبه، الا انه خصص كتابا لدراسة النقود وهو شذوذ العقود في ذكر النقود (تحقيق ماير سنة ١٩٣٣ (نشر المفيد منه الكرملي في كتابه)
الاجتماع : مقدمة ابن خلدون .
القوانين والسك والمعادن : الماوردي ، الخرجي ، ابن مماتي ، ابن بحرة ، الحكيم (علي بن يوسف) مصطفى الذهبي ، الشافعي ، البيروني (الجماهر في معرفة الجواهر) .
الوثائق القديمة والسجلات : اوراق البردي ، وسجلات المحاكم الشرعية في كل بلد عربي واسلامي تعطينا ايضا معلومات في غاية من الاهمية .

٥٨ ـ ذكر هذا النص لافوا في مقدمة كتابه الاول ص XXVIII

٥٩ ـ البلاذرى : فتوح البلدان (ط . الازهر) سنة ١٣٥٠ هـ ص ٤٥٣ .

٦٠ ـ الطبري : تاريخ الامة والملوك (المطبعة الحسينية) ج ٧ ص ٢٤٢ .

٦١ ـ ابن الاثير : الكامل في التاريخ (طبعة مصرية غير مؤرخة) ج ٤ ص ١٦١ .

٦٢ ـ الذهبي : تاريخ الاسلام (طبعة القدسي) ج ٣ ص ١٢٠ .

٦٣ ـ المقريزي (من كتاب انستاس الكرملي : النقود العربية وعلم النميات ص ٣١ ـ ٣٤)

٦٤ ـ ابن خلدون : المقدمة (المطبعة الشرقية بمصر ١٣٢٧ هجرية)ص ٢٩١ .

٦٥ ـ المقريزي (المرجع نفسه ص ٣٤) .

٦٦ ـ المحاسن والمساوي (تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ـ القاهرة ١٩٦١) ج ٢ ص ٢٣٢ ـ ٢٣٥

٦٧ ـ الكامل ج ٤ ص ١٦١ .

٦٨ ـ ابن خلدون المقدمة ص ١٩٢

٦٩ ـ نشر الكتاب بالالمانية ثم بالفرنسية ثم عرب سنة ١٩٥١م واعيد طبعه بالعربية. لقد اعتمد زمباور ايضا على من سبقه من علماء النقود، وخاصة على كتاب المستشرق الايرلندي ستافلي ليدبول محافظ النقود الاسلامية في المتحف البريطاني Muhammadan Dynasties, 1894 بلندن.

٧٠ ـ نشرته في السفر التذكاري المهدي الى الاستاذ الدكتور جورج س مايلز بمناسبة بلوغه سن السبعين، تحت عنوان Rare Islamic Coins, Additions I سيظهر السفر في نهاية هذا العام وقد نشرته المجلة الاميركية في بيروت.

٧١ ـ صنف الكتاب سنة ١٩٤٣ ولكنه نشر بعد موته تحت اسم

Die Münzprägungen des Islams
Nies baden, 1968

٧٢ ـ اعتنى بجمع هذه المدن وعددها خمسون الدكتور مايلز ونشرها:

Miles: Additions to Zamban's Münzprägungen des Islams(MN. 17 (1971), PP. 229-233)

٧٣ ـ نشرتها في البحث المشار اليه في الحاشية (٧٠).

٧٤ ـ اذن لي مالكه الاستاذ سميشما ان انشره، فله مني الشكر والعرفان.

٧٥ ـ توجد منه الآن نسختان في العالم: الأولى في المتحف العراقي وهي مقتناة حديثا تكرمت السيدة مهاب درويش البكرى فأرسلت الى صورة الدرهم، والثانية في مجموعة احد الاصدقاء في بيروت وقد سمح لي بنشره. سأنشر منه النقود في كتاب خاص بالنقود النادرة.

٧٦ ـ تذاكرنا معا في هذا الموضوع وضممنا ان ننشر معا بحثا عن (هارون أباد).

٧٧ Miles: The Numismatic History of Rayy, New York, 1948, P. 106, nos. 105A 105B

٧٨ ـ سمير شما: درهمان نادران عن علاقات بينية (المسكوكات ٤ ص ٤٥ ـ ٤٦).

٧٩ ـ اشوت اليها في بحثي (مصر ـ القاهرة ـ على النقود العربية الاسلامية) نشر في ابحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة (مارس ـ ابريل ١٩٦٩) وقد صدرت الابحاث العربية في ثلاثة مجلدات نشر بحثي في الجزء الثاني ص ٩٠٧ ـ ٩٩٥ كانت الاشارة الى هذه الدنانير ص ٩١١ ـ ٩١٢.

٨٠ ـ واوردت في بحثي المشار اليه ما فيه الكفاية عن هذا الموضوع.

٨١ ـ يملك هذا الدينار صديقي الدكتور هنري أمين عوض من القاهرة، اشكره لسماحه لي بالتكلم عنه نشر مثله

٨٢ ـ اشرت الى هذا الدينار في بحثي هذا الموضوع في بحث خاص (النقود بامر الله) المنشور في (المسكوكات العدد ٣ صفحة ٥٤).

٨٣ ـ أشرح دواعي هذا الموضوع في بحث خاص (النقود الأيوبية المضروبة بحلب) بعض الباحثين في علم المسكوكات يرون ان هذه النقود ربما كانت من تقليد الصليبيين.

٨٤ ـ سأنشر هذه الدراهم في كتاب اعده (دمشق على النقود العربية الاسلامية) وسأشرح المشاكل الخطيرة التي لابست حكم الايوبيين في دمشق بين ٦٢٩ ه و ٦٥٨ ه.

٨٥ ـ شرت الى بحثي هذا في الحاشية (٨٢) المسكوكات٣).

٨٦ ـ كتب (تصوير وتعقب) على مقالي المشار اليه في الحاشيتين (٨٢و٨٥) المسكوكات ٤ ص ٥٠ ـ ٥١) هذا الدينار من مجموعة العراق (المسكوكات ٢ ص ٥٧ الرقم ٣٢٣).

٨٧ ـ انظر كتابي «كنز ام حجرة الفضي، دمشق ١٩٧٢» ص ٤٨ الرقم ٢٢٧.

٨٨ ـ انظر كتابي الآنف الذكر ص ٤٩ الرقم ٢٣٨ والمرجع التالي

Artuk, Istambul Arkeoloui Müzeleri:
Teshirdeki Islami Sikkeleri Katalogu, Istambul, 1971, nos. 146-151

٨٩ Miles: Rare Islamic Coins, n° 253; Artuk: Ibid, n° 313

٩٠ Casanova: Monnaies du Chef de Zandji (RN. III (1893), PP. 540-516)

ويوجد ايضا درهم آخر ضرب سنة ٢٦٤ ه نشره

Walker: Rare Coin of the Zandj (JRAS, July 1933)

٩١ ـ الجزء الاخير من السورة (٥) الآية (٤٧).

٩٢ ـ مقتبسة من السورة (٦) الآية (٥٧) (.. ان الحكم الا لله....) وقد استعارها من شعار الخوارج.

٩٣ ـ يست آية ولا حديثا

٩٤ Porter: Unpublished Coins of the Caliphate (NC. 5th Series, vol. I, 1921), P. 328
Artuk: Ibid, n° 378

٩٥ ــ راجع نقود الادارسة في كتاب لافوارج ٢ المتحف البريطاني ج ٣ وغيرها

٩٦ Artuk, Ibid, n°910

٩٧ Samir Shamma : A Hoard of Fourth Century Dinars from Yamen (MN. 17 (1971), P. 238

٩٨ Miles: Al-Mahdi el-Haqq, Amir el-Mu'minin (R.N., 1965), P. 334-5
Stern: The Coins of Amul (N.C. VII (1967), P. 211

٩٩ Stern: Ibid, P. 212

١٠٠ ــ اجع نقود الفاطميين في كتاب لافواج ٣ والمتحف البريطاني ج والمرجع التالي:
Miles : Fatimid Coins, New York, 1951
Miles : Coins of the Assassins of ALAMUT (O.L.P.3 (1972), PP. 155-160

١٠٢ ــ سأنشره في كتاب النقود النادية.

١٠٣ب ــ محمد مبارك: مسكوكات قديمة اسلامية قالوغي، قسم ثالث (النقود الابلخانية) ص ٣٣ الرقم ٣٤.

١٠٣ ــ تبدو واحيانا (تحيتنا) وعلى هذا النحو قرأها بعض علماء المسكوكات، لكن الاصح (حياتنا)

Lavoix: Monnaies à légendes Arabes frappées en Syrie par les Croisés Paris, 1877P. 54
Balog et Yvon : Monnaies à Légendes Arabes (de l'Orient Latin (RN. 1958, PP. 133.168
P. 58

١٠٤ ــ لا نتعرض للالقاب العادية المقبولة كأمير المؤمنين والامام.

١٠٥ ــ وردت على احد الفلوس (خلفة).

١٠٦ ــ راجع الحاشيتين (٧٧) و (٧٨) والالقاب الاسلامية للدكتور حسن الباشا ــ القاهرة ١٩٥٧ ص ٣٧٥ ــ ٣٧٦

١٠٧ ــ انظر لافواج ٢و Artuk, (1971), n° 570, 573

١٠٨ ــ الدراهم التي نشرها مايلز في كتابه القيم المشار اليه سابقا
Miles: (NH.R.), nos 96

١٠٩ ــ ذكر هذا الخبر عن القاهر السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٣٨٦
Artuk: (1971), n° 474

١١٠ ــ السيوطي ص ٣٨٧ وحسن الباشا ص ١٧٧ Idem, n°501

١١١ ــ انظر الحاشية (٩٨) Miles: (RN. 1965), P. 334-5
ذكر شتون دراهم ضرب آمل ٢٥٣ و ٣٥٤ ه ثم ضرب جرجان ــ ٢٦٧ ــ ٢٧٠ه

١١٢ Stern: Coins of Amul (NC., 1967P. 211-219
Zambanr: Contribution I, N° Artuk, (1971), n° 910

١١٣ Porter: Ibid, P. 331; Artuk Ibid, n° 891

١١٤ ــ سأبحث هذا الموضوع في كتابي "دمشق على النقود العربية والاسلامية" وقد

نشره ايضا يورتر ص ٣٣١

١١٥ Artuk: Ibid, nº 1065

١١٦ Idem, nº1093

١١٧ Balog: The Coinage of the Mamluk Sultans of Egypt and Syria, New York, 1964, nº 30-36

١١٨ Idem, nº 37-38

١١٩ Artuk, Ibid, nº 1146

١٢٠ Idem, nº 1207

١٢١ Idem, nº 1218

١٢٢ Idem, nº 1250

١٢٣ Miles: Another Kakwayhid Note (MN. 18 (1972), PP. 139-147

١٢٤ Artuk, Ibid, nº 1064

١٢٥ ــ انظر الحاشية (١١٤)

١٢٦ ــ سأكتب بحثا خاصا بها.

١٢٧ ــ سأذكرها في كتابي "دمشق على النقود العربية الاسلامية".

١٢٨ ــ اشكر زميلي الاستاذ لويك LOWICK محافظ النقود الاسلامية في المتحف البريطاني والسيد بيتز Bates محافظ النقود الاسلامية في ANS فقد ارسل لي كل منهما صورة عن الدرهم النادر. سأنشره في بحث "دمشق".

١٢٩ ــ عدد الحلقات وشكلها له معنى منذ العهد الأموي فهو بزيادة او نقصه يدل على انتقال الخلافة من سلف الى خلف وقد اشرت الى ذلك بكتابي كنز دمشق الفضي "وخاصة على الدراهم الاموية المضروبة سنة ١٢٧ و ١٢٨ ه فقد غدا عددها بين اربع وثماني حلقات. اهتم بهذا الموضوع السيد بيتز Bates محافظ النقود اسلامية في جمعية المسكوكات الاميركية Ans وانه سينشر مقالا خاصا به.

Sourdels: La Civilisations de l'Islam Classique, Paris 1968, fig. 26

١٣١ ــ قد تكون هذه القطع مسكوكة كوسام او من نوع نقود الصلة او غير ذلك. من اجل الحصول على معلومات وافية في هذا الموضوع يمكن مراجعة بحثي:

Traces du Classicisme sue les Monnaies Arabes Islamiques

المنشور في مجلة الحوليات الاثرية العربية السورية، ٢١ (١٩٧١) ص ٣٠٣ ــ ٣٢٧.

١٣٢ ــ الايوبيين وعلى رأسهم صلاح الدين مثلوا انفسهم فقط على الفلوس المضروبة في ميافارقين. راجع بحثي المشار اليه اعلاه.

١٣٣ ــ الخط العربي الذي تكامل قبل الاسلام، واستمر بعد الاسلام كان لينا، اطلق عليه (مقور) ولم يكن (مزي) راجع بحثي نشأة الخط العربي "في مجلة الحوليات الاثرية العربية السورية ج ٢٣ (١٩٧٣) وسأتابع الكتابة في هذا الموضوع.

١٣٤ ــ اقدم كتابة مزولة مؤرخة من سنة ٣١ ه تلتها الكتابات المؤرخة ٤٦و٥٨و٦٣ه

وبالرغم من الى اعد خطها (مزوي) لكنها اقرب الى اللهو، اما الكتابة التي رقصت جقا بالخط المزوي فهي مؤرخة من سنة ٦٤ ه وجدت في وادي الابيض من العراق. نشرها لأول مرة من الدين الصندوق الرسام: حجر حفنة الابيض (سومر) ج ١١ (١٩٥٢) ص ٢١٤.
(منسوح الكتابة ص ٢١٦)

١٣٥ ــ اشرت الى ذلك في كتابي «كنز دمشق الفضي» ص ٢١٥ ــ ٢١٦.

١٣٦ ــ نشر نقود هذه الاسوة الدكتور مايلز في عدة ابحاث. وقد نشرت درهما جميلا لمحمد بن شمنزار في البحث الذي اشرت اليه سابقا

Rare Islamic Coins, Additions I

وعرضت صورته في متحف الخط العربي بدمشق

دخول الترك الغز إلى الشام

د. شاكر مصطفى
جامعة الكويت ـ الكويت

يحكي ابن العديم قصة تقول ان ألب أرسلان السلطان السلجوقي حين اجتاز الفرات الى حلب سنة ١٠٧٠/٤٦٣ « قال له الفقيه أبو جعفر قاضي حلب : يا مولانا احمد الله تعالى على هذه النعمة وهي أن هذا النهر لم يقطعه قط تركي الا مملوك ونت قطعته ملكا . فأحضر الامراء والأتراك وأمره باعادة القول فأعاده وحمد الله تعالى حمداً كثيراً... »[١] ، هذه الكلمة التي أعيدت تأخذ من خلال منظور الزمن اليوم أبعادة تنبوئية عجيبة بعد تسعة قرون من « تملك » الترك عبر الفرات ... فان بلاد الشام عرفت بالفعل ، كما عرفت غيرها من مناطق العالم الاسلامي سواء في العراق أو في مصر أو افريقية أو اليمن وجوه الترك كجنود بل وحكام قبل سنة ٤٦٣ وعرفت أسماءهم ومخائلهم ، ولكنهم كانوا يردون اليها أفراداً لا جموعا بشرية قبلية محاربة كما يردون اليها مماليك ترقى بهم الهمم والحظوظ لا ملوكا حاكمين فما ان جاؤوا بصفتهم الجديدة حتى تغيرت مصائر المناطق التي طرقوها تغيرات متفاوتة في عدد من نواحي الحياة والتاريخ . ومن هنا يأتي شأن الموضوع الذى نبحث في تاريخ الشام . انه اطلالة على الجذور الأولى لهذا الانعطاف الكبير في نلك التاريخ الذى كان من آثاره :

١ ـ ادخال تغيير أثنولوجى تدريجي على طبقات السكان في الشام استمر يجرى تسعة قرون على الأقل وكان الأتراك أهم عنصر في هذا التغيير .

٢ ـ انهاء القلق المذهبي في الشام وهو القلق الذى ظهر منذ القرن الثانى الهجرى بدخول المذهب الشيعي بأشكال مختلفة على الجماعة الاسلامية فيه (فاطمية ، قرمطية ، درزية ، علوية ، امامية ، اسماعيلية) وتثبيت المذهب السني بصفة عامة مذهبا للأكثرية . ولئن كان جرى مثل نلك في

مصر وفي ايران نتيجة دخول الترك أيضا (ثم انحسر عن ايران تحت تأثير الصفويين) فانه في الشام قد طوق تلك الفرق المذهبية ودفعها الى التقوقع الدفاعي في المناطق الجغرافية الصعبة حيث بقيت الى اليوم .

٣ ــ ادخال عنصر تاريخي جديد (عسكرى سياسي) كان من ملامحه سيطرة الترك على قمة الحكم في عدد من المناطق العربية ومنها الشام قرونا بعد قرون وكان السبب في توجيه تاريخ الشام الوجهة التي اتخذها منذ القرن الحادى عشر حتى العشرين (٥ ــ ١٤ ه) وحتى انسحاب آخر ظل تركي عن الشام ١٩١٨ .

٤ ــ سمح للمنطقة الشامية (والمصرية معها خاصة) أن تدافع عن نفسها ضد الفرنجة ثم ضد المغول والتتر ، وسمح لها بالتالي أن تحتفظ بالسيطرة على طرق التجارة العالمية التي تمر بها فلا تنتزعها منها الأقوام الأخرى الطامعة . ولما كان الترك أقواما برية بصورة أساسية فان المنطقة اهملت البحر فخسرت البحر المتوسط أولا منذ الحروب الصليبية أمام الأقوام الأوروبية ثم خسرت بعد ذلك المحيط الهندى أمام هذه الأقوام نفسها بوصول البرتغاليين الى ذلك المحيط وخسرت بهذا وذاك تلك الطرق التجارية العالمية التقليدية فيها حتى اذا عادت هذه الطرق اليها في العصر الحديث لم تستطع الاستفادة منها لأن مالكي الطرق والتجارات وأدوات النقل كانوا هم أنفسهم الأوروبيين مالكي الحكم السياسي أيضا في هذه المناطق عن طريق السيطرة الاستعمارية .

٥ ــ قامت لأول مرة في الشام بعد ذلك الغزو التركي (كما قامت أيضا في ايران والعراق والأناضول ومصر) أول تجربة لمجتمع تركي ــ عربي (أو تركي ــ ايراني أيضا وتركي ــ رومي) يقوده الترك في الرئاسة والدفاع والنظام السياسي ويقوم الانتاج فيه بنوعيه الفكرى والاقتصادى على جهد الخليطة الاثنولوجية العربية ــ النبطية (الآرامية) من مسلمة وغير مسلمة . على أن الأتراك ان نجحوا في هذه التجربة الاجتماعية في اعطاء الطابع الثقافي ــ والى حد ما ــ الاثنولوجي ــ للأناضول فانهم بالعكس قد ذابوا في المحيطين الايراني في ايران والعربي في الشام فلم يكونوا في هذين المحيطين أكثر من جانب من عناصر التكوين ...

١ ــ التكوين البشرى والاقتصادى والسياسي لبلاد الشام

ولعله من الضرورى لفهم وقائع وأبعاد ذلك التوغل التركي في الشام ، في

أواسط القرن الحادى عشر (الخامس الهجري) أن نعرض الصورة السريعة للتكوين الاثنولوجي والديني والسياسي والاقتصادى ، خلال تلك الفترة في هذه المنطقة الممتدة ما بين الجزيرة وكيليكيا من جهة وما بين سينا وشمالي الحجاز من جهة آخرى .

فتلك الخليطة السكانية القديمة المعقدة السابقة للاسلام في الشام والمكونة من خلائط الآراميين (النبط) مع العرب ومع الأقوام الغزية الأخرى (كالروم واليونان) كانت قد تلقت خلال العهد الاسلامي تعديلا أساسيا في تكوينها بدخول عناصر عربية جديدة عليها بشكل قبائل توطنت منذ أعلى الجزيرة حتى أدنى خليج العقبة .

وقد أثار الزحام على التوطن في المناطق الأخصب وتفضيل اجتماع الأقارب والجوار السابقين بعضهم الى جانب بعض كثيرا من الحزازات بين هذه القبائل الجديدة مما جدد فيما بينها الانقسام الجغرافي ـ الاثنولوجي القديم وجعلها تعطي الزحام الاستيطاني شكل العصبية القبلية في ما صار يعرف لدى النسابين باسم قيس ويمن وما صار ينقسم اليه الأصل العربي كله من بين شماليين وجنوبيين ونسل عدنان وقحطان . وبالرغم من أن توطن هذه القبائل الجديدة كان متداخلا بعضه مع بعض وخاصة في منطقة دمشق (في الغوطة) وجنوبيها (في حوران وفلسطين) الا انها صارت بصورة عامة واضحة التجمع ففي الجنوب صارت المنازل لقبائل كلب اليمانية مع منازل العرب اليمانيين السابقين للاسلام هناك بينما تكاثرت في شمالي الشام قبائل من أصل قيسي ، كان أشهرها كلاب . وانما وضح هذا الانقسام وازداد وضوحا بعد معركة مرج راهط (٦٤هـ/٦٨٣م) التي هزمت القيسيين ثم كان الخط الفاصل بين المجموعتين يمر من شمالي اللاذقية حتى كفرطاب ومعرة النعمان ثم يتجه في البادية الى تدمر . وان كان التداخل مع ذلك قد بقى قائما خلال القرون .

فبينما برزت من القبائل اليمنية في الجنوب الشامي ، في القرن العاشر والحادى عشر (الرابع – الخامس الهجري) قبائل طي التي تزعمها آل الجراح وبنت لنفسها مركزا حضاريا هو مدينة الرملة ، فلما دمرتها الزلازل صار مركزها في حصن عمان بالبلقاء[٢] أو في قلعة صرخد (التي أعاد بناءها حسان بن مسمار الكلبي سنة ٤٦٦)[٣] نجد أن عددا من القبائل القيسية تأتى هذا الجنوب الكلبي وتقيم فيه ومنها قبائل مالك التي كانت في شهبا منذ الفتح الاسلامي فنزلت عليها في أذرعات من منطقة حوران أيام ابن طولون (اواسط القرن التاسع/الثالث الهجري) افخاذ وبطون أخرى منها كان عدة مقاتليها يزيد على ١٥ الف فارس وبقيت هناك حتى أواخر القرن ١٢ حين انتقلت الى جنوبي وأواسط لبنان[٤] ومنها

كذلك قبائل بني عقيل التي استقدمها الأخشيد فملكوا في حوران والبثينة[5] هذا عدا ما كان في جند فلسطين من قيس وكنانة وما كان في الجولان ومدينة بانياس هناك من بني مرة وفزارة القيسيين[6] وما كان كذلك منهم في أرض البلقاء في مدينتي عمان وريحا من منطقتي الظاهر والغور ...

وبالمقابل فان شمالي الشام حتى الجزيرة وان كانت مقسومة بين القبائل القيسية الى ديار مضر ، وديار ربيعة ، وديار بكر ، وكان النسيج الانثولوجي العربي فيها يقوم على قاعدة واسعة خليطة من العرب السابقين للاسلام (كتغلب وبكر) ومن الجماعات الآرامية (السريانية) والكردية والأرمنية فانها بدورها لم تكن تخلو من وجود جماعات يمنية بينها أشار اليها ابن حوقل والى أنها كانت تشتو في مشاتي الموصل مع بعض أحياء الاكراد والى أنه كان منها بيوت فاخرة لهم من التناية (المللك الزراعي) يسار كبني فهد وبني عمران من وجوه الأزد وأشراف اليمن ...[7]

وقد ذكر ابن حوقل نفسه تدفق مجموعات قيسية جديدة على شمالي الشام والجزيرة في القرن العاشر (الرابع الهجري) كان منها بنو قشير ونمير وعقيل وكلاب . نزلوا في وادى الحيال ، من ديار ربيعة ، في الشمال الغربي من سنجار .

أما التكوين الديني لهذه الجماعات السكانية المتعددة فقد كان الميزان العددى قد مال منذ زمن طويل بجانب المسلمين فالجماعات العربية كلها ، عدا بعض المجموعات الصغيرة الغسانية والتنوخية[8] والتغلبية ، كانت على الاسلام وقد كانت حتى القرن الرابع أيام المقدسي البشارى صاحب أحسن التقاسيم « أهل جماعة وسنة ومذاهبهم مستقيمة » « شفعوية » وان كانوا « قليلى العلماء » وكان فيهم « أهل طبرية ونصف نابلس والقدس وأكثر عمان » شيعة . ولا ماء في الشام لمعتزلي[9] . كما كان ثمة بعض الشيعة في منطقة السلمية حيث مشى المذهب الفاطمي أولى خطواته كما كان في منطقة حلب تشيع وفي قبائل تغلب الحمدانية ، وقد ساعد دخول الفاطميين الى الشام منذ سنة ٣٥٨ هجرية على نشر المذهب الشيعي الفاطمي في المناطق الشامية الساحلية (مثل طرابلس مثلا وصور) وفي الشمال في مناطق حلب مثل سرمين وكفرطاب ومنبج بل سمح أيضا بدخول المذهب الفاطمي الحاكمي (الدرزى) بعد سنة ٤٠٨ الى مناطق البقاع الجنوبية والجبال حولها والى جبل السماق عند حلب [10] ... بينما بقيت بعض المناطق متعصبة للسنة بسبب الميل الأموى فيها مثل دمشق .

ومع انتشار الاسلام فقد كان الشام « كثير الذمة » على قول المقدسي البشارى[11] وفيه سواء في المدن أو في الريف الجبلي خاصة مجموعات دينية مسيحية بعضها أرثوذكسي وبعض ماروني وبعض على المذهـب اليعقوبـي

والسرياني ولهذه المجموعات رؤساؤها الروحيون وكراسي الأسقفيات في المدن مثل دمشق وحوران والقدس وحلب كما وجدت جماعات من اليهود وجد منها بنيامين التطيلى (في القرن الثاني عشر ايام صلاح الدين) جاليات ورؤساء جالوت أو أعدادا محدودة في نابلس وطبرية والقدس ودمشق بل وفي تدمر .

وأما **الوضع الاقتصادى** للشام في أواسط القرن الحادى عشر فيمكن رغم ما يحمله التعميم من مجازفة ورغم نقص الدراسات الأساسية ، أن نلاحظ فيه النقاط التالية : فالقاعدة الانتاجية كانت تقوم على الزراعة وعناصر الفلاحين التي أضحت مع الأيام خليطا ممن تسميهم المصادر : النبط (السكان الآراميين الأولين) ومن العرب الذين استقروا مع القرون فامتصتهم الأراضي الزراعية . ونجد نموذجا لهؤلاء فيما رواه ابن حوقل يقول : " ... وبالجزيرة برارى وقفار وسباخ بعيدة الأقطار ... وكان يسكنها قبائل من ربيعة ومضر : أهل خيل وغنم وابل قليلة . وأكثرهم متصلون بالقرى وبأهلها فهم بادية حاضرة . فدخل عليهم في هذا الوقت من بطون قيس عيلان الكثير ... فأزاحوهم[١٢] .

والانتاج الزراعي الأساسي هو الحبوب والماشية . ولكن أرض الزراعة رغم سعتها كانت تتقلص باستمرار وتنكمش خلال القرنين الرابع والخامس بنتيجة أربعة عوامل :

١ ـ **الغزو البدوى** الذى كان يجتاح دون انقطاع بسبب ضعف السلطان الحكومي لا أطرف المناطق الزراعية فقط ولكن أعماقها أيضا ويلجئ الزراعة الى المناطق المجاورة للحصون ولأسوار المدن . وحتى في هذه البقاع لم تكن تسلم من التدمير . وهكذا عاد الكثير من الأرض مراعي واسعة . ونستطيع أن نرى أخبار ذلك مثلا لدى ابن حوقل والمقدسي في مواضع متعددة من ذلك مثلا عن حران " ... وأناخت بنو عقيل وبنو نمير بعقوتها وببقعتها فلم يبق بها باقية ولا في رساتيقها ثاغية ولا راغية "[١٣] . ونجد عن حمص بأن : " البلد (أى الريف) شديد الاختلال متداع الى الخراب "[١٤] " وقد أتت البادية على سوادها وأخربوها "[١٥] ومنطقة الجزيرة عند الموصل تكاثرت عليهم البوادى واعتورتهم الفتن فصارت قفارا من السكان يبابا بعد العمران وهي في الشتاء مشاتي للأكراد الهذبانية ومصائف لبني شيبان ... "[١٦] .

وليس من النادر أن نعثر في ثنايا الحوادث على هذه الجملة : " ونهبت النواحي " أو " وانتشرت البادية في البلاد وقطعوا الطرقات "[١٧] " وانتشار الأعراب في البلاد ونهبها ... "

ويذكر ابن حوقل عن بدو ربيعة ومضر ، الذين تحولوا للزراعة انه " ... دخل عليهم في هذا الوقت (القرن الرابع) من بطون قيس عيلان الكثير من بني قشير وعقيل وبني نمير وبني كلاب فأزاحوهم عن بعض ديارهم بل جلها وملكوا غير بلد واقليم منها كحران وجسر منبج والخابور والخانوقة وعرابان وقرقيسيا والرحبة في أيديهم يتحكمون في خفائرها ومرافقها ... " ويذكر ابن أيبك في أخبار سنة ٤١٥ أن فيها نهبت العرب مدينة الرملة وأكثر الشام ... "[١٩] ويذكر ابن الأثير أنه في سنة ٤٣٣ " لما توفي (الدزبرى حاكم الشام الفاطمي) فسد أمر بلاد الشام وزال النظام وطمعت العرب وخرجوا في نواحيه فخرج حسان بن المفرج الطائي بفلسطين وخرج معز الدولة بن صالح الكلابي بحلب وقصدها وحصرها وملكها ، واشتغل عساكر دمشق ... بحرب حسان ... "[٢٠] .

وكثيرا ما كانت الخصومات السياسية المحلية تستعين بقوى البدو وتسوقها في تياراتها للنهب والتدمير وقطع الشجر وحرق الغلال . ونجد من أخبار ذلك الكثير في نزاعات بني مرداس بعضهم مع بعض في الشمال الشامي ونزاع دمشق مع السلطة الفاطمية وحروب بني الجراح في فلسطين وطبرية ... ولعلنا نضيف هنا أن عمل الجنود المرتزقة من الاتراك أو المغاربة لم يكن أثناء اخمادهم الفتن المحلية التي تكاثرت كل التكاثر في الشام في تلك الفترة بأقل من عمل البدو أنفسهم في التخريب والتدمير . ويكفي أن نذكر أن دمشق مثلا خربت في هذه الفترة (٤٥٨ ـ ٤٦٣) في نضالها ضد الحكم الفاطمي واحترق الجامع الأموى كله في أحدى الفتن سنة ٤٦٢ فظل الناس سنوات طويلة بعد ذلك يصلون على الأنقاض ، واحترقت الأسواق والدور ... وقد جاء زعيم من زعماء البدو لانجاد دمشق فراسله الجند المغاربة (الفاطميون) أن يمكنهم من المقام في البلد ويعطونه مائة الف دينار فرضى واقام أياما في المكان ... ولكنهم لم يعطوه شيئا ... فسار الى السواد وكان ما نهب المغاربة من دمشق يساوى ٥٠٠ ألف دينار[٢١] .

٢ ـ **غزو الروم** ، وقد كانت بيزنطة في العقود الممتدة ما بين نهاية القرن العاشر ومطالع الحادى عشر (الرابع/الخامس الهجري) في حالة يقظة حربية في المشرق وصلت قمتها في عهد حناتز مسكيس . وبعد التدمير الذى تم أيام الحمدانيين استمر الروم في حملاتهم وخاصة على شمالي وأواسط الشام . وهكذا ـ حسب شهادة ابن حوقل ـ فقد قتلوا " من أهل سواد (حلب) ما في اعادته ارماض لمن سمعه ووهن على الاسلام وأهله... (وقنسرين) اكتسحها الروم فكأنها لم تكن الا بقايا دمن فديتها من دمن "وآمد" كان لها ضياع ورساتيق وقصور ومزارع برسمها هلكت بضعفهم واقتدار العدو

عليهم وقلة المغيث والناصر ...» وحمص دخلها الروم فأتوا على سوادها وأخربوها ، وقد زاد اختلالها بعد دخول الروم اليها وانصراف سلطانها عنها ... وما أظن الروم تركت بها رمقا لما بعد ... »[٢٢]

٣ ـ **ظلم الحكام للناس وفرض المغارم والضرائب والمصادرة** ، وقد كان ذلك من العادات السياسية الدارجة واذا لم نعد الى الاشارات الصارخة التي عددها ابن حوقل لظلم الحمدانيين مما ألجأ بني حبيب مثلا الى التنصر ومعونة الروم فانا لن نعدم الشواهد من أعمال بني عقيل وبني مروان وبني نيسان في الجزيرة وبني مرداس في حلب وحكام دمشق الفاطميين .

ومن أمثلة ذلك أن أمير الجيوش التزبرى الجيلى الذى ولى دمشق ما بين سنة ٤١٩ ـ ١٠٢٨/٤٣٦ ـ ١٠٤٤ ، وكان من الحكام الممدوحين " بحسن السيرة والعدل والنصفة » خلف في قلعة حلب بعد وفاته ٦٠٠ ألف دينار سوى الالآت والعروض . وقيمة الغلات مائة ألف دينار وأخذ له من دمشق وفلسطين مائتا ألف دينار وكان له مع التجار خمسون ألف دينار ونهب له من القصر بدمشق مائتا ألف دينار ... »[٢٣] فهذه مليون ومائة وخمسون ألف دينار حصيلة حكم ١٧ سنة لحاكم عادل . وأما الوجه الآخر فنراه في حاكم آخر لدمشق حكمها سنة ٤٦١ «فبالغم في المصادرات وارتكب من الظلم ومصادرة المستورين ما هو مشهور ... ولم تزل هذه أفعاله الى أن خربت أعمالها وجلا عنها أهلها وهان عليهم مفارقة أملاكهم وسلوهم عن أوطانهم بما عانوه من ظلمه و ... خلت الأماكن من قاطنيها والغوطة من فلاحيها ... »[٢٤] ولم تكن هذه الصورة بدورها بالنادرة .

٤ ـ **واخيرا تاتي نكبات الطبيعة والأوبئة والمجاعات والرخص الشديد :**
فالزلازل المخربة لم تكن نادرة، وقد جاءت زلزلة خربت الشام سنة ٤٢٠ وكان من ذلك أن «خربت ما يزيد على نصف دمشق وهلك تحت الردم خلق كثير»[٢٥] وفي سنة ٤٢٥ كثرت الزلازل بمصر والشام وكان أكثرها بالرملة... وانهدم منها نحو ثلثها وهلك تحت الردم خلق كثير «وفي سنة ٤٥٥ كان بالشام زلزلة عظيمة خرب منها كثير من البلاد وانهدم سور طرابلس»[٢٦] وجاءت سنة ٤٦٠ زلزله واسعه عظيمة بفلسطين » هدمت اكثر دور الرمله وسورها وتضعضع جامعها ومات أكثر أهلها تحت الرم ، وحكي أن معلما كان في مكتبه تقدير مائتي صبي وقع المكتب عليهم فما شال أحد عنهم لهلاك أهلهم وأن الماء طلع من أفواه الآبار ... هلك في بانياس تحت الردم نحو من مائة نفس وكذلك في بيت المقدس ... وجاء معه سيل عظيم في بلد الشام قلع ما مر به من الشجر والصخر ، وحكي أن ارتفاعه بوادى بني عليم نحو من

ثلاثين ذراعا ... »[٢٧] وبلغ حس الزلزلة الى الرحبة والكوفة ولم يسلم من الرملة الا دربان فقط وهلك فيها خمس عشرة الف نسمة ... وغار البحر مسيرة يوم ودخل الناس الى أرضه يلتقطون فرجع عليهم فأهلك منهم خلقا عظيما ... وشقت هذه الزلزلة الفرات ورفعت الماء الى جوانبها وقال علوى من الحجاز كانت الزلزلة عندنا في الوقت المذكور فرمت شرفتين من مسجد النبي ... ولحقت الزلزلة وادى الصفرا وينبع وبدرا وخيبرا ووادى القرى وعمت الحجاز ... »[٢٨]

وكذلك كانت **ضربات الأوبئة والمجاعات** : فمما سجله المؤرخون ما كان سنة ٤٢٣ من غلاء شديد واستسقى الناس فلم يسقوا وتبعه وباء عظيم . وكان عاماً في جميع البلاد وبالعراق والموصل والشام وبلد الجبل وخراسان وغزنة والهند وغير ذلك . وكثر الموت فدفن في أصبهان في عدة أيام أربعون ألف ميت . وكثر الجدرى فأحصي بالموصل أنه مات به أربعة آلاف صبي ولم تخل دار من مصيبة لعموم المصائب وكثرة الموت ... »[٢٩]

وكان ثالوث القحط والمجاعة والوباء يأتي معا ويتكرر بين فترة وأخرى عند كل جفاف قاس بسبب التكاثر الديمغرافي دون شك . وقد تكررت دورة أخرى من هذا الثالوث سنة ٤٤٨ ببغداد والشام ومصر وسائر الدنيا حتى كان الناس يأكلون الميتة ... وكان مع الغلاء وباء عظيم لم يسمع بمثله حتى كان يموت ببغداد كل يوم ما يزيد على خمسين ألف نفس »[٣٠] .

وفي السنة التالية « سنة ٤٤٩ انتشر من أقصى ما وراء النهر وباء عظيم امتد حتى أذربيجان والأهواز والبصرة »[٣١] « وفي بغداد بلغ الخبز كل اثني عشر رغيفا بدينارين واشتد بالناس الغلاء والقحط حتى كاد الناس أن يفنوا جميعا » على حد قول ابن أيبك ... « ثم ارتفع من الشرق ووقع بديار مصر » « واشتد سنة ٤٥٠ الغلاء بمصر وكثر الوباء وكان يموت في كل يوم مما يحصيه ديوان المواريث نحو العشرة آلاف خارجا عمن لا يعرف من صعاليك الناس ... »[٣٢] ولا شك أن الشام بين مصر والعراق كان يعاني المحن نفسها في هذه الأزمات الكوارث .

وقد عاد الثالوث المرعب كرة ثالثة ولكن من مصر هذه المرة فأصابها الجوع والغلاء سنة ٤٥٦ ثم ما زال يتمادى حتى أضحى كارثة بعد هذه سنة ٤٥٨ وتوالت سنوات الجوع بعد ذلك وأصاب رشاشها جنوبي الشام وشماليه . ويذكر ابن العديم في أحداث سنة ٤٥٩ وقوع الوباء العظيم بحلب حتى انه مات في رجب من هذه السنة زهاء أربعة آلاف فضلا عن سائر الشهور »[٣٣] ... ويبدو أن قسوة المجاعة والوباء انما كانت حادة في مصر حيث تركزت أنظار المؤرخين هناك فذكروا

أنه قد اشتد الغلاء وقلت الأقوات وكثر الجوع سنة بعد سنة منذ سنة ٤٥٨ ولمدة سبع سنوات " ... فلا يوجد في الاقليم من يزرع الأراضي ولا من يقيم جسوره من كثرة الاختلاف وتواتر الحروب وانقطاع الطرقات في البر والبحر الا بالخفارة الثقلية وارتكاب الخطرولم يوجد ما يبذر في الأراضي للزراعة فان القمح ارتفع الاردب منه من ثمانين دينارا الى مائتي دينار ثم فقد ولم يقدر عليه ولا الخليفة "[٣٤] .

وقد زحف الجياع من مصر الى الشام الذى يبدو أنه لم يكن أحسن حالا لأن الزاحفين وصلوا بغداد . فيما يذكر ابن الأثير " ورد منهم خلق كثير هربا من الجوع وورد التجار ومعهم ثياب صاحب مصر وآلاته ... نهبت من الجوع ... "[٣٥] واذا روى المقريزى في حوالي ثلاثين صفحة[٣٦] قصة هذه الشدة المستنصرية القاسية التي تعدد فيها حوادث أكل اللحم البشرى وافتراس الجثث والجيف وخطف الأطفال في الطرقات والناس . وأكلت القطط والكلاب حتى عدمت . فقد تكررت المأساة نفسها في دمشق بعد سنوات .

ويحكي سبط بن الجوزى تفاصيل مذهلة عن مجاعة سنة ٤٦٩ التي لم يبق من سكانها " عشر العشر من الجوع " ... فلم يبق سوى ثلاثة آلاف انسان بعد ٥٠٠ الف أفناهم الفقر والغلاء والجلاء ، وكان بها ٢٤٠ خبازا فصار بها خبازان ... وخلت الدور وأكلت الكلاب والسنانير . وكان الناس يقفون في الأزقة الضيقة فيأخذون المجتازين فيذبحونهم ويشوونهم ويأكلونهم ...[٣٧]

على أن الاستمرارية الاجتماعية كانت رغم تلك الشدائد المتنوعة لا تنقطع . وكانت الجماعات الباقية ترمم الجروح والثغرات والفراغات . والناس كانوا من خلال الفرج بين هذه الشدائد يعاودون الانتاج والعمل والبناء ، ويعيدون الحياة الاقتصادية ـ الاجتماعية الى مسراها الطبيعي الهادئ . وان كانت تصيبهم أحيانا شدائد من نوع آخر حين تكثر الغلال ويزداد المطر والخصب ، ان المزارعين في هذه الحالة يعانون من مشاكل أخرى هي السيول والفيضانات وما أكثر ما كانت تحدث ، ومشكلة تدني الأسعار وليس هذا بدوره بالنادر . وبالرغم من أن الأثير مثلا : " في سنة ٤٥٥ عم الرخص جميع الأصقاع فبيع بالبصرة ألف رطل من التمر بثمانية قراريط ... "[٣٨] واذا كان هذا يوفر الطعام للفقراء فانه كان يزيد الفلاحين المنتجين فقرا على فقر...

وكان يقابل المزارعين في تلقي هذه الشدائد ويقاسمهم عواقبها جمهور الحرفيين وصغار الكسبة في المدن فان نكبات الظلم والضرائب وعقابيل الغزو والحروب وكوارث الجوع والأوبئة والغلاء كانت تصيبهم بدورها بالمصائب نفسها وتدمر أعمالهم الانتاجية .

ويصف المقدسي البشارى اقليم الشام قائلا : " وبه يسار وتجار ولباقة وفقهاء " . وكتاب وصناع وأطباء . الا انهم على خوف من الروم وفي جلا والأطراف قد خربت وأمر الثغور قد انقضى . وليسوا كالأعاجم في العلم والدين والنهى . بعض قد ارتد وبعض للجزية في أدا ... " ويلاحظ في موضع آخر أن بعض الحرف كانت من اختصاص الذميين "فأكثر الجهابذة والصباغين والصيارفة والدباغين بهذا الاقليم يهود وأكثر الأطباء والكتبة نصارى ... "[39]

ومن جهة أخرى فان التجارة سواء منها الداخلية أو الدولية عبر بلاد الشام كانت عمل الكثيرين بسبب موقعها الجغرافي ولهذا ذكر المقدسي أن بها " تجارا " وأن التجارات بها مفيدة " لكنها كانت تنقطع في فترات الأزمات . وتتوقف بانقطاعها اعمال ومعائش كثيرة تزيد في تدمير النظام الاقتصادى وفي الفقر وتحطيم الفعالية الانتاجية العامة . وثغور طرابلس وصور وعكا كانت مرافئ التجارة الدولية مع مصر ومع بلاد االروم والمتوسط الأوروبي . وبلاد الرحبة وبالس على الفرات . وحلب وشيزر وحمص ودمشق وطبرية ونابلس والرملة كانت محطات قوافل التجارة الدولية . بالاضافة الى أن منتجات الشام نفسه كانت تتبادل داخليا بين جوانبه فمن فلسطين الزيت والقطين والزبيب والخرنوب والملاحم والصابون ، ومن عمان الحبوب والخرفان والعسل ومن طبرية شقاق المطارح والكاغد والبز . ومن صور السكر والخرز والزجاج المخروط ومن بيت المقدس الجبن والقطين والتفاح ومن بيسان الرز ، ومن دمشق المنسوجات والكاغد والزبيب ومن حلب القطن والثياب ". " وبالس أكثر غلاتها القمح والشعير ويعمل بها الصابون الكثير الغزير... " " والرملة قصبة فلسطين والتجارة بها مفيدة والمعايش حسنة ... "

غير أن هذه الأعمال كثيرا ما كانت تتعطل باختلال الأمن سواء بأعمال البدو أو بالفتن الداخلية أو الحروب مع الروم أو بالقحط والغلاء والأوبئة . وكثيرا ما أشار المؤرخون والجغرافيون الى ذلك :

يقول ابن حوقل مثلا عن الخناصرة " ... وهي حصن يحاذى قنسرين . وكانت صالحة في قدرها مغوثة للمجتازين عليها في وقتنا هذا لأن الطريق انقطع في غير وقت (اى أكثر من مرة) من بطن الشام على التجار باعتراض السلطان عليهم وبما سرح الروم بالشام في غير وقت فلجأوا الى طريق البادية لبوار السلطان واستيلاء الأعراب على الولاة وخفروا وساروا بالأدلاء وعن قريب يكف التجار فقرهم وتنقطع سابلتهم وطرقهم له ... "[40]

واختلال الأمن لأى سبب كان يوجد للبداة نوعين من الأعمال : فاما النهب وقطع الطريق على القوافل والتجار واما الخفارة وفرض الاتاوات مقابل الحماية .

وهكذا كان بنو شيبان في منطقة الموصل يعيشون على " ما يأخذونه من قطع الطريق "[41] وكان بنو قشير ونمير وعقيل وكلاب في شمالي الشام "قاطنين مخفرين [42] وكذلك كان بنو طىء في فلسطين وكلب في منطقة حوران والبثنية والبلقاء وبنو منقذ في شيزر ... اذا لم تستخدم قواهم في الأعمال العسكرية المختلفة .

فاذا وصلنا أخيرا الى الوضع السياسي في بلاد الشام في أواسط القرن الحادى عشر (الخامس الهجري) وجدنا بصورة عامة أن الاقليم يتبع الخلافة الفاطمية في القاهرة ويمتد النفوذ السياسي الظاهرى لهذه الخلافة مع امتداد نفوذ حلب في أطراف الجزيرة وسنجار والرحبة على الفرات . ما وراء ذلك الى الشرق كان على التبعية الاسمية للعباسيين . ومع أن الفاطميين بذلوا الجهد الكبير : سواء في الدعاية المذهبية الفاطمية أو في العمل العسكرى لجعل سيطرتهم على الشام كاملة الا ان القوى البدوية والرومية كانت أقوى منهم وهكذا فقد امتدت يد الروم فأخذت مناطق انطاكية حتى اللاذقية وحتى شيزر من شمالي الشام منذ أواخر القرن العاشر (الرابع الهجري) بينما استطاعت زعامة بدوية من بني كلاب أن تفرض نفسها في ذلك الشمال نفسه وتؤسس امارة وراثية امتدت منذ مطالع القرن الحادى عشر حتى الربع الأخير منه وهي التي عرفت بدولة بني مرداس .

واذا كان الاسطول الفاطمي يربط الموانىء الشامية بمصر بشكل واضح فان بعض هذه الموانىء كانت تمارس نوعا من الاستقلال الذاتي حين تشعر بقوتها . وهكذا تغلب قاضي جبلة (ابن الصليحة) وتغلب قاضي طرابلس (ابن عمار) وقاضي صور (ابن عقيل) على بلادهم وأسسوا نوعا من الولاية الوراثية أيضا وان يكن ذلك ضمن الاطار الفاطمي المذهبي والسياسي . أما المناطق الجنوبية الداخلية من سورية فالمدن الكبيرة مثل دمشق كانت تحارب باستمرار حكام الفاطميين وجندهم والبلاد الأخرى كانت تخضع بدورها لزعامات بدوية ، أقل استقلالا ووضوحا من امارة المرداسيين ولكنها ليست أقل نفوذا ولا تحكما في المنطقة مثل بني الجراح الذين صارت بلدهم الرملة واسعة الازدهار بالنشاط التجارى ، وبني كلب الذين كانوا يتمركزون حول صرخد وزعامتهم في بني مرة

ولعل السبب في عدم استقلالية بني الجراح وبني كلب كالمرداسيين قربهم الجغرافي من مصر ...

واذا بدأت امارة المرداسيين في الرحبة سنة ١٠٠٨/ ٣٩٩ هجرية مع صالح بنى مرداس فقد انتقلت بعد صراع مرير الى حلب سنة ١٠٢٤/ ٤١٥ وحاولت التوسع على حساب الفاطميين في أواسط الشام ولكن مصرع مؤسسها سنة

١٠٢٨/ ٤١٩ أوقفها وان لم يلغ وجودها الذى استمر قائما في حلب . وقد رضي عنه الفاطميون لأنه يقيم نوعا من دولة التخوم الحاجزة او دولة الصدام بينهم وبين الروم من جهة وبينهم وبين الأراضي العباسية ـ البويهية من جهة أخرى . بالاضافة الى أنه يوجد قوة سياسية عسكرية تقف في وجه الدولة المروانية الكردية في الجزيرة والدولة البدوية الأخرى التي أقامها بنو عقيل في نصيبين ثم الموصل منذ سنة ٩٨٩/ ٣٧٩ هجرية، على أن المرداسيين اذا كانوا يعتدون بقوتهم البدوية أمام هاتين الدولتين الأخيرتين الا انهم لم يكونوا يستطيعون الوقوف لامبراطورية مثل بيزيطة تطوقهم من الشمال والغرب والجنوب ، ولهذا وضعوا أنفسهم مع الولاء الفاطمي فيما يشبه الحماية البيزنطية حين اختاروا أن يدفعوا جزية سنوية للقسطنطينية ويأخذوا منها الألقاب .

أما أواسط الشام فقد تطورت فيه زعامات أقل شأنا ومنها بنو منقذ النين اختطفوا شيزر من أسقفها البيزنطي (١٠٨١/ ٤٧٤) حين شغلت بيزنطة عنه بالغزو السلجوقي الواسع . ومنها بنو ملاعب في حمص ، وبنو الصليحة وبنو عمار (منذ ١٦٠٨/ ٣٦٠) في الساحل ... ولم تتطور الزعامات في الجنوب الشامي . وهكذا لم تحظ دمشق على الدوام بأكثر من وال فاطمي يأتيها من القاهرة وغالبا ما كانت ترفضه . وقصة حكمها ما بين سنتي ٤٤٠ ـ ٤٦٠ قصة حكم اطمي يتدهور وحرب أهلية متصلة مع الولاة وعسكرهم من المغاربة . وقد ولى دمشق في هذه الفترة ١٢ واليا تكرر منهم ثلاثة . واحد منهم فقط هو الذى بقي سبع سنوات (المؤيد عدة الامام ٤٤١ ـ ٤٤٨) وانتهى الأمر سنة ٤٦٠ وقد أحرق الدمشقيون[٤٣] « القصر » قصر الحاكم الفاطمي وكان يتسع للالوف في ظاهر البلد كما أحرق المغاربة الفاطميون عددا من أحياء المدينة وأحرقوا خاصة الجامع الأموى فيها ، ووردت الأخبار (بعد نلك) الى البلاد « من بعض التجار تقول : وصلنا الى دمشق وليس فيها سلطان ولا بيع ولا شراء وقد غلب أهلها عليها ولا يمكن أحد الخروج منها ولا الدخول اليها ... »[٤٤]

ويذكر سبط بن الجوزى في حوادث سنة ٤٦٢ قوله : « ... وفيها استولى القفى مختص بن أبي الجن أخو حمزة المقتول على دمشق وطرد نواب أمير الجيوش (بدر الجمالي ـ الفاطمي) واستولى على صور ابن أبي عقيل وعلى طرابلس قاضيها ابن عمار وعلى الرملة والساحل ابن حمدان (القائد الفاطمي الثائر) ولم يبق لأمير الجيوش (بدر الجمالي ، والي الشام الفاطمي) غير عكا وصيدا ... »[٤٥] بينما كان بدر بن حازم بن الجراح الطائي يسيطر على البلقاء وما حولها من حصن في عمان ، وحسان بن مسمار الكلبي يسيطر على جبل حوران وما حوله من حصن صرخد الذى بناه بنفسه . ومع نلك فالجميع على الولاء

الاسمي لخليفة القاهرة الفاطمي .

ويبدو أن أكثر القوى السياسية شأنا في الشام في تلك الفترة انما كانت قوى البادية سواء منها قبائل كلاب في الشمال أو كلب في الجنوب وقوى الأحداث في داخل المدن . ولعلنا نستطيع أن نقدر قوى البدو ان عرفنا أن الكلابيين حين هزموا سنة ٤٦٨/ ١٠٧٥ أمام الأمير سابق المرداسي وقوى الترك معه كانوا يعدون سبعين ألف فارس ورجل وكان معهم من عبيدهم المقاتلة ما يزيد عن عشرة آلاف عبد مقاتل ... وقد خسروا في المعركة مائة ألف جمل و ٤٠٠ ألف شاة[٤٦] . ويبدو أنهم كانوا يعرفون قوتهم هذه ووزنها السياسي ، فقد حاولوا سنة ٤١٥/ ١٠٢٤ تأليف حلف بدوى شامي يتقاسمون به حكم الشام طاردين منه الفاطميين والروم على السواء وتقام فيه دولة طائية في الجنوب (الرملة) لبنى الجراح وحسان بن المفرج ، ودولة كلبية (دمشق) لبني كلب وزعيهما سنان بن عليان ، ودولة كلابية (في حلب) لبني مرداس ، ولكن الحلف فشل سنة ٤١٩/ ١٠٢٨ لتفرق القوى البدوية وتمزقها الداخلي وعدم أهليتها لتقبل التنظيم الحضرى وهكذا استطاع النظام الفاطمي أن يفرض نفسه في الجنوب[٤٧] بينما نجح مشروع الدولة البدوية في الشمال لبني مرداس تحت ضغط الظروف العامة والموقع الجغرافي .

أما القوى الأخرى ، قوى الأحداث ، فهي بعكس القوى البدوية تنظيمات مدنية حضرية أوجدتها الحاجة الى الأمن والنظام ، مع تدهور القوى السياسية المركزية في بلاد الشام . أى أنها كانت جوابا على الفراغ السياسي ، والنواة الأولى لهذه التنظيمات[٤٨] ربما تشكلت منذ أواسط القرن الثالث/ التاسع الميلادى ، اذ نلاحظ ظهور جماعات عسكرية شعبية تدافع عن المدن في الشام مع الجند النظامي أو بدونه ومع الحكام أو ضدهم كما تعمل على ضمان الأمن الداخلي كقوة اضافية بجانب الشرط . وكان المؤرخون يشيرون الى هذه الجماعات العسكرية باسم " أهل " المدنية ثم انتشر اصطلاح " الأحداث " على هذه الجماعات ولعله أول ما ظهر في دمشق في عهد خمارويه بن طولون أواخر القرن الثالث / التاسع . على أن هذه المؤسسة كانت قد قطعت حتى أواسط القرن الخامس / الحادى عشر تاريخا طويلا من العمل السياسي والعسكرى ومرت عليها تجارب مريرة جدا كما كانت انتشرت في مختلف مدن الشام وبعض مدن الجزيرة وتنظمت التنظيم الذى جعلها ميليشيا شعبية شبه رسمية عناصرها من صغار الكسبة والفقراء ولكنها تسير تحت امرة زعيم ، هو في الغالب ، رئيس احدى الأسر البورجوازية الكبيرة ، ويحمل في الوقت نفسه لقب " رئيس " البلد ... وهكذا كان في عسقلان وصور ودمشق وحلب وآمد والموصل وغيرها " أحداث "

يحملون السلاح . " ورؤساء " للبلد هم رؤساء هذه الأحداث . وكانوا يشكلون قوة عسكرية مدنية لا يجاوز عملها واختصاصها ونشاطها ـ الا في النادر ـ أسوار المدينة الى أبعد من البساتين و " الغوطة " أو الربض المحيط بها . وبديهي ألا تكون أعداد هؤلاء الأحداث أعداداً ضخمة ، واذا كانت تصل عدة آلاف في مدينة مثل دمشق أو حلب الا انها لا يمكن أن تجاوز المئات في المدن الصغرى .

وهؤلاء الأحداث هم الذين كانوا مادة الثورة على الفاطميين في دمشق منذ سنة ٤٥٨ والى ما بعدها وكانوا يظهرون في الدفاع عن حلب عند الأزمات . ومن ذلك خروجهم مع عطية المرداسي سنة ٤٥٧ للغزو واستخدامهم تلك السنة نفسها لنهب الاتراك في حلب[٤٩] ...

وهكذا يمكن تلخيص الوضع السياسي ـ الاقتصادي للشام قبيل وصول الأتراك اليها بأنها كانت منهكة من الناحية الاقتصادية ولكنها تعيش عيشة الكفاف على الزراعة والتجارة وترهقها لا مظالم الحكام المالية فقط ولكن الفتن والحروب المدمرة والمجاعات والأوبئة ولهذا كان جماهير الشعب منفصلة الانفصال الكامل عن الطبقة الحاكمة التي كانت تتشكل اما من زعماء من البدو لا هم لهم سوى النهب مع قبائلهم أو من حكام عسكريين فاطميين (من الترك أو المغاربة أو الأرمن) جعلهم ضعف الحكم المركزى حكاما مطلقين كما مزقتهم الخصومات فيما بينهم ، وليس يعني هذا أن الخليفة الفاطمي في القاهرة لم يكن يعير الاهتمام الواسع لبلاد الشام وما وراءه ، فلقد " ولي المستنصر (سنة ٤٥٨) أمير الجيوش بدرا (الجمالي) الشام بأسره فخرج اليه بعدما أنفق عليه ألف ألف دينار "[٥٠] " وفي المحرم سنة ٤٦٠ خرج جيش الأتراك (الفاطمي) الى الرملة وقد بلغت نفقة المستنصر فيهم ألف ألف دينار ... "[٥١] ولكن القوى السياسية الداخلية في القاهرة كانت من التناحر والتدمير بحيث جعلت من هذه النفقات سفحا للماء في الرمال . وتركت بالمقابل بلاد الشام تواجه مصائرها ليس فقط دون دفاع حقيقي ولكن تواجهها وهي بين أكثر من نار واحدة، وأكثر من مطرقة، ومن هذه النيران والمطارق القوى الفاطمية نفسها.

واذا وصف المقدسي في القرن الرابع اقليم الشام بأن أهله " ... على خوف من الروم وفي جلا . والأطراف قد خربت وأمر الثغور قد انقضى ... يقدمون طاعة المخلوق على طاعة رب السما . عامتهم جهال أوغوغا . لا نهضة في جهاد ولا حمية على العدا ... "[٥٢] فان هذه الوصف كان ما يزال ينطبق أيضا وأكثر فأكثر على الشام في أواسط القرن الخامس ...

٢ ـ مشاريع الوصول الى الشام

لم يدخل الأتراك الغز (التركمان) بلاد الشام بشكل مفاجى' ولا بشكل غزو حربي عام ولا بالاندفاع البشرى العفوى الواسع وان تسللت مجموعات محدودة منهم على هذا الشكل في أراضيه . طلائعهم المعروفة التي دخلت الشام انما دخلته باستدعاء من حكامه . وقبل أن يدخل التركمان هذه الأرض كانت الشام ـ على ما يظهر ـ في خواطرهم ، كهدف سياسي ، أكثر منها أرضا للانسياح . لقد يكون بعض السلاجقة مر بها ، في طريقه الى الحج[٥٣] ولقد يكون بعض قادة السلاجقة فكروا بها كأرض تابعة للخلافة الأخرى الفاطمية البعيدة . غير أنهم ، على أى حال ، قبل أن يدخلوها الدخول الفعلي ارتسمت في أذهانهم أو في أذهان بعض منهم مشاريع ثلاثة لغزوها :

ـ مشروع الغز « العراقية » بعد أن تسللوا الى الجزيرة سنة ٤٣٣ وقد مات من فوره لأنه كان مجرد مشروع تخديرى .

ـ مشروع طغرل بك السلجوقي قبل دخول بغداد سنة ٤٤٧ وكان مشروعا لاجتذاب الخليفة العباسي وتهديده .

ـ مشروع طغرل بك نفسه بعد دخول بغداد ، والغاء الدولة البويهية .

وتختلف هذه المشاريع فيما بينها ، فبينما نجد الأول مشروع غزو انسياحي ، نجد الثاني مؤامرة سياسية دولية ، ونجد الثالث مخططا عباسيا هدفه الغاء الخلافة الأخرى ولم يتحقق أى واحد من هذه المشاريع . ولكن دخول الترك الى الشام تم مع ذلك من وراء هذه المشاريع وبشكل مغاير لها جميعا . وكانت « مشكلة » الشام الأساسية في فترة الأحداث التي ندرسها والتي نحدد مدى الدراسة فيها بربع قرن تقريبا ما بين سنتي ٤٤٧ ـ ٤٧٢ / ١٠٥٥ ـ ١٠٧٩ أن هذه البلاد لم تكن اقليما بذاته في الحكم ولكنها جزء من نظام فاطمي واسع الامبراطورية له ايديولوجيته السياسية والدينية وله نظمه وجيوشه وأطماعه وعلاقاته الخارجية وله في الوقت نفسه خصم اسلامي حاقد هو الخلافة العباسية وخصم مسيحي تقليدى على طمع بالشام من جهة وعلى علاقات سياسية وتجارية بحرية واسعة مع شواطى' الشام ومصر وافريقية الفاطمية من جهة أخرى . وهكذا فان دخول عنصر سياسي عسكرى جديد الى بلاد الشام كان يعنى اختلال ميزان القوى في المنطقة كما كان يعني احتمال وجود أبعاد سياسية دولية لهذا الدخول واحتمال اثارة وتدخل قوى متعددة ـ عدا القوى المحلية ـ في تقرير مصير هذه البلاد .

المشروع الأول :

اذا نحن أهملنا الأتراك السابقين فيبدو أن أول موجة أو أطراف موجة من الترك الغز وصلت الى مشارف الشام انما وصلت سنة ٤٤٧ / ١٠٥٤ كان الغز منذ أكثر من نصف قرن قبل ذلك قد دخلوا في الاسلام ، ومنذ أكثر من ربع قرن قد تحركوا جموعا بشرية قبلية تحت ضغط التزايد وضغط حركات قبلية أخرى في شرقيهم اضطرتهم لمغادرة سهوبهم على أطراف ما وراء النهر الى داخل خراسان . ومنذ خمس عشرة سنة استطاعوا ، وبعد معركة دانداقان (٤٣١ / ١٠٣٩) أن يمسحوا دولة الغزنويين عن الخارطة السياسية لايران (ويقصروها على مناطقها الهندية فقط) وأن يبدأوا بذلك مرحلة من أخطر وأهم المراحل في التاريخ الاسلامي .

عرف العرب هذه الجموع التركية باسم السلاجقة وباسم الغز والتغزغز وباسم التركمان أيضا ، ويبدو أنها أسماء ثلاثة متتالية في السعة فالسلاجقة اسم العشيرة الكبيرة التي تزعمت حركة الانسياح التركي هذه بينما الغز هم مجموع القبائل التي تألف منها الشعب النازح كله وهم بدورهم قسم من التركمان الشعب التركي الأوسع وان تكن كلمة تركمان كانت تستعمل مرادفة لكلمة الغز أو الترك لدى المؤرخين والناس في القرن الحادى عشر / الخامس الهجرى[٥٤] .

ويبدو أن حركة الغز التركمان نحو الغرب بدأت قبل ذلك العبور الجماعي الواسع لما وراء النهر والذى تم منذ سنة ٤١٦ ثم انتصر سنة ٤٣١ على خراسان . فان جموعا من التركمان تقدر بحوالى أربعة آلاف أسرة تحركت منذ سنة ٤٠٩ / ١٠١٨ بقيادة جغرى بك السلجوقي فاخترقت خراسـان وطبرستـان الى اذربيجان . ويبدو أن هذه الهجرة المبكرة لم تستقر في أذربيجان ولكنها فتحت طريق التركمان اليها بعد ذلك .

فلما تكاثروا في خراسان واضطرب حبْل الأمن بتكاثرهم وكثرت الشكوى منهم والضربات الغزنوية ضدهم فيما بين سنتي ٤١٦ ـ ٤٢٠ بدأوا يتكاثرون في اذربيجان انحدر قسم منهم من الرى حتى أصبهان والمنطقة الجبلية المسماة بالعراق العجمي وكانوا في حوالى ألفى خركاه (خيمة أو اسرة) فطردوا الى اذربيجان بدورهم[٥٥] وحملوا عند من بقى من الغز في خراسان والمشرق اسم العراقية .

وقد لحق بهم قبيل سنة ٤٢٧ جماعات أخرى (من زعمائها كوكتاش . بوقا . قزل . يغمر . ناصغلي ...) استخدمهم بعض الحكام هناك في نزاعاتهم

حول السلطة فشعروا أنهم من القوة ومن غياب الحكم البويهي بحيث يستطيعون التحكم في المنطقة ، وهكذا اتسعت رقعة نشاطهم بعد خراسان في مثلث يمتد ما بين الري وهمذان وبحيرة أرمية من أرمينية فدمروا ما في هذه البقعة ونهبوها .

وحوالى سنة ٤٣٢ تحرك الغز أول حركة لهم باتجاه الطريق المؤدية الى الشام . تلك الممرات الجبلية التي كانت تربط دوما ما بين الموصل وأذربيجان وتجعلها فرضة للتجارة القادمة من أطراف قزوين بدأ الغز يتلمسونها . بعضهم توغل في ارمينية غربي بحيرة أرمية فأوقعوا بمن فيها من الأرمن والأكراد الهنبانية وبعض انحد باتجاه الموصل نحو بلاد الأكراد الهكلرية ولكن هؤلاء الأكراد ظفروا بهم وأسروا سبعة من أمرائهم ...

لم تكن هذه الجموع التركمانية « العراقية » سوى جموع قبلية مشكلة من فرق صغيرة ، كالعصابات ، ترافقها أولادها والنساء والدواب ولكل فرقة فارس أمير ، ويبدو أنها لم تكن من القبائل الكبرى أو المحترمة بين الغز ، ولما وجدت نفسها على شيء من القوة والطرق أمامها مفتوحة نحو الغرب ، سهلة النهب كثيرة الغنائم ، تمردت على الطاعة التي كانت تدين بها للزعامة الغزية في السلاجقة وانطلقت تجرب حظها لحسابها . وحين وصلت أخبار نهبها وتدميرها للزعيم السلجوقي طغرل بك الذى تسمى سنة ٤٣١ في نيسابور بالسلطان ووجد نفسه امام مسؤولية رجل الدولة وكتب له بأمرها البويهيون من دار الخلافة أجاب : « ان هؤلاء التركمان كانوا لنا عبيدا وخدما ورعايا وتبعا . يمتثلون الأمر ويخدمون بالباب . ولما نهضنا لتدبير خطب آل ... سبكتكين وانتدبنا لكفاية أمر خوارزم انحازوا الى الري فعاثوا وأفسدوا ولا بد أن نردهم الى راياتنا خاضعين ونذيقهم من بأسنا جزاء المتمردين قربوا أم بعدوا أغاروا أم انجدوا... »[٥٦]

هذه الجماعات الآبقة والراكضة كطلائع للموجة الغزية السلجوقية ، ما ان عرفت سنة ٤٣٣ أن ابراهيم ينال شقيق السلطان طغرل بك « قد خرج من الري حتى أجفلت بين يديه وفارقت بلاد الجبل نحو أذربيجان » ولكنها لم تستطع الاستقرار هناك لما أوقعته في تلك المنطقة من الدمار والنهب « فأخذوا بعض الأكراد وعرفهم الطريق فأخذ بهم في جبال وعرة ... وخرجوا الى جزيرة ابن عمر »[٥٧] ، يروى صاحب أرمية الذى أقام على بعض الجسور من احصاهم أنهم كانوا نيفا وثلاثين الفا ...[٥٨]

وهكذا وصلت أول طلائع التركمان الى عقد الطرق السهلة المؤدية للشام ومن هناك انطلقوا على شكل أسهم في ثلاثة اتجاهات :

- « فسار بوقا وناصغلي وغيرهما الى ديار بكر » ونهبوا القرى فيها ثم انتهزوا

هجرة البدو الشتائية « الى العراق فخربوا ديار بكر ونهبوا وقتلوا ... » في ممتلكات الدولة المروانية . وكان من هذين القائدين في رواية ابن الأزرق الفارقي عشرة آلاف فارس . فأغاروا ونهبوا ونزلوا على باب ميافارقين وبذل لهما خمسين الف دينار على أن يعودا فما أجابا « ولكنهما تخاصما ذات ليلة على الشراب فضرب كل واحد منهما صاحبه بسكين فسقطا ميتين ونهب عسكرهما وتفرق[٥٩] أو قتل وأسر ...

- « وبعض الغز قصد نصيبين وسنجار للغارة ثم عادوا يحاصرون الجزيرة ...
- وقسم ثالث تزعمه أمير يدعى منصور بقي يجوس الجانب الشرقي من الجزيرة ثم عاد يحاصرها مع الآخرين ، وهناك صالحهم صاحبها (وهو ابن نصر الدولة صاحب الموصل) ووعدهم المقام حتى نهاية الشتاء ثم المسير مع باقي الغز الى الشام[٦٠] .

واذا كان هذا أول مشروع مبكر لدخول الشام يرسمه الغز العراقية فانه لم ينفذ لأن صاحب الجزيرة غدر بأمير الغز : منصور بأن دعاه الى وليمة ثم أسره ... وتفرق أصحابه .

وقد حاول صاحب الموصل أن يساوم الغز بالجلاء عن عمله مقابل اطلاق سراح زعيمهم منصور ولكنهم بعد أن عاهدوه غدروا بدورهم ، وبينما كان بعضهم يوغل نحو الغرب الجنوبي ناهبا ما بين نصيبين وسنجار والخابور ، كانت الكتلة الكبرى من هؤلاء التركمان تهدد الموصل . لأنها أكبروأهم مركز حضري غني أمامهم ...

واكتسح التركمان الموصل مرتين متتاليتين بعد ذلك سنة ٤٣٤ وسنة ٤٣٥ وأتوا عليها نهبا وتدميرا وقتلا وأسرا لا سيما بعد ثورة أهل الموصل بهم عقب الغزوة الأولى . يروى ابن الأثير ذلك في صفحات مؤثرة[٦١] ولكن هذه الجماعة « العراقية » كانت محكومة بالدمار والتلاشي لأنها لم تكن محرومة من المدد فقط ، في موقعها الذى وصلت اليه ، ولكن كانت محرومة أيضا من العودة الى الوراء حيث تنتظرها العقوبة من السلاجقة الذين أصبح زعيمهم ، لا زعيما قبليا فقط ولكن رئيس دولة ذات نظام وجند أيضا . وهكذا ما ان تحالف العرب والأكراد في المنطقة ضد الجماعات التركمانية الدخيلة النهابة حتى انتهى أمرها بالهزيمة « فقتل ثلاثة من مقدميهم وملك العرب حلل الغز وخركاهاتهم وغنموا أموالهم ... » وسير صاحب الموصل سفينة ملآى بالرؤوس منهم الى بغداد ... أما الذين نجوا من المعركة فقد أحصاهم صاحب أرمية في العودة كرة أخرى فلم يكونوا يجاوزون خمسة آلاف . ويبدو من هذا الرقم ومن الكتاب الذى أذاعة قرواش صاحب الموصل عن نصره وذكر فيه أن ضحايا التركمان في المعركة كانوا

ثلاثة آلاف ، أن جماعات من هؤلاء قد تبددت في الجزيرة متسللة في أنحائها ، تعيش كالبدو من العرب على الغزو في انتظار مجيء الموجات الجديدة وراءهم .

يعلق ابن الأزرق الفارقي على هذه الهجمة التركية على مناطق ديار بكر وشمالي الشام بقوله : « ولم يطرق نصر الدولة (ابن مروان) في مدة ولايته الى أن مات غير هؤلاء وكفاه الله شرهما . وكان هذا أول ظهور الترك بهذه الديار ولم يكونوا رأوا صورهم ... »

وبالرغم من أن ابن الأثير اعتبر حركة الغز العراقية دولة وذكر أنها لم تطل وانما كانت سحابة صيف تقشعت عن قريب ، غير أن هذه الملحمة الأولى التي جرت على الأطراف الشمالية الشرقية البعيدة من الشام لم تذهب في الواقع دون أثر : فانها دفعت امارتي المروانيين والعقيليين معا الى مسالمة السلطان السلجوقي النامي في ايران ثم الى القبول الطوعي بالتبعية والخطبة له .

وهكذا أدخلت في سياسة العراق الأعلى والجزيرة عنصرا سياسيا جديدا كثير الخطر ، وبينما وصلت المشكلة التركية الى الحدود الفاطمية الشامية فان تلاشى الجماعة التركمانية العراقية أدخل طغرل في أفق جديد من الغزو شديد الاغراء بقدر ما هو شديد الصعوبة .

والواقع أن الضربة التي سحقت التركمان « العراقية » لم تمنع من معاودة المسيرة التركمانية الغزية نحو الغرب . والغز السلاجقة ما لبثوا تحت ضغط الانفجار السكاني واغراء الغنائم أن لحقوا بالطريق التي كان سلكها الغز العراقية من قبل . وهنا لا بد من تسجيل بعض الملاحظات :

الملاحظة الاولى الهامة هنا هي أن انتصارات السلاجقة والغز جلبت أمرين :

١ ــ اسلام أعداد واسعة من الترك أو تحركها وراءهم : سجل ابن الأثير اسلام عشرة آلاف خركاه سنة ٤٣٥ في منطقة بلاساغون والصغد . وسجل سنة ٤٣٣ اسلام البلغار[٦٢] ... وتحرك خلق لا يحصى من الترك في التبت سنة ٤٣٨ وكان هذا يعني تدفق جنود غزاة جدد (ضمن الاطار التركي) على الجماعات الغزية ترفدها وتشترك معها في الغنائم .

٢ ــ دخول عناصر جديدة محاربة معظمها ليست من أجناس الأتراك المختلفة ولكن من الشعوب المسلمة السابقة ، في عداد المحاربين الترك أثارهم النصر الهين والغنائم فانضووا ضمن جيش السلاجقة : وهكذا نجد الخوارزميين والديلم والأعاجم (الفرس) والأكراد والأوج والخرلخية في جيش طغرل بك حين دخل بغداد كما نجد في معركة ملازكرد وفي نواة الجيش السلجوقي ١٠ آلاف كردي ، ونجد في جيش ابن خان الذى كان أول من دخل الشام أعدادا من الديلم والأوج الخوارزميين والخرلخية (القارلوق) بجانب الترك

الغز[٦٣]

وهكذا فاذا كان صحيحا ان الانسياح السلجوقي لم يكن سلجوقيا في الواقع ولكنه كان غزيا ذا واجهة سلجوقية ، فان من الصحيح أيضا انه لم يكن غزيا تركيا خالصا فقط ولكنه كان من عمل عدد من الشعوب المحاربة من وراء واجهة غزية ، وعلى الأقل من خلال أكثرية غزية .

وأما الملاحظة الثانية فهي أن جبهة الغرب الممتدة أمام الأتراك الغز من أقاصى أرمينية حتى خليج البصرة كانت تتضمن في نصفها الجنوبي (أى العراق) مشكلة خاصة ناجمة من وجود « الخليفة » العباسي هناك . والرهبة الدينية من جهة والأغراض السياسية من جهة أخرى كانت تشكل نوعا من الحاجز المعنوى يمنع الغز مؤقتا من الانسياح في تلك البقعة لا سيما وأن محور الضغط الأساسي لكتلتهم البشرية كان يمتد في الشمال من خراسان عبر الرى مباشرة الى أذربيجان ثم أرمينية . لكن هذا الحاجز المعنوى لم يكن يمنع مع ذلك من الضغط ثم من تزايد الضغط على مداخل العراق الوسطى (عند حلوان وخانقين وممر ديالي) ومداخله الجنوبية (عند الأهواز)[٦٤] ثم لم يمنع من الانتشار الهجومي المصمم وان يكن الانتشار البطىء في أرضه منذ سنة ٤٣٧[٦٥] ... على استحياء وطمع في آن معا ... قبل الدخول الواسع اليه .

قادة الأتراك الغز ، من السلاجقة هم أنفسهم حاولوا توجيه المد البشرى الغزى نحو أرمينية . كان السلطان السلجوقي لا يستطيع منع هذا المد من الانسياح والنهب . كل ما كان يستطيعه هو توجيهه ورسم الأقنية له وهكذا نجد ابراهيم ينال شقيق السلطان لأمه يقول للغز حين قصدوا نيسابور سنة ٤٣٣ / ١٠٤١ :

« هذه البلاد خربت وما تحملكم . اطلبوا بلاد الروم فهي أحمل لكم . فساروا الى بلاد الروم فقتلوا ونهبوا وأسروا أشياء كثيرة ... »[٦٦]

وهزيمة بعض أنسباء السلطان على هذا الطريق ، في تلك الفترة[٦٧] وفشله في عبور أرمينية لم يتركا أى أثر زجرى في نفوس الغز ، وقد أعطى ينال بنفسه المثل على هذا التحرك في اتجاه أرمينية والروم اذ نجده يقود فيما بين سنتى ٤٣٣ ـ٤٤٦ / ١٠٤٣ ـ ١٠٥٤ سلسلة من الأعمال الحربية على الطرق الجبلية المؤدية الى أرمينية من جهة دون أن يهمل الطرق الضاغطة في اتجاه العراق وبغداد من جهة أخرى ... وأخيرا قام طغرل بك بنفسه بالحملة سنة ٤٤٦ / ١٠٥٤ في اتجاه أرمينية قبل أن يدخل في السنة التالية بغداد .

في الفترة ما بين سنة ٤٤٠ ـ ٤٤٧ يأتي **المشروع الثاني** لغزو الشام : وكان مؤامرة سياسية دولية لا مجرد انسياح بشرى . ذلك أن الأسرة

السلجوقية ، وطغرل بك السلطان على رأسها، ما ان وجدت نفسها صاحبة «دولة» والسيدة الوحيدة في شرقي الأرض الاسلامية منذ سنة ٤٣١ ، ووجدت تحت يدها من القوى الجاهزة للعمل الكميات الكثيرة المتدفقة دوما مما وراء النهر ، حتى تحركت أطماعها السياسية . ويبدو ان تبعية الشام للنفوذ الفاطمي في القاهرة وموقعه الجغرافي على طريق مصر بالنسبة للقادمين من الشرق جعلا البلدين مرتبطين في ذهن طغرل وفي مشاريعه السياسية . ولما كانت أنظاره في تلك الفترة ممتدة الى بغداد يلتمس الرضى الديني والشرعية من خليفتها ويتقرب اليه فان من أوائل أسباب التقرب تبين موقف الخلافة العباسية من خلافة القاهرة واغراء بغداد بامكان توحيد القوى التركمانية لسحق ذلك " الخصم " السياسي الفاطمي الذى شق الخلافة خلافتين في مصر وأخذ مع الشام الحرمين واليمن عدا اقسام من افريقة .

ولم يكن طغرل يجهل أن بيزنطة كانت في تلك الفترة تملك بعض الأقسام الشمالية الغربية من الشام (ما بين شيزر واللاذقية حتى انطاكية ومناطق الثغور الشامية عند مداخل كيليكية)[٦٨] كما لم يكن يجهل أنها كانت على علاقة حسنة مع خلافة القاهرة ومع أمراء حلب المرداسيين الذين كانوا يدفعون للروم الجزية السنوية ويحملون ــ بجانب الارتباط مع القاهرة والخطبة لخليفتها ــ الألقاب الرومية متمتعين بهذا الشكل بحماية الجانبين كدولة حدود عازلة . ويبدو أن طغرل أراد استغلال ضغط الجموع التركمانية التي انساحت في أرمينية وتوغلت في الأناضول لمساومة الروم على مشروعه بغزو الشام ومصر .

كان طغرل يدبر فيما يبدو لمشروعه هذا أو يفكر فيه على الأقل منذ توزع خراسان مع أقربائه بعد قليل من سنة ٤٣١ كما يبدو أن نواياه هذه لم تكن خفية على الجو السياسي . ولقد يكون طغرل قد تأثر فيها ــ الى جانب الرغبة في التقرب من خليفة بغداد وفي الحلول محل البويهيين عنده ــ بنشاط الدعاية الفاطمية الشيعية في أرجاء مملكته الجديدة . نعرف ذلك على الأقل من سيرة المؤيد داعي الدعاة . فقد كان دعاة الفاطمية منبثين في فارس والجبال وبين الديلم خاصة وفي خراسان وما وراء النهر . وكانت السلطات تلاحقهم مع الأكثرية السنية . ولم تكن نوايا السلاجقة بالخافية على الدولة البويهية التي كانت في مراقبتها ، وفي صدها الحربي ، للتوسع السلجوقي تتحسس اتجاهاته . وقد كتب الملك البويهي الشيعي ، أبو كاليجار ، الى المؤيد داعي الدعاة الفاطمي عند سفره الى مصر سنة ٤٣٨ بعد أن تأثر بدعوته الفاطمية يقول : " ... فيجب أن تصور لتلك الحضرة الشريفة (خليفة القاهرة المستنصر) ما اطلعت عليه من شواهد صفاء عقيدتنا وتعلمها أن هؤلاء التركمان المسؤولين عن أعمال خراسان والرى لا يقصر خطاهم

عن بلادها المحروسة (أى الشام ثم مصر) الا ثبات عساكرنا المنصورة في وجوهم وبذلنا الأموال في كف عاديتهم وانتداب جيوشنا الموفورة لمقارعتهم أين نجحوا وأين نبغوا . ولولا أننا ضربنا بينهم وبين تلك المملكة المحروسة بالاشداد وتجردنا لممانعتهم التي هي أكثر جهادنا لما سلمت أكنافها من عوادى طغيانهم ولأضرمت فيها نيران غيهم وعدوانهم . وانهم لا يتجسرون الا على حصولنا كالسد بينهم وبينها . ولا يتمنون الا أن يتسهل لهم السبيل الى قصدها . ولن يتم لهم باذن الله هذا المرام ... فاننا متجردون للأنقضاض عليهم متى تجاوزوا حدود أعمالهم قيد شبر ... وعازمون على تلقيهم ان ساقهم حينهم الى حيث تلى ممالكنا بقاصمة الظهر ... ومع ذلك فقد حدث هؤلاء الأشرار نفوسهم بقصد الموصل على طريق أذربيجان . وان تم لهم ذلك لم يؤمن من استعارة نيران الفتن من جهتهم في أكناف تلك المملكة ... »[٧٠]

وقد حدث ذلك بالفعل فان طغرل بك حين وجد من الصعب سياسيا لا حربيا أن يزيل البويهيين وهم ملتصقون بالخلافة التي يرجو رضاها . وصعب عليه الفصل بينهم وبين الخليفة دون اثارته وهو في أكنافهم . تحول الى الالتفاف حول العراق من الشمال . وهناك وجد نفسه مرة أخرى أمام واقع سياسي جديد هو النفوذ البيزنطي الذى كان على أحسن العلاقة يومذاك مع صاحب مصر . ويبدو أن طغرل بك وجد أن من الأربح له سياسيا والأسهل عليه عسكريا أن يكسب أرض الخلافة الفاطمية من أن يقارع جبهة الروم العنيدة والعصية على الجيوش الاسلامية منذ قرون لا سيما وأن الجهاد لا يفقد الكثير من معناه بمحاربة الفاطميين « الكفرة » « أهل الضلالة » ولهذا اتخذ طغرل من ضغط جماعاته الناهبة في الأراضي البيزنطية سبيلا للضغط على امبراطور الروم واجتذاب صداقته بعقد الهدنة معه . وهي هدنة وقائية كان الروم يوازنون ما بينها وبين صداقة القاهرة وعلاقاتهم السياسية والتجارية والجغرافية معها . وقد ظلت قوى الضغط السلجوقي ترتفع في اطار هذه الهدنة التي تخرق باستمرار الى أن وصلت العلاقة السلجوقية ـ الرومية أوجها بقبول الخطبة للخليفة العباسي ومن بعده لطغرل بك في جامع القسطنطينية ، بعد أن كانت الخطبة فيه للمستنصر الفاطمي .

ويبدو أنه قد سبق ذلك عدد من الخطوات كان من جملتها محاولة اقامة حلف سلجوقي ـ بيزنطي للقضاء على الخلافة الفاطمية . وبالرغم من أن المصادر الفاطمية وحدها هي التي تذكر ذلك بينما تخفيه المصادر العباسية فان الشكل الذى يرد فيه هذا الخبر وما ورد من نصوص الرسائل المتبادلة ، لا يدع مجالا للشك في صحته ...

ويبدو أن الخطوة الأولى في محاولة الدخول السلجوقي الى الشام انما كانت " سنة ٤٤٣ . ويرفدنا هاهنا المقريزى بخبر يقول : " واتفق (سنة ٤٤٣) قدوم رسول طغرل بك (على صاحب الروم) يستأذنه في مسيره الى مصر (عبر بلاد الشام) فأظهر (ملك الروم) المودة التي بينه وبين المستنصر ... وانه لا يرخص في أذيته ... وقدمت هدية عظيمة من المستنصر (على ملك الروم) ... "[٧١] كما يذكر المقريزى نص رسالة من طغرل بك الى عظيم الروم في هذا الموضوع سنة ٤٤٤ تقول عن صاحب مصر" ... وقد نجم بمصر منذ سنين ناجم ضلالة يدعو الى نفسه ويغتر بمن أغواه من حزبه ويعتقد من الدين مالا يستجيزه أحد من أهل العلم في الأئمة الأول وهذا العصر ولا يستحسنه عاقل من أهل الاسلام والكفر ... "[٧٢]

كانت تلك الفترة هي فترة الهدنات مع الروم عقدها طغرل بك ليتفرغ فيما يبدو للتنظيم الداخلي لملكته . وقد بلغ من صداقته المفروضة على ملك الروم أن توسط لاعادة مندوب الخليفة العباسي المرسل مع الاعلام السود والخلع ، عبر بلاد الروم للثائر على الفاطميين في افريقية وهو المعز بن باديس . وقد قبض الروم على الرسول فتوسط طغرل لاعادته وليس بالمستبعد أن يكون طغرل وراء هذه المحاولة لدعم الثورة الباديسية وأنه أراد أن يستغلها للمسير الى مصر وجعل خليفة القاهرة بين فكي كماشة سلجوقية ـ باديسية من الشرق والغرب ولا شك أنه ، بالاتفاق مع خليفة بغداد القائم بأمر الله ، قد كان وراء ذلك المحضر الذى كتب في بغداد سنة ٤٤٤ يتضمن القدح في نسب الخلفاء المصريين ونفيهم من الالتحاق بعلي بن أبي طالب والحاق نسبهم في الديصانية من المجوس والقداحية من اليهود وتوقيع سائر الأشراف (العلويين والعباسيين) والفقهاء والقضاة في بغداد على المحضر وتسيير نسخ الى انحاء البلاد والتشنيع على الفاطميين به التشنيع الكبير[٧٣] وذلك بقصد اعطاء الحرب لهم صفة الدفاع عن آل بيت الرسول (العباسيين) وسحب بساط الحرمة النبوية من تحتهم ...

على أن هذه التمهيد السياسي الذى يعطى " الاذن " لطغرل بحرب الفاطميين ويبرر تآمره ضدهم مع الروم لم ينجح بسبب تردد الروم وتمنعهم عن مسايرة مشروع طغرل . وهكذا عاد طغرل مرة أخرى بعد دخوله الرى سنة ٤٤٦ بمشروع جديد على صاحب الروم يشكل خطوة أوسع من التحالف ، ذكر ذلك المؤيد داعي الداعاة فقال : " ... ولما قوى أمر التركمانية ـ خذلهم الله ـ وحصلت بالرى (سنة ٤٤٦) وصار القريب والبعيد من أهل البلدان يتقلبون من الخوف مثل حسك السعدان ، كانت الدولة العلوية ـ حرسها الله ـ في السابق من نغماتها (نغمات السلاجقة) التي بها تتنعم وتأخذ فيها مأخذ من أخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم وورد من حيز الروم نسخة كتابها اليها يحملها على التجرد

معها لأخذ المملكة العلوية لأولئك الأنجاس الأقذار فيجعلون الشام من جملتها نصيب اخوانهم من شياطين الروم الكفار ... »٧٤

وظاهر أن الروم لم يرفضوا هذا المشروع الآخر فقط ولكن قاموا بابلاغ تفاصيله أيضا الى القاهرة مما استدعى ـ على قول داعي الدعاة ـ " ... فتح باب المشاورة على هذا القول المهول من الأمر الذى هو على بعد الشقة يرمي بشرر كالقصر وقلت ان ابن المسلمة اللعين (الوزير العباسي في بغداد) مغناطيس هذا الشر.. فانه استطعم طعم الرياسة ... وان تدبيره اليوم أمثل من تدبيره غدا... ".

وهكذا جرت ، على ما يظهر ، في هذه الفترة بالذات سنة ٤٤٦ أول محاولة للاتصال السياسي بين السلاجقة والفاطميين وهي المحاولة التي أشار اليها المؤيد داعي الدعاة في مذكراته اذ كتب الى عميد الملك الكندرى وزير السلاجقة " يخطب مودته طالبا اتشاج الحال بيني وبينه لما كان يبلغني من محاسن أوصافه ... ولأن يكون التعارف بيننا سلما الى التعرف بين سلاطيننا خلد الله ملكهم وتأكد سبب المودة بينهم ... "

ولكن هذه المبادرة الفاطمية بقيت على ما يظهر دون جواب لأن الاحن المذهبية والاطماع السياسية السلجوقية في بلاد الفاطميين وخاصة الشام ومصر كانت أقوى من دواعي الود لهم ولا شك أن رفض الروم لمشروع المشاركة في تدمير الفاطميين كانت بين الأسباب (ان لم تكن السبب الأول) التي حملت طغرل بك على مباشرة الحرب بنفسه على جبهة أرمينية والروم سنة ٤٤٦ ـ ٤٤٧ قبل أن يتوجه الى بغداد بعد ذلك .

وفي أثناء هذه الغمرة يبدو أن طغرل أعطى الضوء الأخضر لجماعاته كي تتوغل حيث شاءت . لم يعد يقيدها حتى بالنسبة لأرض العراق . وفي هذا الوقت بالذات سنة ٤٤٧ كما سوف نرى طرق أرض الشام أول الطارقين التركمان .

المشروع الثالث :

بدأ قبيل دخول طغرل بغداد سنة ٤٤٧ وصيرورته رسميا " سلطان المشرق والمغرب " أى المسؤول السياسي والعسكرى عن دعم الخلافة العباسية وتوطيد المذهب السني ووحدة الأمة الاسلامية . كان هذا المشروع نتيجة للفشل في الاتفاق السلجوقي ـ الرومي ضد القاهرة . يقول ابن الأثير في أحداث سنة ٤٤٧ " ... سار طغرل بك الى الرى بعد عودته من غزو الروم . فلما فرغ من الرى عاد الى همذان في المحرم من هذه السنة وأظهر أنه يريد الحج . وكاتب أصحابه في الدينور وقرميسين وحلوان وغيرها وأمرهم باعداد الأقوات والعلوفات فعظم الارجاف ببغداد . وفت في أعضاد الناس وشغب الأتراك ببغداد ...ووصل طغرل

بك الى حلوان وانتشر أصحابه في طريق خراسان فأجفل الناس الى غربي بغداد ... » ٧٥

اختار طغرل بك اذن بعد أن تعذر عليه تأمين طريق الشمال وأرض بيزنطة أن يسلك الطريق الآخر البعيد الى الشام عن طريق الجنوب (الحجاز) أو عن طريق وادى الفرات (بعد أن يدخل بغداد) واذا كان لا بد في سبيل ذلك من ازالة البويهيين فلا اشكال سياسيا في ذلك لأنه بلغ من توطيده الصلة مع الخليفة العباسي (عن طريق ابن المسلمة وزيره) الدرجة التي لا يأمن فيها من غضبه فقط ولكن الدرجة التي يستطيع معها استدعاء شكره وتقديره ...

غير أن الأحداث ، في بغداد خاصة كانت قد سبقت طغرل في التمهيد له ومشروع الحج الذى أعلنه انتهى نهايته السياسة الحقيقة أى انتهى " حجا " الى كعبة بغداد : قصر الخليفة العباسي ، ذلك أن التناحر الداخلي في بغداد كان قد بلغ الحد الذى أضحى معه تدخل طغرل بك أمرا طبيعيا : فقد استطاع رئيس الرؤساء ابن المسلمة وزير الخليفة أن يثير الخليفة والناس ضد منافسه في السلطة ابي الحارث البساسيرى قائد البويهيين العسكرى " ... وأطلق لسانه في ذمه ونسبه الى مكاتبة المستنصر ، صاحب مصر ، وأفسد الحال مع الخليفة الى حد لا يرجى صلاحه »٧٦ وكان البساسيرى قد خرج مع الملك الرحيم البويهي والعسكر الديلمي ـ التركي الى واسط لبعض الحرب فوردت رسالة من الخليفة الى الملك الرحيم بابعاد البساسيرى لأنه " خلع الطاعة وكاتب الأعداء " وخيره بين الالتحاق بالخليفة وبين الاحتفاظ بالبساسيرى فاختار الخليفة وأبعد قائده والعسكر ... مما جعل بغداد عمليا دون أى مقاومة أمام الزحف السلجوقي البطئ نحوها . " وكانت هذه الحالة من أعظم الأسباب في ملك السلطان طغرل بك العراق ... "

" وأرسل طغرل بك رسولا الى الخليفة يبالغ في اظهار الطاعة والعبودية والى الأتراك البغداديين يعدهم الجميل والاحسان ... فأنكر الأتراك ذلك وراسلوا الخليفة في المعنى ... وسألوا التقدم عليه (على طغرل) في العود فغولطوا في الجواب . وكان رئيس الرؤساء (ابن المسلمة السني ، المعادى للبساسيرى والديلم) يؤثر مجيئه ويختار انقراض الدولة الديلمية ... »٧٧ فاستدعاه بأمر الخليفة الى بغداد وضمن له ثلاثمائة ألف دينار٧٨ كانت الصفقة في نظره رابحة لأنه استبدل بالبويهيين الشيعة الضعفاء السلاجقة السنة الأقوياء . وقبل أن يدخل طغرل بغداد خطب له فيها بأمر الخليفة فلما استأذن بدخولها استقبل بالموكب الضخم ... ولكن هذا الدخول ان كان يشكل فرحة سياسية ضخمة لخليفة بغداد ومخططاته فانه كان نكسة اقتصادية مدمرة لها لأن التركمان

السلاجقة " نهبوا حتى ترب الخلفاء وأخذوا منها من الأموال مالا يحصى "[79] ولم يتركوا كما قال مؤرخهم أنوشروان فيما أخذه عنه العماد الاصفهاني " لم يترك الترك وردا شقوه ولا نارا الا ارثوها ولا دارا الا شعثوها ولا عصمة الا رفعوها ولا وصمة الا وضعوها ... "[80] ولم ينفع في منع ذلك لا احتجاج الخليفة ولا أوامر طغرل نفسه .

الهجوم الفاطمي المضاد : أعقب هذا التحرك السلجوقي الهام الذى انتهى باحتلال بغداد والغاء الحكم البويهي المهادن ــ ان لم يكن المتعاطف ــ مع خلافة القاهرة أن ظهر في الميدان السياسي مشروعان متقابلان متصادمان : مشروع فاطمي يستهدف بغداد نفسها ومشروع سلجوقي يستهدف القاهرة ...

تاريخ المشروع الفاطمي ، فيما يبدو يعود في خطواته التمهيدية الى الوقت الذى علمت فيه القاهرة بمخططات طغرل ضدها عن طريق امبراطور الروم . على أنه ــ فيما يبدو ــ لم يأخذ أبعاده في الطموح والسعة والجرأة الا بعد أن أسرعت الأحداث في ايصال طغرل الى بغداد . وكان على القاهرة أن تتخذ من ذلك الموقف المناسب فاختارت موقف الدفاع الهجومي . وهو أنسب المواقف في تلك اللحظات ...

ولسنا ندرى بالضبط هل بادر المتنافسان في بغداد (ابن المسلمة والبساسيرى) في مكاتبة السلاجقة والقاهرة أم أن هؤلاء هم الذين بدأوا الاتصال معهما ؟ ولكن من المؤكد أن البساسيرى حين وجد نفسه مبعدا عن العراق ووجد طغرل يدخل بغداد لم يكن له من ملجأ قوى يعتمد عليه سوى الفاطميين في الشام ومصر فانحاز الى الرحبة أول المعاقل الفاطمية الولاء على وادى الفرات .

وهنا تأتي قصة ذلك المشروع السياسي الواسع الطموح الذى وضعته القاهرة تحت اشراف الوزير الفاطمي المشهور : ابى محمد علي بن الحسن اليازورى . وأشرف على تنفيذه المؤيد لدين الله داعي الدعاة وكان أداة التنفيذ ذلك الذى يعرف في التاريخ باسم أبى الحارث البساسيرى .

المؤرخون يتحدثون عن هذه القصة كحادث عراقي ويتحدثون عن البساسيرى كثائر ديلمى حاول قلب الخلافة العباسية واستعان بالفاطميين ونجح مدة عشرة أشهر ثم فشل أمام الهجوم الغزى ... ولكن المشروع في الواقع مصرى فاطمي وأبعاده كانت عميقة واسعة خلف هذا الظاهر المبسط . لقد حبك اليازورى مؤامرة انقلابية كاملة معتمدا على معطيات صحيحة وفي ذكاء سياسي مميز ، ورصد لها المال اللازم واذا كان جانب السياسة فيها أبرز وأقوى من الجانب العسكرى وكان مقتل البساسيرى السريع سببا في انهيار المشروع كله ،

فما كان ذلك نتيجة التخطيط والتنفيذ ولكن نتيجة سوء تقدير القوى الغزية أو على الأقل عجز الخلافة الفاطمية عن أن تجند جيوشا كافية متماسكة بمثل غزارة السيل الغزى ، ونتيجة مقتل اليازورى نفسه صاحب المشروع قبل ذلك بكثير سنة ٤٥٠ بالدسائس الداخلية في القاهرة وغيابه كرأس مدبر للمشروع كله وانصراف الوزراء بعده عن سياسة الهجوم الدفاعي جميعا الى مشاكلهم المحلية ...

المعطيات التي كانت لدى اليازورى والخطة التي بناها كانت تتلخص فيما يلي :

١ ـ أن المشرق الايراني قد وقع كله في يد السلاجقة السنيين ولما كان هناك ضمن الزعامة السلجوقية منافسون لطغرل بك فمن الممكن الاتفاق معهم ان لم يكن على اعلان الولاء للخليفة الفاطمي فعلى الأقل لقسمة العلم الاسلامي بين القوتين[٨١] .

٢ ـ أن العراق فقط قد بقي في يد الخليفة العباسي والملك البويهي معا وأن التمزق الداخلي في بغداد بين رئيس الرؤساء ابن المسلمة الكاتب (وهو سني ويمثل السلطة المدنية) وبين البساسيرى القائد العسكرى (الشيعي والذى يمثل السلطة العسكرية) قد بلغ حد الانفجار الذى يدمر البويهيين والخلافة معا .

٣ ـ أن بالامكان اختطاف بغداد من الخلافة العباسية اذا استطاعت القاهرة اقامة نقطة استناد قوية لها في شمالي الشام وشراء القائد العسكرى البويهي[٨٢].

عن طريق تشيعه وتجنيد قوى الشام بالمال لدعم المشروع ...

وقد وضح للرجلين المتنافسين في بغداد أنه لم يبق في المشرق الاسلامى سوى قوتين : السلاجقة من جهة والفاطميين من جهة ثانية ولهذا انجذب المتنافسان نحوهما والتمسا لديهما التأييد وراهن كل منهما على واحدة ، ثم اتهم كل منهما الآخر بالعمل لدولة أجنبية وفي الوقت نفسه فان حالة الفراغ السياسي في العراق جذبت القوتين معا اليه في نوع من السباق الذى جعل طغرل يعلن عزمه الذهاب الى الحج ثم يستعرض قواه على الطريق ثم في بغداد ، والذى جعل بالمقابل الخلافة الفاطمية تسرع في ابعاد التركمان عن الشام وفي العمل لحشد القوى الكثيفة في شماليه . ويبدو أن طرد البساسيرى المفاجئ من بغداد وانسحابه الاضطرارى الى أرض للمراداسيين في الرحبة حيث تلقى المعونة ثم بالمقابل سرعة استجابة طغرل بك لنداء الخليفة بالمسير الى بغداد التي وصلها أواخر رمضان سنة ٤٤٧ / أواخر سنة ١٠٥٥ في ١٢٠ ألفا من الترك والعجم والديلم والكرد وغيرها من الأجناس ـ كما قال ابن العديم ـ هذا وذاك كله أربك مخطط القاهرة

التي لم تكن قد أنهت استعداداتها للعمل التنفيذى الذى تزمع . وقد تحول الارتباك بسرعة الى قلق شديد حين تواترت الأنباء بأن طغرل يعتبر دخول بغداد مرحلة في الطريق الى الشام ومصر ... متابعا مشروعه في القضاء على الفاطميين ، وقد كتب المؤيد داعي الدعاة في ذلك يقول : « فلما حصل الركاب العالي ببغداد (يقصد السلطان السلجوقي) وانبثت الكتب يمينا وشمالا بكون قصده لقضاء حق الخليفة والسلام عليه والتبليغ بعده الى مصر ، فحين استمر جرى هذا الكلام في مسامع سلطاننا ووزيرنا ضاقت صدورهما من سماع هذا القول الجافي من غير داعية اليه .. »[٨٣] وقد نستطيع أن ندرك أبعاد القلق في مصر من التوسع السلجوقي مما ذكره سبط بن الجوزى عن الذؤابة التي ظهرت قدر عشرة أذرع في مطالع برج الأسد واستمرت مدة شهر تقريبا وقال قريب لرئيس الرؤساء كان بمصر أنه « سمع مستفاضا بين أهلها أنه لما طلعت هذه الذؤابة ملك الغز مصر... »[٨٤]

وطغرل بعد دخول بغداد سنة ٤٤٧ / ١٠٥٥ لم يعد ذلك الزعيم القبلي الذى كان قبل احتلال ايران ولا ذلك السلطان الاقليمي الذى كان قبل أن يدخل على الخليفة سنة ٤٤٨ ويأخذ منه لقب سلطان المشرق والمغرب الرسمي بترك حكم الدنيا العباسية له وانطباق حدود مملكته على حدود أرض الخلافة وتكليفه مد هذه الحدود الى المغرب .

لقد أضحى طغرل الآن رجل الخلافة العباسية الوحيد . صار عراقي السياسة ومسؤولا دنيويا عن الجماعة الاسلامية ورجل دولة عباسيا . ولما لم يكن البيزنطيون من هموم خلفاء بغداد في تلك الفترة كما كان طغرل على هدنة معهم وتبادل في السفارات فان الهبة الوحيدة التي يستطيع فيها طغرل الحصول على اللقب الذى ناله والتعبير عن تبنى السياسة العباسية هو اعلان المسير الى الشام للقضاء على الخلافة الفاطمية « الديصانية » .

ولنلاحظ أن طغرل بك زيادة في القربى من الخليفة والا لتصاق به قد زوجه بعد شهرين من دخوله بغداد من ابنة أخيه داوود[٨٥] ، وكان معنى هذا الزواج السياسي اللقاء الكامل بين السياسة السلجوقية والسياسة العباسية . ولهذا ما ان طلب الخليفة القائم بأمر الله من طغرل « المسير الى الشام والبدء بالرحبة ويأخذ البساسيرى ثم عبور الفرات لاقامة الدعوة له على منابر الاسلام » حتى « أمر السلطان العساكر أن يتجهزوا ويبعثوا باحضار خركاواتهم وأولادهم وأهلهم ليتوجهوا معه الى الشام »[٨٦] ... كانوا قد دمروا بغداد آذى وغصبا ونهبا وصداما مع أهلها ... والسلطان يقول « ان هذا العسكر كثير ولا قدرة لي على حفظه »[٨٧] لكن ما هو أخطر هو أن عساكر طغرل رفضت أوامره ... احتجوا

فقالوا : « هذه (اى العراق) بلاد خربة وليس بها أقوات ولا علوفات ولم يبق معنا نفقات ونحن عاجزون عن المقام على ظهور خيولنا فكيف اذا جاء أهلونا وخيولنا ودوابنا وقد طالت غيبتنا ونحن نستأذن في العود اليهم ثم نعود » وقد غضب السلطان وقبض على جماعة منهم وقيدهم واعتقلهم أياما ثم لم يطلقهم حتى ضمن أنهم بعد المهرجان يسيرون الى الشام ... » وهكذا تفرقت العسكر ولم يبق منهم الا نفر يسير و قل العسكر ببغداد ومضى أكثرهم الى خراسان »[٨٨] .

ويبدو أن تمرد القوات لم يكن احتجاجا على محاولة طغرل انسجاما مع السياسة العباسية ، تغيير محور المسيرة التركمانية المارة عبر الشمال الايراني على طرق الرى ـ أذربيجان ـ ارمينية ـ الاناضول ، الى محور آخر هو العراق ـ وادى الفرات ـ الشام ـ مصر ، ولكن احتجاجا على أمر آخر هو أنهم لم ينالوا بدخول بغداد أى كسب اقطاعى كما كان نهبهم مقيدا ممنوعا والمسيرة الباقية ستمشي على المنهاج نفسه من الحرمان بينما أخذ طغرل كل شيء وصار بعد وراثة الغزنويين وارث البويهيين أيضا . هذا التحول في طغرل الى رجل دولة واسعة والتغير في نوع سلطته وصلته مع الخلافة والدول عزلاه عن جماعته ولهذا ظهرت تمردات متعددة عليه حتى من أقربائه . يضاف الى هذا أنه حين دخل في المحيط العربي بالعراق واصطنع جماعة الخليفة ورجاله وسياسته وجد مقاومة من الجماعة التركية حوله . انها لم تعتد ذلك بعكس ما كان الأمر مع الايرانيين ، فان الأتراك كانوا على اختلاط بهم منذ زمن طويل ولذلك لم يشكل اصطناعهم شيئا من الصدمة للترك للدرجة التي وصل بها موظف ايراني مثل نظام الملك الى قمة السلطة في العهد السلجوقي ...

أما العرب فكانوا عنصرا جديدا في التعامل مع التركمان . وكان اللقاء الأول بين الطرفين أيام الغز « العراقية » لقاء مأسويا استأصل بالدماء تلك الموجة الأولى كلها ثم لما عاود الطرفان الصدام من جديد حوالى سنة ٤٤٧ عاد القتال سجالا . وبعد أن حقق الغز بعض النصر هزم أحد كبارهم قتلمش هزيمة منكرة ساحقة أمام العرب بقيادة دبيس بن مزيد والبساسيرى وتخلى عنه قريش بن بدران صاحب الموصل وبالغ أهل سنجار في أذاه وأذى أصحابه[٨٩] مما حول موقف التركمان الى الحقد الأسود للدرجة التي جعلت السلطان طغرل بك يدمر الموصل بعد ذلك ونصيبين ويرسل الفرق العسكرية في المناطق « لعلها تنال من العرب غرضا » ثم يأتي على سنجار بالنهب والقتل والسبي ويلقي بالأسرى تحت أرجل الفيلة ...

بعد أن سألهم : هل وطئت لكم أرضا ؟ وأخذت لكم بلدا ؟ فلم أتيتم لحربي ؟[90] وقد عبر ابراهيم ينال عن الموقف السلجوقي الحقدى حين جاء بجيشه وقد أصلح الوزير الكندرى ما بين السلطان ومسلم بن قريش فما ان وقعت عينه على الكندرى حتى خاطبه بالتركية : « صالحت بين العرب والسلطان وجعلتهم أهلا لذلك وانما يكون الصلح بين النظراء ومن يكون هؤلاء الكلاب حتى لا يقلع أصلهم ؟... »[91]

وهكذا « أجفل العرب من العين الباردة » كما قال سبط بن الجوزى ووضح في الوقت نفسه أن المقاومة للتركمان الغزاة قد تركزت الآن في العرب البدو الذين أخذت جموعهم تحتشد في شمالي الشام .

وبينما كان هذا يجرى في الأوساط السلجوقية كان اليازورى ، وزير مصر يدبر أمره للوقوف في وجه هذه القوة التركمانية المكتسحة . ويبدو أنا يجب أن نضع ها هنا أخبار رسالتين تمثلان مشروعين سياسيين فاشلين للدفاع السياسي عن الشام ومصر :

الرسالة الأولى :

يذكر أمرها سبط بن الجوزى فيقول : « وسار البساسيرى على الفرات شفاعة الى القائم فكتب يشفع فيه فكتب القائم على رأس الكتاب بخطه من أنتم ؟ خبرونا من أنتم ؟ فحنق صاحب مصر تولى البساسيرى بالمال والرجال حتى أخرج القائم من بغداد ... »[92] وظاهر الخبر متناقض . وليس بالمنطقي أن يشفع خليفة القاهرة لدى خليفة بغداد في أمر قائد عباسي متهم بولائه له . ولكن خبر الرسالة قد يكون صحيحا ومنطقيا اذا نحن وضعناه في موضعه من الأحداث . فلقد يكون الخليفة الفاطمي قد اقترح على زميله العباسي الاتفاق والتساند واقامة حلف مشترك للوقوف معا في وجه التوسع السلجوقي الذى يهدد كلتا الخلافتين . والشفاعة بالبساسيرى عند ذلك تكون منطقية لأنه الوحيد الذى يمكن أن يجمع ولاء وصداقة الدولتين معا ويقود عداءهما المشترك ضد الطامع السلجوقي . علما بأن الخليفة الفاطمي كان فيما يبدو يعلق بعض الأمل في نجاح مسعاه والتفاهم مع بغداد على ما بقي للبويهيين من قوة ومن رغبة في الدفاع عن دولتهم التي يأكلها التوسع التركماني باستمرار ، لكن العرض كان متأخرا جدا في وصوله لأن الخليفة العباسي كان قد مضى طويلا في طريق التقبل للسلاجقة المتراكضين عند أبواب بغداد للدرجة التي سمحت له أن يعتز على الفاطمي ويتابع سياسته التي أعلنها سنة ٤٤٤ في انكاره نسبه النبوى ويقول في التعليق على الكتاب : من أنتم ؟

من أنتم ؟ خبرونا من أنتم ؟

وإذا « حنق صاحب مصر » فلأن مشروعه في اقامة حلف عباسي ـ فاطمي ضد السلاجقة قد فشل مما اضطره وقد احتلت بغداد بالفعل لمحاولة حلف آخر فاطمي ـ سلجوقي أو على الأقل مشروع تهدئة تكشف عنه :

الرسالة الثانية :

التي يذكر المقريزى أن اليازورى أرسلها الى طغرل بك حين أبلغته عيونه وجواسيسه المنبثون في بغداد أنهم سمعوا طغرل يذكر ازماعه على التوجه الى الشام ليملكه فقلق اليازورى ورأى أن الحيلة أبلغ من الاستعداد فكتب اليه يهنئه بوصوله الى العراق ويبذل له من الخدمة ما يوفى على أمله وأن مصر وأعمالها بحكمه وأنه وان كان مستخدما لدولة ويدعو اليها فانه مستعد للرضا بالخليفة الصحيح النسب الهاشمي العباسي وأنه اتصل به ازماع حضرته التوجه الى الشام وأنه أشفق من تسليمها اليه فتطأ عساكره مع كثرتها وتجمعها فيخربها ويعفى آثارها ولا يقع بملكها انتفاع ولا يرجى لها ارتفاع فان رأى اعفاءها من وطء العساكر لها ووصول ركابها اليه على وجه الفرجة والنظر الى دمشق وحصنها ... فله عالى رأيه» كان الكتاب مناورة سياسية ولم يكن يعنى حرفية ما ورد فيه بقدر ما يعنى محاولة التهدئة والتخدير السياسي ريثما تضع القاهرة مخططها وتتدبر القوى اللازمة ان لم يكن لصد العدوان السلجوقي المبيت فعلى الأقل للحوار معه محاورة الند للند ومن موقف القوة والرهبة . ويبدو أن الكتاب فعل فعله في التهدئة يقول المقريزى فلما وقف طغرل بك على الكتاب قال : هذا كتاب رجل عاقل ويجب أن يعتمد ما أشار به بالاذن للعسكر في عودتهم الى بلادهم فمضى كل منهم لوجهه ثم أمر فضرب فساطيطه في الجانب الغربي من بغداد فكتب بذلك عيون اليازورى اليه فقلق ... وأسرع في ترتيب خططه :

ـ جهز ـ حسب قول المقريزى نفسه ـ من العين والمتاع ما قيمته ٢,٣٠٠٠٠٠٠ دينار ، حتى لم يترك في خزائن أموال القصر شيئا البتة

ـ واختار داعية من دهاة السياسة والشديدى الاخلاص للائمة الفاطميين هو : المؤيد لدين الله داعي الدعاة لكي يوصل المال والتعليمات للبساسيرى ، وقد قال هذا عن مسيرته اني كنت أخشى أكل لحمي ونهش عظمي في سقيفة كلب وكلاب من قبل دخول ترك وتركمان ... وكلاهما

محيط به سرادق من نار .
ـ وكانت علاقة الفاطميين مع بيزنطة بالغة السؤ سنة ٤٤٧ فكان لا بد اذن من ضمان حلب المرداسية الممالئة للروم والتي تحمل ألقابهم وتدفع الجزية لهم ، ولهذا كان لا بد من احتلال حلب دون خسارة التأييد المرداسي . وقد كتب اليازوري الى قاضي صور بأن يقنع ثمال بن صالح المرداسي صاحب حلب بالتخلي عن المدينة مقابل اقطاع من الساحل : عكا وبيروت وجبيل ...

المذكرات التي كتبها قائد المعركة الدبلوماسية المالية المؤيد داعي الدعاة والموجودة بين أيدينا باسم " سيرة المؤيد " تسعفنا بالكثير من التفاصيل حول هذه الحملة ولكنها ضمن جو من الأنانية ومن حب اجتراح المعجزات كثيرا ما تضللنا عن الحقيقة ، تحول جهود المال والدبلوماسية والسياسة الى مجد أحداث تسيرها بركات الامام وبراعة " الداعي " الدبلوماسية التي تعمل وراء كل الأحداث وتحبكها خلافا لتعليمات الوزير اليازوري المتكررة .

والواقع أن عددا من الظروف والملابسات قد عمل معا على توجيه تلك الأحداث على الجبهتين الفاطمية والسلجوقية معا ولمصلحة المشروع الفاطمي :

١ ـ استطاعت الأموال الكثيرة التي حملها داعي الدعاة معه أن تجمع القوى البدوية لقضيته في شمالي الشام وأن تجعل من البساسيري رأس الصدام المتين ، وأن تجعل من الرحبة مركز الانطلاق لغزو العراق . اجتمع له مع الجموع الكلابية قوى ثمال بن صالح المرداسي صاحب حلب ، وتأييد نصر الدولة صاحب الدولة المروانية في ديار بكر ، ومانع شبيب بن وثاب النميري أمير القبائل النمرية وصاحب حران ، ودبيس بن مزيد صاحب الحلة (بعد أن كاد يتفق مع طغرلبك) وجانب من قوى العقيليين بالموصل بزعامة الأخ الأصغر لأميرها قريش بن بدران . كما استطاع المال أن يجمع حول البساسيري آلافا من الديلم والترك الهاربين من بغداد ومن الأكراد والبدو ... حتى بلغت عدة القوى العسكرية المحشودة في قول العظيمي مؤرخ حلب ، خمسين ألفا ... وكان قريش بن بدران صاحب الموصل آخر الملتحقين بالبساسيري بعد أن هزم أمامه .

٢ ـ شغلت بيزنطة بتوغل التركمان فيها فلم تستطع أن تولى جبهة الشام عنايتها ، وهذا ما مكن الفاطميين من أن يسوقا منذ سنة ٤٤٧ جيشا كبيرا بقيادة الحسن بن علي بن ملهم ، ضغط الضغط الشديد على شيزر وأفامية وأرض انطاكية وحيد القوى البيزنطية في المنطقة فلم تعد تستطيع التأثير في مجرى الأحداث أو العمل لمصلحة الحليف السلجوقي طغرل بك .

٣ ـ استطاعت دبلوماسية القاهرة أن تستغل ظروف ثمال بن صالح المرداسي لتدفعه الى التنازل لها عن حلب لتكون قاعدة حماية ودعم للحركة الهجومية على العراق : كانت مواسم سنة ٤٤٨ وسنة ٤٤٩ مواسم سيئة جدا في العراق والشام حتى « أكل الناس الميتة والكلاب وغيرها وكثر الوباء حتى عجز الناس عن دفن الموتى » في العراق ، وكان « الوباء الشديد الذى عم سائر البلاد في مصر وفي الشام والجزيرة والحجاز واليمن وغيرها ... بل وفي بخارى وسمرقند ... »[٩٣] وشغبت قبائل كلاب على ثمال المرداسي وانقسمت وخانه أخوه . وكانت بيزنطة مشغولة عنه لا تستطيع معونته كما كانت القوى الفاطمية من حول حلب أقوى من أن يستطيع مدافعتها . وفي هذا الموقف الحرج أرسل الوزير اليازورى الى حلب ابن عقيل صاحب صور وابن عياض قاضيها [٩٤] ليقنعوا ثمالا بالتنازل عن حلب لمصلحة القاهرة على أن يعوض عنها اقطاعا ساحليا يشمل جبيل وبيروت وعكا . وقبل الرجل وسلم المدينة لابن ملهم وابن عقيل بينما استقبل هو في القاهرة بمنتهى الاكرام سنة ٤٤٨ .

٤ ـ واصطدمت قوى البساسيرى ودبيس المزيدى بقوى الغز التي جردها السلطان طغرل بك يعاونها قريش بن بدران وانهزم الغز هزيمة منكرة سقطت على أثرها مدينة الموصل في يد البساسيري ولجأ صاحبها (قريش) اليه مستأمنا ... ولبس خلعة صاحب مصر ...

٥ ـ في هذه الفترة التي بلغت فيها الخطة اليازورية أول النجاح وأمسكت بقطبي الطريقين المؤديين الى بغداد : وادى الفرات من جهة والموصل من جهة أخرى ، كان طغرل بك يعانى في بغداد من ضآلة جموعة ، وكره الناس لرجاله وقلة المال معه ، ويبعث الى الخليفة « بأن العساكر قد تفرقت وبقي منهم نفر يسير ولا بد لهم مما يقوم بهم والا لحقوا بالباقين وخلا البلد وكان رئيس الرؤساء قد ضمن لي ثلاثمائة ألف دينار اذا قدمت العراق فأوصل الى مائة وثمانين ألفا وارتد الباقي »[٩٥] ثم ما ان تجمع له ألف فارس حتى أرسلهم مع قتلمش الى الشمال فانهزموا ...

ويبدو أنه في هذه الفترة يجب أن نضع الرسالة الثانية التي يذكر المقريزى أن اليازورى أرسلها لطغرل يعرض فيها الهدنة والتعايش والجوار السلمي بين الدولتين على أساس اعتراف كل منهما بالأخرى ويقول فيها : « لا تغرنك الأماني والخدع بأن اسلم اليك أعمال الدول وأخون أمانتي فان سلمت ما في يدك سلمت ما في يدى . وان رغبت في المهادنة والموادعة انتظمت الحال بين الدولتين وأمن الناس بينهما فان أبيت الا الخلاف والأطماع الكاذبة فليس لك عندى الا السيف ... فان شئت فأقم وان شئت فسر ... »

ويزعم المقريزى أن طغرل حين قرأ الرسالة اغتاظ وقال : خدعني هذا الفلاح[96] وسخر مني وكتب الى ينال أخيه يطلب رد العسكر فلم يتـأت اجتماعهم... »[97]

ولما اجتمع له من الجيش ما يكفي ، خرج بنفسه الى الموصل يستردها . انه لا يستطيع تركها في يد البساسيرى لتهدده ان كان في بغداد أو تطعنه من الخلف ان سار الى الشام أو تقطع الطريق على امداده من التركمان القادمين من أذربيجان وقد وصلها في مطالع سنة ٤٤٩ / ١٠٥٧ ليجد البساسيرى قد ابتعد ويجد أكثر أهلها أيضا قد فارقوها فزعا ونجاة بأنفسهم وحين تمنع عن الاذن للعسكر بالنهب هددوه بالانصراف عنه فقال : «قد دافعت وما أطقت ولا بد للعسكر من اقامة أو عطاء وما معى مال ... ونهبت الموصل فما أمسى البلد الا وهو خراب دارس» ووصل ابراهيم ينال أخو السلطان في العشرين ألفا فسلمه الموصل وانساح الغز في أراضي الجزيرة العليا ينهبون...

ويبدو أن الرعب دب اثر ذلك كله في أنحاء الجزيرة وفي شمالي الشام . حتى عسكر البساسيرى ــ وهو في ثمانية آلاف فارس ــ تراجع ... وحتى المؤيد ، مدبر أمر الفاطميين كتب يقول : « فرأيت الأرض تقشعر خوفا وأهلها قد استشعروا هلاكا يواقعونه وحتفا وأهل الرحبة المسكنية موتى يترددون في زى الأحياء قعود في مدرجة البلاء يتوقعون سفك دمائهم وهتك حريمهم في الصباح والمساء ... »[98] وصار المؤيد نفسه يفكر في أمر الهروب وقد كتب الى البساسيرى ودبيس بن مزيد وابن ورام وقريش بالثبات[99] ووصلته بعض الأموال « والعيون شاخصة الى مال محمول من الباب الطاهر (القاهرة) » « وهم يستقلون كثير ما يصل ... »

في هذه الحال كتب المؤيد الى السلاجقة بالعرض الفاطمي الثاني للهدنة والموادعة وحسن الجـوار وأن يأخـذ كل من الطرفـين ما تحـت يده . يقول[100] :« كتبت الى الوزير التركماني المعروف بالكندرى : « ... كنت كاتبت حضرته من قبل وهو في الرى ... واتفق من الأمر سبق ابن المسلمة الى باطله ... وحصل الرحاب العالي ببغداد وانبثت الكتب يمينا وشمالا بكون قصده ... للتبليغ الى مصر» ... وبعد أن يشرح حق الفاطميين بالخلافة دون العباسيين يضيف :

« ... ويتعين على عميد الملك (الكندرى) أن يشير بقبض اليد عمالا يثمر شيئا غير سخط الله وخراب البلاد وهلاك العباد وليقف الحال حيث بلغت ... وان كانت في بغداد فائدة فهي التي حوتها أيديكم ... وما بقي غير الصداع والفساد في الأرض . وأنا انتظر الجواب الذى يلوح منه نور الخير فيرجع باذن الله لبداءة الأمر ونسج المودة بين الأصحاب .»

ولكن المعركة الدبلوماسية كانت سجالا بين الطرفين لأن الكندرى كان « يدس الى القوم دسائس المكر وينصب لهم شرك الغرور بما يؤدى الى تفريق الشمل ويضمن لواحد ولاية الموصل ولآخر ولاية البصرة وواسط ... فأصاب سهم مكره المقتل ولعب بعقول القوم فعصفت بهم عاصفات التفريق ... » حتى أن الجمع (المزيدى ، الورامى ، القريشى) هادن طغرل بك ، الذى ظن أن أمر البساسيرى قد انتهى أو يكاد فعاد الى بغداد ، بعد أن مرت سنابكه على سنجار « ففتحها عنوة (للانتقام) وسبى نساءها وأطفالها ونهب أموالها وأحرق جامعها ونقضت أخشابها ودرست آثارها وقيل ان القتل أتى على أربعة آلاف نفس وأكثر . وجاف المنزل ... »[١٠١] وتسلم ابراهيم ينال الموصل وسنجار بينما ذهب طغرل الى بغداد لمقابلة الخليفة لأول مرة في حياته بعد سنة من تولى الأمرله ، وتلقى منه أول لقب من نوعه يمنحه الخليفة العباسي لأحد : « سلطان (أو ملك) المشرق والمغرب »[١٠٢] لم يكن هذا يعنى فقط حكم بلاد الخلافة العباسية كلها فقط ولكنه يتضمن الايحاء بأن الشام (اى أرض الخلافة الفاطمية) هما ضمن ما يدخل في أملاك هذا السلطان فلا تمام لمعناه الا باستنقاذهما .. ولا شك في الأمر كان جوابا عن الهجوم السياسي ـ العسكرى الدعائي الذى كانت تقوده في هذه الآونة خلافة الفاطميين ضد الخليفة العباسي بالذات للفصل بينه وبين القوة الجديدة التي رفدته والغاء وجوده ، فكان اللقب نوعا من العهد على السلجوقي بعدم التفريط بالرجل العباسي وبالخلافة العريقة ونوعا من الالتصاق الكامل والتوحيد ما بينهما وبين السلطان السلجوقي في مصير واحد .

وبالمقابل كان المؤيد يدس المكر المشابه لأصحاب طغرل ويبدو أن ابراهيم ينال نفسه آنس امكان التفاهم مع الجماعة الفاطمية . وكان بينه وبين السلطان ، أخيه لأمه ، أحقاد قديمة كان منها ثورة ابراهيم عليه سنة ٤٤٢ وهزيمته أمامه ...[١٠٣] ويبدو أن الأحقاد لدى عدد من أفراد الأسرة[١٠٤] عادت من جديد او زادت اثر صيرورة طغرل « سلطان المشرق والمغرب » بينما لم يحصل الآخرون على شيء ولا توسعت اقطاعاتهم . وهنا حدثت الحاددثة الانقلابية التي ان هي قلبت موازين القوى موقتا لمصلحة الفاطميين وأوصلتهم الى بغداد الا انها أنهت بالفعل مشاريع التحرك السلجوقي الى الشام ... في عهد طغرل بك على الأقل .

الحادثة كما يرويها المؤيد في مذكراته هي ان رسولا بزى الصوفية يصل معسكر البساسيرى وهو مع قريش بن بدران في بالس على الفرات برسالة من ابراهيم ينال « ... يبذل لهما الجميل عن أخيه (السلطان) وعنه ويرغبهما في الدخول في طاعته ليوليهما الولاية الجليلة ويحسن اليهما الاحسان الكثير . فكان

هذا ظاهر رسالته وباطنها أن يخاطباني (أى المؤيد) على التوثق له (لا براهيم ينال) بأن أسوق اليه ما يلتمسه من الحضرة النبوية من الأموال الجزيلة والخلع والألقاب والألوية حتى يبطش بطغرل بك البطش الشديد الذى يهد قوته ... فتصير جميع ممالكه في قبضته وحوزته ويكون هو ملكها وعلى أن تكون الخطبة لنا بالخلافة والامامة مقدمة على خطبته ... »[١٠٥]

ولم يكن صاحب الفاطميين المؤيد ، في حلب ، ليحلم بأكثر من هذا ، وبأكثر من أن تعينه مؤامرة داخلية سلجوقية مجانية على هدم الخلافة العباسية ومد النفوذ الفاطمي ولو بالاسم حتى أقصى خراسان . ولما كان يعلم أن ثمة أحقادا بين الأخوين فقد كان أكثر حرصا من أن يترك الفرصة تفوته وهكذا عاقده باسم الخليفة الفاطمي بالموافقة على ما يسأل من المال والخلع والألقاب والاتفاق ...

ولا شك أن أكثر من رسالة تبودلت بين الطرفين لأن ابراهيم ينال غادر الموصل الى بلاد الجبل وربما كان ذلك بالاتفاق مع البساسيرى ليفسح له مجال احتلالها فنسب السلطان طغرل رحيله الى العصيان[١٠٦] واستدعاه باسم الخليفة الى بغداد فجاءها (في مطالع سنة ٤٥٠ / آذار سنة ١٠٥٨) وكاد السلطان يقبض عليه لولا وساطة الخليفة لا سيما وأن الموصل كانت قد احتلت بالفعل من قبل البساسيرى وصاحبها السابق قريش ...

ويبدو أن اتصالات ومؤامرة ابراهيم ينال كانت أوسع من أن تقتصر على جانب البساسيرى والفاطميين وأنها كانت مرتبطة ببعض الأمراء من العائلة السلجوقية وغيرهم حتى شاع بين الناس في بغداد نفسها أن الأمور في خراسان مضطربة ضه وانه (أى السلطان) عائد اليها ... حتى خاف الخليفة نفسه ذلك - فيما يظهر - لئلا يبقى وحيدا أمام الهجوم الفاطمي والبساسيرى ... وحين اجتمع طغرل مع رئيس الرؤساء الذى جاء باسم الخليفة (في صفر سنة ٤٥٠) يحدثه في أمر أخيه وأنه على الطاعة قال : كنت الساعة قبل حضورك تقدمت الى عميد الملك (الكندرى الوزير) بأن يقدم الى الحواشي والحجاب ويقول : من أرجف بأنى عائد الى خراسان آذيته وعذبته . وقد كنت أضرب الأرض الى هذه الرتبة من خدمة الدار العزيزة ... ولم يبق في خراسان من أخاف منه على بلادى . كلهم أيسوا من خلعي ودخلوا تحت طاعتي . ولا بد من نطحة الشام بعد تقضي الصيف وحضور المهرجان ... »

على أن خبر سقوط الموصل أزعج السلطان فيما يبدو وكان « قد فرق عسكره في النوروز وبقى جريدة في ألفى فارس ، فسار الى الموصل (مع أخيه فلم يجد بها أحدا لأن البساسيرى وصاحبه فارقاها » وكان لا حقا بهما الى نصيبين حين فوجئ بهرب أخيه ينال ... سبط بن الجوزى يكشف سبب الهرب المفاجئ

فان بعض الكتب المتبادلة بينه وبين البساسيرى سقط في يد رئيس الرؤساء الذى أخذ الكتب ولم يعرض للرسول بشيء حبا في اجتذاب قلب ينال لكن « الجاسوس » مضى من فوره الى ينال فأخبره الخبر فسار في الليل في قطعة عظيمة من الجيش الى همذان ولم يشعر السلطان لأنه كان بعيدا عنه ، ولما علم : عدا خلفه خوفا من أن يسبقه الى همذان وبها حلل التركمان فيملكها ويأخذ ما بها من خزائن السلطان وأمواله وسلاحه ... »[١٠٧]

وهكذا فجأة خلت العراق تماما من القوى السلجوقية التي ركضت تتصارع حول همذان ... وصار طريق بغداد مفتوحا أمام البساسيرى الذى ما لبث أن وصلها منتصرا فاعتقل الخليفة العباسي الذى أرسل الى الرحبة وأعلن الخطبة لأول مرة باسم الخليفة الفاطمي المستنصر في بغداد ... وبدا كأن الخلافة العباسية قد انتهت .

واذا كانت الأشهر العشرة الأخيرة التي أعقبت ذلك قمة النجاح بالنسبة للخطة الفاطمية التي أشرف عليها اليازورى فانها كانت في الوقت نفسه فترة القلق ومطلع الفشل : القلق والانتظار لما سيكون عليه مصير الصراع السلجوقي بين السلطان وأخيه في همذان والفشل لأن اليازورى صاحب المشروع نفسه في القاهرة عزل وقبض ثم قتل في تلك الآونة نفسها ... وعاد المؤيد الى القاهرة يتفحص الأمر فقوبل بالجفاء الشديد. حتى سقوط بغداد واقامت الخطبة الفاطمية بها لم تقابل في القاهرة ـ كما يشهد المؤيد ـ بما يناسبها من مظاهر الفرح والاحتفال والبهجة... بلى! فرح الناس وغنت (نسب) الطبالة:

يا بني العبـاس ردوا ملـك الأمـر معـد
ملككـم كـان معـارا والعـوارى تسـرد

ولكن الموقف الرسمي كان جامدا تجاه هذا النصر[١٠٨] . الخطة السياسية الفاطمية كلها تغيرت عن ذى قبل ، الوزراء الجدد في القاهرة لم يكونوا يريدون اعطاء المشروع الذى بدأه اليازورى أبعاده السياسية الحقيقة لئلا يؤثر ذلك في مراكزهم ولعلهم كانوا لا يثقون تماما من « اخلاص البساسيرى والبدو الذين حوله ومن جدوى القوى التركمانية القوية بالقرب منها . كان طموحهم أكثر تواضعا ويفضلون الدفاع ان هوجموا على أن يهاجموا باسم الدفاع . وقد قوبل كتاب البساسيرى[١٠٩] بفتح بغداد في فتور واتهم صاحبه بأنه كان يخالف الأوامر وأنه أخذ أموال الخلافة كلها وأنه قتل من قتل دون استئذان ...» وأنه لم يرسل الخليفة العباسي الى القاهرة . « وكل غيظ المستنصر منه حيث لم يبعث بالخليفة اليه... »[١١٠] و« منع الوزير المغربي الأموال عن البساسيرى نتيجة لكل أولئك وترك أجوبته مدة ، فلما عادت الأجوبة عادت بغير الذى أمله ورجاه »[١١١] .

وهكذا صار نصر البساسيرى معلقا في الهواء في انتظار ما يجرى في همذان فما ان انتصر طغرل على أخيه وعلى باقي الثائرين معه وعاد الى بغداد حتى هرب البساسيرى الى حلل العرب في جنوبي العراق .

ولم يكن صعبا عليه الانتصار عليه وتقوير مخه ...١١٢ ولكن الاعلان الذى رافق نلك النصر بأنه « سيقصد الشام ويفعل في حق صاحب مصر ما يجازى به فعله ... »١١٣ هذا الاعلان ظل كلمة في الهواء ولم تعرف التنفيذ .

المقريزى بحسه التاريخي المرهف يقوم مغامرة البساسيرى الفاشلة فيقول : « انها كانت آخر سعادة الدولة الفاطمية . فان الشام خرج من أيديهم بعدها بقليل ... باستيلاء الترك عليه . ولم يبق بأيديهم غير مصر ... »١١٤ والواقع أن مقتل البساسيرى اذا كان نهاية كل مقاومة دفاعية عن الشام فقد كان أيضا نهاية التوسع الشيعي الفاطمي أيضا وبدء المرحلة الجديدة في تاريخ هذه المنطقة العربية من الشرق الاسلامي ، هذه المرحلة التي يشكل الترك جانبا هاما من عناصرها كما تشكل العقيدة السنية الجانب الآخر . أما التشيع الذى كان يعرف التستر والتنظيمات السرية منذ العهد الأموى فان فشله قد حوله الى عمليات الهجوم الاغتيالي الذى تمثل في الحركة الاسماعيلية (الصباحية) .

أما على المدى القصير فان التجربة التي مرت بطغرل في المؤامرة الفاطمية ـ السلجوقية عليه اذا لم تؤد الى خسارته حياته ولا ملكه فانها على أى حال نجحت في الواقع ف منعه من أن يفكر من جديد بمشاريع غزو الشام واكتساح الدولة الفاطمية ، وأقنعته على العكس بضرورة العمل على تنظيم دولته في ايران قبل ان يتوفى سنة ٤٥٥ / ١٠٦٣ تاركا مهمة غزو الشام لغيره من الترك ...

٣ ـ دخول التركمان الغز الى الشام

الغزو التركماني الحقيق للشام لم ينتظر المشاريع السياسية الفاشلة ولا قرارات الزعماء . واذا كان باب العراق ضيقا على التركمان فان باب أرمينية كان مفتوحا على مصراعيه . ومنذ أطلق طغرل بك لرجاله حرية التصرف في تلك الأرض حوالى سنة ٤٤٦ ـ ٤٤٧ ورمز الى نلك بأن غزاها بنفسه لم يضيع التركمان الفرصة أبدا . وقد حرثت عرباتهم شعابها كما دمرت السنابك معمور الأرض وثقبت السهام الصدور لأن باب أرمينية المفتوح كان يقدم فرصة أوسع للنهب ولكي يحمل المحارب الغزى في الوقت نفسه لقب « غازى » أو « أوج »

بجهاد الكفار فهناك الروم والأرمن واليعاقبة ... وكلهم سواء بالنسبة اليه وعن طريق أرمينية والجزيرة تسللت ـ فيما يبدو ـ بعض العصابات الغزية

وطرقت في هذه الفترة بالذات أبواب الشام داخلة منطقة ديار مضر وربيعة . سجل ذلك شاعر حلبي هو ابن أبي حصينة الذى أنشد أمام الأمير ثمال المرداسي ، أمير حلب يقول :[١١٥]

من مبلغ الأتراك أن أمامهم بحراً يغرق موجه من يشرع
أموا وهموا بالورود فراعهم من دونه هذا الهمام الأروع
وتيقنوا أن الشآم وأهله أحمى بلاد الخافقين وأمنع

والشاعر يغنى بعض الانتصارات المرداسية ضد الترك ولكنها كانت انتصارات مؤقتة لأن الضغط الغزى استمر بعدها طويلا في معارك متعددة ضد جموع واسعة .

والمقريزى يعطينا تاريخ ابتداء هذا الصدامات ويحدد أنها كانت سنة ٤٤٧ . يقول : " وفي هذه السنة تجمع كثير من التركمان بحلب وغيرها وأفسدوا في أعمال الشام ... "[١١٦] ويشير المؤيد في مذكراته الى كتاب[١١٧] ورد من أمير الجيوش الفاطمي في شمالي الشام وكان ذلك سنة ٤٤٨ يتضمن التخوف من سرية تركمانية سمع أنها تسرى اليه وأنه يستعجل النجدة . وفي السنة التالية سنة ٤٤٩ يتسلم حلب قائد فاطمي هو ابن ملهم ، يذكر المقريزى نفسه أنه بتسلمه لها " انكفت أيدى التركمان عنها وذلك بعد حروب عظيمة ... "[١١٨]

اذن فقد دخل الغز الشام بالفعل وحوربوا فيه وأفسدوا قبل حوالى عشر سنوات على الأقل من الموعد الذي يذكره ابن العديم ويجعله أول دخول الترك الى الشام سنة ٤٥٦ ... وبهذه المناسبة يتبين من عدد من النصوص أن كلمة الشام في هذه الفترة كانت تعنى شمالي الشام فقط . على أن هذه الموجة الغزية توقفت بالفعل عدة سنوات ما بين سنتى ٤٤٧ ـ ٤٥٦ لا بسبب عملية دفاع محلي محدود قام بها أمراء الشام وحكامه ولكن بسبب مشروع اليازورى ـ البساسيرى من جهة وبسبب انصراف التدفق التركماني ، في أواخر أيام طغرل الى التوغل بعد أرمينية في الأناضول الأوسع وكان هذا التوقف توقفا غير من طبيعة الغزو التركماني للشام ومن طريقة دخوله الى هذه البقاع . فبعد أن كان انسياحا بدويا عفويا أضحى سنة ٤٥٦ وما بعدها مجموعات من القوى العسكرية فقط ، وبعد أن كان ينطلق من ذاته ولحسابه بجلاء بعد سنة ٤٥٦ مستدعى استدعاء من قبل القوى السياسية في الشام ويعمل لحساب هذه القوى[١١٩] . هذا على الأقل قبل أن تستحكم الشدة المستنصرية بالخلافة الفاطمية منذ سنة ٤٥٨ وتحل من قواها وتترك للغزو التركي ـ الغزى أن يستعيد طابعه التقليدى ويستبد كما يشاء بالشام بعد سنة ٤٦٢ وبالاضافة الى هذا فان القوى التركمانية الأولى التي دخلت

الشام واحتلته لم تكن سلجوقية ولكن مناوئة ، في كتلتها العامة للسلاجقة الذين ما لبثوا أن وجدوا أنفسهم فجأة متورطين في السياسة الشامية ...

لكي نفهم ذلك كله نضع أولا الاحداث في ترتيبها الزمني الكرونولوجي ، انها تأتي فيما تسمح به المصادر على الصورة التالية :

ابن خان ـ في سنة ٤٥٥ / ١٠٦٣ يصطدم أميران مرداسيان[١٢٠] على امارة حلب : الأمير عطية الممتلك للمدينة ، وابن أخيه محمود الذى يحاصرها . فيستدعى عطية لمساعدته أميرا تركيا منعزلا بجماعته عن السيل التركي منذ مدة في الجزيرة . بسبب اختصامه مع والده الخان التركي[١٢١] . اسم الابن في بعض المصادر (كابن العديم) هارون أو أمير تكز (وقد تكون تحريفا عن أمير الغز) أما أبوه فقد يكون اسمه تمغاتش[١٢٢] . ويبدو أن هارون فر من أبيه فيما وراء النهر مع مجموعة من الأمراء نعرف منها أميرا باسم قمار ، ومجموعة من الرجال فاستخدمه ملك الروم قسطنطين دوقاس ثم طرده لاتهامه بالتآمر ثم عاد فاصطنعه مرة أخرى لمحاربة الترك في منطقة ديار بكر وكان يمده بالخلع والدنانير ... »[١٢٣]

كما كان الرجل في رواية سبط بن الجوزي « شجاعا فاتكا قد انضاف اليه قطعة من الغز فكانوا يغيرون على الشام ... فأضافه محمود (المرداسي) اليه حذرا من شره ... »[١٢٤]

كان هذا الاستدعاء نوعا من الاعتراف بالواقع الجديد وهو أن قبيلة كلاب لم تعد صاحبة الكلمة الأولى وحدها في شمالي الشام وأن القوى الغزية التي كانت تطيف بالمنطقة وتضغط عليها لا بد لها من أن تشارك بشكل أو آخر في رسم مصيرها . وبالرغم من أن عطية تنبه لغلطته فصالح ابن أخيه بسرعة وارسل الى ابن خان ألا يتابع المسير الا ان التسوية التي عقدها كانت من الوهن بحيث خرقها محمود بسرعة في السنة التالية واستولى على المناطق جنوبي حلب ما بين حماة حتى كفرطاب وحاصر حلب الحصار القاسي الذى لم يجد عطية من سبيل للخلاص منه الا باستدعاء ابن خان كرة أخرى سنة ٤٥٦ / ١٠٦٤ .

وقدم ابن خان في ألف قوس أنقذت عطية من حصار ابن أخيه ولكنها أوقعته في قبضة الترك الذين كرههم البدو الكلابيون كما كرههم أحداث حلب على السواء كقوة غريبة لا تشاركهم فقط في الارزاق والمرعى ولكنها جزء من قوة ذات أطماع في الشام لم ينسها الناس بعد وذات مذهب سني مخالف للمذهب الشيعي السائد . واستفاد الترك من قوتهم ليفرضوا أنفسهم على عطية نفسه لا سيما بعد أن استعان بهم في غارة ناجحة على حدود انطاكية البيزنطية ، ولذلك فضل التنازل عن بعض أملاكه لابن أخيه من جهة (محرم سنة ٤٥٧/١٠٦٤) وتدبير مذبحة للترك في حلب على يد الأحداث فيها ما دام قد قضى منهم غرضه الحربي ، من جهة

أخرى ... وتم الهجوم ليلا على الجماعة الغزية باغراء عطية نفسه (صفر ٤٥٧ / كانون الثاني ١٠٦٥) فنهبوا وقتل منهم جماعة وأخذت خيولهم والسلاح والرجال ... وخرج ابن خان تحت سور القلعة يتهدد ثم مضى فارا في الباقي من رجاله الذين لقوا الويل والشدائد سواء منهم من كان يشق طريقه الى الشرق والجزيرة بين قبائل البدو أو من عبر المناطق شمالي وغربي حلب بأرض الروم ثم الكلابيين[١٢٥] . فلما قرروا الالتحاق بمحمود المرداسي ، خصم عطية والتحقوا به من سرمين كانوا أقل من مائة وخمسين رجلا ، فأنزلهم بمنطقة معرة النعمان .

ويبدو من اشارة عابرة أوردها ابن العديم أنه كان في هذه المنطقة بعض الأتراك العسكر الذين يعبثون بها وقد نهبوا سنة ٤٥٩ / ١٠٦٦ " حصن حناك وجميع ضياعه بالشام "[١٢٦] للدرجة التي ألجأوا معها حاكم المنطقة (حسين بن كامل بن الدوح) أن يسلمها مع الحصن الرئيسي بها : حصن أسفونا الى نواب مصريين .

لسنا ندرى متى وصل هؤلاء الى المنطقة ولا من أين جاؤوا ولعلهم استفادوا من اختلاف الكلابيين بعضهم مع بعض ومن ضعف الروم في انطاكية فعبروا من منطقة كيليكية عن طريق وادى عفرين والأسود الى تلك المنطقة .

واستطاع محمود المرداسي أن يسوى أموره مع البزنطيين في انطاكية وأعطاهم ابنه رهينة فتلقوه بمنتهى الاكرام ، ثم سافر كما يقول ابن القلانسي والعظيمي[١٢٧] مع ابن خان الى طرابلس ولا شك أن لهذه السفرة علاقة بتسوية أموره مع الخلافة الفاطمية عن طريق ابن عمار قاضي طرابلس وبعقد قرض أو أخذ مبلغ من المال يؤمن طريق التجارة القادمة الى ميناء طرابلس من شمالي الشام ، والتي هدد الأتراك الذين توغلوا في جنوبي حلب ، أمنها وطرقها وثرواتها جاء ابن خان يتعهد حمايتها .

ويبدو أن المسعى قد نجح بسرعة وأن ابن خان قد عاد فجند مجموعة من التركمان هي في الأغلب من أتراك منطقة المعرة. يقول ابن العديم: " وسار محمود ومعه ابن خان التركي ومن انضوى اليه من التركمان الى مرج دابق " حيث التقى بجموع عطية (جمادى الآخرة سنة ٤٥٧ الذى انهزم فلحقوا به يحاصرونه في حلب مائة يوم ويومين ... حتى ألجأه الجوع الى التسليم والقناعة بحكم المنطقة الشرقية من حلب (أى وادى الفرات ما بين منبج واعزاز حتى الرحبة) ... وقد رفض ابن خان دخول حلب لما كان بينه وبين " الأحداث " فيها ومضى الى العراق والجزيرة يجند فيها بعض الجند ـ على ما يبدو ـ فلما عاد كان أجره على مساعداته أن اقطعه محمود معرة النعمان فدخلها (شوال ٤٥٨ / مطلع ايلول ١٠٦٥) " ومعه من الترك والديلم والكرد والأوج مقدار ألف رجل مع

حاشيتهم »[129] ولعل هذا التجنيد هو ما دفع الترك الذين سبق أن جندهم بمنطقة المعرة الى الشغب ونهب جميع الضياع سنة ٤٥٩ بعد أن كان استغنى عنهم ، بينما كان جند ابن خان في غاية النظام يقول ابن العديم : « فما رؤى أعف منهم عن البساتين والكروم وغيرها . ولم يكونوا يأخذون من أحد شيئا الا بثمنه وسقوا دوابهم الماء بثمنه ... » وعلى أى حال فقد كان ابن خان بذلك أول أمير تركي من الغز في الشام ، على أن اقطاعه لم يطلا فقد استدعى الى حلب وعوض عن المعرة بأن أضحى فيما يبدو أكبر قواد حلب « وفزعت العرب منه فزعا عظيما » ... وقد ظل هذا التركي هناك قرابة أربع سنوات تبنى خلالها سياسة المنطقة وبخاصة الدفاع ضد الروم .

وقد حاصر حصن أرتاح خمسة أشهر حتى استخلصه منهم (شعبان ٤٦٠ / مايس ١٠٦٨) قاتلا من رجالهم نحو ثلاثة آلاف رجل والجأهم الى ارسال عسكر عظيم من عساكرهم ، بحجة مصالحته عن أرتاح وغيرها من بلادهم لكي يدسوا الغلات الى انطاكية وقد حملت عن طريق البحر لتقويتها . « وكان فتح ارتاح فتحا عظيما ـ كما يقول ابن العديم ـ لأن عملها قريب من أعمال الشام من الفرات الى العاصي الى أفامية الى باب أنطاكية الى الأثارب . وقيل بأنهم أحصوا الى شهر رمضان من هذه السنة أنه افتقد من الروم في الدرب الى أفامية بحساب قتلا وأسرا ثلاثمائة ألف نفر ... »[130] ولا شك أن انتصار ابن خان كان من الأثر بحيث دفع امبراطور الروم [131] الى المسير بنفسه نحو الشام واحتلال منبج فيها (شعبان ٤٦١ / حزيران ١٠٦٨) ولكن الوباء تفشى في عسكره والعلة والغلاء ، وقد ذكر للقاضي القضاعى رسول المصريين اليه أنه مات له في يوم واحد ثلاثة آلاف من خيله سوى عسكره ... »[132]

واشترك ابن خان والتركمان معه في استرداد حصن أسفونا مع محمود المرداسي في السنة التالية ٤٦٢ . كان الجيش في حوالي خمسين ألفا فقتلوا جميع رجال الحصن وهم ٢٧٠٠ محارب قبل أن يعقد المرداسي الهدنة مع الروم بتلك السنة .

على أن هذه الأعمال « الجهادية » ضد الروم لم تقرب ابن خان وأصحابه الى الناس . وظلت النفرة بينهم وبين جماهير الشعب في حلب قائمة . ولقد سجل ابن العديم فتنة قامت بين الطرفين سنة ٤٦٢ كان من ضحاياها نحو أربعين رجلا من الأتراك وعشرة من الحلبيين[133] . كما أن الخلافة الفاطمية لم تلغ اعتراضها على وجودهم في خدمة الأمير الحلبي ولا ريبتها في هذا الوجود . وبالمقابل فان ابن خان لم ينس أنه سنى عباسي الولاء . ويبدو أنه عمل في هذا الاتجاه عملا واضحا . ولا شك أن أهم ما حققه في هذه الناحية هو أنه شجع محمودا

المرداسي على تغيير ولائه السياسي وتغيير المذهب الرسمي لدولته : ودفعه الى عقد الصلة مع خليفة بغداد والسلطان السلجوقي وعلى اعلان المذهب السني . لم يكن ذلك حبا في السلطان الب أرسلان ، فقد كان على العداء له ولكن تحت ضغط الجموع التركمانية التي كانت تتكاثف في الجزيرة ووراء شمالي الشام وترعب المنطقة ... وهكذا كاتب محمود المرداسي السلطان السلجوقي على الخطبة للخليفة القائم ثم له ووصله رسول الخليفة والسلطان بالخلع . وجمع محمود أهل حلب وقال لهم : " قد ذهبت دولة المصريين . وهذه دولة جديدة وعساكر عظيمة . ونحن قد ضعفنا تحت الخوف منهم . وهذه وهم يستحلون دماءكم لأجل مذهبكم . والرأى أن نقيم الخطبة خوفا من أن يجيئنا وقت لا ينفعنا فيه قول ولا بذل ... " وهكذا لبس المؤذنون السواد وخطب للقائم والسلطان ألب ارسلان فنفر الناس ، فلما كانت الجمعة التالية رتب ابن خان الأتراك أمام الجامع يهددون بالقتل من يمتنع عن الصلاة وسماع الخطبة ، فخاف مشايخ البلد والأحداث من الفتنة والنهب وقالوا للأمير لا حاجة للغز نحن نفعل هذا ووقفوا على باب الجامع حتى خطب الخطيب وصلى الناس[١٣٤]

كان ابن خان يؤذن في ذلك بما سيكون في المستقبل ، من اقرار السنة في هذه المنطقة بواسطة هذه الجماعة الجديدة .

لم يكن تحول المرداسي بالتحول المفاجئ فقد كان نتيجة لخلاف مع القاهرة بدأ منذ تملك محمود المرداسي حلب سنة ٤٥٧ ، واذا تركز الخلاف حول أمور أساسية هي : اهماله دفع المال للقاهرة وهي اذ ذاك في أمس الحاجة لكل درهم مع المجاعة والغلاء ، وهدنته مع الروم الذين كان الفاطميون على العداء معهم في تلك الآونة ، فقد كان من جملة الأسباب أيضا : الغز الذين لم يكن الفاطميون ينظرون الى وجودهم في حلب نظرة الارتياح بل نظرة الريبة والعداء .

وفي مطلع سنة ٤٥٩ " بعث ـ كما يقول سبط بن الجوزى ـ صاحب مصر الى محمود بن الزوقلية (المرداسي) المتغلب على حلب يطالبه بحمل مال الى خزانته ويغزو الروم الذين هم في مجاورته وصرف ابن خان ومن معه من الغز أن كان على طاعته " .

ويتبدى في الجواب الذى أرسله المرداسي مدى دور وقوة الغز الذين أصبحت قوتهم أعلى من قوة الأمير بحلب . قال في الجواب : " انني قد ألزمت على أخذ حلب من عمي أموالا اقترضتها وأنا مطالب بها . وليس في يدى ما أقضيها فضلا عما أصرفه في غيره فاذا قضيت ديوني واستقام أمرى حملت وخدمت . وأما الروم فقد هادنتهم مدة وأعطيتهم ولدى رهينة على مال اقترضته منهم فلا سبيل الى محاربتهم حتى أوفيهم المال وأخلص ولدى وتنقضى الهدنة . وأما ابن خان والغز

الذين معه فيدهم فوق يدى وانما استخدمتهم مصانعة لهم وكفا لفسادهم فان رأى صرفهم فينفذ اليهم من هو أقوى عليهم مني وأنا أساعده ... فلما وصل الجواب كوتب بدر الجمالى أمير الجيوش المقيم بدمشق بأن ابن الزوقلية قد خلع الطاعة وأنه مال الى الجهة العراقية فتسير اليه وتقابله ... »[١٣٥]

وقد انتهت قصة ابن خان مع حلب ، ومع الشام كله ، نهاية سريعة سنة ٤٦٢ / ١٠٦٩ وبيد غلمانه . فقد اراد محمود المرداسي التخلص من سيطرته على ما يظهر » فتعامل مع غيره مرة على حلب » أى أنه أزاحه باصطناع أمير تركماني آخر نجهل اسمه » فأراد (ابن خان) قتل محمود وعطية (كليهما) فلم يتمكن » فانسحب الى الجنوب تاركا في حلب أخا له لم يشأ على ما يظهر متابعة أخيه وبقي في خدمة المرداسي[١٣٧] . » وجاء (ابن خان) الى ابن أبي عقيل صاحب صور فأقام عنده . وأحسن (الرجل) اليه ووصله وأعطى أصحابه وجاء بدر الجمالي يحاصر صور فنافق ابن خان وخرج الى بدر فعسكر عنده . فدس ابن أبي عقيل الى غلمان ابن خان وقال لهم قد عرفتم ما فعلت مع صاحبكم من الجميل وما أنفقت عليه من الأموال وما صلح لي ولا جازاني على احساني اليه . ولكم علي ان قتلتموه كذا وكذا من المال . فوثب عليه منهم اثنان فقتلاه وحملا رأسه الى ابن أبي عقيل فطيف به في صور ... »

ويبدو أن ابن خان لم يكن ، في نلك الوقت التركماني الوحيد الموجود في جنوبي الشام أولدى صور فقد » كان عند ابن أبي عقيل جماعة من الغز ففارقوه (بعد مقتل ابن خان) الى بدر (الجمالي) فقوى بهم »[١٣٨]

.... وانتهى بهذا الشكل أول رأس تركي (غزى) كبير دخل الشام .

الافشين : في السنة التي تولى فيها ابن خان معرة النعمان سنة ٤٥٨ وبينما كانت جماعة تركية أخرى تعمل وتنهب المناطق الجنوبية من اقطاعه كان اسم تركي آخر يبرز في شمالي سورية هو الأفشين . وهو قائد سلجوقي كان يعمل في عسكر الحاجب كمشتكين ، حاجب السلطان ألب أرسلان . وابن العديم يجعله ابن بكجى والكلمة تعنى الحرس وقد يعنى هذا أنه كان من حرس كمشتكين في عسكره . وكان ميدان أعمال هذا العسكر في أعالى الفرات جنوبي حصن منضور ما بين حران ووادى الفرات ويبدو أن الأفشين قتل قائده كمشتكين في خصومة بينهما ، وهرب من غضب السلطان الى أرض الروم مع جموعه[١٤٠] . وأوغل هناك حتى بلغ قيسارية ونهبها سنة ٤٥٩ / ١٠٦٦ ثم انحدر في كيليكيا واخترق جبال الأمانوس ثم دخل ــ ولعل نلك كان بالاتفاق مع ابن خان ، القائد التركي في حلب ــ أرض انطاكية البيزنطية ... كانت الجماعة التي ساقها » طائفة كبيرة من الترك فنزل بعضها على دلوك وتقدم منهم نحو ألف فنهبوا بلد انطاكية عن آخره

وأخذوا نحو أربعين ألف جاموس . وقيل أكثر حتى ان الجاموس كان يباع بدينار وأكثره بدينارين وثلاثة ، وأما البقر والغنم والمعز والحمير والجوارى فلم يقع على ذلك احصاء من الكثرة وكانت الجارية تباع بدينارين والصبي بتطبيقة نغال للخيل ... وخرب بلد الروم خرابا لم يسمع بمثله وبقيت الغلات في البيادر ما لها من يرفعها منهم حتى كان الفلاحون وسائر العوام يمضى الواحد منهم ويأخذ ما يريد فلا يجد من يدافعه عن ذاك لأن الروم تحصنوا في الحصون والجبال والمغاير وتركوا بيوتهم على حالها لم يأخذوا منها شيئا لأن الترك أتوهم على غفلة . وكان ذلك في شوال (سنة ٤٥٩ / آب ايلول ١٠٦٦) وكان مقدمهم أفشين بن بكجى ... ثم خرج الى أعمال حلب وباع الغنائم التي كانت معه ... »١٤١

ويبدو أن الأفشين عاد هذه المرة الى « أطراف الروم من ناحية الخزر » فأقام هناك بأمر السلطان لأنه « كان من أصحابه » . ولعله كان يهيء فيما بين اعالى الفرات وشمالي أرمينية لحملة ألب أرسلان المقبلة الى الروم . ويذكر سبط ابن الجوزى في أخبار سنة ٤٦١ أن الأفشين وصل عمورية في غزوة واتفق أن ملك الروم قبض على بطريق كبير عنده فهرب أخوه وصادف الأفشين في طريقه واحتال على عمورية حتى أدخل اليها الأفشين فقتل وسبى ونهب « وأسرى الى خليج القسطنطنية وأغار على جشار الملك وأخذ منه نحو ستة آلاف فرس ، وكان ملك الروم على منبج فعاد الى القسطنطينة بينما جاء الأفشين الى انطاكية فأخرب بلدها وحصرها وقرر عليها عشرين ألف دينار ... »١٤٢ وابن العديم يجعل حصار انطاكية هذا سنة ٤٦٠ ويضيف أن قد « ضاق الشيء فيها حتى بلغت الحنطة قفيزين بدينار ، فلما لم يبق شيء دون فتحها أتته كتب العادل ألب أرسلان من العراق بالرضى عنه . وقيل ان أصحاب مؤونة السوق بحلب حصل في دفاترهم نحو سبعين الف مملوك سوى ما بيع بغير مؤونة في بلد الروم وسائر البلدان وأخذ من أصحاب انطاكية مائة ألف دينار ومثلها من ثياب الديباج والآلة ... وسار الى العراق في جمادى الآخرة (مايس سنة ١٦٠٨) من السنة »١٤٣ .

هل انتهت قصة الأفشين مع الشام ؟ ان لها فصولا أخرى تالية من بعد وانما كان هذا فصلها الأول واذا كان هذا الفصل قد دمر الشام البيزنطية فان الذين أعقبوه دمروا الأراضي الاسلامية :

صندق : بعد قرابة سنتين يبرز اسم زعيم تركي آخر هو صندق . يقول ابن العديم : « وفي سنة اثنين وستين (سنة ١٠٦٩ / ١٠٧٠) وصل صندق التركي خارجا من بلد الروم ومعه عسكر عظيم ودخل الى بلد حلب من الأرتيق الى الجزر (من أعمال حلب) الى بلد معرة النعمان وكفر طاب الى حماه وحمص الى رفنية . وشتوا في هذه السنة فنهبوا الضياع وسبوا منها وعاقبوا من وجدوا هناك . ولقى

أهل الشام من عسكره شدة عظيمة . وهو أول نهب وفساد جرى بالشام من الأتراك . ولما انقضى الشتاء عاد الى بلد الروم بعد أن أكرمه محمود بن نصر (المرداسي) بتحف وهدايا حملها اليه ... »١٤٤ .

وابن العديم يقصد دون شك أن هذه الغزوة التخريبية التي شقت الشام شقا كالسهم ، في المنطقة الداخلية الاسلامية من الشمال الى الجنوب ثم عادت الى الشمال من حيث أتت بعد أن اشترى صاحب حلب رضاها انما كانت أول غزوة تخرب المناطق الاسلامية من الشام . ولعله تحت تهديدها والرعب منها حول محمود المرداسي ولاءه الى بغداد والخطبة لخليفة بني العباس والسلطان السلجوقي وأعلن مذهب السنة تلك السنة ٤٦٢ .

سنة ٤٦٣ : السنة التالية ٤٦٣ / ١٠٧٠ كانت السنة الانقلابية الحقيقة في تاريخ الشام من حيث الارتباط مع تاريخ الترك . فانا نشهد في هذه السنة ولأول مرة توافد جموع تركية واسعة متعددة الولاء ، وردت عن طرق مختلفة ولأغراض متباينة الى بلاد الشام :

- تصل جموع محاربة من النهابين البداة دون أى ولاء تتوزع جماعات صغيرة هنا وهناك كأنها الطلائع والرواد للمجموعات الأخرى ، وهي تعمل لحسابها دون هدف سوى التماس العيش والاستقرار ، وتظهر بعض هذه الجماعات لدى القاضي ابن عقيل صاحب صور .
- وتصل جواعات يستدعيها والي المنطقة الجنوبية من الشام لمعونته على استقرار هذه المنطقة وعلى حمايتها من البدو وهي تعمل لحساب النظام الفاطمي ، لا على شكل جنود مرتزقة ولكن على شكل كتل حربية مرتزقة .
- وتصل جماعات سلجوقية عسكرية في عملية فتح سياسي عسكرى على رأسها السلطان السلجوقي نفسه ألب أرسلان .

هذه الجموع المتوافدة كانت تأتي خاصة عن طريقين : من الأناضول على الدروب التي كانت دوما خطوط المواصلات ما بين الثغور الشامية والعواصم . ومن الجزيرة العليا الموصلة من جهة الشرق الشمالي بأرمينية وبأذربيجان . وبالرغم من أن المقريزى يذكر قدوم الترك من العراق١٤٥ فالذى يظهر أنه انما كان يقصد منطقة الموصل وما في شماليها . لأننا قلما نلاحظ تحرك قوة عسكرية تركية من الشرق عبر وادى الفرات الى الشام أو سلوكها سبيل الموصل ـ سنجار الى الرحبة . وقد ظل الطريقان الشماليان مدة ربع قرن هما طريقا وصول الترك الى الشام قبل أن تغلق طريق الثغور والعواصم الشامية لأول مرة بمقتل سليمان بن قتلمش عند حلب سنة ٤٧٨ / ١٠٨٥ والقطيعة ما بين سلاجقة الشام وسلاجقة الروم ثم يحكم اغلاقه بعد الاحتلال الصليبي لمحور الرها ـ انطاكية ثم ينقطع

نهائيا بمقتل السلطان مسعود حفيد سليمان على الخابور سنة ٥٠١ / ١١٠٧ ... تلك كانت نهاية هذا الطريق. أما الطريق الآخر فظل طريق الوفود البشرية والنجدات العسكرية التركية وغير التركية الى الشام حتى ما بعد عهد صلاح الدين .

واذا كان من الصعب متابعة تحرك الجماعات التركية الصغيرة النهابة فسوف نكتفى بمراقبة تحرك الناوكية والسلاجقة .

١ ـ **الناوكية** : منذ سنة ٤٦٢ وربما قبلها بقليل بعث بدر الجمالي والى الشام الجنوبي من قبل المستنصر الفاطمي الى بعض الجماعات التركمانية المنساحة في أرض الروم فدعاها للمجئ الى بلاد الشام ومساعدته في رد عادية العرب البدو عن المناطق الحضرية والمدن[١٤٦] . كان يحسب أنه يستطيع بذلك تسليط بدو على بدو ويأمن في ولايته من الطرفين لا سيما وقد قطع الأمل من وصول أى نجدة من مقر الخلافة : كانت مصر الفاطمية يومذاك في أقصى درجات الضعف والفوضى والجوع . انها « الشدة المستنصرية » الطويلة ، والخزانة فارغة حتى لقد لجأ الخليفة مرة الى الجامع ، وجاء هؤلاء التركمان فظهروا في الجنوب الشامي سنة ٤٦٣ / ١٠٧٠ غير أنهم شعب خاص من الترك وسموه باسم : الناوكية . والاسم يلفت النظر لأنه لا يظهر لدى الكشغرى صاحب ديوان لغات الترك والمعاصر لتلك الفترة ، ولا يظهر بين أسماء القبائل الغزية ويكتب أحيانا الياوكية . ان سؤ علاقتهم بالسلاجقة وتفردهم عن الجماعة الغزية السلجوقية قد يوحيان بوجود علاقة غير مؤكدة بينهم وبين التركمان العراقية ، ولعل الأرجح أن القوم جماعة خوارزمية ، مما لحق بالغز من الشعوب التركية . ومما يؤيد هذا الافتراض أن واحدا من أبرز زعمائهم كان يسمى أطسز بن أوق الخوارزمي . وقد نتساءل هل ثمة علاقة بين أوق ، وناوق أو ياووق ؟ وهل ثمة علاقة بين هؤلاء وبين الجماعة الأخرى : الياووقية التي نزلت حلب في خمسين ألفا أيام نور الدين ... ولنلاحظ من جهة أخرى أن خوارزم دخلت مبكرة في اطار الملك السلجوقي كما دخلت مرغمة . وأنه كانت لطغرل بك زوجة خوارزمية يضاف الى هذا احتمال كبير بأن تكون جماعة ابن خان التي رأيناها في الشام منذ سنة ٤٥٦ قطعة من هؤلاء الناوكية أيضا ان وجود ابن أخ لابن خان[١٤٧] المذكور بين زعماء هذه الجماعة جنوبي الشام سنة ٤٦٤ / ١٠٧٢ لما يرجح هذا الافتراض الذى لا يعنى في النهاية سوى أن الجموع التركية الأولى التي دخلت الشام لم تكن سلجوقية كما لم تكن تماما غزية في مجموعها، وكانت في الغالب مطاردة من قبل النفوذ السلجوقي لا عاملة في خدمته .

وعلى أى حال فان مجموعة هؤلاء الناوكية كانوا شعبا لأمير تختلف المصادر في تصوير اسمه فهو : أريسيغى (لدى سبط بن الجوزى) واريسفى (لدى البندارى) ورايسغن (لدى الواوندى) كما يكتب في مصادر أخرى أزيسغر ، ويزداد اسمه تصحيفا في المصادر اليونانية فهو كريسكو سكولوس (تصحيف اريسكون) أوكيدرج ... وقد لا يهم اسمه لأن المصادر تتفق بعد ذلك على أنه كان زوج أخت السلطان ألب أرسلان المسماة جوهر خاتون والتي حاولت سنة ٤٦٦ الهرب اليه لدى الروم فقتلها ملكشاه[١٤٨] ، وقد أسهم اريسغى في الأعمال الحربية ضد البساسيرى سنة ٤٥١ / ١٠٥٩ وكان من أنصار ألب أرسلان عند موت طغرل بك[١٤٩] ويبدو أنه اختلف معه بعد ذلك فهرب سنة ٤٦٣ " مع جماعة من الناوكية منحازين الى بلاد الروم ... يريد القسطنطينية "[١٥٠] ولكن الروم أرسلوا لقتاله جيشا يظهر أن أريسيغي حاول تفاديه والمسير الى بلاد الخزر ، عن طريق دربند ، وطلب من صاحبتها التي يزعم سبط بن الجوزى اسمها مريم ، أن تمكنه من العبور فلم تفعل ، وحاول اقناع الجيش الرومي أنه ما جاء عدوا محاربا ولكن لا جئا ، ولكن الأعمال التخريبية التي قام بها أصحابه حيث مروا كانت قرائن ضده وعند القتال قرب سيواس استطاع أن ينتصر ويأسر القائد الرومي ويفرض عليه سبعين قنطارا ذهبا[١٥١] .

على أن السلطان ألب أرسلان كان قد أرسل خلفه قائده الأفشين في سرية سريعة فاضطر لتحرير أسيره وتوسيطه كي يقبل لا جئا سياسيا في القسطنطينية ويدخل في خدمتها .وهكذا كان وفشلت مهمة الأفشين في الضغط على الروم لتسليمه فأنحى على مناطق الأناضول بالتخريب الانتقامي حتى أوقفه الشتاء عند طوروس قبل أن يتابع مسيره في الربيع الى سلطانه ... واذا بقيت جماعات من الناوكية في الأناضول فانها لم تدخل جميعا في خدمة الروم وبعضها ظل يتردد غازيا لها منطلقا من منازله في أذربيجان[١٥٢] وأرمينية وبعضها ممن رفض الخدمة للروم قبل العمل لمصلحة الفاطميين . وهذه هي الجماعة تهمنا هنا فان سبط ابن الجوزى يذكر : أنهم " كانوا هاربين من السلطان ألب أرسلان " " فاستمالهم أمير الجيوش بدر الجمالي فجاؤوا فنزلوا الشام وطردوا العرب الذين كانوا قد استولوا على بدر ونهبوا الشام ... "[١٥٣]

ولسنا ندرى بالضبط متى كان اتفاق الجمالي مع هؤلاء الناوكية ولا متى وصلوا بلاد الشام ـ وقد نستطيع ان نستنتج من الجملة التي وردت لدى ابن القلانسي في أخبار سنة ٤٦٢ وقوله : " ... كاتب القاضي ابن ابي عقيل الأمير قرلو ، مقدم الأتراك المقيمين بالشام مستصرخا له ومستنجدا ... "[١٥٤] أن الناوكية كانوا سنة ٤٦٢ معروفي الوجود في الشام ، معروفي الزعيم والقوة ،

معروفي الاستقلال وعدم التبعية لأحد ، كما كان معروفا أنهم مقيمون أو جاؤوا للاقامة ... وقد يعني كل هذا أن قدوم هذه الجماعة الغزية الى الشام قد كان قبل ذلك الاستنجاد بسنة أو سنتين وربما كان عبورهم اليه على علاقة بوصول الأفشين الى بلاد انطاكية وتخريبها سنة ٤٦٠ . أو بوصول ابن خان نفسه الى الشام سنة ٤٥٦ . فاذا تذكرنا وجود علاقة قربى بين ابن خان والناوكية وأن ابن أخ له كان بين زعمائهم في الجنوب فقد يكون من المحتمل أن يكون استقرار ابن خان في حلب قد مهد الطريق وسمح لبقية العشائر من قومه الناوكية بالتسرب البطىء أو الجماعي الى الشام والتوضع على الغالب في المناطق الداخلية الفاصلة بين الأراضي المرداسية والبلاد التابعة مباشرة للفاطميين حيث اتصل بهم بدر الجمالي وليس بالبعيد مع هذا أن يكون الاتصال قد تم معهم في الأناضول وأن دعوة بدر وترحيبه واستمالته لهم هي التي أكثرت من توافدهم ... واذا كنا نجهل الطريق الذى سلكوه الى الشام فمن المحتمل أن عبورهم اليه انما كان عن طريق غربي الجزيرة ومناطق الفرات[١٥٥] لتفادى المرور تحت أسوار الحصون البزنطية والمرداسية بين حلب وانطاكية الا أن يكونوا مروا قبل أو عقب تدمير الأفشين للريف الأنطاكي سنة ٤٦٠ ، أما النقطة المجهولة هنا فهي أين نزلت هذه الجموع التركمانية الناوكية من الشام ؟ أين كان منزلها الأول في الشام قبل أن تظهر في فلسطين وتقيم فيها ؟ وأين قضت السنوات المعدودة التي امتدت ما بين فترة تواردها وتجمعها وفترة ظهورها بستة آلاف فارس عند أسوار صيدا ... أرجح الافتراضات هو أنها كانت في المنطقة الوسطى من الشام بين جنوبي المعرة وحماة الى حمص . وحين استمالها الجمالي يبدو أنه « أقطعها » بعض الأراضي[١٥٦] ، على أطراف البادية ، و « سلطها » على العرب . ولعل هذه الأراضي كانت في مناطق القلمون أو شرقي حمص الرستن ...

ويبدو من جهة أخرى أن هذه الجماعة التي وصلت الى الشام كانت بزعامة اسرة خوارزمية هي أسرة أوق الخوارزمي وهم خمسة أخوة لعل كبيرهم هو قرلو ثم يأتي أتسز وشكلى وجاولى والمأمون[١٥٧] ، وهؤلاء كانوا أول من طلع من الترك الى بلاد فلسطين وفتحوها وأقاموا بها[١٥٨] . وكانت عدة المجموعة المحاربة تحت امرتهم تتراوح ما بين ١٢ ألفا الى ستة آلاف فارس [١٥٩] ولم تكن علاقتهم ببدر الجمالى الذى استقدمهم علاقة تبعية وقيادة فانهم لم يقدموا بصفة جنود مرتزقة عنده ولكن كمجموعة محاربة بدوية مستقلة أقطعها الجمالي بعض الأراضي المتاخمة للبادية . ولعله فكر حين دعاها بأن يسمح لها بالتوطن ليستخدمها كلب حراسة للمناطق الحضرية ولتكون الخصم الكفؤ للبدو ، ولتفنى القوتان احداهما الأخرى في صراع لا ينقطع ولعل المثال الذى قدمه الأمير المرداسي باصطناع ابن

خان ، وانقطاع أمل الجمالي بامكان ورود أى معونة من مصر المسحوقة سحقا بالجوع والوباء والفقر ، هما الأمران اللذان دفعاه الى استغلال هذه القوى العسكرية المتاحة في أغراض الأمن ، واذا لم يكن يجهل بالطبع ، ما في اصطناعها من خطر يشبه اللعب بالنار ، وهي قوى تركمانية سنية عباسية الولاء ووراءها بحر بشرى متدفق من نوعها ، فلعله كان يراهن على ما تحمل هذه القوى الناوكية من عداء للسلاجقة وعلى حاجتها الى مستقر . وفي هذا وذاك ما يجعلها قابلة لخدمة مصلحته ومصلحة الفاطميين الدفاعية .

وعلى أى حال فقد كان أول عمل قامت به الناوكية في بلاد الشام عملا ذا طبيعة أمنية هو قمع عدوان البدو « الذين كانوا استولوا على بدر (الجمالي) ونهبوا الشام » أما عملهم الثاني فكان سياسيا وفي خدمة القوى المحلية المتمردة على النفوذ الفاطمي وضد الشخص الذى استقدمهم واصطنعهم بدر الجمالي نفسه . فحين نزل هذا القائد في العسكر المصرى على ثغر صور يحاصرها سنة ٤٦٢ « كاتب القاضي ابن أبي عقيل الأمير قرلو ... مستصرخا له ومستنجدا به فأجابه الى طلبه ... وسار بعسكره منجدا له ووصل الى ثغر صيدا ونزل عليه في ستة آلاف فارس فحصره وضيق عليه وعلى من فيه . وكان في جملة ولاية أمير الجيوش . فحين عرف أمير الجيوش صورة الحال ووصول الأتراك لنجدة من بصور ... قادته الضرورة الى الرحيل عن صور بعد أن استفسد كثيرا من أهلها والعسكرية بها (ومنهم ابن خان) بحيث قويت به شوكتهم وزادت بهم عقدته . وتلوم عنها قليلا ثم عادوا النزول عليها والمضايقة لها وأقام عليها في البر والبحر مدة سنة احتاج أهلها مع ذلك الى أكل الخبز الرطل بنصف دينار ولم يتم له أمر فيها لاختلاف الأتراك في الشام ... »[١٦٠]

وهكذا فان جموع الناوكية اذن عملت ضمن جيوش بدر الجمالي ما بين سنة ٤٦٢ ـ ٤٦٣ على الأقل قبل أن تختلف معه ويؤدى اختلافها الى فشله في عمله الحربي ضد صور ، وفي انصراف بعض هذه القوى عنه دون شك ، وخاصة الأخوة من أسرة أوق .

أما سبب الاختلاف فكان على الارزاق ... يقول سبط بن الجوزى : « طلبوا من بدر المال وهو مقيم بعكا فقال ما عندى مال . وما سلطتكم على العرب الا أن تقنعوا بنهبهم وما أقطعتكم من الشام . فقالوا : نحن أخذنا البلاد بسيوفنا ... ثم جاؤوا فنزلوا على طبرية ... »[١٦١]

ويبدو أن الزعيم قرلو كان بعيدا عن هذا التمرد أو بقي عند بدر أو ابن أبي عقيل[١٦٢] أو أنه انحاز بجماعته الى المنازل التي ينزلونها بأواسط الشام بينما بقي أخوه أتسز[١٦٣] في جماعته في فلسطين يعمل لحسابه ، فانا نشهد سنة ٤٦٣ تأكيد

المؤرخين على ظهور زعامة جديدة في الناوكية لأتسز هذا. يقول سبط بن الجوزى " ... وفي هذه السنة ظهر استز بن أوق مقدم الأتراك الغز وفتح الرملة والبيت المقدس وضايق دمشق ... " ويقول ابن القلانسي بدوره : " فيها جمع أتسز بن أوق مقدم الأتراك الغز بالشام واحتشد وقصد أرض فلسطين فافتتح الرملة ... "

على أن أحداثا شتى قد وقعت في شمالى الشام وجنوبيه قبل افتتاح الرملة على هذا الشكل المبسط الذى تم في الواقع سنة ٤٦٤ / ١٠٧١ ــ ٢ فان الناوكية المحتشدين على طبرية " ... اقتسموا البلاد وأخذوا غلالها " أى أنهم مارسوا سياسة الأمر الواقع ، وكان الجمالي في الخرق السياسي (أو من شدة الحاجة الى النجدة) بحيث كان انقلاب القوى الناوكية عليه أسرع مما يتصور . وهذا العنصر الثالث الذى أدخله على الشام وأطلقه على العرب فيها كان طبيعيا ألا يحسم الأمر مع العرب ولكنه أوجد قوة ثالثة في الصراع الثنائي الأطراف الذى استمر أكثر من قرن بين الفاطميين وبدو الشام الكلبيين ، وكان طبيعيا أيضا وقد شعرت هذه القوة الثالثة بتفوقها على القوتين الأخريين أن تحاول بدل الاكتفاء بنهب البادية احتلال الحاضرة ونهبها واستغلالها: من ريف ومدينة . فها هنا الصيد السمين ، وهكذا سرعان ما انقلب الغز على بدر وانتهبوا منه كافة المناطق الداخلية لولايته الشامية . لم تكن لهم قوى بحرية يستطيعون معها احتلال المدن الساحلية التي بقيت فاطمية ويحميها الأسطول الفاطمي ويلجأ الى أسوارها بدر الجمالي نفسه وأما الداخل من فلسطين حتى دمشق فكان نهبا مباحا لفرسان أتسز...

ولا شك أن الجمالي أدرك غلطته وحاول تلافيها ولكن ... بعد فوات الأوان . يحكي سبط بن الجوزى أن بدرا " راسل العرب بالرجوع الى الشام وأنه معهم بنفسه وماله ، فاجتمع من العرب خلق عظيم وقربوا من طبرية . وعرف الناوكية كثرتهم فكرهوا لقاهم " . واختاروا الهجوم بدل الدفاع " فأسروا اليهم وكبسوهم (مباغتة) فأسروا وقتلوا ما شاؤوا وعادوا الى طبرية " ولكنهم لم يستقروا فيها وانما انسحبوا من بعد الى أواسط الشام " ونزلوا طرابلس "[١٦٤]

وقبل أن نتابع قصة الناوكية الطويلة بعد ذلك لا بد أن نقف عند الجماعة الأخرى السلجوقية .

٢ ــ **ألب ارسلان والجماعة السلجوقية :** اذا كانت حوادث الناوكية هي قصة الأتراك الغز في الجنوب الشامي فان قصة الغز في شمالي الشام كانت في هذه الفترة نفسها تحقق تطورا مختلفا جدا . كانت قبل سنة ٤٦٣ جزءا من قصة الناوكية نفسها، أما في هذه السنة فقد تطورت التطور الجذرى . انسحب الغز

السابقون أصحاب ابن خان من حلب منذ السنة السابقة لتأتي اليها في هذه السنة جحافل الغزو العسكرى من الغز السلاجقة وليأتي الشام ولأول مرة السلطان السلجوقي نفسه ، ولعل هذا من الأسباب التي جعلت سنة ٤٦٣ سنة انقلابية في تاريخ هذه المنطقة .

وقصة مجئ ألب أرسلان الى الشام قصة تشبه في العديد من جوانبها قصة البساسيرى . وقد أتت كالجواب عنها ولكن بعد ١٢ او ١٣ سنة ومع تبدل الأدوار نوع من تعاكس الأحداث والأحوال يجرى ، ويصبح فيه المهاجم مدافعا وبدل أن يكون المسرح بغداد يصبح المسرح القاهرة وبعد أن كان الهدف ازالة الخلافة العباسية كان المستهدف في هذه المرة خليفة الفاطميين وبدلا من اسم البساسيرى الذى نعرف، يقوم بالمؤامرة الآن : أمير من بني حمدان ...

حكاية الخلاف الداخلي ما بين البساسيرى وابن المسلمة التى دفعت هذا وذاك لالتماس العون الخارجي تكررت في القاهرة . هناك بلغ من اضطراب الوضع السياسي أن عين للوزارة وعزل ما بين سنة ٤٥٠ ـ ٤٦٦ / ١٠٥٨ ـ ١٠٧٣ سبعة وثلاثون وزيرا ولمنصب قاضي القضاة خمسة وثلاثون قاضيا[١٦٥] وبعض هؤلاء وأولئك عين وعزل عن مكانه مرات تصل الى الثلاث عشرة . وبعضهم لم يكن يكمل الشهر في عمله ، وبلغ اضطراب الوضع الاقتصادى أن قاسى الناس الشدة المستنصرية سبع سنوات شداد . بلغت غايتها شنة ٤٦٣ واستمرت بعدها وفي هذه الفترة كان اختلاف الوزير ابن أبى كدنية مع ايلدكز قائد العسكر الأتراك مع ناصر الدولة حسين بن حمدان القائد الآخر قد وصل أوجه وبلغ درجة الصدام العسكرى سنة ٤٦٢ فلما كانت الغلبة للحمداني " بعث بالفقه أبي جعفر البخارى الى السلطان ألب أرسلان يسأله أن يسير اليه العساكر ليقيم يسير اليه العساكر ليقيم الدعوة العباسية بمصر وتكون مصر له ... "[١٦٦]

ولم يكن ألب أرسلان بحاجة لمن يثير طمعه السياسي بأملاك الخلافة الفاطمية في الشام ومصر . أما وقد جاءت هذه الدعوة لتجعل حلم طغرل القديم حقيقة قريبة ممكنة فما كان أسرع ألب أرسلان للتلبية . " فتجهز من خراسان في العساكر العظيمة التي تملأ الفضاء " ووصل هو من همذان عن طريق أذربيجان الى ديار بكر ، فأرسل من هناك الأفشين في سرية وراء أريسيغي بأرض الروم ثم نزل الرها أول سنة ٤٦٣ (تشرين الأول ـ أوكتوبر ١٠٧٠) .

كان من الصعب على السلطان من الناحية الاستراتيجية (العسكرية والسياسية) أن يجاوز محور الرها ـ حلب الى الشام الجنوبي ثم مصر دون أن يحسب حساب الموقف البيزنطي من جهة ومواقف أمراء الجزيرة والشام منه . ان أى اضطراب في العلاقة مع هذه الأطراف يهدد بقطع خط الرجعة على الجيش

الغزى الذى سيكون بعيدا جدا عن قواعده الخليفة .

وكان امبراطور بيزنطة الجديد رومانوس قد دأب في السنتين المتتاليتين ٤٦١ ، ٤٦٢ / ١٠٦٩ ـ ١٠٧٠ على مهاجمة منطقة حلب عقدة المواصلات التجارية والعسكرية بين العراق وأرمينية والأناضول والشام . واستطاع في الهجومين احتلال منبج واسترداد حصن أرتاح وتأمين الطرق بين الرها وانطاكية في يده . كما قام بأعمال مماثلة لتأمين الحدود في أرمينية ولكن توغل الغز في الأناضول كان ينخر النظام في بيزنطة في الداخل . وهذا ما جعل الهدنة المعقودة بينه وبين السلطان السلجوقي اذ ذاك هدنة قلقة ، سهلة الخرق دوما ما دامت العصابات الغزية غير قابلة للانضباط . واغراء النهب عندها هو الأساس وليس مصالح « الدولة » أو مقتضيات السياسة السلجوقية .

يبدو أن ألب أرسلان كان ، بتوجيه وزيره نظام الملك قد وضع خطته السياسية وهو في الطريق الى مصر على أساس مهادنة الروم من جهة والاكتفاء من الأمراء المحليين المسلمين باعلان الولاء والطاعة من جهة أخرى دون استنزاف قواه في معارك جانبية[١٦٧] . وهذا ما يفسر تسامحه مع الرها البيزنطية حين استعصت عليه ، رغم ضخامة جيوشه وأخذه حلب المرداسية بالمطاولة والصبر حين تأبى صاحبها أن يدوس بساطه كما يعطي مهمة الأفشين الذى أرسل في أعقاب أريسيغي الهارب معناها السياسي فقد كان ألب أرسلان يريد أن يعرف مدى جدية ومتانة الهدنة القائمة بينه وبين الروم قبل أن ينطلق الى مصر . ولهذا كان ، وهو على حصار الرها ثم حلب كثير القلق في انتظار وصول خبر من الأفشين[١٦٨] ...

وعلى أى حال فان السلطان السلجوقي بعد أن احتل ملازكرد وأرجيش وبعض المواقع البرنطية الصغيرة وكلها مواقع ليس فيها دفاع بيزنطي جدى وأخذ الطاعة من ميافارقين المروانية وقف خمسين يوما (أو نيفا وثلاثين) أمام الرها البزنطية بالفيلة والدبابات والأبراج والحصار والنفاطين قبل أن يتركها متجها الى حلب ، بعد أن سير رسولا الى صاحبها محمود بن نصر المرداسي يستدعيه الى وطء وخدمته بساطه أسوة بمن وفد عليه (وقدم الولاء) من الملوك مثل : مسلم بن قريش (الموصل) وابن مروان (ميافارقين) وابن وثاب (حران) وابن مزيد (الحلة) وامير الترك والديلم (جذب أذربيجان)[١٦٩] وأسقط في يدى المرداسي من الخوف والاشفاق على ملكه من الذهاب . كان يحسب أن ما قام به في السنة الماضية سنة ٤٦٢ من الخطبة للخليفة العباسي والسطان السلجوقي واعلان السنة تدبيران كافيان لحمايته من الهجوم التركماني ولم يكن في حسبانه أن السلطان نفسه سيأتى الى البلاد وأنه سيطالبه بالخروج اليه وتقديم الخضوع ...

وقطعت جيوش السلطان الفرات في منتصف ربيع الآخر سنة ٤٦٣/ ١٩ كانون الثاني يناير ١٠٧٢ ونزلت على حلب كما قال ابن العديم " تملأ الفضاء وتضيق بها الدهناء عدة وعدة " في آخر جمادى الآخرة / مطالع نيسان ـ ابريل ١٠٧٢ " وكانت الخيام والعساكر (ممتدة) من حلب الى نقرة بني أسد الى عزاز الى الأثارب متقاربة بعضها من بعض وبعض العساكر ببلد الروم وسائر مروج الشام... "[١٧٠] كان السلطان السلجوقي أول ملك تركي يجتاز الفرات .

وأقام ألب أرسلان على حلب حوالى الشهرين وقد حاصرها اثنين وثلاثين يوما لم يقاتلها سوى يوم واحد[١٧١] بينما توالت المفاوضات والرسل بينه وبين صاحبها ورفض منه تقديم الولاء الاسمي والخضوع من بعيد دون المثول بشخصه أمام السلطان. كان ألب أرسلان يقول : وأى شيء تساوى خطبته للخليفة ولبس تشريفه مع ما سبق من شقه العصا وخروجه عن الطاعة ؟" . كانت حلب بالنسبة للسلطان مفتاح الطريق الاستراتيجى بين امبراطوريته في المشرق وبين الأرض التي يغامر الآن بغزوها في الشام ومصر . وهذا ما يفسر تشدده في رفض الولاء الشكلي دون التوثق الكامل الى ان اجبر الامير المرداسي على الخروج اليه ، وعند ذلك " أطلق له البلد وشرفه وخلع عليه وكتب له توقيعا بحلب ... " يريد بهذا أن يشعره بالتبعية الفعلية ويجعله متوليا لها من قبله وبتوقيعه وليس أميرا حاكما بقوته الذاتية يستطيع كل لحظة نقض الولاء .

على أن عددا من التطورات قد ظهرت لالب أرسلان خلال هذه الفترة الأخيرة من حملة ما بين الرها وحلب لعل أهونها أنه اكتشف أن الذى كان يشد من عزائم محمود المرداسي ويحرضه على مقاومة السلطان هو شقيق لابن خان كان يقاتل مع جند حلب . فما ان علم بمعرفة السلطان لموقفه حتى هرب الى دمشق[١٧٢] ثم عاد الى السطان فرضي عنه ... "وهذا يعنى أن الجماعات التركية التي سبقت الى الشام لن تقف موقف المعونة للجيوش السلجوقية ان لم تقف موقف الحرب بجانب القوى الفاطمية ، فهو يمشي بعد الآن في أرض معادية كل العداء . غير أن التطورات الأخرى كانت أكثر شأنا وخطرا وكان من شأنها أن تنسف مشروع الحملة على مصر من أساسه ان لم تؤجله الى فرصة أخرى وأهم هذه التطورات أمران : الأول : جيش ألب أرسلان . فان جيشا بمثل ضخامة تلك الجموع التي يسوقها السلطان كان بالضرورة جيشا موسميا تطوعيا في جمهرته وليس بالجيش النظامي . هذا لا يعني فقط أنه قليل الانضباط جدا ولكن يعنى أيضا أنه لا يمسكه مع السلطان سوى النهب المتصل والمجزى ويعنى أيضا أنه سريع الملل ويحتاج المحاربون فيه الى العودة الدورية لأهليهم . بينما لا بد من أن تكون حركته بطيئة مع ضخامته الواسعة وقد كانت دعوة ابن حمدان التي وصلت من

مصر فيما بين شعبان وشوال سنة ٤٦٢ مايس ـ تموز ١٠٧٠ قد أثارت اطماع النهب والثروة في عشرات الألوف الذين تجندوا في حملة السلطان في ذلك الصيف وكثير منهم لم يكن يحمل المؤونة الكافية ولم يكن يقدر الوقت اللازم لوصول الجيوش الغازية الى ذلك القطر القصى : وادى النيل . وقد تحركت الجيوش في ذى القعدة سنة ٤٦٢ / آب ـ أغسطس ١٠٧٠ من خراسان وهمدان ثم أذربيجان ، فاذا بها تجد نفسها في أواخر شهر شعبان سنة ٤٦٣ / حزيران سنة ١٠٧١ ، أى بعد حوالي السنة تقريبا من بدء التحرك ما تزال في مطلع الطريق الى أرض الفاطميين ، عند حلب ... وهذا ما أثار الاضطراب فيها والتبرم منذ كانت على حصار الرها . يقول سبط بن الجوزى . « ورحل (عن الرها) في الحادى عشر من ربيع الآخر (١٧ كانون الثاني ١٠٧١ طالبا الفرات لحالين : أحدهما تأخر خبر الأفشين والثاني تقاعد مع من بقي معه من العراقيين عسكر طغرل بك عن القتال وخبث نفوسهم لتأخر أرزاقهم »[١٧٣] .

ولا شك أن التبرم قد سرى في مجموعات الجيش الأخرى التي كانت سياسة السلطان في المصالحة والمهادنة وتألف القلوب على الطريق الى مصر لا تتفق مع أطماعها في النهب الواسع فكانت تتصرف على هواها دون أن يستطيع قمعها أو منعها ، وهكذا « ... كان الغز ـ كما قال سبط بن الجوزى في هذه الحملة ـ يبقرون بطون النساء ويقتلون من الاسارى من يضعف عن المشي معهم وتسرع جماعة من الغلمان الى حران ونواحيها فنهبوها وهرب الناس الى حصن الرافقة (على الفرات) » . وهكذا أيضا « ... أخربت العساكر بلد (ريف) حلب ونهبوه ووصلوا (في الغزو والنهب) الى القريتين من أعمال حمص ونهبوا بني كلاب وعادوا بغنائم عظيمة وهربت العرب (البدو) الى البرية ... »[١٧٤] « وجفل الناس من سائر الشام (الشمالى) الى حلب وحصل الرعب في قلوبهم هيبة (للسلطان) لما اجتمع اليه من العساكر الجمة والجيوش الكثيفة الضخمة »[١٧٥]

على أن هذه الصورة التي تتعلق بجمهرة الجيش ولواحقه لم تكن هي نفسها صورة الجيش السلطاني الأساسي من غلمان السلطان وقادته المباشرين الذين نزلوا على حلب نفسها ، فالذى يبدو أن سيطرة ألب أرسلان على هؤلاء كانت قوية للدرجة التي ذكر معها ابن العديم عنهم صورة أخرى مباينة تماما للأولى وفيها أنه « لم يتعرض أحد من العساكر لمال أحد ولا سبيت حرمة ولا قاتل حصنا ... وعسكره العظيم لم يأخذ عليقة تبن من فلاح الا بثمنه » ، وفي الحالين فان الجند الذين كانوا محرومين من الغنائم أو ينهبون رغم الأوامر ، والذين امتد غيابهم سنة عن أهلهم كانوا يطالبون بالعودة . وهي عادة غزية دائمة في العسكر لا يستطيع السلطان حرمانهم منها . وهكذا يبدو أن بعض الجيش السلطاني بدأ

يتسلل عائدا بالاضافة الى أن المنطقة نفسها كانت تطردهم لأن مواردها لم تكن تحتمل تموين مثل هذا الجيش الواسع ...

الثاني : ان " رسل ملك الروم وردت على ألب أرسلان ، في تلك الأثناء تعرض : رد أرجيش وملازكرد الى الروم مقابل منبج وتعقد الهدنة بين الطرفين ، وجاءه في الوقت نفسه " خبر الأفشين وعوده سالما من بلاد الروم "[١٧٦] ولكن ... بدون نجاح مهمته في رد اريسيغى الهارب ، وكان هذا يعنى نوعا من الاطمئنان المريب الذى لا يستطيع السلطان معه اتهام بيزنطة بنقض الهدنة كما لا يستطيع في الوقت نفسه المغامرة بالمسير عبر الشام حتى مصر وظهره دون حماية .

وهكذا فيما يبدو أذن السلطان مرغما لجنده أن يعودوا الى بلادهم ولعله أدرك أن نوعية جنوده ليست من النوع الذى يسمح بمثل هذه المسيرات البعيدة جدا ولذلك علق السلطان مشروعه الفاطمي برقبة قائد من أبرز قواده ، على أن يتخذ قاعدة انطلاقه من حلب وبالتعاون مع صاحبها . يقول سبط بن الجوزى : " وتقدم اسلطان الى محمود وأيتكين السليمانى المعروف بالحلبي (وكان شحنة بغداد)بالمضي الى دمشق واقامة الخطبة للقائم... " "وأن يتوجها الى بلاد دمشق والأعمال المصرية لفتحها"...

أما الب أرسلان نفسه فقد " ضجر من المقام بحلب فكر راجعا فقطع الفرات . وهلك أكثر الدواب والجمال . وكان عبوره شبه الهارب ولم يذهب من يلتفت الى من ذهب من الأرواح والدواب " ، وكان العسكر قد سبقوه و " عادوا جافلين من الشام وتلك الجفلة استهلكت أموالهم ودوابهم فطلبوا مراكزهم وبقي السلطان في أربعة آلاف غلام ... "

ويبدو أن الوفد الرومي المفاوض على الهدنة كان مجرد عملية تموية وتخدير كما أن استعلامات الأفشين لم تكن ناجحة بقدر نجاح أعماله التخريبية لأن السلطان كان لا يزال في الجزيرة حين فوجئ مفاجأة كاملة بتحرك اكبر قوة بيزنطية جمعت في تلك الفترة لمحو الوجود التركي عن خارطة الأناضول وارمينية ، وعلى رأس القوة الامبراطور البيزنطي نفسه .... معركة ملازكرد التي أعقبت ذلك (في ذي القعدة سنة ٤٦٣ / آب سنة ١٠٧١) هي أشهر في التاريخ من أن يقف عندها. وشأنها بالنسبة لموضوعنا هنا انها سمحت لألب لرسلان بعد ان فشلت حملته باتجاه الغرب أن يحصل على نصر نتيجة مغامرته فلا يعود خائبا ويحصل على نصر ضخم لم يحصل عليه مقاتل مسلم قبله . وهذا ما أعطاه سمعته الواسعة في التاريخ ، وبدل أن يتجه جنوبا الى مصر اتجه شمالا الى ارمينية . وكان يقدر الانتصار في القاهرة فانتصر في ملازكرد . وبدلا من هزيمة الخليفة العباسي ، الضال — في رأيه — هزم الامبراطور الرومي الكافر .

وهكذا حلت « ملازكرد » محل النصر المنتظر أو المرجو الى العرش الفاطمي ولقد أرضى ألب أرسلان بذلك نفسه وأفرح المسلمين ولكنه لم يحقق آمال خليفة بغداد ... وظل مشروع غزو الشام ومصر معلقا ... لأن ألب أرسلان لم يعد قط الى الغرب ولا تحدث بمشروعه بعد ذلك ... فقد قتل في السنة التالية في ما وراء النهر . أما المشروع نفسه فقد تضاءل قوة وطموحا على مقياس الأمراء الذين حملوه بعد السطان ألب أرسلان لأن ابنه ملكشاه الذى خلفه من بعده كان من الانشغال في مطالع حكمه بثورة عمه قاورت بك للدرجة التي لا يتطلع معها الى متابعة مشاريع أبيه وترك معها ابن حمدان في مصر لمصيره سنة وبعض السنة حتى قتل بدوره ، وقد تحرك محمود المرداسي مع آيتكين السليماني بالفعل نحو الجنوب « قاصدين دمشق وبلادها ــ حسب ما تقدم السلطان اليه ــ وبها يومئذ ابن منزو الكتامي » ولكن مدى هذه الحملة الضئيلة انتهى عند بعلبك (شعبان ٤٦٣ / مايس ١٠٧١) قبل موقعة ملازكرد بشهرين . وحين علم المرداسي تحرك عمه مع الروم في انطاكية ضد بلاده وهجومهم على معرة مصرين واحراقهم بعضها وقتل من قدروا عليه حولها عاد مسرعا الى الشمال . ويبدو أنه مر وهو عائد بجماعات الترك الناوكية النازلين فيما بين طرابلس الى حمص أو كتب اليهم واستنجد بهم ... لا سيما وقد تحرك ايتكين السليماني الذى ترك لمعونة المرداسي ، نحو ارمينية مسرعا لنجدة سلطانه ألب أرسلان ... فكأنما تلك العاصفة الضخمة من السلاجقة التي ألمت بشمالي الشام لم تترك بها عمليا أى أثر سياسي أو عسكرى . لم ينجم عنها أى استقرار لأولئك الجنود في البلاد . وربما تسرب بعضهم ولكن الجموع كلها ــ على ما يبدو ــ انسحبت تاركة الشام مرة أخرى بيد الناوكية خاصة ، وحدهم .

وعاود الناوكية التحرك : أول دعوة وجهت اليهم وهم على طرابلس هي دعوة امير حلب ليساعدوه ضد الروم « ... راسلهم ... أن يعودوا اليه وبذل لهم العطاء فجاؤوه ... »[١٧٨] ، جاءه « قرلوا التركي ومن (كان) معه من الأمراء بفلسطين وهم ابن أخى الملك ابن خان وأتسز بن أوق واخوته ... »[١٧٩]

وكان عطية عم محمود المرداسي قد استنجد بطريق انطاكية وبني كلاب على محمود وقصد حلبا ونهب ظاهرها ، وجاء الخبر بأسر ملك الروم (في ملازكرد) فعاد عسكر انطاكية ... » وفشل الهجوم لكن « ارتبط محمود من التركمان نحو ألف غلام وسار الباقون الى الشام ... »[١٨٠] بعد أن تفرق عسكر الروم .

وهنا بدأت فعليا أول أعمال الناوكية لاقامة حكم خاص بهم في جنوبي الشام . كانت أعمالهم من قبل لمصلحة غيرهم أما الآن وليس ثمة من سلطة قادرة على أن تمنعهم من أى تصرف ، فقد اتجهوا جنوبا في النصف الثاني من سنة ٤٦٣

الى منازل العرب في شرقي الأردن : " فنزلوا على حصن عمان بالبلقاء وفيه ذخائر العرب وأموالهم وهو معقلهم . ولم يكن عليه لأحد طاعة وهو عز العرب فاحتالوا عليه وملكوه . وملكوا (كذا) التركمان الشام بأسره . وجاؤوا الى الرملة وهي خراب ليس بها أحد (بسبب الزلازل سنة ٤٦٠ والقحط) ولا لسوقها أبواب ...
" ومن الغريب أن هؤلاء الناوكية تصرفوا منذ هذه اللحظات الأولى تصرف الحكام المسؤولين وذلك في سبيل توفير الغذاء للاستقرار والمال للضرائب ونفقات الحكم والجيش لا سيما وقد أخذت المجاعات والجفاف والأوبئة بالكثير من القوى العاملة وهكذا فقد " جلبوا اليها (الى الرملة) الفلاحين وعمروها وضمنوا (وهم الفلاحون) جزء السلطان عن الزيتون الموجود بثلاثين الف دينار وقدروا قسمة البلاد على النصف فقيل انهم باعوا الزيتون في هذه الدفعة بثلاث مائة ألف دينار وأعطوا التركمان منها ثلاثين ألفا وأخذوا الباقي ... "[١٨١] كان ذلك في مطالع سنة ٤٦٤ على ما يظهر (تشرين الأول سنة ١٠٧١) وقيمة هذا النص ليست فقط في أنه يبين مقدار الجبايات ومدى ثروة المنطقة وعطائها ونوع العملية الاقتصادية التي أنعشتها بعد الكوارث ولكن في أنه أيضا يسجل بدء ممارسة التركمان سلطة الحكم المباشر في المنطقة وبدء تكون نظام الدولة بالنسبة اليهم ، والهام بالاضافة الى هذا هو انهم لم يعتبروا انفسهم مستقلين تماما ولا تابعين للخليفة العباسي وسلطانه السلجوقي ولكنهم خطبوا للخليفة يحاولون بذلك الدخول ضمن نطاق دولته وفي اطار نظامه العام لعله يعترف بهم سلطة شرعية من قبله وان تكن سلطته قائمة على اساس الأمر الواقع في منطقة فلسطين الداخلية كما يحاولون بذلك الاحتماء بالخليفة الفاطمي من الحكام الفاطميين الآخرين وخاصة من بدر الجمالي الذى استلبوا أوسع الأقسام من ولايته .

ولعل اهم ما قام به الناوكية بعد ذلك في سنة ٤٦٤ ذاتها أنهم أرادوا توطيد " دولتهم " الجديدة بتوسيعها الى أوسع ما يستطيعون من حدود والا فيفرض نفوذهم بالقوة على الحكام المجاورين . وكانت " دمشق ذات اغراء خاص لهم كما كان بدر الجمالي العدو القريب وأما مصر الضعيفة ، في ذلك الوقت فمن الممكن أن تكون مجال نهب ... وحتى الحجاز فانه ما دام دون حماية فانه كان يغريهم بملء الفراغ ... وهكذا : " ... عاد التركمان الناوكية من الرملة الى دمشق وحصروها وأخربوا الضياع وكان بها منزو الكتامي ضامنها فصالحهم على خمسين ألف دينار ، وأعطاهم ثلاثة وعشرين درهم وسلم اخاه رهينة على باقيها ورحلوا الى عكا..." ويبدو ان هدف التركمان كان في تلك الفترة السيطرة على دمشق وعكا، وهما مركزا الشام التجاريان الأساسيان في التجارة البرية والبحرية...

وكانت دمشق يومذاك في منتهى الضعف والارهاق : خصومتها مع حكامها الفاطميين ومنهم بدر الجمالي نفسه قد دمرت أحياء كاملة منها و وفرض ابن منزو نفسه حاكما عليها " ... قهرا وغلبة من غير تقليد سنة ٤٦١ فبالغ في المصادرات وارتكب من الظلم ومصادرة المستورين الأخيار ما هو مشهور ... ولم يلق أهل البلد من التعجرف والظلم والعسف بعد جيش ابن الصمصامة منه (قبل سبعين سنة) ما لقوه من ظلمه وسوء فعله ... الى أن خربت أعمالها وجلا عنها أهلها ... وخلت الأماكن من ساكنيها والغوطة من فلاحيها " وقد احترق الجامع الأموى في احدى الفتن سنة ٤٦٢ فظل الناس يصلون فيه على الانقاض سنوات بعد ذلك ثم جاء التركمان منذ سنة ٤٦٣ ثم ٤٦٤ وما بعدها بزعامة أتسز بن أوق : " ... فضايق دمشق وواصل الغارات عليها وعلى أعمالها وقطع الميرة عنها ورعى زرعها عدة سنين في كل ربيع لمضايقتها والطمع في ملكتها ولم يزل مترددا الى أن اضطرب أمرها وخربت المنازل بها وزاد غلاء الأسعار فيها وعدم تواصل الأقوات اليها وجلا أكثر أهلها عنها ... "[١٨٢]

وحين رحل التركمان الى عكا كان " بها بدر الجمالي فحصروه وكان متقدمهم يقال له قزلى[١٨٣] (قرلو) فسكن اليه جماعة من بني كلب وامرائهم من بني القرمطى وقاربوه وخالطوه واتفق أن قزلى مات على حصار عكا فنهب التركمان من قرب منهم من العرب وأجفل الباقون . وسار قريب لقزلى من الرملة الى عكا وحصرها وأخرب سوادها وسواد صور وغيرها .وكان بدر الجمالي تأتيه الميرة في المراكب في البحر فما كان يبالي في الحصار فلما يئسوا منه ساروا الى مصر ووصلوا بلبيس وشنوا الغارات على أعمال مصر فلم يجدوا ما يأكلون ولا ما تأكل خيولهم ... " كانت الشدة المستنصرية قد أتت على كل شئ ... قبلهم .

" وقيل ان جماعة من التركمان وصلوا الى وادى القرى وتيماء ووصل منهم سبعة عشر غلاما الى المدينة وزاروا قبر النبي ... "

ويذكر ابن شداد في الأعلاق الخطيرة[١٨٤] أن أتسز تمكن من الاستيلاء على عكا سنة ٤٦٤ فملكها ولكن خروج أمير الجيوش الجمالي اليها من مصر سنة ٤٦٥ أعادها للفاطميين وطرد منها نواب أتسز وأقام بها واليا الى سنة ٤٦٦ .
ولا يبدو هذا صحيحا لأن الجمالي لم يذهب الى مصر قبل سنة ٤٦٦ حين استدعاه المستنصر .

وعلى أى حال فقد كانت هذه الأعمال هي الخطوات الأولى لتأسيس ما يمكن أن نعتبره أول مملكة تركية في الشام ، وهي مملكة أتسز التركمانية .

٤ ـ مملكة أتسز (٤٦٣ ـ ٤٧١هـ/١٠٧٠ ـ ١٠٧٨م)

هذا الزعيم الذى نجهل عنه كل شيء الا انه " خوارزمي " كما يسميه المؤرخون وأن معنى اسمه هو الذى لا اسم له أو الذى لا فرس أو حصان عنده وأنه من الناوكية وقد جاء مع اخوته وأهله الى الشام ، كان في تاريخ الشام نقطة تحول وقد جاء هو في مطلعها . ويبدو من أعماله أنه كان كثير الطموح ، بارع السياسة مهتما بعمارة البلاد ... وقاسي الانتقام في الوقت نفسه .

سجل المؤرخون ظهوره في فلسطين سنة ٤٦٣ متمردا على بدر الجمالي فما تأتي سنة ٤٦٥ حتى نراه سيد المنطقة بالقوة العسكرية . ولا شك أن تحركات الناوكية الأخيرة كانت من تخطيطه . وبالرغم من أن محاولات امتلاك دمشق أو عكا أو مصر كانت مشاريع فاشلة الا انها كانت محاولات جريئة جدا وقد قنع أتسز بعدها ـ بالصيد القريب الممكن : القدس ، فوجه همه اليها وقبل أن يحاصرها سنة ٤٦٥ كان قد قرر أمرا في نفسه هو تغيير الولاء للفاطميين ، ولا شك أنه أدرك ما لسقوط القدس من معنى ديني وسياسي خطير . فأراد رغم ضعف الفاطميين وعجزهم عن أى هجوم انتقامي أن يحمي نفسه شكليا على الأقل من مثل هذا الهجوم وأراد ، وقد صارت تحت يده مملكة من الأرض مغتصبة من الفاطميين وتحتاج الى الحماية ، أن يجعل بينه وبين السلاجقة سببا من التقارب يمهد لتلك الحماية . ولهذا وذاك قرر ـ فيما يبدو ـ العودة الى ولائه الأصلي لخلافة بنى العباس مستفيدا من استلام ملك شاه السلطان الجديد للسلطنة السلجوقية في تلك السنة . ويبدو أن الضيق والجوع والغلاء وانقطاع الأمل بالمعونة كانت وراء تسليم القدس ، وأن أتسز ألح عليها ، كما يلح على دمشق بالحصار الاقتصادى حتى " كانت الغرارة (كيس القمح) عندهم قد بلغت سبعين دينارا وكان (بالقدس) نائب للمصرى وكان تركيا فراسل أتسز التركماني وقال : أنا معكم وما أقمت على امتناع الا وقاء لمن كنت خادما له . وقد فعلت ما يجب علي ، فان أمنتى على نفسي ومالي سلمت اليك البلد ونزلت اليك وأقمت معك فأمنه وحلف له وأقطعه ضياعا اقترحها ، وفتح الباب ودخل .ونودى في البلد بالأمان وكانت فيه أموال عظيمة فلم يتعرض لها وأقام من يحفظه فجاءهم ما (لم) يكونوا يظنونه . وأقام الدعوة للقائم والسلطان وفتح الحصون المتعلقة به ... " أى بلاد فلسطين ما عدا عسقلان ، وكتب اتسز الى بغداد " بفتوح البيت المقدس واقامة الخطبة مفتخرا أنه " أحسن اليهم وبطل المصرية ولم يقاتلهم وقال : حرم الله لا أقاتله وانما أريد اقامة الدعوة الامامية العباسية والسلطانية

فأجابوه .. »[186] وشفع أتسز هذه الكتب وأخبار الخطبة والولاء ـ كالعادة المتبعة ـ بمبالغ من الأموال فرضها على نفسه للخليفة والسلطان كل سنة رمز تبعية وارتباط .

واذا كانت هذه أول مرة يفتح بها التركمان الجدد بلدا هاما في الشام لحسابهم فانها أيضا أول مرة يتصرفون بها بمسؤولية أصحاب الدولة وبسياسة من يفكر بالتقرب الى الشعب من جهة والى القوى السياسية والدينية من جهة أخرى لحماية هذه الدولة كما أن اعتراف أتسز وخطبته للخليفة والسلطان السلجوقي أكمل تبعية الشام كله لبغداد والمشرق وأقام لأول مرة ضمن اطار الامبراطورية السلجوقية وهي في أول عزها « امارة استيلاء » لأمير غير سلجوقي ، كما حول بلاد الشام الجنوبية بهذا الشكل الى دولة « حاجز » أو « صدام » ربين الاملاك السلجوقية والأملاك الفاطمية ولكن على حساب الفاطميين .

ولا شك أن انتصار اتسز وأصحابه قد فتح الآمال للتركمان الآخرين بالتحرك الى الشام ، كما أن انسحاب بدر الجمالي والى الفاطميين من عكا الى مصر في مطالع سنة ٤٦٦ بدعوة من الخليفة لمعونته على تمرد الجيوش هناك جعل الشام تخلو من أى مقاومة فاطمية وتصبح لقمة سائغة ... وهكذا نلاحظ نوعا من التدفق التركماني على الشام في سنتى ٤٦٦ و ٤٦٧ قد يكون بعضه « ناوكيا » من هذه الجماعة التي كان ما يزال قسم منها في أذربيجان اذ ذاك ويترددون على بلاد الروم حتى حاولت جوهر خاتون زوجة أريسغى الا لتحاق بهم هناك[187] ، ولكن بعضه الآخر في هذه المرة ، سلجوقي وان كان يعمل بدوره لحسابه . وظهرت بجانب اسم أتسز الذى أضحى « مقدما على جميع الترك والناوكية بالشام »[188] وأسماء اخوته ، أسماء زعماء آخرين منهم : ابن طوطو ، وابن بريق ، وابن دملاج ... والأفشين ابن بكجى أيضا ... ولعل بعضهم ممن خلفتهم حملة ألب أرسلان في المنطقة . غير أن أتسز هو الذى استقطب الاهتمام وتكاثر جيشه بمن التحق به لا من التركمان فقط ولكن من الترك القدماء الهاربين من جيوش الفاطميين خاصة بعد أن أوقع بدر الجمالي في مصر بهم وقتل زعيمهم أيلدكز في مذبحة شبيهة بمذبحة محمد على للمماليك ، يقول المقريزى : « وكان قد التحق بأطسز عدة ممن فر من مصر عند قدوم أمير الجيوش (بدر) فتقوى بهم وبمن صار اليه من أهل دمشق فرارا من حيدرة (ابن منز الكتامى) لسؤ سيرته »[190] .

وبهذه القوة المتزايدة كان التركمان يضيقون خاصة على دمشق وعكا ، واذا كانت دمشق تشترى منهم الأمن بالمال فيظهر أن التضيق على عكا وتجارتها

حتى في أيام بدر الجمالي قد اضطر هذا الوالى الى محاولة التفاهم معهم ولعله حاول شراء زعيم من زعمائهم كان يقيم في جواره هو : شكلى عن طريق الوعد بتزويجه ابنته فلما انتقل الجمالي الى مصر عاد التركمان سنة ٤٦٧ فشددوا الحصار على عكا يريدون مرفأ تجارة يتحكمون به في الجنوب الشامي ما دامت الرملة ، المركز البرى في أيديهم . وقد تولى شكلى (شقيق أتسز) حصار عكا حتى " أهلك أهل البلد بالحصار " وكان يحكم المدينة نائب عن بدر الجمالي وفيها " رجل يعرف بابن سقحا وكان رفيع المنزلة عند أمير الجيوش (بدر) يثق به في أموره، ولما خرج الى مصر أخذه معه ، فلما حصل لأمير الجيوش المال والجواهر بعث بذلك مع ابن سقحا الى عكا في البحر ليكون فيها مع أمواله وذخائره التي بها فكسر بها، المركب فغرق ، وما كان معه (ونجا الرجل) . وكان معه في المركب جماعة من أهل عكا فقال لهم ما بقي لنا وجه عند أمير الجيوش فهل لكم في أمر توافقوني عليه يكون فيه السلامة فقالوا نفعل. وكان امير الجيوش قد أخذ معه الى مصر رهاين من عكا ستين نفسا من خيارهم فقال لهم ابن سقحا ان أمير الجيوش قتلهم فقابلوه على فعله فلطم أهلهم وأقاموا المآتم ووافقوه فكتب ابن سقحا الى شكلى وكان قريبا منهم وقد أهلك أهل البلد بالحصار فقال : تعال في الليل لنفتح لك الباب فجاء بعسكره وفتحوا له الباب فدخل فقبض على فارس الدولة النائب عن بدر وابن أبي الليث القاضي[١٩٠] فضرب رقابهم واستولى على أموال بدر وذخايره وقبض على ابنه وزوجته وابنته وأحضر أبا يعلى الأقساسى وقال : أليس بدر زوجنى هذه ؟ يعنى ابنته وأنت شاهد عليه فقال : بلى ، فأحضر القاضي ولشهود وزوجها منه ودخل بها في ليلته وأخرج أبا يعلى بعد ذلك من عكا لأنه صاحب بدر .

وحين صار البلد للتركمان انتهى الحصار الاقتصادى والعسكرى عليه فعادت الحركة التجارية بسرعة " وقوى البلد واستفحل أمره ... " غير أن هذه القوة عادت بسرعة بالوبال على دولة التركمان الناشئة ، فان الخلاف ما لبث أن دب بين شكلى الذى اعتبر البلد من حقه الشخصى يقيم فيها دولة خاصة له واقطاعا يستثمره وبين أخيه أتسز[١٩١] الذى اعتبر فتح عكا اتماما لتوسع الدولة التي أنشأها في الداخل ومرفأ تجاريا لها . وكتب أتسز الى شكلى فقال : ابعث لى زوجة بدر وابنه ونصف ما أخذت من المال فامتنع عليه وخاطبه بما لم يكن خاطبه به من قبل ... "[١٩٢]

ويذكر ابن شداد أن أتسز سير الى عكا واليا من قبله فلم يجب منكلى (شكلى) الى تسليمها اليه . وقال : أنا أخذت المدينة بسيفى ، فنازعه الوالى فقتله وخلع طاعة أتسز وخرج الى طبرية فولى عليها من قبله ..." [١٩٣] . ولم

يكتف بهذا ولكنه أراد اقامة حلف ضد أخيه بالاتفاق مع البدو الكلبيين ومع والى دمشق وهكذا " صاهر ابن منزو صاحب دمشق على أخته وراسل بني كلب وتقوى بهم واستحلفهم وأخذ رهائنهم وأعطاهم رهائنه . وكان مسمار أخذ مقدميهم معه (في زيارته لعكا)[١٩٤] . ويبدو أن شكلى فاوض الجمالي في مصر وأصلح أمره معه وأقام الخطبة في عكا للخليفة الفاطمي ، أى أنه دخل ضمن اللعبة السياسية المحلية تماما وصار واليا من ولاة الفواطم وقد جاءته من مصر وعود بالأموال " والمعونات ان هزم أتسز في فلسطين . فان ابن منزو حاكم دمشق كان مغربيا كتاميا فاطمي الشعار وكان بنو كلب على الولاء للقاهرة حتى ان زعيمهم حسان بن مسمار الكلبي " بنى (سنة ٤٦٦) قلعة صرخد وكتب على بابها أمر بعمارة هذا الحصن المبارك الأمير الأجل مقدم أمر العرب عز الدين فخر الدولة عدة أمير المؤمنين يعنى المستنصر لأنه كان في خدمته وذكر اسمه ونسبه... "[١٩٥]

وهكذا فان أتسز وجد نفسه مطوقا من الشمال والجنوب وبدلا من أن يتوجه الى البدو أو دمشق توجه الى رأس الحلف شكلى . (" وفي رمضان سنة ٤٦٧ / نيسان – مايس ١٠٧٥) التقى أتسز التركماني صاحب القدس بشكلى في الساحل فهزمه فجاء شكلى منهزماً الى رفنية (في الشمال) ولعل هناك بقية منازل التركمان ، ونزل أتسز فحاصر دمشق ... "[١٩٦]

ولكن شكلى ، كان من الطموح ، بحيث لم تمنعه الهزيمة من متابعة اللعبة السياسية العسكرية الى آخرها ... ولما كان لا يأمل كثيرا بمعونة عسكرية فاطمية ولا يستطيع الأمل بعون سلطانى سلجوقي مع ولاء أتسز للسلطان فانه وجد الطريق الى معونة " سلجوقية " ومعادية للسلاجقة في وقت واحد : وكان أولاد قتلمش السلجوقي هم هذه المعونة.

كانت علاقات قتلمش مع ابن عمه السلطان ألب أرسلان قد وصلت في مطالع سنة ٤٥٦ / ١٠٦٣ درجة العصيان العلنى وسار السلطان فسحق جيوش قتلمش قرب الرى . وانجلت المعركة عن مصرعه[١٩٧] ورسم هذا المصرع أول خطوط القطيعة بين الفرعين السلجوقيين الكبيرين وسوف يرسم الخط الثاني والنهائي حين يقتل تتش بن أرسلان سليمان بن قتلمش فيما بعد عند حلب سنة ٤٧٨ / ١٠٨٥ . وفيما بين هذين التاريخين كان العداء والتباعد هو طابع العلاقة بين السلاطين وأبناء عمهم الذين انسحبوا يفتشون عن ملك بعيد خاص بهم في الأناضول . وقد أنشأوه وكانوا : سلاجقة الروم . وبالرغم من أن المؤرخين المتأخرين لهؤلاء السلاجقة يعطون تحرك أولاد قتلمش طابع الشرعية وانهم انما اقطعوا الاناضول من قبل السلطان في اطار سياسة سلجوقية تعطى أمراء البيت

السلطانى اقطاعات مناطق الحدود البعيدة ليعيشوا عيها ويتفادى السلاطين مؤامراتهم وأطماعهم لو بقوا في مقر الدولة ويضمنوا في الوقت نفسه أحسن حكم عسكرى لتلك المناطق ، بالرغم من نلك فان الواقع هو أن أبناء قتلمش هؤلاء قصدوا الأناضول في نوع من الهرب العدائي لأولاد عمهم في ايران ، وعملوا فيها مستقلين تمام الاستقلال عن أى ارتباط معهم ولهذا لم يكن غريبا أن يفكر شكلى بالاستنجاد بأولاد قتلمش ضد أتسز السلجوقي السلطاني ولم يكن غريبا بالمقابل أن يستجيب هؤلاء الأولاد للدعوة وأن يتقبلوا كيدا بأولاد عمهم اتباع بغداد اقامة جسر من العلاقة مع الخلافة الأخرى في القاهرة . وهكذا كما يقول سبط بن الجوزى : " ... كتب شكلى الى ابن قتلمش التركي وكان في أطراف الروم يحثه على قصد الشام لينضاف اليه ... وكان في كتاب شكلى ... أنت من السلجوقية وبيت الملك فاذا أطعناك وكنا في خدمتك تشرفنا بك وافتخرنا . وأتسز ليس من بيت الملك ولا نرضى به ولا بأتباعه ولا طاعته . وهون عليه أمر أتسز والشام وقال : وقد جاءتنا من مصر وعود بالاموال اذا كسرناه وأبعدناه عن الشام ... "ونجحت محاولة الحلف السلجوقي – التركماني – الفاطمي . وقد كان في الدعوة من الاغراء ما يدفع الى سرعة التلبية " فجاء ابن قتلمش (الى شكلى) فاجتمعا (عند رفنية في الغالب) وسارا الى طبرية (عن طريق بعلبك وسهل البقاع) وأظهروا طاعة صاحب مصر ... فسار اليهم أتسز من القدس وخرجوا اليه وساعدهم أهلها . واقتتلوا فهزمهم أتسز وقتل شكلى وولده صبرا بين يديه . وأطلق أباه لأنه كان شيخا كبيرا ونهب طبرية وقتل أهلها وأسر ابن قتلمش وأخا له صغيرا[١٩٨] وابن عمه . وكان لابن قتلمش سبع سرارى تركيات فقالت احداهن وكانت حاملا منه : تدعنا يفضحنا الاعداء ؟ قال : ما أصنع قالت اقتلنا جميعا فقتلهن . وسلم والد شكلى وجاء الى عكا فأغلق أهلها الباب في وجهه . وكاتبوا جوهر المدني خادم صاحب مصر وكان مقيما بصور بالقدوم عليهم فجاء وسلموا اليه البلد وأعادوا الخطبة (التي كان قطعها اتسز) لصاحب مصر ... "[١٩٩]

ويروى ابن شداد فيما يتعلق بوالد شكلى رواية أخرى تقول : ان والد منكلى (شكلى) كان نائبا عنه بعكا لما خرج عنها (وهزم أمام أتسز الهزيمة الأولى) فأخذ حريم أمير الجيوش وامواله وركب في البحر وسار الى أمير الجيوش بمصر فأقبل عليه وولاه عكا الى أن عصى فيها سنة ٤٨٣ فخرج اليه نصير الدولة الجيوشي فحاصره وضايقه الى أن تسلمها منه ... "[٢٠٠] وقد يكون هذا صحيحا ولعل والد شكلى التحق به في هذه الواقعة عند طبرية فلما أطلق عاد من جديد الى مصر فبقى فيها لأنا سنراه يقوم ببعض الدور في المستقبل حين يهاجم أتسز مصر سنة ٤٦٩ .

ويبدو أن أتسز كان قد بعث يستنجد على هذا الحلف الخطر بالسلطان السلجوقي ، فانا نلاحظ أنه قد وصل الشام ، في هذه الفترة ، ثلاثة آلاف من الغلمــان من عســكر ملك شاه الى آتســز وكان كاتبهــم (للتجنـد في عسكره)... »٢٠١

وعلى أى حال فان حلف آل قتلمش مع شكلى والفاطميين كان ثانى تدخل من البيت السلجوقي في شؤون الشام بعد محاولة ألب أرسلان وان تكن محاولة من قبل الفرع المنشق منه . وأذا أجهضت المحاولة الأولى عند حلب فان الثانية أجهضت في جنوبي دمشق عند طبرية وهو أعمق مدى بلغته حتى الآن السنابك السلجوقية

على أن التدخل القتلمشي في الشام لم ينته بأسر الأميرين لأن الدعوة كانت قد فتحت أعين الاخوة على هذه المنطقة في جنوبيهم وأغرتهم باغتصابها كلها لا سيما وأن فيها قطعة من أملاك بيزنطة وامارات تتبع السلطان ومن المحتمل أن هؤلاء الاخوة وضعوا مشروعهم على أساس احتلال أراضى الشام التابعة للسلطان كلها ، فتوجه واحد منهم الى الجنوب يقضي على أتسز ثم « ....ورد أخ له كان في الروم الى حلب فحصرها . وكان محمود بن الروقلية قد مات وملك ابنه نصر فخرج الى ابن قتلمش في أحداث حلب فقاتله ودفعه بعد أن نهب أصحابه وقتل منهم جماعة .. وأراد احراجه باثارة السلطان وقضية الولاء له ولأنه استكثر أن يكون سلجوقي ضد ملك السلاجقة » وقال : أنا نائب السلطان (ملكشاه) فان كنت مطيعا للسلطان فارحل عنا وأرضاه بمال فرحل ... « متجها نحو الجنوب » ونزل بأرض سلمية وراسل أتسز في معنى أخيه « (الأسير) فكرر أتسز لعبة المرداسي السياسية ، وقال :" قد راسلت السلطان بسببه وأنا متوقع الجواب فان رسم أنفذته اليه وان رسم شيئا آخر كان... » وفشلت محاولة تحرير الأميرين الأسيرين ، اذ يبدو أن ابن قتلمش خاف أتسز وأدرك مدى التورط في المعاداة العلنية لابن عمه السلطان وأخوه أسير عنده فآثر الانتظار وعدم المغامرة « فقصد انطاكية وكان في قلبه من أحداث حلب حيث قاتلوه ونهبوا أصحابه وقتلوا منهم جماعة وحصر انطاكية وقرر عليهم عشرين الف دينار في كل سنة ليحمى سوادها من الغارات ... واتفق أن طائفة التركمان الذين جاؤوا طالبين أتسز نزلوا على حلب وخرج اليهم عدد كثير من أهلها ، فسار اليهم ابن قتلمش من باب انطاكية الى حلب فأخذ القافلة وقطع أثافيهم (أناملهم ؟) تشفيا بأهل حلب وقاتل من التركمان من قاتله ورجع فأقــام على باب أنطاكيــة الخفــارة والحماية... »٢٠٢

وفي مطالع السنة التالية (في جمادى الآخرة سنة ٤٦٨ / يناير ١٠٧٦)

ورد رسول أتسز ومعه ولد قتلمش المأسور (الى بغداد) ومعه أخ له صغير فتسلمهما سعد الدولة الكوهرائي وبعث بهما الى السلطان ... وانتهى كذلك مشروع آل قتلمش في بلاد الشام .

كانت دولة أتسز الشامية تمتد الآن ما بين حمص حتى أقصى فلسطين ولكنها لا تملك الساحل لأنه ما بين طرابلس (وصاحبها ابن عمار) حتى عسقلان كان للفاطميين كما لا تملك دمشق التي بقى حاكمها ابن منزو متماسكا فيها رغم الحصار الاقتصادى والغارات التي لم تنقطع خمس سنوات متوالية عليها . ويبدو أن أتسز الذى صار يسمى عند المؤرخين والناس بصاحب الشام أخذ يمارس في تلك الفترة سلطات السيد المطلق على الشام ، باسم السلاجقة ، وتحت مظلتهم الواقية لأنه اتخذ لنفسه لقب « الملك العظيم » وأنطلق الى الشمال لا ليحدد مناطق النفوذ بينه وبين المرداسيين ولكن ليفرض نفسه عليهم وعلى تركمان رفنية الذين أيدوا أخاه شكلي وأعانوه وهكذا : « وصل أعمال حلب القبلية (في رجب سنة ٤٦٨ / فبراير ١٠٧٦) ونزل العاصى على الجلالى وجفل أهل الشام بين يديه ... فنهب كل ما قدر عليه وملك رفنية وسلمها الى أخيه جاولى . وترددت سراياه في جميع الشام (الشمالي) وتمادى فساده ... » في محاولته لا لحاق الدولة المرداسية به .

« وراسل نصر بن محمود صاحب حلب » « وترددت الرسل بينهما » « وقد طمع (أتسز) في شئ من أموال أبيه التي خلفها وطالبه بتزويج أخته وتسليم البلاد . واستقر الأمر على أن بعث له خمسة عشر ألف دينار ... » وعاد أتسز ولكن بعد أن ترك أخاه جاولى في رفنية وترك له سياسة « يعتمدها مدة مقامه وهي : اساءة المجاورة وشن الغارات والأذى في الاعمال القبلية من عمل حلب ... »

ويظهر أن نصرا المرداسى كان قد اقتنع بضرورة اصطناع بعض الترك للدفاع عن حلب ضد الأطماع المتوجهة اليها من آل قتلمش في الشمال ومن أتسز في الجنوب . وهكذا استقدم مجموعة تركمانية منذ سنة ٤٦٧ على ما يظهر ، دخل اسم صاحبها بدوره ولكن كالشهاب العابر السريع في تاريخ الشام هو : أحمد شاه الذى ادعى أنه شيباني ... وقد جرب نصر هذه القوة لأول مرة في استرداد منبج من البيزنطيين ونجح في ذلك (صفر ٤٦٨ / ايلول ١٠٧٥) فلما ألح جاولى الخوارزمي بالغارات على أرض حلب جهز نصر عسكره ومقدمهم أحمد شاه لدفعه ، فلما التقوا بأرض حماه كسره جاولى وغنم عسكره ... وعاد أحمد شاه (الى الوراء) وجمع اليه من سلم من عسكره الذين عولوا على العودة الى حلب وقال : ما بقي لنا وجه الى حلب بعد هذه الكسرة . فان راجعتم الحرب وأظفرنا

الله بهم كان الأمر لنا بحكم الظفر وان أبيتم ذلك فأنا أسير الى الفرات وأستدعي أهلي . فمالي وجه ألقى به نصر بن محمود وانما أعطي ومنح وأكرم لمثل هذا الموقف ... فأجمعوا أمرهم على معاودة الحرب فأسرى من موضعه الى عسكر جاولي وكبسه فاستثار منه ونهب عسكره وأسر منهم ما يزيد عن ثلاثمائة نفس وسيرهم في الوثاق الى حلب مشاة وهرب جاولي الى رفنية وسار بعد ذلك الى أخيه في دمشق...»[٢٠٣]

ولم يكن اتجاه أتسز نحو الشمال بالاتجاه الهجومي وحيدا فانه اتجه الى الساحل أيضا . ولعله أعتقد أن ملك الطرق التجارية الداخلية في وسطها وجنوبيها سوف يعطيه الفرصة للتضيق على الموانئ الشامية الغنية وأبرزها ـ اذا استثنينا عكا ـ طرابلس وصور ، وقد نازل أتسز المدينتين « وأخذهما خفارة » . اشترتا الأمن منه بالمال بمنح الغز ميزات تجارية . وعقد معهما أتسز « هدنة » على هذا الأساس المالي التجارى . ولا شك أن أتسز استغل برودة العلاقات بين المدينتين ومصر للتضييق عليهما دون عكا التي كانت تتبع مباشرة بدر الجمالي وقد أصبح الرجل الآن وزير مصر ورجلها الأول . وتتجلى برودة العلاقات أو عدائيتها في المؤامرة التى دبرها الجمالي في تلك الفترة نفسها للخلاص من ابن عمار صاحب طرابلس الذى كشف المتآمرين وقتل بعضهم ونفى الباقين... [٢٠٤] وهكذا كانت المدينتان متروكتين لمصيرهما فاضطرتا لمهادنة أتسز بالمال والمعاملة الطيبة ولفتح ابوابهما للتجارة مع الداخل « فكانت الخطبة المصرية بهما لم تتغير والغز يدخلون الى صور فيبيعون ويشترون ولا يقيمون فيها . وعلى هذا كانت الهدنة ... »[٢٠٥]

وحين عاد أتسز من الشمال والساحل الى دمشق كانت هذه المدينة قد أضحت كالثمرة الناضجة على وشك السقوط . ويظهر انه تعمد في هذه السنة ٤٦٨ الا لحاح على حصار دمشق لتكون نوعا من التأكيد لسلطانه المطلق على الشام وعربون ولاء وقوة يتقدم به الى السلطان السلجوقي الذى كان ، في تلك الفترة يرسم لهذه المنطقة في مشاريعه مصيراً آخر ... ويبدو أن ملكشاه ، بعد أن اطمأن الى سلطنته وتخلص من ثورة عمه قاورت وغيره عاود التفكير في مشروع أبيه بغزو الشام ومصر والغاء الخلافة الفاطمية ، واذا لم يفكر بذلك حين وصله ولاء أتسز فقد فكر فيه دون شك حين وصله استنجاده به ضد أبناء قتلمش . فاختار السلطان أن يقوم على هذه الجبهة القصية أمير سلجوقي لصيق به وبالأسرة السلطانية ، يدخلها ضمن نطاق الامبراطورية وتحت حمايتها في الوقت الذى ينشغل بها هذا الأمير نفسه عن التفكير بالشغب على السلطان أو مزاحمته ، ويؤمن فيها بين هذا وذاك الاقطاع الواسع لجزء من الجيش السلجوقي الغزى

المتزايد دون انقطاع ... وكانت ملامح من هذه السياسة الارضائية قد بدأت تظهر في تصرف السلاجقة : فقد أعطى تكش (أخو السلطان) تركستان منذ عهد ألب أرسلان أبيه ، واعترف لأولاد قاورت بحكم كرمان ، وترك لأبناء قتلمش التصرف في الأناضول ، وهذه بلاد الشام الآن يأتي دورها فتعطى لأحد أشقاء السلطان : تتش . يقول سبط بن الجوزى : " وفيها (في سنة ٤٦٨) عزم السلطان على أن ينفذ أخاه تاج الدولة (تتش) الى الشام ... " وكان تتش هذا ما يزال في العاشرة من العمر فهو من مواليد رمضان ٤٥٨[206] ولكن له ، على الطريقة السلجوقية ، مجموعة من المماليك قواد الجيش الذين يتولون تربيته وتدريبه العسكرى ، وشن الحملات باسمه ... وسرت الأخبار بما عزم عليه السلطان " ... وكان نظام الملك (الوزير الا تابك الذى يقود الدولة) لا يؤثر ذلك . وبلغ أتسز الخوارزمى صاحب الشام فكتب الى السلطان : أنا الخادم الطايع النائب في هذه الأعمال التي افتتحتها وما أحلته بما أقدر عليه من حمل الأموال . وقد بلغنى ما عليه من العزم من انفاذ الأمير تاج الدولة تتش . وما ها هنا من يقتضى استعمال ذلك وابعادى عن الخدمة ونصرى في جملة الأعداء والأضداد . وذكر كلاما طويلا هذه معناه وقال : وانا بازاء من بمصر من خليفة وجند ورجال ودولة وأموال لا بد لمن يقاومها أن يجعل نفسه في عدادها ويتجمل كجمالها ... ولما وقف نظام الملك على كتابه بعث اليه بقباء السلطان وقلنسوته وفرسه وسيفه وترسه تشريفا له واكرامه وطيب قلبه ..."[207] ويبدو أنه مع الهدايا قد وعد بدفع ثلاثين ألف دينار في السنة للسلطان[208] .

وإذا صرف النظر عن المشروع فانه لم يمت بل نام بعض الوقت ، ولكنه بين هذا وذاك قد ربط لأول مرة ما بين أسم تتش والشام برباط سوف يستمر اكثر من ثماني سنة مقبلة . أما أتسز فقد قدم عربون شكر وقوة على هذه التشريف وهذه الثقة كتاب بشرى بفتح دمشق صلحا : وصل الكتاب بغداد والسلطان في ذى الحجة سنة ٤٦٨/تموز ١٠٧٦ .

كان أتسز قد دخل المدينة في ذى القعدة (حزيران)بعد دفعات من الحصار كان آخرها :

- حصار ما بين يوم الثلاثاء التاسع من رمضان ٢٨/٤٦٧ نيسان ١٠٧٥ ويوم الثلاثاء ١٥ شوال منها/٣ حزيران .
- وحصار ما بين السبت سلخ ذى الحجة من تلك السنة/ ١٥ آب ١٠٦٧ انتهى في ٤ صفر ١٨/٤٦٨ ايلول وذلك عقب هرب والي دمشق ابن منزو عنها .
- وحصار أخير بدأ في شعبان ٤٦٨/ آذار ١٠٦٨ واستمر حتى استسلمت الاثنين ٢١ ذى القعدة من تلك السنة/ ٢٦ حزيران ١٠٦٨[209]

يوم سقطت دمشق كانت من الضعف والارهاق بالدرك الذى لا مزيد عليه . فقد سحقها رعي زرعها كل ربيع وتدمير انتاجها الزراعي سنة بعد سنة وقطع طرق التجارة عنها "واتصال الحصار وغلو الأسعار وموت أهلها (وجلاؤهم) وأن الكارة من الطعام (القمح) بلغت نيفا وثمانين ديناراً مغربية وبقيت على ذلك أربع سنين والكارتين ونصف غرارة بالشامي وهذا شيء كثير : الغرارة بمائتي دينار عنها ثلاثة آلاف درهم ..."[210] "وكان أتسز قد أخرب ظاهرها (دمشق) خرابا كليا وضيق على أهلها" "حتى جلا أكثر أهلها" وعدم تواصل الأقوات اليها . "فغلت الأسعار ... وأكل الناس الميتات" "ولم يقدر على شيء من الأقوات ..."[211] يضاف الى هذا أن دمشق كانت تعانى الأمرين من حاكمها الفاطمي الظالم ابن منزو المعلى بن حيدرة الكتامي سنوات طويلة حتى اضطر للفرار منها أواخر سنة ٤٦٧ فر منهزما الى بانياس ثم خرج عنها الى صورة فأقام بها مدة ثم حمل الى مصر فقتل بها ...[212] مستهل المحرم ٤٦٨ وكان قد استقر أمر الناس في البلد على تعيين قائد جيش المصامدة : زين الدين انتصار بن يحيى واليا عليهم . وقد فضلوا البقاء في يد الفاطميين رغم ما بينهم من احن وتاريخ طويل في الخصومة على الوقوع في أيدى التركمان وهكذا "اتفق رأيهم على تقوية نفسه على الاستيلاء عليها ودفع من ينازعه فيها" وذلك لسداد طريقته وحميد سيرته لكن سياسته على حسنها لم تنفع في دفع غوائل الحصار التركماني المفروض وتدمير المنطقة "فاشتد غلاء الأسعار في دمشق وعدمت الأقوات ونفذت الغلات – كما يقول ابن القلانسي والسبط – واضطر الناس الى أكل الميتات وأكل بعضهم بعضا..."[213]

وزاد في المشكلة أن الخلاف وقع بين المصامدة ، جيش الوالى الحاكم وبين الأحداث ، وهم الميليشيا الشعبية وجيش البلد المحلي مما شل القوة الدفاعية عن البلد ... واذا حاول أتسز استغلال هرب ابن منزو في آخر سنة ٤٦٧ لأخذ المدينة فلم يفلح واضطر للمسير الى الشمال ومواقعة رفنية وغيرها فانه حين عاد من الشمال وجد كل الظروف مهيأة لانتصاره على دمشق "وعرف بما آلت اليه الحال وكان متوقعا لمثل ذلك فنزل عليها وفرض الحصار حوالى ثلاثة أشهر ولم يجد أهلها مناصا من التسليم . "وقادت الضرورة – كما يقول ابن القلانسي – الى تسليمها اليه بالأمان وتوثق منه بوكيد الايمان ..." و "عوض انتصار بن يحيى عن دمشق بقلعة بانياس ومدينة يافا من الساحل .

على أن اتسز الذى أرسل الى الخليفة العباسي والسلطان يبشرهما بفتوح دمشق صلحا في ٢١ ذى القعدة وخطب بها يوم الجمعة لخمس بقين منه لبنى العباس والسلاجقة ، وسكن دار الامارة فيها داخل باب الفراديس ، لم يعتبر

دخوله اليها بالصلح والأمان فما ان حصل بها حتى "نزل بأهلها منه قوارع البلاء بعد ما عانوه من ابن منزو... و"اشتداد البلاء كان من انزال العسكر في دورهم واخراجهم منها واغتصاب املاكهم والقبض لها واستعمال سوء السيرة" والمعاملة "بحيث لم يبق مع أحد منهم درهما" "واعتقل من وجوههم جماعة وشمسهم بمرج راهط حتى افتدوا أنفسهم منه بمال أدوه اليه ورحل جماعة منهم عن البلد الى طرابلس الى أن أريحوا منه ..."٢١٤

غير أن أتسز ، بعد هذه الجولة الانتقامية ما لبث أن اعتبر دولته قد كملت بأن وجدت أخيرا العاصمة . وهكذا فقد اتجه أتسز ـ كما كان اتجه بعد احتلال الرملةـ الى عمارة البلد ، وقد حاول ذلك في ناحيتين كل منهما عاجلة :

الأولى : الناحية الاقتصادية وأهمها اعادة المزارعين للأرض وتنشيط العمل الزراعي ليتوفر الدخل والمال ، وقد "نظر في عمارة البلاد لا في عمارة دمشق" كما يقول سبط بن الجوزى ـ أى في عمارة الريف لا المدينة و "ونظر بما يعود بصلاح أعمالها ووفور استغلالها ، وأطلق لفلاحى المرج والغوطة الغلات للزراعات وألزمهم الاشتغال بالعمارات والفلاحات فصلحت الأحوال ... "لا سيما بعد أن فتح طرق التجارة لها "وتواصلت من سائر الجهات الغلات ورخصت الأسعار وتضاعف الجذل بذلك وطابت نفوس الرعية وأيقنوا بزوال البؤس والبلية ..."

الثانية : دفاعية عسكرية لأن الحكم الفاطمي لا يمكن أن يسلم بسهولة بفقد دمشق وقد رأى أتسز أنها دون قلعة تحميها وأن السور وحده لا يكفي للدفاع ضد الفاطميين وأن الحصن القديم الذى بني أيام المقدسى منذ قرن من طين٢١٥ وكان موضعه بباب البلد الذى يقال له باب الحديد قد انتهى أمره "ولم يعد فيها معقل يلتجئ اليه المسلمون ـ كما يقول ابن كثير ـ من العدو" فأسس في دمشق "القلعة" وهو أول من اسسها في مكان حصن روماني قديم . وكان ذلك في ابتداء سنة ٤٦٩ أى بعد شهر وبعض الشهر من دخوله دمشق . وقد بناها في مكانها الذى ما زالت فيه الى يوم الناس هذا فارتفعت بعض ابرجتها في عهده ولكنه لم يطل به العهد ليتمم بناءها فأكملها ، من بعده ذلك الذى ورث مملكته وهو : تتش بن الب ارسلان . وأحسن عمارتها وابتنى بها دار "رضوان" (على اسم ابنه) للملك ... قبل أن تدخل على القلعة تعديلات واضافات في عهد نور الدين ثم في العصر الأيوبي ثم المملوكي٢١٦

ويبدو أن أتسز ، بعد احتلال دمشق ، أراد متابعة العمل العسكرى ـ السياسي الذى بدأه لقطع الطريق على مشروع السلطان بارسال أخيه تتش الى الشام. وتصور أتسز أنه من القوة من جهة وأن مصر من الضعف من جهة أخرى بحيث يكفي تحريك قواته اليها وهزيمة بدر الجمالي فيها ليحقق المشروع الضخم

الذى كان حلم كل من طغرل وألب أرسلان ومات السلطانان قبل تحقيقه . ولعل اتسز أكثر من هذا مر في خاطره ما مر في خاطر صلاح الدين بعد قرن من ذلك وهو اتخاذ مصر ملجأ وملكا له فيما اذا حاول السلاجقة الاستئثار بالشام ... وعلى أى حال فانه ليس ثمة ـ عدا هذه الدوافع ـ ما يبرر سرعة تحرك اتسز باتجاه مصر بعد أخذ دمشق بثلاثة أشهر فقط ، الا أن يكون قد وجد أن الهجوم هو أحسن وسائل الدفاع وأنه ما دام لا بد من أن يأتى الجمالي بجيوشه اليه ، فمن حسن العمل مبادرته بالهجوم واجهاض حملته . على أن الذى هون أمر مصر عنده وزاد في اغرائه ودفعه للسرعة انما هو ابن ايلدكز ، القائد التركي الذى كان يزاحم بدرا الجمالي وهرب من المزاحمة يستنجد بأتسز في دمشق تماما كما سوف يهرب الوزير شاور بعد قرن من الزمان فيستنجد بنور الدين في دمشق ضد مزاحمة الوزير الآخر : ضبرغام ... يقول المقريزي : "كان أكثر الأسباب الحاملة لأتسز على ذلك أن ابن يلدكوش لما فر من أمير الجيوش وصار الى بلاد الشام اتصل بأطسز وقدم اليه ستين حبة لؤلؤ مدحرج زنة كل حبة ينيف على مثقال . وحجر ياقوت زنته سبعة عشر مثقالا وتحفا كثيرة مما كان قد وصل الى أبيه من خزائن المستنصر في سني الشدة وأغراه بأهل مصر وحثه على قصد البلاد وهونها عنده فقوى طمعه ..."[٢١٧]

وهكذا جمع أتسز كافة القوى التركمانية التي يستطيعها وما انضاف اليه من أتراك مصر الهاربين ، وقوى أخرى كردية وثالثة بدوية من قبائل كلب بقيادة بدر بن حازم الكلبي وسار في نهاية صفر سنة ٤٦٩ / أول أكتوبر ١٠٧٦ على طريق الساحل الى مصر . وخرج معه حتى بعض الشعراء مثل حمزة بن علي العين زربى الذى قتل هناك في المعركة[٢١٨] . كما كان معه من الأموال والثياب مالا يحصى ومن الدواب والسائمة الالآف كشفت عن كل ذلك هزيمته ، اذ غنم الجمالي منه ثلاثة آلاف حصان وعشرة آلاف صبي وجارية . وما لا يحصى من الأموال والثياب والأمتعة والأسارى التي أقاموا مدة شهر رجب يحوزونها ..." . المعركة التي قامت هناك لا تهمنا تفاصيلها[٢١٩] هنا ولكن يهمنا منها أن بدر الجمالي لقيه قرب القاهرة واستطاع أن يفرق عنه بعض التركمان من أصحاب شكلى (بوساطة والد شكلى الموجود عنده) والقوى البدوية الكلبية وأن يجند ضده كل شيء حتى الحجاج العابرين ويذيقه هزيمة منكرة اضطرته للهرب[٢١٠] (٢٢ رجب ١٩/٤٦٩ شباط ١٠٧٦) بعد أن ترك بين القتلى أخاه مأمون كما قطعت يد أخيه الآخر ، وعاد مع الفل هاربا "في نفر يسير فلما وصل غزة ثار أهلها به وقتلوا جماعة ممن كان معه فهرب الى الرملة فخرج اليه أهلها فقاتلوه وقتلوا بعض من كان معه فهرب الى

دمشق في بضع عشرة نفسا . فخرج اليه ولده ومسمار أحد أمراء الكلبيين وكان قد استخلفهما في دمشق في مائتى فارس من العرب» ونترك لسبط بن الجوزى هنا أن يتابع الرواية ليكشف مدى الجهد والارهاق اللذين كانت تعانيهما المنطقة ويقول : «فنزل بظاهر دمشق في مضارب ضربها له مسمار (الكلبي) وخرج اليه أهل البلد فخدموه وهنأوه بالسلامة وشكروه وشكرهم وأطلق لهم خراج تلك السنة . وأحسن اليهم ووعدهم بالجميل فقام واحد منهم من الأعيان فقال : أيها الملك العادل (وبه كان يخاطب ويخطب له) قد حلفت لنا وحلفنا لك وتوثقت منا وانا والله أصدقك وأنصحك قال : قل . قال : قد عرفت أنه لم يبق في هذا البلد عشر العشر من الجوع والفاقة والفقر والضعف ولم يبق لنا قوة . ومتى أغلقت أبواب هذه البلد من عدو قصده ورمت منا منعه أو حفظه ، فان كنت مقيما بيننا فنحن بين يديك مجتهدون ولك ناصحون وان بعدت عنا فلا طاقة لنا بالقتال مع الفقر والضعف فلا تجعل للعدو سببا لهلاكنا ومؤاخذتنا . فقال صدقت ... وما أبعد عنكم ولا اخليكم من عسكر يكون عندكم ...» ٢٢١

واقام أتسز بدمشق وارسل يجند الجند التركمان «من بلاد الروم ولم يستخدم غيرهم» في محاولة ترميم للقوى ولكن أصداء هزيمته كانت من القوة بحيث نجم عنها نوعان من رد الفعل :

أحدهما داخلي : تجلى في الثورة العامة عليه ، فاذا كانت دمشق التي تكره أتسز وتدعو عليه وتشمت بهزيمته٢٢٢ قد صانعته لوجوده في داخلها ولا قوة لها «وأمل (أهلها) مع هذه الحادثة سرعة هلاكه وذهابه» فان بلاد الشام الأخرى قد اعتبرت الهزيمة نهاية له . واذا قاتله أهل غزة والرملة وهو عائد فان كافة الشام الجنوبي عصى على أتسز «وأعادوا خطبة صاحب مصر في جميع الشام وقام بنلك المصامدة والسودان . وكان أتسز وأصحابه قد تركوا أموالهم بالقدس فوثب القاضى والشهود ومن بالقدس على أموالهم فنهبوها وقسموا التركيات واستبعدوا الأحرار من الأولاد واسترقوهم . فخرج من دمشق فيمن انضوى اليه من التركمان ووصل الى قريب القدس وراسلهم وبذل لهم الآمان فأجابوه بالقبيح وتوعدوه بالقتال فجاء بنفسه الى تحت السور وخاطبهم فسبوه فقاتلهم يوما وليلة وكان ماله وحرمه في برج داود ورام السودان والمصامدة الوصول اليهم فلم يقدروا . وكان في البرج رتق الى ظاهر البلد فخرج منه أهله اليه ودلوا عليه فدخل منه ومعه جماعة من العسكر وخرجوا من المحراب وفتحوا الباب ودخلوا العسكر فقتلوا ثلاثة آلاف انسان واحتمى قوم بالصخرة والجامع فقرر عليهم الأموال حيث لم يقتلهم لأجل المكان وأخذ منهم من الأموال شيئا لا يبلغه الحصر بحيث بيعت الفضة بدمشق كل خمسين درهما بدينار مما كان يساوى ثلاثة عشر درهما بدينار . وقتل القاضي

والشهود صبرا بين يديه وقرر أمور البلد ...»[٢٢٣]

«وسار الى الرملة فلم ير فيها من أهلها أحدا (لأنهم هربوا) فجاء الى غزة وقتل كل من فيها فلم يدع بها عينا تطرف . وجاء الى العريش فأقام فيه وبعث سرية فنهبت الريف وعادت ثم مضى الى يافا فحصرها وكان بهارزين الدولة فهرب هو ومن كان فيها الى صور فهدم أتسز سورها ...» واستطاع أتسز بهذه السرعة فى الانتقام والقسوة الوحشية أن يعيد لقوته المنهارة اعتبارها في المنطقة على أساس الرعب .

الثاني : خارجي سلجوقي . فان أصداء الهزيمة في الدركاه السلطانية كانت الشعور بعجز أتسز عن القيام بما تصدى له من عمل ضخم . وبالرغم من أن الرجل لم يكن سلجوقيا تماما الا ان هزيمته كانت أول هزيمة بارزة واضحة ، وأمام القوى الفاطمية ، للنفوذ السلجوقي التركماني الذى تعود النصر حتى الآن ولم يكن أتسز يجهل معنى ذلك كله ، ولهذا فانه أسرع لتلاف النتائج لدى السلطان السلجوقي و «جاء كتابه الى بغداد (عقب حملته التأديبية قبل أن يعود الى دمشق) بأنه على نية العود الى مصر وأنه يجمع العساكر ...»[٢٢٤] ولكن السلطان السلجوقي لم يقنع على ما يبدو بهذه الرقية التخديرية أو على الأقل لم يثق بامكان أتسز معاودة الكرة ولعله أراد استغلال ضعفه للعودة الى مشروعه السابق الذى ثناه عنه نظام الملك بمنح الشام اقطاعا لأخيه تتش . لا سيما وأن الأمور في شمالي الشام لم تكن بدورها تسير السير الذى يرتاح اليه السلطان السلجوقي ، وقد وفدت عليه الوفود تطلب عونه هناك . وهكذا «أقطع السلطان أخاه تتش بلاد الشام وما يفتحه في تلك النواحي» «وأمره بالمسير في أوائل سنة سبعين وأربعمائة»[٢٢٥] أى أن أتسز سوف يكون بعد الآن تحت النفوذ السلجوقي المباشر...

ولم يكن باستطاعته أن يفعل شيئا تجاه هذا الخطر الذى لا مفر منه لا سيما أنه حين عاد الى دمشق بعد جولته التأديبية وجدها قد بلغت حافة الموت :

«... لم يبق من أهلها سوى ثلاثة آلاف انسان بعد خمس مائة ألف أفناهم الفقر والغلا والجلا وكان بها مائتان وأربعون خبازا فصار بها خبازان والأسواق خالية والدار التي تساوى ثلاثة آلاف دينار ينادى عليها عشرة دنانير فلا يشتريها أحد والدكان الذى كان يساوى ألف دينار ما يشترى بدينار . وكان الضعفا يأتون للدار الجليلة ذات الأثمان الثقيلة فيضربون فيها النار فتحرق ويجعلون أخشابها فحما يصطلون به . وأكلت الكلاب والسنانير . وكان الناس يقفون في الأزقة الضيقة فيأخذون المجتازين فيذبحونهم ويشوونهم ويأكلونهم . وكان لا مرأة داران قد أعطيت قديما في كل دار ثلاثة مائة دينار أو أربعمائة ولما ارتفعت الشدة

عن الناس ظهر الفأر فاحتاجت الى سنور فباعت أحد الدارين بأربعة عشر قيراطا واشترت بها سنورا ...»[٢٢٦] .... كانت مملكة أتسز تؤذن بالمغيب .

٥ ـ دخول السلاجقة الى الشام (تتش بن ألب أرسلان)

... وأخيرا في سنة ٤٧٠ حان موعد دخول السلاجقة الى بلاد الشام. وتحققت جزئيا مشاريع طغرل وألب أرسلان وملكشاه ولكن لا بالغزو وانما بالصدفة والحيلة . واذا كان وضع مملكة أتسز المنهك والقلق في جنوبي الشام هو الذى أسهم في جلب سلجوقي «كبير» الى هذه المنطقة فان الوضع في شمالي الشام ان كان أحسن حالا في الناحية الاقتصادية فانه لم يكن أقل قلقا واضطرابا من الناحية السياسية ولا أقل اغراء للسلاجقة .

كان نصر بن محمود المرداسي ، صاحب حلب قد اصطنع التركمان ، الذين قدم له زعيمهم أحمد شاه انتصارين الأول على الروم في منبج والثاني على جاولى الخوارزمي في منطقة المعرة سنة ٤٦٨ ولكن الأمير المرداسي استراب بأطماع أحمد شاه ــ على ما يبدو ــ ولعله خاف أن ينقلب عليه ويمتلك شمالي الشام كما أصبح أتسز سيد الجنوب فقبض عليه واعتقله في القلعة ... وحمله السكر على الخروج الى الأتراك يريد أن ينهبهم فرماه تركي بسهم قتله (مستهل شوال سنة ٤٦٨/٨ مايس سنة ١٠٧٦) وتولى الامارة أخوه سابق بن محمود فأطلق أحمد شاه الذى سكن الفتنة[٢٢٨] وتسلط على الأمير . فلما تجمعت قبيلة كلاب ضد الاثنين تريد الخلاص من التركمان تحرك أحمد شاه للحرب ، وكان هذا الأمير التركماني في ألف فارس فبعث الى قائد تركي آخر في المنطقة لعله من بقايا جند ألب أرسلان واسمه محمد بن دملاج يقيم على الحدود مع الروم فتحالف معه على حرب الكلابيين الذين كانوا فيما يقال «في جمع عظيم ما اجتمعوا قط في مثله يقال انهم يقاربون سبعين ألف فارس وراجل . وكانوا قد عاثوا في بلد حلب وكانوا نزولا بقنسرين (فأخذوا بالمباغته فعند معاينتهم الاتراك انهزموا من غير قتال وخلفوا حللهم وكل ما يملكونه وأهاليهم وأولادهم» . لم تكن هذه الهزيمة ضخمة جدا في خسائرها فقط اذ ربح أحمد شاه وابن دملاج مائة ألف جمل وأربع مائة ألف شاة وسبوا من الحرائر جماعة كبيرة ومن الاماء اكثر . وعفوا عن العبيد المقاتلة وكانوا يزيدون عن عشرة آلاف ولكنها كانت ضخمة أيضا في أبعادها التاريخة لأنها كانت عمليا هزيمة للعرب جميعا في الشام كله ، فلن يعودوا بعد الآن هم مالكى الأمر فيه . المعركة كانت النقطة الانقلابية في تاريخ المنطقة لا سيما في نتائجها اذ تحرك

زعماء القبائل الكلابية الى باب السلطان ملكشاه في ايران يشكون اليه ما حل بهم ، في نوع من الاعتراف بالأمر الواقع وبأن أمر البلاد لم يعد منذ هذه اللحظة في أيديهم بل في يد التركمان .

ولم يكن سابق المرداسي ، صاحب حلب أكثر قوة ولا وعيا منهم لأنه ، رغم تنبيه الناس له والشعراء بألا يذل قوته ، ورغم أن ابن حيوس الشاعر أنشده على الملأ :

فلا ترض ياعــز الملوك بذلهم وان يردوا من غير بحــرك منهلا

فانه على ما يظهر لم يكن يملك شيئا من الأمر لسيطرة أحمد شاه عليه . ولقد أمكنته فرصة من أحمد شاه فلم ينتهزها لضعفه وقصر نظره ذلك أن ابن دملاج اختلف بعد اسبوعين فقط من المعركة الكلابية مع أحمد شاه فأسره في نفر قليل وبقي في حبسه تسعة أيام (أواخر ذى الحجة سنة ٤٦٨) فاشتراه منه نصر بعشرة آلاف دينار وعشرين فرسا ولم يترك الزعيمين التركمانيين للاصطدام والتفاني خوفا من أن يفقد امارته ...

على أى حال فان ملك شاه ، الذى وصلته في تلك الفترة أخبار هزيمة أتسز في مصر[٢٢٨] وثورة الشام عليه ووجد الوفود الكلابية عنده تطلب معونته ضد الجماعات التركمانية الناشزة في حلب عاد الى مشروعه القديم بارسال أخيه تتش الى الشام . وهكذا «أقطعه» المنطقة وما يفتحه وراءها . «وأمره بالمسير الى الشام في أوائل سنة سبعين وأربعمائة» وكتب الكتب الى القوى المختلفة فيها بأن تكون معه : أمر بذلك الكلابيين وكتب الى مسلم بن قريش صاحب الموصل كما كتب الى زعماء القوى التركمانية . وتكشف هذه الكتب الأخيرة انه كان ثمة في المنطقة عدد منهم يعملون منذ زمن ، ضمن الولاء السلجوقي ، ولكن لحسابهم الخاص ، ومنهم : الأفشين بن بكجي وصندق الحاجب اللذان نعرف منذ اكثر من عشر سنوات ومحمد بن دملاج وابن طوطو وابن بريق وغيرهم من أمراء التركمان[٢٢٩] .

كان تتش ــ فيما يروى سبط بن الجوزى ــ «مقيما ببلاد جنزة وبردعة[٢٣٠] (في أذربيجان) حين كتب اليه ملك شاه بالمسير الى الشام . وقد سار في أوائل سنة ٤٧٠ / آب سنة ١٠٧٧» على تؤدة ومعه زعماء الكلابيين (وثاب المرداسي ومبارك بن شبل ، وحامد بن زغيب) الى ديار بكر حيث تواردت عليه أمداد هؤلاء الزعماء وهناك «بلغة أن أتسز لم يهلك . وأنه قد أخرب الشام وقتل أهله بعصيانهم عليه فكتب الى السلطان يخبره وطلب منه عسكراً ، فانه كان في قلة من العساكر . وعرف أتسز فبعث الى السلطان هدايا ومالا وقال : ما فعلت فعلا يقتضي انفاذ الأمير نحوى فانني العبد الطائع وأنا نايب في هذه البلاد عن السلطان . ماآخذ

منها غير ما أصرفه من مؤونتي والجند الذي معي . وأنا أحمل في كل سنة . فكتب السلطان الى تتش أن لا يتعرض الى الشام الأعلى ويقصد ناحية حلب ...» ٢٣١

وهكذا استطاع اتسز مرة أخرى أن ينقذ نفسه ولكن الحملة السلجوقية كانت قد مشت وتجمعت لتتم هدفها الثاني في شمالي الشام وقد انضم اليها في ديار بكر أيضا الحاجب أيتكين بأمر السلطان ثم عبروا الفرات ... وسمع صاحب حلب بالتجمع وكان أحمد شاه ، قائده التركماني يحاصر انطاكية ويفرض عليها الغلاء والجوع والجزية (٥ آلاف دينار) فعاد الى حلب ولكنه عاد ليهرب بأمواله وأهله الى مكان أمين قبل الوقوع في القتال . «لم يأمنوا أهل حلب ان يتركوا حرمهم عندهم لما كانوا فعلوه بابن خان»٢٣٢ فنقلوهم الى حصن بالجسر (جسر الثغور) حيث أصابهم من تغير الهواء ما أهلك عامتهم في ذلك الموضع . وحين عاد أحمد شاه الى حلب كان جيش تتش قد نزل قريبا منها . وقد وصل لمعونته أيضا مسلم بن قريش في عسكر كثير .

«نزل تتش (مع جماعته) على حلب لثلاث خلون من ذي القعدة سنة ١٨/٤٧٠ مايس ١٠٧٨ وحصرها ثلاثة أشهر وعشرين يوما» . وبالرغم من أن أحمد شاه ، قائد العسكر التركماني بحلب قتل أثناء المعركة الا ان تتش وجد نفسه مضطرا لرفع الحصار والانسحاب نحو الشرق (في صفر ٤٧١/مطالع ايلول ١٠٧٩)٢٣٣ ذلك أن عددا من التطورات السياسية قد عصفت بالتجمع البدوي ـ التركماني الذي كان يقوده : وفرقت قواه عنه .

١ ـ يقظة الوعي القومي العربي : «فقد تحالفت بنو كلاب على قتال الغز ودفعهم عن البلاد» وانسحبت من جانب تتش ذلك أن الكلابيين تنبهوا الى تناقض موقفهم فقد كانوا يرفضون التركمان في حلب فاذا بهم يأتون بتركمان آخرين بدلا منهم وبينما هم على التشيع اذا هم يسهمون في نصر التركمان السنة . يضاف الى هذا أن هؤلاء التركمان بداة مثلهم وتدفقهم ان انتصروا سوف يهدد منازل البدو والعرب ، وقد ردد ابن حيوس الشاعر صدى ذلك في قوله اذ ذاك عن الترك والعرب :

لولا كلاب لما جاست خيولهم ··· هذي البلاد ولا مدوا بها طنبا
راموا المودات من أعدى عداتهم ··· وذاك رأى الى غير الصواب صبا

ولا شك ان شخصين عربيين هما اللذان أسهما في تنبيه الجموع الكلابية وزعمائها الى ذلك هما : سابق بن محمود المرداسي المحاصر في حلب ومسلم بن قريش العقيلي صاحب الموصل المحاصر مع تتش في ظاهر حلب .

فأما سابق ، فقد كان من مصلحته فك ارتباط العرب مع الترك ولذلك كثرت رسائله الى الزعماء المحاصرين وغيرهم يستثير عروبتهم . ويروى ابن العديم أنه

كتب الى بني كلاب : «اني انما أذب وأحامي عن بلادكم وعزكم ولو صار هذا البلد الى تتش لزال ملك العرب وذلوا ...» وكتب الى الأمير محمد بن زائدة قصيدة نظمها وزيره ابن النحاس» يسأله الاقبال عليه والقيام بمعونته ويحذره من التخلف عنه فيكون ذلك مسببا لزوال ملك العرب ويعتب عليه في التوقف عنه ... ويقول :

وقل لكلاب بدد الله شملكم
أو يحكم ما تتقون المعايبا ؟
أتستبدلون الذل بالعز ملبسا
وتمسون أذنابا وكنتم ذوائبا
أرى الثغر روحا أنتم جسد له
اذا الروح زالت أصبح الجسم عاطبا
وقد ذدت عنه طالبا حفظ عزكم
اباء ولا قيت المنايا السواغبا ..٢٣٤

وبالمقابل فان مسلم بن قريش كان بدوره «ينكر على بنى كلاب خلطتهم بعسكر الترك» و «كان هواه مع سابق (المرداسي) ... وكان يسير اليه في الباطن بما يقوى نفسه ...» «وأشار على وثاب (المرداسي) ومبارك وشبيب بالاحتياط على أنفسهم أو الهرب الى حلب ...» وهكذا : «استأذن بنو كلاب تاج الدولة (تتش) في رحيل الظعون فأذن» .

وتجمعت شيئا فشيئا قوى الكلابيين بجانب سابق صاحب حلب أو تركت القتال... «فلم يبق مع تاج الدولة (تتش) من بني كلاب سوى نفر يسير ما لبث سابق أن كاتبهم وتألفهم وخوفهم بزوال» ملك العرب «فهربوا الى حلب بعد أن قتل أصحابهم قبل الهزيمة وبعدها وصاروا الى سابق» .

٢ ـ انسحاب القوى الأخرى : فان مسلم بن قريش العقيلي كان يراسل سابقا وأهل حلب ويقويهم ، كما «كان معه غلال كثيرة له ولأصحابه وكان بحلب (بسبب الحصار) غلاء شديد فكان يبيعهم منها . وقد انكشف أمر هذا البيع فعاتبه تتش فقال : أنت أتيت في مساعدتي عليهم أو في تقويتهم ؟ ارجع الى أعمالك . مالي اليك حاجة ...»٢٣٥ «وأحس مسلم بتغير النية فيه» وخاف «تحقيق التهمة به من مراسلة سابق وأهل حلب فاستأذن في الرحيل وتحرك الى سنجار ... ولكن بعد أن» جعل عبور عسكره على باب حلب . وباع أصحابه أهل حلب كل ما كان في العسكر عصبية وتقوية لهم وقوى نفوسهم ونفس سابق ...٢٣٦ بعد الضعف الشديد» وبعد أن نصح الزعماء الكلابيين بالاحتياط لأنفسهم أو الهرب الى حلب .

وقبل انسحاب مسلم كان السلطان قد «استدعى الحاجب ايتكين اليه

بسؤال (بطلب) من مسلم لأنه كان عدوه» في أراضيه بديار بكر ... كما انصرف جماعة من التركمان عنه وعبروا الفرات عائدين ...

٣ ـ تدمير النجدات التي طلبها تتش : ويبدو أنه طلب نجدة تحمل اليه خاصة آلات الحصار وأرسل السلطان اليه بالفعل «أميرا من أمراء خراسان يقال له تركمان التركي ... ومعه عسكر» وبلغ ذلك الى أمير حلب فكتب الى بعض الأمراء الكلابيين يستنهض مروءتهم وعروبتهم لمهاجمة هذا المدد» فهجموا ما يزيد عن ألف فارس وخمسمائة راجل من بني نمير وقشير وكلاب وعقيل وكل ذلك بتدبير الأمير (مسلم العقيلي) ومشورته ... وكان تركمان التركي في ألف فارس من الغز ومعه جملة من العدد لمحاصرة حلب ... «وكان مسلم قد لقيه قبل ذلك وحاول منعه من مواصلة السير وخوفه المسير من بني كلاب فلم يلتفت اليه وقطع الفرات ونزل بوادى بزاعة» فقصدته بنو كلاب ... فأوقعوا به ونهبوه وقتلوا معظم أصحابه «ونهبوا ما كان فيه بأسره وجميع ما كان للتجار الواصلين في صحبته ...» وبلغ (ذلك) تتش فخرج من حلب يريد بني كلاب وترك أثقاله على حلب فخرج أهلها فنهبوها وقتلوا من أصحابه ... وكان لهذا النصر المحدود أصداؤه لدى العرب ، وقد رددها الشاعر ابن حيوس في قوله :

وكـانت الـترك بالأعـراب جـاهلـة
حتـى أتحـت لها أن تعـرف العربـا
فلـم يفـت منهـم الا أغيـلمـة
نجـت بهـم مقربـات تحمـل الأربـا

وهكذا تفرق التحالف كله وفشل أيضا وأيضا في هذه المرة المشروع السلطاني السلجوقي للوصول حتى الى حلب من الشام فانسحب تتش «عابرا الفرات يريد أعمال مسلم لأنه اتهم فوجده قد جمع واستعد فسار الى ديار بكر فاجتاح أعمال نصر بن مروان وأقام بها (في الشتاء) يخربها وينهب ويقتل ومسلم يدافعه وينفق الأموال في العسكر . وكتب تتش الى ملك شاه يعرفه الأحوال ويطلب نجدته ... ثم عاود في الربيع التالي (شوال ذى القعدة ٤٧١ / ابريل مايس ١٠٧٩) قطع لفرات الى حلب بمن جنده من التركمان ولكنه هذه المرة قرر استراتيجية جديدة هي الاستيلاء على المنطقة قبل الاستيلاء على القصبة : حلب . وهكذا بدأ «بمنبج وحاصرها فأخذها»[٢٣٧] «ثم حصن الفايا وحصن الدير . وشحنها بالرجال وسار بالعسكر الى حصن بزاعا وكان صاحبه شبل بن جامع وبعض رجال هذا الحصن ممن كانت لهم النكاية العظيمة في عسكر تركمان فقاتله تاج الدولة (تتش) وفتحه بالسيف وقتل كافة من كان فيه ونهبه وشحنه بالرجال ... ورحل الى عزاز وقد انضوى الى قلعتها خلق عظيم ومنعهم الوالى من الصعود اليها

فالتجأوا الى سند القلعة بأقمشتهم والناس عليها . وأساء الوالى بها (كان اسمه عيسى) التدبير والسياسة فزحف العسكر الى القلعة وقاتلها وضربها بالنار فاحترقت أقمشة الناس وغلاتهم وحرمهم وأولادهم وأشرفت على الأخذ وخرج قوم من الحريق الى عسكر تاج الدولة فأمنهم وتقدم اليهم بالعودة الى ضياعهم...»[٢٣٨]

ومضى تتش بعد ذلك الى الحصون الصغيرة : جبرين وكرمين والخناقية . فكان نزاله مع القوى العربية سجالا وخسر في الكمائن وفي التردد بين الحصون الكثير من الجند مما أدرك معه أن حصار حلب فاشل وقال الأمير زائدة الذى لعب دوره في هذه المعارك عن تتش :

وكان يرى في كفه الشام حاصلا
ويوم بزاعا رد ما ظن خائبا
واذ ايقنوا أن ليس للكسر جابر
تولوا وعن "جبرين" حثوا الركائبا

وانحدر تتش جنوبا "وقد ضعف عسكره وجاء الى حماه فاستولى عليها وعلى المعرة وما يليها وأطاعه صاحب حمص (خلف بن ملاعب) فأقره عليها ...»[٢٣٩] ولم يكن ليستطيع أن يستمر جنوباً الى أرض أتسز في دمشق لأن تعليمات السلطان أن يتركها ، ثم ان الخريف قدم ولا بد من عودة العسكر في الشتاء الى منازلهم واهلهم فعاد شمالا الى منطقة منبج وجبرين يتربص وحلب تلحقها المجاعة الشديدة»[٢٤٠]

واذا كان التوغل السلجوقي في الشام قد بدأ بوصول تتش اليه فانه حتى الآن لم يحقق أى نصر أساسى ولم يكن تتش أكثر من واحد من هؤلاء القادة والتركمان المغامرين العابرين بالنهب والقتل في المنطقة . وفجأة تنفتح الفرصة التي تضع مقدرات الشام أخيرا من أيدى السلاجقة وبطريقة لا علاقة للفتح العسكرى ولا للتوغل الجماعي البشرى بها . هذه الفرصة التي حددت مصير الشام الجنوبي ثم الشمالي من بعده كانت مسيرة جيش فاطمي يسترد دمشق من صاحبها التركماني أتسز .

كان بدر الجمالي منذ هزيمة أتسز في مصر سنة ٤٦٩ يأمل في أن ينهي قصة هذا الرجل المغتصب في الشام حيث استقر ونعم بمظلة السلاجقة الواقية ، فسير في مطالع سنة ٤٧٢/تموز ١٠٧٩ ـ على ما يظهر من تطور الأحداث ـ جيشا فيه العرب والغز والأكراد وفيه البربر وصنهاجة والسودان وبنى خفاجة والأمير عليهم غلام له متقدم عنده (اسمه نصر الدولة يمن الجيوش) والأمر مردود الى أبي الفرج (ابن) المغربي ...»[٢٤١] وأدرك أتسز أنه لا قبل له بهذا الجيش الواسع فبعث يستنجد بالقوة السلجوقية السلطانية الموجودة بالفعل في شمالي الشام : قوة

تتش . كان الحل الوحيد أمامه أن يضع نفسه تحت الحماية المباشرة للسلاجقة "الكبار" ، يقول ابن القلانسي : "ونزل (الجيش المصرى) على دمشق محاصرا لها ومضايقا عليها واستولى على أعمالها وأعمال فلسطين وأقام عليها مدة ... طامعا في تملكها وأصر على منازلتها اصرارا اضطر أتسز صاحبها الى مراسلة تاج الدولة (تتش) يستنجده ... ويعد بتسليم دمشق اليه ويكون في الخدمة بين يديه ..." و "أكون نائبك بدمشق ..." وأسرع تتش "بارسال الأفشين بن بكجي" طليعة أمامه ثم لحق به "فلما عرف نصر الدولة (الفاطمي) الخبر وصح عنده قربه منه رحل عن (دمشق) مجفلا (وشبه المنهزم) وقصد ناحية الساحل .

وكان ثغر صور وطرابلس في أيدى قضاتهما قد تغلبا عليهما ولا طاعة عندهما لأمير الجيوش بل يصانعان الأتراك بالهدايا والملاطفات ..." فتوجه الجيش المصرى الى الرملة ...[٢٤٣] بينما وصل تتش "مرج عذراء (الى الشمال الشرقي من دمشق) وخرج أتسز اليه وخدمه وبذل له الطاعة والمناصحة وسلم البلد اليه فدخلها " في ١٢ ربيع الآخر سنة ٤٧٢/١٢ تشرين الأول سنة ١٠٧٩[٢٤٤] وأتسز لا يعلم انه انما كان يضع بنفسه الانشوطة في عنقه ...

كان هذا أول دخول سلجوقي الى مدينة في الشام وأول تملك لهم فيه من قبل أحد السلاجقة الكبار . كما كان مطلع مرحلة جديدة في تاريخ الشام . ذلك أن تتش عرف كيف يتخلص فورا من هذه العقبة الصغيرة التي اسمها "أتسز" أمامه ويستولى بالمجان على مملكته أو ما يستطيع منها .

فبعد أن "أقام مديدة" حيث نزل بمرج عذراء على ما يظهر "حدثته نفسه ــ كما يقول ابن القلانسي ــ بالغدر بأتسز ولاحت له منه امارات استوحش بها منه" فلما دخل تتش المدينة خرج أتسز يلتقيه عند سور البلد فاغتاظ منه تتش لأنه لم يبعد في تلقيه وعاتبه على ذلك فاعتذر بأمور لم يقبلها تتش (بالطبع) فقبض عليه في الحال "وقتل أخاه أولا ثم أمر بخنقه فخنق بوتر في المكان المعتقل فيه" . يوم سلم المدينة سلم المملكة معها في الواقع وسلم روحه .

وانتهت قصة أتسز التي دامت كما يروى ابن عساكر والسبط ثلاث سنين وستة أشهر وأحدى وعشرين يوما ....

ويبدو أن تتش اهتم اثر ملك دمشق بتوزيع الاقطاعات على جنده الخاص ولعله اختلف في ذلك مع الأفشين فاستوحش منه وعاد هاربا نحو الشمال ومعه أكثر العسكر بعد أيام معدودة من مصرع أتسز . واذا كان هذا الانشقاق قد حرم تتش من أن يمتد في نفوذه الى ما وراء طبرية وأعمال فلسطين وأن يفتح القدس وأن يصل الى أبعد من بعلبك فانه كلف الشام الارهاق والتخريب الشديد . فقد نهب الأفشين ضياعا من أعمال بعلبك ثم باغت جماعة كثيرة عند رفنية من التجار

والقوافل متوجهين الى طرابلس ، وقتل واستباح الحريم(١٠ جمادى الأولى) وأعلم ابن منقذ صاحب حصن الجسر أنه "عول على نهب الشام" ثم فتح بالحصار والمنجنيقات حصون جبل السماق وسرمين والمعرة وجبل بنى عليم وانطاكية ... قبل أن يرحل الى بلد الروم ثم الى الشرق ، وحين لحق به تتش مسرعا بطلب من أهل المنطقة وضمان مال فاته اللحاق به ووجد أنه " لم يبق في أعمال حلب ضيعة مسكونة من بلد المعرة الى حلب ... وجرى من هذا الحادث بالشام أمر لم يسمع بمثله . وتلف أهله بعد ذلك بالجوع ووجد قوم قد قتلوا قوما وأكلوا لحومهم وبيعت الحنطة ستة أرطال بدينار ... وجلا من سلم من الشام الى بلد مسلم بن عقيل...[٢٤٥] مثل هذا التخريب فعله قائد تركي آخر في شرقى حلب ومنطقة الفرات اسمه ارسلان تاش وفعله أحد قواد احمد شاه واسمه خطلخ ...

ابتلاع الشام بعد هذا التمركز التركي السلجوقي في وسطه بدمشق تم على مهل وعلى مدى السنوات الست المقبلة فما جاءت سنة ٤٧٨ حتى كان الشام كله ، عدا الساحل الفاطمي ما بين طرابلس وعسقلان سلجوقيا ، بما في ذلك أملاك بيزنطة في الشام : منطقة انطاكية .

١ ـ "بعث تتش منذ سنة ٤٧٢ فحاصر القدس وبه أصحاب أتسز . وكان قريب له اسمه ترمش في برج داوود (قلعة القدس) ومعه قطعة من أمواله"[٢٤٦] فلم ينجح ... وبقيت القدس في يد هذا الرجل حتى مطالع سنة ٤٧٥ اذ سار أرتق بك الى القدس وراسل ترمش وطيب قلبه فخرج اليه وسلم البلد فأخذ له أرتق من تاج الدولة مثل اقطاع القدس وزيادة من ذلك قلعة صرخد . وكان في القدس خال أتسز وزوجته وابنته فلم يأمنوا المقام بأرض الشام فساروا الى بغداد ..."[٢٤٧]

٢ ـ قبض تتش سنة ٤٧٣ على مسمار أمير بنى كلب حين وقع على مكاتبات من مصر اليه ومنه الى مصر . ثم أطلقه سنة ٤٧٥ بشفاعة أرتق بك . ولكنه بين هذا وذاك سيطر على هذه القبائل .

٣ ـ وبالرغم من أن مسلم بن قريش العقيلي استولى منذ سنة ٤٧٣ على حلب وانهى المرداسيين فيها وأقام دولة عربية ما بين الموصل وأواسط الشام ضغطت على تتش وحاصرت مرة دمشق الا ان مقتل ابن قريش في صفر ٤٧٨ أمام موجة تركمانية سلجوقية من آل قتلمش وردت على شمالي الشام واحتلت انطاكية أزال الحكم العقيلي العربي من شمالي الشام فاستطاع تتش أن يأخذ هذا الشمال بعد سنة فقط من ابن عمه سليمان بن قتلمش ويقتله في صفر ٤٧٩/حزيران ١٠٨٦ ثم جاء السلطان ملك شاه بعد أشهر من ذلك في نزهة عسكرية فاستلم المنطقة كلها وعين لانطاكية وحلب والرها

ثلاثة من كبار قواده : ياغى سيان . آق سنقر . بزان أنهى بهم تتريك الحكم في الشام قبل أن يصله الصليبيون باثنتى عشرة سنة .

وبعد أن قطف ملك شاه بالمجان ثمرة سقوط الرأسين الكبيرين في شمالي الشام وفي الأناضول ، ذهب الى السويدية ، ميناء انطاكية على البحر المتوسط فسقى حصانه من الماء "وصلى على البحر وحمد الله على ما أنعم عليه مما تملكه من بحر المشرق الى بحر المغرب" .

الملاحظات الأخيرة بعد هذا الاستعراض يمكن أن نجملها في النقاط التالية :

١ ـ أن دخول الاترك الغز الى الشام كان السبب الأساسي فيه هو الفراغ السياسي والنزاع البدوى والضعف العسكرى في الاقليم أكثر منه التدفق البشرى الغزى والطمع في الغنائم . وقد بدأ الدخول باستدعاء الغز ولم يأتوا بأنفسهم . ورغم المشاريع السياسية لسلاطين السلاجقة فالذى حدث هو أن الأمير المرداسي في الشمال مثله كمثل الوالى الفاطمي في الجنوب كلاهما استدعى القوى الغزية تماما كما استدعيت في العراق . وقد دخلوا لا كغزاة أولا ولكن بصفة قوى للنجدة والمعونة ، وهنا نقطة الاختلاف بين غزو الشام خاصة والعراق وبين غزو ايران وأرمينية ، ولهذا دخلوا بأقل ضحايا ممكنة . الصدفة التاريخية هي أن الغزو التركماني للشام ترافق مع مروره بفترة فتن وتمزق سياسي وانهاك اقتصادى وانهاك فاطمي بحيث لم تستطع خلافة القاهرة الدفاع عنه ، وتدهور بيزنطي بحيث شغلت بيزنطة بثوراتها الداخلية وهزائمها عن التدخل في الأحداث التي تمر .

٢ ـ كانت المنطقة قبل وصول الغز في حالة سيئة جدا من الفقر الاقتصادى ساعدت على ضعفها الشديد وكان الغزو التركماني غزوا بدويا نهابا فلم يزدها الا تدميرا وكانت خلاصة أعمال هذا الغزو سلسلة من مفردات : القتل والحرق والأسر والهدم والنهب والسلب والأسر ... حتى محيت القرى بين المعرة وحلب وجرت مجاعات في الجنوب والشمال وصلت حد أكل اللحم البشرى ... مرة واحدة سمعنا عن عناية أتسز بعد دخول دمشق بالبلد وتشجيعه الزراعة في الريف . وهذا الدمار هو السبب في تمكن الفرنجة بعد ربع قرن من استقرار الغز في الشام من اكتساحه دون كبير جهد أو مقاومة .

٣ ـ أخذ التسلل التركماني الى الشام طريقين : فبعضه جاء عبر الممرات شمالى حلب وبعض جاء عن طريق الجزيرة وقليل منه ما كان عن طريق العراق ووادى الفرات . واذا كان المقريزى يروى أن الناوكية جاءت عن طريق العراق فانه يقصد دون شك الجزيرة . ومع ذلك فربما كانت الفرق الناوكية الأولى التي اتفق معها بدر الجمالي انما جاءت عن طريق بلاد الروم .

٤ ــ يجب ألا نوحد في مفهومنا ما بين كلمتي غزو تركي وسكان ترك . ان استبدال بضعة حكام وعدة آلاف من الجنود الترك بمثلهم من العرب ، وهو ما يكون كنه الغزو التركي لا يعنى عملية استيطان واسعة . هذا بالنسبة للشام على الأقل . ان الطبقة السكانية التركمانية التي دخلت الشام لم تكن كبيرة العدد بحيث تدخل أى تغيير أساسي على الأساس الاثنولوجي والتكوين السكاني للبلاد . وقد ذابت فيما بعد ضمن المجموع العربي ولنلاحظ أن جماعات الجيوش الكبرى التي قادها ألب أرسلان وملكشاه كانت تعود دوما الى مراكزها الخلفية في أذربيجان بعد كل موسم عسكرى . وأن الجماعات العسكرية التي توطنت كانت تتبع قوادا يقود كل منهم ما بين ٥٠٠ الى ألف فارس (أو عائلة) وأن عدد هؤلاء القواد قد لا يجاوز العشرين الى خمسة وعشرين قائدا فلا يمكن أن يكون تقدير التركمان الذين استقروا في المنطقة بأكثر من ١٥ الى ٢٠ ألفا ... مجئ الصليبيين السريع بعد ذلك هو الذى ساعد التركمان على الاستقرار والتكاثر العددي في الشام باعتبارهم القوة العسكرية المدافعة . ولنلاحظ أن الموجة التركمانية جاءت معها بعدد كبير من أبناء الشعوب الأخرى وخاصة الأكراد الذين سيكون لهم دورهم فيما بعد ...

٥ ــ بالرغم من أن هذه القوى التركمانية كانت تعمل جميعا لحسابها الخاص فان الجماعة التي كانت تعد بين المناوئين للسلاجقة أى الناوكية خاصة هي التي حققت الدخول التركماني الى الشام ، أما الذين استفادوا منه فهم السلاجقة. كان الناوكية هم المرحلة الأولى والتمهيد للحكم السلجوقي المباشر في مرحلة تالية وهو ما لم يتم في أى أقليم آخر لا في العراق ولا ايران ولا في الأناضول لحد كبير . ومملكة أتسز كانت مملكة نشازا لا يمكن أن تستمر في الوجود مع وجود قوتين ضاغطتين عليها من الجانبين : الخلافة الفاطمية الناهضة على يد بدر الجمالي والقوى السلجوقية الطامعة من الطرف الآخر . لهذا اختنقت واختنق صاحبها رغم محاولته اللعب لعبة الولاء للسلاجقة ، ومثلها كانت مملكة مسلم بن قريش العقيلية العربية .

٦ ــ عملية التوغل التركماني استغرقت في ضغطها الكثيف حوالى ١٢ سنة تقريبا قبل أن تأخذ شكل التوغل الهادئ المتمادى . وبدأت بشكل تسلل تركماني قبل أن تصبح حكما سلجوقيا مباشرا يربط الشام مباشرة بالدركاه السلطانية في ايران (الرى . همدان . اصبهان) وهكذا حل الترك محل العرب في الحروب على الجبهة البزنطية بعد أن كان العرب قد حلوا قبل أربعة قرون ونصف القرن محل الساسانيين . واذا لم يطل النزاع التركي البزنطي فلأن قوة ثالثة أسرعت بالمجئ قبل مضي ربع قرن ، وعبر الجبهة البزنطية نفسها هي قوة الفرنجة الصليبية ،

فاحتلت شاطئ الشام .

٧ ــ التدخل التركماني الغى حكم العرب نهائيا من الاقليم . امارة بنى منقذ كانت الوحيدة التي بقيت الى سنة ٥٥٢ وانهاها الزلزال الذى خرب شيزر وانتهى شأن البدو العرب كقوة سياسية بعد أن امتد حوالى أكثر من قرنين . ووجدت قوة سياسية عسكرية فتية اضطرت لأن تحمل عبء الدفاع عن المنطقة وهي ما كادت تستقر فيها وهكذا اجتمعت على أرض الشام وكأنما هما على موعد للنزاع قوتان : واحدة من أقصى الشرق وثانية من أقصى الغرب . للقتال على أرضه وتدميرها التدمير المتمادى واستنفاذ طاقاتها مدة مائتي سنة .

٨ ــ ساعد الغز التركمان منذ دخلوا على تثبيت المذهب السني في الشام ولكنهم لم يتعصبوا ضد الشيعة وكانت سياستهم التسامح مع المسيحيين .

٩ ــ وأخيرا أخذ الصراع بين التركمان والقوى في الشام أحيانا شكل النزاع العربي التركي . سابق بن محمود المرداسي كتب لعشيرته التي تحاربه مع الغز : في نوع من النبوءة : "اني انما أذب وأحامى عن بلادكم وعزكم ولو صار هذا البلد الى تتش لزال ملك العرب وذلوا" ... ويقول شاعره ابن النحاس مخاطبا بني كلاب :

اتستبـدلـون الـذل بالعـز ملبسـا
وتمسـون اذنـابـا وكنتـم ذوائبـا ؟

ويكتب سابق المرداسي الى مسلم بن قريش العقيلي : انت أولى بي من الغير والعربية تجمعنا ، فان كنت مأكولا فكن أنت اكلى . والعقيلي هذا يقول بقبيلة كلاب : "قد علمتم انى انفقت أموالى وبعدت عن بلادى في حراسة بلادكم وأموالكم وكف عادية الغز عنكم ..." وتأمل الناس مع قيام دولة مسلم بن عقيل الخلاص من الغز ، ويقول شاعرهم :

وغدا ستخلى الشـام منـهم مثلمـا
اخلـت خـزاعـة مكـة مـن جرهـم

على أن هذا الوعي لم يأخذ مرة شكل تحالف عربي واسع . وحين استطاع احمد شاه القائد الغزى الذى استخدمه الأمير سابق آخر المرداسيين في حلب ان يتفق مع قائد غزى آخر هو ابن دملج وأن يكبد بذلك قبيلة كلاب هزيمة مرة سنة ١٠٧٥/٤٦٨ حين ذاك كانت الهزيمة للقوى العربية البدوية في الشام كله . فلم تقم بعدها لهم قائمة ...

وأخيرا فان مصائر هامة للشام كانت تقرر في تلك الفترة النادرة المضطربة الممتدة ما بين سنتى ٤٤٧ ــ ١٠٥٥/٤٧٢ ــ ١٠٧٩ ،

ترى ألم تشكل بنتائجها البعيدة انعطافا في تاريخ الشام ؟

حواشي

١ ــ ابن العديم ــ زبدة الحلب (طبع سامي الدهان) ج٢ ص ٢٠ (٣٨٤) ويروى ابن خلكان في الوفيات ذلك .
٢ ــ انظر سبط بن الجوزى ــ مرآة الزمان ، مخطوط المكتبة الأهلية في باريس رقم ١٥٠٦ وجه الورقة ١٢٠ .
٣ ــ انظر المصدر السابق ــ وجه الورقة ١٤٨ .
٤ ــ هؤلاء هم الشهابيون الذين لا يزالون في لبنان الى اليوم . انظر طنوس الشدياق ، أخبار الأعيان ج١ ص ٣٩ ــ ٤١ .
٥ ــ انظر المقريزي ــ اتعاظ الحنفا ج١ ص ١٢٣ .
٦ ــ اليعقوبي ــ البلدان ص ٣٢٩ .
٧ ــ ابن حوقل ــ صورة الأرض ص ١٩٥ .
٨ ــ البلاذرى ــ فتوح البلدان ص ١٧٢ .
٩ ــ المقدسي البشارى ــ احسن التقاسيم ص ١٧٩ ــ ١٨٠ .
١٠ ــ المصدر نفسه .
١١ ــ انظر ابن العديم ، زبدة الحلب ج١ ص ٢٤٨ .
١٢ ــ المقدسي ــ أحسن التقاسيم ص ١٨٣ .
١٣ ــ ابن حوقل ــ صورة الأرض ص ٣٠٥ .
١٤ ــ ابن حوقل ــ صورة الأرض ص ٢٠٤ .
١٥ ــ المقدسي ــ احسن التقاسيم ص ١٥٦ .
١٦ ــ ابن حوقل ــ صورة الأرض ص ١٦٢ .
١٧ ــ المصدر نفسه ص ٢٠٥ .
١٨ ــ ابن الأثير ١٠ ص ٢٧ .
١٩ ــ ابن أيبك ــ الدرة المضيئة ص ٣١٩ .
٢٠ ــ انظر ابن الأثير ج٩ ص ٥٠١ ــ ٥٠٢ .
٢١ ــ انظر تفصيل ذلك لدى سبط بن الجوزى ــ مرآة الزمان (مخطوط باريس) الورقة ١٢٠ وجها وظهرا .

٢٢ ـ انظر المصدر نفسه الصفحات ١٦٣ ، ١٦٤ ، ٢٠١ ، ويجب أن نسجل ملاحظة تتصل باستشهادنا هنا بابن حوقل والمقدسي وكلاهما من مؤلفي القرن الرابع ونحن نتكلم عن الخامس ، والسبب هو أنه لا المد البدوي توقف حتى أواسط القرن الخامس ولا غزو الروم هدأ كثيرا بعد فورته، وما كان يقوم به كل فريق فيما يتعلق بعمليات التدمير كان عملية مكرورة باستمرار . ولسنا نخطئ كثيرا ان نحن نقلنا شهادة عصر سابق لعدم وجود شهادة من العصر نفسه . ولسوف تتأكد هذه الشهادة في الأحداث التي سوف نراها خلال البحث عند دخول الأتراك الشام...

٢٣ ـ انظر ابن القلانسي ـ ذيل تاريخ دمشق ص ٧٩ .

٢٤ ـ المصدر نفسه ص ٩٥ .

٢٥ ـ ابن أيبك ـ الدرة المضيئة (٦) ص ٣٢٦ .

٢٦ ـ ابن الأثير ج٩ ص ٤٣٨ و ج ١٠ ص ٣٠ .

٢٧ ـ ابن القلانسي ص ٩٤ .

٢٨ ـ سبط بن الجوزى ـ مرآة الزمان (مخطوط المكتبة الأهلية بباريس ١٥٠٦) ظهر الورقة ١١١ووجه الورقة ١١٢،

وقد اشار المقريزى الى هذه الزلزلة وقال ان الرملة خربت فيه خرابا لم تعمر بعده (اتعاظ الحنفا) ج٢ ص ٢٧٧ واشار اليها ابن الأثير ج ١٠ ص ٥٧.

٢٩ ـ ابن الأثير ج٩ ص ٤٢٦ .

٣٠ ـ ابن ايبك ـ الدرة المضيئة ص ٣٦٩ .

٣١ ـ المقريزى ـ اتعاظ الحنفا ج ٢ ص ٢٣٥ .

٣٢ ـ ابن ايبك ـ الدرة المضيئة ص ٣٧٠ (ولعل في التفاصيل التي أوردها حول هذه المجاعة ما يشير الى اختلاط اخبارها مع المجاعة الكبرى سنة ٤٦٠) .

٣٣ ـ ابن العديم ـ زبدة الحلب ج٢ ص ١٠ .

٣٤ ـ انظر المقريزى ـ اتعاظ الحنفا ج٢ ص ٣٠٠ .

٣٥ ـ ابن الأثير ج ١٠ ص ٦١ .

٣٦ ـ انظر المقريزى ـ اتعاظ الحنفا ج٢ ص ٢٧٩ ـ ٣٠٨ .

٣٧ ـ سبط بن الجوزى ـ مرآة الزمان (مخطوط باريس) وجه الورقة ١٦٨ .

٣٨ ـ ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٣ .

٣٩ ـ المقدسي البشارى ـ أحسن التقاسيم ص ١٥٢ و ص ١٨٣ .

٤٠ ـ ابن حوقل ـ صورة الأرض ص ١٦٥ .

٤١ ـ المصدر نفسه ص ٢٠٣ .

٤٢ ـ المصدر نفسه ص ١٩٩

٤٣ ـ انظر التفاصيل عن هؤلاء الولاة لدى ابن القلانسي ـ ذيل تاريخ دمشق ص ٨٤ ـ ٩٥ ، وانظر تفاصيل الثورة الدمشقية والحريق لدى سبط ابن الجوزى (مخطوط باريس) ظهر الورقة ١١٩ حتى ظهر الورقة ١٢٠ .

وهذا النص موجود في ذيل القلانسي ص ٩٦ ــ ٩٧ .

٤٤ ــ سبط بن الجوزى ــ مرآة الزمان (مخطوط باريس) الورقة ١١٢ وجه .

٤٥ ــ المصدر السابق ــ وجه الورقة ١٢١ .

٤٦ ــ ابن العديم ــ زبدة الحلب ج٢ ص ٥٤ .

٤٧ ــ استدعى الخليفة المستنصر سنة ٤٤٦ أمير الكلبيين راشد بن عليان بن سنان واعتقله بالقاهرة وعين بدلا منه أميرا آخر وهذا ما لم يستطع فعله مع المرداسيين .
انظر المقريزى ــ اتعاظ الحنفا ج٢ ص ٢٢٩ .

٤٨ ــ انظر بحثنا (الحركة الشعبية وزعماؤها في دمشق) .

٤٩ ــ انظر ابن العديم ــ زبدة الحلب ج١ ص ٢٩٥ .

٥٠ ــ المقريزى ــ اتعاظ الحنفا ج٢ ص ٢٧٢ .

٥١ ــ المصدر نفسه ص ٢٧٥ .

٥٢ ــ المقدسي ــ أحسن التقاسيم ص ١٥٢ .

٥٣ ــ ذكر السلاجقة في كتابهم الى الخليفة العباسي القائم بأمر الله حسب رواية الراوندى (راحة الصدور ص ١٦٦) عقب دخولهم نيسابور سنة ٤٣١ ما يلي : «ولقد اجتهدنا دوما في غزو الكفار ... وداومنا على زيارة الكعبة المقدسة» .

٥٤ ــ الكشغرى في كتابه ديوان لغات الترك (ج١ ص ٢٧ ــ ٢٨ ، ٥٦ ، ٣٩٣) يذكر أن «الأغز قبيلة من الترك وهم التركمانية» ويقول «قرلق جيل من الترك أهل الوبر سوى الغز وهم التركمانية أيضا» ولما كان الكشغرى معاصرا للغزو السلجوقي وقد كتب كتابه سنة ٤٦٦/١٠٧٣ فهو أحق الناس باعطائنا التعريف الصحيح للكلمة .

٥٥ ــ انظر ابن الأثير ج٩ ص ٣٧٧ ــ ٣٧٨ .

٥٦ ــ ابن الأثير ج٩ ص ٣٨٩ .

٥٧ ــ ابن الأثير ج٩ ص ٣٨٥ ــ ٣٨٦ .

٥٨ ــ المصدر نفسه ص ٣٩١ .

٥٩ ــ الفارقي ــ تاريخ ميافارقين (القسم المحقق من قبل بدوى عبد اللطيف) ص ١٦٠ ــ ١٦١ ويخطئ الفارقي اذ يعتبر الأميرين بوقا وناصغلى مرسلين من قبل السلطان طغرل بك ومن أصحابه .

٦٠ ــ ابن الأثير ج٩ ص ٣٨٦ .

٦١ ــ ابن الأزرق الفارقي ــ تاريخ ميافارقين (القسم المطبوع) ص ١٦١ .

٦٢ ــ ابن الأثير ج٩ ص ٥٢٠ ، ٥٣٥ ، ٥٠٢ .

٦٣ ــ انظر ابن العديم ــ بغية الطلب (مخطوطة احمد الثالث ج٢ ظهر الورقة ١٩٦) أثناء ترجمة البساسيرى .
وانظر كذلك سبط بن الجوزى ــ مرآة الزمان (مخطوط باريس ١٥٠٦) ظهر الورقة ١٢٨ وانظر أيضا ابن العديم ــ زبدة الحلب ج٢ ص ١٠ .

٦٤ ــ انظر ابن الأثير ج٩ ص ٥٢٨ ، ٥٢٩ حتى ٥٣٤ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، وص ٦٠٢ ، ٦٠٣ .
٦٥ ــ الراوندى (مختصر الاصفهاني) ــ تاريخ دولة آل سلجوق ص ٨ .
٦٦ ــ انظر سبط بن الجوزى ــ مرآة الزمان (مخطوط احمد الثالث/٤) ج ١٢ الورقة ١٠٦ وجه . وانظر كذلك ابن الأثير ج٩ ص ٥٤٦ .
٦٧ ــ ابن الأثير ج٩ ص ٥٤٦ .
٦٨ ــ لنلاحظ أن مناطق شمالي الشام كانت في يد المرداسيين (٤١٤ ــ ٤٧٨) ومعظم الجزيرة كان في يدى بني مروان في دياربكر (٣٨٠ ــ ٤٨٩) وأن مناطق الموصل كانت لبني عقيل (٣٨٦ ٤٨٩) وأما جنوبي العراق فكانت السلطة الكبرى فيه لزعماء البدو بني مزيد في الحلة (٣٠٣ ــ ٥٤٥) .
٦٩ ــ سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة بقلمه (نشر محمد كامل حسين ــ القاهرة ١٩٤٩) .
٧٠ ــ المصدر نفسه ص ٧٧ .
٧١ ــ المقريزى ــ اتعاظ الحنفا ج٢ ص ٢١٤ .
٧٢ ــ المصدر نفسه ج٢ ص ٢٢٣ ــ ٢٢٤ .
٧٣ ــ انظر المقريزى ــ اتعاظ الحنفا ج٢ ص ٢٢٣ وابن الأثير ج٩ ص ٥٩١ . ولنلاحظ أن محضرا سابقا بالمعنى نفسه كان قد كتب في بغداد سنة ٤٠٢ زمن القادر العباسي .
٧٤ ــ سيرة المؤيد داعي الدعاة ص ٩٤ ــ ٩٥ ولعلنا نسجل هنا ملاحظة هامة هي أن كلمة الشام كانت كثيرا ما تستعمل لدى مؤرخي هذا القرن (الخامس) وحتى القرن السابع (لدى القلانسي مثلا ولدى ابن العديم) بمعنى شمالي الشام فقط دون المناطق الجنوبية التي كان يطلق عليها اسم دمشق وفلسطين .
٧٥ ــ ابن الأثير ج٩ ص ٦٠٩ .
٧٦ ــ المصدر نفسه ص ٦٠٨ .
٧٧ ــ ابن الأثير ج٩ ص ٦١٠ .
٧٨ ــ سبط بن الجوزى ــ مرآة الزمان (مخطوط أحمد الثالث/٤) ج١٢ ظهر الورقة ١٢١ ــ ووجه الورقة ١٢٢ . و يبدو أن الناس كانوا قد سئموا الحكم البويهي الضعيف ويذكر سبط بن الجوزى نفسه (الورقة ١١٨ وجه) بيتين بهذا المعنى أرسل بهما شاعر الى طغرل بك يقول :

العراق العراق يـا طغـرلبكـي ... سـر اليها ولو تلكمـت فكـي (كذا)
قد سئمنـا حـكم الديالم فينا ... فعـسى يملـك المالـك تـركي ...

ويعلق سبط أن هذا مما قوى عزمه على ذلك .
٧٩ ــ ابن الأثير ج٩ ص ٦١٢ .
٨٠ ــ انظر البندارى ــ تاريخ آل سلجوق (تلخيص نصرة الفترة) ص ٩ .
٨١ ــ يقول المقريزى (اتعاظ ج٢ ص ٢٣٧) "... (كان اليازوري قد بث عيونه وحواشيه في عسكر طغرل بك والكندرى وزيره ابراهيم ينال أخيه وصاحب جيشه فمالوا اليه وقعدوا عن صاحبهم وحمل خاتون على قتله فامتنعت من ذلك وواعدته أنها تتحيز بغلمانها وهم

نحو اثنى عشر ألفا عنه فاعتزلت بهم ...»

٨٢ ــ يقول المقريزى (اتعاظ ج٢ ص ٢٣٧) «وهو (أى البساسيرى) لا ينفذ في أمر من الأمور الا بما يقرره اليازروى» .

٨٣ ــ سيرة المؤيد داعي الدعاة ص ١٥٤ ولهجة الاعتدال في النص ناجمة عن أنه قطعة من رسالة أرسلها المؤيد الى الكندرى وزير السلاجقة .

٨٤ ــ انظر ابن الأثير ج٩ ص ٦١٧ .

٨٥ ــ سبط بن الجوزى ــ مرآة الزمان (مخطوط احمد الثالث ــ النسخة الرابعة) ج ١٢ ظهر الورقة ١٢٣

٨٦ ــ المصدر نفسه الورقة ١٢١ وجها وظهرا .

٨٧ ــ المصدر نفسه وجهالورقة ١٢٣ وابن الأثير ج٩ ص ٦٢٦ .

٨٨ ــ المصدر نفسه ظهر الورقة ١٢١ ، وجه الورقة ١٢٢ .

٨٩ ــ انظر ابن الأثير ج٩ ص ٦٢٥ .

٩٠ ــ انظر ابن الأثير ٩ ص ٦٢٨ .

٩١ ــ سبط بن الجوزى ــ مرآة الزمان (مخطوط احمد الثالث/٤) ج ١٢ ظهر الورقة ١٣٦ وانظر كذلك ابن الأثير ج٩ ص ٦٣٠ .

٩٢ ــ سبط بن الجوزى ــ المصدر السابق ظهر الورقة ١١٦ ووجه الورقة ١١٧ .

٩٣ ــ انظر ابن الأثير ج٩ ص ٦٢٤ ، ٦٣١ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧ ،

٩٤ ــ انظر ابن العديم ــ زبدة الحلب ج١ ص ٢٧٣ ــ ٢٧٤ .

٩٥ ــ سبط بن الجوزى ــ مرآة الزمان (مخطوط احمد الثالث/٤) ج ١٢ ظهر الورقة ١٢١ ووجه الورقة ١٢٢ .

٩٦ ــ كان اليازورى فيما يروى ابن الأثير (ج٩ ص ٥٦٦) من أهل التناية والفلاحة لا من أهل صنعة الكتابة التي يختار منها الوزراء . ويذكرون عن المعز بن باديس انه وصف بدوره اليازورى بقوله : هذا الفلاح .

٩٧ ــ المقريزى ــ اتعاظ الحنفا ج٢ ص ٢٣٦ ــ ٢٣٧ .

٩٨ ــ انظر سيرة المؤيد ص ١٤٠ .

٩٩ ــ انظر سيرة المؤيد (ص ١٤١ ــ ١٥١) نصوص رسائله والأجوبة عنها .

١٠٠ ــ المصدر السابق ص ١٥٣ ــ ١٥٦ .

١٠١ ــ سبط بن الجوزى ــ مرآة الزمان (مخطوط احمد الثالث/٤) ج ١٢ وجه الورقة ١٣٧ ، انظر كذلك ابن الأثير ج٩ ص ٦٣١ .

١٠٢ ــ يعطينا غرس النعمة بن هلال الصابئي الكثير من التفاصيل عن هذه المقابلة نقلها عنه سبط بن الجوزى .

١٠٣ ــ انظر ابن الأثير ج٩ ص ٥٥٦ .

١٠٤ ــ كان من هؤلاء المشكوك في ولائهم لطغرل : ينال أخوه لأمه وبعض أولاد أخوته

ورسولتكين شقيق قلتمش الذى ثار في خوزستان .

١٠٥ ـ سيرة المؤيد ص ١٧٥ وليس من شك في أن المبادرة كانت من ينال وليست من جانب الفاطميين ، لأنها لو كانت من جانب المؤيد لما تردد الرجل في نسبتها لنفسه ولبراعته السياسية .

١٠٦ ـ انظر ابن الاثير ج٩ ص ٦٣٩ . ولنلاحظ أن المؤيد (ص ١٧٦) لا يذكر ذلك وانما ينسب احتلال الموصل الى تحريضه الشخصى وجهوده في دفع البساسيرى وقريش الى ذلك .

١٠٧ ـ سبط بن الجوزى ـ مرآة الزمان مخطوط ج ١٢ وجه الورقة ١٥٨ .

١٠٨ ـ يقول المؤيد في مذكراته : (ص ١٨٢) لم يضرب في هذه البشارة التي مارأت عين الدنيا مثلها طبل ولا بوق ولا نقر فيها نقرة حتى كاد الرسل (حاملو البشارة) يكفرون ويتزندقون .

١٠٩ ـ انظر نص الكتاب لدى سبط بن الجوزى ـ مرآة الزمان (مخطوط) ج ١٢ الورقة ١٦٩ وجها وظهرا والورقة ١٧٠ .

١١٠ ـ المصدر السابق الورقة ١٧٢ وجها وظهرا . ولنلاحظ أن الوزير البابلي الذى ولى اليازورى كان يحقد عليه كما أن الوزير المغربي الذى جاء بعد ذلك في سنة ٤٥٠ نفسها كان خصما للبساسيرى هاربا منه (انظر ابن الأثير ٩ ص ٦٤٤) .

١١١ ـ ابن تغرى بردى ـ النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١١ وانظر ابن الأثير ٩ ص ٦٤٤ .

١١٢ ـ يبدو أن بعض عائلة البساسيرى قد هربت الى الشام ومصر . وسبط بن الجوزى يذكر وفاة ابنه مسموما في دمشق من قبل خدمه سنة ٤٥٩ كما يذكر هرب أخيه من مصر الى دمشق وموته من التعب في تلك السنة (انظر مرآة الزمان مخطوط باريس رقم ١٥٠٦ الورقة ١٠٩ وجها وظهرا) .

١١٣ ـ ابن الأثير ٩ ص ٦٤٧ .

١١٤ ـ المقريزى ـ اتعاظ الحنفا ـ ج ٢ ص ٢٥٧ .

١١٥ ـ ديوان ابن أبي حصينة ج١ ص ٣٦ .

١١٦ ـ انظر المقريزى ـ اتعاظ الحنفا ج٢ ص٢٣٠ .

١١٧ ـ سيرة المؤيد ص ١٠١ ـ ١٠٢ .

١١٨ ـ المقريزى ـ اتعاظ الحنفا ج٢ ص ٢٣٥ .

١١٩ ـ لنلاحظ أن مثل هذا الاستدعاء للغز بغية الاستعانة بهم كان أمرا عسكريا معروفا ولم يلجأ اليه في تلك الفترة أمراء الشام فقط ولكن كذلك بعض أمراء أرمينية ، وكردستان ، وخوزستان .

١٢٠ ـ انظر في صدام العم وابن أخيه ابن العديم . زبدة الحلب ج١ ص ٢٩١ فما بعد .

١٢١ ـ المصدر السابق ص ٢٩٤ .

١٢٢ ـ حقق ذلك الاسم باحث تركي اسمه مكرمين خليل ونقله عنه كاهن في بحث عن دخول الترك لآسيا الصغرى (مجلة بنيزا نيون العدد ١٨ لسنة ١٩٤٨) ص ٢٦ حاشية (١) .

١٢٣ ـ ابن العديم ـ زبدة الحلب ج١ ص ٢٩٤ .

١٢٤ ـ سبط بن الجوزى ـ مرآة الزمان (مخطوط باريس) وجه الورقة ١٢٣ .
١٢٥ ـ انظر بعض التفصيل عن ذلك لدى ابن العديم ـ زبدة الحلب ج١ ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦ .
١٢٦ ـ ابن العديم ـ زبدة الحلب ج٢ ص ١٠ .
١٢٧ ـ انظر ابن القلانسي ص ٩٢ .
١٢٨ ـ ابن العديم ـ زبدة الحلب ج١ ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧ .
١٢٩ ـ ابن العديم ـ "ج٢ ص ١٠ .
١٣٠ ـ انظر ابن العديم ـ زبدة الحلب ج٢ ص ١٢ ـ ١٣ ولعلنا نلاحظ في الأرقام مبالغة كبيرة ناجمة عن كثرة توهم الناس من قوة التركمان في تلك الفترات ...
١٣١ ـ لنلاحظ ان امبراطور الروم قد تغير بين السنة الماضية وهذه السنة وقد حل رومانوس ديوجين محل قسطنطين دوقاس المعادى للاقطاع العسكرى .
١٣٢ ـ المصدر السابق ص ١٤ .
١٣٣ ـ انظر ابن العديم ـ زبدة الحلب ج٢ ص ١٦ .
١٣٤ ـ انظر سبط بن الجوزى ـ مرآة الزمان (مخطوط باريس) وجه الورقة ١٢٣ ، وابن العديم ـ زبدة الحلب ج٢ ص ١٨ .
١٣٥ ـ سبط بن الجوزى ـ مرآة الزمان ، مخطوط باريس الورقة ١٠٩ وجه . وفي أصل المخطوط ابن الروقلية .
١٣٦ ـ المصدر السابق نفسه وجه الورقة ١٢٣ وظهر الورقة ١٢٣ .
١٣٧ ـ المصدر السابق نفسه ظهر الورقة ١٢٧ ظهر ، ولعل هذا الأخ هو الأمير الآخر الذى تعامل معه المرداسي تاركا ابن خان نفسه .
١٣٨ ـ المصدر السابق نفسه الورقة ١٢٣ ظهر .
١٣٩ ـ انظر ابن الأزرق الفارقي ـ مخطوط تاريخ ميافارقين (المتحف البريطاني) ظهر الورقة ١٤٣ ووجه الورقة ١٤٤ . وانظر القسم المطبوع منه (تحقيق عدوى عبد اللطيف عوض) ص ١٩٢ .
١٤٠ ـ انظر ابن العديم ـ زبدة ج٢ ص ١١ وتاريخ ابن العبرى النسخة السريانية (الترجمة الفرنسية بقلم Budgl) ص ٢١٧ ـ ٢١٨ .
١٤١ ـ ابن العديم ـ زبدة الحلب ج٢ ص ١١ .
١٤٢ ـ سبط بن الجوزى ـ مرآة الزمان (مخطوط باريس) الورقة ١١٨ وجها وظهرا .
١٤٣ ـ هذا النص مأخوذ عن ابن العديم ـ زبدة ج٢ ص ١١ ـ ١٢ ، وقد ذكرناه كاملا لما يصور من أعمال التخريب الواسعة وما يكشف عنه من ثروات المنطقة وسكانها ، ومن الأسعار والأحوال الحضارية .
١٤٤ ـ المصدر السابق ج٢ ص ١٦ .
١٤٥ ـ انظر المقريزى ـ اتعاظ الحنفا ج٢ ص ٣٠٢ و ٣١٤ .
١٤٦ ـ انظر سبط بن الجوزى ـ مرآة الزمان (مخطوط باريس) الورقة ١٣٤ وجها وظهرا .
١٤٧ ـ انظر ابن العديم ـ زبدة ج٢ ص ٣١ .

١٤٨ ـ انظر سبط بن الجوزى ـ مرآة (مخطوط باريس) ظهر الورقة ١٥٤ ، ووجه الورقة ١٥٩ .

١٤٩ ـ انظر البندارى ـ تاريخ آل سلجوق.ص ٢٧ .

١٥٠ ـ انظر سبط بن الجوزى (مخطوط باريس) ظهر الورقة ١٢٦ ، وظهر الورقة ١٢٧ .

١٥١ ـ سبط بن الجوزى ـ مراة الزمان (مخطوط باريس) ظهر الورقة ١٢٧ . وكان القائد الأسير هو ما نويل كومنين الذى سوف يصبح امبراطور القسطنطينة ويؤسس أسرة آل كومنين .

١٥٢ ـ انظر المصدر السابق ظهر الورقة ١٥٤ ، يقول عن جوهر خاتون : خرجت قاصدة أذربيجان والناوكية المترددين الى بلاد الشام» .

١٥٣ ـ المصدر السابق وجه الورقة ١٣٤ .

١٥٤ ـ ابن القلانسي ص ٩٨ .

١٥٥ ـ المقريزى (اتعاظ ج٢ ص ٣٠٣ و ٣١٤) يصر على أنهم «الأتراك القادمون من العراق» .

١٥٦ ـ سبط بن الجوزى (مخطوط باريس) ظهر الورقة ١٣٤ .

١٥٧ ـ انظر المقريزى ـ المقفى (مخطوط المكتبة السليمية باستامبول رقم ٤٩٦) ظهر الورقة ٢٠٦ (ترجمة اتسز) ووجه الورقة ٢٤٢ (ترجمة بدر الجمالي) .

١٥٨ ـ ابن العديم ـ زبدة الحلب ج٢ ص ٣١ .

١٥٩ ـ انظر ابن الأثير ج ١٠ ص ٦٠ وانظر ابن القلانسي ص ٩٨ ، والأول يعطى رقم ١٢ ألف فارس والثاني ستة آلاف .

١٦٠ ـ ابن القلانسي ص ٩٨ .

١٦١ ـ سبط بن الجوزى ـ مرآة الزمان (مخطوط باريس) ظهر الورقة ١٣٥ .

١٦٢ ـ يفهم مثل هذا من بعض ترجمة بدر الجمالي لدى المقريزى ـ المقفى (مخطوط السليمية) وجه الورقة ٢٤٢ .

١٦٣ ـ يذكر ابن الأثير هذا الاسم على أنه : أقسيس ويقول : «وهكذا يذكر الشاميون هذا الاسم أقسيس والصحيح أنه أتسز (ج ١٠ ص ١٠٣) وأما المقريزى فيكتبه : «أطسز» ويقول : ... ومعنى أطسز ليس معه فرس وهي كلمة تركية وبعضهم يقول أتسز بالتاء عوضا عن الطاء واصله كما قلت أولا ...» (المقريزى ـ المقفى (مخطوط السليمية) باستامبول ٤٩٦ ، وجه الورقة ٢٠٦) .

١٦٤ ـ كافة النصوص هنا من سبط بن الجوزى «مخطوط باريس» الورقة ١٣٤ وجها وظهرا .

١٦٥ ـ انظر قائمة بأسماء هؤلاء الوزراء والقضاة لدى عبد المنعم ما جد ـ الامام المستنصر بالله الفاطمي (القاهرة ١٩٦١) ص ٣٢ ـ ٣٤ ، ص ٣٧ ـ ٣٨ .

١٦٦ ـ المقريزى ـ المقفى (المخطوط) وجه الورقه ٢٨١ .
واتعاظ الحنفا ج٢ ص ٣٠٢ ، وانظر كذلك ابن العديم ـ زبدة الحلب ج٢ ص ١٩ .

١٦٧ ـ انظر مثلا في الكشف عن هذه السياسة ما أورده ابن العديم في ترجمة ألب أرسلان (بغية الطلب ـ مخطوط أحمد الثالث ج٣ وجه الورقة ٢٨٤) حيث تقول له زوجه خاتون وقد هم بقتل صاحب حلب : «... تريد قتل الأمير وقد أعطيته أمانك هذا وأنت تريد تفتح مصر وما دونها ...» وكان نظام الملك هو الذى حرضها على هذا الموقف . وانظر أيضا كلمة الأفشين مع ملك الروم لدى سبط بن الجوزى (مخطط باريس) ظهر الورقة ١٢٧ ووجه الورقة ١٢٨ . «بيننا وبين بلادك هدنة ولما دخلت بلادك ما تعرضت لأحد . وهؤلاء الناوكية أعداء السلطان ويجب أن تسلمهم الينا والا أخربت بلادك ولا هدنة بيننا ...» وانظر أيضا لدى سبط بن الجوزى نفسه (ظهر الورقة ١٢٦) موقف الرفض الذى وقفه نظام الملك حين أراد ألب أرسلان قتل رسول أهل الرها . وقال : «هذا لم تجر به عادة ولا أحب أن تسن سنة لا يعرف باطنها ويقبح ظاهرها . ولطف به حتى أفرج عن الرسول...»

١٦٨ ـ انظر سبط بن الجوزى (مخطوط باريس) ظهر الورقة ١٢٦ .

١٦٩ ـ ابن العديم ـ زبدة الحلب ج٣ ص ١٩ .

١٧٠ ـ انظر ابن العديم ـ بغية الطلب (مخطوط احمد الثالث) ج٣ (ترجمة ألب أرسلان) الورقة ٢٨١ وجها وظهرا .

١٧١ ـ انظر تفاصيل الحصار وقصة لدى ابن العديم ـ زبدة ج٢ ص ٢٠ ـ ٢٣ وفي ابن العديم المرجع السابق نفسه ، ولدى سبط بن الجوزى (مخطوط باريس) الورقة ١٢٦ والورقة ١٢٧ وجها وظهرا .

١٧٢ ـ انظر سبط بن الجوزى (مخطوط باريس) الورقة ١٢٧ وظهر .

١٧٣ ـ سبط بن الجوزى ـ (مخطوط باريس) **ظهر** الورقة ١٢٦ .

١٧٤ ـ المصدر السابق نفسه .

١٧٥ ـ ابن العديم ـ زبدة الحب ج٢ ص ٢١ .

١٧٦ ـ سبط بن الجوزى (مخطوط باريس) ظهر الورقة ١٢٧ .

١٧٧ ـ المصدر السابق نفسه ، وابن العديم ـ زبدة الحلب ج٢ ص ٢٣ .

١٧٨ ـ سبط بن الجوزى (مخطوط باريس) ظهر الورقة ١٣٤ .

١٧٩ ـ ابن العديم ـ زبدة الحلب ج٢ ص ٣١ .

١٨٠ ـ سبط بن الجوزى ، ظهر الورقة ١٣٤ .

١٨١ ـ هذا النص والذى سبقه أوردهما سبط بن الجوزى (مخطوط باريس) ظهر الورقة ١٣٤ .

١٨٢ ـ ابن القلانسي ص ٩٩ .

١٨٣ ـ سبط بن الجوزى ـ وجه الورقة ١٣٧ .

١٨٤ ـ كذا ورد في مخطوط سبط بن الجوزى (وجه الورقة ١٣٧) ومن المحتمل أنه قرلو .

١٨٥ ـ ابن شداد ـ الاعلاق الخطيرة (قسم فلسطين) ص ١٧٢ .
١٨٦ ـ سبط بن الجوزى (مخطوط باريس) الورقة ١٤٦ وجها وظهرا ، وانظر كذلك ابن الأثير ج ١٠ ص ٦٨ .
١٨٧ ـ سبط (مخطوط باريس) ظهر الورقة ١٥٤ .
١٨٨ ـ سبط (مخطوط باريس) ظهر الورقة ١٥٣ .
١٨٩ ـ المقريزى ـ اتعاظ ج٢ ص ٣١٥ وانظر ابن ميسر ص ٢٢ .
١٩٠ ـ سبط (مخطوط باريس) الورقة ١٥٣ وجه .
١٩١ ـ يبدو أن شكلى لم يكن الأخ الشقيق لأتسز ولكن أخاه لأمه . وابن شداد يسميه منكلى ولعله تصحيف . (انظر ابن شداد ـ الاعلاق الخطيرة ، قسم فلسطين ص ١٧٣) .
١٩٢ ـ سبط بن الجوزى (مخطوط باريس) الورقة ١٥٣وجها وظهر .
١٩٣ ـ ابن شداد ـ الاعلاق (قسم فلسطين) ص ١٧٤ وانظر ابن ميسر ص ٢٣ ـ ٢٤ والمقريزى ـ اتعاظ الحنفا ج٢ ص ٣١٤ .
١٩٤ ـ سبط (مخطوط باريس) ظهر الورقة ١٥٣ .
١٩٥ ـ المصدر نفسه ، وجه الورقة ١٤٨ .
١٩٦ ـ المصدر السابق نفسه وجه الورقة ١٥٥ .
١٩٧ ـ انظر تفاصيل العصيان لدى ابن الأثير ج١٠ ص ٣٦ ـ ٣٧ .
١٩٨ ـ من المحتمل أن يكون هذان الاميران من أولاد قتلمش هما ألب ايلك (في رواية ماتيو الرهاوى وميشيل السرياني) ودولب ونجد اسمه لدى العظيمى . (انظر مقال كاهن عن توغل الترك في آسيا الصغرى مجلة بيزنطيون ص ٣٦) .
١٩٩ ـ سبط بن الجوزى (مخطوط باريس) ظهر الورقة ١٥٥ .
٢٠٠ ـ ابن شداد ـ الاعلاق الخطيرة (قسم فلسطين) ص ١٧٤ .
٢٠١ ـ سبط بن الجوزى ـ ظهر الورقة ١٥٥ .
٢٠٢ ـ سبط بن الجوزى (مخطوط باريس) وجه الورقة ١٥٦ .
٢٠٣ ـ ابن العديم ـ زبدة الحلب ج٢ ص ١٨ .
٢٠٤ ـ سبط بن الجوزى ـ ظهر الورقة ١٦٠ .
٢٠٥ ـ سبط ابن الجوزى (مخطوط باريس) ظهر الورقة ١٦٠ .
٢٠٦ ـ انظر ابن خلكان ـ وفيات الأعيان (طبعة احسان عباس ـ بيروت) ج ١ ص ٢٩٥ .
٢٠٧ ـ سبط بن الجوزى (مخطوط باريس) الورقة ١٦١ وجها وظهرا .
٢٠٨ ـ سبط بن الجوزى (مخطوط احمد الثالث/النسخة الرابعة) ج ١٣ الورقة ٤٧ ظهر .
٢٠٩ ـ ابن عساكر ـ تاريخ مدينة دمشق (مخطوط الظاهرية ـ الجزء الثاني رقم ٣٣٦٧ عام) وجه الورقة ٣٠٢ .
٢١٠ ـ سبط ـ الورقة ١٦١ ظهر . وأهمية النص في تحديد الأسعار والمكاييل وسعر الدينار بالنسبة للدرهم ، الذى نلاحظ فيه هنا أن الدينار المغربي (أى المصر) يعادل ١٥ درهما ولنلاحظ أن ابن عساكر (المصدر السابق) يجعل ثمن غرارة القمح عشرين دينارا فقط ،

وكذلك ابن الأثير (١٠/١٠٠) ولعلهما الأصح والأقرب للواقع .

٢١١ ـ انظر سبط ـ وجه الورقة ١٦٢ . القلانسي ص ٩٩ . ابن الاثير ١٠/١٠٠ .

٢١٢ ـ المقريزى ـ اتعاظ الحنفا ج٢ ص ٣١٥ .

٢١٣ ـ ابن القلانسي ص ١٠٨ ، سبط ـ وجه الورقة ١٦٢ . ابن عساكر تاريخ مدينة دمشق (مخطوط الظاهرية) ج٢ الورقة ٣٠٢ وجه .

٢١٤ ـ انظر المقدسى البشارى ـ احسن التقاسيم ص ١٥٦ ، وانظر ابن كثير البداية والنهاية ج ١٢ ص ١١٣ .

٢١٥ ـ انظر ابن كثير ـ البداية والنهاية ج ١٢ ص ١١٣ و ص ١١٤ .

٢١٦ ـ المقريزى ـ اتعاظ الحنفا ج٢. ص ٣١٧ وانظر المقريزى ـ المقفى (مخطوط السليمية) وجه الورقة ٢٠٧ .

٢١٧ ـ انظر «ابن عساكر ـ التهذيب ج ٤ ص ٤٤٦ .

٢١٨ ـ انظر التفاصيل لدى المقريزى (المصدر السابق) وسبط بن الجوزى (مخطوط باريس) الورقتين ١٦٦ و ١٦٧ وجاه وظهرا . وفي هامش الصفحات ١٠٩ ـ ١١١ من ابن القلانسي .

٢١٩ ـ بين المقريزى وسبط بن الجوزى خلاف في شهر المعركة فهي عند الأول في نهاية رجب وينكرها باليوم الواحد ، وعند سبط بن الجوزى أن أتسز عاد الى دمشق في عاشر رجب بينما يذكر المقريزى أنه عاد في عاشر شعبان .

٢٢٠ ـ سبط بن الجوزى (مخطوط باريس) الورقة ١٦٧ وجها وظهرا .

٢٢١ ـ انظر مثلا ابن القلانسى ص ١٠٩ حيث يقول : "ويقول (ص ١١١ ـ ١١٢)" فسرت النفوس بمصابه وتحكم السيوف في اتباعه وأصحابه ..."

٢٢٢ ـ سبط بن الجوزى (مخطوط باريس) ظهر الورقة ١٦٧ .

٢٢٣ ـ المصدر السابق .

٢٢٤ ـ ابن الاثير ١٠/١١١ وابن العديم ـ زبدة الحلب ج٢ ص ٥٦ .

٢٢٥ ـ سبط بن الجوزى ـ وجه الورقة ١٦٨ .

٢٢٦ ـ انظر ابن العديم ـ زبدة الحلب ج٢ ص ٤٨ ـ ٤٩ ، ص ٥٣ ـ ٥٤ . وانظر بغية الطلب (مخطوط احمد الثالث) ج٢ ظهر الورقة ١٦٥ ـ ووجه الورقة ١٦٦ (ترجمة أحمد شاه) .

٢٢٧ ـ انظر سبط بن الجوزى ـ مرآة الزمان (مخطوط احمد الثالث رقم ٢٩٠٧ ـ النسخة الرابعة) الجزء ١٣ ظهر الورقة ٤٧ .

٢٢٨ ـ انظر ابن العديم ـ زبدة الحلب ج٢ ص ٥٦ .

٢٢٩ ـ يضيف سبط بن الجوزى قبل هذه الجملة قوله : "وكان من العقلا الساسة" (انظر المصدر السابق الجزء ١٣ ظهر الورقة ٤٧) ويظهر أن هذا الحكم ينسحب على ما بعد هذه الفترة لأن تتش في هذه السنة سنة ٤٧٠ كان في الثانية عشرة من العمر .

٢٣٠ ـ سبط بن الجوزى (مخطوط احمد الثالث/٤) ج ١٣ ظهر الورقة ٤٧ .

٢٣١ ـ ابن العديم ـ زبدة ج٢ ص ٥٦ .

٢٣٢ ــ يذكر ابن العديم (زبدة ج٢ ص ٥٧) أن ذلك كان سنة ٤٧١ ولكن تسلسل الحوادث ، وما ذكره ابن القلانسي وسبط بن الجوزى (نقلا عن غرس النعمة المعاصر) يجعل التاريخ سنة ٤٧٠ . يضاف الى هذا أن السبط يذكر في سنة ٤٧١ عودة تتش عن الحصار في شهر صفر وهذا يتطابق مع مدة الحصار الذى بدأ في ٣ ذى القعدة ٤٧٠ واستمر حسب نص ابن العديم ثلاثة أشهر وعشرين يوما . وأنظر ابن القلانسي ص ١١٢ وسبط بن الجوزى (مخطوط احمد الثالث) الجزء ١٣ ظهر الورقة ٤٧ .

٢٣٣ ــ انظر هذه النصوص والقصيدة لدى ابن العديم ــ زبدة الحلب ج٢ ص ٥٨ ــ ٦٠ .

٢٣٤ ــ سبط بن الجوزى (مخطوط احمد الثالث/٤) الجزء ١٣ وجه الورقة ٤٧ وظهر الورقة ٤٨ .

٢٣٥ ــ ابن العديم ــ زبدة الحلب ج٢ ص ٥٧ .

٢٣٦ ــ يذكر السبط أن احتلال منبج كان في الهجوم الأول وقد آثرنا رواية ابن العديم من أنه كان في هذه الهجمة الثانية ولنلاحظ أن أحداث هذه الفترة متداخلة لدى المؤرخين لتشابهها ، وقد حاولنا جهدنا تنظيمها الكرونولوجي والمنطقى .

٢٣٧ ــ ابن العديم ــ زبدة الحلب ج٢

٢٣٨ ــ سبط بن الجوزى (مخطوط) ج ١٣ الورقة ٥١ وجها وظهرا .

٢٣٩ ــ ابن الاثير ج ١٠ ص ١١١ والمقريزى ــ اتعاظ ج ٢ ص ٣٢١ .

٢٤٠ ــ رواية غرس النعمة لدى سبط ــ المخطوط ج ١٣ وجه الورقة ٥٠ .

٢٤١ ــ المصدر السابق والسبط ــ المخطوط ج ١٣ وجه الورقة ٥٠ ووجه الورقة ٥١ .

٢٤٢ ــ ابن القلانسي ص ١١٢ وابن عساكر ــ تاريخ دمشق (مخطوط الظاهرية/المجلد الثالث رقم ٣٣٦٨ عام) وجه الورقة ٢٦٠ وجه . ولنلاحظ أن ابن الأثير يجعل دخول تتش الى دمشق سنة ٤٧١ متابعة منه لابن الهمداني والمؤرخين العراقيين ويذكر أن ابن عساكر يخالفهم (انظر ابن الاثير ١٠ ص ١١١) .

٢٤٣ ــ يذكر ابن القلانسي أن مقتل أتسز كان في شهر ربيع الأول وبعد مديدة من دخول تتش دمشق بينما يذكر ابن الأثير أنه قبضه فور دخوله دمشق وقتله في الحال ، والتاريخ الذى يذكره ابن عساكر لكل من دخول دمشق ومقتل أتسز هو تاريخ واحد "(١١ ربيع الآخر سنة ٤٧٢) وقد اعتمدناه . ويبدو أن تتش أقام مديدة في مرج عذراء قبل دخول دمشق وأنه قتل أتسز فور دخوله المدينة .

٢٤٤ ــ انظر تفاصيل كل اولئك لدى ابن العديم ــ زبدة ج١ ص ٦٥ ــ ٦٧ .

٢٤٥ ــ سبط بن الجوزى (مخطوط احمد الثالث) ج ١٣ الورقة ٥٠ ظهر .

٢٤٦ ــ المصدر نفسه (مخطوط باريس) الورقة ١٧٤ ظهر ١٧٥ وجه .

جوانب اجتماعية من تاريخ دمشق
في القرن الخامس عشر من مخطوطة أحمد بن أحمد بن طوق

الأستاذ عبد الودود برغوت
متحف دمشق ـ سوريا

تقديم :

في الظاهرية بدمشق ، مخطوطة نادرة ، ابتعد عنها الباحثون بسبب سؤ خطها وتعقيده رغم شعورهم بأهميتها البالغة .

تتألف المخطوطة من (٤٢٥) ورقة مفروطة ، لا تجمعها جلدة (٤٠٥) ورقات منها حجمها (١٩ × ١٤) سم ، وكل صفحة تحوى ما بين (٣٠ و٣٥) سطرا ، وباقي الاوراق بحجم (١٤ × ١٠) سم ، وكل صفحة منها تحوى ما بين (٢٥ و٢٨) سطرا .

المخطوطة تتحدث عن تاريخ دمشق اليومي ابتداء من (٨ شوال عام ٨٨٥ هجري (١٤٨ م) ، وتستمر مع بعض الثغرات المحدودة الى الثاني من شهر جمادى الآخرة عام (٩٠٨ هجري ١٥٠٢م) .

ويتلو ذلك ١٩ ورقة فيها بعض اخبار السنين التي تتابعت ما بين (٩١٠ و٩١٤ هجري) (١٥٠٤ ـ ١٥٠٨ م) . وبقية اخبار هذه السنين ضائع لا أثر له .

مؤلف المخطوطة :

هو شهاب الدين احمد بن محمد الشهير بابن طوق ولد سنة ٨٣٤ هجري ، وتوفي عام ٩١٥ هجري .

كان محدثا مشهورا ، وتلميذا لشيخ الاسلام تقي الدين ابن قاضي عجلون[١] .

مكنه علمه من تمحيص الاخبار ، ومكنه قربه من شيخ الاسلام من معرفة احداث دمشق والسلطنة المملوكية بكل دقة وتفصيل .

كان اهتمام الكاتب ينصب على الاخبار الاجتماعية ، أكثر من اعتمامه بالاحداث السياسية في عصره . ففي مستهل عام (٨٩٠ هجري/ ١٤٨٥ م) مثلا ، تحدث عن الطقس ، والاسعار ، والبضائع ، من قمح وشعير ولحم ولبن وحليب ، وجبن وزيت وسمن . وسيرج ودبس ، وبين مدى وفرتها أو ندرتها ، وخص الخبز بحديث منفرد ، وسأل الله اللطف والفرج واصلاح الاحوال، ثم بدأ يتحدث عن اخبار الدولة ابتداء من سلطان البلاد ، حتى أخر موظف كبير في دمشق .

وكان يفعل مثل ذلك أثناء ذكره لاخبار كل يوم . وطوال العام ، وخلال يومياته كلها .

سنستعرض في هذه الدراسة ، التي وضعناها للتدليل على اهمية هذه المخطوطة ، ثلاثة جوانب هامة من حياة دمشق الاجتماعية في نهاية الفترة المملوكية ، هي :

المظالم الاجتماعية التي كانت تقع ، وكيف كانت تنهى .
تنظيمات الزعر والشطار ، وأثرهم في مجتمع دمشق .
بعض الاعياد والاحتفالات الدمشقية .

المظالم الاجتماعية التي كانت تقع ، وكيف كانت تنهى

يبدو – بوضوح – من يوميات هذه المخطوطة أن نهاية الحكم المملوكي كانت مملوءة بالفوضى ، وان الناس كانوا يرزحون تحت ظلم شديد ، تحدث عنه الكاتب بشكل واضح ومباشر في كثير من المناسبات .

من ذلك مثلا ، قوله : اصبح الظلم متزايداً، كثيراً جدا ، من كل الحكام[٢] .

وكان يمارس هذه المظالم القائمون على اجهزة الحكم جميعها ، سواء منهم النائب واعوانه ، أو الجند . وسنتحدث عن نماذج من ظلم كل من هؤلاء .

١ – مظالم الحكام :

وكان ظلمهم مريرا ، يعبر عنه الكاتب بعبارات مملوءة بالأسى، منها :
(والخلق تحت الطاف الله تعالى من الظلم ، في البر والمدينة[٣] .)

(والناس في أمر مريع من الظلم[٤] .)

(والخلق في شدة عظيمة ، نسأل الله العافية والعفو ، وان لا يؤاخذنا بسؤ أفعالنا[٥] .)

(وتزايد ظلم الترك على الرعية .. وحركات كثيرة من الظلمة وغيرهم[٦] .)

وكان الكاتب يعبر عن مكنون نفسه ، حينما كان يتحدث عن صوت أحد الحكام فيقدم لنا وصفا كاملا لمظالمه . من ذلك مثلا ما تحدث به عن المملوك حيدر ، نائب دمشق ، الذي كان يشغل وظائف كبيرة في الدولة ، منها : الداودارية[٧] ، والأستاذ دارية[٨] ، والحسبة[٩] ، والحشر[١٠] ، فقال عنه : (أخرب البلاد ، واهلك العباد ، واخر مرة طلع الى حوران ، وأخرب بلادها ، ثم طلع للبقاع ، وأخرب بلادها ، ثم بلاد الدروز وغيرهم[١١] .) وبعد ان وصف لنا كيف مات ، قال : (واراح الله العباد والبلاد منه ولله الحمد ، واللهم أهلك كل جبار عنيد) .

ولم يكن هذا الظلم منتشرا في دمشق وحدها ، بل كان عاما ــ كما يبدو في انحاء السلطنة المملوكية جميعها . فقد تحدث الكاتب عن احد اصدقائه ، الذي جاء من القدس ، هاربا من الظلم ، فقال (يحكي صاحبنا امورا قريبة من امور تيمور اللنك[١٢] .)

وكان الحكام يرتكبون المظالم عندما كانوا يجبون الضرائب ، وخاصة ما كان منها يتعلق بتكاليف الجيوش التي كثرت في الفترة الاخيرة من الحكم المملوكي ، نتيجة اصطدامه مع العثمانيين . اذ كانت الدولة تفرض على كل مدينة أو قرية أحد أمرين :

ــ اما أن يقدم أهلها عدداً من مشاة الجند ، ويتكفلوا بالانفاق عليهم حتى يعودوا .

ــ أو أن يدفعوا نفقات الجند الذين كانت تستخدمهم الدولة كمرتزقة .

وكان نائب السلطنة في دمشق . واعوانه ، يتبعون أقسى الأساليب لارغام الناس على تلبية طلب السلطان من الجند .

ففي عام (٨٩٥ هجري/ ١٤٨٩ م) ، طلبت الدولة من الناس درهم المشاة وكان يوضع كل من يتأخر عن تلبية طلبها في «التراسيم» أي السجون . ويضرب حتى يدفع المال المطلوب منه . واذا هرب قاد الجند زوجه واطفاله الى السجن ، حتى يسلم نفسه ، ويدفع المال المطلوب منه[١٣] .

٢ - مظالم الجند :

كان الجند من اهم مصادر المظالم . اذ ان الجيوش التي كانت تعبر عن المنطقة ، كانت تقيم حول دمشق . واثناء اقامتها ، كانت تعبث في البلاد فسادا لا حد له .

ففي عام (٨٩١ هجري/١٤٨٦ م) حل الجند حول دمشق ، واصبح (مماليك السلطان الاجلاب عايشون في البلاد ، والمشاة ينقلون على الناس ، والناس في امره مريج ، ويفرج الله الهموم[١٤]) .

حتى ان السلطات نفسها كانت تحاول تقليل خسائر الناس ما امكنها نلك ، فكانت ترسل من ينادي في الناس بأن (الاسواق تغلق لاجل المماليك؟[١٥]) حرصا على اموالهم ، كما كانت تأمر الناس ان يخفوا الاولاد والنساء والدواب (خوفا من العساكر المصرية لانهم عاشوا في غزة ، وقتلوا بها ثلاثة انفس ، ونسأل الله العافية ، ونعوذ بالله من الفتن[١٦]) .

الا ان هذا كله لم يكن ليغني شيئا ، فبعد ثلاثة ايام من نزول الجند بدمشق حاولوا اختطاف امراة فخلصها الناس منهم ، وضربوا رجلا حتى مات .. (واحوال عجيبة وامور غريبة ، وخباطات وفتن وخوف وكذب وظلم فلا حول ولا قوة الا بالله ، ونسأل الله اللطف في القضاء ، وان لا يؤاخذنا بسؤ افعالنا ..[١٧]) .

وفي عام ٨٩٤ هجري/١٤٨٨م) دخل جنود السلطان الى دمشق (وغالبهم يعيش في البلد ، ويأخذ دواب الناس من فرس وبغل وحمار ، والخلق في شدة بسببهم ، ويلطف الله ، ومنهم الفساد والافساد ، فانا لله ، وانا اليه راجيعون ، والاكابر قد غلقت ابوابها ، واحتجبوا[١٨] . ولم يكن العابرون من الجند هم مصدر الظلم وحدهم ، بل كان جند دمشق المقيمون فيها يشكلون مصدرا من مصادر الظلم والفوضى ايضا :

فيكفي أن يخاصم جندى دمشقيا لتشتعل معارك قد تؤدي الى احراق أحيا' أو قرى بكاملها . كما حدث عام (٨٩١ هجري/١٤٨٦ م حين تنازع مملوك مع رجل من داريا ، فأسرع مائة من زملائه المماليك بالبولاد الكامل ، يريدون تخريب داريا كلها ، وتدخل النائب بنفسه» وما زال يسترضيهم حتى أقنعهم بعدم تخريب داريا كلها[١٩] .

موقف الناس من هذه المظالم .

كان المظلومون لا يستكينون للظلم ، بل كانوا يخرجون متظاهريـن يصحبهم رجال حيهم أو قريتهم ، أو مهنتهم ، يهللون ويكبرون ، طالبين انصافهم ، وبأيديهم الأعلام والرايات . كما حدث عام (٨٩٢ هجري/١٤٨٦ م) حين نزل من أهل الصالحية خلق كثير ، بتهليل وتكبير ، وأعلام ، يطلبون الانصاف[٢٠]) ، وكذلك فعلوا عام ٨٩٦ هجري/١٤٩٠ م[٢١] .
كان المظلومون يتوجهون الى احدى ثلاث جهات لانصافهم :

١ ـ الجامع الأموي : حيث يتجمهرون في الجامع قبيل صلاة الجمعة ، وينادون جميعا بما حل بهم ، وليسمعهم رجال السلطة الذين كانوا يصلون في الجامع الأموي ويعملوا على انصافهم . والأخبار عن هذا الأمر كثيرة جدا .

ففي عام (٨٩ هجري/١٤٨٦ م (قامت غاغة بالجامع الأموي بعد الصلاة على المحتسب . قدام النائب ، وقال لهم أنه يعزله[٢٢] وفيها أيضا : (استغاث العوام بعد الفراغ من الدعاء ، بالمقصورة[٢٣]) وفي العام الذي سبقه : (كبر أهل المزة على جاني بك دوادار السلطان ، بجامع بني أمية ، لظلمه لهم[٢٤]) .

وفي عام ٨٨٩ هجري بعد الصلاة ، قامت غاغة من أهل عربيل وجوبر[٢٥]
وفي عام ٨٨٦ هجري (اجتمع أهل سوق الذراع بالمسجد بعد الظهر ، بسبب السكر الطرح[٢٦] ، وذكروا أنه مدود[٢٧]) .

وكان المظلومون لا يكتفون ـ في معظم الاحيان ـ بالهتاف بما حاق بهم من مظالم داخل المسجد ، بل كانوا يصعدون الى مآذن الجامع الأموي لينادوا من فوقها بما أصابهم من ظلم ، ليسمعهم أقرب الناس اليهم ، وليصعدوا بدورهم الى مآذن جوامعهم لينادوا بما نادى به المظلومون ، ليعم خبرهم انحاء دمشق جميعها[٢٨] .

وكان المنادون في مآذن الجامع الأموي يصحبون معهم (منجقين) كانا في الجامع ، وينشرونهما في مآذنه ليراهم الناس كلهم[٢٩] .

٢ ـ أما المرجع الثاني الذي كان يقصده المظلومون ، فكان شيخ الاسلام الذي كان مقره في المدرسة البدرائية . كانوا يتوجهون اليه ليطلبوا منه التدخل لانصافهم ، باعتباره مصدر العدل ، وصاحب الرأي ، والمرجع القانوني النهائي في الأمة .

والأخبار عن ذلك كثيرة .

ففي عام ٨٩٦ هجرب/١٤٩٠ م جار دوادار السلطان على أهل المزة الصالحية . فضربهم ، وسجنهم ، فتجمهروا ، وأخذوا (يأتون الى مولانا الشيخ أفواجا أفواجا بسبب الدوادار .. اللهم اقصمه ، وأرح البلاد منه[٣٠]) .

(وجاء اهل السوق الى مولانا الشيخ بسبب بقر نهبت وطرحت على الخلق بثمن غال[٣١]) .

وفي عام (٨٨٧ هجري/١٤٨٢ م) جاء غالب أهل البلاد الذين يشربون من نهر تورة الى عند سيدى الشيخ[٣٢] .

«واجتمع خلق مسلمون ، من بلاد جبة عسال ، ونزلوا للمدينة مستغيثين من ظلم ابن الحرفوش ، فنزلوا الى عند سيدى الشيخ ، مستغيثين مستجيرين ، فشرع في السعي في قضيتهم[٣٣]» وهناك الكثير من مثل هذه النصوص .

٣ ــ وأحيانا كان المظلومون يتوجهون الى كافل نيابة دمشق ، نائب السلطان فيها ، ورأس السلطة التنفيذية في النيابة ، يطلبون منه انصافهم .

فقد قتل جندي ، (نحس وله سوابق بالقتل) ، لاجلا ، فثار الناس «واجتمع العوام كثيرا ، ما بين رجال ، ونساء وأطفال ، واستغاثوا للنائب ....» حتى يأمر بقتل القاتل ، لأن القاضي لم يتخذ موقفا منصفا[٣٤]» ، فهدأهم النائب ، ووعدهم الانصاف .

كما شكا أهل الأسواق للنائب ، أن السكر الذي ألزمهم بشرائـه دوادار السلطان . غير صالح[٣٥] ...

وحوادث كثيرة أخرى من هذا النوع .

هل كان الناس يصلون الى رفع الظلم عنهم نتيجة مواقفهم السابقة ؟؟ ..

كانوا يصلون في معظم الاحيان الى ما يريدون :

فعندما قامت «غاغة» بالجامع الأموي ضد المحتسب أمام النائب ، قال لهم أنه سيعزله ، وعزله . وكذلك عندما ثار الناس طالبين من النائب اعدام جندى قتل رجلا ، فهدأ النائب روعهم ، ووعدهم الاقتصاص من القاتل ، وطلب الى القاضي ان يحقق في الامر ، وطال تحقيق القاضي ، والناس حول دار السعادة ، فخرج القاضي قبل ان ينهي التحقيق ، فرأى الناس جالسين ينتظرون ، فلما رأوه ، صرخوا به ، فأسرع هاربا الى بيته ، وهم يسعون خلفه ، فلما وصل الى بيته وجد الناس متجمهرين حوله ، ففر الى بيت نائبه ، فلاحقه الناس ورموا بيت نائبه

بالحجارة رميا كثيفا ، وحاولوا كسر ابوابه ، ووقف اهل نائب القاضي فوق الاسطحة يرجمون الناس ، ... ولما وصلت الامور الى هذا .. ارسل نائب السلطنة مناديا «ينادى للناس بالامان والاطمئنان» وانه سوف يحقق لهم رغبتهم ، «واصبح الجندى القاتل مشنوقا ، خوفا من العوام[٣٦]» .

وفي عام (٨٨٧ هجري/١٤٨٢ م) جر نائب دمشق مياه نهر تورة الى قريته عدرا ، ليسقي بساتينه ، في ايام ليس له حق السقاية فيها من هذا النهر ، وانما هي من حق فلاحي قرى دومة وحرستا وغيرها ، فثار الفلاحون على النائب ، وطالبوه بايقاف جر مياه النهر ، فوعدهم ان يعطيهم اياما بديلة عنها من ايامه ، «الا ان غالب اهل البلاد الذين يشربون من نهر تورة رفضوا كي لا يحصل لهم بذلك الضرر . ويخافون انها تصير عادة» .وفشل النائب في اقناعهم ، فسمحوا له ان يستفيد من هذا الامر مرة واحدة فقط ، وعادت الامور الى ما كانت عليه اي كما اراد الفلاحون[٣٧] كما «قامت غاغة من اهل عربيل وجوبر وغيرهما (عام ٨٨٩ هجري/١٤٨٤ م) بسبب ما باعته الدولة لطائفة اليهود السامرة من ماء نهر تورة ، وسمحت لهم بافتتاح كوة في النهر يصل اليهم منها الماء ، وطلبوا الى القاضي الشافعي انصافهم ، «فقال لهم القاضي أضربوها ، فطلعوا أضربوها»[٣٨] وفي عام)٨٨٨ هجري/١٤٨٣ م) نزل عدد كبير من فلاحي قرية جبة عسال الى شيخ الاسلام في دمشق «مستغيثين من ظلم ابن الحرفوش مقدم بلادهم» الذي كان دفع رشاوى كبيرة ليعين بمنصبه وشرع بعد توليه في ظلم الناس «وزاد وبالغ»[٣٩] .

واستطاع شيخ الاسلام ان يتدخل ، حتى تم عزل ابن الحرفوش ، وعين ابن غلوطة الذي احتفل به الناس بالطبول والزمور لعدله .[٤٠]

وفي عام (٨٩٦ هجري/ ١٤٩٠ م) تظاهر اهل الصالحية ، مطالبين بعزل والي الصالحية الظالم ، فطلب منهم النائب أن يسموا من يحبونه ليعينه بدلا عنه ، وعينه فعلا [٤١] » ، وعزل من شكوا منه . كما ثار اهل الصالحية عام (٨٩٦ هجري/ ١٤٩٠ م) على الدوادار الذي قال لعمال الحياكة في الصالحية : "اخرجوا من بلدي» ، فاستدعى نائب السلطان الدوادار «ونهره ، وشتمه ، ووضعه في الحديد ، وقال للحياك انهم لا يعرفون شيئا ، ويسكنون على عادتهم امنين[٤٢] .

لكن مطالب الناس ـ احيانا ـ ما كانت لتلبى ، فكيف كانوا يتصرفون في مثل هذه الحالة ؟؟؟ .. كانوا يلجأون الى شيخ الاسلام ـ مرة ثانية ـ فيرسل هو

بدوره مندوبا خاصا عنه الى السلطان ، ليوصل اليه المظلمة الواقعة ويطلب منه رفعا» . وكانت المراسيم ترد من السلطان ـ في معظم الاحيان ـ بانصاف المظلومين .

فقد شكا اهل الاسواق ، وخاصة الحلوانيين ، وتجار السكر[43] ، وتجار سوق جقمق[44] ، استاذ دار السلطان ، الذي فرض عليهم شراء سكر صادره من الاغوار ، بثمن باهظ ، رغم انه سيىء وفاسد ، شكوا امرهم للنائب وشيخ الاسلام ، طالبين تخفيض ثمنه ، فاقترح النائب ثمنا غاليا لم يرض به شيخ الاسلام وبقيت المشكلة بدون حل ، فضج الناس جميعا (وكبروا في المواذن على الاستاذ دار ، فأرسل شيخ الاسلام فورا مندوبا عنه الى القاهرة ليطلب الى السلطان وأولى الامر ان يتدخلوا لحل القضية بسرعة . وعاد الرسول بعد تسعه ايام ومعه مراسيم للنائب (ان يجمع السماسرة وارباب الخبرة) ليضعوا الثمن العادل للسكر المطروح على الناس . وهكذا كان .

وعندما كان النائب او السلطان لا يستجيبان لرفع الظلم عن الناس ، فأن هؤلاء كانوا يتخذون مواقف عنيفة «فقد رجم العامة نائب حلب ، وخربوا داره ، ودخلوا مع جنوده بمعركة ليقتلوه ، واخرجوه من حلب ، وقالوا : اما هو ، واما نحن ، ما بقينا نريد نائبا علينا ، فلما طلب النائب من جند السلطان ، عونه على العامة ، رفضوا وقالوا له : نحن ما جئنا لنخرب حلب مدينة السلطان ..[45]»

منظمات الزعر والشطار في دمشق

يبرز النعيمي في يومياته جانبا اجتماعيا هاما كان له اثر واضح في حياة دمشق اليومية هو منظمات الزعر او الشطار ، وسنتحدث هنا من خلال ما ذكره ، عن : تسمياتهم ، وتنظيماتهم ، واعمالهم .

تسمياتهم

تذكر اليوميات للفرد المنتمى الى هذه التنظيمات عدة اسماء هي :

أ ـ الأزعر[46] : وجمعه «الزعر[47] كما تذكر المخطوطة .
ب ـ الشاطر[48] : وجمعه «الشطار[49] كما تذكر المخطوطة ايضا .
ج ـ العايق[50] : ولم نجد لهذا المفرد في المخطوطة جمعا .

تنظيماتهم :

كانت منظمات الزعر منتشرة في احياء دمشق جميعها ، فقد ذكرت اليوميات حوادث قام بها زعر من باب السريجة[٥١] .

والصالحية[٥٢] ، او درب الصالحية .

والشاغور[٥٣]

وحارة المزابل[٥٤]

والمرجة بين النهرين[٥٥]

والشويكة[٥٦]

ولم اعثر على ما يؤكد وجود ترابط مشترك يجمع الزعر في تنظيم واحد على مستوى المدينة كلها .

كان لابد لكل من يريد الدخول في تنظيم الزعر ان يخضع لتقاليدهم ونظمهم الداخلية ، ولا يخفى هذا على مجموع الناس فهم يعرفون من ينتمي الى صفوف الزعر نتيجة تمسكه بهذه التقاليد ، ويقولون عنه انه تزاعر[٥٧] ، اي اصبح في تنظيم الزعر .

وكان من اهم شروط الرجل حتى يصبح ازعر ان يحسن استعمال السلاح ، فالزعر جميعهم مسلحون[٥٨] ، يظهرون بسلاحهم امام الناس ، وكما يقول الكاتب ـ بالعدة الكاملة[٥٩] ـ واحيانا كانوا يظهرون «ومعهم السلاح مسلولا[٦٠] ، وينفذون اغراضهم وهم ملثمون[٦١] مشاة او فرسانا[٦٢] .

وكان للزعر في كل حي رئيس يقودهم يسمى (الكبير) ، ويقرن الكاتب اسمه بلقبه وحيه ، فيقول مثلا (كبير زعر الشاغور)[٦٣] . وكان قادة الزعر معروفين مشهورين ، بأسمائهم واحيائهم ، مع اتباعهم ايضا .

اعمالهم :

يبدو من خلال نصوص اليوميات ان زعر كل حي كانوا قوته المسلحة التي تحميه ، وتدفع ما يمكن ان توقعه به الاحياء الاخرى من نكبات، ذلك لأن الصراعات ما بين الاحياء كانت تشكل ظاهرة دائمة في تاريخ مدينة دمشق[٦٤] .

كما كانت ـ احيانا ـ تشكل القوة المسلحة التي تنفذ للحي مطالبه ، وترفع عن ابنائه ، بالسلاح ، مظالم الحكام .

الا انهم ، وبسبب وجود السلاح بين ايديهم ، كانوا يمارسون سرقة بيوت الناس ، ويقتلون من ينزلون الى بيته ليسرقوا ماله ان قاومهم ، او عرفهم[٦٥] .

كما كانوا يقطعون الطرقات وينهبون اموال القوافل[٦٦].

كانت لهم الى جانب ذلك لقاءات جماعية مستمرة في دور الطرب والغناء[٦٧] التي كانوا ينشئونها بانفسهم ، وفي لقاءاتهم الجماعية هذه كانوا «يمارسون المنكرات ، ويجتمعون على الفساد»[٦٨] كما يقول النعيمي في يومياته .

لكل ذلك كانت الدولة تحاربهم ، وتلاحقهم وتقتل كل من تظفر به منهم لانهم كانوا في صراع دموي دائم مع رجال كلصوص ومجرمين .

كما كان الناس يكرهونهم ايضا لفسادهم وجرائمهم ، ولأنهم كانوا يسببون لهم متاعب مستمرة مع السلطان .

فقد كان الناس يجنون اوزار جرائمهم ، فالقتيل الذي كان الزعر يقتلونه ، كان الناس هم الذين يدفعون غرامته ، ان لم يستطيعوا تسليم قاتله للسلطة ، ومن الصعب عليهم تحقيق ذلك في معظم الاحيان . وكانت احداث القتل مستمرة ، تؤدي في بعض الاحيان الى حدوث كارثة عامة في الحي الذي كانت تقع فيه الجريمة ، فقد قتل الزعر عام (٩٠٣ هجري/١٤٩٧ م) والى الصالحية ، ففرض وكيل نائب السلطان بدمشق على اهل الصالحية غرامة قدرها عشرة الاف دينار ، فدية للمقتول ، اذا لم يسلم الحي الى السلطة القاتلين من الزعر . وهددهم بانهم ان لم ينفذوا احد الامرين فانه سيخرب الصالحية . ولما عجز الناس عن امساك الزعر ، وبسبب ضخامة الغرامة المفروضة بدؤوا يهاجرون من حيهم ، ويتركون بيوتهم وحوانيتهم خوفا من ان ينفذ وكيل النائب تهديده . فلما راهم الوكيل يهاجرون اصدر امرا بتغريم كل من ينتقل من الصالحية . فذعر الناس ، واستمروا على ذلك اسبوعا كاملا ، وكادت تقع كارثة لولا وصول نائب السلطان بدمشق الذي كان غائبا خارج المدينة ، الى وكيله بالا يفعل شيئا حتى يعود هو من سفره . وامر ان ينادى في الصالحية بالامان . فرجع الناس الى بيوتهم وحوانيتهم .[٦٩]

وكانت سطوة الزعر تشتد او تضعف حسب قوة السلطة او ضعفها ، فاذا ضعفت السلطة نشط الزعر وعملوا تحت سمع السلطة الضعيفة وبصرها ، فقد انتشروا في عام (٩٠٠ هجري/١٤٩٤ م) بين الناس بشكل ظاهر ، حتى ان الكاتب قال عنهم : «وهؤلاء الذين يقال لهم الزعر قد كثروا ، وكثر فسادهم ، ويقال انهم قتلوا قتيلا عند حمام الجوخي يوم تاريخه ، وادروا في اسواق المدينة ، والتجار والصاغة وغيرهما ، ومعهم السلاح مسلولا ، يطلبون المال من الناس فلا يخالفهم احد ، وقد طلب شخص منهم من شخص شيئا بسوق النحاسين داخل

البلد ، فلم يعطه ، فضربه ، وجرحه ، والمقصود انه كثر فسادهم ، ويكفي الله تعالى فيهم ..[٧٠]» وقد استدعى هذا الواقع ان يطلب شيخ الاسلام من نائب السلطان ان يتدخل ليكف عن الناس شر الزعر ، فأمر النائب ان ينادى في المدينة «ان الزعر من اهل الشاغور يبطلون جباية المال ...[٧١] .

ولم تكن هذه سيرة هؤلاء دائما ، بل كانوا في كثير من الاحيان يشكلون يد الشعب المسلحة ضد ظالميه ، فقد قبض وكيل نائب السلطان بدمشق على بعض فلاحي سقبا ، ووضعهم في السجن ظلما ، فأرسل شيخ الاسلام يطلب اخراجهم ، فرفض وكيل النائب ذلك ، فأعلن شيخ الاسلام ان الوكيل ظالم ، وهدده بأنه ان لم يطلق المساجين فانه سيغادر المدينة . والتهبت الامة بالنقمة على وكيل نائب السلطان الذي لم يلب طلب شيخ الاسلام الذي يريد رفع الظلم عن الفلاحين ، واسرع قائد حامية دمشق وعبأ قواته وهدد وكيل النائب بأنه ان لم يستجب لشيخ الاسلام ويطلق الفلاحين المسجونين ، فسوف يدخل معه في حرب مسلحة ، كما تدخل احد امراء الالوف ليضغط بدوره على وكيل الكافل .

وجاءت الوفود ، من الامراء والقضاة ، الى (عند مولانا الشيخ وتراموا عليه ، وأجمعوا أنهم نهار غد ، أخر النهار ، يطلقون المحابيس[٧٢]) .

ولم يخرج زعر دمشق عن الاجماع الشعبي ، «فجاء زعر الشاغور الى عند مولانا الشيخ يعلمونه ان احد الامراء ارسل يطلب مساعدتهم ضد الوكيل الظالم ، ووقوفهم الى جانب شيخ الاسلام ، وقالوا لشيخ الاسلام : نحن بين يديك ، فقال لهم «انا مالي غرض الا اطلاق المحابيس ، او انا ارحل من هذه المدينة»[٧٢] .واطلق وكيل النائب المساجين في اليوم التالي مرغما ..[٧٣] .

كان بعض رجال السلطة يستفيدون من الزعر كرجال مدربين مسلحين ، ليستعينوا بهم كحرس لهم ، او كجند يأتمرون بأمرهم ، فقد وجدنا بعضهم يعملون عند نائب القلعة[٧٤] . واخر عند القاضي الحنبلي[٧٥] .

الاعياد والاحتفالات[٧٦]

كان لدمشق اعياد متعددة ، منها ما كان له مواعيد ثابته ، كخميس البيض ، وخميس الحلاوة ، والاعياد الزراعية كعيد الجوزة ، وعيد الزبيب ، واعياد الطوائف المسيحية كعيد البربارة ، وعيد الغطاس ، واعياد اليهود كعيد النور .

ومنها ما كان يحدث بالمناسبات كحفلات الطهور ، والعزاء والاعراس ، وحفلات الثلج ، وغيرها .

كانت الظاهرة العامة في معظم هذه الاعياد وجود المراجيح المستديرة التي تدور حاملة الرجال والنساء والاطفال[٧٧] .

أ ــ الأعياد وهي: ــ

١ ــ خميس البيض : ــ

وكان سكان دمشق يخرجون فيه جميعا الى القابون[٧٨] ، نساء ورجالا واطفالا[٧٩] ويختلط بعضهم ببعض . وكان نائب السلطان يأمر ــ احيانا ــ بابطال هذا العيد ان ظهرت بعض المفاسد الاخلاقية فيه . ويبلغ امره للناس عن طريق المنادين الذين كان يبثهم في كل مكان من المدينة لينادوا «ان لا يطلع احد للقابون على عادة المفسدين»[٨٠] .

٢ ــ خميس الحلاوة :

٣ ــ عيد قبر الست :

وكان موعده في اول احد من السنة الهجرية ، واخر احد منها ، يخرج فيه اهل المدينة الى قرية السيدة زينب ، رجالا ونساء واطفالا[٨١] . وقد ابتدأ العمل بهذا العيد حوالي عام (٨٨٨ هجري/١٤٨٣ م) ، ثم اصبح عيدا دائما[٨٢] .

٤ ــ الاعياد الزراعية : ــ

وذكرت المخطوطة منها عيد الزبيب ، وعيد الجوزة .

اما عيد الزبيب[٨٣] فموعده عند نهاية قطاف العنب ، ويحتفل فيه الفلاح ابتهاجا بجني محصوله كله ، وتوفر ثمنه بين يديه . وفيه يدفع ديونه ، ويعقد قران ابنائه .

وعيد الجوزة : عيد يحتفل فيه الفلاح بانتهاء قطافه للجوز[٨٤] .

٥ ــ اعياد المسيحيين : ــ

واحصينا لهم في المخطوطة الاعياد التالية : ــ

العيد الكبير[٨٥] ويلي صيامهم الكبير[٨٦] وعيد الغطاس[٨٧] وعيد لهم في اول نيسان[٨٨] ، وعيد البربارة[٨٩] ، وعيد الدير[٩٠] ، وخميس النصارى الذي يصادف عيد الفطير عند اليهود[٩١] ، وعيد لهم يلي خميس البيض[٩٢] .

كان المسيحيون يحتفلون بهذه الاعياد في احيائهم ، الا في خميس النصارى فقد كانوا يخرجون فيه الى القابون ، ويشاركهم المسلمون في اعيادهم هذه[٩٣] .

٦ ـ اعياد اليهود : ـ

وكان لهم في دمشق عيدان : عيد النور[٩٤] ، وعيد الفطير[٩٥] .

ب ـ احتفالات المناسبات

وسنتحدث هنا عن حفلات الطهور ، والاعراس ، والوفاة ، ونزول الثلج .

١ ـ حفلات الطهور ، او الختان :

وهي على نوعين : خاصة ، وعامة .

اما حفلات الختان الخاصة : فكان والد الطفل المختون يدعو ، في يوم محدد ، كثيرا من اصحابه ، وعددا كبيرا من اعيان المدينة ، وتسبق حفلة الختان تهيئة ثياب جميلة للطفل · كثياب العروس . وفي الموعد المحدد للاحتفال ، يحتشد الناس ، وينشد المنشدون الاناشيد اللطيفة ، ويقرأ المقرئون القران[٩٦] ـ ويمتطي الفرسان خيولهم المزينة كما يمتطي الهجانة الجمال المزينة ، ومعهم حملة المزامير والطبول[٩٧] ، ويحضر المطهر ويبدأ عملية التطهير ، فتدق الطبول ، وتصدح الموسيقى ، ويلعب الفرسان ، ويتبارون طوال النهار[٩٧] ، والناس جميعا يتفرجون .

ثم يقبل المدعوون على موائد السوادان والمأمونية ، ويشربون السكر والاقسما[٩٩] .

ويستمر الاحتفال احيانا حتى اخر الليل ، وينام بعض المدعوين في بيت أهل الطفل المختون[٩٨] .

ويحتفل النساء في اليوم التالي لاحتفال الرجال[٩٩] او يحتفل الرجال والنساء والاطفال معا في يوم واحد[١٠٠] .

اما حفلات الختان العام : فكانت تجرى تحت اشراف شيخ الاسلام ، لتطهير اليتامي الموجودين بدمشق ، كل عام . وكانت تبتدىء بتحضير الاعلام ، وجميعها من مساجد دمشق كلها . التي كان لكل منها اعلامه الخاصة ، تجمع في المدرسة البدرائية التي كانت مقر شيخ الاسلام .[١٠١]ويحشد الاطفال الايتام الذين كان يتراوح عددهم ما بين (١٤٠ و٢٤٠) طفلا ، وقد يصل عددهم الى الثلاثمئة طفل ، وتهيأ لهم الثياب الجديدة ، ثم يطعمون الطعام الفاخر

كالسنبوسك[١٠٢] ويذهب بهم الى الحمام فيتحممون ، ويلبسون ثيابهم الجميلة الجديدة ، ويصطف لهم الفرسان ، وتشرع الاعلام ، وتدق الطبول ، ويركبون الخيول المطهمة ، ثم يدورون بهم حول سور مدينة دمشق ، ويدخلون بهم معظم حاراتها ثم يتجهون بهم الى المدرسة البدرائية ، حيث يزفون ، ويختنون ، ثم يأكلون مع الناس : الهريسة ، والحامض باللبن ، والارز المحلى بالعسل[١٠٢] والمشمشية ويشربون الاقسما والسكر والسويق[١٠٣] .

٢ ـ احتفالات العزاء

كان بعض سكان دمشق يحتفلون بوفاة بناتهم احتفالا خاصا ، فكانوا يدعون الناس الى الطعام الغداء في اليوم الذي تتوفى فيه ابنتهم العازبة ، ثم ينصبون لها منصة يجلسونها عليها ، وكأنها حية ، ويلبسونها ثيابا مثل ثياب العرائس ، ويحضرون لها المنشدات والمغنيات ، ليغنين لها كأنهـا في يوم عرسها[١٠٤] . ثم يدفنونها . ...

٣ ـ الاحتفالات بعد هطول الثلج

كان للثلج احتفال خاص يقوم به شباب دمشق وصغار ابنائها . فكانوا يصنعون من الثلج تماثيل على شكل اسود ضخمة ، يضعون واحدا منها غربي المدينة ، وثانيا شرقيها ، وثالثا في وسط السوق ، ورابعـا على باب خان الصابوني ، ثم يضعون اسدا منها على منصة كبيرة من الخشب ، ويحملونه ، ويدورون به على الاسواق يطلبون من الناس المال ، وان لم يدفعوا لهم ضربوهم واهانوهم[١٠٥]

واخيرا : ان ما تحدثنا عنه من جوانب اجتماعية لهو محاولة للتدليل على اهمية يوميات ابن طوق كمصدر قيم لتاريخ دمشق الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ، قبيل الفتح العثماني بقليل نرجو ان ييسر طبعه ووضعه بين ايدى الباحثين والحمد لله رب العالمين .

حواشي

١ ـ شذرات الذهب ج ٨ ـ ص ٦٨.
٢ ـ ورقة ٢٣٠ ـ أ (ذى الحجة من سنة ٨٩٨ هجرية = ١٤٩٢ م. ونشير هنا الى اننا حين ننقل النصوص، ننقلها كما كتبها الكاتب، ولو كان فيها بعض الخطأ أو العامية.
٣ ـ ورقة ١٦٨ ـ ب (٢٧ ربيع الآخر سنة ٨٩٥ هجرية = ١٤٨٩م).
٤ ـ ورقة ١٦٨ ـ ب (السبت ٢٢ ربيع الآخر سنة ٨٩٥ هجرية = ١٤٨٩م).
٥ ـ ورقة ١٦٨ ـ ب (الجمعة ٢١ ربيع الآخر سنة ٨٩٥ = ١٤٨٩م).
٦ ـ ٢٢١ ـ أ (الاثنين ١٦ جمادى اولى سنة ٨٩٨ هجرية = ١٤٩٢م).
٧ ـ الدوادارية: وظيفة صاحبها تبليغ الرسائل الواردة الى النائب، وابلاغ الناس ما يصدر عنه من اوامر، واستشارته في من يريد استقباله (صبح الاعشى ج ٤/ ص ١٩.
٨ ـ الاستاذ دارية: ومهمة صاحبها ادارة بيوت السلطان والمطابخ ودور الشراب، وبيوت الحاشية والظلمان (صبح الأعشى ـ ج ٤/ص ١٨٦).
٩ ـ الحسبة: مهمة القائم بها رعاية صالح الناس حتى لا يغشوا بعضهم، والأخذ على يد الخارج عن طريق الصلاح في معيشته وصناعته (صبح الأعشى ـ ج ٤/ص ٣٧).
١٠ ـ الحشر: واسم الوظيفة نظر المواريث الحشرية. ويدرس صاحبها مواريث الموتى، فان كانوا لاوارث لهم رد أموالهم الى بيت المال، ولا يدفن ميت الا بموافقته (صبح الأعشى ـ ج ٤/ص ٣٣).
١١ ـ ورقة ٢١٧ ـ ب (الجمعة ١٦ صفر من عام ٨٩٨ هجرية = ١٤٩٢م.
١٢ ـ يقصد تيمورلنك السفاح المشهور، ورقة ١٨٤ ـ أ. (الاربعاء ١٤ ربيع آخر ٨٩٦ هجرية = ١٤٩٠م).
١٣ ـ ورقة ١٦٨ ـ ب (الجمعة ٢١ ربيع الآخر ٨٩٤ هجرية = ١٤٨٨م).
١٤ ـ ورقة ١٠٩ ـ ب (الثلاثاء ـ ١٦ ـ رجب).
١٥ ـ ورقة ١٤١ ـ أ (الاحد ٢٧ جمادى اولى من عام ٨٩٢ هجرية = ١٤٨٦م).
١٦ ـ ورقة ١٤٠ ـ أ (الجمعة ١١ جمادى اولى من سنة ٨٩٣ هجرية = ١٤٨٧).
١٧ ـ ورقة ١٤٠ ـ أ (الاثنين ١٤ جمادى اولى من عام ٨٩٣ هجرية = ١٤٨٧).
١٨ ـ ورقة ١٤٨ ـ ب (الاربعاء ١١ صفر من عام ٨٩٤ هجرية = ١٤٨٨م).
١٩ ـ ورقة ١٠٩ ـ أ (الجمعة ١٢ رجب من سنة ٨٩١ هجرية = ١٤٨٦م.
٢٠ ـ ورقة ط،ظ ـ أ (الأحد ٨ جمادى الثاني من عام (٨٩٢ هجرية = ١٤٨٧م).
٢١ ـ ورقة ١٢٧ ـ ب، وكذلك ورقة ١٩٠ ـ أ، الاثنين ١٣ شعبان (٨٩٦ هجرية = ١٤٩٠م).
٢٢ ـ ورقة ١٠٩ ـ أ (الجمعة ١٢ رجب من عام ٨٩١ هجرية = ١٤٨٦م).
٢٣ ـ ورقة ١٠٢ ـ أ (٣ ربيع الأول من سنة ٨٩١ هجرية = ١٤٨٦م).
٢٤ ـ ورقة ٨٣ ـ أ (٣ جمادى آخره من سنة ٨٩٠ هجرية = ١٤٨٥م)
٢٥ ـ ورقة ٥٩ ـ ب (الجمعة ١٨ ربيع ثاني من سنة ٨٨٩ هجرية = ١٤٨٤م).
٢٦ ـ السكر الطرح: الذي تبيعه السلطة للتجار رغما عنهم، بالثمن الذي تحدده
٢٧ ـ ورقة ٦ ـ ب (٨٨٦ هجرية = ١٤٨١م).

٢٨ ـ ورقة ١١٢ ـ أ (الاثنين ١٢ رمضان عام ٨٩١ هجرية = ١٤٨٦م).
٢٩ ـ المدرسة البدرائية بناها نجم الدين البادرائي عام ٦٥٣ هجرية، وتقع قرب باب جبرون بدمشق (عبد القادر بدران /ص ٨٨)
٣٠ ـ ورقة ٢٠٠ ـ ب
٣١ ـ ورقة ٢١٢ ـ أ
٣٢ ـ ورقة ١٥ ـ ب سنة (٨٨٧ هجرية = ١٤٨٢م).
٣٣ ـ ورقة ٤٧ ـ ب (٧ رمضان ٨٨ هجرية = ١٤٨٣م).
٣٤ ـ ورقة ١٣ ـ ب عام ٨٨٦ هجرية = ١٤٨١م).
٣٥ ـ ورقة ٦ ـ ب (عام ٨٨٦ = ١٤٨١م)
٣٦ ـ ورقة ١٠٩ ـ أ (الجمعة ١٢ رجب من عام ٨٩١ هجرية = ١٤٨٦م)
٣٧ ـ ورقة ١٣ ب (عام ٨٨٦ هجرية = ١٤٨١م)
٣٨ ـ ورقة ٥٩ ـ ب (الجمعة ١٨ ربيع الثاني، من عام ٨٨٩ هجرية = ١٤٨٤م)
٣٩ ـ ورقة ٤٧ ـ ب (٧ رمضان ٨٨٨ هجرية = ١٤٨٣م).
٤٠ ـ ورقة ٤٧ ـ ب (١٠ رمضان ٨٨٨ هجرية = ١٤٨٣م)
٤١ ـ ورقة ١٨٢ ـ ب (الخميس ٨ ربيع اول عام ٨٩٦ هجرية = ١٤٩٠م).
٤٢ ـ ورقة ٣٤١ ـ ب. (الثلاثاء ـ ١٤ جمادى الاولى عام ٩٠٥ هجرية = ١٤٩٩م)
٤٣ ـ ورقة ٧٠ ـ أ
٤٤ ـ ورقة ٦٩ ـ ب
٤٥ ـ ١٦٦ ـ أ (الاحد ـ ٢ ربيع الاولى من عام ٨٩٥ هجرية = ١٤٨٩م)
٤٦ ـ ورقة ٣٣٤ ـ أ (الجمعة ٨ محرم من عام ٩٠٥ هجرية = ١٤٩٩م)
٤٧ ـ ورقة ٢٨٩ ـ أ (الأربعاء ١ محرم ٩٠٣ هجرية = ١٤٩٧م)
٤٨ ـ ورقة ٤٣٢ ـ ب (السبت ٢ جمادى آخرة من عام ٩٠٥ هجرية = ١٤٩٩م)
٤٩ ـ ورقة ٣٩٠ ـ ب (الثلاثاء ١٥ محرم من عام ٩٠٣ هجرية = ١٤٩٧م)
٥٠ ـ ورقة ٢٧٢ ـ ب (الثلاثاء ٢٣ ذى الحجة من عام ٩٠٠ هجرية = ١٤٩٤م)
٥١ ـ ورقة ٣٣٤ ـ أ (الجمعة ـ ٨ محرم من عام ٩٠٥ هجرية = ١٤٩٩م)
٥٢ ـ ورقة ٣٣٦ ـ ب (الثلاثاء ـ ٢٤ ربيع اول من عام ٩٠٥ هجرية = ١٤٩٩م)
٥٣ ـ ورقة ٣٠٢ ـ أ (السبت ١٦ رجب من عام ٩٠٣ هجرية = ١٤٩٧م)
٥٤ ـ ورقة ٢٨٦ ـ ب (الاحد ـ ٧ ذى الحجة من عام ٩٠٢ هجرية = ١٤٩٦م)
٥٥ ـ ورقة ٢٧٣ ـ أ (السبت ٢٧ ذى الحجة من عام ٩٠٠ هجرية = ١٤٩٤م)
٥٦ ـ ورقة ٢٤٨ ـ أ (الاحد ٢٤ شوال من عام ٩٠٣ هجرية = ١٤٩٧م)
٥٧ ـ ورقة ٢٩٦ ـ ب (الاثنين ـ ١٦ ربيع الآخر من سنة ٩٠٣ هجرية = ١٤٩٧م).
٥٨ ـ ورقة ـ ٢٦٩ ـ أ (الخميس ـ ٥ ربيع الآخر من عام ٩٠٣ هجرية = ١٤٩٧م)
٥٩ ـ ورقة ـ ٢٨٢ ـ ب (الاربعاء ـ ٢٢ رمضان من عام ٩٠٣ هجرية = ١٤٩٧م)
٦٠ ـ ورقة ٢٧٢ ـ ب (الاربعاء ـ ٢٩ ذى الحجة من عام ٩٠٠ هجرية = ١٤٩٤م)
٦١ ـ ورقة ـ ٣٣٤ ـ أ (الجمعة ٨ محرم من عام ٩٠٥ هجرية = ١٤٩٩م)
٦٢ ـ ورقة ـ ٣٠٧ ـ أ (الاحد ١٧ رجب من عام ٩٠٣ هجرية = ١٤٩٧م)
٦٣ ـ ورقة ـ ٣٠٢ ـ أ (السبت ١٦ رجب من عام ٩٠٣ هجرية = ١٤٩٧م)
٦٤ ـ كنا سنتحدث عن هذه الظاهرة بالتفصيل لولا ان الدراسة قد اصبحت كبيرة الحجم، لا تنسجم وخطة مجلة الحوليات الاثرية.
٦٥ ـ ورقة ـ ٢٤٧ ـ أ (٢٩ شوال من عام ٨٩٩ هجرية = ١٤٩٣م)

٦٦ ــ ورقة ــ ٢٨٦ ــ ب (الاحد ٧٠٠ ذى الحجة من عام ٩٠٢ هجرية = ١٤٩٦م)
٦٧ ــ ورقة ــ ٢٨٤ ــ أ (٢٣ شوال من عام ٩٠٣ هجرية = ١٤٩٧م)
٦٨ ــ ورقة ــ ٣٥١ ــ ب (السبت ــ ٣ شوال من عام ٩٠٥ هجرية = ١٤٩٩م)
٦٩ ــ الاوراق ٣١٠ ــ ب، ٣١١ أ، ٣١١ ــ ب (خلال شهري ذي القعدة وذى الحجة من عام ٩٠٣ هجرية = ١٤٩٧م).
٧٠ ــ ورقة ٢٧٢ ــ ب (الاربعاء ٢٩ ذى الحجة من عام ٩٠٠ هجرية هجرية = ١٤٩٤م)
٧١ ــ ورقة ٢٧٢ ــ ب (الاثنين ٢٢ شوال من عام ٩٠٠ هجرية = ١٤٩٤م)
٧٢ ــ ورقة ٢٨٩ ــ أ، وب، (الاربعاء ١ محرم من عام ٩٠٣ هجرية = ١٣٩٧م)
٧٢ ــ ورقة ٢٨٩ ــ ب (الخميس ٢ محرم من عام ٩٠٣ هجرية = ١٤٩٧م)
٧٤ ــ ورقة ٣٠٢ ــ ب (الاحد ١٧ رجب من عام ٩١٣ هجرية = ١٥٠٧م)
٧٥ ــ ورقة ٢٨٦ ــ ب (الاثنين ٨ ذى الحجة من عام ٩٠٢ هجرية = ١٤٩٦م)
٧٦ ــ لن نتعرض هنا لعيدي الفطر والاضحى، لعدم عثورنا على مراسم خاصة غير معتادة.
٧٧ ــ ورقة ٥٥ ــ أ (١٠ محرم من سنة ٨٨٩ هجرية = ١٤٨٤م)
٧٨ ــ ورقة ١٥٤ ــ أ (الخميس ١ جمادى اول، من عام ٨٩٤ هجرية = ١٤٨٨م)
٧٩ ــ ورقة ٢٢٣ ــ أ (الخميس ١٧ جمادى آخره من عام ٨٩٨ هجرية = ١٤٩٢م)
٨٠ ــ ورقة ٢٨٠ ــ أ (الخميس ١٨ رجب من عام ٩٠٣ هجرية = ١٤٩٧م)
٨١ ــ ورقة ٢٣١ ــ أ (الأحد ٢ محرم من عام ٨٩٩ هجرية = ١٤٩٣م)
٨٢ ــ ورقة ٣٦ ــ ب (الاحد ٢ محرم من عام ٨٨٨ هجرية = ١٤٨٣م)
٨٣ ــ ورقة ٤٣ ــ ب (الاثنين ٢٢ رجب من عام ٨٨٨ هجرية = ١٤٨٣م)
٨٤ ــ ورقة ٤١٢ ــ ب (الاحد ١ محرم من عام ٩٠٤ هجرية = ١٤٩٨م)
٨٥ ــ ورقة ٢٨٠ ــ أ (الاحد ٢١ رجب من عام ٩٠٣ هجرية = ١٤٩٧م)
٨٦ ــ ورقة ٣٠١ ــ أ (الاثنين ٤ رجب من عام ٩٠٣ هجرية = ١٤٩٧م)
٨٧ ــ ورقة ٢٠٢ ــ ب (الاحد ٣٠ صفر من عام ٨٩٦ هجرية = ١٤٩٠م)
٨٨ ــ ورقة ٣٢٧ ــ أ (الاحد ١٩ شعبان من عام ٩٠٤ هجرية = ١٤٩٨م)
٨٩ ــ ورقة ٣١٨ ــ أ (الاثنين ١٨ ربيع الآخر من عام ٩٠٤ هجرية = ١٤٩٨م)
٩٠ ــ ورقة ٢٧٤ ــ ب (الجمعة ٢٩ رجب من عام ٩٠١ هجرية = ١٤٩٥م)
٩١ ــ ورقة ٧٩ ــ أ (الخميس ١٤ ربيع الاول من عام ٨٩٠ هجرية = ١٤٨٥م)
٩٢ ــ ورقة ١٠٢ ــ أ (٢٠ ربيع اول من عام ٨٩١ هجرية = ١٤٨٦م)
٩٣ ــ ورقة ٧٩ ــ أ (الخميس ١٤ ربيع الاول من عام ٨٩٠ هجرية = ١٤٨٥م)
٩٤ ــ ورقة ١٥٠ ــ أ (الاثنين ١٤ ربيع اول من عام ٨٩٤ هجرية = ١٤٨٨م)
٩٥ ــ ورقة ٧٩ ــ أ (الخميس ١٤ ربيع اول من عام ٨٩٠ هجرية = ١٤٨٥م)
٩٦ ــ ورقة ٦٠ ــ أ
٩٧ ــ ورقة ٦٠ ــ ب.
٩١ ــ ورقة ١٥٠ ــ أ (الاثنين ١٤ ربيع اول من عام ٨٩٤ هجرية = ١٤٨٨م ة)
٩٩ ــ ورقة ٦٠ ــ أ
١٠٠ ــ ورقة ٦٠ ــ ب
١٠١ ــ ورقت ١ ــ ب (عام ٨٨٥ هجرية = ١٤٨٠م)
١٠٢ ــ ورقة ٤٠ ــ أ (٢٦ ربيع ثاني من عام ٨٨٨ هجرية = ١٤٨٣م)
١٠٣ ــ ورقة ٢١ ــ ب و٢٢ ــ أ (عام ٨٨٧ هجرية = ١٤٨٢م)
١٠٤ ــ ورقة ٨٦ ــ ب (السبت ٢ شعبان من عام ٨٩٠ هجرية = ١٤٨٥م)
١٠٥ ــ ورقة ٣٢٣ ــ ب (٢٧ جمادى من عام ٩٠٤ هجرية = ١٤٩٨م).

بلاد الشام في علاقة المماليك والعثمانيين

منذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر وحتى الفتح العثماني ١٥١٦

الدكتور تاج السر أحمد حران
جامعة الخرطوم

تحولت بلاد الشام من حكم دولة المماليك الى حكم الامبراطورية العثمانية بعد موقعة مرج دابق الشهيرة في أغسطس ١٥١٦ . وظلت تحت ذلك الحكم لفترة تزيد سنتين عن الأربعة قرون . وكلتا الفترتين المماليكية والعثمانية هامة في تاريخ بلاد الشام ، كما ان كلتيهما حظيت بشيء من الدراسة الجادة ــ في بعض فتراتهما ــ خاصة في السنوات الأخيرة . ولكن العوامل والحوادث والمؤثرات التي لعبت دورا هاما في تطور علاقات المماليك والعثمانيين تطورا تمركز حول مشاكل الحدود بين الدولتين في أعالي الشام ، وأدى في النهاية الى انفكاك بلاد الشام عن حكم ولة المماليك ، وتحولها الى حظيرة العثمانيين ، بل وأدى في نهاية الأمر الى تحطيم سلطنة المماليك كلية ، أقول ان تلك العوامل لم تحظ بدراسة منفصلة ، وانما يجد الباحث حقائقها مبعثرة مشتتة في خضم الحديث عن تاريخ الشام أما في فترة المماليك أو فترة العثمانيين . وفي هذا البحث واعتقادا منى بأهمية تطور هذه العلاقات التي أدت الى الوجود العثماني ليس في بلاد الشام فحسب وانما في كل أقاليم العرب فيما بعد ، أحاول أن أتعرض في شيء من الايجاز لدراسة تلك العلاقات المماليكية ــ العثمانية ، وتحليلها حتى يكون ذلك بمثابة المدخل لكل من يريد أن يدرس تاريخ الشام في الفترة العثمانية الأولى ، وربما في الفترة المتأخرة .. وحتى تتضح العوامل التي أدت الى الفتح العثماني لبلاد الشام ..

وهو في رأيي حدث تاريخي جلل ، حتى ظهور الدولة الصفوية في ايران في القرن الخامس عشر فقد تقاسمت السلطنتان المملوكية والعثمانية السيطرة على منطقة الشرق الأدنى .. وتتفق المصادر على ان العلاقات بين السلطنتين بدأت على أتم صفاء وود .. خاصة وان الدولة العثمانية الناشئة كانت قد وجهت همها في الفترة الأولى من حياتها الى التوسع في أوربا المسيحية ، وهي دولة غزاة ، قوامها الجهاد ونشر الاسلام على حساب الدولة المسيحية المجاورة لها[1] .. خاصة بيزنطه .. وقد قوبل ذلك النشاط بالاستحسان والارتياح من جانب المماليك وغيرهم .. وزاد من ذلك الود المتبادل بعد حدودهما عن بعضهما البعض ، ثم تعرضهما لخطر واحد مشترك هو خطر تيمورلنك مما جعل الاتصال والتفاهم لمواجهة ودرء ذلك الخطر أمرا ضروريا رغم تخوف السلطان برقوق من نوايا العثمانيين . ولعل انتصار تيمور لنك على بايزيد في موقعة أنقرا سنة ١٤٠٢ وموت بايزيد بعد ذلك ، ثم الانحلال والفوضى الذي أصاب الدولة العثمانية الناشئة بسبب تنازع أبنائه الثلاثة العرش من بعده عطل فكرة التحالف بين المماليك والعثمانيين وشغل العثمانيون بأمورهم وحربهم الداخلية الى أن قيض الله للسلطنة العثمانية السلطان محمد الأول الذي استطاع أن يوحد السلطنة العثمانية مرة أخرى ويضعها على درب الازدهار والتوسع ثانية[2] .

كذلك تجلى هذا الاتجاه الودي في العلاقات المملوكية العثمانية يوم هدد البرتغاليون الطريق التجاري الى البحر الأحمر ، وهددوا بذلك تجارة المماليك وعصب اقتصادهم ، وعندما تأكد للمماليك تفوق البرتغاليين حربيا وبحريا عليهم لجأوا يطلبون العون من العثمانيين ، فعل ذلك السلطان قانصو الغوري حين حطم البرتغاليون أسطوله الذي بناه بعد جهد جهيد في البحر الأحمر في سنة ١٥٠٩ .. ولم يبخل السلطان العثماني بعونه اذ أن خطر البرتغاليين كان خطرا مشتركا أيضا . فأرسل للمماليك ٣٠ سفينة تحمل الخشب لبناء أسطول مملوكي و ٣٠٠ مدفع لم تصلهم اذ أن فرسان القديس يوحنا في رودس تعرضوا لها وقبضوها . ولم يتوقف العثمانيون اذ أرسلوا في سنة ١٥١١ للمماليك ٤٠٠ مدفع وطنين من الذخيرة .. وهناك دلائل أن بعض الضباط البحريين العثمانيين عملوا مع المماليك في بناء أسطولهم ، وساعدوهم في حربهم مع أهل البرتغال .. الذين أبدوا بدورهم رغبتهم للشاه اسماعيل ــ عدو المماليك والعثمانيين ــ في التعاون معه[3] .

تجلى هذا الاتجاه الودي أيضا في أن المماليك في سوريا ومصر كانوا يتلقون بارتياح نبأ انتصارات العثمانيين في أوروبا ، خاصة سقوط القسطنطينية القلعة

المسيحية التي استعصت على كل الحكام المسلمين .. وفتحها السلطان محمد الفاتح في سنة ١٤٥٣ .. كما ان سلاطين ال عثمان كانوا يحرصون على نشر أخبار انتصاراتهم في مختلف البلاد الاسلامية ، ومن ضمنها بلاد سلاطين المماليك[٤] .

رغم تشكك المماليك وتخوفهم من نوايا العثمانيين التوسعية خاصة بعد هجوم السلطان بايزيد في سنة ١٤٠٠ على ملطيه ودارنده ، استمرت العلاقات ودية بين المماليك والعثمانيين حتى بعد موت تيمور لنك في سنة ١٤٠٥ . فمثلا تهنئة السلطان العثماني مراد الثاني في سنة ١٤٢٣ للسلطان الاشرف برسباى حين ولى الأخير السلطنة ، وتبادل الاثنين الهدايا . ثم استمرار هذه العلاقات الطيبة حتى عهد السلطان محمد الفاتح ، حين احتفلت القاهرة احتفالا مشهودا بفتح القسطنطينية فازدانت الأسواق والحارات ودقت البشائر السلطانية بالقلعة عدة أيام[٥] .

وكان واضحا أن صفاء العلاقات العثمانية ـ المملوكية لم يكن الا أمرا ظاهريا ، اذ أن طبيعة الدولة العثمانية التوسعية سرعان ما جعلتها تتجه الى محاولة اتوسع في الأجزاء التي ظلت خارج قبضتها في اسيا الصغرى ، خاصة بعد فتح القسطنطينية والسيطرة على معظم أراضي البلقان ، وقد تمركز النزاع الذي بدأ يظهر سافرا وجليا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر حول مسألة عدم وضوح الحدود في منطقة الطورس ، واتخذ التنافس بين المماليك والعثمانيين شكل مناصرة قوة أو أخرى من القوى التركمانية الواقعة على الحدود بين دولتيهما . وعلى وجه التحديد تمركز الصراع حول امارة قرمان وامارة ذو القدر (نلقادر) .. وهما امارتان ادعى المماليك الحماية عليهما . فكانت كل دولة ـ العثمانية والمملوكية ـ تقوم بمساندة بعض الأطراف المتنافسة على الحكم خاصة في امارة نلقادر .. وقد صعد هذا العداء الكامن بين العثمانيين والمماليك اضطراب الأحوال في منطقة الطورس الحدودية هذه .. ثم المؤامرات والمحالفات التي قامت بها العوائل التي حكمت هذه المنطقة الحدودية ، فهي تارة مع المماليك وأخرى مع العثمانيين ، خاصة وكما قلنا فكثيرا ما ادعى المماليك أن اقليم كليكيا عامة وادنه وطرطوس خاصة اقليم تابع لهم وخاضع لحمايتهم .. وطبيعى أن يتمسك المماليك بهذا الاقليم ـ فمنطقة البستان وهي داخلة فيه ـ منطقة استراتيجية هامة لسيطرتها المطلقة على طريق الفرات .. ثم ان وجود عناصر من قبائل التركمان في اقليم الطورس هذا أضاف الى عدم استقراره والفوضى التي

تعمه ، وجعل العثمانيين يهتمون بأمر السيطرة عليه بفرض السيطرة على تلك القبائل التركمانية التي قد تشكل خطرا ماثلا للدولة العثمانية التي بدأت تستقر وتنعم بحياة دولة متطورة نحو مستقبل امبراطوري زاهر[٦] .

وعليه يمكن تلخيص عوامل النزاع بين العثمانيين والمماليك في هذه الفترة أولا في توسع العثمانيين وابتلاعهم لكل اسيا الصغرى مما قرب حدودهم من حدود المماليك في أعالي بلاد الشام وأوجد مجالا وسببا للاحتكاك بين الدولتين .. كذلك توسع العثمانيين وسيطرتهم على الجهات الغربية من البحر الأبيض المتوسط أوجد سببا اخر للاحتكاك بين السلطنتين بسبب وجود المماليك النسبي هناك .. وزاد من حدة هذا النزاع التجاء الامير جم في حربه ومنازعته العرش مع أخيه السلطان بايزيد الى المماليك في مصر في ١٤٨١ .

وكتن طبيعيا أن أول احتكاك حدث بين الدولتين حدث في منطقة الطورس الحدودية ، في سنة ١٤٦٥ ، واتخذ شكل مساعدة كل دولة لأحد الأخوين المتنازعين على عرش امارة البستان (التي توردها المصادر أحيانا اما ذلقادر وأحيانا أخرى ذو القدر) ، ذلك أنه في تلك السنة خلا عرش البستان بموت أميرها ارسلان بك وتنازع أخواه شاه سوار والامير بوادق عرش الامارة من بعده ، وتقاتلا على ذلك .. فناصر السلطان محمد الفاتح الأمير شاه سوار كما ناصر السلطان المملوكي خشقدم الأمير بوادق .

انتصر بوادق في الطور الأول من النزاع بمساندة المماليك الذين بدأ سلطانهم خشقدم يشجع أمراء كرامان في نزاعهم مع العثمانيين .. وعليه لم يكن غريبا ان أعان السلطان محمد الفاتح الأمير شاه سوار حين لجأ اليه وطلب عونه خاصة وان السلطان العثماني كان متزوجا باحدى اميرات البستان .. وبعون العثمانيين انتصر شاه سوار على أخيه وطرده من الامارة التي حكمها باسم العثمانيين ، كما انه بدأ يهاجم أطراف دولة المماليك ، الأمر الذي جعل السلطان المملوكي الجديد قائتباى يرسل حملة في سنة ١٤٦٧ لتأديب شاه سوار ، ولكن جيش المماليك «انكسر كسرة شنيعة»[٧] في هذه المحاولة كما انكسر أيضا في المحاولة التي تلتها في العام القادم ، واستمر شاه سوار يحكم رغم محاولات المماليك عزله ، ولكن لحين .

استمر شاه سوار في استخفافه بدولة المماليك والاعتداء على حدودها بل انه تعدى ذلك حين اعتدى على دولة بني رمضان التركمانية المحالفة للمماليك ، مما دعا السلطان قائتباى ارسال حملة كبرى ضد شاه سوار في سنة ١٤٧٠ـ١٤٧١ بقيادة الأمير يشبك الدوادار . وانتصرت تلك الحملة على شاه سوار واستولت منه

على قلعة عينتاب وادنه وطرسوس ، وقبض عليه حيث أخذ الى القاهرة وأعدم هناك سنة ١٤٧٢ ، وأعيد الأمير بوادق الى مرعش عاصمة الامارة حاكما باسم المماليك[٨] . ورغم ان السلطان المملوكي برر مساندته للأمير بوادق وحربه لشاه سوار على انه بسبب أمور شخصية بينه وبين شاه سوار ، وانها ليست تدبيرا ضد العثمانيين الذين احجم عن عدم مساعدة الثائرين عليهم من التركمان الا انه كان واضحا ان المماليك يريدون ابعاد النفوذ العثماني عن هذه المنطقة الحدودية بكل الوسائل . وقد نجحوا في ذلك .

واستمر نجاح المماليك هذا حتى سنة ١٤٨١ حين تفرغ السلطان محمد الفاتح لأمر تلك المنطقة ، ونصب علاء الدولة وهو أخ أصغر للأمير بوادق حاكما على امارة البستان (ذلقادر) . وبذلك مكن أكثر للنفوذ العثماني في ذلك الاقليم . رغم ماقيل من ان علاء الدولة كان «يلتزم جانب الحرص في معاملاته مع دولة المماليك ويتودد اليها» .[٩] لتفوق الجيوش المماليكية على الجيوش العثمانية في ذلك الوقت .

ساءت العلاقات بين العثمانيين والمماليك بعد موت السلطان محمد الفاتح في مايو سنة ١٤٨١ ، اذ أن السلطان قائتباي ساعد الأمير العثماني جم في حربه مع أخيه السلطان بايزيد في سنة ١٤٨١ـ١٤٨٢ ، تلك الحرب التي لجأ بعدها جم الى المماليك في مصر[١٠] . كما ان العثمانيين شكوا في هذه الفترة من أن المماليك كانوا يحرضون القبائل التركمانية لاحداث الفوضى في اقليم كرامان .. وان قوافل الحج العثمانية صارت غير امنة فكثيرا ماكان طريقها يقطع عند مضائق كليكيا .

غير ان الحرب لم تنشب الا في سنة ١٤٨٥ ، حين اقتحم كراغوز باشا حاكم كرامان منطقة كليكيا واستولى على ادنه وطرسوس ، وكان رد الفعل المملوكي أن السلطان قائتباي حرض بعض العناصر التركمانية الموالية لدولته فغزت كرامان ، كما انه أرسل قوة مملوكية أخذت العثمانيين على حين غرة واستردت منهم منطقة كليكيا . ولم يكن أمام العثمانيين الا ارسال قوة عسكرية أخرى تحت قيادة أحمد باشا هرسك لطرد المماليك من هناك .. ولكن المماليك انتصروا على هذه القوة وقبضوا على قائدها .

وأمام هذا النصر المملوكي أخذ السلطان العثماني بايزيد يعد العدة لتجهيز حملة جديدة منظمة ، قادها هذه المرة داؤد باشا الوزير الأعظم بنفسه في سنة ١٤٨٧ ، واستطاعت استعادة كليكيا دونما مقاومة اذ أن المماليك انسحبوا أمام هذا التفوق العثماني ، وبعد أن أدب العثمانيون المجموعات التركمانية التي كانت

تخلق لهم المشاكل هناك بتحريض المماليك ، عززوا موقفهم الحربي في كليكيا حين ولى على باشا قيادة الجيش هناك .. وقواه حين أضاف اليه قوة كبيرة من جند السبهى «من الأناضول والروملى» ، وأخرى تضارعها من الجند الانكشاري .

قابل المماليك هذه الاستعدادات العثمانية باستعدادات أخرى من جانبهم ، فجهزوا جيشا مملوكيا تدعمه قوات شامية من دمشق وطرابلس وحلب ومجموعات من التركمان بقيادة ابن رمضان ، وتقدموا نحو ادنه ، وقربها دارت معركة في ١٧ أغسطس سنة ١٤٨٨ تراجع على أثرها العثمانيون عن اقليم كليكيا .

ونتيجة لهذا النصر قوى المماليك نفوذهم في المنطقة ، وتحول علاء الدولة حاكم البستان الى صفهم . وتجدر الاشارة الى أن أخاه بوادق الذي كان سجينا في دمشق منذ سنة ١٤٨٠ هرب الى اسطنبول .. وقد حاول بايزيد في سنة ١٤٨٩ اعادته الى حكم البستان ولكنه لم ينجح ، اذ قبض على بوادق وأرسل سجينا الى مصر .. كذلك هاجم علاء الدولة في سنة ١٤٩٠ تسنده قوات مملوكية مدينة قيسارية ، وحاصرها ، ولكنها استعصت عليه ، فنهب جنده وعاثوا فسادا حولها ، ثم رجعوا عندما سمعوا بتقدم جيش عثماني كبير نحوهم[١١] .

وقد كانت نتيجة كل تلك الحروب وبالا على بلاد الشام ، وقد صور محمد كرد علي كل ذلك في خطط الشام ، حين تحدث عن الغنا' العظيم والغلا' الشديد في الديار الشامية والمصرية . ويقول انه «مات خلق لا يحصى .. ومات في يوم واحد بدمشق ١٤٢٠ انسانا على ماورد في سجل الأموات»[١٢] . ثم يصف ظلم بعض نواب الشام ، والفتن التي عمت أجزاء منه مثل حلب والقدس .. واشتداد غزوات العرب البدو ووقوع الاختلال بين القيسية واليمنية . ويقول «وضاق الأمر بالناس لأن المماليك أو سلاطينهم كانوا كلما أرادوا ارسال تجريدة على عدو لهم يضربون الضرائب الفاحشة على الناس ويسلبون أموال التجار ومساتير الناس»[١٣] . ويمضي ليقرر أن الشام أصابه الكثير من ضعف الحكم المملوكي ولا سيما شماليه لكثرة غارة أعدا' البلاد عليها . ويذكر النص الاتي :

قال بن طولون في حوادث سنة ٩٠٦ «وقفت حال الناس وقطعت الطرق من كثرة العرب المفارجه وبنى رام خارج دمشق وأطرافها وكثر الظلم والاختلاف والناس مرتقبون الفتن»[١٤] .

وكان طبيعيا ان السلطان قائتباى مال للسلم أمام هذه الأحوال الناتجة عن حروبه مع العثمانيين ، تلك الحروب التي كلفته الكثير من المال ، وأثارت

ضرائبها محكوميه في الشام ومصر .. وكذلك كان السلطان العثماني بايزيد ميالا للسلم حتى يتفرغ للمجر وماجد فيها من أحداث[١٥] . ومن ثم أمضى اتفاقا بين السلطانين في سنة ١٤٩١ ، مضمونه انه بعد ست سنوات من الحرب غير الحاسمة اعترف بحق المماليك في كليكيا ، على أن يكون دخل ادنه وطرسوس وقفا على الحرمين الشريفين في مكة والمدينة[١٦] .

وكان واضحا ان السلطان بايزيد لم يوفق في مشروعاته في كليكيا .. وكان واضحا أيضا انه لم يسخر كل امكانياته المادية والحربية لحروبه تلك مع المماليك ، اذ أن مشكلة أخيه جم كانت تشغله وتحد من تفرغه لتلك الحروب .. فهو لم يرسل معظم قواته لأي من تلك المعارك .. وانما أرسل جزءا منها .. وذلك على عكس المماليك الذين كانوا يخوضون هذه الحروب بكل قواهم المادية والحربية وبكل جهدهم ، في وقت فقدوا فيه دخلهم من تجارة الشرق بالغرب التي كانت تمر عبر أراضيهم ، وذلك لنشاط أهل البرتغال التجاري في المحيط الهندي والبحر الأحمر .. ومن ثم فقد اعتمد المماليك على الضرائب الفاحشة لتجهيز جيوشهم التي كانت تحارب العثمانيين وقد كان لكل ذلك آثار سيئة على محكوميهم وعلى أحوال الشام ومصر الاقتصادية[١٧] . فمعارك سنتى ١٤٨٨ ، ١٤٨٩ أستنزفت معظم مواردهم .. وقد كان جليا فوق هذا انه وبالرغم من أن الموقف في كليكيا كان لصالحهم ، فان الوقت كان يقترب وبسرعة ليوجه العثمانيون اهتمامهم لحل مسألة الحدود هذه نهائيا ، وساعتها سيحشد العثمانيون كل قواهم في حربهم للمماليك ، وستواجه المماليك اشكالات عدة تتضافر جميعا لانهاء دولتهم في الشام ومصر ، وتحويلها الى أيدي العثمانيين .

وقد تأخرت الحرب العثمانية ـ المملوكية الى سنة ١٥١٦ ، ذلك ان السلطان بايزيد رغم موت جم في سنة ١٤٩٠ شغل في بولندا وبمشاكلها .. كما انه كان يود مباشرة الحرب في أوروبا المسيحية .. وقد أخذ كل ذلك جزءا من وقته[١٨] .

وفي هذه الأثناء كانت القوى الشيعية الصفوية في فارس تظهر وتقوى وتكون لنفسها دولة في فارس[١٩]، وكذلك تشغل بال السلطان العثماني، وتحول انتباههولو الى حين عن اقليم الطورس الحدودي، وعن تمكن النفوذ المماليكي هناك..

ثم جاءت الحرب العثمانية الصفوية التي هزم فيها السلطان العثماني سليم الشاه الصفوي اسماعيل على أرض تشالديران في ٢٣ أغسطس ١٥١٤ ، والتي كانت احدى نتائجها تأزم العلاقات بين المماليك والعثمانيين بسبب نشاط

العثمانيين في اقليم الطورس وضمهم لامارة البستان الخاضعة للمماليك .. الأمر الذي قاد للحرب العثمانية ــ المملوكية الأخيرة في مرج دابق في سنة ١٥١٦ التي انهزم فيها المماليك وفقدوا اقليم الشام ثم مصر .

لم يتخذ السلطان المملوكي قانصو الغوري (١٥٠١ ــ ١٥١٦) موقفا واضحا في حرب العثمانيين مع الصفويين ، فلا هو ناصر الصفويين حربيا ولا استطاع أ يكسب ثقة العثمانيين .. خاصة وان امارة البستان (ذلقادر) تحت حكم لاء الدولة كانت قد اتخذت ــ وربما بايعاز من الغوري ــ موقفا عدائيا من العثمانيين حين مرور الجيش العثماني عبر تلك الامارة[٢٠] .. وعليه فبعد القضاء على الخطر الصفوي في تشالديران وفي يونيه سنة ١٥١٥ ، توجه القائد العثماني ــ سنان باشا ــ الى امارة البستان هذه ، فاستولى عليها باسم العثمانيين بعد أن قتل علاء الدولة وأخاه وبعض أولاده . وبذلك سقطت الأجزاء الشمالية من الشام[٢١] . وكانت تلك بمثابة الخطوة الأولى نحو ضم العثمانيين إقليم الشام لامبراطوريتهم .

وقد كان موقف الغوري غير واضح لعلمه أن بقاء دولة المماليك صار رهينا باستمرار الصراع بين القوتين ــ المصرية والعثمانية .. ولأنه كان على يقين من ان المنتصر في تلك الحرب سيتجه الى حرب المماليك[٢٢] . وعليه لما ضم سليم بعد تشالديران ديار بكر ومنطقة علاء الدولة فقد احتل أراضي ذات أهمية استراتيجية طالما ادعى المماليك حقهم فيها . وخلق بذلك سببا للاحتكاك بين القوتين المملوكية والعثمانية .

وتخوفا من نيات سليم ، ويقينا منه ان الحرب واقعة لامحالة بينه وبين العثمانيين فقد أخذ الغوري يستعد للحرب وربما استجاب الغوري ــ تحت هذه الظروف ــ لطلب رسل الشاه الصفوي اسماعيل أن يظهر الغوري وجيشه في شمالي سوريا في حالة تجدد القتال بين الصفويين والعثمانيين[٢٣] .. والمهم ان الغوري قاد جيشه نحو حلب في ١٨ مايو ١٥١٦ ، واصطحب معه (على غير العادة) الخليفة العباسي المتوكل .. رغم تأكيدات السلطات العثماني له لأنه لا يريد حرب المماليك ، وانما حرب شاه اسماعيل[٢٤] .

والواقع ان موقف المماليك كان عسيرا ، فقد كانت تتوزعهم الاحن والخلافات ، بين الأمراء بعضهم بعضا ، وبينهم وبين السلطان .. كما ان المماليك كجند كانوا قد فقدوا ميزاتهم الحربية ، وفوق هذا بقوا على محافظتهم واحجامهم عن استعمال الأسلحة النارية التي برهنت فعاليتها في معارك العثمانيين العدة ، خاصة على أرض تشالديران ، وتمسكوا بأسلحتهم القديمة ،

ومن ثم صاروا قوى حربية عتيقة .. مضافا الى كل ذلك تذمر محكوميهم في مصر والشام بسبب وطأة الحكم المملوكي على الأهالي .. من جراء ضرائبه الباهظة واعتسافه في ذلك ، خاصة كما قلنا آنفا بعد أن فقد المماليك دخل التجارة الهندية لمحاصرة البرتغاليين ونشاطهم في البحر الأحمر ، وبدائع الزهور لابن اياس ملىء بوصف مساوىء حكم المماليك . وتذمر الأهلين منه[٢٥] . وفوق هذا وذاك كانت الخيانات تعم امراء جيش الغوري ـ وتحد من فعاليته ، مثلا خيانة خايربك نائب حلب واخرين كانوا يتبادلون سرا الرسائل مع السلطان سليم . كما ان الغوري ذاته كان لا يثق بامرائه ، ومن ثم لا يفرق بين صديقه وعدوه ، فمثلا لم يثق بنائب دمشق سيباى ، الذي نصح الغوري بتطهير صفوفه من الخائنين لأنه كان على علم بخيانة أمثال خائربك ، كما نصحه بعدم المجىء بجيشه الغفير الى الشام لأن أحوال الشام الاقتصادية لا تحتمل ذلك ، لاسيما وان العثمانيين لم يتحركوا على الحدود ، واقترح على الغوري «ان كان العدو متحرك فنحن له كفايه»[٢٦] .. ولم يثق الغوري في كل ذلك النصح لأنه كان يشك في نوايا سيباى ويعتقد تطيرا وبغير حق انه طامع في سلطنة المماليك .

والسلطان الغوري يتقدم نحو حلب رغم كل تأكيدات العثمانيين انهم لا يريدون حربه ، وأمام أمره لحاكم المماليك على ملطيه أن يمنع مرور الجيش العثماني عبر أراضيه ، لم يكن أمام السلطان سليم الا أن يوقف تقدم جيشه نحو فارس ويتجه لشمالي سوريا .. وهناك مرة أخرى أرسل سليم رسله يؤكد للغوري أنه لا يريد حربه ، فأساء الغوري معاملة الرسل ، اذ قرعهم على استيلاء سيدهم على اقليم البستان وزجهم في السجن . وأرسل رسوله يطلب من سليم اعادة امارة البستان وعدم تقدمه لحرب فارس[٢٧] .. وكان رد السلطان العثماني ان الاصرار على هذه المطالب يعني الحرب . وعندما أيقن الغوري أن سليما يعني ما يقول حاول ـ ولكن بعد فوات الأوان ـ تفادى الحرب واللجوء الى الصلح ، فأطلق رسل سليم من ناحية وأرسل موغول بك أحد امرائه رسولا الى سليم ، غير أن هذا كان قد قرر الحرب ، فتقدم في سهل ملطيه واستولى على ملطيه وكركر وبهسنا وغيرها من القلاع ، وأساء معاملة رسول الغوري ، ورفض معه الحديث في أمر الصلح ، وطلب اليه أن يخبر الغوري ليلاقيه على سهل مرج دابق[٢٨] .. ذلك اللقاء الذي تم بين الجيشين في نفس المكان في ٢٤ أغسطس ١٥١٦ ـ ٢٥ رجب ٩٢٢ هجرية .

تختلف المصادر في قوة العثمانيين والمماليك ، فهناك من يقول ان جيش سليم كان حوالي ٤٠ ألف مقاتل مزودين بأحسن المدافع ، وهناك من يرى أنهم كانوا ٨٠ ألفا مجهزين بثمانمائة مدفع ، وأن الغوري كان في حوالي ٥٠ ألفا لامدافع لهم ، وبعضهم قال ستين ألفا . كان ترتيب الجيش العثماني أيا كان

عدده على النحو الاتي :

سليم وصدره الأعظم مع الجند الانكشاري في القلب ، وعلى الميمنة فرسان الاناضول ، ومن ورائهم قوات تركمانية من البستان وكليكيا ، وعلى الميسرة فرسان الروملي وتليهم قوات كردية .

أما جيش المماليك فقد كانت تسنده قوات مصرية وشامية مكونة من البدو والأكراد والتركمان ، وكانت ميمنة وميسرة الغوري من «القرانصة» وهم المماليك القدامى قبل سلطنة الغوري ، وكذلك من جند دمشق وحلب ، أما في القلب فقد وقف الغوري مع مماليكه الخاصة المعروفين بـ «الجلبان» وكان الخلاف شديدا بين الجلبان والقرانصة[٢٩] .

استمرت المعركة من طلوع الشمس الى ما بعد الظهر ، ابلى فيها المماليك بلاء حسنا رغم احنهم وخلافاتهم ، وبدأوا ينتصرون حين قتلوا كثيرا من العثمانيين واستولوا على بعض عددهم وأعلامهم ، حتى يقال ان السلطان سليم فكر ــ كما يقول ابن اياس ــ «في الهروب أو طلب الأمان» عسى أن يتمكن من تنظيم صفوفه[٣٠] .. ولكن انسحاب خائر بك نائب حلب وجانبردي الغزالي نائب حماة ومن والاهم على خيانة الغوري من أمرائه من الميمنة والميسرة الى صفوف العثمانيين ، ثم اشاعة خائر بك للفوضى في صفوف جيش المماليك باطلاقه الشائعات مثل سقوط الغوري قتيلا ، ومثل قوله ان الغوري يركز الهجوم بالميمنة رغبة منه في التخلص من القرانصة والابقاء على جلبانه . ثم فعالية المدفعية العثمانية ، أدى كل ذلك الى هزيمة المماليك . وكان وقع الخيانة والهزيمة كبيرا على السلطان الغوري الذي يقول ابن اياس انه أصيب بفالج أبطل شقه وأرخى حنكه ، ثم أنه سقط من فوق فرسه ميتا[٣١] ، والرأى السائد انه مات في المعركة بسكتة قلبية .

وهكذا انتهت موقعة مرج دابق ، بهزيمة أنهت عهد المماليك في الشام . وحددت مستقبل الشام ومصر لقرون تالية . وفرت فلول جيش المماليك الى حلب حيث وجدوا أبوابها موصدة دونهم . وكانت بداخل قلعتها معظم أمتعتهم وأسلحتهم ، فتراجعوا عنها الى دمشق فمصر فوصلوا القاهرة في أكتوبر ١٥١٦ .

واستولى العثمانيون على المدن السورية تباعا ودونما مقاومة تذكر ، وقد شجع أهل الشام سوء حالهم في أواخر حكم المماليك ، على عدم المقاومة ، والترحيب بالفاتح الجديد الذي ادعى انه انما جاء الشام لتخليص أهلها من نير حكم المماليك .. ولم يكن غريبا ان وجد السلطان سليم استعدادا من بعض نواب الشام وأكابر أهل الشأن فيه للتعاون معه سرا ، والتجسس لحسابه ، ولم يكن غريبا ان «فتحت الشام في وقعة واحدة ، ولم يبك على دولة المماليك الا من كانوا

باسمها يتمتعون بالخيرات وينالون مظاهرها ويسلبون نعمة الأمة» وما قرعت عصا على عصا ، الا حزن لها قوم وسر اخرون»[٣٢] .

دخل سليم مدينة حلب في ٢٨ أغسطس ، فاستقبله أهلها بالمصاحف والاعلام وهم يجهرون بالتسبيح والتكبير وطلبوا منه الأمان فأمنهم وأنعم عليهم ، كما ولى عليها خائر بك واليا . واستولى على كل الاموال والثروات التي وجدها في قلعتها .. وأقام السلطان في حلب ثمانية عشر يوما ، وهناك استقبل الخليفة العباسي المتوكل على الله الذي كان قد جاء مع الغوري من مصر فأحسن معاملته وأنعم عليه بمال ورده الى حلب ، ولكنه أوكل به من يحرسه كي لا يهرب[٣٣] .

وسار السلطان بجيشه الى حماة وحمص ففتحت له أبوابهما وبايعه أهلها كما بايعه من بعدهم أهل طرابلس والقدس على الطاعة ، واستمر متقدما حتى دخل دمشق التي استقبله أهلها أيضا . وهناك قابله أمراء البلاد ، فأمنهم واقرهم ، من أولئك الأمير فخر الدين المعني الأول أمير الشوف الذي خطب أمام السلطان بالنيابة عن بقية الأمراء خطبة استحسنها سليم فخلع عليه وسماه سلطان البر وافضل عليه وعلى رفاقه فجعل الأمير جمال الدين الارسلاني اليمني واليا على بلاد الغرب والأمير عساف التركماني أميرا على بلاد كسروان وبلاد جبيل . وأوصاهم خيرا بقومهم[٣٤] .. ويقول كرد علي في خطط الشام «وقدمت اليه الناس من كل جانب الا الأمراء التنوخيين القيسيين فانهم لم يأتوا لأنهم كانوا من حزب الدولة الشركسية»[٣٥] .

وسار سليم عن طريق البر الى غزة فعصت عليه ففتحها حربا .. ووضع فيها حامية عثمانية لترقب الطريق البري الى مصر المار عبر صحراء سيناء وباختصار لم يفعل سليم بعد فتحه الشام أكثر من أن ترك ادارة الشام على ما كانت عليه ، وأقر أسلوب الحكم القديم ، وغنم اليسير من ثروة المماليك وأغنياء البلاد «وزاد في الضرائب والمكوس » ، ونصب حكاما ممن أمن جانبهم وممن خانوا دولة المماليك وتقربوا اليه من الحكام وأهل البلاد[٣٦] . ورغم انه قسم سوريا الى ولايات كما هو الحال في الأجزاء الأخرى من امبراطوريته الا أنه احتفظ الى حد كبير بقوانين المماليك والعرف والعادات التي كانت تسير الادارة . كما انه اعترف بامتياز رؤساء العشائر العربية .. وأمراء الدروز والامراء المسيحيين في لبنان ، وكذلك حقوق رؤساء التركمان في منطقة الطورس .

ورغم ان بلاد الشام صارت امنة غزوات الشمال والحروب التي كانت تقوم بين المماليك والعثمانيين الا انها ورغم ان السلطان سليم لم يغير من نظم حكمها الماضية تغييرا اساسيا ، لم تنعم بالهدوء تماما ، اذ شهدت بعض الثورات

والاضطرابات الداخلية لعل اهمها ثورة جانبردري الغزالي والي الشام ، واضطرابات العربان تحت زعامة شيخهم ابن الحنش قرب دمشق . ولم تهدأ الاحوال الا حين نظم السلطان سليمان القانوني بن سليم امر ادارة سورية ومصر بقوانين جديدة ، أصدرت لادارة الاقليمين .

وهكذا انتهى النزاع بين المماليك والعثمانيين يوم أن أنهى السلطان سليم السلطنة المماليكية واستولى على اقليميها الشام ومصر .. ذلك النزاع الذي كان حتما بين دولتين رائدتين تنشدان السيطرة على بلاد الشرق الأدنى ..نقول حتما رغم صفاء العلاقات بينهما في المرحلة الأولى ، وطبيعي أن تسوء العلاقات يوم أن هزم سليم الصفويين ووجه همه لحل المشاكل الحدودية بينه وبين المماليك . فقد كان بديهيا أن بقاء دولة المماليك متوقف على الصراع بين القوتين الصفوية والعثمانية ، وان القوى المنتصرة ستوجه همها الى تجميد الوجود المماليكي والسيطرة على أراضيه، وقد كان السلطان الغوري يدرك هذه الحقيقة بثاقب بصره ، حين صمم على الخروج الى حلب «حتى نوى (كما قال) مايكون من أمر الصوفي وبن عثمان ، فان كل من انتصر منهما على غريمه لا بد أن يزحف على بلادنا .»[٣٧] . ومن ثم قولنا ان الصراع بين المماليك والعثمانيين كان أمرا ضروريا وحتما رغم صفاء العلاقات في الأيام الأولى .. وهو ليس كما قيل تسابق بين العثمانيين وأهل البرتغال حول الوصول والسيطرة على البلاد العربية المطلة على الخليج العربي والبحر الأحمر[٣٨] .. لأن نشاط العثمانيين اللاحق في هذه المنطقة العربية لم ينصب كلية على حرب النشاط البرتغالي في تلك البحار ، وان حاول العثمانيون شيئا من ذلك في فترات متقطعة .

ورغم ان العثمانيين استفادوا دعائيا ـ اذ أن سمعتهم الاسلامية علت وزادت ـ بسيطرتهم على بلاد الشام ومصر وخدمة الحرمين الشريفين ، الا انه لم يوجد ما يشير الى أن السلطان سليم خطط تخطيطا مسبقا لفتحه بلاد الشام ومصر ، بل ان الدلائل تشير مثلا الى انه تردد كثيرا في فتح مصر ، خاصة بعد أن فتح بلاد الشام واطمأن الى عدم تعاون المماليك مع أعدائه الصفويين ، اذ أن الشام فصلت بين القوتين .. بل يكاد الناظر لموضوع علاقات العثمانيين بالمماليك وفتح الشام يجزم أن سليما لم يكن يريد فتح كل بلاد الشام وانما كان يريد تسوية مشاكل الحدود في اقليم الطورس . وان مرج دابق كانت في الحقيقة نتيجة لنشاطه الحربي ضد الصفويين ، ولخطأ في التقدير من جانب قانصو الغوري ، وربما لو بقي قانصو الغوري في مصر ولم يتقدم لحلب لما حدثت هذه الموقعة الفاصلة التي ربطت بلاد الشام ومصر ، بمقدرات ومصير الامبراطورية العثمانية لفترة الأربعة قرون التي تلت سنة ١٥١٦ .

حواشي

١ ـ لقيام الدولة ونشاطها الأول راجع :
P. Wittek - — Rise of the Ottman Empire
٢ ـ راجع كل ذلك في المصدر السابق .
٣ ـ ارجع الى :
Cambridge Modern History of Islam
Vol. I, P.
Stripling : The Ottman Turks the Arabs.
٤ ـ لجزء من تلك الرسائل ارجع الى الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، بيروت ١٩٦٥ ـ ص . ٢٠ ـ ٢٨
أيضا : محمد سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ، القاهرة ١٩٦٥ ـ ص . ٢٥٦ ـ ٢٥٨ .
٥ ـ محمد مصطفى زياده : نهاية السلاطين المماليك في مصر ـ (مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٥١) ـ ص . ٢٠٠ ـ ٢٠٢ .
٦ ـ انظر V.J. Parry, The Ottoman Empire 1481-1520
in **the New Cambridge Modern History,** I,P. 399.
٧ ـ ابن اياس : بدائع الزهور (نشر محمد مصطفى) ج٣ص١٢ ومابعدها لتفاصيل هذا النزاع ..
أيضا : Parry — P. 400
٨ ـ ابن اياس ـ ج٣ ص٥٩ .
٩ ـ عاشور ـ ص ٢٥٥ .
١٠ ـ تفاصيل تلك النزاع في : Parry - pp, 396-399.
١١ ـ ارجع الى ابن اياس ج٣ Parry - pp. 400-401
أيضا : Parry — pp. 400 — 401
محمد كرد على ـ خطط الشام ـ دمشق ١٩٢٥ ـ ج٢ ـ ص ٢٠٥ ـ ٢٠٧
١٢ ـ كرد على ـ ج٢ ـ ص٢٠٧
١٣ ـ نفس المصدر والصفحة

١٤ ـ كرد على ـ ج ٢ ـ ص ٢٠٩

١٥ ـ انظر ذلك في Parry - pp. 400-401

١٦ ـ نفس المرجع ـ يذكر ساطع الحصري في كتابه «البلاد العربية والدولة العثمانية ـ بيروت ١٩٦٥» ص ٣٧ ـ ٣٨ ـ ان الصلح بين الدولتين تم بواسطة باي تونس وان دخل كل كليكيا صار وقفا على الحرمين ..

١٧ ـ ارجع الى كرد على ج ٢ ـ ص ٢١٠ ـ ٢١١

١٨ ـ راجع ذلك في : Parry — pp. 401 — 404

١٩ ـ Parry - pp. 404 ff

٢٠ ـ يعتقد ان الغوري حرض ربما سرا علاء الدولة مع موقفه العدائي ..
ايضا : كرد على ج ٢ ـ ص ٢١٨ Parry - P. 413

٢١ ـ ابن اياس ـ (نشر محمد مصطفى) ـ ج ٤ ـ ص ٤٦٢ ـ ٤٦٣ .
ايضا كرد على ج ٢ ـ ص ٢١٢

٢٢ ـ ابن اياس ج ٥ ـ ص ٢٢

٢٣ ـ

٢٤ ـ لهذه التأكيدات ارجع الى ابن اياس ج ٥ ـ ص ٢٢ ، ٢٦ ، و ٤٥ .

٢٥ ـ Parry — P. 413

٢٦ ـ ابن اياس ـ ج ٥ ـ ص ٢٦

٢٧ ـ قارن Parry, 414 مع ابن اياس ج ٥ ـ ص ٦٠ ـ ثم عاشور ص ١٨٣ وكرد على ـ ج ٢ ـ ص ٢١٩

٢٨ ـ ابن اياس ج ٥ ـ ص ٦٤ ـ ٦٨

٢٩ ـ Parry - P. 415

٣٠ ـ ابن اياس ج ٥ ـ ص ٦٩

٣١ ـ ابن اياس ج ٥ ـ ص ٧٠

٣٢ ـ محمد كرد على ـ ج ٢ ـ ص ٢٢١

٣٣ ـ محمد كرد على ـ ج ٢ ـ ص ٢٢٢

٣٤ ـ نفس المصدر ص ٢٢٣

٣٥ ـ نفس المصدر ص ٢٢٤

٣٦ ـ نفس المصدر ٢٣١

٣٧ ابن اياس ـ ج ٥ ـ ص ٢٢

٣٨ ـ محمد انيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ـ ص ١٠٨

بلاد الشام في الوثائق الدبلوماسية المغربية

الدكتور عبد الهادي التازي
مدير المركز الجامعي للبحث العلمي / المغرب

ظلت حضارة الشام وذكر الشام ، والاهتمام ببلاد الشام ، اللازمة التي تتردد على كل لسان ببلاد المغرب ، افتح أي كتاب في أي موضوع ، أدب تاريخ ، فقه ، حكمة ، فستجدون ذكرا عبقا بعكس ما عرف عن كلمة الشام من معنى سام رفيع ، ويكفي أن نعرف أن أثمن أثر أدبي مغربي ، ألف على شرف أهل الشام ، وهكذا فلولا الشام لم تأرجت جنبات المكتبة العربية بنفحات طيب المقري العلامة المغربي . بل لولا الشام لما كان للمغاربة ذكر بالأندلس ، أو ليس أن غرناطة تحمل اسم دمشق ؟ أو ليس أن مدينة فاس نفسها عرفت لدى صاحب (المسالك) بأنها دمشق الشام ؟

وليس ارتباط الشام بالمغرب وارتباط المغرب بالشام مقصورا على الحديث العابر والقول السائر ، ولكنه تعلق تجاوز السطور الى الحضور ، وهكذا قرأنا عن جمهرة من المغاربة أشأمت فتشامت ! كما سمعنا عن جمهرة أخرى من الشاميين غربوا فتمغربوا ، ولو استطاع المغاربة الذين سكنوا الشام أن يحتفظوا بأسمائهم وكناهم وألقابهم لكان علينا أن نراجع معلوماتنا حول الأسر المنسوبة اليوم الى الشام . ولو أن المغاربة الذين أدركتهم أعمارهم بالشام ممن كانوا يردون مناضلين مجاهدين ، مدارسين ، مذاكرين ، مبرزين مجازين ... لو أنهم بعثوا من مراقدهم لكان على أهل الشام اليوم أن يخططوا لمدن أخرى اذا كانوا يرغبون في تجنب أزمة تضخم السكان .

ولو أقمنا جردا لما وصل للشام من غرائب المغرب وصنائعه ونفائسه لعد من ذلك ما عملت فيه أيضا أيادي الملوك اكبارا لجانب الشام وما حوته الشام . ولو

أن عوادي الزمن لم تأت على ما قدم للمغرب من الشام مما يطرب السمع والبصر والفؤاد لكونا من نلك أروع متحف وأجمله في دنيا المعارض ... ومع نلك فان علينا أن نعرفِ أنه على نلك الجناح البعيد من أرض العروبة توجد أسر كثيرة وكثيرة وردت على المغرب من الشام منذ أيام المنصور الموحدى الذي خاطبه شاعر منها بقوله :

يا كعبة الجود التي حجت لها   عـرب الشـآم وغـزها والديلم

بل ان هناك بالمغرب الى الان أسرا تحمل لقب الشامي فيها العالم والفلاح والسياسي والطبيب . وقد كان مما زاد في الصلة ، ومتن من الاصرة احتضان الشام للقدس الشريف الذي ارتبط تاريخ المغاربة به منذ اللحظات الأولى التي اعتنقوا فيها الاسلام كعقيدة ، وشدتهم اليه نفس الوشائج التي شدتهم الى كل من الكعبة ومسجد الرسول .....القدس الشريف الذي اصبحت زيارة الشام بسبب موقعه منها ، ليست نافلة زائدة ولكنها من قبيل الفرض على كل قاصد .. حتى لا صبحت الرحلات المغربية التي لا تتضمن ذكر الشام رحلات مغمورة مبتورة . اذن فان لبلاد الشام دورا بارزا ليس في تاريخ المشرق فحسب ، ولكن في تاريخ المغرب ايضا ، وتحضرني بهذه المناسبة عبارة لابن يزيد الصاغاني يقول فيها : «اني لأجد ترداد الشام في الكتب حتى لكأنه ليست لله حاجة بشيء في الأرض غير الشام .»

ان حديث الشام في المغرب حديث جذاب لا يلبث طرف منه شيق أن يسلمك الى طرف اخر منه أشوق ، فان القائد مغيث الشامي فاتح قرطبة كان ضمن الحملة الظافرة التي سيرها طارق بن زياد لفتح الاندلس . وان المصحف العثماني الذي ظل طليعة دائمة للجيش المغربي في فتوحاته وانتصاراته انما وصل المغاربة عن الشام . وان انتقال الفتوى في المغرب على مذهب مالك انما تحققت أيام الحكم بن هشام بن عبد الرحمن . وان اشهى فواكه المغرب ، مما أثار انتباه الواردين والصادرين ، كانت من البذر الممتاز والنقول المختارة التي حملها قديما للمغرب من أجنة دمشق وضواحيها السفيران : يزيد وسفر مبعوثا عبد الرحمن بن معاوية الى الشام ، وما يزال الناس بفاس ومراكش يذكرون الى الان على الخصوص التفاح الطرابلسي نسبة الى طرابلس الشام ، ويذكرون الرمان السفرى نسبة الى سفر رسول عبد الرحمن . ولو أردنا أن نستقصي استفادة المغرب من نتاج الشام لوجدنا انفسنا امام حيرة الاختيار ولكنا مع نلك نكتفي بتصدي الادباء المغاربة من امثال ابن الاقليلي (ت ٤٤١ = ١٠٤٩) لشرح ديوان المتنبي قبل أن تصل للمغرب شروح المشرق وبالاعجاب الذي أبداه رجل الدولة المهدي بن تومرت ، رغم أفكاره الدينية ـ بمنهاج ابي الطيب ، نلك الاعجاب

الذي خط الطريق أمام مختلف أدباء المغرب وشعرائه لينسجوا على منوال أديب الشام ...

ولكن هل لذائذ الشام اقتصرت على كل هذا ؟ ان للسيدة الشامية ذكرا في المنازل لا يقل عن ذكرى حلوى الشام ، ودمشق الشام ، وفسيفساء الشام ، وقد شهدت القصور المغربية سيدات كن مضرب المثل في التربية والتدبير والجمال والكمال ...

ولو جمع ما قيل عن الشام من قبل المغرب لوجدنا أنفسنا امام شامات عديدة وليست شاما واحدة ، شام السياسة والرياسة ، شام الشهامة والنجدة ، شام الادب والعلم ، شام التصوف والانقطاع ، شام الوتر والنغم والانس ، والفرحة والاشراق، من كل ما لم يتيسر في بقعة غير الشام مما جعل بعض المأخوذين المفتونين بالشام يرددون أنها «معجزة مقرونة بالتحدي» !

حديث الشام في المغرب من الأهمية بحيث يعتبر التاريخ للشام دون الرحلة للمغرب تاريخا ناقصا ، بل ان الصورة الصادقة والناطقة لبلاد المشرق كلها بما فيها بغداد ومصر ينبغي أن يبحث عنها في بلاد المغرب التي استطاعت أن تظل صامدة أمام كل التيارات ، بعيدة عن كل تدخل اجنبي .

وقد اخترنا ان نركز الحديث بهذه المناسبة لذكر الشام في الوثائق الدبلوماسية المغربية ، وخاصة في الظروف التي استهدفت فيها الشام للاطماع الخارجية منذ العصر الوسيط .

لقد كانت طائفة من رجال الدين اشاعت في أوروبا أكاذيب ليس فيها اثارة من صدق تتضمن أن المسلمين في الشام أهانوا قبر المسيح ومنعوا الحجاج المسيحيين من أداء طقوسهم والحقوا بهم جملة من الاهانات مما لا يصدقه أي منصف بل اي عاقل يعرف جيدا أن هناك عاملين اثنين قويين يمنعان من صدور مثل تلك التصرفات من جانب المسلمين : العامل الأول اقتصادي فان مصلحة البلاد كانت تقتضي توفر أسباب الاطمئنان والراحة للزائرين الذين يساعدون على تنمية الحركة التجارية .. والعامل الثاني ديني فان قلوب المسلمين ، بحكم تعاليم القران ، مشدودة الى تقديس السيد المسيح ... الامر الذي يؤكد في نظر الملاحظين ان الباعث الخفي الذي كان يكمن وراء تلك الاشاعات هو فقط الحقد والتعصب اللذان كانا يطغيان على بعض العقليات المسيحية في ذلك العهد اضافة الى حب التوسع والتملك والطمع في بلاد الشام سيما في ظروف مزقت فيها الخلافات قادة المشرق فاصبحنا نجد حاكما على دمشق واخر على حلب وثالثا على حماة ورابعا على بعلبك .

ومن هنا كانت الحروب التي يسميها التاريخ بالحروب الصليبية ... ومن

هنا تواردت طلبات النجدة الى بلاد المغرب الموحد الذي يتوفر على أسطول قوي طبقت شهرته الافاق ..

وقد تطوع المغاربة بكثرة في جيش السلطان نور الدين محمود بن عماد الدين بن زنكى الملقب بالشهيد (ت ٥٦٩ = ١٢٧١) من أجل الدفاع عن حصون الشام وقلاعها وقد تحدث التاريخ عن بلائهم الحسن في مقارعة الصليبيين ، ولم تخف المصادر الخارجية تضايق الصليبيين من شراسة الجندي المغربي في القتال حتى لقد سجل التاريخ انه في الفترات التي كانت تعقد فيها هدنات بين المسلمين والصلبيين كان هؤلاء يصرون على أن يدفع كل مغربي يمر بالارض المحتلة ضرائب باهظة في حين يعفون فيه غير المغاربة من تلك الاداءات ، وكان المغاربة يدفعون ما فرض عليهم من أتاوات بصدر رحب لما انها تعتبر عندهم سببا من الذكر الجميل في نكايتهم بالعدو .

كانت (بانياس) ، على مقربة من القنيطرة ، حدا فاصلا بين العرب والفرنج ، ولما زارها الرحالة المغربي ابن جبير وأراد الدخول للارض المحتلة كلفه الفرنجة اداء المكوس فدفعها وقال معلقا على هذا التصرف : » وأكثر المغترضين (بفتح الراء) في هذا المكس المغاربة ، ولا اعتراض على غيرهم من جميع بلاد المسلمين وذلك لمقدمة منهم احفظت الافرنج عليهم ، سببها ان طائفة من انجادهم غزت مع نور الدين احد الحصون فكان لهم في أخذه عنى ظهر واشتهر ، فجازاهم الافرنج بهذه الضريبة المكينة ، الزموها على رؤوسهم ، فكل مغربي على رأسه الدينار المذكور في اختلافه على بلادهم » ... وقال الافرنج : «ان هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا ونسالمهم ولا نرزأهم شيئا ، فلما تعرضوا لحربنا وتألبوا مع اخوانهم المسلمين علينا وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم» .

ولم يشترك المغاربة في معركة واحدة فقط ولا في احتلال حصن واحد كذلك بل ظلوا يهاجرون من بلادهم الى الشام ويزدادون عددا بعد عدد ، وقوة بعد قوة ، ويناصبون الافرنج العداء حتى وقع عدد كبير منهم في أسر الصليبيين فعذبوهم أشد العذاب وساموهم ألوان الخسف والذل وبلغت انباء تعذيبهم مسامع أهل الشام فتألموا لحالهم ولكنهم لم يكتفوا بالالم وحده بل بذلوا دماءهم وأموالهم سخية لتحرير المغاربة من عبودية الصليبيين وفكهم من أسرهم وردهم الى اهلهم .

وقد ذكر المؤرخون ان نور الدين الشهيد نذر لله في مرضه أنه اذا أبل من مرضه أن يوزع اثنى عشر الف دينار في فداء عدد من الاسرى المغاربة ، فلما شفاه الله من مرضه وفى بنذره ، فورد عليه مع المغاربة الذين افتداهم عدد من أهالي حماة كانوا هم أيضا أسرى ، فرد نور الدين سائر الحمويين الى الاسر واستبدل بهم عددا من أهل المغرب قائلا : أولئك يفكهم أهلهم وجيرانهم .

ويقول ابن جبير : « ... وان من جميل صنع الله تعالى لأسرى المغاربة في هذه البلاد الشامية الافرنجية ان كل من يخرج وصية من المسلمين بهذه الجهات الشامية وسواها انما يعينها في افتكاك المغاربة خاصة . فملوك هذه الجهات من المسلمين والخواتين (السيدات) من النساء وأهل اليسار والثراء انما ينفقون اموالهم في هذا السبيل ... وقد قيض الله للمغاربة بدمشق رجلين من مياسير التجار وكبرائهم واغنيائهم المنعمين في الثراء : احدهما يعرف بنصر ابن قوام ، والثاني بابن الدرياقوت ، وتجارتهما بهذا الساحل الافرنجي ولا ذكر فيه لسواهما فالقوافل صادرة وواردة ببضائعهما ، وشأنهما في الغنى كثير وقدرهما عند امراء المسلمين والافرنجيين خطير ، وقد نصبهما الله لافتكاك الاسر المغربيين بأموالهم وأموال ذوي الوصايا لانهما المقصودان بها لما اشتهر من أمانتهما وبذلهما اموالهما في هذا السبيل ... ويؤيد ما نقله ابن جبير من صدق المتطوعين المغاربة في تلك الحروب ما اطبقت عليه المصادر الغربية ، وخاصة منها الفرنسية من وجود مبنى الى الان في مقاطعة اردين ARDENNES قرب مدينة بوزانسي Buzancy يحمل ذلك المبنى اليوم اسم محمد MAHOMET ويتعلق الأمر بمسجد كان شيده حاكم بوزانسي المحارب بيير دانكلير كونط دوبورليمونت ، Comte de Bourlement شيده اعترافا بجميل المجاهدين العرب الذين أفرجوا عنه في فلسطين من بلاد الشام بعد أن كانوا قد اسروه اثناء بعض الحملات[1].

هذا وقد استمر تدفق المغاربة على الشام لأداء واجبهم المقدس ادراكا منهم واقتناعا بأن المعركة ليست معركة الشام وحدها ولا بغداد ولا مصر .... ولكنها معركة المسلمين جميعا سواء أتواجدوا على حدود الفرات والنيل او سواحل المحيط الاطلسي مما يسمونه اليوم «قومية المعركة » .

ويتأكد لدينا أن الاتصالات بين الشام والمغرب ظلت منتظمة سواء على الصعيد الشعبي أو الرسمي وبهذا نفسر حديث الرحالة ابن بطوطة عن الرسالة التي بعث بها سلطان المغرب أو يعقوب يوسف بن عبد المومن الموحدى الى السلطان نور الدين الشهيد يقترح عليه فيها القيام ببناء المزيد من المستشفيات والملاجىء لايواء المهاجرين والمتضررين ، بل نفسر كذلك معنى وجود قبر يحمل اسم يعقوب المنصور هناك مع أنه توفي بالمغرب كما هو الواقع ، ولكن ترديد اسمه باستمرار في ساحة المعركة حدا بالشام الى الاعتراف بقدره عن طريق تشييد هذا المشهد له على نحو ما يعرف اليوم من اقامة النصب التذكارية للابطال وكبار القوم ...

وعندما تسلم القيادة صلاح الدين الايوبي شاهد بدوره تفاني المغاربة

عندما ضيق الفرنج الخناق على عكا .. ولا شك أن الفرصة سنحت لصلاح الدين للاجتماع بالرحالة المغربي ابن جبير الذي قال فيه الشعر ... والذي كان – من ناحية أخرى – على صلة تامة بالأمير المغربي أبي سعيد بن عبد المؤمن والي غرناطة .

ويتأكد من خلال التسلسل التأريخي للأحداث أن ابن جبير أكد لصلاح الدين ما كان يسمعه سلفا عن الأسطول المغربي واستعداد المغاربة للتضحية من أجل الواجب .

ومن هنا قرر صلاح الدين أن يرسل سفارته عام ٥٨٥ = ١١٨٩ على ما يفهم من الكتاب الذي ارسله بهذا التاريخ من انشاء القاضي الفاضل الى المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، ويستعرض فيه الاعتداءات التي استهدفت لها بلاد الشام متخلصا لرجائه في امدادها بالجند والأسطول مختتما بالاشارة الى السفير الذي أودعه صلاح الدين سر القيام بالمهمة ، **وهذا نص الوثيقة :** »فتح الله بحضرة سيدنا أمير المؤمنين وسيد العالمين وقسيم الدنيا والدين أبواب الميامن ، وأسباب المحاسن ، وأحله من كفايته في الحرم الامن ، ونجزه من نصرة الحق ما الله له ضامن ، وأصلح به كل رأي عليه الهوى رائن ، ومكن له في هذه البسيطة بسطة ، وزاده بالعلم عبطة حتى يكون للانبياء بالعلم وللارض بالعزم وارثا ، وحتى يشيد بحادث قديما من مجده الذي لا يزال بغض الحديث حادثا .

كان من أوائك عزمنا وفواتح رأينا عند ورودنا الديار المصرية مفاتحة دولة سيدنا ، وان نتيمن بمكاتبتها ، ونتزين بمخاطبتها ، وننهض اليها أماثل الاصحاب ، ونستسقي معرفتها استسقاء الحساب ، وننتجعها بالخواطر ونجعل الكتب رسلها ، وأيدي الرسل سبلها ، ونمسك طرفا من حبل الجهاد يكون بين حضرة سيدنا العالية طرفه ، ونمسح غرة سبق وارثها ووارث نورها سلفة ، ونتجاذب أعداء الله من الجانبين ، لا سيما بعد أن نبنا عنه نيابتين في نوبتين : فالاولى تطهير الارضين المصرية واليمنية من ضلالة اغضت عيون الايام على قذاها ، وأنامت عيون الانام بائعة يقظتها بكراها ، ونيابة ثانية في تطهير بيت المقدس ممن كان يعارض برجسه تقديسه ، ويزعج ببناء ظلالة تأسيسه ، وما كان الا جنة اسلام خرج منها المسلمون خروج ابيهم ادم من الجنة ، وأعقبهم فيها ابليس الكفر وما اجارته مما اعقبه اللعنة ، وما كانت لنا بذلك قوة بل لله القوة ، ولا لنا على الخلق منة بل لله المنة .

ولما حطت لدين الكفر تيجان ، وحطمت لذوية صلبان ، وأخرس الناقوس الاذان ، ونسخ الانجيل القران ، وفكت الصخرة من أسرها ، وخف ما كان على قلب الحجر الاسود بخفة ما كان على ظهرها ، وذلك أن يد الكفر عطتها وغمرتها .

فلله الحمد أن أحرمت الصخرة بذلك البنيان المحيط ، وطهرها ماطر من دم الكفر وما كان ليطهرها البحر المحيط ، فهناك غلب الشرك وانقلب صاغرا ، واستجاش كافر من اهله كافرا ، واستغضب أنفاره النافرة ، واستصرخ نصرانيته المتناصرة ، تظاهروا علينا وان الله مولانا ، وطاروا الينا زرافات ووحدانا ، فلم يبق طاغية من طواغيهم ، ولا أثفية من أثافيهم ، الا ألجم وأسرج ، وأجلب وأرهج ، وخرج وأخرج ، وجاء بنفسه أو بولده ، وبعدده وبعدده ، وبذات صدره وبذات يده ، وبكتائبه برا وبمراكبه بحرا ، وبالاقوات للخيل والرجال والأسلحة والجنن لليمين والشمال ، وبالنقدين على اختلال صنفيهما في الجمع ، وائتلاف وصفيهما في النفع ، وأنهض أبطال الباطل ، من فارس وراجل ، ورامح ونابل وحاف وناعل ، ومواقف ومقاتل ، كل خرج متطوعا ، واهطع مسرعا ، واثنى متبرعا ، ودعا بنفسه قبل أن يستدعى ، وسعى الى حتفها قبل أن يستسعى ، حتى ظننا (أن) في البحر طريقا يبسا ، وحتى تيقنا أن ما وراء البحر قد خلا وعسا ، وقلنا : كيف نترك وقد علم أنه يدرك ، وزادت هذه الحشود المتوافية وتجافت عها الهمم المتجافية ، وكثرت الى أن خرجت من سجن حصرها ومستقر كفرها ، وبقية ثغرها – وهو صور – فنازلت عكا في اسطول ملك بحره . وجمع سلك بره – فنهضنا اليه ، ونزلنا عليهم وعليه ، فضرب مصاف قتلت فيها فرسانه ، وجدلت شجعانه ، وخذلت صلبانه ، وساوى الضرب بين حارس القوم ودارعهم ، وبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم ، فهناك لاذوا بالخنادق يحفرونها ، والى الستائر ينصبونها وأخلدوا الى الارض متثاقلين ، وحملوا انفسهم على الموت متحاملين ، وظاهروا بين الخنادق ، وراحوا بين المجانق ، وكلما يجن القتل من عددهم مائة ، اوصلها البحر ممن يصل وراءه بألف ، وكلما اقلوا في اعيننا في زحف ، قد كثروا مما يليه من الزحف ، ولو ان درب عساكرنا في البحر كدربتها في البر ، لعجل الله منهم الانتصاف واستقل واحدنا بالعشرة ومائتنا بالالف ، وقد اشتهر خروج الكفار في الجمع الجم ، والعدد الدهم ، كانهم الى نصب يوفضون وعلى نار يعرضون ، ووصولهم على جهة القسطنطينية – يسر الله فتحها – على عزم الائتمام الى الشام في منسلخ الشتاء ومستهل الصيف ، والعساكر الاسلامية لهم تستقبل ، والى جريهم نتنقل ، فلا يؤمن على ثغور المسلمين ان يتطرق العدو اليهم واليها ، ويفرغ لها ويتسلط عليها ، والله من ورائهم محيط ، واذا قسمت القوة على تلقي القادم وتوقي المقيم ، فربما أضر الاسلام انقسامها ، وثلمه – والعياذ بالله – ائتلافها .

ولما مخض النظر زبده ، وأعطى الرأى حقيقة ما عنده ، لم نر لمكاثرة البحر الا بحرا من أساطيله المنصورة ، فان عددها واف ، وشطرها كاف ، **ويمكن**

ادام الله تمكينه ـ ان يمد الشام منه بعد كثيف ، وحد رهيف ، وبعهد الى واليه أن يقيم الى ان يرتبع ويصيف ، ويمكنه أن يكف شطرا لاسطول طاغية صقلية ليحص جناح قلوعه أن تطير ، ويعقل عباب بحره ان يغير ، ويعتقله في جزيرته ، ويجري اليه قبل جريرته ، فيذهب سيدنا وعقبه بشرف ذكر لا ترد به المحامد على عقبها ، ويقيم على الكفر قيامة يطلع بها شمس النصر من مغربها ، فاذا نفذ طريقه وعلم الناس بموفده ، أوردوا واصدروا في مورده ، وشخص المسلم والكافر : هذا ينتظر بشرى البدار ، وهذا يستطلع لمن تكون عقبى الدار ، وخاف وطاة من يصل رجال الماء من وصل من رجال النار ، ولو بزقت عليهم بأزقة غربية لأغرقهم طوفانها ولو طلعت عليهم جارية بحرية لنعقت فيهم بالشتاء غربانها .

وما راينا أهلا لهذه العزمة الا حضرة سيدنا ادام الله صدق ومحبة الخير فيه ، اذ كان منحه عادة في الرضى به وقدرة على الاجابة ، ورغبة في الانابة ، ولاية لامر المسلمين ، ورياسة الدنيا والدين ، وقياما لسلطان التوحيد القائم بالموحدين وغضبا لله ولدينه ، وبذلا لمذخوره في الذب عنه دون ما عوده ، والان فقد خلا الاسلام بملائكته لما خلا الكفر بشياطينه ، وما أجلبت السوابق الا لاطلاقها ، ولا اثلت الذخائر الا لانفاقها ، وقد استشرف المسلمون طلوعها من جهته المحروسة جارا من الاساطيل تغشى البحار ، وليالي من المراكب تركب من البحر النهار ، واذا خفقت قلوعها خفقت للقلاع قلوب ، واذا تجافت جنوبها عن الموج تجافت من الملاعين جنوب ، فهي بين ثغر كفر تعتقله وتحصره ، وبين ثغر اسلام تفرج عنه وتنصره ، يكون بها مصائب عند المسلمين(؟) وتظل قلائد المشركين لغربان بحره طرائد ، ويمضي سيف الله الذي لا يعدم في كل زمان فيعلم معه ان سيف الله خالد ، أعز الله الاسلام بما يزيد حضرة سيدنا من عزها ، فيما مد عليها من ظلها ، وبما يسكنه من حرزها ، فيما يبسط على الاعداد بها من بأسها وينزل بهم من رجزها ، وبما يجرده من سيوفها التي تقطع في الكفر قبل سلها وهزها ،وقد اوفدنا على باب حضرة سيدنا ، وهو الداعي السمع والمبلغ والمقنع ، والمجمع المستجمع ، علمناه أمرا يسرا ، وبوأناه الصدر فكان وجها ، واودعناه السر فكان صدرا .[٢]

ذلك النص الكامل لرسالة صلاح الدين ... ويظهر ان انشغال المنصور الموحدى بحركة التشغيب التي كانت تقوم بها بعض العناصر في افريقية حال دون بلوغ سفير صلاح الدين الى البلاد . فلقد كانت المنطقة تعيش فعلا ظروفا قلقة بسبب محاولات كانت تقوم بها ثلة من المتسللين المغامرين .

ولهذا نرى السلطان صلاح الدين يكرر المحاولة من جديد في السنة الموالية ، واذا كانت الرسالة السابقة قد خذلتنا في معرفة اسم السفير الذي كان يقوم بالمهمة سنة ٥٨٥ فان الرسالة اللاحقة على العكس من ذلك ، احتفظت لنا باسم الامير شمس الدين ابي الحزم عبد الرحمن ابن منقذ رئيسا للبعثة عام ٥٨٦.[٣]

وهكذا فقد وصل الرقاصة المغاربة[٤] من والي افريقية السيد ابي زيد ثم من والي بجاية السيد ابي الحسن يحملون معهم مخاطبات تخبر بوصول ابن منقذ الى تلك البلاد ، وما قابلوه به من الميرة كما تعرف بكتمان السفير لاسرار المهمة التي ورد من أجلها ، وقد بلغ ابن منقذ فعلا مدينة فاس حيث أقام بالعاصمة الاولى للدولة المغربية ، الى أن انتهت غزوات المنصور في بلاد البرتغال ، وبد عودته اذن للرسول بالمثول بين يديه في مراكش وخلا به على انفراد كما يقول ابن عذارى ، وهناك تلقى الجواب من المنصور مجملا وأحيل على الوزراء لتكميل الحديث ثم انصرف بعد ذلك بخمسة أيام ...

وبالرغم من ان صاحب (الاستبصار في عجائب الامصار) يعتقد ان هذه السفارة لم تكن الا لاعلان ولاء صلاح الدين للخليفة الموحدى في اعقاب تحرج العلاقات العباسية الايوبية[٥] ، فان غيره من سائر المؤرخين يذهب الى أن الغرض من السفارة رغبة صلاح الدين في تدخل الاساطيل المغربية لوقوف الامدادات الصليبية للمشرق ...

ويتأكد لدينا أن مبعوثا لحق بالسفير ابن منقذ ـ وهو في طريقه الى المغرب وافريقية بالذات يحمل اليه امرين اثنين : أولهما تعليمات مكتوبة خاصة به ، وثانيهما رسالة اعتماده لدى العاهل الموحدي ، ونرى من الفائدة أن تستقصي نصهما معا لانهما فوق انهما وثيقتان تاريخيتان هامتان ، يلقيان الضوء على الظروف والملابسات التي حفت بهذه المهمة ، وهما ايضا انشاء القاضي الفاضل .

وتتلخص التعليمات التي صدرت للسفير ابن منقذ في ان عليه اولا ان يتطلع اخبار البلاد واهلها بما في ذلك العادات والمعاملات ، وان له ان يطلع على رسالة اعتماده قبل تسليمها مختومة للمنصور وذلك لمزيد العلم ، وعليه ان يقدم للعاهل المغربي عرضا مفصلا عما قام به صلاح الدين في مصر من تدابير لاقامة المذهب السني مكان الشيعي ... وعن حركاته نحو الشام وغزاوته ضد الصليبيين وفتح بيت المقدس . ويطلب الى السفير ان يسعى للحصول على نجدة الاسطول المغربي متى لم يكن مشغولا بمهمة او بمباشرة عدو ما ... والا فهناك مجالات اخرى لبذل العون تتجلى في الرجال والاموال ... وتزود التعليمات السفير بالجواب الذي

يحتاج اليه اذا ماسئل عن الموقف الرسمي لصلاح الدين من حركة التشغيب والافساد التي يقوم بها بعض من ينتسبون اليه . وتعود التعليمات لتطمين العاهل المغربي بأن ما قام به صلاح الدين في مصر من تدابير كانت تأديبا لمن راسل العدو منهم ...َ وتتخلص التعليمات الى الافادة بأن الهدية الموجهة للخليفة المنصور يصحبها امير اخر هو الاسفهسلار العالم الكبير مجد الدين سيف الدولة ...

ونؤثر ايراد النص بكامله بعثا له من مرقده ، وبرورا بالتاريخ الذي يربط بين جناحي المشرق والمغرب «بسم الله الرحمن الرحيم ، الامير الاجل الاسفهسلار الاصيل العالم المحترم شمس الدين عدة الاسلام جمال الايام تاج الدولة امين الملة صفوة الملوك والسلاطين شرف الامراء فقدم الخواص ادام الله توفيقه ، وبسر طريقه وانجح مقصده ، واعذب مورده ، وحرس مغيبه ومشهده ، واسعد يومه وغده ، ويستخير الله سبحانه ، ويتوجه كيفما يسر الله الى الجهة الاسلامية المغربية حرس الله جانبها ونصر كتائبها ومراكبها ويستقرى في الطريق ، وفي البلاد من أخبار القوم في احوالهم وادابهم واشغالهم وافعالهم وما يحبونه من القول نزره او جمه ، ومن اللقاء منبسطه او منقبضه ، ومن القعود بمجالسهم مخففه او مطوله ، ومن التحيات المتهاداة بينهم ما صيغته ، وما موقعه ، وهل هي السنن الدينية او العوائد الملوكية ولا يلقه الا بما يحبه ، ولا يخاطبه الا بما يسره والكتاب قد نفذ اليه ولم يختم ليعلم ما خوطب به ، والمقصود أن نقص القصص عليه من أول وصولنا الى مصر . وما ازلنا من البدع بها وعطلنا من الالحاد فيها ووضعنا من المظالم عنها ، واقامة الجمعة وعقد الجماعة فيها[7] وغزواتها التي تواصلت الى بلاد الكفار من مصر فكانت مقدمة لملك الشام الاسلامي باجتماع الكلمة علينا ومقدمة لملك الشام الفرنجي بانقياد المسلمين لنا واتفاق الملوك المجاورين على طاعتنا وتفصيل ما جرى لنا مع الفرنج من الغزوات المتقدمة التي جسنا فيها خلال ديارهم ، وجعلها الله تعالى مقدمات لما سبق في علمه من أسباب دمارهم وما اعقبها من كسرتنا لهم الكسرة الكبرى وفتح البيت المقدس وتلك على الاسلام منة الله العظمى الى غير ذلك من أخذ الثغور وافتتاح البلاد واثخان القتل فيهم والاسر لهم واستنجاد بقيتهم لفرنج المغرب وخروج نجداهم وكثرتها وقوتها ومنعتها وغناها وثروتها ومسارعتها ومبادرتها ، وانه لا يمضي يوم الا عن قوة تتجدد وميرة تصل واموال واسعة تخرج ، ومعونات كثيرة تحمل ، وان ثغرنا حصره العدو ، وحصرنا نحن العدو ، فما تمكن من قتال الثغر ولا تمكن من قتالنا ، وخندق على نفسه عدة خنادق فما تمكنا من قتاله ، وقدم الى الثغور ابرجة احرقها اهله ، وخرج مرتين الى عسكرنا فكسر العدو اقله ، فانه اغتنم اوقاتا لم تكن العساكر فيها مجموعة ، وارتاد ساعات لم تكن الا هب فيها

مأخوذة ، وأقدم على غرة استيقظت فيها نصرة الله لنا وخذلانه لهم فقتل الله العدو القتل الذريع ، واوقع به الفتك الشنيع ، وانجلت احدى الحركتين عن **عشرين الف قتيل من الكفار** خرجت انفسها الى مصارعها وهمدت اجسامها في مضاجعها ، والعدو ـ وان حصر الثغر ـ فانه محصور ، ولو ابرز صفحته لكان باذن الله هو المثبور المكسور ، **وتذكر ما دخل الثغر** من اساطيلنا ثلاث مرات واحراقها لمراكبهم وهي الاكثر ، ودخولها بالميرة بحكم السيف الاظهر ، وان امر العدو مع ذلك قد تطاول ، وخطبه قد تمادى، ونجدته تتواصل ، **ومنها ملك الألمان في جموع جماهيرها** مجمهرة ، واموال قناطيرها مقنطرة ، وان عساكرنا لو أدركته لما استدرك ، ولولا سبقه لها بالدخول الى انطاكية لتلف وهلك ، وتذكر ان الله قمع طاغية الألمان ، وأخذه أخذة فرعونية بالاغراق في نهر الدنيا الذي هو طريقه الى الاحراق في نار الآخرة ، وان هذا العدو ولو أرسل الله عليه اسطولا قويا مستعدا يقطع بحره ويمنع ملكه ولأخذنا العدو اما بالجوع او بالحصر ، او برز فأخذناه بيد الله تعالى التي بها النصر ، **فان كانت الأساطيل بالجانب المغربي** ميسرة والعدة منها متوفرة والرجال في اللقاء فارهة ، وللسير غير كارهة ، فالبدار البدار ، وأنت ايها الامير فيها ، **أول من استخار الله وسار** ، وان كانت دون الاسطول موانع اما من قلة عده ، **او من شغل هناك بمهمة او بمباشر عدو ما تحصن منه العورة** ، او قد لاحت منه الفرصة ، فالمعونة ما طريقها واحدة ، ولا سبيلها مسدودة ، ولا انواعها محصورة ، تكون تارة بالرجال ، وتارة بالمال ، **وما رأينا اهلا لخطابنا** ، ولا كفؤا لانجادنا ولا محقوقا بدعوتنا ولا ملبيا بنصرتنا **الا ذلك الجناب** ، فلم ندعه الا لواجب عليه ، والى ما هو مستقل به ومطيق له ، فقد كانت تتوقع منه همة تقد في الغرب نارها ، ويستطير في الشرق سناها ، **وتغرس في العدوة القصوى شجرتها فينال من في العدوة الدنيا جناها** ، فلا ترضى همته ان يعين الكفر الكفر ، ولا يعين الاسلام الاسلام ، وما اختص بالاستعانة الا لان العدو وجاره ، والجار اقدر على الجار ، واهل الجنة اولى بقتال اهل النار ، ولانه بحر والنجدة بحرية ، ولا غرو ان بجيش البحار البحار ، **وان سأل** عن المملوكين بوزيان[8] وقراقوش وذكر ما شعلا في اطراف المغرب ، بمن معهما من نفايات الرجال الذين نفتهم مقامات القتال ، فيعلمهم ان المملوكين ومن معهما ليسوا من وجوه المماليك والامراء ، ولا من المعدودين في الطواشية والاولياء ، وانما كسدت سوقهما وتبعتهما الفاف امثالهما ، **والعادة جارية ان العساكر** اذا طالت ذيولها وكثرة جموعها خرج منها وانضاف اليها ، فلا يظهر مزيدها ولا نقصها ، ولا كان هذان المملوكان ممن اذا غاب أحضر ، ولا ممن اذا فقد افتقد ، ولا يقدر في مثلهما انه ممن يستطيع نكاية ، ولا يأتي بما يوجب

شكوى من جناية ، ومعاذ الله ان نأمرمفسادابان يفسد في الارض ، ان اريد الا الاصلاح ما استطعت ، وان سأل عن النوبة المصرية وما فعل بجندها فيعلمهم الامير ان القوم راسلوا الكفار ، واطمحوهم في تسليم الديار ، فاشفى الاسلام على امر شديد ، وكاد يقرب على الكفر كل امر بعيد ، فلم يعاقب الجيش بل اعيان المفسدين ، فقوبلوا بما يجب وكانوا دعاة كفر وضلال ، ومحاربين لله بما سعوا في الارض من فساد ، فاما بقية الجيش وان كان منهم من هو تبع للمذكورين في الرضا ، فانهم اقتصر بهم على ان لا يكونوا جندا ، ومنهم من اجريت عليه ارزاق تبلغه ، وشملته امنة تسكنه ، واما الهدية المسيرة على يد الامير فتفصيلها يرد في كتاب الامير الاجل الاسفهسلار العالم الكبير مجد الدين سيف الدولة ادام الله علوه مقرونا بالهدية المذكورة ومع قرب الشتا' فلم يبق الا الاستخارة والتسمية ، ومبادرة الوقت قبل ان يغلق البحر انفتاح الاشتية ، والله سبحانه يوفق الامير ، ويسهل سبيله ويهدى دليله ويكلأه بعينه ، ويمده بعونه ويحمل رحله ويبلغه اهله ويشرح له صدره وييسر له أمره ان شا' الله تعالى ، وكتب ثامن وعشرين شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائة .

أما رسالة الاعتماد التي رفعها الامير ابن منقذ الى الخليفة المنصور فانها تتضمن بعد التحلية الفخمة ، تهنئة الخليفة المنصور الموحدى بفتح بيت المقدس وتبشيره بما ناله من ادعية المسلمين في تلك المشاهد ، ويعتذر عن التأخير في المكاتبة بما انشغل به من مقارعة المهاجمين فتخلصا من هذا لما اقدم عليه ملوك الصليبيين وخاصة ملك الالمان من جمع العدة والعدد للتمكن من بلاد الاسلام ... وهنا يتوجب للعاهل المغربي الذي ينعته «بسلطان الاسلام وقائد المجاهدين الى دار الاسلام» راجيا أن يمد غرب الاسلام « المسلمين باكثر مما أمد به غرب الكفار الكافرين فيملأها عليهم جوارى كالاعلام ... وتختتم الرسالة بتقديم سفير الملوك والسلاطين ابي الحزم عبد الرحمن ابن منقذ ... واحيا' للتاريخ نورد النص الكامل فيما يلي :

عنوان الرسالة : (بلاغ الى محل التقوى الطاهر ومستقر حزب الله الظاهر من المغرب اعلى الله به كلمة الايمان ورفع به منار البر والاحسان)

«بسم الله الرحمن الرحيم ، من الفقير[٩] الى رحمة ربه يوسف ابن ايوب **اما بعد فالحمد** لله الماضي المشية ، المضي القضية ، البر بالبرية ، الحفي بالحنفية ، الذي استعمل عليها من استعمر به الارض ، وأغنى من أهلها من سأله القرض ، واجزل أجر من اجرى على يده النافلة والفرض ، وزان سما' الملة بدرارى الذرارى التي بعضها من بعض ، وصلى الله على سيدنا محمد الذي انزل عليه كتابا فيه الشفا' والتبيان ، وبنى الاسلام بأمته التي شبهها صاحبها

بالبنيان ، وعلى اله وصحبه الذين اصطفاهم وطهرهم فظاهروه وناصروا رسوله صلى الله عليه وسلم فنصرهم واظهرهم ويسر بهم السبيل ثم السبيل يسرهم ، وان الله لذو فضل على الناس ولكن اكثرهم لا يشكرون ، ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين امنوا ، ربنا انك رؤوف رحيم .

وهذه التحية الطيبة الكريمة الصبية الواجبة الرد الموجبة للقصد ، العذبة الورد ، المتنفسة عن العنبر والورد ، وقادة على دار الملك ، ومدار النسك ، وجل الجلالة ، واصل الاصالة ، ورأس الرياسة ، ونفس النفاسة ، وحكم الحكم وعلم العلم ، وقائم الدين وقيمه ، ومقدم الاسلام ومقدمه ، ومقتضى دين الدين ، ومثبت المتيقن على اليقين ، ومعلى الموحدين على الملحدين ، ادام الله له النصرة ، وجهز به تيسير العسرة ، ورد له الكرة ، وبسط له باع القدرة ، وأوثق به حبل الالفة ، ومهد له درجات الغرفة ، وعرفه في كل ما يعتزمه صنعا جزيلا جميلا ، ولطفا حفيا جليلا ، ويسر عليه في سبيله كل ما هو اشد وطأ واقوم قيلا تحية استنير منها الكتاب ، واستنيب عنها الجواب ، وقد حفز لها حافزان : احدهما شوق قديم كان مطل غريمه ممكنا الى ان تتيسر الاسباب ، والاخر مرام عظيم ما كره اذا استفتحت به الابواب ، وكان وقت المواصلة وموسم المكاتبة **هناءة بفتح البيت المقدس** وسكون الاسلام منه الى المقيل والمعرس ، وما فتح الله للاسلام من الثغور ، وما شرح لاهله من الصدور ، وما انزله عليهم من النور ، ولم يخل **المسلمون فيه من دعوات** أسرار ذلك الصدر ، وملاحظات انوار ذلك البدر ، ومطالعات تلك الجهة التي هي وان كانت غريبة **فان الغرب مستودع الانوار وكنز دينار الشمس** ، ومصب انهار النهار ، ومن جانبه يأتي سكون الليل ومستروح الاسرار ، وعنه يقلب الله الليل والنهار ، ان في ذلك لعبرة لاولي الابصار ، **ولم تتأخر المكاتبة الا ليتم الله ما** بدأ من فضله ، وليفتح بقية ما لم ينقطع بتقطع يد الشرك من حبله ، والمفتتح بيد الله من الشام مده وامصار ، وبلاد كبار وصغار ، وثغور وقلاع كانت للشرك معاقل ، وللاسلام معاقر ، ولتبني الكفر مصانع ، ولتبني الاسلام مصارع ، والباقي بيد الكفر منها ثغرا طرابلس وصور ، ومدينة انطاكية يسر الله امرها ، وفك من يد الكفر اسرها ، واذا آمن المؤمن على هذه الدعوة رجى ايجابها وما يتأخر من الله سبحانه جوابها ، **فالدعاء احد السلاحين** ، ومع النية يطير الى وكره من السماء بجناحين ، بعد ان كسر العدو الكسرة التي لم يجبر بعدها ، والجيء الى حصونه التي للحصر اعدها ، وكان يومها كريما ، ولطف الله فيها عظيما ، قضت كل حاجة في النفس ، واغنت المسلمين فاما العدو بعد يومها فكأن لم يغن بالامس ، وكانت على اثر غزوات

قبلها فما الظن بالمجهزة بعد النكس ، ولم يؤخر فتح البلاد بعدها الا ان فزع الكفار بالشام استصرح باصل الكفار من الغرب ، فأجابوهم رجالا وفرسانا ، وشيبا وشبانا ، وزرافات ووحدانا ، وبرا وبحرا ، ومركبا وظهرا ، وركبوا اليهم سهلا ووعرا ، وبذلوا عونا وذخرا ، وما احتاجوا ملوكا ترتادهم ، ولا أرسانا تقتادهم ، بل خرج كل يلبي دعوة بطركه ، ولا يحتاج الى عزمة ملكه ، وخرجت لهم عدة ملوك اقفلت العجمة على اسمائها ، واتت العزيمة بحمد الله على اشخاصها عند لقائها **ومنهم ملك الالمان** خرج في جموع برية ، من الله تعالى برية ، ملات الفجاج ، لينصر دينا مشبه الزجاج يقبل الكسر ولا يسرع اليه الجبر ، وراكب ذلك الدين كراكب البحر بلا ساحل سلامه ، والى قاع كفر ، وجلب الكفار الى المحصورين بالشام كل مجلوب ، وملأوا عليهم ثغريهم من كل مطلوب ، ما بين أقوات واطعمة والات واسلحة وشلة وجنة وحديد مضروب وزبرة ، ونقدي ذهب وفضة ، الى ان شحنوا بلادهم رجالا مقاتلة وذخائر للعاجلة ، من حربهم الاجلة ، لا تشرق شارقة الا طلعت على العدو من البحر طالعة ، تعوض من الرجال من قتل ، وتخلف من الزاء ما أكل ، فهم كل يوم في حصول زيادة ، ووفود مادة ، وقد هان عليهم موقع الحصر ، واعلاهم البحر ما منعهم البر ، وبطروا لما كثروا ونظروا ، فانهم لا يستطيعون ان يلقوا ويناحروا ويستطيعون ان يحصروا على ان ينحصروا ، ونزلوا على عكا بحيث يمدهم البحر بامداده ، ويصل الى المقاتل ما يحتاجه من اسلحته وازواده ، وبمن يكثر به من مقاتلته واجناده ، فانقطعت مادة عكا من البحر ، وحصرنا منازلهم من العدو من جانب البر ، فحدقوا على انفسهم ، وحثوا التراب على رؤوسهم وعقدت عدتهم مائة الف او يزيدون كلما افناهم القتل اخافتهم النجدة ، فكأنهم قبل الممات يعودون ، فاتممنا بعمارة بحرية لقينا عمارتهم بها ، فنفذت عمارتنا الى الثغر واوصلت اليه الاقوات التي حمل منها البحر ما لايحمله الظهر ، والاسلحة التي امضاها الله عز وجل بيد الاسلام في صدور الكفر ، وما لقينا عمارة العدو باوفر منها عدة ، فعدد مراكبهم كبير ، ولكن لقيناهم باصدق منها عزمة ، والقليل مع العزم الصادق كثير ، واستمر مقام العدو محاصرا للثغر ، محصورا منا اشد الحصر ، لا يستطيع قتال الثغر لانا من خلفه ، ولا يستطيع الخروج الينا خوفا من حتفه ، ولا نستطيع نحن الدخول اليه لانه قد سور وخندق ، وحاجز من وراء الحجرات واغلق ، **ولما خرج ملك الالمان بحشده وسمعته التي هي منه احشد ، وعاد جيشه الملعون على رسم قديم الى الشام ، فكان العود لامة احمد صلى الله عليه وسلم احمد ، قويت به نفوسهم** وجمحت به رؤوسهم ، وظنوا انه يزعجنا من مخيمنا ، ويخرجنا من خيمنا ، فبعثنا اليه من يلقاه بعساركنا الشمالية ، فسلك ذات

الشمال متوعرا فيها محتجزا عن لقائها ، مظهرا انه صريع دا ٔ وما به غير دائها ، **وكان ابوه الطاغية ملك الالمان شيبة اللعن** اللعين قائد جيشه الى سجن سجين ، قد هلك في طريقه غرقا ، وخاض الماء فمخاضه الما ٔ شرقا ، وبقي له ولد هو الان المقدم المؤخر ، وقائد الجمع المنكس ، وربما وصل بهم الى عكا في البحر تهيبا ان يسلك البر ، ولو سبق اصحابنا الى عساكر الالمان قبل دخولها الى انطاكية لاخذوه اخذا سريعا ، وسبق بحر سيوفهم الى ان يكون الطاغية فيه لا في النهر صريعا ، ولكن لله المشيئة في البرية ، والطاغية انما يمشي الى البلية ، فانه لولا احجاز مقيمهم بالخنادق واجتياز واصلهم بالمضايق ، لكان لنا ولهم شأن ، وكان ليومنا في النصرة الكبرى بحول الله ثان لا يثنيه من العدو ثان .

ولما كانت حضرة سلطان الاسلام وقائد المجاهدين الى دار الاسلام ، أولى من توجه اليه الاسلام بشكواه وبثه ، واستعان به على حماية نسله وحرثه ، وكانت مساعيه ومساعي سلفه في الجهاد الغر المحجلة المؤمرة ، الكاشفة لكل معضلة ، الكاسفة لكل مشكلة ، والاخبار بذلك سائرة ، والاثار ظاهرة ، والصحف عنه باسمة ، والسير به معلمة وعالمة ، **وكل بجهاده قد سكن الا** السيوف في اغمادها ، وقد أمن الا كلمة الكفر في بلادها ، لا يزال في سبيل الله غاديا ورائحا ، ومواجها ومكافحا ، ومماسيا ومصابحا ، يجوز لجة البحر بالمجاهدين ملوكا على الاسرة ، وغزاة تصافح وجوهها السيوف فلا يخمد نور الاسرة ، يذود الفرق الكافرة ، ولو ترك سبيلها لملا قراره كل واد ، وكلما اوقدوا نار للحرب اطفأها الله ، ولولاه لا خمد شراره كل زناد ، **كان المتوقع من تلك الدولة العالية** ، والعزمة الغادية مع القدرة الوافية ، والهمة المهدية الهادية ، **ان يمد غرب الاسلام المسلمين بأكثر مما امد به غرب الكفار الكافرين ، فيملاها عليهم** جوارى كالاعلام، ومدنا في اللجج سوائر كأنها الليالي مقلعة بالأيام، تطلع علينا معشر الاسلام آمالا، وتطلع على الكفار آجالا ، وتردنا اما جملة واما ارسالا ، مسوقة تمدها ملائكة مسومة ومعلمة ، تقدم حيازيمها اقدام حيزوم تحت اصحابه وانما هي منه عزمه ، كانت تعين اصحاب الميمنة على اصحاب المشأمة ، وكلمة كانت تنفخ الروح في الكلمة ، ولما استبطأت ظن انها توقفت على اصحاب المشأمة وكلمة كانت تنفخ الروح في الكلمة ، ولما استبطأت ظن انها توقفت على الاستدعا ٔ فصرحنا به في هذه التحية ، فقد تحفل السحاب ولا تمطر ، الى ان تحركها ايدي الرياح ، وقد تترك النصرة فلا تظهر الى ان تضرع اليها السنة الصفاح ، **وسير لحصن مجلسه الأطهر ومحله الأنور الامير الاجل المجاهد الامين الاصيل** شمس الدين نفير الاسلام والمسلمين سفير[١] الملوك والسلاطين ابو الحزم عبد الرحمن بن منقذ كتب الله سلامته واحسن صحابته ،

وما اختير للوفادة الا من هو اهلها ، ولا حمل الوديعة الا من هو محلها ولا بعث لنهج الصلة الا من هو مفتاحها ولاداء الامانة الا من هو قفلها ، ومهما استوضح منه وسئل عنه فانه على نفسه بصيرة ، ومن البيان ذو ذخيرة ، وفي العربية ذو بيت وعشيرة ، والمشاهدة له اوصف . على ان تلك الجلالة ربما ذعرت البيان فاخلف ، وما اجدره بأن يصادف بسطه على بساطه ، ونظرا يأذن له في القول على اختصاره وتوسطه وافراطه ، فكل هو به واف ، وكل هو للفهم الكريم كاف ، والله تعالى يجعل هذه العزمة منا في استنهاض العزمة منه بالغة مبلغا يسر اهل دينه ، ويوزعهم بها اقتضاء ديونه من الذين اتخذوا الاها من دونه ، والسلام الصادر عن القلب السليم والود العظيم والعهد الكريم ، على حضرة الكرم العلية ، وسدة السيادة الجلية ، سلام مودة ما وفد الغرب قبلها مثلها ، ورسالة ما خطرت الى ان انفذت وراءها المحبة رسلها ، وليصل السلام ورحمة الله وبركاته ورضوانه وتحياته ان شاء الله تعلى ، وكتب في شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائة ، والحمد لله وحده وصلاته على سيدنا محمد نبيه واله وسلامه .

وقد حملت السفارة الشامية معها ـ كما اسلفنا ـ عددا من الهدايا النفيسة الى العاهل المغربي تشتمل على ختمة كريمة في ربعة مخيشة بالمسك وعلى ثلاثمائة مثقال من العنبر ، وعشر قلائد من الجوهر عددها ستمائة حبة وعشرة امنان[11] من العود في سفط ، وواحد ومائة درهم من دهن البلسان ، واثنين ومائة قوس باوتارها ، وعشرين سرجا ، وعشرين من نصول السيوف الهندية ، وسبعمائة نشابة من صنع خاص مريش، فيه الكبير والمتوسط ضمن صندوق خشبي مجلد ، كما ان سفير الشام ابن منقذ قدم للعاهل المغربي قصيدة من اربعين بيتا يقول فيها :

على الخصوص :

سأشكر بحرا ذا عباب قطعته	الى بحر جود ما لنعماه ساحل
الى معدن التقوى الى كعبة الهدى	الى من سمت بالذكر منه الاوائل
اليك أمير المسلمين ولم تزل	الى بابك المأمول تزجى الرواحل
قطعت اليك البر والبحر موقنا	بأنى بذاك القطع بالنجح كافل
فما راعني من وجبة البر رائع	ولا هالني من زاخر البحر هائل
ومن كل غايات المعالي طلابه	يهون عليه كل أمر يحاول
رجوت بقصديك العلى فبلغتها	وادنى عطاياك العلى والفضائل
فلا زلت للعلياء والجود ثانيا	تبلغك الايام ما أنت آمل!

واذا كانت سائر المصادر تحدثت عن التكريم البالغ الذي لقيته بعثة صلاح الدين ، وعن مكافأة المنصور لشاعر الشام بأربعين الف دينار تقديرا لفضله وبيته ... فان بعضها ، حاول أن يجد من عبث ابي ربان وقارقوش في اطراف المغرب ، ومن تحفظ صلاح الدين من تحلية المنصور بأمير المؤمنين سببا يبرر به ما ادعى من عدم تحمس المنصور لجواب صلاح الدين !

والذي نعتقده أن المنصور كان اسمى من المواخذة على تشغيب المملوكين السابقين لصلاح الدين ، سيما وقد استسلما منذ سنة ٥٨٣ =١١٨٧[١٢] سيما ايضا وقد تتصل منهما ومن اتباعهما صلاح الدين نفسه في التعليمات التي بعث بها لسفيره ابن منقذ على ما سمعنا كما ان المنصور من جهة اخرى كان فوق ان يقيم وزنا لتحليته بأمير المؤمنين او امير المسلمين سيما وان الوثائق المغربية تتضافر كلها مخطوطة اومسكوكة او منقوشة على أن الدولة بالمغرب لا تولي **اهتماما لهذه الالقاب**[١٣] ، على ان صلاح الدين قد خاطب المنصور «بما لا يمكن مخاطبة مخلوق بأكثر منه» على حد تعبير القاضي الفاضل نفسه ..

ولعل ما أوقع بعض المؤرخين في خطأ التقدير السرية التامة التي سادت محادثات الرأس للرأس على ما قاله ابن غذارى ، تلك السرية التي كانت تفرض ان تذيع اخبار نجدة المغرب للشام لسببين اثنين مزدوجين فأولا حتى لا يستعد خصوم صلاح الدين لاعتراض الاسطول المغربي ، وثانيا حتى لا يتطاول العدو في الاندلس على الدولة في حالة سماعه بأن طرفا هاما من الاسطول اتجه نحو الشرق ! ونحن نعلم جيدا عن العدوان الذي بدأ يتخذ في الاندلس مظاهر اكثر ضراوة وأقوى عنفا ... والذي كان صلاح الدين يدركه تمام الادراك عندما قال في تعليماته لسفيره : «وان كانت دون الاساطيل موانع من شغل هناك بمباشرة عدو فالمعونة ما طريقها واحدة» ومن يدري فلعل للتنافس الحاد بين بغداد ومراكش انذاك اثرا على بعض ما قيل .. ! ومهما قيل عن هذا الموضوع فانه لا يسعنا الا ان نورد هنا رواية اوردها صاحب كتاب الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى تثبت أن المنصور جّهز فعلا لصلاح الدين بعد سفارة ابن منقذ مائة وثمانيين قطعة بحرية أي أزيد من نصف الاسطول المغربي على ذلك العهد[١٤] . وهي رواية تتناسب جدا مع تقاليد المغرب وما تحدث به عن المغرب من تهافته على ساحات الشرف وميادين القتال وبخاصة عندما يتعلق الامر بنصرة مظلوم او باحقاق حق او بمصلحة عليا ...[١٥]

ويدل على جو الانفراج الذي ساد علاقات المغرب بالشام في اعقاب هذه الاتصالات ما نقرأه عن قيام شخصية ادبية لامعة من الشام بزيارة لبلادنا ... والاجابة عن هذه الزيارة بأخرى لشخصية مغربية مرموقة أدت زيارة للشام .

وهكذا نسمع عن ابن حمويه السرخسي الذي سافر الى بلاد المغرب سنة وبقي مقيما هناك حتى بعد وفاة المنصور ... لقد كان على صلة بالبلاط الموحدي لفترة طويلة وهو الذي سأله العاهل المغربي ذات يوم مؤانسا له : »أين بلاد المغرب من بلادك الشامية ؟» فأجاب مباسطا : »بلادكم طيبة لولاعيب واحد» فقال المنصور : وما هو ؟ فأجابه : »انها تنسي الأوطان !!

والسرخسي هذا هو الذي خاطب المنصور بأبيات يقول في مطلعها :

يا كعبة الجود التي حجت لها   عرب الشآم وغزها والديلم !

وهكذا ايضا نسمع عن ابن سعيد المغربي الذي اقام بالشام في النصف الاول من القرن السابع واجتمع بالناصر كمال الدين ، وكانت له مع السلطان احاديث شيقة ما تزال كتب التاريخ ترددها استظرافا واستلطافا ، قال له السلطان ذات يوم : «لقد اتخذنا لكل شاعر من شعرائنا لقبا من اسماء الطيور ، وقد اخترنا لك لقبا يليق بحسن صورتك ، وبديع انشادك ، وهو البلبل ، ثم خيره بين واحدة من ثلاث : الضيافة في كنف السلطان ، او جائزة سنية ينالها ، أو هذا اللقب الجميل ... وبما عهد في ابن سعيد من خفة دم وطرافة نكتة أجاب السلطان : »انني — يا مولانا — ممن لا يختنق بعشر لقم فكيف بثلاث» !!

ولم تكن التنقلات المؤقتة للجيش المغربي بكافية وحدها في نظر المغاربة لمساندة الشام ، فقد تنبهوا لمبادرة أخرى تعتبر من أهم وأكد المبادرات العملية لحماية ثغور تلك البلاد ، وهكذا فانهم شعروا سواء على المستوى الرسمي او المستوى الشعبي بضرورة تملك العقار بتلك الديار وكأنهم أدركوا ما يهدد بلاد العرب وبلاد الشام، وما يهدد فلسطين بالذات من غزو اخر يكون على شكل اقتناء الاراضي من اصحابها ، وبهذا نفسر وجود عدد من الرباطات ، والملاجي ' وعدد من العقارات المغربية في مدينة القدس وضواحيها منذ العصور الاولى للدولة المغربية .

ولعل من المفيد أن نسجل هنا — للتاريخ — مضمون وثيقة وقف للعالم العارف أبي مدين شعيب بن المجاهد المرابط أبي عبد الله محمد بن الشيخ الحجة الامام الغوث ابي مدين شعيب دفين تلمسان.

وقد حررت الوثيقة المشار اليها بتاريخ ٢٩ رمضان سنة ٧٢٠ في حياة ابي مدين الحفيد ، وهي تثبت انه حبس مكانين اثنين كانا تحت ملكه وتصرفه ، وكان يتولى هو نفسه الاشراف عليهما : اولهما قرية بكاملها تعرف بعين كارم من قرى مدينة القدس الشريف ، وتشتمل على عدد من الاراضي فيها المعتمل وفيها المعطل ، وفيها العامر والداثر ، والاوعار والسهول ، كما تشتمل على اثار دور

وبنيان ، كذلك بساتين مما يستقى من عين ماء القرية المذكورة . وتحتوي تلك البساتين على عدد من اشجار الفواكه فيها الزيتون والرمان والتين والبلوط والخروب ودوالي العنب العتيقة ...

وقد حددت الوثيقة عين كارم من الجهات الاربعة : فالناحية القبلية منها تنتهي الى المالحة الكبرى والناحية الشمالية تنتهي الى بعض أراضي عين كاووت وقلونية وحاراش وصاطاف وزاوية البختيارى ، والناحية الغربية تنتهي الى عين الشكاك ، والشرقية تنتهي الى بعض أراضي المالحة الكبرى وبيت مرميل .

أما ثاني المكانين فانه يقع بمدينة القدس نفسها بالخط الذي يعرف بقنطرة ام البنات بباب السلسلة وهو يشتمل على ايوان وبعض البيوت وساحة ومرفق ومخزن وسرداب ...

وبعد أن تثبت الوثيقة ان حدود هذه البقعة الثانية معلومة لدى الخاص والعام تمضي مؤكدة أن هذا الوقف «لا يبطله تقادم دهر ولا يوهنه اختلاف عصر ، كلما مر عليه زمان أكده ، وكلما أتى عليه أوان ثبته وسدده» .

وبعد هذا تنص الوثيقة على أن كلا من قرية عين كارم والايوان وقف على المغاربة المقيمين بالقدس او القادمين اليه على اختلاف اوصافهم وتباين حرفهم ، ذكورهم واناثهم ، كبيرهم وصغيرهم ، فاضلهم ومفضولهم ، ويقدم في ذلك الواردون على المقيمين .

وتوضح حجة وقف أبي مدين الحفيد وجه النفع من الايوان المحبس في مدينة القدس فتذكر أنه ــ أي الايوان ــ أعد ليكون زاوية[16] يأوى اليها المغاربة العابرون ...

ولم تكن اوقاف ابي مدين أول لائحة ولا اخرها فان عدد الممتلكات المغربية بالشام كان من الكثرة بحيث يفوق الحصر والعد، كما أنه حرك من اريحية المغاربة الذين عملوا ــ باستمرار ــ على تنمية موارد تلك الاوقاف واغنائها لصالح المرابطة التي كانت ترجع لعدد من المجاهدين والمناضلين من امثال الشيخ المصمودي الذي كان موجودا في النصف الاول من القرن الثامن الهجري، بل نجد حيا بكامله بمدينة القدس يحمل اسم (حي المغاربة) يرجع الى عهد مبكر جدا...[17]

ومن هنا ندرك السر في هذا العدد من السفارات المتبادلة فيما بين المغرب وملوك مصر والشام ابتداء من القرن الثامن تجاوزت مهماتها اهداف مناسك الحج الى الاغراض السياسية، وهكذا فبعد سفارة مغربية عام ٧٠٠ برئاسة وزير مغربي، وثانية عام ٧٠٣ ضمت القاضي محمد بن زغبوش والعلامة عبد الله القصار وأبا عبد الله محمد بن ابراهيم البقوري[18] تاتي سفارة مغربية برئاسة أى دوغدى[19] الشهرزوري الذي بعث به يوسف بن يعقوب سنة ٧٠٤ للناصر بن

قلاوون على رأس بعثة كانت تتألف من أبي الحسن التنسي وابي زيد الغفائري الذي نجح في وفادته وعاد سنة ٧٠٥ الى بلاده صحبة سفارة مشرقية تركية من عدد من رجال دولة الناصر. كان على رأسهم أميران يحملان نفس اسم (أى دوغدى)، هما: أى دوغدى التليلي الشمسي، واى دوغدى الخوارزمي...

وقد حملت هذه السفارة بالاضافة الى الهدية السنية التي اجاب بها الناصر على هدية يوسف بن يعقوب، اضافة الى ذلك جملة من مغانم الملك الناصر التي حرز عليها في اثر المعارك التي كانت له مع التتر بظاهر دمشق سنة ٧٠٢، وذلك اشهارا لامر هذا الفتح واظهارا للمغرب بأن ملوك المشرق يسيطرون على الموقف ازاء المغيرين عليهم، وقد كان في جملة تلك الهدايا عشرون اكديشا من اكاديش التتر وعشرون اسيرا منهم وطائفة من طبولهم وقسيهم...

واستمرارا على السير في الخط الذي سار عليه والده السلطان ابو سعيد عثمان نجد السلطان ابا الحسن كذلك يرسل ـ بعد استرجاعه بجاية وتلمسان عام ٧٣٧ بسفارة هامة الى الملك الناصع محمد بن قلاوون برئاسة القائد فارس ابن ميمون بن وردار الذي حمل رسالة من العاهل المغربي زف فيها مشاعر الود لملك مصر والشام...

وبالرغم من أننا لا نتوفر على النص الكامل لهذه الرسالة فاننا نعلم من خلال جواب الناصر عليها أنها تضمنت اخبار الملك الناصر بما كان قر عليه عزم السيدة والدة العاهل المغربي من أداء مناسك الحج لولا التحاقها بالرفيق الاعلى ولم يتأخر العاهل المغربي عن اخبار الملك الناصر بقمع حركة التمرد التي شبت في سجلماسة بقيادة اخيه ابي علي ثم يقدم له اخبار فتحه لتلمسان واسباب تدخله في الصراع الذي حاول ان يتلافاه بكل ما في استطاعته... ثم يحيطه علما بسفارة وردت عليه من الاندلس مستصرخة مستنجدة وانه لبى نداء الواجب وحرر جبل طارق وأرجع العدو على اعقابه بل فرض عليه الاتاوات التي كانت قد امليت عليه من قبل، من طرف حكام غرناطة، وقد عاد القائد ابن وردار من مهمته صحبة سفارة مشرقية تؤكد اعتماد قادة المشرق دائما على صداقة ملوك المغرب وكانت السفارة تتألف في جملة من تتألف منه: من الشيخين الاجلين أبي محمد عبد الله ابن صالح والحاج محمد بن أبي لحان ، وقد حملت رسالة تستفتح بعد البسملة بقوله تعالى «يأيها الذين امنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم» ثم بعد الديباجة المعهودة من القاب الملكين والدعاء تتضمن الرسالة اولا **تقرير** ما كان أخبره به العاهل المغربي من وفاة والدته، وقمع حركة تمرد أخيه، وتدخله لاسترجاع تلمسان، وتحرير جبل طارق... وتتخلص من هذا لاحاطة السلطان ابي الحسن علما بتحركاته هو كذلك في البلاد

الشامية لصد العدوان الصليبي وتحرير قلعة ايباس وخمس عشر قلعة أخرى وما أدى اليه التدخل من فرض الاستسلام على خصوم الاسلام، وهكذا تقول الرسالة:[20]

قهر الله ببأسه من ناوأه من أئمة الكفر وطغاته، ونصره على من لاواه من حزب الشيطان وحماته، ونشر أعلامه بالظفر من خالفه من عداة الله وعداته، وأجراه من بلوغ الوطر في سكونه وحركاته، على أجمل أوضاعه وأكمل عاداته، ويسر له بدوام سعوده فتح ما استغلق من معاقل الحائدين عن مرضاته ولا زالت زكائب البشائر عنه تسرى واليه من تلقائنا تسير، ومصير الظفر حيث يصير، ويدور الفلك المستدير بسعده الأثيل الاثير، وينور الحلك بضوء جبينه الذي يهتدي به الضال، ويلجأ اليه المستجير، وتغور أعين العدا ان عاينوا جحفله الجرار وناهدوا جيشه المبير، بتحية تحكي اللطائم عرفها الشميم، وتود الكمائم لو تفتقت عن مثل مالها من نضارة أو تسنيم، ويود عقد الجوزاء لو انتظم في عقدها النضيد النظيم.

وكيف وهي تحية صادرة عن مقام شريف الى روضة غناء تزرى بالنبت العميم، وأراده من محل عظيم، على محيا وسيم، منطوية على الارض من سلامة وللملوك ألاسلام من سلام سليم، وطرفة نشرها كالمسك الذي ينبغي أن يختتم به هذا الكتاب، وثناء يستنفر الالباب ويستقر في حبات قلوب الاحباب، ويستدر اخلاف الودين المنحابين في الله، فلا غرو ان دخلت عليهم ملائكة النصر من كل باب، يتسابقان الى ذلك المجد الاسنى في اسعد مضمار، ويتساوقان بحياز قصبات السبق الى تلك العصبة المشرقة الانوار ويزداد فيهما بالوفود عليه طيا، ويغدو عود الود بهما رطيبا، حيث الربع مريع والمهيع منيع، والعز مجدد والقدر مطيع، وسحب الكرم ثرة، ورياض الفضل مخضرة، وعساكر النصر تحل نحوه من المجرة، حيث تستعر الحرب، ويستحر الضرب، وتشرق شموس المشرفات لامعة.

أما بعد حمد لله مظهر دينه على كل دين، ومطهر ارجاء البسيطة من الماردين المارقين، ومجرد سيف النصر على الجاحدين الحائدين، وموهن كيد الكافرين، ومجزل أجر الصابرين، ومنجز وعد من بشرهم في كتابه المبين بقوله «بل الله مولاكم وهو خير الناصرين».

الذي عصم حمى الاسلام بكل ملك قاهر، وفهم عرى الشرك بكل سلطان غدا على عدو الله وعدوه بالحق ظاهر، وقصم كل فاجر بمهابة أئمة الهدى الذين ما منهم الا من هو للمحاسن ناظم، ولقمم العدا ناثر، ناشر علم الايمان بحماة الامصار، وناصر علم الاسلام بملوك الاقطار، وجاعل كلمته العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، لاجرم ان لهم النار، جامع قلوب اهل الايمان على اعلام علم الدين

الحنيف وان بعدت بينهم شقة النوى وشط المزار.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أرسله الله رحمة للعالمين ونقمة على الكفار، ونصرة بالرعب مسيرة شهر، وبالملائكة الكرام في ايراد كل أمر واصدار، وألان ببأسه صليب الصلبوت وأهان بالتنكيس الاصنام وسدنة النار، وايده بآل وأصهار وأصحاب وأنصار، وجنود تهون النقع المثار، واتباع ما أظلم خطب الا اجالوا سيوفهم فبدأ نجم الظفر في سماء الايمان وأنار، وامة ظاهرة على من ناواها ظاهرة بمن عاداها، ما تعاقب الليل والنهار، صلاة وتسليما يدومان بدوام العشي والابكار.

فقد ورد علينا كتاب مختوم بالتكريم، محتوم بالتبجيل والتقديم، محتو على وصف فضل الله العميم ونصره العظيم ومنه الجسيم، فأكرمنا نزله، ونشرنا حلله، وتفهمنا تفاصيله وجمله، فتيمنا بوصوله، وتأملنا مخايل النصر العزيز من فصوله، ووجدناه قد اشتمل من سعادة مرسله على انواع، ومن وصف تعداد نصرته على عون من الله، ومن يعن الله فهو المنصور المطاع.

فأما ما ذكره المقام العالي من امر الوالدة المقدس صفيحها، المغمور بالرحمة ضريحها، وما كانت عزمت عليه من قصد مبرور، وتجارة لن تبور، وأم الى البيت الامن والحرم المعمور، وما فاجأها من الاجل، وعاجلها من أمر الله عز وجل، فالمقام اجزل الله ثوابه يتحقق أن النية في الاجور ابلغ من العمل وأنه من اجاب داعي الحمام فالتقصير في فعله ولا خلل، والله نسأل أن يكتب لها ما نوته من خير، وأن يطيف روحها الزكية ببيته المعمور في جنات عدن كما أطاف أرواح الشهداء في حواصل ذلك الطير.

وكنا نود ان لو قدمت ليتلقاها منا زائد الاكرام، ويوافي مضاربها وافد الاحتفال والاهتمام، وستجلب دعواتها الخالصة الصالحة، وتظفر من مشاهدة الحرم المعظم، والمثوى المكرم والبيت المقدس بالصفقة الرابحة، **على أنه من ورد** من تلقائكم قابلناه من جميل الوفادة بما به يليق، وتقدمنا بمعاملته بما هو به حقيق، ويسرنا له السبيل وهديناه حرز السلامة مع ركبنا الشريف أمله من قضاء المناسك والتطواف بالبيت العتيق.

وأما ما أشار اليه من أمر من كان بتلمسان، وأنه ممن لا يعرف مواقع الاحسان، وما وصفه المقام العالي من احوال ليس الخبر فيها كالعيان، وأنه اعتدى على من يتاخمه من الملوك، وخرج عن القصد فيما اعتمده من ذلك السلوك، حتى أن ملك تونس ارسل الى المقام ابنه ووزيره، وسأله أن يكون ظهيره على الحق ونصيره، وان المقام العالي ارسل الى ذلك الشخص منكرا اعتماده، طالبا اصلاحه لا افساده، راجيا أن يكون ممن تنفعه الذكرى، ظانا أنه ممن يأبى ان يقال له:

»لقد جئت شيئا نكرا«، وأنه بعد ذلك تمادى على غيه، وأراد ان يذوق طعم الموت في حيه، وأبى الظالم الا نفورا، وذكر الملك عنه أنه قتل أباه بعد أن أتاه الله به نعمة وملكا كبيرا.

وان المقام العالي أتاه نبأ عن أخيه المقيم بسجلماسة، وخبر صدق اوجب أن يعامل بما يليق بجميل السياسة، وحريز الحراسة، فجند المقام له جنودا، وعقد بنودا، وأضرى اسودا اوهنت كيده، واذهبت ايده، وعاجلت صيده، وادالت باسه، وأزالت عنه سيما الملك ونزعت لباسه. وأنه في غضون ذلك أتاه سلطان الاندلس يستصرخ به على عدو الله وعدو المؤمنين، ويستعدى على الكفرة المعتدين، وان المقام لبى دعوته مسرعا واكرم نزله ممرعا، ووعده الجميل، وحقق له التأمين، وان صاحب تلمسان لما غره الامهال، وظن هذه المهام توجب للمقام بعض اشتغال، اعمل اطماعه في التجرى على بعض ممالكه المحروسة، وقد وسار الى محل هو بينهما كالحد، وأن المقام عند ذلك صرف اليه وجه العزم، وأخذ في حفظ شأنه بما لاعلام النصر من نصب وما للاعتداء من رفع، وما للاهتمام من جزم. وانه لم يقدر عليه الا بعد أن حذره من اليم العقاب حلولا، وتمسك فيه بقوله تعالى: »وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا« و(لما) لم ينفعه الانذار، وابى الا المداومة والاصرار، أرسل اليه المقام العالي من جيشه الخضم، وعسكره الذي طالما تقصده ملائكة السماء والى اعداده تنضم، كل باسل يقوم مقام الكتيبة، وكل مشاهد يشاهد منه في الدين كل غريبة، وكل صرغام تعرف العدا مواقع ضربه، لكنها تجهل نده او ضريبه، فأذاقوه كأس الحمام صرفا، ولم يبتغوا عن حماه بدون نفسه عدلا ولا صرفا، الى أن اخذوه من جماعة من بني ابيه، وشرذمة قليلة ممن كانت تخالصه في الشدائد وتوافيه، وأن المقام العالي بعد ذلك سير مطارف العدل في الرعية، وأحوالهم في عدم التعوض الى الاموال والذرية، على ما هو المسنون في قتال البغاة من الامور الشرعية، وفهمنا جميع ما شرحه في هذا الفصل، وما أخبر به من هذا الظفر الذي ابيض به وجه الفتح وان كان قد احمر به صدر النصل، والله تعالى سيزيد ملكه رقيا، ويجزيه لقبول النعم لقيا، ويجعله دائما كوصفه مظفرا وكاسمه عليا، وان المقام لما فرغ وجهه من هذه الوجهة وحاز هذا الملك الذي لم يحز اباؤه كنهه، عاد الى المهم الذي قدم فيه سلطان الاندلس لأنه ابدى ما المسلمون فيه من محاورة الاذى، ومجاورة العدا، وقرب المسافة بين هذين العدوين كالشجا، وفي عيونهم كالقذى، وأنه ثوى به من الطغاة من اسدل على المسلمين اردية الردى، وانه على جانب البحر المعروف بالزقاق، وبه قطان يمنعون الارفاد والارفاق، ويصدون عن السبي من قصد سلوكه من الرفاق، وان البر ايضا مملؤ منهم بصقور صائدة، وعلوج مكايدة، وكفار معاندة، وفجار على السؤ متعاضدة، وان

البحر مشحون بغربان طائرة باجنحة القلوع طاردة، صادرة بالموت واردة، جارية في فلك البحر كالاعلام الا أنها بالاعلام بالخبر شاهدة، تتخطف كل آم وقاصد وتقعد لاهل الايمان بالمراصد وتدنى الموت الاحمر، ممن ركب البحر الاخضر وتمنع السالك الا أن يكون من أهل الضلال الحالك من بني الاصفر.

وان المقام العالي عند ذلك قام لله وغار، وانجد جنوده في طلب الثأر من اهل النار وأغار، وانجد قاصد حرمه ببعوث كرمه واعار، وارسل عقبان فرسانه محلقة الى ذلك الجبل الشامخ الذرى وأطار، الى ان احاطت بهم جنوده احاطة الاساد بالفرائس لا احاطة الهالة بالاقمار، فما منهم الا من اعمل على العدا رحى المنون وأدار، وسار وناعي البين يقدمه الى أين سار، وقدم عليهم ولده الميمون النقيبة، الممنوح غربه من مواقع النصر بكل غريبة، الجاري على سنن ابائه الكرام، المظفر أنى سرى المدوح وحيث أقام، وانه مزق جموعهم الكثيفة، وهدم معاقلهم المنيفة، واستدنى منهم القاضي واستنزل العاصي، وأخذ بالاقدام والنواصي، وأحل العذاب والنكال، بمن يستحقه من أهل الالحاد والمعاصي، وقرن بين الارواح والاجال، وأذكرهم بهذا النصر ايام ابن نصر واعاد، واثبت لهذا الجيل حقيقة المدح واستقر في صحائف فعله المقام الى اخر هذا المنح.

وعلمنا ايضا ما اعتمده الطاغي المعتال لعنه الله ـ من الحضور بنفسه، وجمعه الملحدين من ابناء خدمته والمارقين من جنسه، وانه اعظم هذا الامر واكبره، وابدى الزفير لهذا المصاب والدهر، واقسم بمعبوده المصور وصليبه المكسر، ان لا يعود الا بعد ان يظفر بما سلبه الحق اياه وتبصر، يأبى الله والمؤمنون ان تكون النية الا خائبة، وقضت سعادة الاسلام ان تكون الايام لما عقده من الطوية الردية ناكية، فلما طال عليه الامد وحان الحين، عاد صفر اليدين ولكن بخفي حنين، ناكصا على عقبه، خاسئا لسوء منقلبه، واسرع الى مقر طاغوته سرى وسيرا، ولو كان من ذوي الالباب لتعقل في امر قول الله تعالى «ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا» وأن المقام العالي الزمه بعد ذلك ما كان على اهل أغرناطة في كل عام موظفا، ووضع عنهم اصر ما برح كالاسر مجحفا.

وهذه عزة اسلامية جدد الله على يد المقام بذلك القطر صدورها، وسطر في صحائف حسناته اجورها، وابقى له مذخورها، واعدها له ليوم تجد فيه كل نفس ما عملت من خير محضرا، اذا شاهدت عرضها ونشرها، ومنة من الله اربت على العد، وتجاوزت الحد، ومزية لا تطمح الآمال الى ميلها في جانبها ولا تمتد، ورتب جد يلحق بها الولد الناجم في سماء المعالي رتب الكرام من اب له وجد، والله يجعله مظفرا على العدا، منصورا على من حاد عن سواء السبيل واعتدى، مستحقا لمحاسن الاخبار على قرب المدة وبعد المدى.

وقد كان اخونا امير المسلمين وسلطان الموحدين والدك الشهيد، قدس الله سره، وبوأه دار النعيم وبها اقره، في كل آونة يخبرنا بمثل هذا الفتح، ويذكر لنا ما ناله من جزيل المنح، فهذه (شنشنة نعرفها من اخزم)، وسنة سلك فيها الشبل الصائد سنن ذلك الضيغم الاعظم ونحن نحمد الله الذي اقام المقام مقام ابيه لنصرة الاسلام وابقى، وصدق بما تنشئه من حسن افعالك وسعيد ارائك أنك ابو الحسن وان اباك ابو سعيد حقا.

وحيث سلك المقام سنن والده الشهيد، واتحفنا من أنبائه بكل جديد، وقص علينا احاديث ذلك الجانب الغربي المشرق بانواره، ونص متجدداته مفصلة حتى صرنا كأننا مشاهدون لذلك النصر ومواقع اثاره، **فقضى الود ان نتحفه من احاديث جيشنا** الذي اشرقت لمعات سيوفه في الشرق الاعلى بما يشنف سمعه، ويسر معشر الاسلام وجمعه وموطنه وربعه، لتحقق ان نعم الله لكل من قام بتشييد هذا الدين المحمدي عامة، ومننه لديهم تامة، والطافه بهم حافة، ومناصرته ليد سلطان الاسلام في اعناق العدا مطلقة ولاكف اهل الشرك كافة «واما بنعمة ربك فحدث».

فما نبديه لعلمه، ونهديه لسعيد فهمه، أن من جملة من يحمل لابوابنا الشريفة من ملوك الكفر القطيعة في كل عام، ويرى أن ذلك من جملة الافضال عليه والانعام، متملك سيس، الذي هو في ملته من ساكني البركالرئيس، وبين بطارقته وطغاته كالكتد الاعظم او كالقديس النفيس. وعليه مع ذلك لابوابنا الشريفة القناطر المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة مما لا يحيد عنه ولا يحيس، ومرتب لا يقبل التنقيص، ولا يسمح لخناقة بتنفيس، تحمله نوابه الى ابوابنا الشريفة عن يد وهم صاغرون، ويقومون به على قدم العبودية وهم ضارعون.

ولما كان في العام الماضي سوف ببغضه واخر، ودافع عنه ابانه وقصر، وسأل مراحمنا في تنقيص بعض ذلك المقرر، وأرسل ضراعاته الى نوابنا بالممالك الشامية في هذا المعنى وكرر، وقدر في نفسه المراوغة واسر، حسبوا في ارتغا والله اعلم بما قدر، فاقتضت اراؤنا الشريفة ان نرسل اليه بعثا يذلل قياده، وينكس صعاده، ويخرب بلاده ويوطئ اطواده، ويوهن عناده، ويذهب فساده، ويفرق اجناده، ويمزق اجناده، ويقلل اعداده ويفلل جموعه، ويدكدك ربوعه، ويذري على ملكه دموعه، ويدني خضوعه، ويفصل تلك الابدان التي هي للطغيان مجموعة، فأنهضنا اليه من الابطال كل باسل، وانهدنا اليه منهم كل ضرغام خادر، يظن الجاهل انه متكاسل، واشهدنا حربه كل مؤمن يرى الشهادة مغنما، والتخلف مأثما والتباطؤ مغرما، والعذر في هذا المهم امرا محرما، وبعد الركوب الى هذا السفر قربة، والركوب الى وطنه غربة، ويرغب فيما وعد الله به جيشه المنصور

وحزبه، ويريا بنفسه أن يكون من الخالفين حبا لها وتكريما، ويبادر الى ما امر به رغبة في قوله تعالى: «وفضل الله المجاهدين على القاعدين اجرا عظيما»، على صافنات جياد، ليس لها غير الطير في سرعة المرام اضداد، وعاديات عاديات على اهل العناد، وضابحات ذابحات لذوى الفساد، ومغيرات طالما اسفر صبحها عن النجاح، ومثيرات نقع يتبلج غيهبها عن تحقق النجاة وازالة الجناح، وصواهل عراب، كم للفضل بها من كمون وللموت اقتراب، واصائل خيل، تخيل لراكبها انها اجرى من الرياح واسرى من الليل، قد عقد الخير بنواصيها، وعهد النصر من اعرافها وصياصيها، وتسنم راكبوها لذروة العز من ظهورها، واحتووا على الكبير الاعلى من نصرتها على العدا وظهورها، بسيوف تبدد الاوهام، وتزيل الايهام، وتقد الهام، وتدني الموت الزؤام، وتطهر بميامنها نجس الشرك ودنسه، وتقــرع اجسادهم فتغدوا كلها عيونا ولكن بالدماء منبجسة، قد تسربل كل منهم من الايمان درعا حصينا، واتخذ لبسه جنة ولكن من الذهب والاستبرق ليكون لفضل الله مظهرا ولاحساننا مبينا، واتخذ لسهام القسي ليوم اللقاء الالسن الحداد، ومد يد المظاهرة ببيض قصار وسمر صعاد.

فلما جاسوا خلال تلك الديار، وماسوا يرفلون في حلل الايمان التي تشفي صدور قوم مؤمنين وتغيظ الكفار، لم يسلكوا شعبا الا سلك شيطان الكفر شعبا سواه، ولا وطئوا موطئا الا وكل كافر يأباه، ولا نالوا من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح كما وعدهم الله، وما أتوا لهم على ضرع حافل الا جف، ولا مروا على زرع حافل الا اصبح هشيما تذروه الرياح او حطيما تكفيه الكف، ولا هشيم الا حرقوه، ولا جمع الا فرقوه، ولا قطيع شاء الا قطعوه ومزقوه، ولا ضائن الا ضنوا عليه ان يدعوه لهم او يطلقوه، وما برحوا كذلك الى أن نازلوا البلد المسمى باياس فحصل لاهله من مسماه الاشتقاق الاصغر والاشتقاق الاكبر بقطع الامل منه واتصال الاياس، فناداهم من بذلك الحصن من اسارى المسلمين:

يا رحمة الله حلي في منازلنا ... احيي برائحة الفردوس من فيك!

ويا نصر الله انشر بالظفر رايات مواجهنا ومنازلنا فطالما كنا نؤملك ونرتجيك، ويا خيل الله اركبي، ويا خيل الكفار اذهبي، ويا جند ابليس اهربي، من جند الله الغالبين، وان وجدت مناصا فانفرى، ويا ما للاسلام من جنود وانصار، قاتلوا الذين يلونكم من الكفار.

وكانت موافاة عسكرنا المنصور اليهم عند الاسفار، فلم يملكوا القرار، ولا استطاعوا الفرار، ولم يجدوا ملجأ من الله الا اليه، وقال: لا وزر وكيف به لمن يلبي الاوزار، ورأوا ما أعددنا لحصارهم من مجانيق تقد الصخر، وتدكدك القصور، وتغيض بها مياه نفوس تلك الاجساد الخبيثة فلا يجتمعان الى يوم

البعث والنشور، وانا امددنا جيوشنا بجاريات في بحر الفرات مشحونة بالاموال والاقوات، والعدد والالات، وارفدناهم من الذهب والفضة بالقناطير المقنطرات، واوفدنا عليهم من انجادنا بالديار البكرية، واطراف البلاد الشامية جيوشا كالسحاب المتراكم، واطرنا عليهم عقبان اقتناص من عقبان التراكمين اعتادت صيد الاراقم ، واسر الضراغم، فلما تحققوا الدمار، لم يلبثوا الا كما وصف الله تعالى حال من اهلك من القوم الفاسقين ساعة من النهار.

فعند الظهيرة حمى الوطيس ونكص عند اعلان الاذان على عقبة ابليس، وشاهدوا الموت عيانا تحققوا الذهاب اموالا واخوانا وولدانا، اذعنوا الى السم ونادوا: الامان الامان يا اهل العلم والايمان والكف الكف يا جند الملك الموصوف عند الشقاق بالحزم، وعند القدرة على العقاب بالحلم، وارسل طاغيتهم الاكبر ليفون، يقسم بصليبه: انا من القوم الذين يقومون بما عليهم من الجزية ويوفون، ومن الرغبة الذين يطيعون امر مليكهم الاعظم، وعن حمى الاسلام يكفون، فعند ذلك راى نوابنا بذلك العسكر ان تكف عنهم شقة الشقاق وتطوى، ولانت قلوبهم لتذكار قوله تعالى: «وان تعفوا اقرب للتقوى» وطالعوا علومنا بما سأله القوم من الرحمة والرأفة، وما ضرعوا اليهم فيه من الامان والالفة، واغلا' ماكنا رسمنا به من تسليم قلاع معدودة، وتسويغ اراض محدودة تستقر بيد نوابنا وتقطع بالمناشير الشريفة اهل الجهاد من ابوابنا، مع استقرار ما رسمنا به من قطيعة، وعقد الهدنة على امور هي عندنا محببة ولديهم فظيعة.

هذا بعد أن استولت عساكرنا على قلاع لهم وحصون، ومحرز من اموالهم ومصون، وطلعت اعلا منا المحمدية على قلعة اياس، ونزل اهل الكفر على حكم اهل الايمان وزال التحفظ والاحتراس، واعلن بالاذان في ذلك الصرح، وظهرت كلمة الايمان كما بدأت اول مرة وهذا يغني عن الشرح، وعلت الملة الحنيفية بذلك القطر، وقام اهلها وصالوا، وغلت ايدي الكفر ولعنوا بما قالوا.

وكان جيشنا قبل ذلك اخذ قلعة تسمى «بكاورا»، واستنزلوا اهلها قسرا، واستزالوهم عنها ما بين قتلى واسرى، وهي قلعة شامخة الذرى، فسيحة العرا. وثيقة العرا، يكاد الطرف يرجع عنها خاسئا.

ولما اتصل بابوابنا هذا الخبر السار، وشفع لنا من نرى قبول شفاعته في اجابة ما سأله هذا الشعب من ارجاء عذاب اهل الكفر الى نار تلك الدار، مننا عليهم بالامان وقابلناهم بعد العدل بالاحسان، وتقدم امرنا الى نوابنا بكف السيف وأغماده، واطفا' مسعر الحرب واخماده، وان يجرى المن على مألوفه منا ومعتاده، بعد تسليم تلك القلاع، وهدم الاسوار التي كان بها لاهل الكفر الامتناع، واستبقا' الرعية واستحيا' الذرية، واجرا' الهدنة المسؤولة على القواعد

الشرعية، وعاد عسكرنا منشور الذوائب، مظفر الكتائب، مؤيد المواكب مشحونا بغرائب الرغائب.

وعند وصولهم الى ابوابنا فتحنا لهم ابواب العطاء الاوفر، وبدلناهم بالتي هي احسن وعوضنا الذي هو اكثر، وافضنا عليهم من خلع القبول ما انساهم مشقة ذلك السرى وشقة السير، وتلا عليهم لسان الانصاف «ولباس التقوى ذلك خير».

وبعد ذلك ورد علينا كتاب بعض نوابنا بالاطراف من اولاد قرمان، القائمين بمشارق ممالكنا على وجه الامن وسعة الامان، بانهم عند عودهم من سيس، ونصرتهم على حزب ابليس، استطردوا فأخذوا للكفر تسع قلاع، ما برحت شديدة الامتناع، لا تمتد اليها الاطماع، فتكمل المأخوذ في هذه السفرة وما قبلها خمس عشرة قلعة، وبدد الله شمل الكفر وفرق جمعه، واثرنا ان نعلم المقام العالي بلمحة مما لله لدينا من النعم، ولبره من شارة يستدل بها على اثر اخلاف كالديم، ونطلعه على درة من سحاب، وغرفة من بحر عباب، وطرفة نشرها كالمسك الذي ينبغي ان يختتم بها هذا الكتاب.

ونحن نرغب الى المقام ان يواصل بكتبه المفتتحة بالوداد، المشتملة على النصرة على اهل العناد، المشحونة بمواقع الفتح والظفر التي تتضاعف ان شاء الله وتزداد، المحتوية على الطارف من الاخلاص والتلاد، المتصل سببها بين الاباء الكرام ونجباء الاولاد، والله تعالى يجعله دائما لثمرات النصر من الرماح يجتني، ولوجوه الفتح من الصوارم يجتلي، ويديم على الاسلام مزيد العز الذي يتجدد كل اونة من طلائع رايات محمد وبدائع اراء علي، **بمنه وكرمه.**

وقد تبعت هذه السفارة أخرى سنة ٧٣٨ قدمت على ملك مصر والشام كانت تتألف في جملة من تتألف منه من الشيخ ابي اسحاق بن ابي زيد عبد الرحمن بن ابي يحيى، ومن الحاجب ابي زيان عريف بن الشيخ ابي زكرياء... ومن الكاتب ابي الفضل بن ابي عبد الله بن ابي مدين، وقد حملت هذه السفارة رسالة من العاهل المغربي الى الملك الناصر حسبما يؤخذ من كتاب الجواب الذي وجهه الناصر لملك المغرب، كانت الرسالة المغربية تتضمن تأكيد العواطف التي يكنها السلطان ابو الحسن لاخيه الملك الناصر، وتقديم ركب الحاج لهذه السنة، وبخاصة اعضاء البعثة التي كانت تشرف على الرحلة بما فيها من الخاصة والزعماء والفرسان، والتوصية بالوفادة خيرا حتى تؤدي واجباتها... ثم تؤكد الرسالة المرينية ورود كتابين حملهما الى المغرب الشيخان ابن صالح وابن ابي لحان، وان العاهل المغربي «أمضى حكمهما واجرى رسمهما».

كما تضمنت الرسالة الناصرية للمغرب ـ علاوة على تقرير الرسالة المغربية

السابقة ـ الاخبار الصادقة بما لقيته الوفادة المغربية من تكريم وتبجيل منذ حلولها على ملك مصر والشام والحجاز، وتتخلص الرسالة الى ذكر وصف مقتضب للهدايا الفاخرة التي غمر بها العاهل المغربي اخاه عاهل المشرق، بما فيها من خيول مسومة وبغال مثقلة بكل بديع وطريف من بلاد المغرب... وان الملك الناصر قد اتخذ سائر التدابير اللازمة لتوفير الراحة للواردين، وانه كتب لسائر العمال والنواب، ويشير الجواب للمصحف العظيم الذي انتسخه السلطان ابو الحسن لمسجد المدينة المنورة. ويلاحظ ان هذا الجواب طير للمغرب فور مرور الوفد المغربي بمصر وقبل ان يعود ركب الحاج من مناسكه، الامر الذي يدل على مزيد العناية والاهتمام، ويختتم الجواب الاعراب عن الاماني في أن يتمكن العاهل المغربي من القيام استقبالا بأداء تلك المناسك وهذا نص الجواب الكامل:[٢١]

عبد الله ووليه، السلطان الملك الناصر، ناصر الدنيا والدين، سلطان الاسلام والمسلمين، محيى العدل في العالمين، مؤمن اولياء الله المؤمنين، ظل الله الممدود، وميسر السبيل للوفود، حامي ألقبلتين بحسامه من اهل الجحود، وخادم الحرمين الشريفين متبعا للسنة الابراهيمية في تطهير بيت الله للطائفين والعاكفين والركع السجود، والقائم بمصالح اشرف روضة وطيبة يعطر طيبها في الوجود، ولي امير المؤمنين، جمع الله به كلمة الاسلام بعد الافتراق، وقمع برغبه اهل العناد والشقاق، وأوزعه شكر نعم الله التي الفت على ولائه قلوب ملوك الآفاق، وأمتعه بها منحة صيرت له الملك بالارث والاستحقاق، وسيرت كواكب مناقبه لها بالمغارب اضاءة وبالمشارق اشراق، ابن السلطان السعيد الشهيد الملك المنصور، سيف الدنيا والدين، سقى الله عهده عهاد الرحمة دوات اغراق، وابقى مجده بمحمده الذي للامة المحمدية على تعظيمه اجماع وعلى تقديمه اتفاق، **يخص المقام العالي** الملك الاجل الكبير المجير العاضد المشاغر، المظاهر الفائز الحائز المنصور المأثور الفاتح الصالح الامكن الاصون الاشرف الاعرف الكريم المعظم ابا الحسن عليا امير المسلمين ابن السلطان السعيد، الحميد الطاهر الفاخر الماجد الزاهد الاورع الاروع امير المسلمين ابي سعيد عثمان، ابن السلطان السعيد الرشيد السابق الوافق الجامع الصادع امير المسلمين ابي يوسف يعقوب بن عبد الحق ناظم مفرق الفخار، وهازم فرق الفجار، والملازم لاحياء سنة الجهاد المتروكة في الاقطار، حتى يجمع في ملكه اطراف الغرب الاقصى للاستيلاء والاستظهار، ويخضع لتفكه كل متكبر جبار، ويرصع في سلكه ما تأبى وصعب من تلك الديار، ويرفع لنسكه اعمالا من الجهاد والاجتهاد تسر الحفظة الابرار، يظهر فيها لبركة الاسم العلوي من نشر الهدى وقهر العداء اوضح الادلة وابين الاثار، ويؤثر سلطاننا المحمدي من علي عزمه، وحمى حزمه، بأعز الاعوان والانصار، فتظفر دار الاسلام من قوبه

بمهاجرين من ابناء البلاد يقر بهم بأم القرى قرار، ويسير سواهم للبيت ذي الحجر والباب والميزاب والملتزم والجدار والاستار، بسلام مشرق الغرر، مونق الحبر، وثناء مع رياه لا يعبأ بالعبير مع نشر ولا يعتبر، ووداد مخفى الخبر، واعتداد يطول منه في السنة الشكر على احصائه واستقصائه قصر، وايراد لمفاخره التي سارت بها الاخبار والسير، واعتقاد لمآثره التي سبق عثمانها الى احراز مزايا الفضل وجا' عليها على الاثر.

اما بعد حمد الله الذي امر اولياءه المؤمنين بالمعاونة والمضافرة، ونهى عباده الصالحين عن المباينة والمنافرة ورعى لحجاج بيته حرمة القصد، وكتب لهم اجر المهاجرة ودعا الى حرمة من اهله من خدمه، فأجابه بالتلبية واثابه واجره، والشهادة له بالوحدانية التي تسعد بمصاحبة المصابرة، وتصعد الى الدرجات الفاخرة، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ذى المنقب الباهرة، والمواهب الزاخرة، والمراتب التي منها النبوة والرسالة في الدنيا والوسيلة والشفاعة في الاخرة، وعلى اله وصحبه الذين افنى الله الشرك بصوارمهم الحاصدة وادنى القتل بعزائمهم الحاصرة، صلاة الى مضان الرضوان متواترة، ما ربحت وفود مكة البركة الوافرة ووضحت لقاصدى الكعبة البيت الحرام اوجه القبول سافرة.

فانه ورد ـ أورد الله تعالى البشرى على سمعه، ويد اهتمامه بتأليف شمل السعد وجمعه، من جانبه المكرم ومعهده وربعه، كتاب كريم «نسبه، فخيم ادبه، على منصبه، ملي اذا اخلف السحاب بما يهبه، سرى سرت الى بيت الله وحرم رسوله القريب قربه، على يد رسوله: الشيخ الامين الازكي الاورع الاتقى، الخطيب البليغ المدرس المفيد ابي اسحاق ابن الشيخ الصالح ابي زيد عبد الرحمن بن ابي يحيى، نفع الله به، وحاجبه الكبير المختار، المرتضى الأعز ابي زيان عريف ابن الشيخ المرحوم ابي زكيرا، ايده الله تعالى، وكاتبه الامجد الاسعد ابي الفضل ابن الفقيه المكرم ابي عبد الله بن ابي مدين وفقه الله تعالى وسدده، ومن معهم من الخاصة والزعما' والفرسان الماثلين في خدمة الجهة المصونة بلغها الله اربها، وقبل قربها الواصلة بركبكم المبارك والمفدى، المعان على اكمال فرض الحج المؤدي، المرحولين بحمد العقبى كما حمد المبدأ، ففضضنا ختامه الذكي، وافضنا في حديث شكره الزكي وعرضنا منه بحضرتنا روضا يانع الروض به محكى، وحضضنا نوابنا على اعانة خاصة وفده وعامتهم على قضا' النسك بذلك الحرم المكي، وتلمحنا فصوله الميمونة فاذا هي مقصورات على مثوبات محضة، ورغبات تؤدي من الحج فرضه، وهبات لعامل بها من يضاعف اجره ويوفيه قرضه، وقربات يحمد فاعلها يوم قيام الاشهاد نشره وحشره وعرضه. **فأما ما ذكره** من ورود الكتابين الواصلين الى حضرته صحبة الشيخين الاجلين ابي محمد عبد الله

بن صالح، والحاج محمد بن ابي لمحان، وانه افضى حكمهما، واجرى رسمهما، فقد اثرنا للاجر حوزه واخترنا بالشكر فوزه، وقصدنا بهما تجديد جلباب الوداد، وتأكيد اسباب الولاء على البعاد، والا فمع وجود انصافه الحقوق من غاصبها تستعاد، والوثوق بنصره للمظلوم وقهره للظالم لا يختلف فيه اعتقاد، وقد شكرنا لكم ذلك الاحتفال، واثرنا حمدكم في المحافل والمحال.

واما مانعته مما اشرتم اليه مما يتعين له التقديم، ويستحق توفية حقه من تكريم التكريم، وهو تجهيز ركبكم المحروس في السرى والمقام، في خدمة من يقوم مقام الوالدة المرحومة في الاحترام، سقى الله صوب الرحمة صفيحها، ورقى الى الغرافات روحها، ومعها وجوه دولتكم الغر، واعيان مملكتكم من سراة بني مرين الذين تبهج مرائيهم، وتسر، ومانبهتم عليه من ارتفاع شأنهم واجتماع فرسانهم، واستيداع امانتنا نفائس انفسهم واديانهم، فقد استقبلناهم على بعد بالاكرام، واحللناهم من القرب في اعلى مقام، وصرفنا الى تلقائهم وجه الاقبال والاهتمام، وعرفنا حقهم اهل الاسلام، ونشرنا لهم بفنائنا الاعلام، ويسرنا لهم باعتنائنا كل مرام، وامرنا بتسهيل طريقهم، وتوصيل البر لفريقهم، واسبلنا لهم الخلع على جميعهم، واحتفلنا بهم في قدومهم وتشييعهم، واجزلنا لهم اقسام الانعام في توجيههم، وكذلك يكون في رجوعهم، وعرضوا بين ايدينا ما اصحبتهم من **الطرف والهدايا**، التي لاتحملها ظهور البحار فكيف ظهور المطايا، من عقود منظمة، وبرود مسهمة، ومطارف معلمة، ولطائف بالامكان والاتقان معلمة، وصنائع محكمة، وبدائع للافهام مفحمة، وذخائر معظمة، وضرائر للشموس في الكون والسمة، وبواتر تفرق بين الهام والاجسام والهام ملحمة، واخاير بمقدار مهديها في الجلال مفهمة، وخيول مسومة بالاهلة مسرجة، وبالنجوم ملجمة، معودة نزال الابطال معلمة، ذوات صدور مبقورة واكفال مسلمة، تسحب من الحرير انيالا، وتصحب من الوشى سربالا، وتميس بحللها وحلاها عجبا واختيالا، وبقيس مشبهها سرعته بالبرق فلا يتغالى، عاتيات الاجسام، عاليات كالاكام، لفحولها صهيل يذعر الاسود، ولسنابكها وقع يفطر الجلمود، اتعبت الرواض وركبت منها صهوة كل بحر سابح حيث لجج الموت تخاض، وقرنت مرابطها بحماية جواهر النفوس من الاعراض، وجنيبة تجر من نيولها كل فضاض، وحسبت لاختلاف شياتها كأنها قطع الرياض: من شهب كانما ارتدت الاقاح، اوغدت رافلة في حلل الاصباح، ودهم نفضت عليها الليالي صبغها فلا براح، وربما اغفلت من ذلك غرر وأوضاح، وكمت كأنها فتح صلب البطاح، تطير الى الظفر بجناح، وحمر كانها خلقت للنجاح، واطلقت اعنتها فقالت السنة اسنتها للطرائد: لابراح. وخضر كانها البزاة الموشاة الوشاح او مشيب في الشباب قد لاح، وشقر تكبو في طلبها

الرياح، وتخبو نار البرق اذا امس بسنا سنابكها اقتداح.

وراءها البغال التي تحمل الاثقال، ولا تزل في الاوحال بحال، وعليها الزناريات الموشعة، وحليها الجلال الملمعة، وهي تمشي رويدا، وتبدى قوة وايدا، كان قلامتها قناة عبدا؟ وهي وافرة الامداد، فاخرة على الجياد باهرة العدد متكاثرة الاعداد، راسخات القوائم كأنها اطواد، شامخات الرؤوس حاليات الاجياد، باذخات الاكفال غلاظ شداد، سارت لها الى رحابنا انقياد، وصارت من محل اسعاد الى مواطن اصعاد، فتقلبنا اجناسها وانواعها، وتأملنا غرائبها وابداعها، وجعلنا يوما او بعض يوم في حواصلنا ايداعها، ثم استصفينا منها نفائس اثرنا اليها ارجاعها، وفرقنا في اوليائنا اجتماعها، وقسمنا مشاعها، وغنمنا لما افاء الله صفاياها وسياعها، فتوالت لكل ولي منها منح، وسارت الى كل صفي منها ملح! وقالت الالسنة وطالت في وصف ما عليه به فتح، فاستبان ووضح، وكان لاهل الايمان بنعته اعظم هنا' واكبر فرح.

وسطرناها وركبكم المبارك قد رامت السرى نجائبهم وامت ام القرى ركائبهم، يسايرهم الامن ويصاحبهم ويظاهرهم اليمن ويواظبهم، فقد اعدت لهم المير في جميع المنازل وشدت لهم الهجان البوازل، واترعت لهم الموارد والمناهل، وامرعت لهم بالميرة القفار والمراحل ووكلت بهم الحفظة في المخاوف، ونصبت لهم الادلة في المجاهل، وجرد معهم الفرسان، وجدد لهم الاحسان، واكد لهم حقان، حق مرسلهم وحق الايمان، وقلة درك حياطتهم امرا' العربان، وشوهد من تعظيمنا لهم ما يحسدهم عليه ملوك الزمان بكل مكان، وكتبنا على ايديهم الى امرا' الاشراف بالنهوض في خدمتهم والوقوف، وان يحيط بهم كل مقدم طائفة ويطوف، يتسلمهم زعيم من زعيم، الى ان تحط رحالهم بالحطيم، ويحل كل منهم بالمقام ويقيم، وتكمل مناسكهم شهود الموقف العظيم.

وكذلك كتبنا الى امراء المدينة المشرفة ان تتلقى بالقبول الحسن مصحفه، وتحله بين الروضة والمنبر وتجله، فقد ربح سعى كاتبه وبر، وكتبت له بعدد حروفه اجور توفر، ويمكن من يرق لتلاوته في الاصال والبكر، ويهيمن على ذلك فانه من بيت هم الملاك الاعلى وعندهم وفيهم جا'ت الايات والسور.

وعما قليل يتم حجهم واعتمارهم، ويؤم طيبة الطيبة العاطرة زوارهم، فيكرم جوارهم ويعظم فخارهم، وتنعم باشراق تلك الانوار بصائرهم وابصارهم، وتفوح ارواح نجد من ثيابهم، وتلوح انوار القبول على شيبهم وشبابهم، ثم يعودون الينا فنعيد لهم اللات، ويقيد كلا منهم ديم النعم المرسلات، ثم يصدرون ان شا' الله اليكم وركائبهم بالمنح مثقلات، ومطالبهم بالمناجح مكملات ويظفرون من الله في الدارين بقسم النعم المجزلات حتى يلقوا برحابكم عصا التسيار، ويصونوا حر

وجوههم بالصبر على حر الهجير (من) لفح النار، ويدخروا بما انفقوا عند الله من درهم ودينار اجرا جما وما عند الله خيرللابرار، والله تعالى يقربه من تلك المواطن، ويدنيه منها بالظاهر وان كان يسرى اليها بالباطن، ويسهل (له) نلل الحرم، وان كان قد اعان القاطن والقادم، حتى تحل ركائبه بين المروتين وتجين، ويكون له بذلك على ملوك الغرب تمييز، وما ذلك على الله بعزيز.

لا زالت مقبولة على المدى هداياه، مجبولة على الندى سجاياه، مملولة على الهدى قضاياه، منصورة على العدا سراياه، مبرورة ابدا تحاياه، والسلام الاتم الذي يعبق رياه، والثنا' الاعم المشرق محياه، عليكم ورحمة الله وبركاته والخير يكون ان شا' الله تعالى.

وقد تحدث الناس دهرا ـ على حد تعبير ابن خلدون ـ بالهدايا المتنوعة التي بعث بها السلطان ابو الحسن صحبة هذه السفارة التي كانت الست مريم حظية والد السلطان ابي الحسن ضمن ركبها: خمسمائة من عتاق الخيل المحلاة بسروج الذهب والفضة واللجم المموهة والمغشاة، وخمسمائة حمل من متاع المغرب وماعونه واسلحته ومن نسج الصوف المحكم ثيابا واكسية وبرانس وعمائم وأزرار معلمة وغير معلمة، ومن نسج الحرير الفائق المعلم بالذهب الصافي والملون الساذج والمنمق ومن الدرق المجلوبة من بلاد الصحراء المحكمة الدبغ، المنسوبة الى اللمط، ومن خرثى المغرب وما عونه ما تستطرف صناعته بالمشرق حتى لقد كان فيها مكيل من حصى الجوهر والياقوت!

وقد فصل ابن مرزوق بعض ما اجمله ابن خلدون في امر هذه الهدية فذكر انها كانت تضم من احجار الياقوت العظيم القدر والثمن ثمانمائة وخمسة وعشرين، ومن الجوهر النفيس الملوكي ثلاثمائة واربعة وستين، وارسل حللا كثيرة، منها مذهبة ثلاثة عشر، ومن الانان عشرين مذهبة، ومن الخلادى ستة وأربعين، ومن القنوع ستة وعشرين مذهبة، ومن المحررات المختمة ثمانمائة، ومن الرصان عشرين شقة، ومن الاكسية المحررة اربعة وعشرين، ومن البرانس المحررة ثمانية عشر، ومن المشقفات مائة وخمسين، ومن احارم الصوف المحررة عشرين، ومن شقق الملف الرفيع ستة عشر، ومن الفضالي المنوعة والفرش والمخاد المنبوق والحلل ثمانية، ومن اوجه اللحف المذهبة عشرين، وحائطين حلة، وحنابل مائة واثنى عشر كلها حرير، وفرش جلد مخروز بالذهب والفضة، ومن السيوف المحلاة بالذهب المنظم بالجوهر عشرة، والسروج عشرة بركب الذهب كذلك، ومهاميز الذاهب، وثلاثة ركب فضة وستة مزججة ومذهبة، **ومضمتان من ذهب مما يليق بالملوك**، وشاشية حديد بذهب مكلل بالجوهر ومن لزمات الفضة عشرة، وسروج مخروزة بالفضة عشرة وعشر علامات مغشاة مذهبة، وعشر رايات مذهبة

وعشر براقع مذهبة، وعشر امثلة مرقومة، وثلاثون جلدا شرك، واربعة آلاف درقة لمطه منها مائتان **بنهود الذهب** وثمانمائة بنهود الفضة **وخباء قبة كبيرة من مائة بنيقة** لها اربعة ابواب، **وقبة اخرى مضربة** من ست وثلاثين بنيقة مبطنة بحلة مذهبة، وهي من حرير ابيض، ومرابطها حرير ملون وعمودها عاج وابنوس، واكبارها من فضة مذهبة، ومن البزاة الاحرار المنتقاة اربعة وثلاثين، ومن عتاق الخيل العراب ثلاثمائة وخمسا وثلاثين ومن البغال الذكور والاناث مائة وعشرين ومن الجمال سبعمائة...

ويذكر المقريزى ان الملك الناصر انزل لحمل الهدية من الاسطول المغربي ثلاثين قطارا من بغال النقل سوى الجمال، وكان من جملة الهدية اربعمائة فرس، منها مائة حجرة ومائة فحل، ومائتا بغل، وجميعها بسروج ولجم مسقطة بالذهب والفضة وبعض سروجها وركبها ذهب، وكذلك لجمها وعدتها اثنان واربعون رأسا منها سرجان من ذهب مرصع بجوهر، وفيها اثنان وثلاثون بازا، وفيها سيف غراب ذهب مرصع وحياصة ذهب مرصع وفيهامائة كساء وغير ذلك من القماش العالي..... فقدرت قيمة الهدية بما يزيد على مائة الف دينار...

وقد أجاب الملك الناصر محمد بن قلاوون عاهل المغرب بهدايا رفيعة ثمينة كان فيها علاوة على ثياب الاسكندرية البديعة النسج المرقومة بالذهب **الخيمتان الشاميتان اللتان كانتا مثار اعجاب** زائد من سلطان المغرب. ويتعلق الامر بخيمة عظيمة على تصميم قصر فخم يشتمل على بيوت للمراقد واواروين للجلوس واماكن للطبخ، وابراج للاشراف على الطرقات وردهات عديدة فيها ردهة لجلوس السلطان للعرض وفيها تمثال مسجد، حرابه وعمده ومئذنته، حوائط الخيمة كلها من خرق الكتاب الموصولة بحبك الخياطة، مفصلة على الاشكال التي يرد يدها المتخذون لها... اما الخيمة الشامية الثانية فهي على شكل مستدير الشكل عالية السمك، مخروطة الرأس، رحبة الفناء، وهي تظل ازيد من خمسمائة فارس...

وقد كانت الاحداث الخطيرة التي وقعت بالاندلس بين الفونسو الحادى عشر ملك قشتالة وبين أبي الحسن ملك المغرب موضوعا لمكاتبات سياسية بين بلاط فاس وبلاط مصر والشام.

وهكذا كتب السلطان ابو الحسن بتاريخ ٢٦ صفر ٧٤٥/ ٩ يوليه ١٣٤٤ في اعقاب نكسته أمام جيوش القشتاليين برا وبحرا الى السلطان الملك الصالح أبي الفدا اسماعيل بن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون كتابا يعزيه فيه في والده الملك الناصر وبنوه بما كان بينه وبين والد السلطان من رسائل الود ويهنئه بالجلوس على كرسي الحكم وبعد الاشارة الى المصحفين الشريفين المقدمين لكل من مكة والمدينة، وتقديم السفير الجديد الذي يحمل هذا الكتاب وهو أبو المجد بن أبي

عبد الله بن أبي مدين الذي عهد اليه ايضا بتفقد الاوقاف المغربية على المصحفين. بعد ذلك يبسط له ماوقع من استغاثة اهل الاندلس به واعداده الاساطيل لقتال النصارى، ثم مفاجأة النصارى لسفنه في البحر باساطيل قوية واتلاف سبع وستين قطعة من الاسطول المغربي وزحف النصارى على الجزيرة الخضراء ومحاولة انجادها عبثا، ومعاونته لصحب الاندلس بالمال والرجال، واستطالة الحرب ونفاذ الاقوات، واضطراره الى عقد الصلح مع النصارى على تسليم الجزيرة الخضراء، وما فتح الله من اخذ جبل طارق قبل ذلك، وانه مازال يتأهب للجهاد بعد عودته[٢٢].

ونص الكتاب الذي حرر بالقصر الملكي بفاس بعد البسملة والصلاة:

من عند عبد الله امير المسلمين، المجاهد في سبيل الله رب العالمين المنصور بفضل الله المتوكل عليه، المعتمد في جميع اموره لديه، سلطان البرين حامي العدوتين، مؤثر المرابطة والمثاغرة، موازر حزب الاسلام حق المؤازرة، ناصر الاسلام، مظاهر دين الملك العلام، ابن مولانا امير المسلمين، المجاهد في سبيل العالمين، فخر السلاطين، حامي حوزة الدين، ملك البرين، امام العدوتين، ممهد البلاد، مبدد شمل الاعاد، مجند الجنود، المنصور الرايات والبنود، محط الرحال، مبلغ الامال، أبي سعيد ابن مولانا أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، حسنة الايام، حسام الاسلام، ابي الاملاك شجا اهل العناد والاشراك، مانع البلاد، رافع علم الجهاد، مدوخ اقطار الكفار، مصرخ من ناداه للانتصار، القائم لله باعلاء دين الحق، أبي يوسف بن عبد الحق، اخلص الله لوجهه جهاده، ويسر في قهر عداة الدين مراده.

الى محل ولدنا الذي طلع في افق العلاء بدرا تما، وصدع بانواع الفخار فجلا ظلاما وظلما، وجمع شمل الملكة الناصرية فاعلى منها علما، واحيا لها رسما، حائط الحرمين، القائم بحفظ القبلتين، باسط الامان، قابض كف العدوان، الجزيل النوال الكفيل تأمينه بحياطة النفوس والاموال، قطب الجد وسماكه، حب الحمد وملاكه، السطان الجليل، الرفيع الاصيل، الحافل العادل، الفاضل الكامل، الشهير الخطير، الاضخم الافخم، المعان المؤزر، المؤيد المظفر، الملك الصالح ابو الوليد اسماعيل، ابن محل اخينا الشهير علاؤه، المستطير في الافاق ثناؤه. زين الايام والليالي، كمال عين انسان المجد وانسان عين الكمال، وارث الدول، النافث بصحيح رأيه في عقود اهل الملل والنحل حامي القبلتين بعدله وحسامه، النامي في حفظ الحرمين اجر اضطلاعه بذلك وقيامه، هازم احزاب المعاندين وجيوشها، هادم الكنائس والبيع فهي خاوية على عروشها، السلطان الاجل الهمام الاحفل، الافخم الاضخم الفاضل العادل، الشهير الكبير، الرفيع الخطير، المجاهد المرابط،

المسقط عدله في الجائر والقاسط، المؤيد المظفر، المنعم المقدس المطهر، زين السلاطين، ناصر الدنيا والدين، ابي المعالي محمد، بن الملك الارضى الهمام الامضى، والد السلاطين الاخيار، عاقد لواء النصر في قهر الأرمن والفرنج والتتار، ومحي رسوم الجهاد، معلي كلمة الاسلام في البلاد، جمال الايام، ثمال الاعلام، فاتح الاقالم، صالح ملوك عصره المتقادم، الامام المؤيد، المنصور المسدد، قسيم امير المؤمنين فيما تقلد، الملك المنظور سيف الدنيا والدين قلاوون، مكن الله له تمكين اوليائه، ونمى دولته التي اطلعها السعد شمسا في سمائه، واحسن ايزاعه للشكر ان جعله وارث ابائه.

سلام كريم يفاوح زهر الربى مسراه، وينافح نسيم الصبا مجراه، يصحبه رضوان يدوم مادامت تقل الفلك حركاته، ويتولاه روح وريحان تحييه به رحمة الله وبركاته. أما بعد حمد الله مالك الملك، جاعل العاقبة للتقوى صدعاً باليقين ودفعاً للشك، وخاذل من أسر في النفاق النجوى فأصر على الدخن والافك، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله الذي محا بأنوار الهدى ظلم الشرك، ونبيه الذي ختم به الانبياء وهو واسطة نلك الملك، ودحا به حجة الحق فمادت بالكفرة محمولة الافلاك وماجت بهم حاملة الفلك، والرضي عن اله وصحبه النين سلكوا سبيل هداه فسلك في قلوبهم أجمل السلك، وملكوا أعنة هواهم فلزموا من محجة الصواب انجح السلك، وصابروا في جهاد الاعداء فزاد خلوصهم مع الابتلاء والذهب يزيد خلوصا على السبك، والدعاء لاولياء الاسلام وحماته الاعلام، بنصر لضائه في العدا اعظم الفتك، ويسر بقضائه درك امال الظهور واحفل بنلك الدرك، فكتبناه اليكم ــ كتب الله لكم رسوخ القدم وسبوغ النعم ــ من حضرتنا بمدينة فاس المحروسة، وصنع الله سبحانه يعرف مذاهب الالطاف، ويكيف مواهب تلهج الالسنة في القصور عن شكرها بالاعتراف، ويصرف من امره العظيم، وقضائه الملتقى بالتسليم، ما يتكون بين النون والكاف، ومكانكم العتيد سلطانه، وسلطانكم المجيد مكانه، وولاؤكم الصحيح برهانه، وعلاؤكم الفسيح في مجال الجلال ميدانه. والى هذا زاد الله سلطانكم تمكينا، وافاد مقامكم تحصينا وتحسينا وسلك بكم من سنن من خلفتموه سبيلا مبينا، فلا خفاء بما كانت عقدته ايدي التقوى، ومهدته الرسائل التي على الصفاء تطوى، بيننا وبين والدكم نعم الله روحه وقدسه، ويقربه مع الابرار في عليين آنسه، من مواخاة احكمت منها العهود تالية الكتب والفاتحة، وحفظ عليها محكم الاخلاص معوذتاها المحبة والنية الصالحة، فانعقدت على التقوى والرضتوان، واعتضدت بتعارف الارواح عند تنازح الابدان، حتى استحكمت وصلة الولاء، والتأمت كلحمة النسب لحمة الاخاء، فما كان الا وشيكا من الزمان، ولا عجب قصر زمن الوصلة ان يشكوه

الخلان، ورد وارد رنق المشارب، وحقق قول «ومن يسأل الركبان عن كل غائب»[٢٣]، انبأ باستئثار الله تعالى بنفسه الزكية، واكنان درته السنية، وانقلابه الى ماعدله من المنازل الرضوانية، بجليل ما وقر لفقده في الصدور، وعظيم ما تأثرت له النفوس لوقوع ذلك المقدور، حنانا للاسلام بتلك الاقطار، واشفاقا من ان يعتور قاصدى بيت الله الحرام من جراء الفتن عارض الاضرار، وماهمة في مصاب الملك الكريم، والولي الحميم، ثم عميت الاخبار، وطويت طي السجل للآثار، فلم نر مخبرا صدقا، ولا معلما بمن استقر له ذلكم الملك حقا.

وفي اثناء ذلك احفزنا للحركة عن حضرتنا استصراخ اهل الاندلس وسلطانها، وتواتر الاخبار بأن النصارى اجمعوا على خراب اوطانها، ونحن اثناء ذلكم الشان، نستخبر الوراد من تلكم البلدان، عما اجلى عنه ليل الفتن بتلكم الاوطان، فبعد لأى وقعنا منها على الخبير، وجاءنا بوقاية حرم الله بكم البشير، وتعرفنا ان الملك استقر منك في نصابه، وتداركه الله تعالى منكم بفاتح الخير من ابوابه، فأطفأ بكم نار الفتنة واخمدها، وأبرأ من ادواء النفاق ما أعلى البلاد وأفسدها فقام سبيل الحج سابلا، وتعبد طريقه لمن جاء قاصدا وقافلا، ولما احتفت بهذا الخبر القرائن، وتواتر بنقل الحاضر له والمعاين، أثار حفظ الاعتقاد البواعث والود الصحيح تجره حقا الموارث، فأصدرنا لكم هذه المخاطبة المتفننة الاطوار، الجامعة الخبر والاستخبار، الملبسة من العزاء والهناء ثوبي الشعار والدثار، ومثل ذلكم الملك رضوان الله عليه من تجل المصائب لفقدانه، وتحل عرى الاصطبار بموته ولات حين اوانه،لكن الصبر أجمل ما ارتداه ذو عقل حصين، والاجر أولى ما اقتناه ذو دين متين، ومثلكم من لا يخف وقاره، ولا يشف عن ظهور الجزع الحادث اصطباره، ومن خلفكم فما مات ذكره، ومن قمتم بأمره فما زال بل زاد فخره، وقد طالت والحمد لله العيشة الراضية بالحقب، وطاب بين مبداه ومحتضره هنيئا بما من الاجر اكتسب، وصار حميدا الى خير المنقلب، ووفد من كرم الله على افضل ما منح موقنا ووهب، فقد ارتضاكم الله بعده لحياطة ارضه المقدسة، وحماية زوار بيته مقيلة او معرسة. ونحن بعد بسط هذه التعزية، نهنيكم بما خولكم الله أجمل التهنية، وفي ذات الله الايراد والاصدار، وفي مرضاته سبحانه الاضمار والاظهار، فاستقبلوا دولة القى العز عليها رواقه، وعقد الظهور عليها نطاقه، وأعطاها امان الزمان عقده وميثاقه، ونحن على ما عاهدنا عليه الملك الناصر رضوان الله عليه من عهود موثقة، وموالاة محققة، وثناء كمائمه عن اذكى من الزهر غب القطر مفتقة.

ولم يغب عنكم ما كان من بعثنا المصحفين الاكرمين الذين خطتهما منا اليمين، وأوت بهما الرغبة من الحرمين الشريفين الى قرار مكين، وانه كان لوالدكم

الملك الناصر تولاه الله برضوانه، وأورده موارد احسانه، في نلكم من الفعل الجميل، والصنع الجليل ما ناسب مكانه الرفيع، وشاكله فضله من البر الذي لا يضيع، حتى طبق فعله الافاق ذكرا، وطوق أعناق الوراد والقصاد برا، وكان من أجمل ما به تحفى وأتحف، وأعظم ما بعرفه الى رضى الملك العلام في نلك تعرف، اذنه للمتوجهين اذ ذاك في شراء رباع توقف على المصحفين، ورسم المراسم المباركة بتحرير نلك الوقف مع اختلاف الجديدين، فجرت احوال القراء فيهما بنلك الخراج المستفاد، ريثما يصلحهم من خراج ما وقفنا عليهم بهذه البلاد على ما رسمه رحمة الله عليه من عناية بهم متصلة، واحترام في تلك الاوقاف فوائدها به متوفرة متحصلة، وقد أمرنا مؤدى هذا لكمالكم، وموفده على جلالكم، كاتبنا الاسنى الفقية الاجل، الاحظى الاكمل، ابا المجد، ابن كاتبنا الشيخ الفقية الاجل الحاج الاتقى، الارضى الافضل الاحظى الاكمل، المرحوم ابي عبد الله بن ابي مدين حفظ الله عليه رتبته ويسر في قصد البيت الحرام بغيته، بأن يتفقد احوال تلك الاوقاف، ويتعرف تصرف الناظر عليها وما فعله من سداد واسراف، وان يتخير لها من يرتضي لنلك، ويحمد تصرفه فيما هناك، وخاطبنا سلطانكم في هذا الشأن، جريا على الود الثابت الاركان، واعلاما بما لوالدكم رحمه الله تعالى في نلك من الافعال الحسان، وكمالكم بتقضي تخليد نلكم البر الجميل، وجديد عمل نلكم الملك الجليل، وتشييد ما اشتمل عليه من الشكر الاصيل، والاجر الجزيل، والتقدم بالاذن السلطاني في اعانة هذا الوافد بهذا الكتاب، على ما يتوخاه في نلك الشأن من طرق الصواب، وثناؤنا عليكم الثناء الذي يفاوح زهر الربى، ويطارح نغم حمام الايك مطربا.

ويحسب المصافاة، ومقتضى الموالاة، نشرح لكم المتزايدات، بهذه الجهات، وننبئكم بموجب ابطاء انفاذ هذا الخطاب على نلكم الجناب: ونلك انه لما وصلنا من الاندلس الصريخ، ونادى مناد للجهاد عزما لمثل ندائه يصيخ، أنبأنا ان الكفار قد جمعوا احزابهم الاندلسية بايجافها، وتنقص بالنازلة ارضها من اطرافها، ليمحوا كلمة الاسلام منهم ويقلصوا ظل الايمان عنها، فقدمنا من يشتغل بالاساطيل من القواد، وسرنا على اثرهم الى سبتة منتهى المغرب الاقصى وباب الجهاد، فما وصلناها الا وقد أخذ اخذه العدو الكفور، وسدت أجفان الطواغيت على التعاون مجاز العبور، وأتوا من اجفانهم بما لا يحصى عددا، وأرصدوها بمجمع البحر حيث المجاز الى دفع العدا، وتقلصوا عن الانبساط في البلاد، واجتمعوا الى الجزيرة الخضراء اعادها الله بكل من جمعوه من الاعاد، لكنا مع انسداد تلك السبيل، وعدم امور نستعين بها في نلكم العمل الجليل حاولنا امداد تلكم البلاد بحسب الجهد، واصرفناهم بمن امكن من الجند، وجهزنا اجفانا

مختلسين فرصة الاجازة، تتردد على خطر بمن جهز للجهاد جهازه، وامرنا لصاحب الاندلس من المال، بما يجهز به حركته لمداناة حملة حزب الضلال، واجرينا له ولجيشه العطاء الجزل مشاهرة، وارضخنا لهم في النوال ما نرجو به ثواب الاخرة، وجعلت أجفاننا تتردد في ميناء السواحل، وتلج ابواب الخوف العاجل، لاحراز الامن الآجل، مشحونة بالعدد الموفورة، والابطال المشهورة، والخيل المسومة، والاقوات المقومة، فمن ناج حارب دونه الاجل، وشهيد مضى لما عند الله عز وجل، وما زالت الاجفان تتردد على نلك الخطر حتى تلف منها سبع وستون قطعة عزوية اجرها عند الله يدخر، ثم لم نقنع بهذا العمل في الامداد، فبعثنا احد اولادنا اسعدهم الله تعالى مساهمة به لاهل تلك البلاد، فلقي من هول البحر وارتجاجه، والحاح العدو ولجاجه، ما به الامثال تضرب، وبمثله يتحدث ويستغرب، ولما خلص لتلك العدوة بمن ابقته الشدائد، نزل بازاء الكافر الجاحد حتى كان منه بفرسخين او ادنى، وقد ضرب بعطن يصابح العدو ويماسيه بحرب بها يمنى.

وقد كان من مددنا بالجزيرة جيش شريت شرارته ، وقويت في الحرب ادارته ، يبلون البلاء الاصدق ، ولا يبالون بالعودة منه كالشامة البيضاء في البعير الاورق ، الا أن المطاولة بحصرها في البحر مدة ثلاثة أعوام ونصف ، ومنازلتها في البر نحو عامين معقودا عليها الصف بالصف ، ادى الى فناء الاقوات بالبلد ، حتى لم يبق لاهله قوت نصف شهر مع انقطاع المدد ، وبه من الخلق ما يربى على عشرة الاف دون الحرم والولد، فكتب الينا سلطان الاندلس يرغب في الاذن له في عقد الصلح ، ووقع الاتفاق على انه لاستخلاص المسلمين من وجوه النجح ، فاذنا له فيه الاذن العام ، اذ في اصراخه واصراخ من بقطره من المسلمين توخينا نلك المرام ، هنالك دعي النصارى الى السلم فاستجابوا ، وقد كانوا علموا فناء القوت وما استرابوا ، فتم الصلح إلى عشر سنين ، وخرج من بها من فرسان ورجال واهل وبنين، ولم يرزأوا مالا ولا عدة ، ولا لقوا في خروجهم غير النزوع عن اول ارض مس الجلد ترابها شدة ، ووصلوا الينا فأجزلنا لهم العطاء ، واسليناهم عما جرى بالحباء ، فمن خيل تزيد على الالف عتاقها ، وخلع تربي على عشرة الاف اطواقها ، واموال عمت الغني والفقير ، ورعاية شملت الجميع بالعيش النضير ، وكف الله ضر الطواغيت عما عداها وما انقلبوا بغير مدرة عفا رسمها وصم صداها .

وقد كان من لطف الله حين قضى بأخذ هذا الثغر ، ان قدر لنا فتح جبل طارق من ايدي الكفر ، وهو المطل على هذه المدرة ، والفرصة منها ان شاء الله متيسرة ، حتى يفرق عقد الكفار ، ويفرج بهذه الجهة منهم مجاورو هذه

الاقطار ، فلولا اجلابهم من كل جانب ، وكونهم سدوا مسلك العبور بما لجميعهم من الاجفان والمراكب ، لما بالينا باصعاقهم ، ولحللنا بعون الله عقد اتفاقهم ، ولكن للمواقع احكام ، ولا راد لما جرت به الاقلام وقد امرنا لذلك الثغر بمزيد المدد ، وتخيرنا له ولسائر تلك البلاد العدد والعدد ، وعدنا لحضرتنا فاس لتستريح الجيوش من وعثاء السفر، وترتبط الجياد وتنتخب العدد لوقت الظهور المنتظر، وتكون على اهبة الجهاد، وعلى مرقبة الفرصة عند تمكنها في الاعاد.

وعند عودنا من تلك المحاولة، تيسر الركب الحجازي موجها الى هنالكم رواحا، فأصدرنا اليكم هذا الخطاب، اصدار الود الخالص والحب اللباب، وعندنا لكم ما عند احنى الاباء، واعتقادنا فيكم في ذات الله لا يخشى جديده من البلاء، وما لكم من غرض بهذه الانحاء، فموفي قصده على اكمل الاهواء، موالي تتميمه على اجمل الاراء، والبلاد باتحاد الود متحدة، والقلوب والايدي على ما فيه مرضاة الله، عز وجل، منعقدة، جعل الله ذلكم خالصا لرب العباد، مدخورا ليوم التناد، مسطورا في الاعمال الصالحة يوم المعاد بمنه وفضله، وهو سبحانه وتعالى يصل اليكم سعدا تتفاخر به سعود الكواكب، وتتضافر على الانقياد له صدور المواكب، وتتقاصر عن نيل مجده متطاولات المناكب، والسلام الاتم يخصكم كثيرا اثيرا ورحمة الله وبركاته، وكتب في الخميس السادس والعشرين لشهر صفر المبارك من عام خمسة واربعين وسبعمائة.

وقد اجاب ملك مصر والشام ابو الوليد اسماعيل على كتاب السلطان ابي الحسن برسالة اخرى تحمل تاريخ ٦ رمضان ٧٤٥ ـ ١١ يناير ١٣٤٥ يشكره فيها على مواساته بفقد الوالد وعلى التهنئة بالجلوس على دست الحكم ويطمنه على المهمة التي ورد من اجلها السفير ابو المجد ثم يبدي فيها اسفه على سقوط الجزيرة الخضراء ويعزيه في النكبة التي حلت بقطع الاسطول المغربي ويقول له : ان الحرب سجال، وانه ما دام العاهل المغربي قد سلم فان النصر معقود له في مرة قابلة ويبدي الملك الصالح ابو الوليد اغتباطه لاستيلاء العاهل المغربي على جبل طارق.

وهذا نص الجواب الذي حرر في قطعة النصف بقلم الثلث، بعد البسملة :

عبد الله ووليه، صورة العلامة، ولده اسماعيل بن محمد السلطان الملك الصالح السيد العالم العادل المؤيد المجاهد المرابط المثاغر المظفر المنصور عماد الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين، محيي العدل في العالمين، منصف المظلومين من الظالمين، وارث الملك ، ملك العرب والعجم والترك، فاتح الاقطار، واهب الممالك والامصار، اسكندر الزمان، مملك اصحاب المنابر والاسرة والتخوت والتيجان، ظل الله في ارضه، القائم بسنته وفرضه مالك البحرين، خادم

الحرمين الشريفين، سيد الملوك والسلاطين، جامع الموحدين، ولي امير المؤمنين، ابو الفداء اسماعيل ابن السلطان الشهيد السعيد الملك المنصور سيف الدنيا والدين ابي الفتح محمد ابن السلطان الشهيد السعيد الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون، خلد الله تعالى سلطانه، وجعل الملائكة انصاره واعوانه، يخص المقام العالي الملك الاجل الكبير المجاهد المؤيد المرابط المثاغر المعظم المكرم المظفر العالي الملك الاجل الكبير الاسعد الاصعد الاوحد الامجد الانجد، السني السري المنصور ابا الحسن علي ابن امير المسلمين ابي يوسف يعقوب بن عبد الحق امده الله بالظفر، وقرن عزمه بالتأكيد في الاصال والبكر.

سلام وشت البروق وشائعه، وادخرت الكواكب ودائعه، واستوعب الزمان ماضيه ومستقبله ومضارعه، وثناء اتخذ النفحات المسكية طلائعه، ونبه للتغريد في الروض سواجعه، وجلى في كأسه من الشفق الحمر مدامه ومن النجوم فواقعه. بعد حمد الله على نعم ادت لنا الامانة في عود سلطنة والدنا الموروثة، واجلستنا على سرير مملكة زرابيها بين النجوم مبثوثة، واحسنت بنا الخلف عن سلف عهوده في الاعناق غير منكورة ولا منكوثة، وصلاته على سيدنا محمد عبده ورسوله، وعلى آله وصحبه الذين بلغ بجهادهم في الكفرة غاية امله وسوله، صلاة تحط بالرضوان سيولها، وتجر بالغفران نيولها، ما تراسل اصحاب ، وتواصل احباب، ويوضح للعلم الكريم ورود كتابكم العظيم، وخطابكم الفائق على الدر النظيم، تفاخر الخمائل سطوره، ويصبغ خد الورد بالخجل منثوره، ويحكي الرياض اليانعة فالالفات غصونه والهمزات عليها طيوره ويخلع على الافاق حلل الايام والليالي فالطرس صباحه والنفس ديجوره، لفظة يطرب ، ومعناها يعرب فيغرب، وبلاغته تدل على انه اية لان شمس بيانها طلعت من المغرب، فاتخذنا سطوره ريحانا، ورجعنا الفاظه الحانا، الى الجد فشبهنا الفاتحة بظلال الرماح، وورقه بصقال الصفائح، وحروفه المفرقة بافواه الجراح، وسطوره المنتظمة بالفرسان المزدحمة في يوم الكفاح، وانتهينا الى ما اودعتموه من اللفظ المسجوع، والمعنى الذي يطرب طائره المسموع، والبلاغة التي فضح المتطبع بيانها المطبوع.

فاما العزاء بأخيكم الوالد قدس الله روحه وسقى عهده، وامسن لسلفه خلفنا بعده، فلنا برسول الله اسوة حسنة، ولولا الوثوق بأنه في عدة الشهداء، ما راى القلب قراره ولا الطرف وسنه، عاش سعيدا يملك الارض، ومات شهيدا يفوز بالجنة يوم العرض، قد خلد الله ذكره يسير مسير الشمس في الافاق، ويوقف على نضارة حدائقه نظرات الاحداق، وورثنا منه حسن الاخاء لكم، والوفاء بعهود مودة تشبه في اللطف شمائلكم، واما الهناء بوراثة ملكه، والانخراط مع الملوك في سلكه، فقد شكرنا لكم منحى هذه المنحة، وقابلناها بثناء يعطر النسيم في كل نفحة،

ووقفنا عليها حمدا جعل الود علينا ايراده وعلى انفاس سرحة الروض شرحه، وتحققنا به حسن ودكم الجميل، وكريم اخائكم الذي لا يميد طود رسوخه ولا يميل.

واما ما ذكرتموه من امر المصحفين الشريفين اللذين وقفتموهما على الحرمين المنيفين، وانكم جهزتم كاتبكم الفقيه لاجل الاسنى الاسمى ابا المجد ابن كاتبكم ابي عبد الله بن ابي مدين اعزه الله تعالى لتفقد احوالهما، والنظر في امر اوقافهما، فقد وصل المذكور بمن معه في حرز السلامة واكرمنا نزلهم، وسهلنا بالترحيب سبلهم، وجمعنا على بذل الاحسان اليهم شملهم، وحضر المذكور بين ايدينا وقربناه، وسمعنا كلامه، وخاطبناه، وامرنا في امر المصحفين الشريفين بما اشرتم ، ورسمنا لنوابنا في نواحي اوقافهما بما ذكرتم وهذا الوقف المبرور جار على احسن عادة ألفها، واثبت قاعدة عرفها، مرعي الجوانب، محمي المنازل والمضارب، امن من ازالة رسمه، او ازالة حكمه، بدره ابدا في مطالع تمه، وزهره دائما يرقص في كمه، لا يزيد الا تخليدا، ولا اطلاق ثبوته الا تقييدا، ولا عنق اجتهاده الا تقليدا، جريا على عادة اوقاف ممالكنا، وقاعدة تصرفاتنا في مسالكنا، وله مزيد الرعاية، وافادة الحماية، ووفادة العناية.

وأما ما وصفتموه من امر الجزيرة الخضراء وما لاقاه، ومني به من الكفار حزنها وسهلها، فانه شق علينا سماعه الذي انكى اهل الايمان، وعدد به ذنوب الزمان، كل قلب بانامل الخفقان، وطالما فزتم بالظفر، ورزقتم النصر على عدوكم فجر نيل الهزيمة وفر، لكن الحروب سجال، وكل زمان لدوائه دولة ولرجائه رجال، لو امكنت المساعدة لطارت بنا اليكم عقبان الجياد المسومة، وسالت على عدوكم اباطحهم بقسينا المعوجة وسهامنا المقومة، وكحلنا عيون النجوم بمراود الرماح، وجعلنا مضايف الحرب بتوالي الكرات، وعطفنا اليهم الاعنة، وخضنا جداول السيوف ودسنا شوك الاسنة، وفلقنا الصخرات بالصرخات، واسلنا العبرات بالرعبات، ولكن اين الغاية من هذا المدى المتطاول ؟ واين الثريا من يد المتناول ؟ وما لنا غير امدادكم بجنود الدعاء الذي نرفعه نحن ورعايانا، والتوجه الصادق الذي تعرفه ملائكة القبول من سجايانا.

واما ما فقدتموه من الاجفان التي طرقها طيف التلاف، وام جرم فنائها الفناء وطاف به بعد الالطاف، فقد روع هذا الخبر قلب الاسلام، ونوع له الحزن على اختلاف الاصباح والاظلام،وهذا الدار ما يخلو صفوها من كدر القدر، وطالما انامت بالأمن اول الليل وخاطبت بالخطب في السحر، ولكن في بقائكم ما يسلي من خطب العطب، ومع سلامة نفسكم الكريمة فالامر هين لان الدر يفدى بالذهب.

واما ما رأيتموه من الصلح فرأى عقده مبارك، وأمر فارط عزم وان كان

فيتدارك والأمر يجيء كما يجب لا كما نحب، والحروب يزورها نصرها تارة ويغب، ومع اليوم غدا، وقد يرد الله الردى، ويعيد الظفر بالعدا.

واما عودكم الى فاس المحروسة طلبا لا راحة من عندكم من الجنود، وتجهيزا لمن يصل من عندكم الى الحجاز الشريف من الوفود، فهذا امر ضروري التدبير سروري التثمير، لان النفوس تمل وثير المهاد، فكيف ملازمة صهوات الجياد، وتسأم من مجالسة الشرب، فكيف بممارسة الحرب، وتعرض عن دوام اللذة، فكيف بمباشرة الفذة، وهذا جبل طارق الذي فتح الله به عليكم، وساق هدى هديته اليكم لعله يكون سببا الى ارتجاع ما شرد، وحسما لهذا الطاغية الذي مرد، ودا لهذا النازل الذي قدم ورد الصبر لما ورد، فعادة الالطاف الالهية بكم معروفة، وعزماتكم الى جهات الجهاد مصروفة، وقد تفاءلنا لكم من هذا الجبل بانه طارق خير من الرحمن يطرق، وكبل يعصم من سهم يمر من قسي الكفار ويمزق.

واما ما منحتموه من الخيل العتاق، والملابس التي تطلع بدور الوجوه من مشارق الاطواق، والاموال التي زكت عند الله تعالى ونمت على الانفاق، فعلى الله عز وجل خلفها، ولكم في منازل الدنيا والاخرة شرفها، واليكم تساق هدايا اثنيتها وتحفكم تحفها، واذا وصل وفدكم الحاج، وانار له بوجه اقبالنا عليهم ليلهم الداج، كانوا مقيمين تحت ظل اكرامنا، وشمول اسعافنا لهم وانعامنا، يتخولون تحفا انتم سببها، ويتناولون طرفا في كؤوس الاعتناق بهم تنضد حببها، واذا كان اوان الرحيل الى الحج فسحنا لهم الطريق، وسهلنا لهم الرفيق، وبلغناهم بحول الله تعالى مناهم من منى، وسولهم ممن اذا زاروا حجرته الشريفة حازوا الراحة من العنا وفازوا بالغنى، واذا عادوا عاملناهم بكل جميل ينسيهم مشقة تلك الدرب، ويخيل اليهم ان لا مسافة لمسافر بين الشرق والغرب، وغمرناهم بالاحسان في العود اليكم وامرناهم بما ينهونه شفاها لديكم، وعناية الله تعالى تحوط ذاتكم، وتوفر لاخذ الثأر حماتكم، وتخصكم بتأييد تنزلون روضه الانضر، وتجنون به ثمر النصر اليانع من ورق العديد الاخضر، وتتحفكم بسعد لا يبلى قشيبه، وعز لا يمحو شبابه مشيبه، وتحيته المبارك تغاديكم وتراوحكم، وتفاوحكم انفاسها المعنبرة وتنافحكم، بمنه وكرمه، انتهى.

وحتى يعرف السلطان ابو الحسن عن تعلقه بما تحتضنه الشام قام كذلك بنفسه بنسخ مصحف كبير بخط يده ليهدى لمكتبة معلمة الشام وقبلة المسلمين الاولى.

وهكذا فكما كان الشأن في مصحف مكة ومصحف المدينة... فقد قام السلطان ابو الحسن عام ٧٤٥ / ١٣٤٤-١٣٤٥ بانتساخ المصحف بيده وجمع

الوراقين لتنميقه وتذهيبه كما احضر جماعة القراء لضبطه وتهنيبه ووضع له ظرفا فائق الصنعة مصنوعا من الأبنوس والعاج والصندل مغشى بصفاح الذهب مرصعا بالجوهر والياقوت مصونا بالجلد المحكم الصنعة المرقوم اديمه بخطوط الذهب ومغلفا بقطع من الحرير والديباج مما كان يهدي لملوك اوروبا وافريقيا...

وقد وهم ابن خلدون عندما ذكر ابا الحسن ادركته وفاته قبل الفراغ من نسخها، فقد بعث بهذا المصحف الجميل الى ابي الفداء اسماعيل بن الملك الناصر محمد بن قلاوون بواسطة السفير ابي المجد بن ابي مدين. وقد اكد المقرى في النفح انه اي ابا الحسن كتب ثلاثة مصاحف بخطه الى المساجد الثلاثة التي تشد لها الرحال ... واخبر المقرى : انه رأى المصحف الذي ببيت المقدس ورأى ربعته (يعني ظرفه) وهي في غاية الصنعة[٢٤].

واستمر وجود هذا المصحف الى السنوات الاخيرة حيث وقفت عليه في بيت المقدس، انقذه الله من الرجس، يوم الاربعاء ٢٨ صفر ١٣٧٩ ٢ شتنبر ١٩٥٩ بمناسبة زيارتي المملكة الاردنية لاول مرة[٢٥].

وبعد السلطان ابي الحسن نرى ان السلطان ابا عنان يوجه سنة ٧٥٦ بالقاضي ابي القاسم محمد الغساني البرجي الغرناطي الى ملوك مصر والشام ايام السلطان ابي المحاسن الناصر حسن بن الملك الناصر محمد بن قلاوون[٢٦] وكانت المهمة تأدية رسالة نثرية شعرية للضريح النبوي على نحو ما جرت به العادة انذاك اضافة الى الاتصال بالجهات الرسمية وجلب طائفة من طرف الشرق وتحفه ومتاعه للسلطان ابي عنان الذي كان صيته قد شاع في مصر والشام والحجاز والعراق[٢٧].

وقد نهج السلطان ابو فارس عبد العزيز الاول (٧٦٧ ـ ٧٧٤) نهج اسلافه فكان على اتصال بالدولة الاشرفية وبخاصة بالسلطان الاشرف شعبان بن الناصر حسين بن الملك الناصر محمد بن قلاوون الذي كاتب العاهل المغربي المذكور في صبح الاعشى.....

وفي سنة ٧٧٩ ايام السلطان ابي العباس احمد بن ابي سالم ابراهيم، وابنه الامير ابي عامر عبد الله بن ابي العباس تمت مهاداة بينهما وبين الملك الظاهر برقوق... وكان ذلك بواسطة الشيخ يوسف بن علي بن غانم شيخ عرب المعقل من الجانب المغربي، وقطلولغا مملوك الظاهر برقوق[٢٨] من الجانب المشرقي، فكانت هدية ملك المغرب تشتمل على خمسة وثلاثين من عتاق الخيل بالسروج واللجم الذهبية والسيوف المحلاة، وخمسة وثلاثين حملا من اقمشة الحرير والكتان والصوف والجلد منتقاة من احسن الاصناف[٢٩]

وكان هجوم التتر على الشام في اواخر القرن الثامن الهجري فرصة اخرى

تجلت فيها مشاعر التضامن التلقائي بين المغرب الشام، وفقد تطايرت اصداء الجروح اتي خلفها نلك الهجوم الى السلطان ابي سعيد الثاني الذي لم يقل اهتمامه عن اهتمام اسلافه بما يجري في الساحة العربية، وقد وصلت اخبار الشام هذه المرة بواسطة قاض وديبلوماسي سابق، هو العلامة ابن خلدون الذي رافق الامير الناصر فرج بن الملك الظاهر برقوق في منازلته لتيمور بن طرغاي بظاهر دمشق الشام.

ومن غير ان ندخل في اسباب الفتنة التي حدثت في الشام والتي ادت الى اختلال الجيش نذكر ان القضاة والفقهاء اتفق رأيهم - بعد عودة السلطان المفاجئة لمصر - على طلب الامان ... وهكذا وجد ابن خلدون نفسه امام تيمور الذي استقبل بوصف انه قاضي المالكية بمصر وكان يرتدي فعلا زيه المغربي على ما يقول المقرى في نفحه...[٣٠] واظهارا لتكريمه دعاه تيمور لتناول طعام (الرشتة) معه، وهو صحن يتقن اهل الشام الى الان تحضيره.

وقد استجاب العلامة المغربي لطلب تيمور عندما قدم له تقريرا مفصلا عن المغرب وبخاصة طنجة وسبتة وفاس كما انه كان دبلوماسيا عندما اهدى لتيمور مصحفا وسجادة ونسخة من بردة البوصيري التي ولع المغاربة بانشادها، اضافة الى اربع علب من حلاوة مصر...

وقد استطاع بفضل هذه المؤانسات ان يحصل على وفاق تيمور في الافراج عن اهل دمشق كما استطاع ان يحصل على اذن بالعودة لمصر... ومن هنا توجه برسالة الى عاهل المغرب ابي سعيد الثاني يخبره فيها بظروف الحادث ويعرفه بتاريخ التتر ونشأتهم، وبما دار بينه وبين سلطان التتار، ويظهر ان الرسالة كانت جوابا عن كتاب سابق من العاهل المغربي لابن خلدون... كان من اهم ما احتوت عليه الرسالة الخلدونية مما ورد في مذكرات ابن خلدون بنفسه ما يلي :

... وان تفضلتم بالسؤال عن حال الملوك فهي بخير والحمد لله، وكنت في العام الفارط توجهت صحبة الركاب السلطاني الى الشام عندما زحف التتر اليه من بلاد الروم والعراق مع ملكهم تمر، واستولى على حلب وحماة وحمص وبعلبك وخربها جميعا وعاثت عساكره فيها بما لم يسمع اشنع منه، ونهض السلطان في عساكر لاستنقاذها وسبق الى دمشق، واقام في مقابلته نحوا من شبهر ثم قفل راجعا الى مصر، وتخلف الكثير من امرائه وقضاته وكنت في المخلفين، وسمعت ان سلطانهم تمر سأل عني فلم يسع الا لقاؤه، فخرجت اليه من دمشق وحضرت مجلسه، وقابلني بخير، واقتضيت منه الامان لاهل دمشق، واقمت عنده خمسا وثلاثين يوما اباكره واراوحه ثم صرفني وودعني على احسن حال، ورجعت الى مصر وكان طلب مني بغلة كنت اركبها فأعطيته اياها وسألني البيع فتأففت منه لما

كان يعاملني به من الجميل، فبعد انصرافي الى مصر بعث الي بثمنها مع رسول كان من جهة السلطان هنالك وحمدت الله تعالى على الخلاص من ورطات الدنيا[31]...

وفي اعقاب توصل العاهل برسالة ابن خلدون بعث بسفارة هامة في مطلع القرن التاسع لتهنئة الناصر فرج بما تسنى له من ايقاف الزحف التتري ضد الشام بقيادة تيمورلنك، وقد اختير لرئاسة السفارة المغربية شخصية مشرقية الاصل على خبرة بتاريخ المنطقة وظروفها هي الشيخ ابو عبد الله محمد الجواد بن الشيخ عبد الله الحاج محمد الهادي[32] ابن ابي القاسم بن سيدي نفيس، الشريف الحسيني العراقي الكربلائي.

ويستفاد من الرسالة ان المغرب قر عزمه على المساهمة الفعلية في صد العدوان التتري على بلاد الشام لو لم يتمكن حكام المشرق من التغلب عليه ...

وهذا نص رسالة السلطان عثمان بن ابي العباس اواسط شعبان سنة ٨٠٤[33].

من عبد الله ووليه : عثمان امير المسلمين، الماجد في سبيل رب العالمين، سلطان الاسلام والمسلمين ناشر بساط العدل في العالمين، المقتدي باثار ابائه الكرام، المقتفي سننهم الحميدة في نصرة الاسلام، المعول نفسه العزيزة في التهمم بما قلده الله من امور عباده، وحياطة ثغوره وبلاده، سيف الله المسلول على اعدائه، المنتشر عدله على اقطار المعمور وانحائه، ظل الله تعالى في ارضه، القائم بسنته وفرضه، عماد الدنيا والدين، علم الائمة المهتدين، ابن مولانا السلطان المظفر الخليفة الامام، ملك الملوك الاعلام، فاتح البلدان والاقطار، ممهد الاقاليم والامصار، جامع اشتات المحامد، ملجأ الصادر والوارد، الملك الجواد، الذي حلت محبته في الصدور محل الارواح في الاجساد، امير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين ابي سالم، امير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين ابي الحسن بن مولانا امير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين ابي سعيد بن مولانا امير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين ابي يوسف يعقوب بن عبد الحق، وصل الله تعالى اسباب تأييده وعهده، وقضى باتصال عرف تجديد سعده، وأناله من جميل صنعه ما يتكفل بتيسير امره وبلوغ قصده.

الى محل اخينا الذي نؤثر حق اخائه الكريم، ونثني على سلطانه السعيد ثناء الولي الحميم، ونشكر ما له فينا من الحب السليم، والود الثابت المقيم، السلطان الجليل، الماجد الاصيل، الاعز الخطير المثيل الشهير الامجد الارفع، الهمام الامنع، السري الأرضى، المجاهد الامضى، الاوحد الاسنى المكين الاحمى خديم الحرمين الشريفين، حائز الفخرين المنيفين، ناصر الدنيا والدين، محيي العدل في العالمين، الاجد الاود، المكين الاخلص الأفضل الأكمل ابي السعادات

فرج ابن السلطان الجليل الأغر،المثيل الخطير الاصيل، الارفع الامجد الشهير الهمام الاوحد الاسمى الاسرى الارضى المجاهد الامضى خديم الحرمين الشريفين حائز الفخرين المنيفين، الافضل الاكمل المبرور المقدم المرحوم ابي سعيد (برقوق) بن انص، وصل الله تعالى لسلطانه المؤيد جدا لا يعجم عوده، ونصرا يملأ قطره بما يغص حسوده، وعضدا يأخذ بزمام امله السني فيسوقه ويقوده.

سلام عليكم ورحة الله وبركاته

أما بعد حمد الله على سبوغ نعمائه، وترادف لطفه والائه، الذي عرفنا من ولائكم الكريم ما سرنا من اطراد اعتنائه، وابهج النفوس والاسماع من صفاء ولائه، ومواصلة صفائه، والصلاة والسلام الاكملين على سيدنا ومولانا محمد خاتم رسله وانبيائه، ومبلغ رسالاته وانبائه، صاحب المقام المحمود، والحوض المورود، واللواء المعقود، فاكرم بمقامه وحوضه ولوائه والرضا عن اله وصحبه واوليائه، النين هم للدين بدور اهتدائه ونجوم اقتدائه، وصلة الدعاء لمقامكم الكريم بدوام عزه واعتلائه، واقتبال النصر المبالغ في احتفاله واحتفائه، وحياطة انحائه وارجائه وتأييد عزماته وارائه.

فانا كتبنا اليكم كتب الله لكم سعدا سافرا، وعزما ظافرا، من حضرتنا بالمدينة البيضاء كلأها الله تعالى وحرسها، ونعم الله سبحانه لدينا وأكفة السجال، وولاؤه جل جلاله سابغ الانيال، وخلافتكم التي نرعى بعين البر جوانبها، ونقتفي في كل منقبة كريمة سيرها الحميدة ومذاهبها ـ والى هذا اوصل الله سعدكم ووالى عضدكم، وكتابنا هذا يقرر لكم من ودادنا ما شاع وذاع، ويؤكد من اخلاصنا اليكم ما تتحدث به السمار فتوعيه جميع الاسماع، وقد كان انتهى الينا حركة عدو الله وعدو الاسلام، الباغي بالاجتراء على عباده سبحانه بالبؤس والانتقام، الاخذ فيهم بالعبث والفساد الساعي بجهده في تهديم الحصون وتخريب البلاد، وتعرفنا انه كان يعلق امله الخائب بالوصول الى اطراف بلادكم المصرية، وانتهاز الفرصة على حين غفلة من خلافتكم العلية، والحمد لله الذي كفى بفضله شره، ودفع نقمته وضره، وانصرف ناكصا على عقبه، خائبا من نيل اربه، ولقد كنا حين سمعنا بسوء رأيه الذي غلبه الله عليه، وما اضمر لخلق الله من الشر الذي يجده في اجراه ظله يسعى بين يديه، (عزمنا على) ان نمدكم من عساكرنا المظفرة بما يضيق عنه الفضا، ونجهز لجهتكم من اساطيلنا المنصورة ما يحمد في امداد المناصرة ويرتضى، فالحمد لله على ان كفى المؤمنين القتال، واذهب عنهم الاوجال، ويسر لهم الاعمال، وهيأ لخلافتهم السنية وللمسلمين، هناء يتضمن السلامة لكم ولهم على تعاقب الاعوام والسنين.

وبحسب مالنا فيكم من الود الذي اسست المصافاة بنيانه، والحب الذي

اوضح الاخلاص برهانه، وقع تخيرنا فيمن يتوجه من بابنا الكريم لتفصيل مجمله وتقرير ما لدينا فيه على اتم وجه الاعتقاد واكمله، على الشيخ الاجل الشريف المبارك الاصيل الاسنى الحظي الاعز الحاج المبرور الامين الاحفل الافضل الاكمل ابي عبد الله محمد بن الشيخ الاجل الاعز الاسنى الاوجه الانوه الارفع الامجد الآثر الازهى الشريف الاصيل المعظم المثيل، الاشهر الاخطر الامثل الاجمل الافضل الاكمل المرضي المقدس المرحوم ابي عبد الله محمد بن ابي القاسم بن نفيس الحسيني[٣٤] العراقي ، وصل الله تعالى سعادته، واحمد على حضرتكم السنية وفادته، حسب ما يفي بشرح ما حملناه نقله، ويكمل بايضاحه لديكم يقظته ونبله، ان شاء الله تعالى وهو سبحانه وتعالى يديم سعاتكم ويحفظ مجادتكم، ويسني من كل خير ارادتكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وقد بعث الناصر فرج بن برقوق بجوابه عن الرسالة المغربية، وكان من انشاء القلقشندي وقد تضمن علاوة على المقدمات العادية الاخبار بوصول السفير المغربي الذي كان يحمل رسالة السلطان ابي سعيد ويتخلص الجواب المشرقي للحديث عن الحروب ضد التتر وكيف ان السلطان الناصر فرج قصدهم بالشام واذاقهم الامرين وانه بينما كانت المفاوضات جارية في امر الهدنة اذ شاع اتهم اي التتر نزلوا بمصر فتحرك نحو القاهرة.... وهنا وقع الاختلال في الصفوف الى أن اتضحت الأمور وتوالت المساعي الحميدة للوصول الى حل سلمي بين الجانبين. وهذا نص الرسالة المشرقية[٣٥]:

عبد الله ووليه السلطان الاعظم (الى اخر الالقاب) اجرى الله تعالى الاقدار برفعه قدره، وادار الافلاك بتأييد ونصره، واذل رقاب الاعداء بسطوته وقهره، وشحن الاقطار بسمعته وملأ الافاق بذكره، يخص المقام العالي (الى اخر الالقاب) رفع الله تعالى له في ملكه الشامخ منارا، وجعل النصر والظفر شعارا، واحسن بحسن مواتاته الا لاهل الكفر جأوارا : بسلام يفوق العبير عبيقه، ويزري بفتيق المسك الداري فتيقه، ويخجل الروض المنمنم اذا تزين بالبهار خلوقه، وثناء تلك الالسنة البليغة عن وصفه، ويعجز بناة المجد الاثيل عن حسن وصفه وتعترف الازاهر بالقصور عن طيب ارجه ومسك عرفه، وشكر يوالي الورد فيه الصدر، ويحقق الخبر فيه الخبر، ويشيع في الافاق ذكره فتتخذه السمار حديث سمر.

اما بعد حمد الله واصل اسباب المودة وحافظ نظامها، ومؤكد علائق المحبة بشدة التآمها، ورابط جأش المعاضدة باتحاد كلمتها وتناسب مرامها، ومجدد مسرات القلوب بتوالي اخبارها المبهجة عن عالى مقامها، والصلاة والسلام على سيدنا محمد افضل نبي رعى الذمام على البعاد، واكرم رسول قرن صدق الاخاء منه بصحة الوداد، صلاة تبلغ من رتبة الشرف منتهاها، وتنتوي الشقة البعيدة

دون بلوغ مداها، فانه ورد علينا على يد رسولكم فلان كتاب كريم طاب وروده، وتهللت بالبشر سعوده، وشهد بصدق المحبة الصادقة شهوده، وطلع من الجانب الغربي هلاله، فلاحت بالمشرق بحسين التلقي سعوده، فقر منه برؤيته الناظر، وابتهج بموافاته الخاطر، ولاحت من جوانبه لوائح البشر فاحسن تلقيه سلطاننا الناصر.

وقابلناه بالقبول بما كاد باطنه لكمال الموافاة يكون عنوانا للظاهر، وفضضنا ختامه المصون عن بديع كلام مخترع، وبنات فكر قبله لم تفترع، وفصاحة قد احكم اللسن مبانيها، وبلاغة تناسبت الفاظها فكانت قوالب لمعانيها، وبراعة قد احسنت البديهة ترتيبها فجاءت وتواليها تتبع هواديها، وفهمنا ما اظهره من كوامن المحبة التي بلغت من القلب الشغاف، وبوارح الشوق الذي عندنا من مثله اضعاف اضعاف، وانتهينا الى ما اشار اليه المقام العالي من التلويح الى ما طرق اطراف مملكتنا الشريفة من طارق الاعتدا، وما كان من الواقعة التي كاد خبرها لفظاعته يكون كالمبتدا.

ونحن نبدي لعلم المقام العالي ما يوضح له ان ما وقع من هذه القصة لم يكن عن سوء تدبير ، ونورد عليه من بيان السبب ما يحقق عنده ان ذلك لم يكن لعجز ولا تقصير، بل لامر قدر في الازل، ومقدور الله تعالى لا يدفع الحيل.

وذلك انه لما اتصل بمسامعنا الشريفة قصد العدو الى جهتنا، وتجاوزه حد بلاده الى اطراف مملكتنا، بادرنا الحركة اليه في عسكر لجب، وجيوش يضيق عن وسعها الفضاء الرحب، من كل بطل عركته الحروب، وثقفته الخطوب، وحنكته التجارب، وعجم عوده بكثير المنازلات قراع الكتائب. قد امتطى طرفا عربي الاصل كريم الحسب، خالص العتق، صريح النسب، يفوت الطرف مدى باعه المديد، ويسبق حافره موقع بصره الحديد، ولبس درعا قد احكم سردها، وابرم شدها، وبالغت في السبوغ فاتصفت بصفات الكرام، وضاقت عينها فمنعت شبحا حتى ذباب السهام ، ووضع على راسه بيضة يخطف الابصار وميض برقها، وتزلق السهام الراشقة صلابة طرقها، وترتفع الابطال على الرؤوس فلا ترى انها قامت ببعض حقها. وتقلد سيفا يمضي على الرقاب نافذ حكمه، ويقضي بانقضاء الاجل انقضاض نجمه، لا ينبو عن ضريبة فيرد، ولا يقف حده في القطع عند حد، واعتقل رمحا يجري الدماء سنانه بأنابيبه، ويمد الى الفارس باعه الطويل فيأخذ بتلابيبه، وتتمسك المنايا باسبابه، فتتعلق منه بالانيال، وتضرس الحرب بزرق انيابه كأنها انياب اغوال. وتنكب قوسا موعز الاجال هلال هلالها، ومورد المنون ارسال نبالها، ومدرك الثار رنة وترها، وموقد نار الحرب قدح شررها، قد اقترن بها سهام تسابق الريح في سرعتها، وتعاجل الموت بصرعتها، وتختطف العيون في

ممرها، وتختلس النفوس من مقرها، تدخل هجما كل محتجب، وتاتي الحذر من حيث لا يحتسب، وتناول عمودا يهجم على الاضالع باضلاعه فيفدغها، ويصافح الرؤوس بكفه الملتحمة الاصابع فيدمغها، يقرب من الاجل كل بعيد، ويخلق من العمر كل جديد، ولا يقاومه في الدفاع بيضة وانى تقاموم البيضة زبرة من حديد.

وتحركنا من الديار المصرية في جيوش لا يأخذها حصر، ولا يلحقها هصر، ولا يظن بها على كثرة الاعداد كسر، لم نزل نحث السير، ونسرع الحركة للقاء العدو اسراع الطير، حتى وافينا دمشق المحروسة فنزلنا بظاهرها مستمطرين النصر في اوائل حركتنا واواخرها، وانضم الينا من عساكر الشام وعربانها، وتركمانها الزائدة على العد وعشرانها، ما لا ينقطع له مدد، ولا يدخل تحت حصر ولا عدد، واقبل القوم في لفيف كالجراد المنتشر، وامواج البحر التي لا تنحصر : من اجناس مختلفة، وجموع على تباين الانواع مؤتلفة، وتراءى الجمعان في افسح مكان، ورأى كل قبيل الاخر راى العين وليس الخبر كالعيان، واعتد الفريقان للنزال، واحتفروا خنادق للاحتراس وتبوأنا مقاعد للقتال، ولم يبق الا المبارزة، والتقاء الصفوف والمناجزة، اذ ورد وارد من جهتهم يطلب الصلح والموادعة، والجنوح الى السلم وقطع المنازعة فاجبناهم بالاجابة، ورأينا ان حقن الدماء من الجانبين من اتم مواقع الرأي اصابة، وكتبنا اليهم في ضمن الجواب :

لما أتانا منكم قاصد يسأل في الصلح وكف القتال
قلنا له : نعم الذي قلته والصلح خير وأجبنا السؤال

فبينما نحن على ذلك، واقفون من الموادعة على الموادعة على ما هنالك، اذ بلغنا ان طائفة من الخونة الذين ضل سعيهم، وعاد عليهم بالوبال ولله الحمد بغيهم، توجهوا الى الديار المصرية للاستيلاء على تخت ملكنا الشريف في الغيبة املين ما لم يحصلوا منه الا على الخيبة، فلم يسع الا الاسراع في طلبهم، للقبض عليهم وايقاع النكال بهم، وجازيناهم بما يجازي به الملوك من رام مرامهم، وظن العدو ان قصدنا الديار المصرية انما كان لخوف او فشل، فأخذ في خداع اهل البلد حتى سلموه اليه وفعل فعلته التي فعل، ليقضي الله امرا كان مفعولا.

ثم لم نزل ندأب في تحصين البلاد وترويج اعمالها، وترتيب امورها وتعديل احوالها، حائطين اقطارها المتسعة بجيوش لا يكل حدها، ولا يعقب بالجزر مدها ليكونوا للبلاد اسوارا وللدولة القاهرة ان شاء الله تعالى اعوانا وانصارا، واعاد الله تعالى المملكة الى حالها المعروف وترتيبها المالوف، فاستقرت بعد الاضطراب، وتوطنت بعد الاغتراب.

وفي خلال ذلك ترددت الرسل الينا في عقد الصلح وامضائه، ودفن ماكان بين

الفريقين من المباينة واخفائه، فلم يسعنا التلكوء عن المصالحة (بل سعينا) سعها، والله تعالى يقول: «وان جنحوا للسلم فاجنح لها» فعقدنا لهم عقد الصلح وامضيناه، واحكمنا عليها، قواعده، توكلا على الله تعالى وابرمناه، وجهزنا اليهم نسخة منه طمغت بطغمة قانهم عليها، واعيدت الينا بعد نلك ليكون المرجع عند الاختلاف والعياذ بالله تعالى اليها: «فمن نكث فانما ينكث على نفسه، ومن اوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه اجرا عظيما».

والله تعالى يجنب اخاءكم الكريم مواقع الغير، ويقرن مودته الصادقة بصفاء لا يشوبه على ممر الزمان كدر، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ولا شك ان مثل هذه الاتصالات المتوالية تعكس اثارها هنا وهناك ليس فقط على الصعيد العاطفي ولكن ايضا في الميادين الاخرى : فبدأت الاكتشافات العلمية والعادات الحضارية التي تجد اصداءها سريعا في هذا البلد او نلك مما يجعلنا نرى رؤيا عين، مدى نلك الترابط الذي لن نجد له من تفسير بارز سوى الشعور المتبادل بين جناحي البلاد الاسلامية من المحيط الى الفرات.

ولنتصور اننا في مدينة مراكش، جوار منارة الكتيبة ثالث ثلاثة من المآذن الشاهقة التي انشأها الموحدون اضافة الى الخيرالدا باشبيلية، وحسان بالرباط... فسنرى ساعة منتصبة في الهواء على علو خمسين ذرعا ينتظر الناس كل ساعة من ساعات النهار ليسمعوا ايقاع قطعة من مائة درهم على صنجة لاعلان بداية الساعة الموالية.

كما لنتصور اننا بمدينة دمشق لنشهد في نفس التاريخ تقريبا عي يسار الداخل من باب جيرون الى الجامع الكبير ساعة كبرى على هيئة قنطرة مستديرة ذات نوافذ على عدد ساعات النهار دبرت تدبيرا هندسيا بحيث تسقط عند انتهاء الساعة كرتان من صفر في فمي بازين اتنتهيا الى طاسين حيث يعلن الصوت بداية الساعة الاخرى على نحو الترتيب الذي كان يوجد في ساعة أبي عنان من طالعه فاس، وساعة الجابي بمنار جامع القرويين من المدينة[٣٦].

وفي اطار نلك التجاوب نجد ان العادات الحضارية كنلك تجد هنا وهناك تشابها يجعلنا نتساءل هل انها عادات شامية قد غربت او عادت مغربية قد شرقت، وقد عرفت مدينة فاس ثلاث ديار في كل من الضفتين الشرقية والغربية: عدوة القرويين وعدوة الاندلس، ديار مفروشة مؤثثة، مجهزة بحلي العروس من اسورة وتيجان، ولؤلؤ ومرجان، وزينة العريس من اكسية وغفائر، وبرانس وعمائم، الى دفوف وطبول لاعلان المسرات، تقصد تلك الديار عرائس فاس ممن اعوزهم او اعوزتهم الايام، وهناك يقضي العروسان اسابيعهما الاولى في ظروف جد ممتازة حيث يتهافت لتهنئتهما ذوو الاريحية من السكان الذين يقدمون الهدايا

الملائمة، فلا يغادر الزوجان دار عرسهما الا وقد توفرا على ما يمكنهما من استقبال الحياة الجديدة! هذا التقليد الجميل بما يدل عليه من معاني سامية، كان مما تحدث به الرحالة المغربي ابن بطوطة من مشاهداته في الشام ومما يعطر ذكره حجج الاوقاف بعاصمة فاس...!

وقد استمر صلة المغرب بالشام حتى ايام الوجود العثمانية بتلك الديار منذ تاريخ ٩٢٢ – ١٥١٦ ، وبخاصة مع علمائها وادبائها ومشايخها الذين كانوا يتوفرون في الوقت ذاته على نفوذ سياسي ملحوظ في المشرق، وهكذا نجد السلطان ابا العباس احمد المنصور السعدي يستقبل في قصره بالمغرب الفقيه امام الدين محمد بن يوسف بن علاء الدين بن قاسم البطائحي الخليلي الذي خاطب العاهل السعدي بقصيدة جاء فيها على الخصوص :

جست الاراضي واختبرت ملوكها ولقيت من فيها من الامجاد
ما شاهدت عيناي قبلك في الورى تتبين الاشياء بالاضداد
بل جودكم عم الانام وقدركم اربى على المأمون في بغداد!

ولا يمكن اضافة الى هذا ان نتغافل عن حدث هام سجله الكونت دوكاستري في موسوعته عن تاريخ المغرب السياسي[٣٧] ويتعلق الامر بالتعليمات التي اصدرها السلطان ابو العباس لسفيره عبد الواحد عنون[٣٨] بان يتوجه بطريق البحر الى مرسى حلب بعد ان ينهي مهمته لدى الملكة اليزابيت الاولى ملكة انجلترا.

لقد حمل السفير عنون رسالة شفوية في شهر ذي الحجة عام ١٠٠٨ يونيه تعالج عض القضايا الدولية الخطيرة، فقد اقترح العاهل المغربي على ملكة انجلترا عقد حلف ضد اسبانا يستهدف اضعافها عن طريق الاستيلاء على ممتلكاتها في الهند... وقد قدم السفير فعلا مشروع المغرب مخبرا انجلترا بان العاهل يتوفر على كل المعدات اللازمة لمثل هذه المبادرة الجريئة، وانه اذا ما وافقت الملكة فان في استطاعة المغرب وانجلترا ان ينتزعا معا من اسبانيا مستعمراتها في الهند الشرقية والغربية، وحتى يشجع على ان تتخذ موقفا ايجابيا من الموضوع يحيطها علما بانه فتح مملكة باسرها في غينيا تحتوي على ستة وثمانين الف قرية وان جنوده يتحملون المناخ الصعب الذي قد يواجههم في الهند... ولا شك ان اضطهاد العرب والمسلمين المتبقين في الاندلس كان وراء التخطيط للمشروع المذكور. ترى هل كانت التعليمات المعطاة للسفير عنون بالتوجه بالتوجه الى الشام تهدف الى شيء له تعلق بهذا المشروع؟ ام ان التوجه للشام كان بقصد الاتصال بالقادة السياسيين في البلاد ام انها كانت تتعلق بانتداب اساتذة للعمل بالمغرب[٣٩]؟ المهم ان بريطانيا اعتذرت عن تقديم

المساعدات المطلوبة لتوجه البواخر الى الشام اعتذرت بما سمته «الموانع الخطيرة».

وعندما عاث نابليون في مصر واطراف الشام عام ١٢١٣ ـ ١٧٩٩ اصيب المغرب بصدمة مريرة من هول المجازر والمذابح، ووقف الى جانب الشرق في محنته، وخاصة عندما توصل السلطان المولى سليمان بن سليمان سيدي محمد بن عبد الله من السلطان سليم الاول برسالة مؤرخة ب ١٩ شعبان ١٢١٣ ـ ٢٧ يناير ١٧٩٩ يطلب اليه فيها فرض الحصار على مضيق جبل طارق لتعويق امداد حملة نابليون ... وقد عكس اندحار نابليون في المشرق اصداءه على بلاد المغرب، فغمت البهجة سائر البيوت واقيمت المهرجانات الامر الذي تغنت به حتى المرددات الشعبية في القصيدة التي تحمل عنوان «المصرية» للشاعر ابن على الشريف ولد ارزين الذي يصدر قصيدته بهذه اللازمة :

بشار المشارق جانا حتى للمغرب بشر الاسلام مصر ولات للاسلام[٤٠]

ترى هل يسوغ لي بعد هذا العرض الذي ـ مع اقتضابه ـ يكشف عن ناحية من تأريخ الشام، والذي ـ مع اختصاصه ـ يعبر عن خلجات رقيقة مرهفة نحو بلاد الشام، ترى هل يسوغ لي ـ بالرغم من ان موضوع المؤتمر ينتهي بتأريخ محدود ـ ان اعرب عن ابتهاجي ـ كمؤرخ يجد المتعة في ربط حلقات التأريخ ! وكمواطن مغربي عاش ويعيش معركة المصير ـ عن ابتهاجي بانتفاضة المغرب قاعدة وقمة للوقوف الى جانب الشام لصد العدوان الصهيوني على نحو ما فعله يوم تعرض للغزو الصليبي والتتري والنابليوني ! الملايين من الفرنكات المغربية التي انفقت في ظرف اسبوع، والملايين من البلاصما التي تهافت المغاربة قمة وقاعدة لتقديمها لاخوتهم بالمشرق بالرغم من الفوارق والعوائق... الالاف من جندنا البواسل التحقوا ـ ويستعدون دوما للالتحاق بالساحة، ليكون لهم شرف مزج دمائهم بدماء اخوتهم بالمشرق من اجل انصاف المظلومين والمقهورين، من اجل الحفاظ على معالم التأريخ، من اجل مستقبل امن عزيز كريم.

حواشي

١ – ومن الطريف أن نعرف أن مسجد باريس الحالي بني أيضا اعترافا بجميل المغاربة الذين حرروا فرنسا في الحرب العظمى الأولى من نير الاستعمار.

Grand Dictionnair Universel du XIX Siècles, par PIERRE Larousse, PARIS, 1967. Reception a l'Hotel de ville de S.M. Moulay Youssef Sultan du Maroc, P. 23, note. 2.

٢ ــ القلقشندي: صبح الاعشى ج ٦،ص ٥٢٦ ــ ٥٣٠ — 530 — 526, 6

٣ ــ يفهم مما نقله الصهاب المقدسي ان الرسول الذي حمل الرسالة الاولى هو نفسه الذي زود بالرسالة الثانية التي «يستنجز منه فيها ما كان أرسل لاجله» وهناك من المعلقين من يعتقد انهما سفارتان اثنتان، هذا ويظهر ان الامير ابن منقذ قضى شطرا من حياته في السفارات خارج البلاد، وقد عبر عما يخلفه البعد عن الاوطان من اثار مادية وروحية بهذه الابيات الصادقة:

تصرم عمرى في التغرب والنوى	وافنى ارتحالي طارفي وتلادى
واخلفت الايام برد شبيبتي	واصلد من وقع الخطوب زنادى
واشغلني الحرص الموكل بالورى	عن العمل المنجي ليوم معادى
فلا راحة الاخرى تيقنت نيلها	ولا أنا في الدنيا بلغت مرادى!

كتاب الروضتين في اخبار الدولتين.

٤ ــ الرقاصة جمع راقص وهو في الاصطلاح المغربي موزع البريد، وكان فيهم الرقاص العادي ورقاص الشرط، وهذا هو ساعي البريد المستعجل، وقد حددت بعض الرسائل الموحدية منذ سنة ٥٤٣ واجبات الرقاصة تحديدا دقيقا حتى لا يسيئوا الى مهنتهم... ابن صاحب الصلاة: تأريخ المن بالامامة، نشر وتحقيق عبد الهادي التازي طبع دار الاندلس بيروت 1964 ص 129 .

٥ – بالرغم من ان صلاح الدين كان يخطب للعباسيين، وبالرغم من انه نقش اسم الناصر العباسي على الصفيحة التي علقها على باب المدينة بعد فتحه لبيت المقدس، فان انتصارات صلاح الدين سببت حرجا للخليفة الناصر اذ ما قيست بمشاكله الداخلية والخارجية، ثم ان ذلك الفتح لم ترافقه، على العادة ــ هدايا قيمة للخليفة بل على العكس هدايا وضيعة اوجبت لوم الخليفة فضلا عن أن صلاح الدين لقب

نفسه بالناصر وهو لقب الخليفة.. هذا الى ان صلاح الدين كان يتحاشى قدر المستطاع الاستعانة بجيش خليفي من بغداد رغم حاجاته الماسة لمثل هذا الجيش في اوقات الحرج التي تلاقيها دولته وهي كثيرة الاعداء، الامر الذي يدل على تخوف صلاح الدين من تدخل هذا الجيش في شؤون دولته، هذا ايضا الى رفض صلاح الدين جميع التبرعات كما خوله الناصر حتى لا يتعرض لضغط المنة عليه..
وقد بعث الناصر العباسي سنة 580 = 1184 لصلاح الدين يعتب عليه تأخره في ارساله الرسل لدار الخلافة...
القلقشندي: مآثر الانافة في معالم الخلافة ج 3،ص 86، صادق حسن السوداني العلاقات الخارجية للخلافة العباسية في عهد الخليفة الناصر، مجلة المورد ــ العراق، المجلد ٢ العدد 4 1393 = 1974 ص 98 ـ 99

٦ – الاسفهلار من القاب أرباب السيوف وهو معرب ((« سيه سالار» بمعنى رئيس الجيش وقائد العسكر، وهو لفظ فارسي مركب من كلمتين فارسيتين، هما «سيه» بمعنى العسكر، والجيش، «وسالار» بمعنى الرأس والكبير والامير.
وما ذكره القلقشندي في أصل الكلمة من أنه مركب من لفظين فارسي وتركي يحتاج الى تعقيب.
الصبح ٦ـ٧ مجلة الدراسات الفلسطينية اذار ١٩٧٣ ص ٢١٤

٧ ـ حاول بعض الكتاب تعليل عدم استجابة المنصور لدعوة صلاح الدين باقدام هذا على اسقاط الفاطميين في مصر الامر الذي اغضب الموحدين الذين كانوا يعطفون على الفاطميين... وهو تعليل لا يقوم على اساس... الشبيبي: ادب المغاربة الاندلسيين ص ٣٩.

٨ ـ يوجد في الاصل (يوزيا) وهو تحريف بدليل ما تحمله رسالة موحدية بتاريخ ١٢ رمضان ٥٨٣ = ١١٨٧ تتعلق باستسلام هذين المتمردين...

٩ ـ يظهر من كتاب للقاضي الفاضل الى السلطان صلاح الدين، انه لم يكن مشاطرا للرأى في انفاذ هذه الرسالة للخليفة المنصور وخاصة في مقدمتها مما لا يمكن مخاطبة مخلوق بكافر منه... كما يظهر انه كان وراء الاهتمام بوصف أمير المؤمنين الذي ورد في رسالة صلاح الدين، الاولى... كتاب الروضتين.

١٠ ـ تعتبر رسالة صلاح الدين من الوثائق العربية الاولى التي استعملت كلمة سفير عوض رسول الذي شاع استعماله لاداء هذا المعنى، ومعلوم ان كلمة سفير مأخوذة من سفر الثلاثي: بمعنى اصلح ذات البين... ومنه قول الشاعر:

ولا ادع السفارة بين قومي ولا أمشي بشر ما مشيت

١١ ـ امنان جمع من: كيل او ميزان وهو شرعا ١٨٠ مثقالا، وعرفا ٢٨٠ مثقالا..

١٢ ـ تضمنت هذه المعلومات رسالة موحدية من انشاء ابي الفضل بن محشرة الى طلبة تونس بتاريخ ٢ رمضان ٥٨٣ = ٥ نوفمبر ١١٨٧ ـ برفنصال، رسائل موحدية، الرباط ١٩٤١ ص ١٩٨.

١٣ ـ عبد الهادى التازى: تاريخ جامع القرويين طبع دار الكتاب اللبناني ١٩٧٢ ج ١ ص ١٢١ ـ ١٣٤

١٤ ـ ابن صاحب الصلاة تاريخ المن بالامامة، ص ٢١٤ ـ روض القرطاس ج ٢،ص ١٦٤ ـ الاستقصا ج ٢،ص ١٢٨ ـ ١٦٣

١٥ ـ احب أن لا تفوتني الفرصة هنا بأن اذكر بالتوتر الذي كان يسود العلاقات بين مصر والمغرب في اعقاب الحرب المؤسفة التي جرت بين الجزائر والمغرب مع المبادرة المغربية عندما نادى مؤتمر القمة العربي الثاني... كما اذكر بما كان عليه الحال بين المغرب وسوريا عندما جعل المغرب امكانياته رهن اشارة المشرق...

١٦ ـ التبس على بعض الناس أمر هذه الزاوية فاعتقد انها من اوقاف ابي مدين الغوث مع انها لحفيده كما نرى، ومعلوم ان الجد أخذ العلم عن رجالات مدينة فاس من امثال علي بن حرزهم الذي التقى في الشام بالامام الغزالي كما اخذ بالمشرق عن جماعة من امثال الشيخ عبد القادر الكيلاني الذي كان لقيه بعرفة، وقد تخرج عليه عدد كبير من القوم كان من ابرزهم الشيخ عبد السلام بن مشيش، ويوجد بفاس جامع يحمل اسمه لانه كان مدرسته التي يقصده فيها مريدوه. التادلي: التشوف. الرباط ١٩٥٨ ص ٣١٦ ـ روض القرطاس نشر ادولف فور طبعة فاس الحجرية ص ١٩٣ ـ ابن قنفد: أنس الفقير ـ نشر محمد الفاسي وادولف فور الرباط ١٩٦٥ ص ١١ ـ المقرى: نفح الطيب، نشر احسان عباس ٧ ، ١٣٦

١٧ ـ يقع الحي المذكور في الجزء الجنوبي من المدينة يفصله عن الشرق حرم القدس كله، ويفصله عن المغرب عدة احياء وحده الشمالي شارع باب السلسلة الذي يعتبر حلقة وصل بالمدينة القديمة ككل، اما باب المغاربة فهو في تمام السور الذي بناه السلطان سليمان القانوني عام ١٥٤٢، وهو احد البابين الشرقيين للمدينة القديمة، والثاني هو الواقع في مواجهة مقام النبي داود، وتسمية الباب بباب المغاربة لان الحي هو اول ما يفضي اليه، وكسائر الاحياء في المدينة فان حي المغاربة يحتوي كذلك على ساباط (قنطرة) كان يعلوها بيت الشيخ محمد المهدي من مشايخ المغاربة، وكان آخر عهده اماما بمسجد الصخرة... هذا ومن بين الاسر المغربية المعروفة التي كانت تسكن الحي، الدكالي والمراكشي والفيلالي والسباعي والفاسي والراوي والتواتي والسرغيني واليوسي والتازي والدباغ والمديوني والشنكيطي والفكيكي والعلمي وغيرهم وغيرهم،[عبد الهادي التازي] حي المغاربة بالقدس نشر ضمن موسوعة العتبات المقدسة للاستاذ جعفر الخليلي دار التعارف ـ بغداد ـ قسم القدس المجلد ١ ص ٩٥ ـ وفي مجلة مركز الدراسات الفلسطينية ـ بغداد، المجلد الاول العدد الثالث آب ١٩٧٢ ـ وفي عدد العالم الثقافي ١٤ يناير ١٩٧٢ بالرباط.

١٨ ـ العبر ج ٥،ص ٤١٦ ـ ٧، ٢٢٦ ـ المنوني: علاقات المغرب بالمشرق، دعوة مارس ١٩٦٥

١٩ ـ اي دوغدى: كلمة تركيّة مركبة من اي بمعنى قمر، ودوغدى بمعنى ميلاد، اي ميلاد قمر، قد رسمت في كتب التاريخ القديمة هكذا (ايدغدى) العبر ٧ج،ص ٢٢٦

٢٠ ـ الصبح، ٧ ، ٣٩٥

٢١ ـ الصبح - ج،٧، ٣٨٩ ـ ٣٩١ ـ ٣٩٥ ـ

٢٢ ـ يذكر المقرى ان هذا الكتاب انما وصل الى مصر في النصف الاخير من شعبان من السنة ٧٤٥، وهكذا تكون الرسالة ظلت منتظرة خروج الموكب الحجازي. النفح ج ٤ ،ص ٣٨٦ ـ ٣٩٣ الاستقصاء ج ٣،ص ١٤٠ ـ

٢٣ ـ تتمة البيت: فلا بد أن يلقى بشيرا وناعيا.

٢٤ ـ نفح الطيب ج ٤،ص٤٠٠ ـ الاستقصاء ج ٣،ص ١٠١

٢٥ ـ جريدة فلسطين ٣ ايلول ١٩٥٩ ـ جريدة القدس مجلد ١٦ عدد ٧١٧

٢٦ ـ التعريف بابن خلدون نشر ابن تاويت الطنجي القاهرة ١٩٥١ ص ٢٤٨ ـ الاحاطة ج ٢ ، ٢٢١.

٢٧ ـ المنوني: علاقات المغرب بالشرق: دعوة ابريل ١٩٦٥

٢٨ ـ قطلوبغا (Kutlo Boga) اسم مشهور الاستعمال في اسيا، مركب من كلميتين: قوطلو ومعناها مبارك، وبوغا، ومعناها الفحل، يسمون به تفاؤلا حتى يكون صاحبه قوى البنية سليم الجسم، الضؤ اللامع ج ٦،ص ٢٢٣ ـ العبر ج ٧،ص ١٤٨ ـ ٣٦٣

٢٩ ـ التعريف بابن خلدون ص ٤٣٩ ـ ٣٤٦.

٣٠ ـ النفح ج ٢،ص ٥٢١.

٣١ ـ يتخلص ابن خلدون لتقديم معلومات للعاهل المغربي عن التتر واصل ظهورهم ومعلومات كذلك عن ثقافة تيمور ومما لاحظ، ان ركبته اليمنى عاطلة وأنه يحمل في محفة عند بعد المسافات...

٣٢ ـ كان الشريف الحاج محمد الهادي اول قادم من اشراف العراق على المغرب صحبة الركب المغربي، وقد كان سيدى الهادي حيا في ١٥ شعبان ٧٦٠ فيكون ابنه السفير توجه لمهمته وهو شيخ فعلا كما تنعته رسالة الاعتماد. راجع مخطوطة (مطلع الاشراق في نسب الشرفاء الواردين من العراق) للقادرى، السلوة ٣ ، ١٧

٣٣ ـ الصبح ج ٨ ،ص ١٠٣ ـ ١٠٦.

٣٤ ـ في الصبح الحسني، والصواب الحسيني، لان الاشراف العراقيين معدودين من الحسينيين، ومن هؤلاْ الطاهريون والصقليون الذين نزلوا بصقلية وهؤلاء فرعان العريضيون والكاظميون، ونسبهم محفوظ مشهور، ومن اقدم واثمن ما قيل فيه منظومة دالية من اربعة وخمسين بيتا منسوخة على رق الغزال تعودلاواسطالقرن الحادي عشر وتتعلق بالكاظميين في مكتبة الاستاذ السفير مولاي على الصقلي الكاتب العام لوزارة الشؤون الخارجية المغربية...

ادريس العلوى الحسني: الدرر البهية والجواهر النبوية طبعة فاس الحجرية. ج

٢، ص ٢١٢.

٣٥ ـ الصبح ج ٧، ص ٤٠٧ ـ ٤١١

٣٦ ـ ابن جبير: الرحلة تحقيق د. حسين نصار ١٩٥٥ ص ٢٥٨ ـ عبد الهادي التازي: ساعات من القرن الرابع عشر المجلد الثالث من مجلة المجمع العلمي اللغوى . بغداد ـ ١٩٦٦.

٣٧ ـ دوكاستري: السلسلة الاولى ـ السعديون ـ انجلترا، المجلد ٢ ص ١٧٧ ـ ١٧٩

٣٨ ـ يعتبر عنون هذا من واضعي نظام (الشفرة) على العهد السعدي، فقد كانت تناط به مهمات خطيرة في الخارج، وكان مضطرا بحكم وظيفته الى ان يبتكر وسيلة لتسجيل مذكراته الخاصة.

٣٩ ـ في رسالة بهذا التاريخ يتحدث اليكسندر جيل (Alexander Gill) عن اقتراح السفير عنون على جيل للتدريس بالمغرب ايام ابي العباس احمد المنصور الذهبي Poro Danielsson and ARVID Gbrilson

رسالة موجهة الى معالي سفير المغرب بالدانمارك الاستاذ عبد الهادي الصبيحي مصحوبة بدراسة عن رسالة جيل بعثها الينا مشكورا...

٤٠ ـ الاستاذ محمد الفاسي: صفحة مطوية من تأريخ مجهول، مشاركة المغرب في الجهاد المصري ضد الحملة الفرنسية دعوة الحق صفر ١٣٩٤ مارس ١٩٧٤.

الشام والمغرب خلال القرن العاشر للهجرة

الدكتور عبد الكريم كريـــم
كلية الآداب ـ جامعة محمد الخامس

بدأت مع قيام الدولة الاموية بلاد الشام، المراحل الأولى للفتح العربي الاسلامي في بلاد المغرب، وطوال العهد الأموى لم تفتر الجهود الى المغرب من أجل توطيد دعائم اسلامه ولتقوية عروبته.

ولما انقرضت الدولة الاموية بالشام وبعث من جديد بالاندلس (شام المغرب)، ازدادت الصلات بين العدوتين، خاصة بعد الوحدة السياسية التي أقامها الخليفة الأموى بقرطبة عبد الرحمن الناصر، زمن الصراع ضد الفاطميين بالغرب الاسلامي.

ومنذ منتصف القرن الخامس للهجرة الموافق لمنتصف الحادي عشر للميلاد، استهدفت بشكل خطير الاندلس والشام لحملات عسكرية خارجية ألبست أشكالا مختلفة لاخفاء نواياها الحقيقية، وقد وجدت هذه الهجومات الخارجية من المغاربة والشاميين مقاومة قوية وصمودا عظيما انتهى في المشرق بمعركة حطين عام ٥٨٣ هجرية/١١٨٧ وبالمغرب بمعركة الأرك عام ٥٩١ هجرية /١١٩٥ وهكذا استمر التجاوب قويا بين المغاربة وبلاد الشام عبر العصور، فلقد زاروها:

ـ **طلبا للعلم:** اذ ظلت مدن الشام كعبة طلاب العلم يفدون عليها من المغرب

ـ **للوقوف على أماكنها المقدسة:** قل أن نجد حاجا مغربيا لم يزر مدن الشام وخاصة القدس والخليل ودمشق.

ـ كما ربطو بها للجهاد في سبيل الله فدونوا بذلك صفحات مشرقة في التاريخ.

ـ ـ وهاجروا الى الشام للاستيطان: مما جعل الجاليات المغربية من اكبر

الطوائف المهاجرة اليها.

ولم يفت المغاربة في الوقت نفسه ان يدونوا الكثير عن بلاد الشام كرحالة وطلبة علم وحجاج، أو مجاهدين ومستوطنين ومؤلفين، مما جعل المكتبات المغربية غنية بتراث مخطوط هام عن بلاد الشام عبر عصورها المختلفة.

اتسمت الروابط بين الشام في العهد العثماني الاول خلال القرن ١٠ هجرية /١٦. وبلاد المغرب بطابع خاص، نظرا للنزاع العثماني ــ السعدى المعروف، ورغم محاولات العثمانيين المختلفة، فقد أظهر المشارقة اعتزازا كبيرا بما حققه المغاربة في معركة وادي المخازن (الاثنين ٣٠ جمادى الأولى عام ٨٨٦ هجرية الموافق ٤ غشت ١٥٧٨) التي ردت للعالم الاسلامي نوعا من الاعتبار بعد الهزيمة العسكرية التي مني بها الاسطول العثماني في معركة (ليبانتو ١٥٧١ م). فقد اورد الرحالة المغربي المعاصر أحمد بن القاضي صاحب مخطوط (المنتقى المقصور) في الصفحة قوله: (أن أمرها ــ يعني معركة وادي المخازن ــ عظيم على الترك جدا غيرة منهم ان يكون مثلها على يد امير عربي، فامتلأوا منها غيظا وامتلأ العرب منها فرحا وسرورا).

ومن جهة أخرى، فقد بعث قاضي حلب مصطفى بن حسن الهاشمي الجنابي الى المنصور السعدى يستفسر عن اوضاع المغرب غداة الانتصار في وادى المخازن، فامر الخليفة المغربي وزيره ابا فارس عبد العزيز الفستالي بتأليف كتاب عن المغرب، وذلك هو كتاب (مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا). جاء في رسالة الخليفة المنصور الى قاضي حلب:

(... وعلمنا لذلك ان هذه الدولة الكريمة قد بلغت عنكم رأسا حقائقها ... وعذركم في ذلك واضح لتنائي الديار وبعد الافاق والاقطار ... وقد توجهت اشارتنا الى أحد كتابنا بتلخيص موضوع يكون لاخبار هذه الدولة الكريمة ان شاء الله الشامل المستوعب ... يعتمد الفضلاء امثالكم المعنيون بهذا الشأن عليه ...)

واستنادا ، الى الرسالة التي بعثها المنصور السعدي الى الملكة الانجليزية (ايليزابت) بتاريخ ٢٧ مارس ١٦٠٠ فان الخليفة المغربي قد ابدى حرصا كبيرا على ارسال كتاب (المناهل) الى بلاد الشام .

(اصالة السلطانة ... ازبيل ... هذا والذي أوجبه لمكانك المكين انه سيرد على مملكتك خدامنا حملة هذا الكتاب الكريم الذين وجهناهم الى حلب لقضاء بعض مآربنا) .

فللقاضي الشامي بعض الفضل في تأليف كتاب (مناهل الصفا) الذي يعد حتى الساعة مصدرنا الأول في التعرف على جوانب هامة من اوضاع المغرب

السياسية واحضارية اواخر القرن ١٠ الهجري ١٦ م زمن الخليفة المنصور السعدي الذهبي .

ويبقى السؤال مطروحا : هل تمكن المنصور من ارسال الكتاب الى الشام أم أن الايام لم تساعده على ذلك ؟

لقد زار المغرب زمن المنصور السعدي عدد من علماء المشرق ووجدوا من الخليفة المغربي كل عناية وتقدير ، في الوقت الذي كان الباب العالي يحرص على فرض نوع من العزلة على المغرب باعتباره البلد العربي الوحيد الذي ظل خارجا عن الامبراطورية العثمانية : (كثر عدد العلماء الواردين على الخليفة المنصور من نحو الحرمين الشريفين وبيت المقدس ومصر والشام والعراقين والهند والسند وغيرهم ... ومن غريب ما اتفق بين يديه أيده الله ذات يوم في ثلاثة نفر من اهل المساجد الثلاثة التي تشد اليها الرحال ويتبرك بها ، احدهم مدني والثاني مكي والثالث خليلي هو امام الدين محمد بن قاسم الخزرجي ... وقد انشد هذا :

ان امير المؤمنين أحمد	بحر الندى وفضله لا يجحد
فمكة وطيبة وأهلها	والمسجد الاقصى بذلك يشهد

(المنتقى المقصور ص . ٥٨ ــ ٥٩.) على أن بعض العلماء المشارقة الذين لم يتمكنوا من زيارة المغرب زمن المنصور ، أرسلوا تاليفهم واجازاتهم الى الخليفة المغربي ، ومن هؤلاء خاصة : قاضي قضاة المالكية في مصر الامام الشيخ بدر الدين القرافي الذي اجاز المنصور باجازة لاصلة لها بموضوعنا هذا ، ذلك ان العالم القرافي قد ذكر الشيوخ وكبار العلماء ومختلف المدارس بكل من مصر والشام مع اثبات لبعض الاجازات ، مما يلقي الكثير من الاضواء على الجوانب المختلفة للنواحي الفكرية في الشرق الاسلامي خلال القرن ١٠ الهجري ١٦ م . : (وكان في هذه الاشارة فضل مزيد ... ذلك أن سلسلة الفقة الى وقتنا هذا لم تقف على من تعرض من مشايخي ومشايخ من الطبقة التي فوقهم الى مالك ولا من حرر هذا الأمر ولا نظر فيه وانه لامر يحتاج اليه كل فقيه) (المناهل ص ٢٧٣).

تتوفر المكتبات المغربية على تراث مخطوط هام له صلة ببلاد الشام

ــ اما لان المؤلفين شاميون

ــ او لان الموضوعات تتعلق ببلاد الشام

ــ ومن مؤلفات المغاربة عن الشام :

رحلة ابن رشيد : مغربي من سبته زار الشام عام ٧٢١ هجري .

رحلة ابي القاسم التجيبي : مغربي من سبته زار الشام عام ٧٨٤ هجري .

بيان غربة الاسلام : علي بن ميمون أقام بالشام والف كتابه ٩١٠ هجري .
المنتقى المنصور : احمد بن القاضي . من سفراء المنصور في الشرق اواخر القرن العاشر الهجري .
الرحلة الكبرى للعياشي : زار الشام الجنوبية عام ١٠٧٤ هجري .
لائحة باسماء بعض المخطوطات المتعلقة بالشام والتي توجد في المكتبات المغربية :
خزانة ابن يوسف بمدينة مراكش .
تاريخ دمشق ابن عساكر ٢٧ جزاء تحت رقم ٤١٥

خزانة المسجد الكبير بتازة .

فتوح الشام الواقدى تحت رقم ٥٧٨
نور النبراس برهان الدين الحلبي تحت رقم ٥٨٠

خزانة تطوان .

فتوح الشام الواقدى تحت رقم ٥٢٥

خزانة القرويين بفاس .

شرح مختصر كتاب الروضة ابو محمد المقدسي تحت رقم ٦٣٢
الهواية الكافية الشامية ابو عبد الله محمد قاسم تحت رقم ١١٧٠
الانس بتاريخ القدس ابو محمد عبد الرحمن تحت رقم ١٢٥٠
الفوائد في حل شرح العقائد كمال المقدسي تحت رقم ١٣٩٧

خزانة اوقاف .

السيرة الشامية محمد بن يوسف تحت رقم ٥٤٢
فتوح الشام الواقدى تحت رقم ٥٦٩
شرح العمدة في الاحكام عبد الغني النابلسي تحت رقم ٦٥١
حوادث الزمان وانبائه محمد بن ابراهيمالحريري الدمشقي تحت رقم ١٩٤
اجوبة في مواضع مختلفة عز الدين المقدسي تحت رقم ٢٠٩
عيون الروضتين في اخبار الدولتين شهاب الدين بن اسامة تحت رقم ٢٥١
نزهة المقلتين في اخبار الدولتين شهاب الدين بن اسامة تحت رقم ٢٥٢
تنبيه الغافلين محي الدين الدمشقي تحت رقم ٢٩٢

خزانة تامكروت .

المختار في كشف الاسرار عبد الرحيم بن عمر الدمشقي تحت رقم ١٧٤
حاشية الانوار على توضيح ابن هشام ياسين الحمصي تحت رقم ٤٣٩
مقدمة فتح البارى احمد العقلاني تحت رقم ٥٤٢

انسان العيون في سيرة الامين والمأمون برهان الدين الحلبي تحت رقم ٦٣١
التذكرة في الطب داود الانطاسحي تحت رقم ٦٨٥
تذكرة اولي الالباب داود الانطاسحي تحت رقم ٧٢١

خزانة الحي الكتاني .

شرح منظومة في مصطلح الحديث محمد بن ناصر الدمشقي تحت رقم ٣١٠
تنوير بصائر المقلدين ابن يوسف المقدسي تحت رقم ٣٢٩
عمدة الاحكام تقي الدين المقدسي تحت رقم ٣٦٩
كنز الحق المبين عبد الغني النابلسي تحت رقم ٨٠٣
السيرة الشامية أحمد القيسي تحت رقم ١٤٨٥
شرح كوكب المباني عبد الغني النابلسي تحت رقم ١٥٣٥
شرح العمدة في الفقه عبد الرحمن المقدسي تحت رقم ١٥٦٤
ايضاح المقصود عبد الغني النابلسي تحت رقم ١٥٩٤
شرح الحزب الكبير محمد بن عبد السلام النابلسي تحت رقم ١٥٩٥
الفتح الرباني عبد الغني النابلسي تحت رقم ١٩٥٢
العمدة عبد الغني سرور المقدسي تحت رقم ١١٥١
ملاك الطلب في جواب استاذ حلب (ضمن مجموع) تحت رقم ١٢٨٤
نور النبراس برهان الدين ابن الحلبي تحت رقم ١٢٩٣
الدرر البهية بدر الدين الدمشقي تحت رقم ١٢٩٥
ترجمة البخاري جمال الدين الدمشقي تحت رقم ١٣١١
معارج الوصول احمد الحلبي تحت رقم ١٢٣٢
فتح القدير بدر الدين الدمشقي تحت رقم ١٣٣٨
حسن التوسل محمود بن فهد الحلبي تحت رقم ١٧٧٢
ورد الورود عبد الغني النابلسي تحت رقم ١٧٨٢
مجموعة قصائد العارف النابلسي تحت رقم ١٨٧٠
كتاب في الجهاد محمد بن ناصر الدين الدمشقي تحت رقم ٢١٢٤
زهرة الحديقة في ذكر رجال الطريقة عبد الغني النابلسي تحت رقم ٢٢٨٢
الحضرة الانسية في الرحلة القدسية عبد الغني النابلسي تحت رقم ٢٢٢٠
تحفة الانام في مناقب الشام جلال الدين البصري تحت رقم ٢٣٦٨
الآداب الشرعية الكبرى محمد بن مفلح المقدسي تحت رقم ٢٤٩٠
الأسرار عبد الرحمان بن محمد الشامي تحت رقم ٢٤٩٥

الكنوز المختومة احمد بن عبد الحي الحلبي تحت رقم ٢٧٢٤
كتاب فيمن اخذ عنهم الشيخ عبد الكريم الحلبي تحت رقم ٢٨٤٧
كتاب في فضائل دمشق احمد دحلان تحت رقم ٣١٠٦

خزانة التهامي لكلاوى .

مختارات من كتاب الطب داود الانطاكي تحت رقم ٦٣٧
التذكرة داود الانطاكي تحت رقم ٦٣٨

الخزانة العامة بالرباط .

حاشية على تصريح الازهري ياسين الحمصي تحت رقم ٤٢٢
مراتب الوجود عبد الكريم الجليلي تحت رقم ٧٣٧
النزهة المبهجة داود الانطاكي تحت رقم ٧٩٠
فتح الباري احمد العسقلاني تحت رقم ٨٣٧
فتوح الشام الواقدى تحت رقم ٩٠٣
كفاية المتحفظ ابراهيم الطرابلسي حت رقم ١٢٦٩
كشف الاسرار في علم الطيور والازهار ابن عبد السلام المقدسي تحت رقم ١٥٤٨
بديعة البيان ابن ناصر الدين الدمشقي تحت رقم ١٨٠٤
شرح الحكم العطائية بدر الدين الدمشقي تحت رقم ١٩٧٦
منظومة في الاخلاق احمد الكيواني الدمشقي تحت رقم ٢٦٦١
مفاتح الكنوز الامام المقدسي تحت رقم ٢٦٦٤
اشعار في التصوف الامام المقدسي تحت رقم ٢٦٦٥
شرح البردة سعيد الكرمي تحت رقم ٢٦٧٠
عقد الالي ابو الطيب المقدسي تحت رقم ٢٧٨٧
بديع الانشاء والصفات يوسف المقدسي تحت رقم ٢٧٩١
الروض الانيق محمد بن عبد السلام المقدسي تحت رقم ٢٩٨٣
تجريد الوافي احمد العسقلاني تحت رقم ٣٤١١
كتاب السير والسلوك قاسم الحلبي تحت رقم ٣٤٥٤
شرح بديعة البيان ابن ناصر الدين الدمشقي تحت رقم ٣٧٨٩

من المخطوطات المغربية المتعلقة بالشام .

ـ الرحلة الكبرى للعياشي :

في خزانة الكتاني ست نسخ تحت أرقام ٢٢٧ ، ٢٥٨ ، ٢٩٣ ، ٣٠٢ ، ٣١١ ، ٥٨٣

وفي خزانة الاوقاف نسخة واحدة تحت رقم ٤٠٥

ـ المنتقى المقصور في مآثر الخليفة المنصور لاحمد بن القاضي ، يوجد بخزانة التهامي لكلاوى تحت رقم ١٠٥٩

ـ **رحلة ابن رشيد** توجد بخزانة تطوان

ـ **رحلة التجيبي** توجد بخزانة الرباط

ـ **بيان غربة الاسلام** لعلي بن ميمون ، يوجد بخزانة الكتاني تحت رقم ٢١٢٣



ميزانيات الشام في القرن السادس عشر

الدكتور خليل ساحلي
مدرس التاريخ الاقتصادي في كلية الاقتصاد ـــ جامعة استانبول

ان ما نسميه، للسهولة ـ ميزانية عثمانية لما قبل عهد الدستور ليس الا «الحساب القطعي» لما دخل، او فرض انه دخل الخزينة، وما صرف او فرض انه صرف. كما يدل عليه العنوان في كل منها اذ ما هو الا «اجمال الواردات ومصارف الخزانة العامرة...» في سنة خلت.

بينما الميزانية في العصر الحاضر عبارة عن مشاريع وخطط تحتاج لنفقات تتقدم به حكومات لمجالس الا ما كان تستأذن بها طرح وجباية ضرائب تقوم بالحاجة فهي مخطط بداية والميزانيات العثمانية حساب نهاية.

غير اننا لا يجب ان نغتر لهذا الفرق. فالمهم هو معرفة امكانيات الدولة في مختلف اطوارها، وتطورها على مر الاعوام. وكما يجب ان لا يغرب عن النظر ان الميزانيات وان لم تك نظير امثالها من الميزانيات المعاصرة في تطلب موافقة مجلس فانها لم تك كيفية. بل لها قواعد مقررة مستقرة من الصعب تغييرها. فالدولة لها مصاريف مستقرة قد يستحيل تجنبها يقوم بسدها دخل مقرر يرجع زمنا الى عهد فتح البلاد وقد يسبق ذلك، فما التكاليف والضرائب الا اشياء تتوارثها الدول كل عن ما قبلها قد تضع الدولة الفاتحة شيء منها رغبة في جلب قلوب الناس واملا بطمأنينتهم للحكم، الحكم الجديد، وان من يطلع على القوانين التي في مطلع كل دفتر من «الدفاتر الخاقانية» والتي تسمى» بالمفصل «بالنسبة لكونها تفصل عن ما في كل لواء من مكلفين بالضرائب وغيرهم وعن ما في ايديهم من اراضي عليها خراج او عشر... وعن ما تنتج كل قرية وما نصيب الدولة من ذلك.. سوف يرى ان تلك القوانين موروثة من الحكم البائد. وان الدولة السائدة قد وضعت بعضا منها على انها بدع مرفوعة». ذلك هو الحال في سوريا، وفي العراق كما هو في الاناضول او في «روم ايلي» اى الاراضي الاوربية التي كانت تحت الحكم العثماني.

اننا اذا اردنا «الميزانية» في معنى قريب من المعنى الحديث فعلينا ان نبحث عنها قسما في هذه «الدفاتر الخاقانية». وما قلنا قسما الا لا نها لا تفيد الا عن الدخل وقسم من الدخل الذى هو في نفس الوقت صرف. فالدفتر الذى يلخص «المفصل» والذى يدعى «بالاجمال» كان يفيد عن انقسام دخل الولاية او اللواء الذى تم احصاؤه بين السلطان وبين التيماريين (من امير وزعيم ونفر تيمار) وبين الاوقاف. فحصص التيمار هي دخل الدولة ودخل التيماريين في الوقت نفسه ودخل هؤلاء هو نفقة ومصاريف بالنسبة للخزانة التي تمثل الدولة. والحق، وسوف نرى ذلك ان «اجمال واردات ومصارف الخزانة»، سواء كان اجمال خزانة الدولة او اجمال خزانة اقليم منها ليس الا اجمال حساب «الخاص السلطاني» وما كان ينفق منه في المملكة بالنسبة للميزانية العامة او في اقليم ما بالنسبة الى ميزانيته. فالاقطاعات بكونها دخل ومصرف متكافآن ما كانت تدخل في حساب الميزانية.

ميزانيات الدولة وميزانيات الاقاليم

كانت الممالك العثمانية، منذ ان اصبحت ادارتها رئسيا عن يد واحدة امر عسير، صارت تنقسم اداريا الى «ولايات» او «ايالات» كانت تضم «سناجق» او «الويه» تجمع اقضية والاقضية تتركب من نواحي والنواحي تجمع عدة قرى. وكان على كل سنجق او لواء «امير» هو «سنجق بك» او «ميرلوا» اى «امير اللواء» وبما ان في كل ولاية عدة سناجق فأمير الولاية هو «بكلر بك» او «مير ميران» اى «امير الامراء» فيها. اما الاقضية فكان فيها «سوباشى» من قبل «امير اللواء»...

والولايتين الرئيسيتين اللتين كانتا تشكلان الجذع من الامبراطورية العثمانية اى ولاية «الاناضول» وولاية «روم ايلي» كانتا اساس الميزانية ودفتر داريهما كانا يقومان في العاصمة ويشاركان في الديوان و «الدفتر دار» الذى يمثل ناظر المالية هو «دفتر دار روم ايلي» فعلا.

اما الولايات البعيدة فان البعض منها كان تابعا للبعض الذى يقيم فيه دفتر دار. فالولاية التي كان فيها دفتر دار كان هذا يجبي اموالها ويصرف منها ما كان يعتاد صرفه في محله ولا يتجاوز المعتاد ما لم يؤمر. وكان يضبط حسابات اموال ولايته يسجلها يوميا في دفتر كان يدعى «روزنامجة» اى دفتر اليومية». والدفتر، او بالحرى الحساب الذى نريد ان نعبر عنه بانه «ميزانية» تلك الولاية ليس الا مختصر ما في دفتر اليومية من الحسابات مبوبه حسب الدخل وانواعه وحسب النفقات.

وكانت سوريا في العهد العثماني تنقسم في القرن السادس عشر وحقب طويل من السابع عشر الى (٣) ولايات "حلب" و "الشام" و "طرابلس الشام". أما القسم الذى يشكل البادية بين العراق وسوريا وتركيه حاليا فان منه ما كان ينضم الى ولاية الموصل ومنه ما كان يتبع الرها كلواء عنه وهببت ودير الرهبة وما الى ذلك وكانت امرتها في عائله ابو ريش امير البادية، وحلب والشام وطرابلس كان لكل منها دفتر دار وميزانية على حدها. ويظهر ان البادية كانت تابعة لميزانية ديار بكر.

وكان يدخل في عداد ولاية الشام في القرن السادس عشر وشيء من القرن التالي احدى عشر سنجقا، نفصلهم بناء على ان دخل الولاية يتناسب نسبة مبسوطه مع وسعها جغرافيا، هم: الشام وصفد والقدس وعجلون ولجون وغزة ونابلس وتدمر وصيدا وبيروت وكرك الشويك.[1]

ويظهر من تقلص دخل الولاية في القرن السابع عشر ان بعض هذه الالوية قد فصلت عنها اما ماليا فقط او ماليا واداريا. فبينما كانت اموال الشام المتوفر من المقاطعات والجزية "تبلغ اكثر من ١٩٧ ٩٣٤ غرشا اسديا، كانت خواص صيدا وصفد وبيروت والشوف تبلغ ٢٣٧ ٢١١ غرشا يصرف منها محليا ٢٦٣,٥ ٥٠ غرشا ويرسل الباقي وهو ٩٧٣,٥ ١٦٠ غرش الى استانبول[2]. اما الشام فكما سنرى فان دخلها في هذا القرن كان يصرف محليا.

ميزانيات الشام

أقدم دفتر اجمال محاسبة واردات ومصاريف.. للشام عثرنا عليه هو ميزانية ٩٨٦ ـ ٩٨٧ هجرية (١٥٧٨ ـ ١٥٧٩ م). وهي ميزانية من سلسلة ٦ ميزانيات في دفتر واحد. وهذا لا يعني انه لم يك للشام ميزانيات قبلها. فان في الميزانيات العامة للدولة العثمانية، اما ملخص لميزانية الشام واما المقدار الفائض عن المصروف المحلي من دخل الولاية.

فميزانية ٩٣٣ ـ ٩٣٤ هجرية (١٥٢٧ ـ ١٥٢٨ م) تلخص ميزانية الشام كما يلي[3]

	اقجة
دخل الولاية من اول نوروز ٩٣٣ ـ الى اول نوروز ٩٣٤ اقجة ١١ اذار ١٥٢٧ ـ ١١ اذار ١٥٢٨)	١٠ ٩٢٥ ٧٩٠
ويتكون هذا المبلغ من دخل الولاية وهو	١٠ ٤٨٥ ٩٧٠

وجزية قبرص (ولعل هذا المبلغ هو مبلغ الجزية التي كانت تؤديها القبارصة الى المماليك، ثم الى العثمانيين بصفتهم انهم

خلفوهم). وهو ٨٠٠٠ سكة حسنه (دينار) أو ٤٤٠ ٠٠٠

والمصاريف ٢ ٧٧٤ ٤٣٩

منها: مواجب (رواتب) انكشارية الشام ١ ٥٢٨ ٢١٦

وماهيات (شهريات) بعض الموظفين ٨١ ٥٨٠

مواجب حامية (مستحفظين) قلعة الكرك ٧٣ ٨٠٥

نفقات البيت الحرام (الكعبة المكرمة) ١ ٠٨٦ ٤٧٥

اثمان خلع ٤ ٣٦٠

والباقي وهو ما كانت ترسله خزانة الشام الى خزانة استانبول نقدا ٨ ١٥١ ٥٣٤

ولا يوجد في باقي ميزانيات الدولة للقرن السادس عشر مما نشره عمر لطفي بارقان هذا الرقم الذى يفيد عن مقدار ما كانت ترسله خزانة الولاية على حدها الى خزانة الدولة. فان الدفتر دار كان يسجل ارسالية حلب والشام جملة واحدة. يستصعب ان نعرف نصيب كل من الولايتين من هذه الجملة. فهو يبلغ في ميزانية ٩٥٤ ــ ٩٥٥ هجرية (١٥٤٧ ــ ١٥٤٨ م) ٢١ ٣٨٢ ٦٤٨

اقجه اى عبارة عن ٢٨٥ ٢٧٠ سكه حسنه (دينار) و ٤٦٢ ٢٧٦ اقجه فضيه[٤]

وتبلغ هذه الارساليه في سنة ٩٧٣ ــ ٩٧٤ هجرية (١٥٦٦ ـ ١٥٦٧ م) ١٠٧ ٣٠١ سكه حسنه اى ٣١٣ ٧٦٥ ١٧ اقجه

وفي سنة ٩٧٤ ــ ٩٧٥ هجرية (١٥٦٧ ــ ١٥٦٨ م) ٢١٦ ٢٩٩ سكه حسنه اى ٢٤٤ ٦٦٩ ١٧ اقجه.[٥]

وفي ميزانية الدولة لسنة ٩٩٠ ــ ٩٩١ هجرية (١٥٨٢ ــ ١٥٨٣ م) ارسالية الشام المسجله الى حدها كانت تبلغ ٤٠٨ ٣٢٣ ٧ اقجه[٦]

وسنرى تفصيلها في الجدول رقم (١) الذى هو ميزانية الشام لهذا العام

الميزانية شكليا

سبق ان قلنا ان ما نسميه ميزانية ليس الا ملخص او كما كان يدعى انئذ «اجمال» لما دخل وخرج من الخزانة (او فرض) انه دخل وخرج منها في مدة معينة. اقول مدة معينة محجما عن ان قول مدة سنة. فالاجمال بالا ستطاعة تحضيره في اى وقد كان. سيما في الولايات اذ ان الدفتر دار بصفته الضابط لحساب الخزانة وامير الامراء بصفته (الناظر) اى (المشرف) على اموال الخزانة كانا مسؤلين عن ما جبي ودخل الخزانة وعن صرفه. فلهذا كان الامر يستدعي ان

يبرئ كل منهما ذمته عند انفصاله. ولذا نرى في القرن السابع عشر اذ الميزانيات للولايات متوفرة نسبيا ان منها ما لا يبلغ السنه ومثلها ما يفوقها، فالدفتر دار يقوم باعداد اجمال محاسبته اذا انفصل شخصيا او اذا انفصل امير الامراء عن ولايته.

ولا ينفى هذا، بالرغم من ان معظم الميزانيات متفاوته زمنيا، من ان تكون الميزانيات من حيث المبدأ ميزانيات سنوية وكانت هذه السنة سنة خراجيه تبدأ في النوروز (او النيروز كما في عرف بلاد العرب) اى الحادى عشر اذار قبل اصلاح التقويم سنة ١٥٨٢ و ٢١ اذار بعده. والميزانية التي ستكون اساس المحاضرة اليوم هي الميزانية المخضرمه لا صلاح التقويم الغريغورياني فانها تبدأ في ١١ اذار ١٥٨١ وتنتهي ٢٠ اذار ١٥٨٢ والعشر الايام هي فوات.

هذه الميزانية على غرار امثالها من حيث الترتيب مبدئيا وان كانت طريقة كتابتها وصفها على الصحيفة (Mise en Page) يشكل في ذلك مرتبه على اساس انها عملية طرح. فما يدخل الخزانة منها والذى يكون الدخل هو في نظر الكاتب

كمن يقوم بعملية طرح اصل المال. وهو يبلغ فيها	٢٢ ٠١٠ ٧٠٨
بارات. يطرح منه ما صرف في المدة المعينة. ويعبر عما طرح منه بانه «وضع من ذلك» وهو	١٢ ١٥٣ ٥٩٠
باره فما بقى منه كان يسميه الباقي وهو	٩ ٨٥٧ ٣١٧
فاذا ما صرف من ذلك الباقي اشياء او خصصها بموجب امر سلطاني لجهة ما فطرح منه اشياء سماها «من ذلك الباقي» وهو	٤٥٨ ٤٢٦
باره ويسمى ما يبقى منه «صح الباقي» الذى هو	٣٩٨ ٣٩٠
فاذا طرح منه اشياء اخرى سماها «من صح الباقي» او اذا افردها سماها «منها» وهي	٣٧٦ ٤١٠
باره ويسمى ما يبقى «نص الباقي» وهو في ذمة الدفتر دار السابق	١٠١ ٩٨٠

باره وهذه العملية قد تطول وتكرر وكل مره منها منها «ينعت الباقي» باسم جديد متعارف لدى الكتاب يعرف منه عدد المرات التي تكررت فيها عملية الطرح.

ولكن الكاتب اذا ما اراد ان يرتب الاجمال رتبه بصورة يصعب فيها عملية الطرح والجمع ولكن يسهل عليه فيه العثور بسهولة على ما يبحث عنه. فهو يعطي للمجموع في البداية رقم واحد تحت شرح يفيد عن المقصود يملأ الصحيفة عرضا. ويرتب المفردات تحت ذلك جملا اصغر حجما.

أصل المال (او الدخل للخزنية)

كان الدفتر دار، عندما يقوم باعداد «الاجمال» يقدمه عادة في مطلع «الروزنامجه» التي تحوى حسابا مقدار الدخل والمصروف اليومي. فلهذا كان يتوخى الاختصار الى اقصى حد. فاذا ما اريد الاطلاع عما كان يتركب منه الدخل وجب لعودة الى دفتر اليومية وجمع وتبويب ارقام كثيره للحصول على ما لخصه الكاتب ويتضح من الارقام ان الدخل بهذه السنة، لم يك بالدخل الحالي لذاك العام بالضبط فان ثمة مبالغ جبيت باقية عن سنين خلت، بينما هناك مبالغ تعود لفترة دورة الميزانية لم يك في الاستطاعة جبايتها في وقتها. فالميزانية اذن لا تمثل الا متوسط الدخل. اما الدخل السنوى اذا اردناه خالصا لسنته فيجب ان نستقصى عنه في «الدفاتر الخاقانية» فان مجموع ارقامها تعطي فكره عن «الدخل المتوسط» الحاصل من الجبايات في ظرف عام لعدة سنين، كان يحاسب عليها «الدفتر دار» و «امير الامراء»[٧] ويطالب منهما «النقص» او «البيان عنه او عن اسبابه» اذا كان هناك عجز او عن «أسباب الفائض» اذا كان ثمة فائض عنه. فقد ينجم عن ظلم. (نذكر على سبيل المثال انكار القانوني للمبالغ التي فاقت المعتاد لا رسالية مصر للولاة الاول لمصر والذى ارسل عدة قضاه للتحقيق في قضيتها سنة ٩٥١ هجرية).

يلخص لنا دفتر دار الشام، دفتر روزنا مجته تحت اربعة اقلام:ـ

القلم الاول) بقية منتقله من العام الخالي ومن حساب الدفتر دار السابق لم تصرف في سنتها.

القلم الثاني) حاصلات بين المال في طريق الحج الشريف. وهي اموال من توفي ولم يعرف له وارث سواء كان من «الخاصة» اى ممن له علاقه باى صورة كانت بالدولة من موظف فملتزم او جندى او سواه او، من يلوذ بهم و «عامة» من سواء الناس.

القلم الثالث) عوارض ولايتي الشام وطرابلس.

والعوارض هي الضريبه العارضيه التي يدل عليها اسمها «المتنوعة» التي كانت تلجأ اليها الدولة عند الضيق وعندما تعجز عن سد نفقات عارضيه، كنفقات حرب جديد مثلا، والعثمانيون في هذا الوقت كانوا في اشتباك مع ايران في حرب طالت اثنى عشر سنه، لم تجر الا الخراب وانتهاك القوى احسب من الطرفين المتحاربين.

والعوارض ضريبة كانت تكلف بها اناس دون غيرهم، فان جمع من الناس من خطيب وامام وشريف وقائم ببعض الخدمات للدولة كانوا يستثنون منها. وهذه

الضريبه قد تكون نقديه وقد تكون عينيه وقد تكون خدمه بدنية حسب الوضع. ويستبان من هذه الميزانية انها نقديه.

وكان كل ٤ او ٥ خانات (جمع خانه) تشكل "خانة عوارض" كان يوزع عليها المبلغ المطروح على "خانة العوارض" فان كان مثلا دينار وهو (٦٠) اقجه في القرن السادس عشر تحمله خمس عائلات كان نصيب الواحدة (١٢) اقجه.

فان كان خدمة عينيه كامداد الجيوش في سيرها بالميره، كانت اهل البلاد التي يمر بقربها الجيش في انتقاله تستعد فتخزن له ما يكفي لسد حاجته عند كل منزل ينزله وهذه الضريبه كانت تسمى "النزل" فمن كان قريبا شارك عينا ومن كان بعيدا من اهل ولاية نائيه شارك نقديا. فكان يوزع على "خانة العوارض" تحت اسم "نزل اوسورصات" مقدار معين من حنطه وشعير ودقيق. تجمعها اهل "الخانه التي تتكون كما نوهنا به اعلاه من ٤ او ٥ عائلات وتؤديها الى من سيقوم بنقلها الى المنزل الذى سينزله الجيش.

أما خانة العوارض التي في بلاد بعيده فانها كانت تشارك بها نقديا فكانت تدفع قيمة ما على خانة العوارض من قمح وشعير ودقيق... وتكون هذه المبالغ، مبالغ احتياطيه تستخدمها الدولة في شراء الذخيرة اذا لم تف بالحاجه ما يجلبه القريب من الطريق من السكان.

وان كان الضريبه بدنيه كخدمة التجذيف في الاغربه فان البعض كان يشارك فيها بدنا والبعض يشارك نقديا بالانفاق على من يشارك فيها بدنا. فكانت مثلا كل ٥٠ عائلة تخرج مجذفا وكان الباقي ينقدونه ما ينفق به على نفسه في خدمته.

القلم الرابع) يجمع الضرائب المعتاده الحاصله في عامها وثمة بقية من ضرائب تعود لأعوام خوالي. ومجموع جباية هذا العالم بلغت ١٩ ١٥٤ ١٠٨ بارات. تفصيلها:

١) من المقاطعات ١٣ ٠٢١ ٨٨٤ باره ليس لدينا ارقام عن ما كانت عبارة هذه المقاطعات في هذا العام ولكن نستطيع الرجوع الى الجدول رقم اثنين لنحصل على فكرة في هذا الصدد. ولدى تصفحه سوف يرى ان منها شيء كان يحصل من التجارات والصناعات من مقاطعات المدن وشيء من ضريبة على الرؤوس وهي الجزية نرى ان الدفتر دار افرزلها فصلا على حده هو الفصل الثاني واما الباقي وهو المعظم فليس الا ضرائب زراعيه من عشور ورسوم...

(ايضاحات شفاهيه عن الضرائب الزراعية ورجوع الى الجدول رقم ثلاثة)

وفي الفصل الثاني يفصل الدفتر دار عن ما تم جبايته من جزيه الاعوام السوالف والعام الحاضر وشيء من العام التالي. اذ ان الجزية ضريبه تجبى على

حساب السنة القمرية. والميزانية ميزانية سنة خراجيه تمتد على سنتين هجريتين.

اما الفصل الثالث فانه يحوى مبلغ الرسوم التي كانت تحصل عندما يعطى لصاحب التيمار «براءه» تخوله حق التصرف في تيماره رسميا وقد بلغ مقدار ما جبى من ذلك ٧٣ ٦١٢ باره ومنه اشياء تعود لسنين ماضيه.

اما الفصل الرابع فهو تفصيل دخل يحصل عن تفاوت سعر العمله. قد يجدر ان نقول انها ضريبه تجبى من العمله فان الخزانة اذا ما استوفت ضريبه ما نقدا ذهبيا او «بادشاهي» او «غرشا» فانها كانت تحسب سعر العمله بسعر منخفض فمثلا كانت تجبي الخزانة الذهب بسعر ٧٨ باره فاذا ما دفعت للجند رواتبها او اشترت من السوق حاجيات دفعت الدينار على ان سعره ثمانين باره.. وكذلك «الغروش» وهو عمله اجنبيه في ذلك العهد.

اما الفصل الخامس فانه يفصل عن اموال متفرقه، عارضيه في الغالب. (ايضاح ما يقتضى ايضاحه شفاها عند كل مادة).

المصاريف

وتكون مصاريف الولاية (ثلاثة اقلام)

١) الرواتب وكانت تسمى «بالمواجب» او «العلوفه» اذا كان المقصود منها ما يؤدى للجند وكانت تؤدى على حسب السنة القمرية كل ثلاثة شهور مرة يدعى كل منها قسطا (قسط: مصر، رجج، ورشن ولذذ) اما رواتب الموظفين في ديوان الشام فكانت تؤدى شهريا وتدعى «ماهيه» اوشهرية» وكان امير الامراء يتقاضى راتبه سنويا ويسمى (ساليانه) والميزانية لا تذكر رقمه وهو مليون ومائه الف اقجه لانه كان يحصل عليه من اقطاعه. وما الميزانية الا حاصل ومصروف الخواص السلطانية.

والباب الثاني: يفصل النفقات الذى كان الدفتر دار يذكرها تحت اسم «الاخراجات» وقد بلغت ٧ ٢٩٣ ٨٠٢ باره، صرف معظمها لنفقات مخزن مطبخ الحج ومصاريف استقباله واجور جمال للنقل... بلغت ٦ ٦٠٦ ٤٦٨ باره وصرف الباقي وهو ٦٨٧ ٣٣٤ الى مصاريف متفرقة منها لشراء حاجيات للمطبخ السلطاني (سكر نبات وزبيب..) ومصاريف

اخر لا نجد من بينها الا في الماده الاولى ما ينفق في الاعمار، كان ترميم بعض المباني الاميرية اذا صح ان يقال انه اعمار.

وقد بقي بعد ذلك ٣١٦ ٨٥٧ ٩ باره

انفق منه ما تفصيله في الميزانية في الماده الرابعة منه نفقات ترميم جسر عامر على طريق الحج ومصارف بناء قلعة على الساحل هي قلعة عيون التجاره

أما ما كان يقتضى نقله الى خزانة استانبول وكان يتركب من ٠٠٠ ٧٢٠ بادشاهي وهي عمله مماثلة للشاهي الايراني كان الناس يصرون على تسميتها ب "شاهي" يبلغ قجه الواحد منها عشر اقجات فيبلغ ثمنها ٠٠٠ ٢٠٠ ٧ اقجه. بينما ميزانية الدولة لهذا العام تفيد عن انها كانت ٤٠٨ ٣٢٣ ٧ اقجه. ولا يسهل تعيين الفرق الذى كان ضمنه لما ارسل الى الحدود الايرانية للحصول على هذا الرقم.

الدخل الكامل لولاية الشام

الميزانية، كما يستبان هي دخل السلطان او بالحرى الخواص السلطانية فهي بهذا لا تجمع كل دخل الولاية. فدخل الولاية لا تحصل عليه الا بضم الاقطاعات وما كان يحصل للاوقاف. وفي الجدول رقم ثلاثة ملخص دخل الشام لسنة ٣٢ هجرية.

مقاطعات ولاية الشام

جدول رقم (٢)

مقاطعة	الملتزم	سنة	لمدة	الالتزام		في سنة	
١ ـ دار الضرب (الذهب والفضة والفلوس)	خواجه عبيد ومحمد بن مزيد ام	٩٧٠	٤ سنين	٠٠٠	٢٨٧	٧٥٠	٧١
٢ ـ احتساب الشام والصالحية	محمد بن علي ومحرم.. م	٩٦٩	٤ =	١٧٠	١١٩٨	٥٤٢	٢٩٩
٣ ـ قبان خان الليمون ودار البطيخ	محرم وعبد العزيز.. م	٩٦٩	٣ =	٠٠٠	١٦٥٧	٦٦٦	٥٥١
٤ ـ باج سوق الغنم	علي درار ا	٩٦٩	٣ =	٢٨٠	٦٨٥	٤٢٦	٢٢٨
٥ ـ رسم ميزان الحرير	عمر البخارى	٩٧٠	٥ =	١٧٠	٨٨١	٢٣٤	١٧٦
٦ ـ جمرك الشام	عمر ومقصود	٩٦٩	٥ =	٤٦٠	٣٨٦	٢٨٢	٧٧
٧ ـ باج سوق الخيل	عمر وزكريا	٩٧٠	٣ =	٠٠٠	٢٢٠	٣٣٣	٧٣
٨ ـ مصبغة الشام	حاجي مقصود وزين العابدين	٩٧٠	٣ =	٠٠٠	١٦٣	٣٣٣	٥٤
٩ ـ باشخانه (رواسين)	عيسى ويوسف	٩٦٩	٣ =	٢٠٠	١٦٨	٠٦٦	٥٦
١٠ ـ طاحون داخل القلعة	حاجى علي	٩٧١	٣ =	٠٤٠	٥	٦٨٠	١
١١ ـ باج سوق الغله	عاشور (سوباشى)	٩٦٩	٣ =	٠٠٠	١٤٤	٠٠٠	٤٨
١٢ ـ باج سوق (خان) الاسرى	بروانه م	٩٦٩	٣ =	٧٠	٢٤	٣٥	٨
١٣ ـ المحبس	بروانه	٩٦٩	٣ =	٠٧٠	٩٨	٩٢٠	٣٢
١٤ ـ دلالية سوق السماق	تاج الدين	٩٦٩	١ =			٠٠٠	١١
١٥ ـ حمام الغزالي في الشام	علاء الدين	٩٦٩	٣ =	٠٠٢	١٥	١٠٤	٥

١٦ ـ باج بهاء قافلة الحج الشريف عمر بن عبد العزيز		٩٧٠	٣	=	٠٠٤	٢١٥٨	٦٠١	٧١٩
		)	٤	=	٠٠٤	٣٣٧٨	٨٠١	(٨٤٤
١٧ ـ باج اغفار في اطراف الشام	عمر، علي وشركاه	٩٧٠	٣	=	٠٠٠	٨٥٣	٣٣٣	٢٨٤
١٨ ـ خواص المرج والغوط	محمد وعبدى	٩٦٩	٤	=	٣٧٤	٢٤٩	٥٩٣	٦٢٣
خواص اقليم الزبيب	=	=	=	=	١٩٤	٩٤	٧٩٨	٢٣٥
اوقاف ابرى	=	=	=	=	٨٩٣	١	٤٧٣	٤٤
خواص نواحي حوران	=	=	=	=	٠٠٠	٠	٢٥٠	١٦٢
١٩ ـ خواص الزبداني ووادى بردى	محمد بن سفر	٩٧٠			٠٠٠	٤٣٩	٣٣٣	١٤٦
٢٠ ـ خواص عرقوب	درويش جلبي، زعيم	٩٧٠	٣		٠٠٠	١٣٣	٣٣٣	٤٤
٢١ ـ = وادى اليتم	اسماعيل، سوباشى	٩٦٩	٣		٥٧١	٥٩٢	٥٢٣	١٩٧
٢٢ ـ = كرك نوح	محمد بن حنش	٩٦٩	٣		٠٠٠	٩٤٦	٣٣٣	٣١٥
٢٣ ـ = شرق البياض وخماره	= وشركاه	٩٦٩	٣		٠٩١	١٠٦٧	٦٩٧	٣٥٥
٢٤ ـ خواص بعلبك	محمد، بياده (ماشى)	٩٦٩	٣		٢٣٥	٢٦٦١	١٠٩	٩٥٥
		٩٧٤	٣		٥٤٠	٢٥٣٩	٥١٣	(٨٤٦
٢٥ ـ خواص قارا وقلمون وجبه العسال	محمود، جادرجي (خيام)	٩٦٩	٤		٠٤٨	١١٣١	٧٦٢	٢٨٢
٢٦ ـ مملكة تدمر	احمد بن محسن	٩٧٠	٣		٥٠٠	٧٦٠	٥٠٠	٢٥٣
٢٧ ـ زعامت قايتباى (قرية حرود ومزارع	(ـ)	٩٧٠	١		٠٠٠	٧٠	٠٠٠	٧٠

٢٨ ـ خواص الحولا (الحولة) والشعراء	علي صفدى	٩٦٩	٣	...	٨٩٩	٦٦٦	٢٩٩
٢٩ ـ خواص عرب تابع قضاء بيروت	محمد بن شرف الديـن واسماعيل	٩٦٩	٣	٤٢٠	١٢٣٣	١٤٠	٤١١
٣٠ ـ خواص حرد ومتن تابع قضاء بيروت	احمد	٩٦٩	٥	٢٠٠	١٨٥٩	٨٥٠	٣٧١
٣١ ـ خواص جبل كسروان	منصور	٩٦٩	٥	—	٨٧٠	...	١٧٤
٣٢ ـ اوقاف ابراج بيروت	منصور	٩٧٠	١	٦٦٦	١١٤	٦٦٦	١١٤
٣٣ ـ مقاطعات منفرده في بلدة بيروت	فرهاد ومحمد..	٩٦٩	٣	٢٠٠	٢٥٧	٤٠٠	٨٢
٣٤ ـ اسكلة (ميناء) بيروت	حدر يهودى ومحمد	٩٧٠	٣	٢٨٥	٨٢٩	٤٢٨	٢٧٦
٣٥ ـ فائدة ملح بيروت وعكا وصيدا	= =	٩٧٠	٦	...	١١٠٠	٣٣٣	١٨٣
٣٦ ـ خواص صيدا	محمد بك	٩٦٨	٤	...	٢٠٣٢	...	٥٠٨
٣٧ ـ شوف ابن معا (معن) في قضاء صيدا	= =	٩٧٠	٣	٥٠٠	١١٩٥	٥٠٠	٣٩٨
٣٨ ـ عوائد اغنام تركمان واراد ولاية الشام	علي برالو، زعيم	٩٧٠	٤	٩٤٦	١٥٨٥	٤٨٦	٣٩٨
٣٩ ـ خواص شقيف وطبرية وعكا ومقاطعات نفس صفد.	خسرو بك، زعيم	٩٧٠	٦ سنين	٩٥٤	٤٩٧٩	٩٩٢	٨٢٩
٤٠ ـ خواص حره ومساك في لواء صفد	درويش محمد بك	٩٧٠	٤	...	٣١٧٦	...	٧٩٤

٤١ ـ خواص غزه ورمله والقدس الشريف	ولي جرى باشى	٩٧٠	٥	٦٦٥	٣٠٣٦	٣٣٣	٦٠٧
٤٢ ـ خواص لواء نابلس	سمندر بك بلحدار	٩٦٩	١	٢٧٦	٥٨١	٢٧٦	٨١
		٩٧٠	٤	ـ	١٤٨٠	...	٣٧٠
٤٣ ـ خواص ناحية بني صعب تابع لواء نابلس	يوسف جبوش	٩٧٠	٤	...	١٠٠٠	...	٢٥٠
٤٤ ـ وسوم النور (عربتان) وال (حرصان) وحدادين النمس	بيرى وخضر	٩٧٠	٣	...	١٠٠	٣٣٣	٣٣
						٦١٢	١٢٢٠٠
٤٥ ـ جزية نصارى (كبران) ولاية الشام وجزية اليهود.	الياس كتخدا، زعيم	٩٧٠	١	١٠٦	٥٦٨	١٠٦	٥٦٨
	(سنة ٧٥ مع ترقي جلوس السلطان		١	٤١٤	٦٢٩)		
٤٦ ـ جزية نصارى ويهود القدس الشريف وغزة ورملة ونابلوس (نابلس)	مصطفى كتخدا	٩٧٠	٢			٣٢٠	٦٤٠
٤٧ ـ جزية نصارى ويهود نواحي صفد	محمد، نجم زاده	٩٧٠	١	٥٦٢	٢٥	٥٦٢	٢٥
٤٨ ـ مقاطعات لواء جبله وحمص مما قصى عن لواء حلب والحق بلواء الشام.							
خواص جبله ونواحيها	حسن بن محمد ملتزم	٩٧٣	٤	٢٨٠	٤٨٦٥	٣٢٠	١٢١٦
خواص اللاذقية	محمد بن محمد	٩٧٢	٤	...	٢٤١٦	...	٦١٤

خواص حصن الاكراد	يوسف بن ادرنكى وابراهيم	٩٦٩	٣	٤٨٧	١٦١٣	٨٢٩	٥٣٧
خواص صافيتا	يونس، تيمارى	٩٦٩	٣	٧٢١	١٠١٠	٢٤٠	٣٧٠
						٩٨٩	١٦١٧٢

جدول رقم (٣)
ولاية الشام في سنة ٩٣٢ هجرية

حساب ما كانت تغله الشام
دخل لواء الشام فقط

قرى	٨٤٤
مزارع	١ ٢٨٣
مكلفين باداء ضريبة العوارض (خانة)	٣ ٤ ٣٤٥
معافين من العوارض[١]	٤ ٣٢٧
الدخل من الاموال المتفرقة من مقاطعات بلدة الشام	٣ ٤٧٨ ٣٩٠
دخل قرى وباقي بلاد للواء	٦ ٤٥٢ ٨١٦
عوائد من دوره وخدمات وما الى ذلك	٤٧٩ ٤٩٢
حمايات	١٨٥ ٢٦٢
اعشار الاوقاف والاملاك الحاصلة من كل اللواء	٣٩٤ ٨٩٧
حاصل قطع اراضي وبساتين من توابع الغوطه وحاصل الدكاكين والخانات وحاصل عن المحاكرات في لواء الشام	١ ٦٦٣ ٨٠٨
الجمع	١٢ ٦٥٧ ٦٦٥

عوارض	غير
٩ ٥٨٤	٨٣٩

الحاصل منها في دمشق السكان	(خانة)	٣ ٤٧٨ ٣٩٠ أقچه
حاصل عن قطع من الاراضى		١ ٦٦٢ ٨٠٨
غفاره عرب ال علي في ناحية المرج والغوطه		١٢ ٣٩٥
معاديه		٧ ٨٠٣
حاصل من نواحي الشام.		

	قرى	مزارع	خانه	خطباء	..حاصل اقجه
١ ــ ناحية الغوطه	٧٩	١٣٤	٢٤٦٢	٣٤٧	٨٢٣ ٨٤٩
٢ ــ جبه العســال وفارا	٥٤	٥١	٣ ٢٥٥	٥٠٣	٤٨٥ ٨٣٩
٣ ــ بعلبك	٣٥	٨٥	٢ ٧٣٨	٣٣١	٥٠٢ ١٣٨
٤ ــ المزه وشــوف الحرادين من البقاع	٤٤	٣١	١ ٠١١	٢٢٠	٣٣٢ ٢٩٠
٥ ــ كرك نوح	٣٧	٥٤	١ ١٢٩	٢٤٤	٤٣٣ ٤٤٥
٦ ــ خمــاره وشوف البياض	٣٩	٢٩	١ ٧٥٨	١٩٦	٣٦٧ ٩٨٩
٧ ــ صيدا	٦٨	٢٠٧	١ ٦٧٧	١٢٧	٥٤٥ ٥٧٦
٨ ــ وادى التيم والحوله	٥٠	٦٦	٩١٤	١٩٥	٢٦٦ ٦٧٦
٩ ــ الزبداني ووادى بردى	٣٦	٢٧	٩٣٢	١١٤	٢٥٧ ٢٠٠
١٠ ــ اقليمي الداراني والبلان	٢٤	١٣	١ ٢١٥	٢٧	٢٦٧ ٦٩٦
١١ ــ الشعراني واقليم الزبيب	٤٠	٣٦	١ ٠٤٧	١٦٢	٢٥٣ ١٦٦
١٢ ــ وادى العجم	٣٠	٣١	٤١١	١٢٧	١٥٦ ٩٨٦
١٣ ــ حوران	١٦٥	٢٩٣	١ ٩٥١	٣١٥	١ ٠٩٣ ٩٣١
١٤ ــ شوف ابن معن	٤٨	٤٢	١ ٤٣١	١٥٨	٤ ٣٥ ٦٨٩
١٥ ــ ناحية عرب بيروت	٣٠	٦٠	١ ١١٠	٤٢	٤٤٥ ٧٤٤
١٦ ــ ناحية جرد	٢٠	١٧	٣٥٥	٩٥	١٧٣ ٥٢٧
١٧ ــ = المتن	١٦	٦	٣٣٣	٣١	٢١٠ ٠٦٢
١٨ ــ = بيروت	١	١٩	٥٤٠	٢٩	٣٨٠ ٤٥٢
١٩ ــ = كسروان	٢٩	٩٢	٥٨٧	٧٥	٨٠ ٠٠٥
المجموع					١٢ ٦٥٧ ٦٦٥

منها:

خواص سلطانية	٥ ٢٨٠ ٨٩٠
= امير امراء الشام	١ ٠١١ ٣٧١
= زعامات وتيمارات	٢ ٣٧٨ ٢٠٠
زعما ٩ حاصل	٢٦٤ ٩٩١
تيماريين ٤٣٢ =	٢ ٠٧٣ ٩٨٩
ال ابو علي	١١ ٠٢٠
حصص الاوقاف والاملاك	٣ ٩٨٧ ٧٦٠
وقف مدارس ومساجد	١ ٥٣٢ ٥٠٤
وقف ذريه	٢ ٤٥٤ ٧٦٠
طاحون موقوف على جهات البر	٢٣ ٢٢٠

	قرى	مزارع	خانه	مجر	حاصل
محصولات نواحي غزه	١٠٨	١٥٤	٣ ٤٦٦	٦٩٠	٨٥٩ ٣٧٨
الرمله	٤٤	٢٢	١ ١٧٢	٢٤٥	٣٤٧ ٩٢٤
القدس والخليل	١٤٧	٩٨	٢ ٥٠٠	٢٠٥	٨٩٠ ٣٣٠
المجموع	٢٩٩	٢٤٧	٧ ١٣٨	١ ١٤٠	٢ ٣١٠ ٦٨٦

الاموال: الخواص السلطانية	٨ ٠٠٠	
امير اللواء	٥٥٠ ٧٦٢	
زعما ٤	١٤٨ ٩٥٧	
تيماريين ١٦٠	٧٣٤ ١٢٨	
مواجبات	٧ ٠٨٠	
تيمار عرب السوالم وبني عطا	٢٦ ٠٨٠	
اوقاف واملاك	٨٣٥ ٦٧٩	
اوقاف مدارش ومساجد	٧٣١ ٧٨٤	
اوقاف ذرية		١٠٣ ٦٣٧

محصولات لواء صفد

نفس	قرى	مزارع	خانه	مجرد	
١	٢٥٩	٥١٧	٥٠٠٠	٣٨٦	٢ ٢٧٩ ٧٤٨
الصلت (السلط) وعجلون	٢	١٠٣	ــ	ــ	٤٦٧ ٧٢٣

جمع المجاميع لواء الشام وصفد وغزه والسلط وعجلون	١٧ ٧٤٢ ٠١٧
خواص سلطانية	٦ ٠٤٦ ٠٣٩
امير امراء الشام وامراء الالوية	٢ ١٠٧ ٥٧٥
مواجب دفعت بموجب حكم همايوني	٣٠ ١٨٠
زعامات عدد ١٦	٤٦٩ ٣٣٧
تيمارات عدد ٧٥٠	٣ ٨٢٩ ٩٢٧
= عربان	٣٧ ١٠٠
اوقاف واملاك ودخل بعض الاراضي والاحكار والدكاكين	٥ ١٠٩ ٧٥٩

المصدر: ارشيف رئاسة الوزراء باستانبول دفاتر الطابو رقم ٩٩٨ ص ٢٦٨ وص ٢٩١.

اجمال واردات ونفقات خزانة الشام العامرة عمرها الله تعالى الى يوم الآخرة في عهد ولاية حضرة حسن باشا امير أمراء ولاية الشام وناظر الاموال الخاصة فيها وبمباشرة سيف الله افندى الدفتردار السابق والفقير احمد الدفتردار الحالي للولاية المارة الزكر ابتداء من مطلع النوروز المصادف في السادس عشر من صفر الخير سنة ٩٩٠ الى مطلع النوروز المصادف في السادس والعشرين من صفر الخير لسنة ٩٩١.

اصل المال اى مجموع الواردات الحاصلة في مدة سنة كاملة بالاضافة للبواقي	٢٢ ٠١٠ ٧٠٨
١ ــ حاصل بمعرفة حضرة حسن باشا ناظر الاموال الخاصة وسيف الله افندى الدفتردار السابق من ١٦ صفر ٩٩٠ الى ١٤ محرم ٩٩١ في احد عشر شهرا	١٢ ٢٣٧ ١٤٨
٢ ــ حاصل بمعرفة حضرة المشار اليه والفقير احمد الدفتردار الجديد من ١٥ محرم ٩٩١ الى ٢٦ صفر من السنة نفسها في ظرف شهر واحدى عشر يوما	٩ ٧٧٣ ٥٦٠

مفردات الواردات

البند	المبلغ
ا ـ حاصل عن بقايا محاسبة سيف الله افندى الدفتردار السابق العائدة للفترة الواقعة بين مطلع نوروز ٩٨٩ المصادف ل ٤ صفر الى مطلع نوروز ٩٩٠ المصادف ل ١٦ صفر	٢٥٤ ١٦٨
ب ـ حاصل عن بيت المال الخاص والعام في الشام نفسها وفي طريق الحج الشريف	٨٦٠ ١٨٤
ج ـ حاصل عن عوارض ولايتي الشام وطره بلوس (اى طرابلس الشام)	١ ٠٠٦ ٦٥٢
د ـ الجبايات	١٩ ٨٨٩ ٧٠٤
١ ـ عن بقايا السنين الماضية	٧٣٥ ٥٩٦
١) عن واجب سنة ٩٨٥	٥٩ ٥٢٠
٢) عن واجب سنة ٩٨٦	١ ١٠٨ ٦٦٤
٣) عن واجب سنة ٩٨٧	٥٦٥ ٤٨٠
٢ ـ الجبايات الجديدة من اموال العام الحالي من أموال المقاطعات والرسوم والجزية وتفاوت أسعار العملة وما سوى ذلك من الاموال المتفرقة	١٩ ١٥٤ ١٠٨
ا) جبايات اموال المقاطعات	١٣ ٠٢١ ٨٨٤
١) عن واجب سنة ٩٨٨ وشهريات سنة ٩٨٩	٧ ٩٨١ ١٥٠
٢) عن واجب سنة ٩٨٩ وشهريات سنة ٩٩٠	٢ ٠٨٦ ٥٣٢
٣) عن واجب سنة ٩٩٠ وشهريات سنة ٩٩١	٢ ٩٥٤ ٢٠٢
ب) عن جباية جزية كبران (نصارى) ويهود الشام	١ ٣٥٤ ٢٨٦
١) عن واجب سنة ٩٨٤	٣٥ ٦٢٤
٢)عن واجب سنة ٩٨٨	٥٠ ٠٢٤
٣) عن واجب سنة ٩٨٩	٢٥٩ ٩٠٢
٤) عن واجب سنة ٩٩٠	٨٨٨ ٥١٦
٥) عن واجب سنة ٩٩١	١٢٠ ٢٢٢
ج) عن جباية رسوم البراوآت	٧٣ ٦١٢

١) عن واجب سنة ٩٨٩	٤ ٤٠٤
٢) عن واجب سنة ٩٩٠	٦٠ ٢٨٦
٣) عن واجب سنة ٩٩١	٨ ٩٢٦
د) عن تفاوت سعر العمله من باره وبادشاهي وغروش ونقد مزيف وحسنة (أي الدينار الذهبي)وبقايا من ذهب	٢ ٤٦٧ ٩٤٠
١) عن زمن دفتردارية سيف الله افندى الدفتردار السابق	١ ٢١٩ ٢١٨
ـ دخل الخزانة بموجب محاسبة المذكور	٧٥٧ ٥٥٠
دخل الخزنة بموجب محاسبـة المذكور طاهر بن (ـ)	٥٤١ ٦٦٨
٢) عن زمن ولاية حضرة حسن باشا ودفتردارية حضرة أحمد افندى	١ ١٦٨ ٧٢٢
هـ) حاصل عن الاموال المتفرقة	٢ ٢٣٦ ٢٨٦
١) حاصل عن زوائد الاوقاف السلطانية	٢٥١ ٩٦٤
٢) الباقي عن كراء جمال انكشارية الشام الذين صدر الامر بالتحاقهم بالجيش المرابط على الحدود الشرقية سنة ٩٨٩ وعن كراء جمال من رجع منهم الى حلب ومنها الى الشام	٨٢ ٨٥٠
٣) ثمن الحرير الشمطي الذي بيع عن قبل الخزانة في العام الخالي	٧ ٩٠٢
٤) باقي عن مواجب (رواتب) انكشارية الشام	١٤ ٤١٢
٥) حاصل عن نظارة ما كانت نظارته تعود للميرى من اوقاف مساجد وجوامع الشام	٢٧ ٦٤٤
هـ ـ عن الاموال المتفرقة (٦٦و٢٧٩٥٤ سكة حسنة بسعر ٨٠ باره)	٢ ٢٣٦ ٣٨٦
١) حاصل زوائد اوقاف السلاطين	٢٥١ ٩٦٤
٢) باقي كراء جمال الانكشارية الشام الذين سبق ان امروا للاشتراك بالحملة المعدة لديار الشرق (ايران)	

سنة ٩٨٩ وكراء جمال الذين ذهبوا الى الصلت (السلطة) وعادوا الى الشام		٨٢ ٨٥٠
٣) ثمن الحرير الشمط الذي سبق ان بيع من قبل الخزانة في العام السابق		٧ ٩٠٢
٤) بقايا مواجب (رواتب) انكشارية الشام		١٤ ٤١٢
٥) حاصل نظر اوقاف جوامع ومساجد الشام الشريف مما تعود نظارته للميرى		٢٧ ٦٤٤
٦) حاصل حصص موقوف بعض القرى والمزارع		٤ ٢٨٠
٧) راس مال دار ضرب الشام الذي تم توزيعه على السوقة في الشام في زمن محمد جلبي ناظر الاموال الخاصة		٢٣ ٢٤٠
٨) الفاضل عن اثمان عليق الدواب الاميرية المعدة لركوب رفاق طريق والده محمد اللاتي جئن الشام في سنة ٩٩٠ لاجل خان التتار مع بقايا كراء الجمال		٧ ٥٧٦
٩) بقايا اخراجات كيلار طريق الحج الشريف في سنة ٩٩٠		٣٤ ٤٥٨
١٠) الحاصل عن (ما بين) خواص امير امراء الشام		٤٨٩ ٣٩٤
١١) الفاضل من اشتراك خزانة حلب في نفقات (مخزن مطبخ) الحج الشريف في نقداً سنة ٩٩٠		٣٥ ٥٢٠
١٢) مال «ما بين» محكمتي صفد وقارا		١٣ ١٠٦
١٣) جباية ضريبة «العوارض» عن يد بعض قضاة ولاية الشام		١ ١٥٦ ٤٥٤
عن سنتي ٩٨٧ و٩٨٨	٦٤ ٤٧٨	
عن سنة ٩٨٩	١ ٠٩١ ٩٧٦	
١٤) عن حاصل صرف وتحويل نقود الخزانة الفضية الى نقد ذهبي في زمان الدفتردار بين السابقين مما تم تحويله حاليا		٨٢٥ ٤٦٨
عن محاسبة خسروبك في سنة ٩٨٧	١٤٢١٠	
عن محاسبة الدفتردار محمد بك وعن قائم مقامه مصلح الدين عن ١٣ محرم، سنة ٩٨٨ الى غاية هذه السنة بنفسها	٦٨٣٣٦	

وضع من ذلك (النفقات) ١٢ ١٥٣ ٣٩٢

البيان	المبلغ
ا ــ المواجب (الرواتب)	٤ ٨٥٩ ٥٩٠
١ ــ مواجب غلمان الباب العالي القائمين بخدمة خزانة الشام	٨٠ ٧٨٢
٢ ــ مواجب تلامذة كتاب خزانة الشام والصيارفة والكتاب	٦٨ ٧٣٨
٣ ــ مرتبات المتقاعدين ونفقات من ينفق عليهم من مال الجوالي	٥٨١ ١٦٨
٤ ــ مواجب جماعة انكشارية الشـام واولاد الانكشارية والأغا	٢ ٤١٥ ٩٠٤
٥ ــ مواجب حامية القلاع من مستحفظ وبشلو	١ ٧١٢ ٩٩٨
ب ــ الاخراجات (النفقات)	٧ ٢٩٣ ٨٠٢
١ ــ نفقات مطبخ طريق الحج الشريف مع كراء جمال الحج الشريف في سنتي ٩٨٩ و٩٩٠ ونفقات استقبال الحاج في سنة ٩٩٠	٦ ٦٠٦ ٤٠٨
١) نفقات مخزن مطبخ طريق الحج الشريف في سنتي ٩٨٩ و٩٩٠ ونفقات استقبال الحجاج في سنة ٩٩٠	٥ ٩١١ ٧٢٢
ــ عن سنة ٩٨٩	١ ٠٢٦ ٣٣٠
ــ عن سنة ٩٩٠	٤ ٨٨٥ ٤٩٢
انفق من التزام امير الحاج قانصويك بموجب حجة مولانا احمد افندى قاضي الشام ٥٠٠٠٠ سكة حسنة	(٤٠٠٠٠٠٠)
ما انفق زيادة عن التزام المذكور حسب روزنامة خزينة الشام ١١٠٦٨ سكه حسنة و ٥٢	(٨٨٥ ٤٩٢)
٢) نفقات استقبال الحج الشريف سنة ٩٩٠ بمعرفة من «بروانه» امير العلم الكتخداء ورئيس المستقبلين	٦٩٤ ٧٤٦

ـ ما انفق حسب محاسبة بروانـه القائـد للمستقبلين الكتخداء السابق الذكر ٦١١٧ حسنه و٤٤	(٤٨٩ ٤٠٤)
ـ الفاضل عن محاسبة سنة ٩٨٩ ٢٥٦٦ حسنة و٦٢	(٢٠٥ ٣٤٢)
	٦ ٨٧٣ ٣٤٩

ج ـ نفقات متفرقة

١ ـ نفقات ترميم بعض الابنية الخاصة الموجوده في الشام الشريف في سنة ٩٩٠ مع باقي نفقات سنة ٩٨٩	٩٤ ٠٩٠
٢ ـ اثمان السكر النبات والزبيب والمشمش والفستق الذي كان يرسل عادة الى مخزن مطبخ القصر العامر في استانبول مع اجور الجمال من اجل نقلها واجور نقل خزانة الشام (المعبر عنها بالارسالية) الى الخزانة العامرة (في استانبول)	٣٢٥ ٥٨٠
٣ ـ نفقات معتادة على من يقوم بمحافظة حوران من انكشارية الشام	١٣ ٧٦٠
٤ ـ نفقات معتادة تنفق على دار شفاء حضرة نور الدين الشهيد قدس سره العزيز	٣٦ ٠٠٠
٥ ـ اثمان ما كان يخلع من خلع على الامناء والنظار وغيرهم وقيمة خلعة امير الحاج	٨٧ ١٤٠
٦ ـ اداء قيم مخلفات بعض الناس	٦ ٧٣٠
٧ ـ اثمان قراطيس واكياس واجور تجليد الدفاتر	٣ ٣٥٤
٨ ـ صلة مبشر الحاج القادم من «علا»	٨٠٠
٩ ـ اجور نقل الملح الاميرى من صيدا الى الشام واجور نقل ملح البارود	٩ ٢٨٠
١٠ ـ ثمن مراهم «المعلم محمود» جراح طريق الحج	٣ ٢٠٠
١١ ـ ثمن النحاس المعد لصك الفلوس في دار ضرب الشام ونفقات الصك	٢٩ ٤٨٠
١٢ ـ قيمة الرصاص (الاسرب) المعد لسكب البندق (فندق) لال بنادق الانكشارية	٢٤ ٠٠٠

البيان	المبلغ
١٣ ــ نفقات صك «بادشاهي» و «حسنه» من النقود سنان باشا التي اقتضى صكها من جديد لكونها مغشوشة مع حق النار (اي قيمة المقدار الذي يضيع لدى اذابة الذهب والفضة) وما سوى ذلك	٤٥ ١٢٠
١٤ ــ قيمة الملح البارود الابيض	٤٨٠
١٥ ــ اداء المبالغ التي تم استدانتها من التجار من اجل مخزن مطبخ الحج الشريف في سنة ٩٨٨ في طريق الحج	٤ ٠٠٠
د ــ الباقي	٩ ٨٥٧ ١٣
١ ــ ارسالية الى استانبول	٩ ٤٥٨ ٤٢٦
ا) دفع من مال الارسالية بمقتضى احكام شريفة	٢ ٢٥٨ ٩٢٦
با) مال تصدق به السلطان مالك رقاب الانام خلد الله تعالى خلافته وابقاه على فقراء مكة المكرمة والمدينة المنورة ولقدس الشريف وحلب ومواجب السيد جعفر المحدث ومواجب تلاميذه	٢٧٨ ٥٦٠
بب) اجرة كبابيت حرير شمطي اقتضت للمصنع (الكارخانه) الخاص الهمايونى	٢ ٤٠٠
بج) ترميم وعمارة جسر «عين حصا الواقع» على طريق الحج الشريف في سنة ٩٩٠	٣٢ ٢٨٨
بد) كراء جمال والدة جناب محمد كراي خان، خان تاتار القرم لما عزمت للحج وما انفق على مهامها الباقية في سنة ٩٩٠ مع اثمان عليق الدواب الخاصه	٣١٤ ٦٥٨
به) ما انفق على بناء قلعة «عيون البحار» التي أمر ببنائها (في صيدا على الساحل) سنة ٩٩٠	١٣٣ ٥٧٠
بو) اثمان ما شرى من تفتاء ملونه للمصنع (الكارخانه) الخاص الهمايوني	
بز) كراء جمال انكشارية الشام ونفقات عليقها عند ما اقتضى التحاقهم بالجيوش الهمايونية المرابطه على حدود ايران سنة ٩٩٠ مع اجور السقائين وغير ذلك من النفقات التي اقتضتها الحملة بمقتضى امر عالي	١ ٤٢٤ ٠١٦

٢) مال ارسل نقدا الى جنات الدستور المكرم والمشير المفخم حضرة الوزير فرهاد باشا قائد العساكر العثمانية المنصوره في الحملة على ايران وكان مرابطا في ارضروم (والمبلـغ عبـارة عن ٧٢٠,٠٠٠ بادشاهي سعر البادشاهي منها ١٠ بارات ويعادلها ذهبا ٩٠٠٠٠ سكة حسنة (اى دينار)	٧ ٢٠٠ ٠٠٠
٢ ـ صح الباقي	٣٩٨٣٩٠
١) موجود منها في خزانة الشام	٢٣٥ ٦٣٠
٢) ديون	٦٠ ٧٨٠
با) في ذمة ابراهيم بك امير الكرك مما فضل عن نفقات ترميم جسر «عين حصا» على طريق الحج	١٦ ٨٠٠
بب) في ذمة بعض الناس مبالغ قبضوها لصرفها ذهبا	٣١ ٣٤٠
بج) قيمة قراطيس بيض قبضت عروضا عن اللبس السلطاني الموجود الان في قلعة الشام	١٢ ٦٦٠
٣) نص الباقي، الباقي حسب محاسبة سيف الله افندى الدفتردار السابق	١٠١ ٩٨٠

مستنسخ عن اصل دفتر المحاسبة المحفوظ في خزانة الشام العامرة والترجمة عنه

حواشي

١ ــ قانوننمه، محفوظ في مكتبة الفاتح (مكتبة السلمانية) رقم ٣٥١٤ ورق (١٠١) وكان يدخل في الدفاتر الخاقانية تحت اسم مفصل الشام وهو عبارة عن ثلاث مجلدات محتواها:
الاول وهو رقم ١٩٥ طبو.
الشام ونواحيها (الغوطة وحرج الطبلى وقلمون وجبه العسال ووادى الزبداني وقورنه وشوف الحرادين وشوف البياض والخماره ووادى التيم وعرقوب والحولة وشعرا واقليم الزبيب والبلان والداراني ووادى العجم).
والثاني وهو رقم ب ١٧٧ طبو
ناحية قار وبعلبك وكرك نوح وجبل كسروان وبيروت ومتن وجرود وغرب وصيدا واقليم تفاح والشومر وجريب واقليم خرنوب وناحية بئر ابن معن وشوف الخطيبي.
والثالث وهو رقم ٩٥ طبو.
جماعة التركمان وناحية بني كلاب وجيدور والجولان الشرقي والغربي والبطيحه وكفاران وبني عاتكه وبني نشيه وبني مالك الصدير وبني مالك الاشراف وبني كنانه وبني صرما وبني مقلد وبني عطيه وبثينه وبني يريمون وبني الاعسر وبني جهم وعربان الجبل وناحية تدمر.
وهذه المجلدات محفوظة في المديرية العامة للطابو والقاد سترو في انقرة.
ويظهر من نقلص دخل الولاية في القرن السابع عشر ان بعض هذه الالوية قد فصلت عنها اما ماليا فقط او ماليا واداريا. فبينما كانت اموال الشام المتوفر من المقاطعات والجزية «تبلغ اكثر من ٩٣٤ ١٩٧ غرشا اسديا، كانت خواص صيدا وصفد وبيروت والشوف تبلغ ٢٣٧ ٢١١ غرشا يصرف منها محليا ٢٦٣,٥ ٥٠ غرشا ويرسل الباقي وهو ٩٧٣,٥ ١٦٠ غرش الى استانبول[٢]. اما الشام فكما سنرى فان داخلها في هذا القرن كان يصرف محليا.

٢ ــ ارشيف رئاسة الوزراء دفاتر المالية رقم ٣٤٧٥.

٣ ــ عمر لطفي بارقان: هجري ٩٣٤ ــ ٩٣٥ تارخلي بدجة جدولي واكلرى (ميزانية سنة ٩٣٣ ــ ٩٣٤ هجرية وذيولها)، مجلة كلية اقتصاد جامعة استانبول المجلد الخامس عشر.

٤ ــ عمر لطفي بارقان: ميزانية سنة ٩٥٤ ــ ٩٥٥ هجرية (١٥٤٧ ــ ١٥٤٨ م) مجلة كلية اقتصاد جامعة استانبول المجلد التاسع عشر.

٥ ــ عمر لطفي بارقان: ميزانية سنة ٩٧٤ ــ ٩٧٥ (١٥٦٧ ــ ١٥٦٨) المجلة المذكورة والعدد المذكور.

٦ ــ ارشيف رئاسة الوزراء في استانبول دفاتر المالية رقم ٨٩٣ ص ٩.

٧ ــ راجع الجدول رقم (٢) ورقم (٣).

٨ ــ ائمة وخطباء وشرفا وشيوخ فانيه ومجردين (عزاب).

الحفريات الأثرية حول الحرم المقدسي

محمود العابدي
امانة العاصمة ــ عمان

موقع القدس

كان موقع القدس مسكونا منذ فترة الاستقرار والتحضر الاولى بدليل ما وجده المنقبون من نماذج الفخار التي وجدت في قبر على منحدر تل اوفيل (عوف ايل) جنوبي المدينة الحالية ــ ذلك التل الذي كان نواة للمدينة اليبوسية التي سبقت المدينة الاسرائيلية وقد ارجع العلماء هذا الفخار الى العصر البرونزي القديم (٣٠٠٠[١] ــ ٢١٠٠ ق.م) .

قامت القدس القديمة على تل الظهور (اوفيل) وهو موقع غير مناسب لمدينة يراد لها الاتساع اذ يلف حولها من الشرق وادي قدرون وينحدر بالتدريج للجنوب الشرقي ، وعرضه اقل من مئتي متر . ويجري فيه خلال الشتاء والربيع جدول ولكنه يجف في الصيف . ويتصل قدرون في الجنوب بوادي هنوم (جهنم) الذي يمتد الى الغرب نحو نصف ميل ثم يدور الى الشمال . واخيرا يتصل بوادي تريبيون (باعة الجبن) الذي يمتد شمالا وهكذا يكون موقع القدس القديمة محاطا من ثلاث جهات بالوديان ولا يتصل مع مستوى الارض الا من الشمال ، وهذا هيأ لها درعا واقيا من هجمات الاعداء . وهناك سبب اهم لاختيار هذا الموقع لمدينتنا هذه هو وجود عين العذراء (عين جيحون) على جانب وادي قدرون جنوبي شرقي الموقع .

يمتد وادي تريبيون من باب العمود شمالي المدينة مسافة نحو كيلو متر ونصف حتى يلتقي بوادي هنوم في الجنوب . وترتفع الاكام في شرقيه وفي غربيه نحو ٥ ــ ١٥٠ قدما ومن كثرة هدم المدينة وتراكم الانقاض امتلأ وادي تريبيون بها .

بنى اليبوسيون اول حصن لهم في (تل اوفيل) بمساحة نحو سبعين دونما ، واخذت المساحة تتسع عند لزوم التوسع بسبب كثرة السكان وذلك ببناء سلاسل يملأ خلفها بالصخور والاتربة لتوفير مساحات جديدة حتى امتدت الابنية الى ما يقارب عين العذراء .

هذه هي المدينة التي فتحها داود حوالي ١٠٥٠ ق . م .

ومنذ ايام سليمان وما بعده الي ايام المكابيين ١٦٠ ق . م . اخذت بعض الابنية تقام على السفح في غربي وادي تريبيون الى ان اتصلت بتلة صهيون حيث تقوم القلعة الحالية ومقام النبي داود . وهو اعلى من اوفيل بنحو ثمانين قدما .

في شمالي اوفيل حفر خندق عمقه عشرون قدما ليفصل المدينة عن صخور الشمال . وبني فيه سور . هذا الخندق هو الواقع بين المتحف ومقبرة باب الساهرة الى حي المصرارة . والمرتفع الصخري يسمى تل اكرا ، وفي اسفله مغارة الهدمية حيث بني موقف السيارات الحالي . وفي جنوبي الخندق محاجر سليمان والسور الحالي .

ولقد وصف المؤرخ يوسيفوس مدينة القدس في ايامه (منتصف القرن الاول بعد المسيح) بقوله المدينة مبنية على تلين الواحد مقابل الاخر ـ بينهما واد يشطرهما . والبيوت متقابلة على طرفي التلين والتل الغربي (صهيون) أعلى من التل الشرقي (المريا) .

صخر القدس الاعلى كلسي رملي فيه بعض الصوان ، كما يرى الان في صخور بناية الروضة وفي محاجر سليمان . والاسفل حجر كلسي ابيض سهل صالح للبناء لانه يقسو عندما يتعرض للهواء ، وهذا ما سهل على السكان حفر الآبار والحياض العظيمة والانفاق الكبيرة . وكان لها شأن عظيم في تاريخ المدينة[١] .

رواد التنقيب

منذ ان صمم اليهود على التجمع في فلسطين واقامة دولة فيها اخذوا يعملون على البحث عن بقايا الهيكل المهدوم . وقد ساعدهم على البحث عنه ارساليات التبشير ورهبان الاديرة .

ففي سنة ١٨٠٠ درس الاب فنسنت سلسلة المداخل المؤدية الى الحرم الشريف ، والانفاق التي كان الماء يجري فيها من النبع في سلوان الى داخل اسوار المدينة القديمة . وكان اهمها نفق سلوان الذي بلغ طوله ٥١٧ مترا وكان المؤرخون يفترضون ان جيش الملك داود دخل منه واحتل ساليم اليبوسية حوالي سنة الف قبل الميلاد .

وفي سنة ١٨٢٢ كان يعيش في القدس مبشر سويسري اسمه كونراد شيك

وقد اكتسب خبرة ممتازة في التعرف على تاريخ مدينة القدس القديمة . وقد ركز بنوع خاص على دراسة التضاريس الصخرية التي تقوم عليها ابنية القدس الحالية . ولقد تخيل صورة لهيئة الهيكل على جبل مريا حيث شرع ابراهيم يضحي بابنه وحيث يقوم مسجد الصخرة ـ حسب ظنه .

ولقد ادرك ان الاقصى التحتا وما يسمى باصطبلات سليمان والمكان المسمى مهد عيسى تعود الى عصر جوستنيان من القرن السادس بعد الميلاد وقد استدل على ذلك من طراز دقاقة الحجارة واشكال الاقواس .

وفي سنة ١٨٣٩ اخذ المبشر الاميركي باركلي يزيل الانقاض التي تراكمت في باب البراق (الذي يعرف الان بباب المغاربة) ليكشف حدود الهيكل القديم ومداخله . واكتشف في شمالي العتبة الضخمة اربعة مداميك من حجارة ضخمة تدل على ان البناء روماني . وتحت هذا الباب حنية في الواجهة فيها محراب ـ ذكري لمربط براق النبي عليه السلام يوم الاسراء والمعراج . وعلى هذا المحراب بني مسجد البراق الذي هدمه اليهود في حفرياتهم سنة ١٩٦٨ لتوسيع جدار المبكى .

وكان باركلي يظن انه اكتشف احد الابواب الاربعة التي ذكر المؤرخ اليهودي يوسيفوس بانها كانت مداخيل الهيكل . وتحت الباب درج منحوت في الصخر يصعد من الارض الواطئة الى ساحة الحرم .

وفي سنة ١٨٥١ عرض العالم ليارد بعض التماثيل الضخمة للثيران والمسوخ المجلوبة من العراق فاعجب بها الجمهور البريطاني . ولقد رأى البعض ان الاراضي المقدسة لا بد وانها تخبيء مثل هذه العجائب . وكان ذلك ناشئا عن الرغبة الملحة في البحث عن المواقع الاثرية التاريخية المذكورة في التوراة .

ولقد اظهرت رحلة العالمين الاميركيين ادورد روبنسون وغالي سمث كثيرا من اسماء القرى العربية لا تزال تلفظ كما وردت في التوراة . ولم يكونا يعرفان انها كنعانية الاصول . وزاد في اهمية الموضوع معلومات وثيقة نشرها جورج غروف .

لهذه الاسباب زادت رغبة كثير من الانكليز في زيارة الاراضي المقدسة ، والعمل على خدمتها ـ من ذلك اندفاع المحسنة انجيلا بوردت كوت لتقديم عون مالي لتحسين موارد الماء في القدس . فقام السير شارل وارن Warren بعمل مسح تمهيدي لتحقيق هذا المشروع الخيري.

وهنا قدم القنصل البريطاني في القدس اقتراحا يدعو الى توحيد جهود الافراد في شكل من الاشكال المنظمة . واستجابة لهذا الاقتراح تداعت جماعة من العلماء في لندن لدراسة الاقتراح ونتج عن ذلك الاجتماع تأسيس مؤسسة التنقيب الفلسطينية The Palestine Exploration Fund في ٢٢ حزيران

سنة ١٨٦٥ فكانت اول جمعية علمية تقوم بالتنقيبات . واحتلت مكانة خاصة كرائدة في دراسة الآثار .

وفي الوقت ذاته كان شاب موظف في القنصلية بالقدس اسمه كليرمونت غانو Clermont Ganneau يزاول هوايته في اكتشافات اثرية خاصة . وقد وفق لاكتشاف آنية مزدانة برسوم خرافية بديعة النقوش . وجدها في قبر على طريق الآلام داخل القدس القديمة . ورأت المؤسسة ان تضم جهوده الى اعمالها لتستفيد منه .

وفي سنة ١٨٧٤ اكتشف تماثيل جوبيتر وفينوس ملقاة في المجاري تحت المحكمة قرب باب السلسلة ، ثم نزع البلاط من ساحة المغاربة حتى زاوية السور الجنوبي فلم يجد اكثر من مخلفات العصر الاسلامي .

وقد ركزت المؤسسة أعمالها على مدينة القدس ـ لما لها من المكانة الدينية لدى عقلية القرن التاسع عشر التوراتية . ولذلك وضع المهندسان شارل ولسون وشارل وارن الاسس لدراسة طبوغرافية القدس ومعرفة تاريخها.

حفريات وارن

في سنة ١٨٦٧ قام السير شارل وارن باسم مؤسسة التنقيب الفلسطينية بحفريات خلف اسوار الحرم واهتدى الى سور تحت الانقاض يبدأ من الزاوية الجنوبية الشرقية . وقد اخذ في الابتعاد جنوبا وغربا حتى التقى بباب المغاربة Dungan احد ابواب المدينة من الجنوب . واعتقد انه السور الذي دافع عن يبوس الكنعانية في وجه جيش غزو داود الاسرائيلي في اواخر القرن الحادي عشر قبل الميلاد .

وفي سنة ١٨٧١ حفر وارن تحت باب السلسلة في الغرب من الحرم ، فاكتشف اقبية قامت على صفين او ثلاثة من الاعمدة تعلوها عقود انصاف دائرة . كما كشف عن طريق مرصوف يحاذي السور من الغرب ومن الجنوب . وتعمق الحفر تحت هذا الرصيف الى ٥١ قدما حتى وصل الى الصخر الذي بنيت عليه قواعد الاسوار . ثم دار حول السور الجنوبي وحفر في حاكورة عائلة الامام الى ان وصل الى الباب المنفرد في سور الاقصى ، الذي يعلوه قوس اسلامي او صليبي لا علاقة له ببناء الهيكل . ثم وصل الى البوابة الثلاثية التي بنيت على الطراز البزنطي . وواصل حفرياته حتى وصل الى الباب المزدوج الذي كان يفتح الى الاقصى التحتا الذي هو من ابنية عصر جوستنيان في القرن السادس بعد الميلاد . وقد عثر على كتابة باللغة اللاتينية على حجرين من حجارة البناء الضخمة وقد وجدت مقلوبة على قاعدة تمثال من عهد الانطونيين ـ انطونيوس بيوس وانطونيوس اوريليوس ـ معظم الحروف لا تزال مقروءة وهي تذكر خلفاء الامبراطور هدريان

بالتبني .

يقول المؤرخ بروكبيوس الذي كان اسقفا لمدينة القسطنطينية سنة ٦٥٠ م . ان الاقصى التحتا وما يسمى اسطبلات سليمان ومهد عيسى كلها من اعمال جوستنيان الذي سبقه بقرن وربع القرن، وقد اخذ حجارتها من محاجر القدس المعروفة بمحاجر سليمان بين بابي العمود والساهرة . وقد نقلتها عجلات كان يجر الواحدة منها اربعون ثورا ، لضخامتها .

ثم دار وارن حول الزاوية الجنوبية الشرقية التي تعد من اضخم ابنية العصر الروماني ومشى مع السور الشرقي واجرى سبرا في الانقاض المتراكمة هناك فهبط به الحفر الى عمق ثمانين قدما ، حتى وصل الى الصخر . ثم واصل تحرياته حتى وصل الى الباب الذهبي الذي سماه العرب باب الدهرية وتسمى فتحته الاولى باب الرحمة وفتحته الثانية باب التوبة (توما توما) .

اغرى وارن خدم الحرم فسمحوا له بدخول الغار تحت الصخرة . وادعى انه ازاح غطاء حجريا فوجد تحته مجرى دماء الضحايا . وقد بنى حكمه على ماء جاء في التلمود من ان الصخرة كانت هي المذبح وكان عليها مجرى تسيل منه دماء الضحايا الى الغار ومنه تجري في قناة الى وادي قدرون . ولكنه نسي ان المذبح كان في زمن سليمان وخلفائه مصنوعا من المعدن . ولو فرضنا أنه نصب فوق الصخرة فان آثاره قد امحت ولم يبق منها حفر أو بناء ، حتى قام الحفار باركر فدحض ادعاء وارن هذا كما سيجيء .

قنطرة ولسون

يقوم باب السلسلة على قنطرة كبيرة فوق جسر اكتشفه تويلر وسماها باسم المستر ولسون مدير المساحة في بريطانيا . على هذه القنطرة وغيرها من القناطر اقيم الطريق الذي كان يوصل بين المدينة العليا عند باب الخليل وبين المدينة السفلى على جبل المريا ـ عبر وادي تريبيون الذي كان ينخفض كثيرا عما هو عليه الان (حارة الواد) وقد بنيت الطريق فوق الانقاض التي ملأت الوادي ، نتيجة للحروب المدمرة . وقد اقيمت اقواس ونصبت قناطر فوق الردم لتقلل الهبوط .

ويبلغ ارتفاع قنطرة ولسون ٢١ قدما واتساعها ٢٤ قدما وطراز بنائها بزنطي وحجارتها ليست بضخامة حجارة الاسوار .

وفوق قنطرة ولسون كان الامير تنكز المملوكي قد بنى مدرسته الشهيرة سنة ١٣٢٠ م والتي استعملت في تاريخ متأخر محكمة شرعية .

قنطرة روبنسون

عندما كان العالم الاثري روبنسون يقوم بمسح اثري حول الحرم عثر في سنة ١٨٦٤ على قوس او قنطرة في زاوية الحرم الجنوبية الغربية على بعد ١٣ قدما من الزاوية الفخرية ـ زاوية آل ابي السعود ـ وافترض روبنسون انها الجسر الذي كان يصل المدينة العليا على جبل صهيون في الغرب بالمدينة السفلى على جبل المريا في الشرق وقال انها بنيت في القرن الخامس او السادس بعد الميلاد ويبلغ اتساعها ٥٠ قدما وارتفاعها ٢١ قدما وقد بنيت من حجارة ضخمة كحجارة السور . ويرجع غيره هذا القوس الى ايام هردوس . وللجنوب من قنطرة روبنسون طمرت حجارة كبيرة على عمق ٣٥ـ٥٥ قدما وقد ظهرت في حفريات اليهود بعد سنة ١٩٦٨ وبعضها منحوت املس وعليها اشكال حزوز وسهام . وقد تكون من بقايا سور هردوس الذي كان يمتد حتى باب المغاربة ـ باب المدينة الجنوبي ـ الذي لم يبق منه فوق سطح الارض الا عشر اقدام بينما لا يزال الباقي تحت الانقاض . ويمتد سور هردوس الى الشرق حتى يلتقي بالزاوية الجنوبية الشرقية من سور الحرم .

حفريات باركر

قام الكابتن باركر سنة ١٩٠٩ ـ ١٩١١ بالبحث عن كنوز سليمان . وقد سمحت له السلطات العثمانية بذلك لشدة حاجتها الى المال . حفر في سلوان شمالي عين ام الدرج وكشف الاسراب اليبوسية التي كان الماء يجري فيها من المنبع في عين جيحون شرقا الى داخل المدينة في عين ام الدرج غربا وكان يعتقد ان يؤاب قائد جيش الملك داود دخلها ومنها فتح المدينة اليبوسية .

ثم حول نشاطه الى الجهة الجنوبية وبحث عن مداخل سرية توصله الى الاقصى التحتا . فلم يجد الا الصخر على عمق بضعة سنتميترات ووجد قنوات الماء التي يجري فيها ماء المطر الساقط عن اسطحة الاقصى ليتسرب الى الصهاريج القريبة التي كانت تسد شيئا من الحاجة الى المياه في اواخر السنة . وهو ما ادت اليه الحفريات الحالية وخابت الآمال في ايجاد مداخل الاقصى .

ولما رشا الحرس مكنوه من دخول اسطبلات سليمان ، فلما لم يجد شيئا زاد في الرشوة حتى مكنوه من دخول الغار تحت قبة الصخرة واقتلع البلاط فوجده راكبا فوق الصخر مباشرة . وليس تحته اي فراغ او قناة ـ كما زعم سلفه وارن

قبل اربعين سنة فليس هناك قناة لجري دماء الصحايا . كما انه لم يجد بئر الارواح التي كانت تروى الاساطير انها في الغار عندما تزعم الرواية اليهودية ان كبير الكهنة كان يناجي الارواح منها بعد موت اصحابها . ولم يجد اثرا لدماء الذبائح فوق الصخر . واثبت ما جاء عن مذبح هيكل هرودس الذي كان يبعد عن قدس الاقداس في الكهف ٢٢ ذراعا وانه بني من حجارة غشيمة وكانت مساحته ٣٠ ذراعا مربعة . وكان يرتفع عن الارض ذراعا واحدة اي انه كان خارج الهيكل .

كل هذا حمله على ان يبحث عن مدينة داود وسليمان خارج هذا المكان — ربما في حاكورة عائلة الامام في الجنوب من خارج الاقصى ، تصديقا للرواية ، التي تقول ان مدينة داود لم تتعد وادى صادوق الفاصل بين اوفيل والمريا التي تقوم عليها الصخرة — واستدل من الفخار الذي جمعه ان مدينة القدس بدأت حياتها المدينة قبل الميلاد بنحو ثلاثة الاف سنة وليس بالف وخمسماية سنة كما كان يظن .

سرقة الحرم

وقد جاء في مقتطف سبتمبر سنة ١٩١١ : كان جماعة من الانكليز ينقبون في القدس عن الاثار القديمة فسولت لهم نفوسهم ان يحتفروا في الحرم الشريف . فأغروا كبير حراسه بالمال واتموا عملهم ليلا . فلما نهض الاهلون في الصباح وعرفوا بالحادثة ثارت ثائرتهم ورفعوا الاحتجاجات والشكاوي الى المراجع العليا في الاستانة فاهتمت بهذا النبأ والفت لجنة للتحقيق في المسألة رئيسها عزمي بك متصرف طرابلس الشام واعضاؤها الفريق هاشم بك ومرعي باشا مدير اوقاف حلب . وشاع ان المحتفرين عثروا على خزائن سليمان وتاجه وصولجانه وتابوت العهد والالواح الحجرية الى غير ذلك مما يظن وجوده في الحرم الشريف . غير ان نتيجة التحقيق لم تظهر بعد .

واللجنة توالي البحث والتنقيب لتجلو الحقيقة . ويخفر محل اجتماعها نفر من الجند شاكي الشلاح وقد دعت الى الاستجواب نحو خمسين شخصا . وكادت هذه الحادثة تفضي الى عاقبة سيئة ، فقد هاج الاهلون وحنقوا على المتداخلين في هذه الحادثة حتى ساد الاضطراب وعم الرعب وتوقع الناس حدوث فتنة . واتفق في بعض الايام ان تخاصم اثنان من القرويين ، فذاع الخبر بحدوث فتنة فاقفلت الاسواق والمخازن وتسارع الناس الى بيوتهم مضطربين جزعين . غير ان الحكومة المحلية سكنت روعهم وخفضت مخاوفهم فعادوا الى اعمالهم في اليوم الثاني .

وترى الاهلين هناك متجمهرين متشوقين الى ادراك النتيجة وانجلاء الحقيقة ومعرفة ما عثر عليه الانكليز في تنقيبهم في العاديات الثمينة .

وفي موسم ١٩٢٣ ١٩٢٤ كشف مكلستر برجا على تل اوفيل خارج الاسوار وظنه كروفوت في حفرياته التي قام بها ٢٦ــ١٩٢٨ من عهد داود وسليمان ولكن الدكتورة كنيون اعادته الى عهد اليونان والمكابيين من القرنيين الثالث والثاني قبل الميلاد . كما اكتشف المذبح العالي لليبوسيين في خندق في جبل اوفيل خلف السور .

وفي سنة ١٩٢٦ اكتشف كروفوت سورا جنوبي السور الحالي قال انه سور سليمان . ولكن الدكتورة تقول انه لا يتجاوز القرن الاول قبل الميلاد . وفي سنة ١٩٣٧ اذاع كروفوت انه اكتشف بوابة اسوار مدينة داود التي كان اتساعها ثلاثة امتار ونصفا وارتفاعها سبعة امتار . وقد بنيت من حجارة غشيمة .

حفريات الدكتور كنيون

لقد وقفت قلعة القدس اليبوسية في وجه الغزو الاسرائيلي فاصلا بين ماغتصبوه في الشمال والجنوب منها ، وبعد ان امضى داود تسع سنين في حبرون استطاع ان يفتح القلعة اليبوسية وان يجعلها عاصمة له ، كما بنى فيها ابنه سليمان الهيكل المشهور ، هكذا كتب للقدس ان تلعب دورا هاما في تاريخ التوراة . ولكن اين كانت عاصمة داود واسوارها وذكرياتها ؟ هذه مشاكل بقيت صعبة الحل حتى قام علماء الاثار يحاولون حلها . ففي سنة ١٨٦٧ اجرى وارن البروفسور الانكليزي حفريات خارج السور الجنوبي الشرقي من الحرم الشريف . وبعد ثلاثين سنة قام بلس Bliss وديكي Dickey بحملة اخرى في نفس المكان وبعد ثلاثين سنة اخرى قام مكلستر Macalister بتنقيبات ثالثة . وانتهت هذه الحفريات بوضع مخططات ظهرت فيها ما كان يسمى حلا لتلك المشاكل .

ولكن الانسة كثلن كينيون Kenyon Kethleen ما كادت تنتهي من حفرياتها في أريحا سنة ١٩٥٨ حتى عزمت على اعادة الحفر في المكان المذكور بوسائل علم الاثار الحديثة لانها كانت تشك في النتائج التي توصلت اليها البعثات السابقة . وما كادت تعلن عن عزمها باسم المدرسة البريطانية لعلوم الاثار في القدس حتى انضمت اليها المدارس الافرنسية والاميركية في القدس .

على هذا السفح الذي ينحدر الى وادي سلوان حتى عين ام الدرج قامت كنيون بحفر عدة خنادق ، اظهر العلوى منها ان ما ظنته الاكتشافات السابقة

سور المدينة اليبوسية التي استولى عليها داود حوالي ١٠٠٠ قبل الميلاد ـ ما هو الا السور الروماني الذي قام على اسس هيلانية لا تتجاوز القرن الثالث قبل الميلاد . وهناك عثرت على الابار والصهاريج التي تعود الى المدينة الرومانية التي بناها هدريان سنة ١٣٥ م باسم ايليا كابيتولينا Capitolina

وكلما توسعت في الحفر نحو الشمال كانت تقترب من التحصينات القديمة . حتى وصلت الى سور يمكن ارجاعه الى سنة ١٨٠٠ قبل الميلاد . وقد جدد ورمم بعد حوادث طرأت عليه حوالي سنة ١٤٠٠ ق .م . وهو السور اليبوسي الذي وقف في وجه الغزو الاسرائيلي ثم رمم مرة ثانية واستمر حاميا للمدينة اليبوسية التي احتلها الاشوريون حتى سنة ٧٠٠ ق .م . وقد لاحظت الدكتورة كينيون ان اليبوسيين كانوا يبنون جدرانا استنادية يملؤونها بالحجارة والانقاض حتى يوفروا بسطة Platform واسعة تقام عليها الابنية فوق هذا السفح .

وفي اليوم الثاني سنة ١٩٦٢ كشفت ان هذه الاسوار هدمت اربع مرات في التاريخ واعيد بناؤها اربع مرات كان اخرها سنة ٥٨٧ عندما هدمتها بابل ودمرت القدس واختفت معالم المدينة اليبوسية بعد ان خدمت نحو ٨٠٠ سنة .

عندما عاد نحميا من السبي البابلي سمح له الفرس باعادة بناء الاسوار ولكن على مقياس اضيق . وهنالك ولا سيما في الشمال ظهر السور الذي بناه هيرودس ومن بعده اغريبا سنة ٤٠ ـ ٤٤م. وقد اضطر تيطس لهدمه عند عصيان اليهود ومهاجمة الهيكل سنة ٧٠م . وقد ادى الحفر هنا الى اظهار شارع مبلط من القرن الميلادي الأول . وفي الموسم الاخير الذي جرى سنة ١٩٦٤ كادت النتائج تقنع الدكتورة كينيون ان المدينة اليبوسية كانت شرقي اسوار الحرم وعلى هذا السفح المنحدر الى وادي قدرون . لم تكن المدينة على جبل المريا حيث يقوم الحرم الشريف اليوم . ولهذه النتائج اهمية خطيرة في تاريخ المدينة المقدسة .

الحفريات الاسرائيلية

قبل حرب حزيران سنة ١٩٦٧ كان اليهود يقرأون تقارير حفريات المدرسة البريطانية فيغتاظون منها ، لانها لم تأت على هواهم عندما كانت تذكر ان الحفريات التي اجرتها على احدث الاصول العلمية لم تتوصل الى تعيين مكان الهيكل .

لذلك كان في طليعة ما بادروا للقيام به بعد دخولهم القدس القديمة ١٩٦٧ هو الاسراع في القيام باعمال الحفر والتنقيب للوصول الى اهداف سياسية بعيدة عن الحق والعلم مهما كانت النتيجة .. وبعد ان فرغوا من اعمال الجرافة في ازالة

الابنية الاساسية والاوقاف الخيرية والزوايا والمدارس التاريخية الواقعة في منطقة المبكى اسرعوا في هدم الابنية الملاصقة لزيادة امتداد الجدار شمالا وجنوبا .

قال البروفسور بينامين مازار الاستاذ في الجامعة العبرية هنا ان الحفريات للاثار عند حائط المبكى في القدس القديمة تهدف الى الكشف عن الطبقات الدنيا للهيكل الذي بناه هناك الملك سليمان .

وقال البوفسور مازار الذي بدأ الحفريات قبل خمسة اسابيع ان العمل في الموقع الذي يجاور المسجد الاقصى سيستغرق ست سنوات . ويبلغ طول منطقة الحفريات ٧٠ مترا وعرضها عشرة امتار . وقال مازار ان علماء الاثار وصلوا حتى الان الى المنطقة الرابعة عشرة من الحجارة من اعلى الحائط ، وان قطع فخار ونقودا ذهبية تعود للعصر الفارسي وجدت في الحفريات .

وفي ٣ اذار سنة ١٩٦٨ اعلن مازار الذي تولى الاشراف على الحفر باسم الجامعة العبرية انهم وجدوا في الجدار الجنوبي قطعة من وعاء حجري كتب عليه كلمة قربان باللغة العبرية كما زعموا انهم عثروا على ٥ درجات كانت تصعد الى الهيكل .

وقال مازار ان الحفريات الجارية في المنطقة الجنوبية من سور الحرم تبلغ مساحتها ١٥ × ٧٠ مترا والمقرر ان تجرى الحفريات على طول السور الجنوبي .

وحتى ١٤ تموز ١٩٦٨ كانت اعمال الحفر مستمرة بجوار الحائط الجنوبي .

احتجاج الهيئة الاسلامية بالقدس

في ١٩٦٩/٧/١١ رفع الشيخ حلمي المحتسب رئيس الهيئة الاسلامية بالقدس مذكرة احتجاج الى ليفي اشكول رئيس حكومة اسرائيل هذا نصها : ـ

ان هذه الحفريات تجرى على مشهد من المسلمين وبشكل استفزازي مؤلم .

وفي كل ذلك اعتداء صارخ على حقوق المسلمين وقدسية اماكنهم الدينية .

ولقد سبق ان اعلن المسلمون رأيهم بهذا الامر . وهو لا يتعدى ما قررته اللجنة الدولية ، واشير اليه في عدة كتابات وتصريحات بان ملكية الجدار الغربي وما يحيط به من ابنية هي وقف اسلامي تعود للمسلمين وحدهم ، وليس لليهود اي حق فيها الا الزيارة فقط .

ان استمرار هذه الحفريات في ارض تملكها الاوقاف الاسلامية واستمرار هذا الهدم للاملاك الاسلامية ومواصلة العمل تحت سور الحرم الشريف بالاستناد الى القوة وسلطة الحكم ، يعتبر استمرارا للاعتداء على قدسية هذا المكان وتحديا مثيرا لشعور المسلمين وعدم المبالاة بحقوقهم منذ اقدم العصور .

لهذا فاني اعود واقدم هذا الاحتجاج بكل شدة معلنا ان المسلمين يحتجون على هذه التصرفات ولا يقبلون بها . املا ان يوضع حد لها وان تكونوا عند تصريحاتكم بالمحافظة على الاماكن المقدسة وعدم المساس بها .

قيم دولي على الاثار في البلاد العربية

عينت منظمة اليونسكو الدكتور كارل برونر قيما على الاثار والمخلفات الثقافية في البلاد العربية ليضع حدا لتعديات اسرائيل على الاثار في الأجزاء التي احتلتها في حرب حزيران سنة ١٩٦٧.وفي ١٢/١٢/١٩٦٧ ـ حضر برنز الى عمان وأخذ يسمع الى الشكايات التي قدمتها دائرة الاثار الاردنية ودائرة الاوقاف وامانة القدس العربية . وبعد ان امضى اربعة ايام في عمان يدرس الاعتداءات الاسرائيلية غادرها بعد تقريره بهذا الشأن .

وقد عقدت منظمة اليونسكو اجتماعا في باريس ناقشت فيه تقرير القيمين خلال شهر حزيران سنة ١٩٦٨ .

مذكرة الدكتور بول لاب

قدم الدكتور بول لاب مدير مدرسة الاثار الاميركية في القدس مذكرة احتجاج على قيام سلطات اسرائيل بسرقة المخطوطات الاثرية في المناطق العربية المحتلة وكذلك مواصلة هذه السلطات العبث بالمناطق الاثرية ، هذا نصها : ـ

مقدمة :

من المواثيق والانظمة التي تتعلق بالمحافظة على الاثار في المناطق التي تقع تحت الاحتلال تلك التوصيات التي اقرها المؤتمر العام لعلماء الاثار في دورته التاسعة التي انعقدت في نيودلهي في ٥ كانون الاول ١٩٥٦ والميثاق الدولي الذي اقرته في المؤتمر الدولي المنعقد في لاهاي سنة ١٩٥٤ لحماية الممتلكات الثقافية في النزاعات المسلحة .

وتنص المادة (٣٢) من الميثاق الاول على انه : (في حالة اي نزاع مسلح يقتضي على الدولة التي تحتل اراضي دولة اخرى الامتناع عن القيام باية حفريات اثرية في المنطقة المحتلة . وفي حالة العثور على اية اثار بمحض الصدفة ، خاصة خلال الانشاءات العسكرية ، فانه يتحتم على الدولة المحتلة اتخاذ جميع الاجراءات الممكنة لحماية الاثار التي يتم اكتشافها والتي ينبغي تسليمها عند انتهاء الاحتلال الى السلطة المختصة في المنطقة التي كانت واقعة تحت الاحتلال

مع جميع الوثائق المتعلقة بذلك) .
ويتضمن الميثاق الثاني عددا من الشروط الاخرى التي لا يتسع هذا المجال لسردها . وكلها تنطبق على الاوضاع التي سيرد ذكرها ، وستتم الاشارة الى اي شرط من هذا الشروط في سياق البحث . وعلى العموم فان الميثاق يمنع ازالة الممتلكات الاثرية بدون اشراف مندوب معتمد من منظمة اليونسكو . ويشترط مساعدة اولئك الموظفين الذين كانوا مسؤولين عن الممتلكات لمواصلة المحافظة عليها اثناء الاحتلال .

وفيما تعتبر الوثيقة الاولى بمثابة مجموعة من التوصيات فان الوثيقة الثانية تعتبر نظاما وميثاقا ملزما لجميع الدول الموقعة عليه[٢] .

حفريات الحرم القدسي

ان الحفريات التي جرت في القسمين الجنوبي والغربي لحائط الحرم الشريف تستدعي اهتماما خاصا ، ذلك لان تاريخ المنطقة التي شملتها الحفريات يعتبر ذروة في تاريخ التقاليد الاسلامية والمسيحية واليهودية بالنسبة لاي موقع اخر في العالم . والحفريات البريطانية ـ الافرنسية التي جرت بجوار هذه المنطقة بين سنتي ١٩٦١ـ١٩٦٢ لم تسمح لها دائرة الاوقاف الاسلامية بالاقتراب من جدار الحرم . وقد علمت من المفوض العام لمنظمة اليونسكو أن اعتراض دائرة الأوقاف الاسلامية على الحفريات التي أجراها الدكتور مازر تحت رعاية الجامعة العبرية كانت أشد كثيرا من الاعتراضات على الاقتراحات البريطانيــة ـ الفرنسية . لكن هذه الاعتراضات لم تصل الى حد المجابهة المفتوحة تجنبا للانتقام من قبل السلطات الاسرائيلية .

وقد ألمحت جريدة (البوست) الاسرائيلية الى اعتراضات العرب ضد الحفريات ، لكن مدير الاثار الاسرائيلي اعتبر القسم العربي من القدس مندمجا بالقسم الغربي وأنه يشكل وحدة أثرية تخضع لقانون الاثار الاسرائيلي . وقد استعمل صلاحيته بموجب هذا القانون لمنع بعض اليهود المتدينين من اجراء أية حفريات بدون تصريح وبأساليب غير علمية .

ومما ينبغي تأكيده وجود اعتراضات شديدة من قبل الهيئات الأثرية ضد هذه الحفريات . وقد اعترف مدير الاثار في الجامعة العبرية بأن المسؤول عن الحفريات لا يملك الخبرة للحفر تحت الجدار وأنه قديسفر عن تدمير موجودات أثرية عظيمة القيمة لاصحاب الأديان الثلاثة . وتستشعر الهيئات العلمية الأثرية غضبا شديدا لاجراء هذه الحفريات دون تشاور مسبق مع البعثة التي قامت

بالحفريات السابقة . مع العلم بأن بعض الحفريات الجارية قد شملت الخنادق التي فتحتها البعثة البريطانية ـ الافرنسية ـ وقد بلغ بهولاء الاسرائليين الحد حتى أنهم دعوا الأب رولان ديفو لمشاهدة حفرياتهم ، رغم أنه لم يسمع بتاتا في تاريخ الحفريات الأثرية العلمية وأوساطها ان قام منقب بحفر مكان سبق لمنقب اخر الحفر فيه دون اذن صريح ـ ويمكن التأكيد بأن الأشخاص الذين قاموا بأعمال الحفر كانوا ما بين ٢٠ ـ ٢٥ عاملا مأجورا وعددا من المتطوعين والطلاب من الجامعة العبرية وأنهم مارسوا العمل تحت اشراف موظفين غير مؤهلين بتاتا .

وبناء على كل ذلك يتضح أن الحفريات قد جرت في أرض وقفية ضد توصيات المؤتمر السابق الذكر وضد مصالح المسلمين والمسيحيين ، وحتى ضد مصلحة قسم من الطائفة اليهودية ، وأيضا ضد القواعد العلمية والأصول الأثرية المعتمدة من قبل الهيئات العلمية .

١٩٦٨/٧/١٥

وفي الاسبوع الماضي أعلن البروفسور بنيامين مازار ـ من الجامعة العبرية عن العثور على قطع صغيرة يعتقد أنها من اثار الهيكل الثاني .

١٩٦٨/٧/٢١

وجد مازار أسرجة من الفخار في طبقة العصر البزنطي من القرن الرابع الميلادي وعلى أحدها رسمت المنارة السباعية التي أصبحت خاصة بالتقاليد اليهودية . وظهرت على الغنائم التي حملها جنود تيطس الى روما بعد تخريب الهيكل سنة ٧٠م لتعرض في يوم الاحتفال بهذا النصر المؤزر . لكن وجد مع هذا السراج ابرجة اخرى زينت برسوم تشبه سنابل القمح من النوع الذي ورثه المسلمون عن صناع الروم قبلهم في هذه البلاد .

تدخل ايبان في الحائط تحت الاستجواب ١٩٦٨/٧/٢٦ ـ

طلبت حركة المركز الحر الاذن لتسجل استجوابا على قائمة اعمال الكنيست بشأن توقيف الهدم الجاري على الابنية المحيطة بالحائط الغربي ، بناء على طلب وزير الخارجية وقد اوضح المستر اليعازر شوستاك استجوابه بتضمينه تقريرا اخباريا يفيد انه بعد ان اخليت الابنية موضوع البحث وهي المجاورة لباب المغاربة وبعد ان تم تعويض اصحابها ابتدأ الهدم . وفي الاسبوع الماضي، وبعد ان كتب وزير الخارجية الى وزير الاديان يطلب اليه توقيف الاعمال خشية ان يكون بينها بعض الابنية ذات القيمة الاثرية، طلب وزير الاديان من العمال ان يستبعدوا الالات . وقد اوضحت مصادر وزارة الخارجية في الليلة الماضية ٧/٢٥ ان المستر ايبان طلب ان يتوقف العمل لمدة محدودة للبحث عما اذا كانت المنطقة التي يجري

فيها العمل تقع ضمن المناطق المشمولة بالاتفاقيات الدولية المتعلقة بحفظ المواقع التاريخية والذي يبدو ان المسألة ستكون موضع اهتمام اللجنة الوزارية المختصة . ويعاد الى الاذهان ان ممثلي اليونسكو في اسرائيل والاردن موجودون للمحافظة على المواقع التاريخية منذ حرب حزيران .

نشرت جريدة معاريف الاسرائيلية بتاريخ ١٧/٩/١٩٦٩ انهم اكتشفوا عشية رأس السنة العبرية الجديدة تحت التلة الرملية المؤدية الى باب المغاربة ــ البوابة الغربية التي كانت المدخل الرئيسي للهيكل للقادمين من المدينة العليا وعند ازالة هذه التلة سيعودون لاستخدام البوابة الكبيرة كباب للدخول الى هيكل سليمان .

اذاعوا انهم كشفوا شارعا مبلطا يسير بمحاذاة السور الجنوبي للمسجد الاقصى وان الباب المنفرد في هذا السور هو باب خلده الذي كان يؤدي الى الهيكل مع ان باب خلده مذكور بانه الباب الجنوبي لهيكل هرودس .

نقلت جريدة يديعوت في عددها الصادر في ٢٨/١٠/١٩٧٠ تصريحا لوزير الاديان قال فيه : ان وزارة الاديان الاسرائيلية تسعى بواسطة عمليات الحفر التي تجريها للكشف الكامل عن حائط المبكى الذي يهدف الى اعادة هذه الدرة الثمينة الى سابق عهدها . وما اجراءات الحفر التي تلجأ اليها الا عمليات مقدسة تهدف الكشف عن الحائط وازالة المباني الملاصقة له رغم كل العراقيل التي تقف في الطريق .

نشرت جريدة معاريف الاسرائيلية بتاريخ ٧/١٢/١٩٧٠ خبرا خطيرا جاء فيه ما يلي :

الصقت يوم امس في شوارع القدس منشورات تحذر من انهيار حائط المبكى اذا ما استمرت الحفريات الاثرية بالقرب منه . ودعا الموقعون على تلك المنشورات اليهود المخلصين لمعارضة مبادرة الحفريات واحباطها وأكدوا ان برنامج وضع الحائط الجنوبي وقسم من الحائط الغربي حتى باب المغاربة تحت تصرف وسلطة المنقبين عن الاثار ، يمس بقدسية المكان ويمنع ويحول دون وصول المصلين . ويعرض حائط المبكى الى المخاطر (انتهى الخبر) .

والحائط الجنوبي المشار اليه انفا ، يشكل جزءا من الحائط الجنوبي للمسجد الاقصى المبارك ، كما يشكل الحائط الغربي ، قسما من حائط الحرم الشريف والذي يضم المتحف الاسلامي والمئذنة الفخرية وعمارة المتحف الاسلامي وكلها معرضة للانهيار ، وسيؤدي انهيارها لتنفيذ مرحلة جديدة من التوسع اليهودي في سبيل انشاء هيكلهم الذي يحلمون به .

وبتاريخ ٥/١/١٩٧١ نشرت جريدة (يديعوت) الاسرائيلية خبرا اكثر

خطورة مما سبق ، اوردت فيه ان الحفريات عند الزاوية الغربية الجنوبية للحرم (جبل البيت كما يسمونه) قد وصلت الى عمق (٣٥) مترا عن سطح الارض .
هارتس ٢٢/٢/١٩٧١ :

علم ان واجهة حائط المبكى الممتدة اليوم على طول (٦٠) مترا ستوسع قريبا بضم عشرة امتار اليها بعد تنفيذ مشروع ازالة خرائب المباني الواقعة تحت باب المغاربة المؤدي الى الحرم القدسي . وأشار الناطق بلسان وزارة الأديان الذي أفضى بهذا النبأ بأنه يوجد قرار مبدئي بهذا الشأن . وقد طلب الى دائرة الأشغال العامة تقديم اقتراحاتها لأزالة أنقاض مباني دار أبو السعود وبناء جسر يؤدي من ساحة حائط المبكى الى الحرم القدسي عبر باب المغاربة . وستظهر مساحة واسعة عند ازالة الأنقاض التي تشكل الان ستارا يحجز الوصول الى حائط المبكى . وفهم أن كافة العمليات من ازالة أنقاض وانشاء مباني جديدة سيجرى تنفيذها باشراف خبراء بعثة الاثار التي تقوم بحفرياتها في الجزء الجنوبي لأسوار الحرم القدسي بادارة البروفسور مازار .
معاريف ٢٢/٢/١٩٧١ .

قررت لجنة اعداد وتنسيق الحفريات داخل القدس القديمة الطلب بعدم اقامة مباني فوق بقايا السور الذي تم اكتشافه في الحي اليهودي ويرجع تاريخه الى عهد الهيكل الأول . وقد أرسلت اللجنة المذكورة كتبا الى المؤسسات المسؤولة طالبا تأمين المحافظة على هذا السور .

استمرار الحفريات حول الحرم القدسي الشريف

رغم قرار منظمة اليونسكو في ١٠/١٠/١٩٦٩ الذي ندد بأعمال الحفريات في المناطق المحتلة ، وخاصة القدس والذي يدعو سلطات الاحتلال الاسرائيلي الامتناع كليا عن الحفريات وخاصة حول الحرم القدسي . رغم ذلك فسلطات الاحتلال الاسرائيلي ما زالت تواصل حفرياتها ، فقد ذكرت جريدة (يديعوت) في عددها الصادر بتاريخ ٥/١/١٩٧١ أن هذه الحفريات وصلت قرب الزاوية الجنوبية الغربية للحرم الى عمق (٣٥) مترا ، وكتبت نفس الجريدة في عددها الصادر بتاريخ ١٥/٣/١٩٧١ ان هذه الحفريات توسعت وامتدت الى بقعة تقرب من (٨) امتار من مدرسة بنات الاقصى العربية ، وربما يكون هذا الامتداد ، توطئة لالحاق تشعيت في المدرسة تمهيدا لهدمها ، وقد اتخذ قرار بهدمها فعلا .

نشرت جريدة (عل همشمار) الصادرة في ٧/٧/١٩٧١ كلاما صريحا لدافيد شانيرى ازاح فيه الستار عن اهداف الصهاينة من الحفريات الان وبعد مضي

اكثر من اربع سنين على تحرير القدس نود ان نوجه نداء الى الدوائر والهيئات ذات الصلاحيات بان الوقت قد حان كي تجرى عمليات الكشف عن حائط المبكي على المكشوف وفي وضح النهار ـ وليس فقط في اعماق الارض ويجب مصادرة جميع البيوت الملاصقة لحائط المبكى وعلى امتداده وعلى بعد عشرين مترا على الاقل ويجب تنفيذ الخطة كما تم في حي المغاربة المقابل للمبكي في حزيران ١٩٦٧ . ويجب ان نقوم بحفريات مماثلة في الحائطين الشرقي والشمالي حتى نتمكن من رؤية جميع الابواب المؤدية الى جبل البيت تماما كما حصل لساحة المبكى عند ازالة المباني العربية الملاصقة لسور الحرم في الحي المغربي رغم الصعوبات والضجة التي قامت في حينه بعنف .

وفي جريدة معاريف الصادرة في ١٤/١٢/١٩٧١ انذرت السلطات سكان خمسة منازل عربية بسرعة باخلائها فورا بسبب تصدعه من جراء الحفريات التي تجريها وزارة الاديان تحت هذه المنازل وعلى امتداد ٢٠٠ متر من الحائط الغربي للحرم .

ومن ابرز المنشآت التاريخية المهددة بالخراب حي باب السلسلة وحي باب الجديد وحي باب الحبس (حي المجلس الاسلامي) ضريح الملك حسين وضريح الزعيم الاسلامي مولاى محمد على ومسجد الاميرة خاتون وجامع المدرسة العثمانية فوق باب المطهرة وجامع الخليلي وزاوية ومئذنة قايتباى وسوق القطانين .

نشرت جريدة دافار في ١٦/١٢/١٩٧١ انه لا يمكن ان تقرر وقف عمليات الحفر الى الابد . ويجب كشف طول حائط المبكى كاملا . وطول هذا الحائط ، كما تحدده وزارة الاديان هو ٤٨٠ مترا ـ تم حتى الان كشف ما يقارب ثلاثمائة منها .

تقول جريدة معاريف في ١٤/١٢/١٩٧١ ان هذه الحفريات تقوم بها وزارة الاديان على طول الحائط الشمالي من المبكى ويجرى تنفيذها دون رقابة هندسية الامر الذي تسبب في تصدعها وهدد بانهيارها وان عائلتين عربيتين من العائلات الخمس قد تم اجلاؤهما في اليومين الماضيين .

زار هذه الحفريات المستشار الخاص والخبير الدولي بالحفريات والاثار الاستاذ ريموند لومير الاستاذ في جامعة لوفان (بلجيكا) وامين عام المجلس الدولي للمنشئات التاريخية الذي انتدبه المدير العام لمنظمة اليونسكو لزيارة القدس وتقديم تقرير عن الاتهامات التي تضمنتها الشكوى الاردنية ضد سلطات الاحتلال الاسرائيلي بما تقوم به من مخالفات عن طريق الحفريات والهدم والتغيير لمعالم الاماكن الحضارية والتاريخية في مدينة القدس وقد جاء في تقرير هذا

المستشار بالنسبة للحفريات في المنطقة التي تصدعت الابنية فوقها : (وقد قمت من ناحيتي بفحص الابنية فوق المنطقة التي جرت فيها عملية الحفريات ولم اشاهد هناك اي اثر لهبوط او تشقق حديث لتلك المباني) .

(وهذه الممرات الارضية التي يبلغ طولها عشرين مترا اسندت على انابيب معدنية ومع ذلك فانه من المؤكد ان هذا الاجراء هو حل مؤقت . ولا بد من اهتمام بالغ لتثبيت ذلك بشكل نهائي اذا ما اريد تلافي الازعاجات التي تؤثر على استقرار واستتباب الابنية المقامة عليها) .

(ان وجود القلق لدى الملاكين لهذه الابنية حول هذا الموضوع هو امر مفهوم مبرر . ويستحسن ان يطمئنوا حول هذه النقطة . ولا يشكل تنفيذ هذه الاعمال الضرورية لتدعيم الابنية مشاكل كبيرة من ناحية فنية ولكن يعتمد كل ذلك العناية والحرص اللذين يجب ان يرافقا تحقيق ذلك).

(وفيما يتعلق بالممرات (سراديب) التي تجرى فيها الحفريات والتي يقوم فوق بعضها عدد من اشهر الابنية الاسلامية في القدس منها سوق القطانين وبعض المساجد والاضرحة الشهيرة والمدارس والمحاكم وغيرها ، فهي من الابنية القوية البنيان ـ وباستثناء الشقوق الناتجة عن الهزات الارضية فانها كلها بحالة سليمة . ولقد حفرت في أمكنة غير ملاصقة لجدار الحرم اي ان الحفريات في خنادق ترابية وكانت الاقواس غير مرتكزة ولا متصلة بجدار الحرم . وهذه المسافة التي لا تزيد على عشرين مترا دعمت بانابيب معدنية خشية انهيارها ويمكن مشاهدة جزء منها من باب الحديد) .

هذا ما سجله الخبير الاجنبي ولكنه ما كاد يغادر البلاد حتى استؤنف الحفر ولا سيما في ٢١/١٢/١٩٧١ فحصلت التصدعات والشقوق التي دعت الى انذار خمس عائلات باخلاء منازلها . وبالفعل فقد تم اخلاء عائلتين . ولما كانت هذه الحفريات غير قانونية زيادة عما تلحقه من الضرر بالمنتفعين من العرب كان الحق والواجب يدعوان لايقافها حالا .

واذاعوا انهم وجدوا قطعا مكتوبة من سفر أشعيا وقطعا من الكاروبيهم الملائكة المجنحة التي كانت توضع في الهيكل والطشت الذي كان يتوضأ فيه الكاهن ولكن هل وجود هذه القطع من الانتيكات يبرر عزمهم على هدم صروح الحضارة القائمة في الحرم الشريف لانها ليست يهودية ـ اي يهدمون حضارة اعطاها الزمن والفن قيمتها ـ ليقيموا حضارة جديدة طارئة . على العالم الراقي ان يحول دون حدوث هذه الكارثة .

ولقد فرح البروفسور بنيامين مازار مدير الحفرية باسم الجامعة العبرية عندما عثر على درجات تؤدي من الشارع الى الباب المزدوج Double Gate

الذي يحلو له ان يظنه باب خلده الذي كان يتألف من ممشيين ــ يمشي في احدهما الحاخام ويمشي في الاخر جمهور المصلين حتى يصلوا الى الهيكل . وهو يزعم ان هذا المدخل هو الاقصى التحتاني وزاد فرحه عندما وجد كسرة حجر كتب عليها بالعبرية كلمة قربان .

وفي تقريره عن حفرياته[3] ان الجدار الجنوبي للاقصى فوق الصخر الطبيعي شرقا وغربا هو بناء اسلامي ، ولكن ما تحت هذا المستوى في منطقة الحفر العميق ــ يسبق الفتح العربي ، وقال ان تحت الانقاض ــ اي تحت البناء الاسلامي ٣٤ مدماكا ــ منها ١٢ من عصر هرودس ثم تأتي ١٩ مدماكا من عصر الرومان ، اسوار مدينة ايليا كابتولينا وهنالك بضعة مداميك من العصر البزنطي وهي التي عاصرت الفتح الفارسي سنة ٦١٤م .

ودار الحفر حول الزاوية الجنوبية الغربية حيث كان يقوم ما يعرف بقوس روبنسون الذي سمي باسم مكتشفه Robenson وكان هذا المكتشف يظن انه نهاية لعدة اقواس كانت تبدأ في المدينة العليا في تل صهيون ــ حيث يقوم مقام النبي داود والقلعة وتقطع الوادى حتى تصل الى جبل الموريا في الشرق حيث كان الهيكل قائما .

وعلى هذه الجسور والقناطر كانت الطريق التي يسلكها هرودس فتوفر الهبوط الى الوادى والصعود الى جبل الهيكل .

ولكن اعظم فرح غمر قلبه عندما وصل الحفر الى المدماك الخامس عشر تحت قوس روبنسون حيث عثر على كتابة عبرية من ايام الامبراطور جوليان ــ الذي يسميه تاريخ الكنيسة المسيحية بالجاحد ــ بسبب اضطهاده للمسيحيين من سكان الامبراطورية وقد احرقت في زمانه عدة كنائس مسيحية ولا سيما في عسقلان ودمشق . وقد مات سنة ٣٦٣م . والكتابة مأخوذة من سفر أشعيا ١٤٠٦٦ «كانسان تعزيه امه . هكذا اعزيكم أنا في أورشليم تعزون . فترون وتفرح قلوبكم وتزدهر عظامكم كالعشب وتعرف يد الرب عند عبيده ويحنق على اعدائه» .

وهي عبارات تعبر عما يخالج نفوس العائدين الى القدس ليبدأوا تعمير الهيكل .

قصور العربية

ولكن فرحه اخذ يتلاشي عندما اكتشف ثلاثة قصور اموية استمرت مسكونة من قبل امراء القدس من العهد الاموي والعباسي والفاطمي حتى نشبت الحرب بين الفاطميين والسلاجقة والتي امتدت خمس سنوات واضعفت البلاد بحيث اصبحت لقمة سائغة للصليبيين فلم يجدوا صعوبة في اجتياح هذه الديار . وزاد

الطين بلة عندما اجتاح البلاد زلزال سنة ١٠٣٣ م . في ايام الخليفة الفاطمي الطاهر ـ ذلك الزلزال الذي صدع ابنية الحرم الشريف وقضت على القصور الاموية الثلاثة . لقد حمل الوازع الديني الفاطميين والسلاجقة على اصلاح المساجد ولكن القصور بقيت خرابا . ومما تبقى بعد هذا الزلزال غرفة صغيرة كانت مصلى ضمن مقبرة واسعة . ولقد ضاعت قبور هذه المقبرة عندما هدمها الصليبيون وبنوا بحجارتها سورهم . ولقد اكتشفت ناصية قبر كتب عليها اسم مسلم من سنة ١٠٠٢ م . وقد يكون المصلى والقبور حوله من عصر السلاجقة الذين فحوا القدس سنة ١٠٧١ م . ولقد وجدت كتابات كوفية من النوع الذي يكتب عادة على نواصي القبور . منها بسم الله الرحمن الرحيم هو الله الذي لا اله هو الحي القيوم ... باقي اية الكرسي[٤] .

وكان قد اعيد بناء السور الصليبي سنة ١١٨٢ اي قبل استرجاع القدس من قبل صلاح الدين بخمس سنين سنة ١١٨٧ . وبقي السور قائما حتى امر المعظم الايوبي سنة ١٢١٩ م . بهدمه خوفا من رجوع الصليبيين . واستمر الخراب في سور القدس حتى امر ببناء الاسوار السلطان سليمان القانوني وامتدت يد الاصلاح العثمانية حتى شملت جميع ابنية الحرم الشريف .

وتوسعت حفريات اليهود في سنة ١٩٧٠ حتى اكتشفت ثلاثة قصور اموية وتولى الحفر فيها الاستاذ مير بن دوف المساعد للبروفسور مازار . وقد جاء في تقريره[٥] :

اتضح منذ ابتداء الحفر بجوار الزاوية الجنوبية الغربية لسور الحرم الشريف[٦] ان الحاكورة التي يقع فيها الحفر بين جدار الاقصى والسور العثماني كانت تضم بناية واسعة مساحتها نحو سبعة دونمات ونصف الدونم . وباتساع رقعة الحفر كشفت بنايات اخرى لا تقل في اتساعها عن هذه البناية . وظهر فيما بعد انهما تكونان مبنى واحدا يمتد حتى اسفل مدرسة البنات التي بنيت في العهد الاردني في حي المغاربة .[٧]

المبنيان الثاني والثالث على طراز اموى واحد بحيث كان لكل منهما ساحة مكشوفة في الوسط تحيط بها اروقة مسقوفة مع سلسلة من القاعات تمتد على طول الجدران من الجهات الاربع .

هذه الابنية في شكلها طبق اصل لما وجد في قصور الاردن (الخرانة) وفلسطين (خربة المفجر وخربة المنية) وسوريا والعراق (قصر الحير) كما وصفها كرزويل في كتابه «العمارة الاسلامية الاولى» وكان لكل قصر منها ابراج في الزوايا معظمها مستدير . وفي اكثرها اضيفت ابراج في منتصف الاسوار الخارجية وغالبا ما تكون انصاف دائرية . ولم يسبق ان اكتشفت مثل هذه الابراج في

القدس قبل هذا الاكتشاف ، وتفسير ذلك ان اسوار القصور القدسية كانت ملاصقة لأسوار المدينة فلم تكن هناك فائدة من وجود ابراج خاصة فيها .

وقد تهدمت اسوار هذه القصور ولم يبق فوق سطح الارض سوى اجزاء قليلة الارتفاع . اما تحت الانقاض فقد بقي منها ما يصل الى اربعة امتار ، ويظهر ان هذه البنايات جزئت ببناء فواصل لتحول الى مساكن شخصية فيما بعد ولا سيما في العهد العباسي (القرن التاسع) وقد تراكمت الانقاض فوق المستوى الاموي نحو المتر حتى قامت فوقها المصطبة العباسية ولم يقم سكان البيوت الجديدة باصلاح قنوات الماء التي تصب في الابار ولا مجاري المياه القذرة.

كانت القدس قد تعرضت لخراب واسع اثناء الفتح الفارسي سنة ٦١٤ م . واستمر حتى الفتح العربي سنة ٦٣٨ م . وبدوافع مختلفة قام عبد الملك بن مروان الخليفة الاموي الخامس (٦٨٥ـ٧٠٥ م .) باعادة بناء القدس وتجميلها بالمساجد والقصور . واستمر ابنه الوليد (٧٠٥ـ٧١٥ م .) ينفذ مخططات ابيه وانجاز مشروعاته حتى تجاوزها في الاتساع فعاد الى القدس المجد الذي كانت عليه ايام هرودس الكبير . وقد دخلت حجارة هرودس في الابنية الاموية بعد ان نحتت على الطراز العربي كما نشاهد في ابنية الاقصى وقبة الصخرة ـ وكثيرا ما كان البناء الاموي يبنى حسب مخططات عصر هرودس دون ان يعرف ذلك البناء الاسلامي .

ومن اهم ما تركه البناء العربي في هذه المنطقة الشارع الفاصل بين الحرم وبين القصور وكان مبلطا ببلاط ناعم ابعاد البلاط الواحدة ٢٥ × ٣٥ سم و ٦٠ × ٧٠ سم وكان معدل عرض الشارع ٤٣٠ سم .

المبنى الثاني :

انه اوسع بناء وجد في هذه الحفريات وكانت ابعاده ٤٨ × ٩٦ مترا اي يكاد يكون باتساع المسجد الاقصى الحالي وكان سمك جداره الخارجي نحو ثلاثة امتار وكانت ساحته قد بلطت ببلاط ابعاده ٣٠ × ٤٠ سم و ٦٠ × ٧٠ سم . وكانت المياه تنصرف في مصارف الى ابار يتسع الواحد منها لثمان مئة متر مكعب من الماء . وكان يحيط بالساحة من الجهات الاربع اروقة مسقوفة حسب المخطط الاموي المألوف في جميع ابنيتهم . وعلى الاعمدة كانت السقوف التي تسقف الاروقة ومن خلفها القاعات وكانت القاعات تمتد حتى تلاصق الاسوار . ومن القاعات تصعد ادراج الى الطبقات العليا . وبلغ اتساع قاعات الجنوب والشرق ١٧ مترا بينما هي في الشمالي والغربي ٢٠ مترا . وبين القاعات بنيت فواصل . وقد بنيت الاسوار مزدوجة ـ واجهة خارجية من حجر منحوت وواجهة داخلية. وملء الفراغ بينهما بالطين الاموي القوي الحاصل من جبل التراب بالتبن وقامت

الاسوار على قواعد كانت تنزل في الارض نحو تسعة امتار . وعلى الارض من الداخل اقيمت المنافع البيتية كالمطبخ ودورات المياه والحمامات .

ومن اهم المخلفات التي جمعها الحفارون قطع من الرخام الابيض والاعمدة والتيجان وشعريات الشبابيك وقطع الدرابزيين كما وجد على بعض الحجارة اجزاء من الرسوم الملونة لأشكال هندسية وزخارف نباتية ــ وكلها من صناعة الامويين . واهم من نلك الحمامات كالتي وجدت في قصور خربة المفجر وخربة المنية وكانت هذه الحمامات تقام في الجهات الغربية المقابلة لمداخلها الشرقية .

يظهر ان خراب هذا المبنى نتج عن زلزال سنة ٧٤٧ــ٧٤٨ م . ولقد رمم هذا البناء في القرن الثامن او التاسع وقد رفعت الانقاض المتراكمة ارضية البناء الجديد نحو المتر . وتعرض هذا البناء لخراب افظع في العهد الفاطمي وفي الحكم الصليبي كما سيأتي .

المبنى الثالث :

جلت الحفريات في غربي المبنى الثاني عن مبنى ثالث قام على اساسه من الجنوب السور العثماني لمدينة القدس في القرن السادس عشر ولقد بني جداره الشمالي من حجارة مدقوقة دقا ناعما اصبحنا نرى منه فوق الارض ما ارتفاعه نحو المترين . ولاحد الابواب عتبة وخوخة (تقسم الباب الى نصف ارتفاعه) وبنى جداره الشرقي من حجارة ضخمة يزن بعضها ٣ــ٥ اطنان لم يبق منها الا القواعد . وكان مدخله من الشارع الغربي يمر بين المبنى والجدار الغربي لهذا المبنى الثالث يقع تحت باب المغاربة للمدينة ومن المنتظر ان يكون شكله كشكل الباب الشمالي في الطراز الاموي .

وان ما اكتشف منه الى الان لم يوضح انه كان فيه اروقة ولا قاعات كما تأكد وجود نلك في المبنى الثاني، على حين ان بلاط هذا المبنى كان كبلاط المبنى الثاني بالضبط . وفي بعض القاعات وجدت الفسيفساء ذات الاتساع ٥ر٢ × ٥ر٢ سم وفي المبنى مصارف ومجارى . غير ان جدرانه اقل ضخامة مما كانت في جدران الثاني بحيث لا يتجاوز سمكها ١٢٠ سم . وكان الوجه الخارجي مبنيا من حجارة ابعادها ٧٠ × ١٢٠ سم وحجارة الصف الداخلي من حجارة اصغر ٢٥ × ٣٥ سم . وبين الصفين يملأ الفراغ الطين الاموى المعروف . وقد بنيت الجدران على اسس عمقها ثلاثة امتار . ولقد جمعت من خنادق الحفر كميات من شقف الفخار والنقود من القرنين الثاني عشر والثالث عشر مما ساعد على كتابة معرفة تاريخه . ويعود سبب تخريبه الى اعمل الصليبيين

عندما ارادوا ان يحيطوا المنطقة بسور فامتدت ايديهم الى حجارته . وقد ابتدأ السور الصليبي من الزاوية الجنوبية الغربية واتجه شرقا حتى برج كبريت قرب الموضع المعروف ببيت محسي Batei Mahse بعد ان اجتاز فوق الجدار الجنوبي المهدوم .

المبنى الرابع :

للشمال من المبنى الثالث وللغرب من السور الغربي اكتشف مبنى اموى رابع ، وظهر ان جداريه الشرقي والجنوبي بنيا من حجارة ضخمة بما يقارب حجارة عصر هرودس وايام خراب الهيكل الثاني ، وهو يختلف في جدرانه عن جدران سابقيه من حيث انها بنيت من صف واحد من الحجارة وقد دقت حجارة الوجهين دقاقة ناعمة وطلي الوجه الداخلي بالقصارة . وما تبقى من اوصافه في البلاد والفسيفساء والطين وطراز البناء فانه متشابه تمام التشابه لسابقيه ويمتاز بما فيه من قطع الزخارف ذات الالوان الحمراء والزرقاء والسوداء والخضراء وبفصوص زجاجية ابعادها نصف في نصف سم كانت ترصع سقفا او واجهة داخلية ولا تزال هذه القطع لاصقة بالطين . ومع ان مخططه اموى صرف فان البعض يجعله من بناء العباسيين في القرن التاسع .

استنتاجات :

هكذا نستطيع ان نستنتج ان حركة العمران عادت الى القدس في العصر الاموى بعد ان خربت في نهاية عصر الهرادسة على ايدي الرومان . اعاد الامويون بناء الاسوار المحيطة بالمدينة واقيمت ابنية فخمة ضمنها ومع اننا لم نكشف حتى اليوم سوى ثلاثة ابنية فان الحفريات القادمة ستكشف ابنية اخرى .

واصبح من الضروري ان نعيد النظر في قوس ولسون ـ قرب باب السلسلة ـ والاقواس الاخرى الملاصقة لسور الحرم التي قال عنها المكتشف وارن انها من بناء القرن السادس ونحن نميل الى انها من عمل الامويين وذلك من دراسة طراز البناء ودق الحجارة والقصارة فانها كلها اموية وكل الدلائل تشير الى ان المبنى الثاني كان لاحد الخلفاء الامويين . كما كانت ابنية غيره تلاصق الحرم من الجنوب مخصصة لرجال الدولة والقيمين على المسجد .

ذكر المؤرخ الجغرافي «لي استرانج» Le Strange ان اسم باب البلاط في سور القدس في عهد الامويين مأخوذ من كلمة «بلاتيوم» اي القصر باللغة اللاتينية . ولقد ذكر المقدسي في كتابه «احسن التقاسيم لمعرفة الاقاليم» ان باب البلاط او باب القصر العظيم كان في الجنوب الشرقي من الحرم في المدينة وكان يؤدي الى القصر العظيم .

وتشير المصادر العربية الى وجود دار الاخماس في الجنوب من الحرم ـ وقد يكون المبنى الثاني ، فاذا صدق هذا الاستنتاج فان عمال الخليفة كانوا يسكنون في الطابق الارضي من القصر وكانوا يدخلون الى الحرم من الباب المزدوج ، وقد يكون ذلك منطبقا ايضا على المبنى الثالث كما وردت الاشارة الى ذلك في جنيزة القاهرة[٨] وكان المبنيان متلاصقين .

اما المبنى الرابع فقد يكون مسجدا بالنسبة للغرفة التي وجدت فيه مستعملة كمصلى بدلالة المحراب من جهة القبلة .

يذكر المقدسي في القرن العاشر وصفا لاسوار القدس وابوابها ويذكر منها باب الوليد ، وقد ذكره بهذا الاسم مؤرخ عربي اخر هو ابن عبد ربه على حين ان مجير الدين لم يذكره في القرن الخامس عشر ، اما لي سترانج فيجعل باب الوليد في الشمال الغربي من السور ، ولم يذكر المصدر الذي اعتمده في هذا التعيين ، وهو الباب الوحيد الذي الحق باسم بانيه ويجب ان يكون في السور الجنوبي على الجسر القادم من المبنى الثاني (شكل ٥٠١) اذا كان الوليد قد بناه حقيقة . وقد بقي هذا الجسر او الجناح صالحا للمرور حتى القرن العاشر ثم تنوسي او تم تعريبه فلم يذكره اي مرجع بعد هذا التاريخ .

وهكذا يمكن اعتبار عبد الملك بن مروان الروح التي حركت الاتجاه نحو اهمية القدس وعمل على اعادة عمرانها كاحد مراكز دولته العظيمة فبني قبة الصخرة وشرع في بناء المسجد الاقصى واتمه ابنه الوليد كما بنى الوليد المبنى الثاني او القصر الجنوبي وما جاوره من الابنية الاخرى كما امر بتبليط الشارع واضاف الجغرافي العربي «اليعقوبي» في القرن التاسع سببا في بناء قبة الصخرة فوق الاسباب السياسية والاجتماعية سببا فنيا قويا وهو ان تطغى قبة الصخرة على عظمة قبة القيامة .

ان سقوط الاسرة الاموية ومجيء الاسرة العباسية قد قطع الصلة بين مركز الخلافة في العراق وبين دمشق والقدس ، واخذ المركز الديني لمدينة القدس في الاضمحلال والنسيان . ودعمت هذا السبب حوادث طبيعية كزلزال سنة ٧٤٧ ـ ٧٤٨ م . الذي دمر القسم الاكبر من ابنية الامويين واعتبره العباسيون جزاء الاهيا لظلم بني امية فاصبحت ديار الظالمين خاوية على عروشها . ومع ان الوازع الديني حمل العباسيين على اصلاح المساجد الا ان القصور بقيت مهجورة مهملة حتى جاءت معاول المنقبين لتبعثها من جديد .

انتهى تقرير الاستاذ بن دوف اليهودي بايجاز ، اذا كانت هذه التقارير صادرة عن عدو كان يأمل بايجاد مركز هيكله وبقاياه ليكون في ذلك المبرر لاعادة بنائه ـ اذا كان هذا ماكتبة عدو فماذا كان منقب عربي سيكتب عن هذه

المكتشفات العظيمة التي ستفتح صفحة جديدة في تاريخ العرب في مدينة القدس بدأ يكتبها العدو مضطرا .

ولما دعي الجنرال موشي دايان وزير الدفاع الاسرائيلي لمشاهدة هذه الحفريات ظهر عليه الامتعاض وأمر بازالة هذه الطبقة العربية الى ما تحتها من الطبقتين البزنطية والرومانية وازالتهما ايضا بعد ان تنتهي دراستهما والتوقف عند طبقة هرودس ــ باني الهيكل الثاني . وقد اشترط دايان بأن يكون عرض هذا الكشف ما لايقل عن عشرين مترا حول الحرم الشريف .

حواشي

١ ـ جغرافية الكتاب وتاريخه تأليف فوست كنت وترجمة غبريل ـ بيروت سنة ١٩٢٣ .
٢ ـ لقد اثبت النص الكامل لهذه المذكرة في كتابي (مأساة بيت المقدس) ص . ١٧٧ـ١٩٤ .
٣ B. Mazar : **The in the old city of Jerusalem Near the Temple Mount** 1969-1970.

وقد اصدرته سنة ١٩٧١ الجمعية الاثرية الاسرائيلية .

٤ ـ ولقد ورد في تاريخ الاخشيديين ان ملوكهم الاربعة اوصوا ان يدفنوا في تربة بيت المقدس وقد نفذت وصاياهم . وعبثا حاول الباحثون العثور على قبور هؤلاء الملوك بعد ان طمس الصليبيون ما تبقى من الابنية الاسلامية في جنوبي الاقصى . لعل هذا الاكتشاف يزيل شيئا من هذا الغموض ... انني لا استبعد ان تكون هذه المقبرة هي مقبرة عظماء المسلمين ولم تسلم كما سلمت المقبرة اليوسفية خلف السور الشرقي ـ خلف باب الرحمة .

٥ ـ Meir Ben-Dove : The Omayyad Structures Near the Temple Mount 1969-1970.

٦ ـ هم يسمونه جبل البيت .
٧ ـ هدمها اليهود فيما بعد .
٨ ـ الجنيزة حفر كالقبر تلقى فيها الكتابات الدينية حتى تبلى من ذاتها .

المسيحية في ارض الشام في أوائل الحكم الإسلامي

الدكتور صالح الحمارنة
قسم التاريخ والآثار- الجامعة الاردنية

انني هنا في مقالتي هذه انما اسوق بعض الحقائق التاريخية والادبية لتقوم دليلا يسند ما جاء في مقالة الزميل الدكتور (بوستنيان فان الدرن) حول موضوعنا المشترك عن المسيحية في ارض الشام في اوائل الحكم الاسلامي.

ان العرب قد تواجدوا في ارض الشام منذ اوائل الالف الاولى قبل الميلاد وعلى فترات منقطعة وقد ازداد تواجدهم بشكل ملحوظ منذ القرن الثالث ميلادي حتى ظهور الاسلام[1] فهذه الكتابات الصفوية الكثيرة تعطينا صورة عن تواجد الصفويين في ارض الشام حول دمشق من الجهة الشمالية والجنوبية منذ مطلع القرن الاول للميلاد، ونرى ان سيل هجرتهم يستمر، ففي القرن الرابع الميلادي سكنوا المناطق في جهة الازرق في شرقي الاردن وشمالي تدمر في سوريا وشمالي بعلبك في لبنان اليوم[2]. وان الآثار التي وصلتنا عن الصفويين من كتابات ونقوش وصور تشير الى انهم بقوا على وثنيتهم وانهم قد تأثروا بالحضارات السامية المحلية السابقة وكذلك بحضارة العصر الروماني المتأخر[3]. وبما اننا نرى دليلا ساطعا على تواجد العرب في ارض الشام وفي منطقة فلسطين وحوران بالذات منذ القرن الرابع ميلادي، فالآثار تشير الى أن هذه المنطقة كانت كثيفة السكان بدليل وجود آثار على ثلاثمائة قرية ومدينة ترجع بتاريخها الى العصر الروماني المتأخر والعصر البيزنطي وبهذه المنطقة تقع النماره حيث وجدت اولى الكتابة العربية بالخط العربي المتصل الحروف والتي يرجع تاريخها الى ٣٢٨ م وتذكر هذه الكتابة اسم امرؤ القيس ملك العرب اللخميين[4].

من هنا نرى ان كثيرا من العرب ناهيك عن الانباط والتدمريين جاءوا هذه المنطقة وجاوروا اخوانهم الساميين السابقين ويلوح لنا ان هؤلاء العرب بقي قسم

كبير منهم على وثنيتهم حتى بعيد مجيء الاسلام. ونرجح انهم وبدوافع واضحة كانوا الى جانب العرب المسلمين في حربهم ضد البيزنطيين.

اما العرب الذين تنصروا فقد اخذوا ذلك عن ابناء عمومتهم الآراميين الذين سبقوهم الى النصرانية وايضا بتأثير مباشر من البيزنطيين في الفترة اللاحقة، نرى ان قبائل الضجاعمة العرب الذين سبقوا الغساسنة في سكنى منطقة البلقاء وكانوا ملوكا في الشام قبل غسان قد تنصروا ايضا قبل الغساسنة وقد جاء في الاخبار ان اسم احد امرائهم الذي تنصر داوود بن الهبومه المعروف باللثق وجعلوا مقامه مأدبا وذلك في أواخر القرن الثاني للمسيح[٥]. ويذكر المسعودي "وكانت قضاعة بن مالك بن حمير اول من نزل الشام وانضافوا الى ملوك الروم، فملكوهم بعد ان دخلوا في النصرانية على من[٦] حوى الشام من العرب (مسعودي مروج ١: ٣٦٥). ويستمر المسعودي "ثم وردت سليح الشام فغلبت على تنوخ وتنصرت فملكتها الروم على العرب الذي بالشام وهم من قضاعة... فاستقام ملك سليح بالشام[٧] ن.م ص ٣٦٥".

وكما هو معروف ففي القرن الرابع ميلادي كانت مدينة البتراء ــ عاصمة ما يعرف بفلسطين الثالثة ــ وقد بلغ عدد[٨] الكراسي الاسقفية المسيحية فيها نيفا واربعين كرسيا وهذا يدل بوضوح على الكثرة العددية للمسيحيين في المنطقة وعلى انتشار النصرانية هناك.

وتشير الدلائل الى ان الربة في جنوبي الاردن اخذت تزدهر وتأخذ مكان البتراء، وبقيت هذه المدينة على ازدهارها حتى نهاية القرن السابع ميلادي. وكان رجال الدين في الربة يمارسون في كنائسهم استعمال اللغة اليونانية كلغة طقوس دينية وان اهاليها كان لديهم الحماس الكثير في بناء الكنائس والاكثار منها[٩].

ونعود لنذكر ان في منطقة حوران يذكر محمد كرد علي انه في اكثر امهات قرى حوران كنائس امتدت حتى العصر الاسلامي خربت بطول الزمن حتى قيل انه كان فيها ٣٤ اسقفية ناهيك بما يقتضي لها من الكنائس[١٠].

ويذكر الاب فيدرلين انه في مطلع القرن السادس ميلادي كان في نواحي الغور وعلى ضفتي نهر الاردن اديرة عديدة يعرف مواقع عشرين منها[١١]. وفي كتاب "مدينة النبو" يذكر الابوان سالر وبكاتي Saller and Bagatti انه يوجد اكثر من ١٤١ موقعا مسيحيا في شرقي الاردن وذلك قبيل دخول الاسلام[١٢].

اما بالنسبة لبني غسان ــ وهم من قبائل الازد ــ والذين جاءوا من جنوبي الجزيرة وسكنوا الشام عند الحدود البيزنطية في حوالى سنة ٤٩٠م "وكانت ديار

ملوك غسان باليرموك والجولان، وغيرهما من[13] غوطة دمشق واعمالها، ومنهم من نزل الاردن من ارض الشام... وببلاد مادبا من ارض البلقاء من بلاد دمشق وكذلك مدائن قوم لوط من ارض الاردن وبلاد فلسطين[14]. وهذه القبائل العربية قد قبلت المسيحية وقامت على علاقات ودية مع الامبراطورية البيزنطية وكانت تدفع ضريبة الحماية ولقب زعيم الغساسنة بالملك Phylarch· غير ان العرب الغساسنة اتخذوا المذهب المونوفيزيقي القائل بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح. وقد تحمس لهذا المذهب يعقوب البردعي مطران الرها[15] حتى صارت الكنيسة المونوفيزية تعرف بكنيسة اليعاقبة.

وجدير بالذكر ان الغساسنة اليعاقبة كان لهم نشاط تبشيري كبير في المنطقة خاصة في الجزيرة وفي نجران بالذات، وكان لهم حتى القرن الثامن ميلادي نشاط ملحوظ في العمران وفي بناء الاديرة. ومن اديرتهم دير ايوب ودير الدهنا، وكان بنو غسان يعتمدون ببنائهم المواضع الكثيرة الشجر والرياض والمياه ويجعلون من حيطانها وسقوفها الفسافس والذهب. وقد حذا حذوهم المناذرة في الحيرة وبنو الحارث بن كعب في نجران. صحيح ان اكثرية الغساسنة اعلنت اسلامها... ولكن كثيراً من العائلات المسيحية العربية في بلاد الشام حتى اليوم هم من بقاياهم[16].

اما بالنسبة لبني تغلب هذه القبائل العربية الابية والتي اخذت توطد اقدامها في القرن السادس ميلادي – على المجرى الادنى لنهر الفرات. وكانت قصبة منازلهم في القرن الاول للهجرة وسط الجزيرة بين قرقيسيا ونصيبين والموصل شمالا وتكريت وعانة جنوبا، وجدير بالذكر هنا ان طريق الهند التجاري الشهير كان يمر بارضهم اذ كانت تمر انذاك بالجزيرة الطرق التجارية في جميع الاتجاهات[17].

ولقد اتصلت تغلب بجيرانها من النصارى فتسربت لبني تغلب الديانة المسيحية وذلك قبل ظهور الاسلام بزمن ليس بالبعيد/ لم ترد في معلقة عمرو بن كلثوم اية اشارة الى النصرانية/ لم يتغلغل دين المسيحية في قلوب بني تغلب ولم يكن الخليفة علي بن ابي طالب مبالغا حين اشار الى احدى القبائل "وهي تغلب" التي تأصلت المسيحية فيها بأنها لم تأخذ عن النصرانية سوى الخمر.[18] غير اننا نراهم قد استمسكوا به، (الدين المسيحي) فلم تفلح جميع المحاولات التي بذلها المسلمون في القرون الاولى من الهجرة لادخالهم في دينهم – يستثنى من ذلك جماعة صغيرة كانت تعيش في جوار طي – نرى أنه حتى القرن الرابع هجري –

العاشر ميلادي ـ بقي جزء كبير من بني تغلب على نصرانيتهم، بدليل ان الكنيسة اقامت اسقفا على هذه القبائل في القرن العاشر ميلادي[١٩].

ومأثور ان قبائل بني تغلب بدلا من ان تدفع الجزية كانت تدفع الصدقة مضاعفة. فالمسلمون قد صادقوا هذه القبائل العربية لكسب جانبهم، وذلك لاهميتهم البشرية والحربية والاقتصادية ثم لكونهم عربا يعتزون بعروبتهم. فابن سلام في كتابه الاموال ينقل لنا ما يلي: قال النعمان او زرعة بن النعمان لعمر بن الخطاب: يا امير المؤمنين ان بني تغلب قوم عرب يأنفون الجزية وليست لهم اموال، انما هم اصحاب حروث ومواشي ولهم نكاية في العدو. فلا تعن عدوك عليك بهم، قال، فصالحهم عمر على ان ضاعف عليهم الصدقة واشترط عليهم ان لا ينصروا اولادهم[٢٠].

ويذكر الماوردي ان عمر بن الخطاب قد ضاعف الصدقة على تنوخ وبهراء زيادة على بني تغلب، كما صالح عمر نصارى الشام على ضيافة من مر بهم من المسلمين ثلاثة ايام مما يأكلون، وجعل ذلك على اهل السواد دون المدن[٢١]، وجاء في كتاب الخراج لابن آدم، "والمرأة والرجل من بني تغلب سواء في الصلح لانه ليس على رؤوسهم انما هو على اراضيهم[٢٢].

نعم لقد جاء ان الرسول (ص) امر ان يقاتل العرب على الاسلام، ولا يقبل منهم غيره وامر ان يقاتل اهل الكتاب حتى يعطوا الجزية[٢٣]، يقصد هنا بالعرب اهل الاوثان منهم، فنحن نعلم تمام العلم ان الرسول الكريم صالح مجوس هجر وهم عرب على الجزية[٢٤]، وقبلها من اهل نجران[٢٥] وهم نصارى، واخذها ابو بكر من اهل الحيرة النصارى ايضا، وكذلك فعل خالد بن الوليد ببني تميم وغسان وتنوخ من عرب الشام[٢٦]. اذن نحن نواجه قبيل الاسلام وبعد الفتح بقليل شعوبا وقبائل عربية كثيرة سكنت ارض الشام واقامت سلطانا وملكا لها في كثير من نواحيه، وهؤلاء العرب في الغالب اما وثنيون واما نصارى. ونجد ان الوثنيين منهم كانوا على صلة ضعيفة بالحضارة البيزنطية في حين انهم تأثروا بالحضارات السامية المحلية وبالحضارة الهيلينية بعض الشيء. هؤلاء استقبلوا العرب المسلمين على العموم استقبالا جيدا كذلك فعل النصارى، فالنصارى كانوا في الغالب على خلاف حاد مع الكنيسة الملكانية الارثوذكسية في القسطنطينية. فهم اما يعاقبة كالغساسنة في الشام او نساطرة كأهل الحيرة. فكانوا بهذه العقلية اقرب روحا الى المسلمين منهم الى الارثوذكسيين المسيحيين[٢٧]. وما مضى وقت قصير حتى قبل العرب الوثنيون الدين الحنيف الجديد واندمجوا في المجتمع مع

احتفاظهم في البدء بدينهم وبالتدريج قبل غالبيتهم الاسلام. فنقرأ في كتب الفتوح وغيرها ما يؤيد ما ذهبنا اليه... فالبلاذرى يذكر ان بني تنوخ وغيرهم ارسلوا الى خالد بن الوليد «انهم عرب وانهم انما حشروا مع الروم، ولم يكن من رأيهم حربه «فقبل بهم وتركهم[٢٨]. ونقرأ في مكان آخر، في الاموال لابن سلام قال «حدثنا هشام بن عبد الله بن قيس قال كنت فيمن تلقى عمر مع ابي عبيدة مقدمه من الشام، بينما عمر يسير اذ لقيه المقلسون من اهل اذرعات بالسيوف والريحان[٢٩].

ونعلم ايضا ان جراجمة الشام حاربوا في صفوف المسلمين، ونطالع في اوراق البردى العربية اسماء كثيرة للجند تدل على ان اصحابها من القبط والاراميين وغيرهم، وقد تعاون النصارى في دمشق مع المسلمين، فهذا المنصور بن سرجون (سرجيوس) قد تعاون مع المسلمين في تسليم دمشق للعرب، ومنصور هذا ارامي الاصل وهو والد يوحنا الدمشقي المعروف[٣٠].

ثم جاء الفتح الاسلامي فحمل معه الطمأنينة والهدؤ للكثيرين الامر الذي سمح بالتقدم الاقتصادي في البلاد. وكان الدين الجديد متسامحا مع الاديان الاخرى، فلقد التزم المسلمون بالعهود التي اعطوها. وهنا يطيب لي التذكير بالعهود التي قطعها الصحابة المسلمون على انفسهم، فمثلا نقرأ في العهد الذي اعطاه خالد بن الوليد لاهل دمشق. ــ بسم الله الرحمن الرحيم... هذا ما اعطى خالد بن الوليد اهل دمشق بعد فتحها. اعطاهم امانا لانفسهم ولاموالهم وكنائسهم لا تهدم اذا ما اعطوا الجزية[٣١]. وذكر ابن عساكر انه كان في عهد دمشق خمس عشرة كنيسة. وكذلك اقام بدمشق بعد فتحها اثنا عشر بطريقا الى حين تم بدالهم فهربوا من دمشق، وتركوا تلك المنازل فصارت اقطاعا لقوم من اشراف دمشق[٣٢].

وحتى في وقت مبكر يرد في وصية ابي بكر الصديق لجنوده الذين خرجوا للفتح ونشر الدعوه قال «لا تهدموا بيعة ولا تقتلوا صبيا، وستجدون اقواما قد حبسوا انفسهم للذي حبسوها فذروهم وما حبسوا انفسهم له[٣٣].

بل ننظر كم من التفهم والرحمة ما رواه الاوزاعي وجاء في كتاب ابن العساكر «التاريخ الكبير» ان عمر بن الخطاب كتب في اهل الذمة ان من لم يطق الجزية خففوا عنه، ومن عجز فأعينوه فانا لا نريدهم لعام او لعامين[٣٤].

وروى نافع عن ابن عمر قال. كان آخر ما تكلم به النبي (صلعم) ان قال احفظوني في ذمتي[٣٥] وقال وسول الله (صلعم) من ظلم معاهدا او كلفه فوق طاقته فانا حجيجه الى يوم القيامة[٣٦].

ونجد ان الامويين الاولين خاصة معاوية وولده يزيد قد اعتمدوا على نصارى الشام من كلب وتغلب وغسان ولخم وغيرهم بل ايضا اعتمدوا النصارى من غير العرب. فقد توسع معاوية في الحاق المسيحيين بخدمته وحذا حذوه في ذلك افراد آخرون من البيت المالك[٣٧].

وفي راينا ان هذه السياسة الحكيمة الكريمة ليست من باب التسامح فحسب، بل كان يفرضها ضرورة التعاون والتحالف ما بين الامويين وبين اخوانهم العرب في الشام خاصة اليمنيين الذين سبق لغالبيتهم ان استقروا وتحضروا بارض الشام وفيها تنصروا. فهم قد عرفوا الحياة المستقرة وسكنى المدن والحياة الزراعية والتجارة. هذا زيادة على اعدادهم الكبيرة والتي كانت تفوق اعداد المسلمين، وانهم قد اندمجوا في البلاد منذ زمن بعيد قبل الاسلام فهم في اعداد اهلها... وهم كما هو معروف كانوا على خلاف مع البيزنطيين والكنيسة الارثوذكسية. كل هذا اوجب التحالف ما بينهم وبين الامويين الذين بدورهم ـ زيادة على العدو الخارجي قد واجهوا معارضة شديدة من العرب في المدينة المنورة وفي العراق.

واذا ما استمرينا في استعراض صور التسامح الديني عند المسلمين خاصة في العصر الاموي فاننا نجد من ذلك الكثير. فمثلا في سيرة يزيد بن معاوية الذي كان مثل ابيه متسامحا متعاونا وفوق ذلك كانت امه ميسون الكلبية نصرانية ومن اليعاقبة[٣٨]. فكان يزيد لينا مع المسيحيين وكان شاعره المفضل الاخطل التغلبي النصراني المشهور الذي قال فيه حماد الراوية (ما تسألونني عن رجل قد حبب الي شعره النصرانية)[٣٩]. وفي عهد هشام بن عبد الملك والذي كان عامله على العراق خالد القسرى المشهور بتسامحه الزائد مع النصارى في العراق فقد سمح لهم ببناء الكنائس الجديدة الكثيرة وكانت امه نصرانية[٤٠].

في هذا العهد نقرأ ان هشام بن عبد الملك اعاد شغل كرسي انطاكية بعد ان منعوا من ذلك اربعين سنة، ولكنه اشترط تعيين راهب بسيط هو اسطفان الذي كان صديقا له في كرسي انطاكية[٤١]. ومن علامات التسامح ايضا نرى من جهة اخرى كثرة البنائين النصارى الذين كانوا يعملون في اكثر المساجد الاسلامية ثم نرى كثرة الاديرة التي بناها المسيحيون والدور البارز لهذه الاديرة في الحياة الاجتماعية في صدر الاسلام مما نجد نماذج عن ذلك في اكثر كتب الادب والسير. وكيف ان هذه الاديرة كانت المكان المفضل الذي يلتقي فيه رجالات الادب والشعر والفكر والسياسة المسلمون. وكيف كانوا يطلبون في ظلالها الراحة والاستجمام.

وقد حمل كثير من هذه الاديرة اسماء رجالات المسلمين البارزين مثل دير خالد قرب دمشق، ويسمى ايضا دير صليبا. ولا ننسى ان هذه الاديرة كان موطنها الاول بلاد الشام منذ القرن الرابع ميلادي وما بعده[٤٢]. وجدير بالذكر ان تاريخ الاديرة النصرانية (الديارات) في مصر وغربي آسيا قد صنفه كاتب مسلم هو علي بن محمد الشابشتي المتوفى حوالي عام ٣١٨ هـ.٩٩٨م[٤٣]. ونعلم ايضا ان كبار الكتاب المسلمين اعلام الثقافة العربية الاسلامية امثال المسعودي وابن حزم والبيروني والمقريزي قد اهتموا بالديانات الاخرى وكتبوا عنها الكثير.

ومعلوم ان اغلب نقلة الكتب اليونانية والسريانية الى العربية في العصور الاسلامية الاولى كانوا من النصارى عرباً وغير العرب. ومن اقدمهم اسطفان الكبير الذي استجاب لخالد بن يزيد بن معاوية فترجم له كتبا كثيرة[٤٤]، والمسلمون كما يقول ترتون كريمون في تقدير فضائل هؤلاء العلماء والمترجمين ممن على غير ملتهم حتى انهم كانوا يسمون حنين ابن اسحق برأس اطباء عصره. ويعجب ابن خلكان من ان رجلا في ذكائه وعبقريته لم يعتنق الاسلام[٤٥]، كذلك نجد ان اهل الذمة اخذت تدخل في جيوش المسلمين فالطبري يذكر ان مروان بن الحكم استعان بمائتي رجل من اهل ايلة وهم نصارى لضبط المدينة المنورة[٤٦]. وأن أهل الذمة كانوا يؤثرون الخدمة الحربية على دفع الجزية[٤٧].

وقد اقر عمر بن عبد العزيز على حضور الذميين في معظم الجيوش[٤٨]. والبلاذري يذكر ان ابا زبيدة الطائي الشاعر النصراني حارب مع المسلمين في معركة الجسر... حمية للمسلمين وساهم الى جانبهم[٤٩].

اما مظاهر عدم التسامح والتشدد ضد المسيحيين واهل الذمة عموما والتي نقرأ عنها عند ابن عساكر[٥٠] والشعراني[٥١] والماوردي[٥٢] وغيرهم من الكتاب المسلمين المتأخرين نسبيا، هذه المظاهر جاءت اما عن اجتهادات شخصية للحكام واما كانت بتأثير من العناصر المسلمة وغير العربية والتي توصلت للسلطة والتي لا يربطها مع العرب المسيحيين رابطة الدم واللغة والتقاليد المشتركة، فجاء هذا التشدد الذي ولا شك فرضته حالات اقتصادية وسياسية معينة ووقتية، فنقرأ ان كثيرا من الخلفاء قد زادوا في الجزية والخراج على اهل الذمة، زادها عبد الملك بن مروان[٥٣] وزادها ولده هشام بن عبد الملك[٥٤] ويروى الجهشارى عن سليمان بن عبد الملك انه قال لعامله (هبلتك امك احلب الدر فاذا انقطع فاحلب الدم والنجا)[٥٥].

ثم في زمن يزيد بن عبد الملك (اشتد ايضا اسامة بن يزيد التنوخي متولي

الخراج على النصارى واوقع بهم واخذ اموالهم ووسم ايدي الرهبان)[٥٦] ويروى المقريزي ان عمر بن عبد العزيز امر باحصاء الرهبان فاحصوا واخذت الجزية منهم عن كل راهب، وهي اول جزية اخذت من الرهبان[٥٧]. ويلخص الماوردي فيما بعد لشروط التي تفرض على اهل الذمة عند عقد الجزية فيما يلي (ويشترط عليهم في عقد الجزية شرطان مستحق مستحب. اما المستحق فستة شروط احدها ان لا يذكروا كتاب الله تعالى بطعن فيه ولا تحريف له. والثاني ان لا يذكروا رسول الله (صلعم) بتكذيب له ولا ازدراء. والثالث ان لا يذكروا دين الاسلام بذم له ولا قدح فيه. والرابع ان لا يصيبوا مسلمة بزنا ولا باسم نكاح. والخامس ان لا يفتنوا مسلما عن دينه ولا يتعرضوا لماله ولا دينه. والسادس ان لا يعينوا اهل الحرب ولا يودوا اغنياءهم. فهذه الستة حقوق ملتزمة فتلزمهم بغير شرط، وانما تشترط اشعارا لهم وتأكيدا لتغليظ العهد عليهم ويكون ارتكابها بعد الشرط نقضا لعهدهم.

واما المستحب فستة اشياء احدها تغيير هيئاتهم بلبس الغيار وشد الزنار. والثاني ان لا يعلوا على المسلمين في الابنية ويكون ان لم ينقصوا مساويين لهم. والثالث ان لا يسمعوهم اصوات نواقيسهم ولا تلاوة كتبهم. والرابع ان لا يجاهروهم بشرب خمورهم ولا باظهار صلبانهم وخنازيرهم. والخامس ان يخفوا دفن موتاهم ولا يجاهروا بندب عليهم ولا نياحة. والسادس ان يمنعوا من ركوب الخيل عناقا وهجانا ولا يمنعوا من ركوب البغال والحمير).

وهذه الستة المستحبه لا تلزم بعقد الذمة حتى تشترط... ولا يكون ارتكابها بعد الشرط نقضا[٥٨]. ويذكر ايضا الماوردي (ولا يجوز لاهل الذمة ان يحدثوا في دار الاسلام بيعة ولا كنيسة، فان احدثوها هدمت عليهم، ويجوز ان يبنوا ما استهدم من بيعهم وكنائسهم العتيقة[٥٩].

هذه الشروط المتأخرة وغير المسامحة والتي وردت عند بعض المؤرخين المسلمين المتأخرين فعندنا الكثير مما ينقدها حتى ان الماوردي نفسه يذكر ان لكل قوم صلحا ربما خالف ما سواه[٦٠]. اظهرت الاكتشافات الاثرية في الاردن وخاصة في منطقة مادبا كما ذكرها الدكتور فان الدرن ان المسيحيين وفي ظل الاسلام قد واصلوا بناء كنائس جدد لهم ودورا للعبادة تخصهم وبقوا مع اخوانهم العرب في ظل الحكم الاسلامي آمنيين على حياتهم وممتلكاتهم ناعمين بحرية التفكير الديني. وقد تمتعوا ــ خاصة في المدن ــ بحالة من الرفاهية[٦١] بل اكثر من ذلك، فنرى ان المسيحيين كانوا يحتكمون للخليفة في مسائلهم الدينية بل وتمنعهم

السلطة الاسلامية من الاعتداء على بعضهم البعض، فنجد ان اليعاقبة والموارنة كانوا يحتكمون الى معاوية في امورهم الدينية[٦٢] بل اكثر من ذلك فنقرأ في الاغاني انه كان للمسيحيين الحرية التامة في دخول المساجد الاسلامية[٦٣]، والظاهر ان الذميين في عصور الاسلام الاولى كانوا يتحاكمون الى القاضي في المسجد ولطالما قام الاخطل مقام الحكم لقبيلة بكر بن وائل في المسجد[٦٤].

ومما يدل على مواصلة المسيحيين في بناء كنائسهم في العصر الاموي النقوش الفسيفسائية والموجودة في ارضية الكنائس المتعددة مثل كنيسة العذراء مريم في مادبا والتي يرجع تاريخها للعصر الاموي عام ٦٦٢ ــ ٦٦٣م وكنيسة اخرى في ربة مؤآب ترجع الى عام ٦٨٧م. ونقرأ كذلك ان احد النصارى من ذوي اليسار في مدينة الرها يدعى اتيناس قد بنى في عهد عبد الملك بن مروان (٦٨٥ ــ ٧٠٩) كنيسة جميلة وقفها على السيدة مريم... كما اقام بناء للتعميد تكريما لصورة السيد المسيح.

وهذا الرجل نفسه الذي انتقل بعد ذلك لمصر حيث اصاب ثراء فاحشا اثناء ولاية عبد العزيز والي مصر من قبل اخيه الخليفة عبد الملك فقد بنى في مصر ايضا كنيستين عظيمتين في الفسطاط[٦٥].

ويذكر محمد كرد علي انه في سنة ٦٧٠م ايام الامويين اضيفت كنيسة العذراء الى كنيسة الجلجلة في مدينة القدس[٦٦]. ويقول تيوفانس ان معاوية قد بنى بيعة للنصارى في الرها هدمها الزلزال[٦٧] ويذكر آرنولد انه من اعمال تيميتاوس الكبير بطريرك النساطرة انه سام اسقف نجران وصنعاء واسمه بطرس في اواخر القرن الثامن ميلادي[٦٨]. ويذكر ابن النديم في كتابه الفهرست انه اجتمع براهب من نجران في اليمن يدعى حسان كان انفذه جاثليق النساطرة الصين فعاد منها سنة ٣٧٧هــ اي ٩٨٨م واخبره بعجائبها[٦٩] اذا فالفتاوى التي تقول انه في المدن التي اخذت عنوة لا يصح للذميين ان يقيموا فيها دورا للعبادة امر غير دقيق.

من جهة اخرى نرى ان تبادل الآراء والمناظرات والمناقشات كانت قائمة بين اصحاب مختلف الاديان فمثلا منذ الوقت المبكر للاسلام نسمع ان عشرة من اساقفة نجران قدموا على الرسول الكريم وجادلوه[٧٠]. وكانت عاصمة الامويين دمشق مسرحا قامت عليه كثير من المناقشات الدينية ما بين المسلمين والمسيحيين، ومن اكبر المناظرات التي قامت بين علماء الدينين تلك التي سجلها يوحنا الدمشقي وتيودور ابو قره وهي معروفة، وقد رأى البعض ان المذاهب الاولى الخارجة على السنة في الاسلام نشأت من هذه المناقشات الدينية مثل الارجاء والقدرية[٧١].

ولهذه الخلافات الدينية اثر بارز في حياة عرب الشام الروحية، فيرى المؤرخ كتياني ان كثرة الخلافات بين المذاهب المسيحية المتعددة قد جعلت كثيرا من العرب المسيحيين ينفرون من دينهم ويقبلون على الدين الجديد[٧٢] (لاكثر من سبب).

وان انتشار الاسلام بين نصارى الكنائس الشرقية انما كان نتيجة شعور باستياء السلطة المذهبية التي جلبتها الروح الهيلينية الى اللاهوت المسيحي، اما الشرق الذي عرف بحبه للافكار الواضحة البسيطة فقد كانت الثقافة الهيلينية وبالا عليه من الوجهة الدينية. ويستمر كتياني ويقول (لم تعد المسيحية قادرة على مقاومة اغراء الدين الجديد...) الذي قدم مزايا مادية جليلة الى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التي لا تقبل الجدل[٧٣] وحينئذ ترك الشرق المسيح وارتمى في احضان نبي بلاد العرب.

المصادر والمراجع

١ ـ **عبد العزيز الدورى** العرب والارض في بلاد الشام في صدر الاسلام عن مقالته لمؤتمر بلاد الشام عمان.

٢ ـ **فوزى زيادين** القيان في النقوش الصفوية مجلة «صوت الارض المقدسة» العدد ٦٢ عمان ١٩٧٣

٣ ـ **فيليب حتي** تاريخ العرب ـ دار الكشاف للطباعة بيروت ١٩٦١ ج ١ ص ٩٢.

٤ ـ **ابن حزم الاندلسي**

جمهرة انساب العرب

أ ـ تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف القاهرة ١٩٦٢ ص ٤٧٠

ب ـ مجلة المشرق ١٤/٤٦٦

٥ ـ **مجلة المشرق ١٤/٤٦٠**

٦ ـ **المسعودى ابو الحسن**

مروج الذهب، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد القاهرة ١٩٦٦ ج ١ ص ٣٦٥

٧ ـ **المسعودى**، ن. م ج ١ ص ٣٦٥

٨ ـ **مجلة المشرق ١٤/٤٦٨ ١٩١١**

٩ ـ **فوزي زيادين** F. Zayadine, un Séisme a Rabbat Moab D'après une inscription Grecque du Vie S. P 139-144

١٠ ـ **محمد كرد علي** خطط الشام دمشق ١٩٢٥ ص ٣٧ ـ ٣٨

١١ ـ **فيدرلين** Federlin مجلة الارض المقدسة ١٩٠٢ ـ ١٩١١ مشرق ١٤/٤٦٨

١٢ ـ Saller and Bagatti, The town of Nebo, Jerusalem 1949.

١٣ ـ **المسعودى** مروج الذهب ج ١ ص ٣٦٧

١٤ ـ **المسعودى** ن. م ج ١ ص ٣٦٧

١٥ ـ **حتي** العرب ص ١٠٤
١٦ ـ **محمد كرد علي** خطط الشام ج ٦ ص ٣٧
١٧ ـ **كندرمان** دائرة المعارف الاسلامية ـ الترجمة العربية ج ٥ ص ٣٢٤ ـ ٣٣٧
١٨ ـ **دورزى** تاريخ مسلمي اسبانيا الترجمة العربية القاهرة ١٩٦٢ ص ٢٣
١٩ ـ **كندرمان** دائرة المعارف الاسلامية الترجمة العربية ج ٥ ص ٣٢٤ ـ ٣٣٧
٢٠ ـ **ابن سلام، ابو عبيد القاسم بن سلام**، كتاب الاموال ـ تحقيق محمد خليل القاهرة ١٩٦٨ ص ٤٠
٢١ ـ **الماوردى ابو الحسن على بن محمد بن حبيب**، الاحكام السلطانية والولايات الدينية الطبقة الثانية القاهرة ١٩٦٦ ص ١٤١
٢٢ ـ **ابن آدم القرشي** القاهرة كتاب الخراج سنة ١٣٤٧ ص ٦٧
٢٣ ـ **ابن سلام**، الاموال ص ٤٠
٢٤ ـ **ابن سلام**، ن. م ص ٣٧
٢٥ ـ **ابن سلام**، ن. م ص ٣٨
٢٦ ـ **ابن سلام**، ن. م ص ٣٩
٢٧ ـ **آرنولد، توماس** الدعوة الى الاسلام ترجمة حسن ابراهيم حسن وغيره الطبقة الثالثة ـ القاهرة ١٩٧٠ ص ٨٩
٢٨ ـ **البلاذرى، ابو الحسن** فتوح البلدان ص ١٤٤
٢٩ ـ **ابن سلام**، الاموال ص ٢٢٣
٣٠ ـ **حتي**، العرب ص ٢٠٣
٣١ ـ **ابن عساكر، ابو القاسم عبد الله بن الحسين**، التهذيب ص ٢٤١
٣٢ ـ **ابن عساكر**، ن. م ٢٤٠ ـ ٢٤٣
٣٣ ـ **البلاذرى** فتوح ٩٤ ـ ١٠٧
٣٤ ـ **ابن عساكر**، التاريخ الكبير ج ١ ص ١٧٩
وابن سلام، الاموال ص ٣٥٨
٣٥ ـ **الماوردى**، الاحكام السلطانية ص ١٤٣
٣٦ ـ **ابن آدم**، الخراج ص ٧٥
٣٧ ـ **حتي**، العرب ص ٢٥١ ـ ٢٥٤
٣٨ ـ **حتي**، العرب ص ٢٥٨
٣٩ ـ **الاصفهاني ابو الفرج**، كتاب الاغاني ط. دار الكتب مصر. ج ٨ ص ٢٨٤
٤٠ ـ **الطبرى، ابو جعفر محمد بن جرير**، تاريخ الرسل ج ٣ ص ١٦٥٣
فهاوزن، الدولة العربية، ص ٣١٩

٤١ ــ **نبيه عاقل**، خلافة بني ابيه، دمشق سنة ١٩٧٢ ص ٣٢٢
فلهاوزن، الدولة العربية ص ٣٣٤
٤٢ ــ **محمد كرد علي**، خطط الشام ج ٦ ص ٣ وما بعدها
٤٣ ــ **هامتون جب**، دراسات في حضارة الاسلام دار العلم للملايين ــ بيروت سنة ١٩٧٢ ص ١٦٥
٤٤ ــ **ابن النديم**، كتاب الفهرست ص ٢٤٢ ــ ٢٤٣
ترثون، اهل الذمة في الاسلام دار المعارف مصر سنة ١٩٦٧ ص ١٩٦
٤٥ ــ **ترثون**، ن. م ص ١٣٢
٤٦ ــ **الطبرى**، تاريخ الرسل ج ١ ص ٢٦٦٥
٤٧ ــ **ترثون**، اهل الذمه ص ٢١٥
٤٨ ــ **ابن سعد**، الطبقات ص ٥٠
٤٩ ــ **البلاذرى**، فتوح ص ٢٥٢
٥٠ ــ **ابن عساكر**، تاريخ دمشق ج ١ ص ١٧٨
٥١ ــ **الشعراني**، كتاب الميزان ج ٢ ص ١٦٢
٥٢ ــ **الماوردى**، الاحكام السلطانية ص ١٤٥ وما بعدها
٥٣ ــ **عبد العزيز الدورى**، العصر العباسي الاول بغداد سنة ١٩٤٥ ص ٩
ــ **ابو يوسف**، كتاب الخراج ط بولاق ص ٢٣
٥٤ ــ **المقريزى**، الخطط ط. القاهرة سنة ١٣٢٦ ج ٤ ص ٣٦٤ د، ن.م ج ٤ ص ٣٩٥
٥٥ ــ **الجهشيارى**، كتاب الوزراء القاهرة سنة ١٩٣٨ ص ٥١ ــ ٥٢
٥٦ ــ **المقريزى**، خطط ج ٤ ص ٣٩٥
٥٧ ــ **المقريزى**، ن.م ج ٤ ص ٣٩٤
٥٨ ــ **الماوردى**، الاحكام السلطانية ص ١٤٥
٥٩ ــ **الماوردى**، ن.م ص ١٤٦
٦٠ ــ **الماوردى**، ن.م ص ١٤٥
٦١ ــ **ت. آرنولد** الدعوة الى الاسلام ص ٨١ وما بعدها
٦٢ ــ **آرنولد**، ن.م ص ٨٢
٦٣ ــ **الاصفهاني**، الاغاني ج ٧ ص ١٧١
٦٤ ــ **ترثون**، اهل الذمة ص ٢٠٦
٦٥ ــ **آرنولد** الدعوة الى الاسلام ص ٨٤ ــ ٨٥
٦٦ ــ **محمد كرد علي**، خطط الشام ج ٦ ص ٣
٦٧ ــ **فلهاوزن**، الدولة العربية ص ٢٤٥ ؟

٦٨ ـ **آرنولد**، الدعوة الى الاسلام ص ٨٧
٦٩ ـ **ابن النديم**، كتاب الفهرست ص ٣٣٩
٧٠ ـ **الأصفهاني**، الاغاني ج ١٠ ص ١٤٨
٧١ ـ **فازيليق**، العرب والروم ص ١٣
٧٢ ـ عن **آرنولد**، الدعوة الى الاسلام ص ٨٩
٧٣ ـ عن **ارنولد**، ن.م ص ٥٠

محتويات الكتاب

مطابع
الدار المتحدة للنشر
٩٢ شارع البطريركية ص.ب. ٩٠٥٩